الأمثل

في تفسير كتاب الله المُنزَل

مع تهذيب جديد

تأليف العلامة المفسّر

آية الله الشّيخ

ناصر مكارم الشّيرازي

المجلد العاشر

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

الأمثل

الشيرا

لله الم

١٩/ ٢٠

العنكبوت

سبأ

وعات

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

١٩ - ٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

شبكة الفكر
alfeker.net

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

مع تهذيب جديد

تأليف

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

الجزء التاسع عشر

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى المصححة

جميع الحقوق محفوظة و مسجلة للناشر

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣م

يحظر نسخ أو تصوير أو ترجمة أو إعادة التنضيد بشكل كامل أو جزئي أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على إسطوانات ضوئية إلا بموافقة خطيّة من الناشر.

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة
مفرق سنتر زعرور - ص ب : ١١/٧١٢٠
هاتف: ٤٥٠٤٢٦ - ٤٥٠٤٢٧ - فاكس: ٠١/٤٥٠٤٢٧

Published by Alaalami Library
Beirut- Lebanon po. Box 7120
Tel - Fax: 450427
E-mail: alaalami@yahoo.com.

يطلب في العراق : كربلاء - شارع السدرة - تلفون : ٠٧٨٠١٥٦١٩٨٠

سُورَةُ العَنكبُوت

مكيّة وعدد آياتـها تسع وستون

محتوى سورة العنكبوت!

المشهور بين جمع من المحققين أنّ جميع آيات هذه السورة نازلة بمكّة، فيكون محتواها منسجماً مع محتوى السور المكية.

إذ ورد فيها الكلام على المبدأ والمعاد، وقيام الأنبياء السابقين العظام، ووقوفهم بوجه المشركين وعبدة الأصنام والجبابرة والظالمين، وانتصارهم وانهزام هذه الجماعة الظالمة! وكذلك تتحدث هذه السورة عن الدعوة إلى الحق والامتحان الإلهي للبشر، وذرائع الكفار في مجالات مختلفة.

غير أنّ جماعةً من المفسّرين يرون بأنّ إحدى عشرة آية منها نازلة بالمدينة، وهي الآيات الأُولى من السورة، ولعلّ ذلك - كما سنرى - ناتج عن سبب نزول بعض الآيات التي تتحدث عن الجهاد، والإشارة إلى موضوع المنافقين، وهذا ما يناسب السور المدنية!.

ولكن سنرى بعدئذ أنّ هذه الأُمور لا تنافي كون السورة مكيّة.

وعلى كل حال، فتسمية السورة هذه بـ «العنكبوت» مأخوذة من الآية (٤١) من هذه السورة، التي تشبّه عبدة الأوثان من دون الله بالعنكبوت، التي تبني بيتها من نسيجها، وهو أوهن البيوت!!.

وبصورة إجمالية، يمكن أن يقال: إنّ أبحاث هذه السورة تتلخص في أربعة أقسام:

١ - فالقسم الأوّل من السورة يتحدث عن مسألة «الامتحان»، وموضوع «المنافقين»، وهذان الأمران متلازمان لا يقبلان الانفكاك!! لأنّ معرفة المنافقين غير ممكنة إلاّ في طوفان الامتحانات.

٢ - والقسم الثّاني من هذه السورة - في الحقيقة - هو لتسلية قلب النّبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين القلّة الأوائل، عن طريق بيان جوانب من حياة الأنبياء العظام السابقين، أمثال نوح وإبراهيم ولوط وشعيب عليهم السلام وعواقبهم!. إذ واجهوا أعداءً ألِدّاء أمثال نمرود وطواغيت المال البخلاء.

وقد بيّن هذا القسم من السورة كيفية المواجهة، وعُدّتها، وعاقبتها للمؤمنين لتطمئن قلوبهم، ولتكون هذه الآيات إنذاراً للمشركين وعبدة الأوثان، الذين لهم قلوب كالحجارة أو أشدّ قسوة، والظالمين الذين عاصروا النّبي ﷺ.

٣ - والقسم الثّالث من هذه السورة، وهو ما ورد في نهاية السورة بوجه خاص، يتحدث عن التوحيد ودلائل الله في عالم خلقه، والمواجهة مع المشركين، ويدعو الفطرة والوجدان إلى الاحتكام والقضاء الحق!.

٤ - أمّا القسم الرّابع من هذه السورة، ففيه مباحث متنوعة عن عجز الأصنام المصنوعة التي تعبد من دون الله، وعبادها الذين مثلهم كمثل العنكبوت، وبيان عظمة القرآن، ودلائل حقانية نبيّ الإسلام، ولجاجة المخالفين، كما تتعرض لسلسلة من المسائل التربوية أمثال: الصلاة، والعمل الصالح، والإحسان إلى الوالدين، وأسلوب مناقشة المخالفين، وما إلى ذلك.

فضيلة هذه السورة!

ورد في تفسير مجمع البيان عن الرّسول الأكرم ﷺ في فضيلة هذه السورة ما يلي: «من قرأ سورة العنكبوت كان له عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين»[(١)].

ولتلاوة سورتي العنكبوت والروم في شهر رمضان في الليلة الثّالثة والعشرين منه فضيلة قصوى، حتى أنّنا نقرأ في هذا الصدد حديثاً للإمام الصادق عليه السلام يقول: «من قرأ سورة العنكبوت والروم في شهر رمضان ليلة ثلاث وعشرين فهو والله من أهل الجنّة، لا أستثني فيه أبداً... ولا أخاف أن يكتب الله عليّ في يميني إثماً، وإن لهاتين السورتين من الله مكاناً»[(٢)].

ولا شك أن محتوى هاتين السورتين الغزير، والدروس العملية المهمّة منها في التوحيد، وما إلى ذلك، كلّه كاف لأن يسوق أيّ إنسان ذي لب وفكر وعمل إلى الجنّة والخلود فيها.

بل لو استلهمنا من بداية سورة العنكبوت وآياتها الأُولى العظة فلعلنا نكون مشمولين في قسم الإمام الصادق عليه السلام... تلك الآية التي تعرض الامتحان لعامّة الناس دون

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٨، ص٢٧١، طبقاً لتفسير نور الثقلين، ج٤، ص١٤٧.

(٢) «ثواب الأعمال» «طبقاً لتفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٤٧» من الجدير بالذكر أنّنا نكتب هذا القسم من هذا التّفسير في بداية ليلة ٢٣ من شهر رمضان لسنة ١٤٠٣ هجرية.

استثناء ليفتضح المبطلون والكاذبون. . . فكيف يمكن أن يصدّق الإنسان بهذا الامتحان العظيم وهو لم يهيىء نفسه له!؟. ولم يكن من أهل التقوى والورع؟!

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣﴾

سبب النّزول

طبقاً لما نقل بعض المفسّرين، أنّ الآيات الإحدى عشرة الأُولى من بداية سورة العنكبوت نزلت في المدينة في شأن المسلمين الذين كانوا في مكّة وغير راغبين بالهجرة إلى المدينة. . وكانوا قد تلقوا رسائل من إخوة لهم في المدينة جاء فيها: «إن الله لا يقبل إقراركم بالإيمان حتى تهاجروا إلى المدينة» فصمموا على الهجرة وخرجوا من مكّة، فتبعهم جماعة من المشركين والتحموا بالقتال فقتل منهم جماعة وجرح آخرون «وربّما سلّم بعضهم نفسه ورجعوا إلى مكّة».

وقال بعضٌ: إنّ الآية الثّانية من هذه السورة في شأن «عمار بن ياسر» وجماعة من المسلمين الأوائل، الذين آمنوا برسالة النّبي ﷺ ولاقوا صنوف التعذيب من الأعداء.

كما قال بعضهم: إنّ الآية الثامنة نزلت في إسلام «سعد بن أبي وقاص»!

غير أنّ التدقيق في الآيات يكشف عن أنّه لا دليل على ارتباط الآيات مع هجرة أُولئك، سوى أنّ الآيات تبيّن الضغوط على المؤمنين في ذلك الوقت من قبل أعدائهم وأحياناً من الآباء المشركين والأُمهات المشركات ضدّ أبنائهم المؤمنين.

فهذه الآيات تشجّع المسلمين على الثبات والرجولة والاستقامة أمام أمواج الضغوط من قبل الاعداء. . وإذا ورد الحديث فيها على الجهاد فالمراد منه - أيضاً - الجهاد في هذا المجال، لا الجهاد المسلّح الذي تقوم به الجماعة، فذلك شُرّع في المدينة.

وإذا ورد الحديث عن المنافقين في هذه الآيات، فلعلّه إشارة إلى المسلمين الضعاف في إيمانهم، الذي كان يتفق وجودهم بين المسلمين في مكّة أحياناً. . . فتارة هم مع المسلمين وتارة مع المشركين، وكانوا يميلون مع الكفة الراجحة منهما.

وعلى كل حال، فارتباط الآيات بعضها ببعض وانسجامها توجب أن تكون هذه

السورة «جميعها» مكية، وما ذكرناه من الرّوايات المتقدمة المتناقضة في ما بينها، لا يمكن أن تقطع هذا الارتباط!

التّفسير

الامتحان الإلهي سنّة خالدة

نواجه في بداية هذه السورة الحروف المقطعة [ألف - لام - ميم] أيضاً.. وقد بيّنا تفسيرها عدة مرات من وجوه مختلفة(١).

وبعد هذه الحروف المقطعة يشير القرآن إلى واحدة من أهم مسائل الحياة البشرية، وهي مسألة الشدائد والضغوط والامتحان الإلهي.

فيقول أوّلاً: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾(٢).

ثمّ يذكر القرآن هذه الحقيقة - بعد الآية المتقدمة مباشرة، وهي أنّ الامتحان سنّة إلهيّة دائمية، فالامتحان لا يختص بكم - أيّها المسلمون - بل هو سنة جارية في جميع الأمم المتقدمة، إذ يقول: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

وهكذا ألقينا بهم أيضاً في أفران الامتحانية الشديدة الصعبة... ووقعوا أيضاً - تحت تأثير ضغوط الأعداء القُساة والجهلة المعاندين.. فساحة الامتحان كانت مفتوحة دائماً، واشترك فيها جماعة كثيرون.

وينبغي أن يكون الأمر كذلك، لأنّه في مقام الادعاء يمكن لكل أحد أن يذكر عن نفسه أنّه أشرف مجاهد وأفضل مؤمن وأكثر الناس تضحيةً.. فلابدّ من معرفة قيمة هذه الادعاءات بالامتحان، وينبغي أن تعرف النيات والسرائر إلى أي مدى تنسجم مع هذه الادّعاءات.؟!

أجل ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

من البديهي أنّ الله يعرف جميع هذه الأُمور جيداً - قبل أن يخلق الإنسان - إلاّ أنّ المراد من العلم هنا هو التحقق العيني للمسائل... ووجودها الخارجي، وبتعبير آخر:

---

(١) يراجع بداية تفسير سورة البقرة وبداية سورة آل عمران وبداية تفسير سورة الأعراف من التّفسير الأمثل.

(٢) «يفتنون» مشتق من «الفتنة» وهي في الأصل وضع الذهب في النّار لمعرفة مقدار خلوصه، ثمّ أطلق هذا التعبير على كل امتحان ظاهري ومعنوي.. «لمزيد الإيضاح يراجع تفسير الآية (١٩٣) من سورة البقرة».

ظهور الآثار والشواهد العملية. . . ومعناه أنّه ينبغي أن يرى علم الله في هذه المجموعة عملياً في الخارج، وأن يكون لها تحقق عيني، وأن يكشف كلٌّ عمّا في نفسه وداخله. . . هذا هو العلم حين يطلق على مثل هذه المسائل وينسب إلى الله!.

والدليل على هذه المسألة واضح - أيضاً - لأنّ النيّات والصفات الباطنية إذا لم تحقق في عمل الإنسان وتكون عينيّة، فلا مفهوم للثواب والجزاء والعقاب!.

وبعبارة أُخرى: فإنّ هذا العالم مثله كمثل «المدرسة» أو «المزرعة» [والتشبيهات هذه واردة في متون الأحاديث الإسلامية] والمنهج هو أن تتفتح الاستعدادات وتربّى القابليات وتكون فعلية بعد ما كانت بالقوّة.

وينبغي أن تنمو البذور في هذه المدرسة وأن تطلع البراعم من تحت الأرض فتحاط بالرعاية والعناية لتكون شجيرات صغيرة، ثمّ تكون أشجاراً ذوات أصول قوية وأغصان ومثمرّة على تعاقب الزمن. . وهذه الأُمور لا تكون إلاّ بالامتحان والاختبار.

ومن هنا نعرف أن الامتحانات الإلهيّة ليست لمعرفة الأفراد، بل هي من أجل تربية الاستعدادات ورعايتها، لتتفتح وتكون بصورة أحسن.

فعلى هذا. . . لو أردنا نحن أن نمتحن شيئاً، فهو لأجل كشف المجهول، لكنّ امتحان الله ليس لكشف المجهول، لأنّه أحاط بكل شيء علماً. . . بل هو لتربية الاستعدادات وإيصال مرتبة «القوة» إلى «الفعل»[١].

بحث

الامتحانات في وجوه مختلفة

وبالرّغم من أنّ بيان عمومية الامتحان لجميع الأمم والأقوام كان له أثر كبير فعّال بالنسبة لمؤمني مكّة، الذين كانوا يمثلون الأقلية في ذلك العصر، وكان التفاتهم إلى هذه الحقيقة سبباً في وقوفهم بوجه الأعداء بصبر واستقامة. . . إلاّ أنّ ذلك لم يكن منحصراً في مؤمني مكّة، بل إنّ كل جماعة وطائفة لها نصيب من هذه السنّة الإلهيّة فهم شركاء فيها، إلاّ أنّ الامتحانات الإلهيّة لهم تأتي بصور مختلفة.

---

(١) لمزيد الإيضاح في مسألة الامتحان الإلهي وجوانبها المختلفة، يراجع التّفسير الأمثل ذيل الآية (١٥٧) من سورة البقرة حيث بيّناه بتفصيل!

فالجماعة الذين يعيشون في محيط ملوث بالمفاسد والوساوس تحيط بهم من كل جانب، فإنّ امتحانهم الكبير في مثل هذا الجوّ والظروف، هو أن لا يتأثروا بلون المحيط وأن يحفظوا أصالتهم ونقاءهم.

والجماعة الذين يعيشون تحت ضغط الحرمان والفقر، يرون بأنّهم لو صمموا على ترك رأس مالهم الأصيل «الإيمان» فإنّهم سرعان ما يتخلصون من الفقر والحرمان لكن ثمن ذلك هو فقدانهم للإيمان والتقوى والكرامة والحرية والشرف، فهنا يكمن امتحانهم..

وجماعة آخرون على عكس أُولئك غرقى في اللذائذ والنعم، والإمكانات المادية متوفرة لديهم من جميع الوجوه... ترى هل يؤدون في مثل هذه الظروف الشكر على النعم... أم سيبقون غرقى في اللذائذ والغفلة وحب الذات والأنانية... غرقى الشهوات والاغتراب عن المجتمع وعن أنفسهم!

وجماعة منهم كالمتغربين في عصرنا، يرون بعض الدول بعيدة عن الله والفضيلة والأخلاق حقّاً، ولكنّها تتمتع بالتمدن المادي المذهل والرفاه الاجتماعي، هنا تجذب هؤلاء المتغرّبين قوّة خفية إلى سلوك هذا النوع من الحياة أو سحق جميع القيم والأصول والأعراف التي يعتقدون بها، ويبيعون أنفسهم أذلاء عملاء لتلك الدول، ليوفروا لهم ولمجتمعهم مثل هذه الحياة... وهذا نوع آخر من الامتحان.

المصائب، والآلام والهموم، والحروب والنزاعات، والقحط والغلاء، وما تثيره الحكومات الأنانية لتجذبهم إليها وتستعبدهم به وأخيراً الأمواج النفسية القوية والشهوات، كلّ منها وسيلة للامتحان في طريق عباد الله، والسائرين في الميادين التي تتميز فيها شخصية الأفراد وتقواهم وإيمانهم وطهارتهم وأمانتهم وحريتهم.. الخ.

ولكن لا طريق للانتصار في هذه الامتحانات الصعبة لاجتيازها إلاّ الجدّ والسعي المستمر، والاعتماد على لطف الله سبحانه.

ومن الطريف أنّنا نقرأ حديثاً عن أحد المعصومين في أصول الكافي في تفسير الآية ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ يقول فيه: «يُفتنون كما يفتن الذهب، ثمّ قال يخلصون كما يخلص الذهب»[1].

---

(١) أُصول الكافي، ج١، ص٣٧٠، طبقاً لما نقل في تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٤٨.

وعلى كل حال، فإن طالبي العافية الذين يظنون أنّ إظهار الإيمان كاف بهذا المقدار ليكونوا في صفوف المؤمنين وفي أعلى عليين في الجنّة مع النّبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فهم في خطأ كبير.

وعلى حدّ تعبير أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: «والذي بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة ولتغربلن غربلة، ولتساطن سوط القدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم»[1].

قال عليه السلام: هذا الكلام والناس جديدو عهد ببيعته، وينتظرون ما سيفعل ببيت المال، أيقسمه حسب الجاه والمقامات بحسب المعايير السابقة، فيبعّض في المال، فيعطى الكثير لبعضهم بحسب المقام، والقليل للبعض الآخر!.. أم سيسير معهم بالعدل المحمّدي؟

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾

التّفسير

لا مهربَ من سلطان الله

كان الكلام في الآيات السابقة عن امتحان المؤمنين الشامل، والآية الأُولى من الآيات أعلاه تهديد شديد للكفّار والمذنبين، لئلا يتصوروا أنّهم حين يضيّقون على المؤمنين ويضغطون عليهم دون أن يعاقبهم الله فوراً، فإنّ الله غافل عنهم أو عاجز عن عذابهم، تقول الآية هذه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

فلا ينبغي أن يغرّهم إمهال الله إيّاهم فهو امتحان لهم، كما أنّه فرصة للتوبة والعودة إلى ساحة الله تعالى.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٦.

وما ذهب إليه بعض المفسّرين من أنّ هذه الآية هي إشارة إلى المؤمنين المذنبين، فلا يناسب هذا التّفسير سياق الآيات بأي وجه، بل جميع القرائن تدل على أنّ المقصود بالآية هم المشركون والكفّار.

ثمّ يتحدث القرآن مرّة أُخرى عن سيرالمؤمنين ومناهجهم، ويقدّم النصح لهم، فيقول: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ﴾ فعليه أن يعمل ما في وسعه على امتثال الأوامر الإلهيّة والأحكام الشرعية، لأنّ الوقت المعيّن سيأتي حتماً ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ﴾(١).

أجل، إنّ وعد الله هذا لا يقبل التخلّف، هو طريق لابدّ من اجتيازه، ثمّ إنّ الله سبحانه يسمع أحاديثكم، وهو مطلع على أعمالكم ونيّاتكم...

لأنّه ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وفي معنى قوله تعالى: ﴿لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ وما المقصود منه؟ فسّره بعض المفسّرين بملاقاة الملائكة، كما فسّره البعض بملاقاة الحساب والجزاء.. وبعض بملاقاة الحكم وأمر الحق.. وآخرون بأنّه كناية عن يوم القيامة.. في حين أنّه لا دليل على أن تفسّر هذه الآية بهذه المعاني المجازية.

وينبغي القول أن «لقاء الله» في يوم القيامة ليس لقاءً حسيّاً بل نوعاً من الشهود الباطني، لأنّ الستائر الضخمة لعالم المادة تنكشف عن عين روح الإنسان، وتبدو في حالة الشهود للإنسان!

وكما يقول العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان: إنّ المقصود من لقاء الله، هو أنّ العباد يكونون في موقف لا يكون بينهم وبين الله حجاب، لأنّ طبيعة يوم القيامة هي ظهور الحقائق كما يقول القرآن: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ سورة النور الآية ٢٥(٢).

أمّا الآية التي تليها، فهي - في الحقيقة - تعليل لما سبق بيانه في الآية الآنفة، إذ تقول: إنّ على المؤمنين الذين يرغبون في لقاء الله السعي بما أوتوا من قدرة وقابلية من أجل ذلك فإنّ نتيجة كل ذلك السعي والجهاد وتحمل الشدائد ترجع ثمارها للعامل نفسه: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) هذه الجملة - في الحقيقة - فيها حذف، والتقدير «من كان يرجو لقاء الله فيبادر بالطاعة قبل أن يلحقه الأجل» أو «من كان يرجو لقاء الله ويقول آمنت بالله فليقله مستقيماً صابراً عليه فإنّ أجل الله لآت».

(٢) بحثنا المراد من لقاء الله في الجزء الأوّل ذيل الآية (٤٦) من سورة البقرة فليراجع هناك أيضاً.

إنّ خطة الامتحان الإلهي هي الجهاد، جهاد النفس وهواها، وجهاد الأعداء الألداء، لحفظ الإيمان والتقوى والطهارة، ونفع ذلك يعود للإنسان. . . وإلاّ فإنّ الله وجود غير متناه من جميع الوجوه، وغير مفتقر لأي شيء حتى يتم بواسطة طاعة الناس أو عبادتهم جبرانه، ولا ينقصه شيء حتى يكمله الآخرون، فكل ما عندهم فمنه، وليس لهم شيء من أنفسهم!.

ويتّضح هنا من هذا البيان أنّ الجهاد لا يعني بالضرورة جهاد العدوّ المسلّح، بل يحمل معناه اللغوي الذي يشمل كل أنواع السعي والجدّ لحفظ الإيمان والتقوى، وتحمل أنواع الشدائد، والمواجهات «الموضعية» للأعداء الألدّاء والحاقدين.

والخلاصة أنّ جميع منافع هذا الجهاد ترجع للشخص المجاهد نفسه، وهو الذي يفوز بخير الدنيا والآخرة في جهاده، وحتى إذا كان المجتمع يستفيد من بركات هذا الجهاد، فهو في مرحلة أُخرى بعده.

فعلى هذا، متى ما وفّق أي إنسان إلى الجهاد فنال نصيباً منه، فعليه أن يشكر الله على هذه النعمة!.

وآخر آية - محل البحث - توضيح لما تقدم ذكره في الآية السابقة بشكل مبهم تحت عنوان الجهاد، فهنا يكشف القرآن حقيقة الجهاد فيقول: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

إذن أوّل فائدة كبيرة لهذا الجهاد الكبير (وهو الإيمان والعمل الصالح) هي تكفير الذنوب وسترها على الإنسان، كما أنّ الثواب سيكون من نصيبهم، كما يقول القرآن في نهاية هذه الآية أيضاً: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

كلمة «نكفّر» مشتقة من مادة «تكفير» ومعناها في الأصل التغطية والستر، والمقصود بتغطية الذنوب هنا عفو الله وصفحه!

والتعبير بـ ﴿أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مع أنّ الله يجزي على الأعمال الصالحة - حسنةً كانت أم أحسن لعله إشارة إلى أنّنا نجازي جميع أعمالهم الصالحة والحسنة بأحسن الجزاء، أي إذا كانت بعض أعمالهم أحسن وبعضها حسناً، فنحاسب الجميع بالأحسن، وهذا هو معنى تفضل الله سبحانه.

وفي آيات أُخرى من القرآن، كالآية (٣٨) من سورة النور وردت الإشارة إلى ذلك أيضاً ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾

سبب النّزول

وردت روايات مختلفة في شأن نزول الآية الآنفة الذكر، ومضمون الجميع واحد وهي أنّ بعض الرجال الذين كانوا في مكّة وأسلموا(١)، حين سمعت أمهاتهم بذلك صممن على أن لا يتناولن طعاماً ولا يشربن ماءً حتى يرجع أبناؤهن عن الإسلام، وبالرغم من أنّ أية واحدة من هؤلاء الأمهات لم تف بقولها، ورجعت عن إضرابها عن الطعام، إلاّ أنّ الآية المتقدمة نزلت لتوضح للجميع أُسلوب المعاملة بين الأبناء والآباء والأُمهات، في مجال الكفر والإيمان.

التّفسير

أفضل الوصايا بالنسبة للوالدين

إنّ واحداً من أهم الامتحانات الإلهيّة، هي مسألة «التضاد» بين خط الإيمان والتقوى وبين علاقة العاطفية والقرابة.. والقرآن في هذا المجال - يوضح وظيفة المسلمين بجلاء!

في البداية يتحدث عن قانون كلّي يستمد من جذور العواطف الإنسانية وردّ الجميل فيقول: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾.

وبالرغم من أنّ هذا حكم تشريعي، ولكن هذه المسألة قبل أن تكون «لازماً» تشريعياً، لها وجود في فطرة الإنسان بشكل قانون تكويني، وخاصّة أنّ التعبير بـ«الإنسان» هنا يلفت النظر.. فهذا القانون لا يختصُّ بالمؤمنين، بل كلّ من كان جديراً بأن يحمل اسم الإنسان ينبغي أن يكون عارفاً بحق الأبوين... وأن لا ينسى تكريمهما واحترامهما والإحسان إليهما طيلة عمره.. وإن كان كل ذلك لا يفي بحقوقهما!.

---

(١) ورد في بعض الروايات اسم (سعد بن أبي وقاص) وفي بعضها اسم (عياش بن أبي ربيعة المخزومي).

بعد ذلك، ومن أجل أن لا يتبادر إلى الذهن أنّ العلاقة العاطفية بالوالدين يمكن أن تكون حاكمةً على العلاقة بين الإنسان وربّه وإيمانه، يأتي استثناء صريح - ليوضّح هذا الموضوع في الآية، فيقول تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾.

والتعبير بـ ﴿جَٰهَدَاكَ﴾ مفهومه بذل قصارى جهدهما وإصرارهما ومنتهى سعيهما للحيلولة بين الولد وبين الإيمان بالله.

والتعبير بـ ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ إشارة إلى عدم منطقية الشرك، لأنّ الشرك لو كان صحيحاً واقعاً لكان عليه دليل بيّن.

وبتعبير آخر: متى ما لم يعلم الإنسان بشيء فلا ينبغي أن يتبعه فكيف إذا كان يعلم ببطلانه؟

فهذا الاتباع هو اتّباع للجهل، فلو أنّ الوالدين أمراك باتباع الجهل فلا تطعهما.

وأساساً فإنّ التقليد الأعمى خطأ حتى ولو كان في مورد الإيمان، فكيف إذا كان هذا التقليد للكفر والشرك!.

وهذه الوصية وردت - أيضاً - في سورة لقمان مع إضافة ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[١] فمع عدم قبول دعوتهما للشرك، ينبغي عليك احترامهما والإحسان إليهما والإرفاق بهما.

ولا ينبغي أن يتصور أحد أنّ وجوب مخالفة الأبوين فيما لو دعوا ولديهما إلى الشرك دليل على جواز الإساءة لهما، فهذا يؤكّد منتهى تأكيد الإسلام على احترام الأبوين.

وبهذا - يستفاد من هذا المنطلق أصل كلي: أي إنّ شيئاً لايمكن أن يكون حاكماً على علاقة الإنسان بالله، لأنّها مقدمة على كل شيء، حتى على علاقته بأبويه التي هي أقرب العلائق إليه.

والحديث المعروف «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[٢] ... الذي نقل عن أمير المؤمنين علي عليه السلام يعطينا معياراً واضحاً لهذه المسائل!.

ثمّ يضيف تعالى في نهاية الآية: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وأجازيكم دون غمط ونقص في الثواب أو العقاب.

(١) سورة لقمان، الآية: ١٥.
(٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار - الكلمة ١٦٥.

وهذه الجملة - في الحقيقة تهديد لأُولئك الذين يسيرون في طريق الشرك، والذين يدعون الآخرين إلى هذا الطريق.. لأنّها تقول بصراحة: إنّ الله يرى أعمالكم ويحفظهما ثمّ يعيدها إليكم «في معادكم».

والآية التي بعدها تؤكّد الحقيقة في أُولئك المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وتكرر هذا المضمون أيضاً ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾.

وأساساً فإنّ عمل الإنسان يترك في الإنسان أثره.. فالعمل الصالح يصبغ الإنسان بلونه ويدخله في زمرة «الصالحين».

كما أنّ العمل السيّىء يدخله في زمرة «الخاطئين والمسيئين».

ولكن ما الغاية من هذا التكرار؟!

قال بعضهم: في الآيات السابقة إشارة إلى أُولئك الذين يسلكون طريق الحق، أمّا هذه الآية فهي إشارة إلى أُولئك الذين هم الأدلاء والهداة إلى طريق التوحيد، لأنّ التعبير بـ﴿الصَّالِحِينَ﴾ ورد في كثير من الأنبياء، إذ كانوا يطلبون من الله أن يدخلهم في الصالحين.

كما يحتمل أيضاً، أنّ الكلام في الآيات المتقدمة كان عن غفران الذنوب وتكفير السيئات وما يستحقه المؤمنون من الجزاء، إلاّ أنّه هنا إشارة عن مقامهم الرفيع الذي هو في نفسه ثواب آخر! فهم في صف الصالحين، صف الأنبياء والصديقين والشهداء، وهم جلساؤهم ورفقاؤهم في الجنان.

بحث

الإحسان إلى الوالدين

ليست هذه هي المرّة الأُولى التي يشير فيها القرآن إلى هذه المسألة الإنسانية المهمّة، فقد أشار إليها في سورة الإسراء الآية (٢٣) من قبل، وسترد الإشارة إليها بعد في سورة لقمان الآيتين (١٤) و(١٥) وسورة الأحقاف الآية (١٥) أيضاً.

وفي الحقيقة إنّ الإسلام يدعو إلى احترام الوالدين في أسمى مراتبه، حتى مع كونهما مشركين، أو عند دعوتهما إلى الشرك الذي هو أبغض الأشياء في نظر الإسلام، فإنّ الإسلام يوجب احترامهما في الوقت الذي يمنع من إطاعتهما في قبول الشرك والاستجابة إلى ذلك!.

وهذا في الواقع واحد من الامتحانات الإلهيّة العظيمة... التي أشير إليها في بداية هذه السورة، لأنّهما قد يبلغان من العمر أحياناً يصعب معه تحمّلهما... فهنا ينبغي على الأبناء أن يؤدوا امتحانهم في مجال ردّ الإحسان وإطاعة أمر الله... وأن يحافظوا على والديهما بأحسن وجه!.

نقرأ في حديث عن النّبي ﷺ أنّ رجلاً جاء إليه فقال: «يا رسول الله، من أبرّ؟ قال: أمّك: قلت: ثمّ من؟ قال: أمّك. قلت: ثمّ من؟ قال: ثمّ أمّك. قلت: ثمّ من؟ قال: ثمّ أباك ثمّ الأقرب فالأقرب»(١).

وفي حديث آخر - وهو وارد في كثير من الكتب - أنّ النّبي ﷺ قال: «الجنّة تحت أقدام الأمّهات»(٢). فلا بدّ للوصول إلى الجنّة من الخضوع والتذلل في مقابلها كتراب الأقدام.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾

التّفسير

شركاء في الانتصار أمّا في الشدّة فلا!

حيث إنّ الآيات المتقدمة تحدثت عن المؤمنين الصالحين والمشركين بشكل صريح، ففي الآيات الأُولى من هذا المقطع يقع الكلام على الفريق الثّالث - أي المنافقين - فيقول القرآن فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ فلا يصبرون على الأذى والشدائد، ويحسبون تعذيب المشركين لهم وأذى

(١-٢) تفسير مجمع البيان، ج٨، ص٢٧٤ ذيل الآيات محل البحث.

الناس أنّه عذاب من الله ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾ فنحن معكم في هذا الافتخار والفتح.

ترى هل يظنون أنّ الله خفيّ عليه ما في أعماق قلوبهم فلا يعرف نيّاتهم ﴿أَوَ لَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

ولعل التعبير بـ «آمنا» بصيغة الجمع، مع أنّ الجملة التي تليه جاءت بصيغة المفرد، هو من جهة أنّ هؤلاء المنافقين يريدون أن يقحموا أنفسهم في صف المؤمنين، فلذلك يقولون «آمنا» أي آمنا كسائر الناس الذين آمنوا.

والتعبير بـ ﴿أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾ معناه أوذي في سبيل الله، أي إنّهم قد يتعرض لهم العدوّ - أحياناً - وهم في سبيل الله والإيمان فيؤذيهم.

الطريف هنا أنّ القرآن يعبر عن مُجازاة الله بـ «العذاب» وعن إيذاء الناس بـ «الفتنة» وهذا التعبير إشارة إلى أنّ إيذاء الناس ليس عذاباً - في حقيقة الأمر - بل هو امتحان وطريق إلى التكامل.

وبهذا فإنّ القرآن يعلمهم أن لا يقايسوا بين هذين النوعين «العذاب» و«الإيذاء» ولاينبغي أن يتنصّلوا من «الإيمان» بحجّة أنّ المشركين والمخالفين يؤذونهم فإنّ هذا الإيذاء جزء من منهج الامتحان الكلي في هذه الدنيا.

وهنا ينقدح سؤالٌ وهو: أي نصر جعله الله حليف المسلمين ونصيبهم، ليدعي المنافقون أنّهم شركاء في هذا النصر مع المسلمين؟!

ونقول في الجواب: إنّ الجملة الآنفة الذكر جاءت بصيغة «الشرط» ونعلم أنّ الجملة الشرطية لا دليل فيها على وجود الشرط، بل مفهومها هو أنّه لو اتفق إن كان النصر حليفكم في المستقبل، فإنّ هؤلاء المنافقين - ضعاف الإيمان - يرون أنفسهم شركاء في هذا النصر!

إضافة إلى كل ذلك فإنّ المسلمين في مكّة كانت لهم انتصارات على المشركين غير عسكرية بل انتصارات في التبليغ و«الإعلام» ونفوذ في الأفكار العامة وتوغّل الإسلام في طبقات المجتمع...

ثمّ بعد هذا كله فإنّ التعبير بالإيذاء مناسب لمحيط مكّة... وإلاّ فقلّ أن اتفق مثل هذا الإيذاء في محيط المدينة.

وقد تنوّر واتضح - ضمناً - هذا الموضوع الدقيق، وهو أنّ التعبير بالمنافق لا

يختص بمن ليس في قلبه إيمان اطلاقاً ويدعي الإيمان، بل حتى الأفراد من ضعاف الإيمان الذين يتراجعون عن عقيدتهم نتيجة الضغوط والتأثير بفلان وفلان فهؤلاء أيضاً يُعدون من المنافقين. . والآية محل البحث - كما يظهر - تتحدث عن هذا النوع من المنافقين، وتصرح بأنّ الله مطلع على نيّاتهم وعليم بسرائرهم.

وفي الآية التالية - لمزيد التأكيد - يضيف القرآن قائلاً: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾.

فلو تصوروا أنّهم إذا أخفوا الحقائق فإنّهم سيكونون في منأى عن علم الله فهم في خطأ كبير جدّاً.

ونكرر هنا - مرّة أُخرى أنّ التعبير بالمنافقين ليس دليلاً على أنّ هذه الآيات نزلت في المدينة، صحيح أنّ مسألة النفاق تقع عادة بعد انتصار جماعة والاستيلاء على الحكومة. . . حيث يغير المخالفون أقنعتهم ويعملون في الخفاء حينئذ، إلاّ أنّ للنفاق - كما قلنا - معنى واسع، ويشمل حتى الأفراد ضعاف الإيمان الذين يبدّلون عقيدتهم لأدنى مكروه يصيبهم.

والآية الأُخرى بعدها تشير إلى منطق المشركين الخاوي والملتوي، الذي لا يزال موجوداً في طبقات المجتمع الواسعة فتقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾(١).

واليوم نرى كثيراً من الخبثاء يقولون للآخرين عند دعوتهم إلى أمر: إن كان فيه ذنب فعلى رقابنا!.

في حين أنّنا نعلم أنّه لا يمكن لأحد أن يتحمل وزر أحد، وأساساً فإنّ هذا العمل ليس معقولاً وليس منطقياً. . . . فالله عادل سبحانه ولا يؤاخذ أحداً بجرم الآخر.

ثمّ بعد كل ذلك فإنّ الإنسان لا تسقط عنه المسؤولية في العمل بمثل هذه الكلمات، ولا يمكن له التنصّل منها. . . وخلافاً لما يتوهمه بعض الحمقى فإنّ مثل هذه التعبيرات لا تنقص من عقابهم حتى بمقدار رأس الإبرة.

---

(١) جملة «ولنحمل» فعل دالّ على الأمر، وقد ولّد هذا التعبير إشكالاً عند بعض المفسّرين، وهو: هل يمكن أن يأمر الإنسان نفسه؟! ثمّ قالوا في رد هذا الإشكال. إنّ هذا الأمر في حكم القضية الشرطية أي «إن اتبعتمونا حملنا خطاياكم» - كما في تفسير الرّازي - إلاّ أنّه في اعتقادنا لا يمنع أن يأمر الإنسان نفسه، والآمر والمأمور شخص واحد، إلاّ أنّه ذو اعتبارين. . . «فتأمل بدقّة».

ولذلك فلا يعتدّ بمثل هذا الكلام في أية محكمة كانت ولا يقبل من المذنب أن يقول: إنّ فلاناً تحمّل عنّي الوزر وجعله في رقبته!.

صحيح أنّ ذلك الإنسان حثه على الإجرام ودفعه إلى اقترافه، فهو شريكه، إلاّ أنّ هذا الاشتراك في الجريمة لا يخفّف عنه المسؤولية!

لذلك فإنّ القرآن يقول بصراحة في الجملة التالية ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

هنا ينقدح السؤال التالي.. «إنّ الصدق والكذب هما في موارد الجمل الخبرية، في حين أنّ هذه الجملة إنشائية ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾وليس في الجملة الإنشائية صدق أو كذب، فلم عبّر القرآن عنهم بأنّهم «كاذبون»؟!

والجواب على هذا السؤال يتّضح من البيان الذي ذكرناه سابقاً، وهو أنّ الجملة الخبريّة هنا تتحول إلى جملة شرطية، ومفهومها أنّه إن اتبعتمونا حملنا خطاياكم وآثامكم، ومثل هذه الجملة تقبل الصدق والكذب(١).

وبعد ذلك، ومن أجل أن لا يتصور أنّ هؤلاء الدعاة للكفر والشرك وعبادة الأصنام والظلم، لا شيء عليهم من العقاب لهذا العمل، فإنّ القرآن يضيف في الآية التالية قائلاً: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾.

وثقل الذنب هذا... هو ثقل ذنب الإغراء والإغواء وحث الآخرين على الذنب، وهو ثقل السنّة التي عبّر عنها النّبي ﷺ فقال: «من سنّ سنةً سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزره شيء!»(٢).

المهم أنّهم شركاء في آثام الآخرين، وإن لم ينقص من وزر الآخرين وإثمهم مقدار من رأس الإبرة.

وتختتم الآية بالقول: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

وينقدح هنا سؤال آخر وهو: ما المراد من هذا الافتراء الذي يسألون عنه؟!

---

(١) لدينا طريق آخر على الجواب على هذا السؤال، لأنّنا نعتقد وجود الصدق والكذب في الجملة الإنشائية أيضاً، ويلاحظ هذا في التعبيرات العرفية أيضاً... لأنّ الشخص - مثلاً - إذا أمر بشيء ما فهو دليل على تعلقه به، وحين نقول: إنّه يكذب، فمعناه أنّه لم يطلبه «فلاحظوا بدقّة».

(٢) التّفسير الكبير للرازي، ج ٢٥، ص ٤٠.

ولعل ذلك إشارة إلى الافتراءات التي نسبوها إلى الله، وكانوا يقولون: «إنّ الله أمرنا أن نعبد الأصنام!».

أو أنّه إشارة إلى كلامهم الذي كانوا يقولون: «ولنحمل خطاياكم».

لأنّهم كانوا يدّعون أنّ مثل تلك الأعمال لا يترتب عليها إثم... وأنّ هذا الكلام كان افتراءً، وينبغي أن يجيبوا على ما يسألون بصدده!

أو أنّه يقال لهم على نحو الحقيقة والواقع يوم القيامة: هلموا لتحملوا أثقال الآخرين، فيمتنعون من ذلك ويظهر كذبهم وافتراءهم.... أو أنّ ظاهر كلامهم كان يعني أنّ كلّ إنسان يمكن أن يتحمل وزر الآخر ويكون مسؤولاً عنه، في حين أنّ هذا الكلام كذب وافتراء محض أيضاً، وكل إنسان مسؤول عن عمله!.

مسألتان

١ - السنن الحسنة والسنن السيئة

التخطيط لعمل ما - أو لمنهج ما - في المنطق الإسلامي له أثرهُ.. ويحمل صاحبه المسؤولية عنه - شاء أم أبى - ويكون مشاركاً للآخرين الذين يعملون بما خططه وسنّه، لأنّ أسباب العمل هي من مقدمات العمل، ونعرف أنّ كل شخص يكون دخيلاً في مقدمة عمل إنسان آخر فهو شريكه أيضاً، فحتى لو كانت المقدمة بسيطة، إلاّ أنّ ذلك الشخص شريك مع ذي المقدمة.

والشاهد على هذا الكلام حديث منقول عن الرّسول الأكرم ﷺ وهو أنّ سائلاً جاء والنّبي ﷺ في طائفة من صحابته فطلب العون فلم يجبه أحد، ثمّ قام إليه رجل وناوله شيئاً فقام. الآخرون ورغّبوا في إعانته فقال النّبي ﷺ: «من سنَّ خيراً فاستن به كان له أجره ومن أجور من تبعه غير منتقص من أجورهم شيئاً، ومن سنّ شرّاً فاستن به كان عليه وزره ومن أوزار من تبعه غير منتقص من أوزارهم شيئاً»(١).

وقد ورد نظير هذا الحديث بعبارات مختلفة في مصادر الحديث عند الشيعة والسنة وهو حديث مشهور.

٢ - جواب على سؤال

أثار بعضهم هنا هذا السؤال، وهو أنّنا نلاحظ أحياناً في القوانين الإسلامية أنّ الدية

---

(١) تفسير الدر المنثور.

تقع على شخص آخر. . . فمثلاً في حالة قتل «الخطأ المحض» تقع الدية على العاقلة «والمراد بالعاقلة أقارب الرجل الذكور من طرف الأب. . . الذين تتوزع فيما بينهم دية قتل الخطأ المحض، ويدفع كلٌّ منهم قسماً حتى تتمّ الدية!».

أو ليست هنا منافاة بين هذه المسألة وبين الآيات المتقدمة؟

وفي الجواب على هذا السؤال نقول: إنّ «ضمان العاقلة» في الحقيقة نوع من التأمين الإلزامي المتقابل بين أعضاء العشيرة الواحدة.

فالإسلام - من أجل أن لا يتحمل الفرد الواحد العبء الثقيل للدية - ألزم أفراد العشيرة بأن يضمن بعضهم بعضاً في ديّة قتل الخطأ، وأن يقسموا المبلغ فيما بينهم فيدفع كل فرد منهم حصّة.

فقد يُخطىء اليوم أحدهم، وغداً قد يرتكب هذا الخطأ شخص آخر من العشيرة. . . «لمزيد الإيضاح نوكل المراجعة إلى الكتب الفقهية، بحث الديات».

وعلى كل حال، فإنّ هذا المنهج نوع من التعاون في سبيل حفظ المنافع المتقابلة، ولا يعني بأي وجه تحمل وزر الآخرين، خاصة وأنّ دية قتل الخطأ ليست أصلاً جريمة ذنب، بل هي تعويض عن الخسارة! «فتأمل بدقّة».

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

التّفسير

إشارة لقصتي نوح وإبراهيم

لما كان الكلام في البحوث السابقة عن الامتحانات العامّة في الناس، فإنّ الكلام هنا - وفي ما بعد - يقع على الامتحانات الشديدة للأنبياء، وكيف أنّهم كانوا تحت ضغط الأعداء وإيذائهم، وكيف صبروا وكانت عاقبة صبرهم النصر! ليكون هذا الكلام تسلية لقلوب أصحاب النّبي ﷺ الذين كانوا تحت وطأة التعذيب الشديد من قبل الأعداء - من جانب - وتهديداً للأعداء لينتظروا عاقبتهم الوخيمة من جانب آخر.

تبدأ الآيات أوّلاً بالكلام على أوّل نبيّ من أولي العزم وهو «نوح» عليه السلام، وتتحدث عنه بعبارات موجزة، لتُجملَ قسماً من حياته التي تناسب - كثيراً - الواقع الراهن للمسلمين - آنئذ - فتقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾.

كان نوح مشغولاً ليلَ نهارَ بالتبليغ ودعوة قومه إلى توحيد الله - فرادى ومجتمعين، مستفيداً من جميع الفرص في هذه المدة الطويلة (أي تسعمائة وخمسين عاماً) يدعوهم إلى الله... ولم يشعر بالتعب والنصب من هذا السعي المتتابع ولم يظهر عليه الضعف والفتور.

ومع كل هذا الجهد الجهيد لم يؤمن به إلاّ جماعة قليلة في حدود الثمانين شخصاً كما تنقل التواريخ (أي بمعدّل نفر واحد لكل اثنتي عشرة سنة!).

فعلى هذا لا تظهروا الضعف والتعب في سبيل الدعوة إلى الحق ومواجهة الانحرافات، لأنّ منهجكم أمام منهج «نوح» سهل للغاية.

لكن لاحظوا كيف كانت عاقبة قوم نوح الظالمين الألدّاء: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

وهكذا انطوى «طومار» حياتهم الذليلة، وغرقت قصورهم وأجسادهم وآثارهم في الطوفان وأمواجه.

والتعبير بـ ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ مع إمكان القول «تسعمائة وخمسين سنة» من البداية، هو إشارة إلى عظمة المدة وطول الزمان، لأنّ عدد «الألف» وأيّ ألف؟ ألف سنة! يعدّ مهماً وعدداً كبيراً بالنسبة لمدّة التبليغ.

وظاهر الآية الآنفة أنّ هذا المقدار لم يكن هو عمر نوح عليه السلام بتمامه (وإن ذُكر ذلك

في التوراة الحديثة، في سفر التكوين الفصل التاسع) بل عاش بعد الطوفان فترة أُخرى، وطبقاً لما قاله بعض المفسّرين فقد كانت الفترة هذه ثلاثمائة سنة!

طبعاً... هذا العمر الطويل بالقياس إلى أعمار زماننا كثير جداً ولا يعدّ طبيعيّاً أبداً، ويمكن أن يكون ميزان العمر في ذلك العصر متفاوتاً مع عصرنا هذا... وبناءً على المصادر التي وصلت إلى أيدينا فإنّ قوم نوح كانوا معمرين، وعمر نوح بينهم أيضاً كان أكثر من المعتاد، ويشير هذا الأمر ضمناً إلى هيئة تركيب أجسامهم كانت تمكّنهم من أن يعمّروا طويلاً.

إنّ دراسات العلماء في العصر الحاضر تدلّ على أنّ عمر الإنسان ليس له حدٌّ ثابت، وما يقوله بعضهم بأنّه محدود بمائة وعشرين سنة، وأكثر أو أقل، فلا أساس له... بل يمكن أن يتغير بحسب اختلاف الظروف.

واليوم وبواسطة التجارب استطاع العلماء أن يضاعفوا عمر قسم من النباتات أو الموجودات الحيّة، إلى اثني عشر ضعفاً على العمر الطبيعي، وحتى في بعض الموارد - ولا تتعجبوا - أوصلوا هذه الفترة للنباتات أو غيرها إلى تسعمائة مرّة ضعف عمرها الطبيعي... وإذا حالفهم التوفيق فيمكنهم أن يضاعفوا عمر الإنسان، فيمكن أن يعمّر الإنسان عندئذ آلاف السنين[1].

وينبغي الالتفات ضمناً إلى أنّ كلمة «الطوفان» في الأصل معناها كل حادثة تحيط بالإنسان، وهي مشتقّة من مادة «الطواف»، ثمّ استعمل هذا التعبير للماء الغزير أو السيل الشديد الذي يستوعب مساحة كبيرة من الأرض ويغرقها، كما يطلق على كل شيء كثير وشديد وفيه حالة الاستيعاب، سواءً كان ريحاً أو ناراً أو ماءً، فيسمى كلٌّ منها طوفاناً... كما قد يردُ بمعنى ظلمة الليل الشديدة أيضاً[2].

الطريف أنّ القرآن يقول: ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي إنّهم حين وقوع العذاب «الطوفان» كانوا لا يزالون في ظلمهم أيضاً.

وهذا إشارة إلى أنّهم لو تركوا تلك الأعمال، وندموا على ما فعلوا، وتوجّهوا إلى الله، لما ابتلوا بمثل هذه العاقبة أبداً.

---

(١) لمزيد التوضيح في مسألة طول العمر، بمناسبة الأبحاث المتعلقة بطول عمر المهدي عليه السلام، يراجع كتاب «المهدي تحول كبير».

(٢) المفردات للراغب.

ويضيف القرآن الكريم في الآية الأخرى ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾(١).

ثمّ يعقّب على قصّة نوح وقومه التي وردت بشكل مضغوط، ويأتي بقصّة إبراهيم عليه السلام، ثاني الأنبياء الكبار من أولي العزم فيقول: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٢).

هنا بيّن القرآن منهجين مهمّين من مناهج الأنبياء العملية والاعتقادية، وهما الدعوة إلى توحيد الله والتقوى - في مكان واحد - ثمّ يختتم القول: أن لو فكرتم جيداً لكان ذلك خيراً لكم عند اتباعكم لمذهب التوحيد والتقوى، إذ ينجيكم من دنياكم الملوّثة بالذنوب والشقاء، وتكون آخرتكم هي السعادة الأبديّة.

ثمّ يذكر إبراهيم عليه السلام أدلة بطلان عبادة الأصنام والأوثان، ويبيّن في تعابير مختلفة يتضمّن كل منها دليلاً على فساد مذهبهم وبطلانه فيقول أوّلاً: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا﴾.

هذه الأوثان هي الأصنام الخالية من الروح.. الأصنام التي ليس لها إرادة، ولا عقل، وهي فاقدة لكل شيء، بحيث إنّ شكلها بنفسه هو دليل على بطلان عقيدة «عبادة الأوثان»

(لاحظوا أن «الأوثان» هي جمع لكلمة «وثن» على زنة «صنم» ومعناها «الحجارة المنحوتة» الموضوعة للعبادة!).

ثمّ يتوسع في حديثه ويمضي إلى مدى أبعد فيقول: ليست هذه الأوثان بهيئتها تدل على أنّها لا تستحق العبادة فحسب، بل أنتم تعلمون بأنّكم تكذبون وتضعون اسم الآلهة على هذه الأوثان: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾.

فأي دليل لديكم على هذا الكذب سوى حَفنة من الأوهام والخرافات الباطلة.

وحيث إنّ كلمة «تخلقون» مشتقّة من الخلق، وتعني أحياناً الصنع والإبداع، وأحياناً

---

(١) القول في ما هو مرجع الضمير في «جعلناها» للمفسّرين احتمالات كثيرة، فبعضهم قال: هو إشارة إلى مجموع هذه الواقعة والحادثة، وقال بعضهم: هي نجاة نوح عليه السلام فحسب - مع أصحابه - وأشار بعضهم إلى أنّ المراد من «جعلناها» هي السفينة، وظاهر العبارة المتقدمة - أيضاً - تؤيد هذا الاحتمال الأخير، وحقاً كانت هذه السفينة آيةً من آيات الله في ذلك العصر، وفي تلك الحادثة العظيمة.

(٢) الظّاهر أنّ «إبراهيم» معطوف على كلمة «نوح» وفعله «أرسلنا»، وبعضهم عطفه على مفعول (أنجيناه) وبعضهم جعله مفعولاً لفعل محذوف تقديره «اذكر».

تأتي بمعنى الكذب، فإنّ بعض المفسّرين ذكر تفسيراً آخر لهذه الجملة غير ما بيّناه آنفاً... وقالوا إنّ المقصود من هذا التعبير هو أنّكم تنحتون هذه الأوثان... المعبودات الباطلة المزوّرة بأيديكم، وتصنعونها (فيكون المراد من الإفك هنا هو المعبودات المزورّة) والخلق هو النحت هنا(١).

ثمّ يبيّن الدليل الثّالث وهو أنّ عبادتكم لهذه الأوثان إمّا لأجل المنافع المادية، أو لعاقبتكم في «الأخرى» وكلا الهدفين باطل... وذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقًا﴾.

وأنتم تعتقدون بأنّ هذه الأصنام لم تكن خلقتكم، بل الخالق هو الله، فالذي يتكفل بالرزق هو الله ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾.

ولأنّه هو الذي يرزقكم فتوجهوا إليه ﴿وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾.

وبتعبير آخر، فإن واحداً من أسباب العبادة وبواعثها هو الإحساس بالشكر للمنعم الحقيقي، وتعرفون أنّ المنعم الحقيقي هو الله، فالشكر والعبادة يختصان - أيضاً - بذاته المقدسة.

وإذ كنتم تبتغون الدار الأُخرى فإنّه ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

فالأصنام لا تصنع شيئاً هنا ولا هناك!.

وبهذه الأدلّة الموجزة والواضحة ألجم منطقهم الواهي وأفحمهم.

ثمّ يلتفت إبراهيم عليه السلام مهدّداً لهم ومبدياً عدم اكتراثه بهم قائلاً: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ﴾ كذبوا أنبياءهم فنالوا الخزي بتكذيبهم والعاقبة الوخيمة ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ سواءً استجاب له قومه، أم لم يستجيبوا له دعوته وبلاغه!

والمقصود بالأُمم قبل أُمة إبراهيم عليه السلام، أُمة نوح عليه السلام وما بعده من الأُمم وبالطبع فإنّ ارتباط هذه الآيات يوجب أن تكون هذه الجملة من كلمات إبراهيم عليه السلام، وهذا ما يذهب إليه كثير من المفسّرين عند تفسيرهم للنص، أو يحتملون ذلك!.

والاحتمال الآخر: إنّ الخطاب في هذه الآية للمشركين من أهل مكّة المعاصرين للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم وجملة ﴿كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ﴾ فيها تتناسب أكثر مع هذا الاحتمال.

---

(١) «الإفك» يطلق في الأصل على كل شيء مختلف عن حقيقته، ولذلك يطلق على الكذب - خاصة الكذب الكبير - أنّه إفك، كما تطلق هذه الكلمة على الرياح المخالفة لاتجاهها ومسيرها فيقال «رياح مؤتفكة».

أضف إلى ذلك، فإنّ نظير هذا التعبير الذي ورد في الآية ٢٥ من سورة الزمر، والآية (٢٥) من سورة فاطر، هو أيضاً في شأن نبيّ الإسلام ﷺ والمشركين العرب في مكّة، ولكن - وعلى أي حال - أيّاً من التّفسيرين كان ذلك، فليس هناك تفاوتٌ في النتيجة!.

والقرآن يترك قصّة إبراهيم هنا مؤقتاً، ويكمل البحث الذي كان لدى إبراهيم في صدد التوحيد وبيان رسالته بدليل المعاد، فيقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾.

والمراد بالرؤية هنا هي الرؤية «القلبية» والعلم، أي كيف لا يعرف هؤلاء خلق الله؟ فالذي له القدرة على الإيجاد أولاً قادر على إعادته أيضاً، فالقدرة على شيء ما هي قدرة على أمثاله وأشباهه أيضاً.

كما يأتي هذا الاحتمال، وهو أنّ الرؤية هنا هي الرؤية «البَصَريّة» والمشاهدة بالعين... لأنّ الإنسان يرى بعينيه كيف تحيا الأرض وتنمو النباتات، وتتولد الدجاجة من البيض، والأطفال من النطف... فمن له القدرة على هذا الأمر قادر على أن يحيي الموتى من بعدُ أيضاً.

ويضيف في آخر الآية على سبيل التأكيد ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾. لأنّ تجديد الحياة قبال الإيجاد الأوّل يُعدّ أمراً بسيطاً.

وطبيعي أنّ هذا التعبير يناسب منطق الناس وفهمهم، وإلاّ فإنّ اليسير والعسير لا مفهوم لهما عند من قدرته غير محدودة والمطلقة... فهذه قدراتنا التي أوجدت مثل هذا «المفهوم»، ومع الالتفات إلى إنجازها... ظهرت لدينا أُمور يسيرة وأُخرى عسيرة.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

التّفسير

الآيسون من رحمة الله

هذه الآيات تواصل البحث في المعاد أيضاً، على صُورة جُمَل معترضة في قصّة إبراهيم عليه السلام.

وليست هذه أوّل مرّة نواجه فيها مثل هذا الأسلوب... فهذه هي طريقة القرآن دائماً، فعندما يبلغ مرحلة حساسة من ذكر قصّة ما، يترك بقيّة القصّة مؤقتاً للاستنتاج أكثر، ثمّ يعطي النتائج اللازمة.

وعلى كل حال، فإنّ القرآن يدعو في الآية الأُولى من هذا المقطع الناس إلى «السير في الآفاق» في مسألة المعاد... في حين أنّ الآية السابقة كانت السمة فيها «السير في الأنفس» أكثر! يقول القرآن: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ انظروا إلى أنواع الموجودات الحية، والأقوام والأُمم المتنوعة والمختلفة، وكيف أنّ الله تعالى خلقها أولا، ثم إنّ الله نفسه الذي أوجدها في البداية من العدم قادر أيضاً على إيجادها في الآخرة ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾

ولأنّه أثبت قدرته على كل شيء حين خلق الخلق أولاً، إذن فـ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فهذه الآية والآية التي قبلها - أيضاً - أثبتتا بواسطة قدرته الواسعة إمكان المعاد.. مع فرق أنّ الآية الأُولى تتحدث عن الإنسان نفسه وخلقه وما حوله! والآية الثّانية تأمر بمطالعة حالات الأُمم والموجودات الأُخرى، ليروا الحياة الأُولى في صور مختلفة وظروف متفاوتة تماماً، وليطّلعوا على عموميّة قدرة الله، وليستيقنوا قدرته على إعادة هذه الحياة!.

كما أنّ إثبات التوحيد يتمُّ - أحياناً - عن طريق مشاهدة «الآيات في الأنفس» وأحياناً عن طريق «الآيات في الآفاق» فكذلك يتمّ إثبات المعاد عن هذين الطريقين أيضاً.

وفي عصرنا هذا يمكن أن تبيّن هذه الآيات للعلماء معنىً أعمق وأدق، وهو أن يمضوا ويلاحظوا الموجودات الحيّة الأُولى التي هي في أعماق البحار على شكل فسائل ونباتات وغيرها، وفي قلب الجبال، وبين طبقات الأرض، ويطلعوا على جانب من

أسرار بداية الحياة على وجه الأرض، ويدركوا عظمة الله وقدرته، وليعلموا أنّه قادر على إعادة الحياة أيضاً[١].

هذا وإن كلمة «النشأة» في الأصل، تعني إيجاد الشيء وتربيته، وقد يعبرأحياناً عن الدنيا بالنشأة الأولى، كما يعبر عن الأُخرى بالنشأة الآخرة!.

وهذه اللطيفة جديرة بالملاحظة، وهي أنّ في ذيل الآيات السابقة ورد تعبير ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وورد التعبير هنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ولعل منشأ التفاوت والاختلاف هو أن الآية الأُولى تعالج مطالعة محدودة، أمّا الثّانية فتعالج وتبيّن مطالعة وسيعة جدّاً.

ثمّ يتعرض القرآن الكريم إلى إحدى المسائل المتعلقة بالمعاد، وهي مسألة الرحمة والعذاب، فيقول: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾.

ومع أنّ رحمة الله مقدمةٌ على غضبه، إلاّ أن الآية هنا تبدأ أولاً بذكر العذاب ثمّ الرحمة، لأنّها في مقام التهديد، وما يناسب مقام التهديد هو هذا الأُسلوب!.

هنا ينقدح السؤال التالي:

كيف يتحدث القرآن أوّلاً عن العذاب والرحمة، ثمّ يتحدث عن معاد الناس إليه ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾؟ في حين أنّ القضية على العكس من ذلك، ففي البداية يحضر الناس عند ساحته، ثمّ يشملهم العذاب أو الرحمة.. وربّما كان هذا هو السبب في أن يعتقد بعضهم أن العذاب والرحمة المذكورين هنا هما في هذه الدنيا.

ونقول جواباً على مثل هذا السؤال: إنّ العذاب والرحمة - بقرينة الآيات السابقة واللاحقة - هما عذاب القيامة ورحمتها، وجملة ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ إشارة إلى الدليل على ذلك: أي: بما أنّ معادكم إليه وكتابكم وحسابكم لديه، فالعذاب والرحمة - أيضاً - بإرادته وتحت أمره!.

ولا يبعد أن يكون العذاب والرحمة في هذه الآية لهما معنى واسع، بحيث يشمل العذاب والرحمة في الدارين.

---

(١) سبق أن تعرضنا إلى بحث حول «السير في الأرض» وآثاره، غير أنّ البحث الفائت كانت فيه جوانب من دروس العبرة في مجال قصص الأمم الماضية وطغاتها. التّفسير الأمثل ذيل الآية (١٣٧) سورة آل عمران، فلا بأس بمراجعتها.

كما يتّضح أنّ المراد بقول: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هو المشيئة الإلهيّة المقرونة بحكمته، أي كل من كان جديراً ومستحقاً لذلك.. فإن مشيئة الله ليست عبثاً، بل منسجمة مع الاستحقاق والجدارة!.

وجملة ﴿تُقْلَبُونَ﴾ من مادة «القلب» ومعناها في الأصل: تغيير الشيء من صورة إلى صورة أُخرى، وحيث إنّ الإنسان في يوم القيامة يعود إلى هيئة الموجود الحي الكامل بعد أن كان تراباً لا روح فيه، فقد ورد هذا التعبير في إيجاده ثانيةً أيضاً.

ويمكن أن يكون هذا التعبير إشارة إلى هذه اللطيفة الدقيقة - أيضاً - وهي أنّ الإنسان يتبدل في الدار الأُخرى ويتغيّر تغيراً ينكشف باطنه به وتتجلى أسراره الخفية، وبهذا فهي تنسجم مع الآية (٩) من سورة الطارق ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾.

وإكمالاً لهذا البحث الذي يبيّن أنّ الرحمة والعذاب هما بيد الله والمعاد إليه، يضيف القرآن: إذا كنتم تتصورون أنّكم تستطيعون أن تهربوا من سلطان الله وحكومته ولايمسّكم عذابه، فأنتم في خطأ كبير... فليس الأمر كذلك! ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾(١).

وإذا كنتم تتصورون أنّكم تجدون من يدافع عنكم وينصركم هناك، فهذا خطأ محضٌ أيضاً ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

وفي الحقيقة، فإنّ الفرار من قبضة الله وعذابه، إمّا بأن تخرجوا من حكومته، وإمّا بأن تعتمدوا مع بقائكم في حكومته على قدرة الآخرين لتدافعوا عن أنفسكم، فلا الخروج ممكن، لأنّ البلاد كلّها له وعالم الوجود كلّه ملكه الواسع، ولا يوجد أحد يستطيع أن يقف أمام قدرته وينهض للدفاع عنكم.

يبقى هنا سؤالان:

أوّلاً: مع الالتفات إلى هذه الحقيقة، وهي أن مقصود الآية هو في الكفّار والمشركين، وهم سكنة الأرض، فما معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ وأي مفهوم له هنا؟!

---

(١) كلمة «معجزين» مشتقّة من مادة «عجز»، ومعناها في الأصل التخلّف والتأخر عن الشيء، ولذلك تستعمل هذه الكلمة في الضعف الباعث على التخلف والتأخر، «المعجزة» معناه الذي يجعل الآخر عاجزاً، وحيث إنّ الأفراد الذين يفرون من سلطان أحد وقدرته، يعجزون عن ملاحقتهم، لذلك استعملت كلمة «معجز» في هذا الصدد أيضاً...

وينبغي أن يقال في الجواب، أنّ هذا التعبير هو نوع من التأكيد والمبالغة، أي إنّكم لا تستطيعون أن تخرجوا من قدرة الله وسلطانه في هذه الأرض، ولا في السماوات، إذ حتى لو فرضنا أنّكم تستطيعون أن تصعدوا في السماء، فما زلتم تحت قدرته وسلطانه.

أو أنّه: لا تستطيعون أن تعجزوا الله في مشيئته بواسطة من في الأرض، ولا بواسطة من تعبدون في السماوات، من أمثال الملائكة والجن (والتّفسير الأوّل أكثر مناسبة - طبعاً -).

ثانياً: ما الفرق بين الولي والنصير؟!

يرى العلامة «الطبرسي» في «مجمع البيان» وقيل: إنّ الولي الذي يتولى المعونة بنفسه والنصير يتولى النصرة تارةً بنفسه بأن يأمره غيره به»(١).

بل يمكن القول مع ملاحظة الكلمتين هاتين، أنّ الولي إشارة إلى من يعيّن دون طلب [من عليه الولاية]، والنصير هو المستصرخ الذي يأتي لإعانة الإنسان بعد استصراخه.

وهكذا يغلق القرآن جميع أبواب الفرار بوجه هؤلاء المجرمين..

لذلك يقول في الآية التي بعدها بشكل قاطع: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾.

ثمّ يضيف مؤكداً: ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

هذا «العذاب الأليم» هو لزم اليأس من رحمة الله.

والمراد بـ«آيات الله» إمّا هي «الآيات التكوينية» أي آثار عظمة الله في نظام خلقه وإيجاده، وفي هذه الصورة فهي إشارة إلى مسألة التوحيد، في حين أنّ كلمة «لقائه» إشارة إلى مسألة المعاد، أي إنّهم منكرون للمبدأ وللمعاد كليهما.

أو أنّ المراد من آيات الله هي «الآيات التشريعية» أي هي الآيات التي أنزلها الله على أنبيائه، التي تتحدث عن المبدأ وعن النبوة وعن المعاد، وفي هذه الحال يكون التعبير بـ«لقائه» من قبيل ذكر الخاص بعد العام.

كما يمكن أن يكون المقصود من آيات الله هي جميع الآيات في عالم الوجود والتشريع.

وينبغي ذكر هذه المسألة - أيضاً - وهي أن «يئسوا» فعل ماض والهدف منه هو

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٨، ص ٢٧٩.

الاستقبال - أي في يوم القيامة - والعرب عادةً إذا تحدثوا عن أمر مستقبلي بصورة التأكيد عبروا عنه بصيغة الماضي، للدلالة على تحققه قطعاً وحتماً.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

التّفسير

أسلوب المستكبرين في جوابهم لإبراهيم

والآن علينا أن نعرف ماذا قال هؤلاء القوم الضّالون لإبراهيم عليه السلام ردّاً على أدلته الثّلاثة في مجال التوحيد والنّبوة والمعاد؟!

إنّهم - قطعاً - لم يكن لديهم جواب منطقي وكجميع الأقوياء المستكبرين فقد توسّلوا بقدراتهم الشيطانية وأصدروا أمراً بقتله، حيث يصرّح بذلك القرآن الكريم فيقول: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾!.

ويستفاد من هذا التعبير أنّ جماعة كانوا يميلون إلى حرق إبراهيم بالنّار، في حين كانت جماعة أُخرى تقترح أن يقتل بالسيف أو ما شاكله!

وأخيراً رُجح الرأيُ الأوّل، لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ أشدّ حالات الإعدام هو الإحراق بالنّار.

كما ويحتمل أيضاً أنّهم جميعاً كانوا يفكرون في قتله بالوسائل الطبيعية، غير أنّهم اتفقوا أخيراً على إحراقه بالنّار، وأن يبذلوا قصارى جهدهم في هذا الأمر.

وفي هذه الآية الكريمة لم يرد كلام عن كيفية إحراق إبراهيم عليه السلام بالنّار سوى هذا المقدار الذي استكملت به الآية الكريمة، وهو ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

غير أنّ تفصيل ما جرى عليه من الإحراق ورد في سورة الأنبياء (الآيات ٦٨ - ٧٠) وقد بيّنا ذلك هناك، فلا بأس بمراجعته!

ويضيف القرآن في الختام ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

ولم تكن علامة وآية واحدة في هذا الصدد وفي هذه الحادثة، بل علائم وآيات... فمن جانب فإنّ عدم تأثير النّار في جسد إبراهيم بنفسه معجزة واضحة، وتبدل النّار إلى روضة و«سلام» على إبراهيم كما هو معروف معجزة أُخرى، وعدم استطاعة هذه الجماعة القوية التغلب على شخص واحد - وهو أعزل من كل وسيلة بحسب الظاهر - كان معجزة ثالثة أيضاً.

كما أنّ عدم تأثير هذا الحادث العجيب الخارق للعادة في أُولئك المظلمة قلوبهم، آية من آيات الله، إذ يسلب التوفيق من أمثال هؤلاء الأفراد المعاندين الألدّاء، بحيث لا تؤثر فيهم أعظم الآيات!.

وقد ورد في بعض الرّوايات أنّه لما أُلقي بإبراهيم الخليل مكتوف اليدين والرجلين في النّار، فإن الشيء الوحيد الذي احترق منه هو الحبل الذي كان مشدوداً وموثقاً به[١].

أجل، إنّ نار الجهل وجناية المنحرفين إنّما أحرقت وسائل الأسر، فتحرر إبراهيم عليه السلام منها... وهذه بنفسها تعدُّ آية أُخرى.

وربّما كان - لهذه الأسباب - أن عبّر القرآن عن قصّة نوح وسفينته بقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً﴾ بصيغة الإفراد، ولكنّه عبّر هنا بقوله: ﴿لَآيَاتٍ﴾ بصيغة الجمع!

وعلى كلّ حال فإنّ ابراهيم عليه السلام نجّي من النّار بصورة خارقة للعادة وبلطف الله سبحانه، غير أنّه لم يترك أهدافه.. بل نهض بالأمر وازداد همّة وأعطى لأهدافه حرارة أكثر.

ثمّ توجه إبراهيم إلى المشركين ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ولكن هذه المودّة والمحبّة تتلاشى في الآخرة ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

كيف تكون الأوثان أساساً للمودّة بين عبدة الأوثان؟!

هذا السؤال يمكن الإجابة عليه من عدّة طرق:

---

(١) تفسير روح المعاني، ج ٢٠، ص ١٣٠.

الأوّل: أنّ عبادة الصنم أو الوثن كانت رمزاً للوحدة لكل قوم ولكل قبيلة، لأنّ كل جماعة اختارت لنفسها وثناً، كما ذكروا في شأن أصنام الجاهلية، إذ كان كل صنم يعود لقبيلة من القبائل العربية، فصنم «العزّى» كان لقريش، و«اللاّت» كان خاصاً بثقيف، أمّا «مناة» فكان خاصاً بالأوس والخزرج(١)!

الثاني: أنّ عبادة الأوثان تربط بينهم وبين أسلافهم وغالباً ما كانوا يعتذرون بمثل هذا العذر ويقولون: إنّ هذه الأوثان كان عليها السلف ونحن نتبع السلف ونمضي على دين آبائنا.

ثمّ بعد هذا كلّه فإنّ سراة(٢) الكفّار كانوا يدعون أتباعهم إلى عبادة الأوثان، وكان هذا الأمر بمثابة «حلقة الاتصال» بين السراة والأتباع.

ولكن هذه العلائق والوشائج والارتباطات الخاوية تتقطع جميعها يوم القيامة، وكل فرد يلقي التبعة والذنب على رقبة الآخر، ويلعنه ويتبرأ، منه ومن عمله، حتى المعبودات التي كانوا يتصورون أنّها الوسيلة إلى الله، وكانوا يقولون في شأنها ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾(٣)، - تتبرأ منهم.

وكما يصوّر القرآن هذه الحالة في سورة مريم الآية ٨٢ يقول: ﴿كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾.

فعلى هذا، يكون المراد من قوله تعالى: ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ هو أنّهم يتبرأ بعضهم من بعض في ذلك اليوم، وما كان أساساً لعلاقة المودة الكاذبة في الدنيا يكون مدعاة للعداوة والبغضاء في الآخرة.. كما يعبّر القرآن عن ذلك في الآية (٦٧) من سورة الزخرف فيقول: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

ويستفاد من بعض الرّوايات أنّ هذا الحكم غير مختص بعبدة أوثان، بل هو لجميع أُولئك الذين اختاروا «إماماً باطلاً» لأنفسهم، فاتبعوه وتعاهدوا معه على المودة، ففي يوم القيامة يكونون أعداءً فيما بينهم، ويتبرأ بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضاً(٤)،

---

(١) سيرة ابن هشام، ج١، ص٨٦ و ٨٧.
(٢) «السراة» جمع مفردها سريّ - كبير القوم. (المصحح)
(٣) سورة الزمر، الآية: ٣.
(٤) أصول الكافي، طبقاً لما ورد في تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٥٥.

في حين أنّ علاقة المحبّة بين المؤمنين قائمة على أساس التوحيد وعبادة الله وإطاعة أمر الحق في هذه الدنيا وهذه العلاقة سيكتب لها الدوام، وفي الآخرة تكون أكثر تماسكاً... حين أنّه يستفاد من بعض الروايات أنّ المؤمنين يستغفر بعضهم لبعض ويتشفع بعضهم لبعض في يوم القيامة... في وقت يتبرأ فيه المشركون بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضاً(١).

وفي الآية التي بعد تلك الآية إشارة إلى إيمان لوط وهجرة إبراهيم، إذ تقول: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾.

«لوط» نفسه من الأنبياء العظام، وكانت له مع إبراهيم علاقة قربى «يقال إنّه كان ابن أخت ابراهيم عليه السلام»: وحيث إنّ اتّباع شخص عظيم - لإبراهيم - بمنزلة أفراد أُمّة كاملة فقد تحدث سبحانه - خاصةً - عن إيمان «لوط» وشخصيته الكبرى المعاصرة لإبراهيم عليه السلام، ليتّضح أنّه إذ لم يؤمن الآخرون، فإنّ ذلك ليس مهمّاً.

ويبدو أنّه كانت في أرض بابل قلوب مهيأة لقبول دعوة إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد التفوا حوله بعد مشاهدة تلك المعجزة العظيمة، غير أنّه من المسلّم به أنّهم كانوا «أقليّة».

ثمّ تضيف الآية عن هجرة إبراهيم عليه السلام فتقول: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

ومن الوضوح بمكان أنّه حين يؤدّي القادة الإلهيون رسالتهم في محيط ما، ويكون هذا المحيط ملوثّاً وتحت تأثير الجبابرة، بحيث لا تتقدّم دعوتهم أكثر، فينبغي أن يهاجروا إلى منطقة أُخرى لتتسع دعوة الله في الأرض!.

فلذلك تحرك ابراهيم عليه السلام وزوجه سارة - بمعيّة لوط - من بابل إلى أرض الشام مهد الأنبياء والتوحيد، ليستطيع أن يكتسب جماعة هناك ويوسع دعوة التوحيد!.

من الطريف أنّ إبراهيم عليه السلام يقول في هذا الصدد: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ لأنّ ذلك الطريق كان طريق الله، طريق رضاه، وطريق دينه ومنهاجه.

وبالطبع فإنّ بعض المفسّرين احتمل أن يكون الضمير في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ عائد على لوط عليه السلام، أي إنّ لوطاً قال: إنّي مهاجر إلى ربّي، وظاهر الجملة

(١) توحيد الصدوق، طبقاً لما ورد في تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٥٥.

منسجم مع هذا المعنى أيضاً، إلاّ أنّ الشواهد التاريخية تدلّ على أنّ الضمير يعود على إبراهيم عليه السلام، وكانت هجرة لوط بمعيّة إبراهيم.

والشاهد على هذا الكلام قول إبراهيم عليه السلام في الآية (٩٩) من سورة الصافات ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[١].

وفي آخر آية من هذا المقطع يقع الكلام على المواهب الأربع التي منحها الله لإبراهيم عليه السلام بعد الهجرة العظيمة:

الموهبة الأولى: الأبناء الصالحون، من أمثال إسحاق ويعقوب، ليسرجوا مصباح الإيمان والنّبوة في بيته وأسرته ويحافظوا عليه، إذ يقول القرآن: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وهما نبيّان كبيران واصل كلّ منهما السير على منهاج إبراهيم عليه السلام محطم الأصنام.

الموهبة الثّانية: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ ولم تكن النّبوة في إسحاق بن إبراهيم ويعقوب حفيده فحسب، بل استمر خط النّبوة في ذريّة إبراهيم عليه السلام وأسرته حتى نبوّة خاتم الأنبياء محمّد صلى الله عليه وآله وسلم متعاقبون من ذرية إبراهيم، نوّروا العالم بضياء التوحيد.

الموهبة الثّالثة: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ فما هو هذا الأجر الذي لم يوجهه القرآن؟ لعله إشارة إلى أُمور مختلفة مثل الاسم الحسن، ولسان الصدق والثناء بين جميع الأُمم، لأنّ الأُمم كلها تحترم إبراهيم عليه السلام على أنّه نبي عظيم الشأن، ويفتخرون بوجوده ويسمونه «شيخ الأنبياء».

عمارة أرض مكّة كانت بدعائه، وجذب قلوب الناس جميعاً نحوه، لتتذكر ذكريات التجلي والإيمان كل سنة في مناسك الحج، كل ذلك من هذا الأجر المشار اليه في القرآن.

الموهبة الرّابعة: هي ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وهكذا تشكّل هذه المواهب مجموعة كاملة من المفاخر.

---

(١) هناك بحث مفصل في هجرة إبراهيم عليه السلام من بابل إلى الشام في ذيل الآية (٧١) من سورة الأنبياء من التّفسير الأمثل، فلا بأس بمراجعته.

ملاحظتان

١ - أكبر الفخر!

«الدخول في الصالحين» بالشكل الذي يستنتج من كثير من آيات القرآن هو أوج الفخر، وقد يحظى به إنسان معين فيكون من نصيبه، ولذلك فإنّ كثيراً من الأنبياء كانوا يسألون الله أن يدخلهم في زمرة عباده الصالحين.

فيوسف عليه السلام بعد وصوله إلى أبرز الانتصارات الظاهرية يسأل الله فيقول: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾(١).

وكذلك نبيّ الله سليمان عليه السلام مع ما لديه من جاه وحشمة وجلالة، يطلب من الله ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾(٢).

وشعيب عليه السلام، ذلك النّبي العظيم، حين وقع العقد على استئجار موسى قال له: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(٣).

وإبراهيم عليه السلام أيضاً يطلب لنفسه من الله أن يكون في زمرة الصالحين ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾(٤).

كما يطلب من الله أن يرزقه أبناءً صالحين فيقول: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(٥).

كما نلاحظ في كثير من الآيات أنّ الله سبحانه حين يمدح أنبياءه العظام في كتابه، يصفهم بأنّهم «من عباده الصالحين».

ويستفاد من مجموع هذه الآيات - بصورة جيدة - أنّ أسمى مراحل تكامل الإنسان هو أن يكون عبداً صالحاً.

ما معنى الصلاح؟! وبعبارة أجلى: ما معنى أن يكون الإنسان صالحاً؟!

معناه: أن يكون جديراً بالاعتقاد والإيمان، جديراً بالعمل، جديراً بالقول، جديراً بالأخلاق!

أمّا ما يقابل الصالح فهو الفاسد، ونعرف أن «الفساد في الأرض» تعبير يشمل جميع أنواع الظلم والأعمال السيئة.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠١.
(٢) سورة النمل، الآية: ١٩.
(٣) سورة القصص، الآية: ٣٧.
(٤) سورة الشعراء، الآية: ٨٣.
(٥) سورة الصافات، الآية: ١٠٠.

وفي القرآن الكريم يستعمل الصلاح - أحياناً - في مقابل الفساد، ويستعمل - أحياناً - في مقابل السيئة، وتعني «الذنب» وما لا يليق.

٢ - مواهب إبراهيم العظيمة

قال بعض المفسّرين: إنّ في الآية الآنفة لطيفة دقيقة.. هي أنّ الله بدل جميع الأُمور والأحوال التي تؤدّي بإبراهيم إلى الاستياء، إلى الضدّ.

فعبدة الأوثان في بابل أرادوا إحراقه بالنّار، فتبدلت روضة وسلاماً.

وأرادوه أن يبقى منفرداً معزولاً عن الناس، فوهب الله له أُمّة عظيمة وجعل النّبوة في ذراريه.

وكان بعض أقاربه ضالاً وعابداً للصنم كما هي الحال في «آزر» فأعطاه الله مكانه أبناءً مهتدين وهادين للآخرين.

ولم يكن لإبراهيم عليه السلام في بداية حياته مال ولا جاه، فوهب الله له مالاً وجاهاً عظيماً.

وكان إبراهيم عليه السلام في بداية أمره مجهولاً لا يعرفه الناس حتى أن عبدة الأوثان في بابل حين أرادوا تعريفه ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾(١).

لكن الله سبحانه رفع مقامه وأعلى صيته، حتى أنّه إذا ذكر قيل في حقّه «شيخ الأنبياء» أو «شيخ المرسلين»(٢).

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٦٠.

(٢) تفسير الرازي، ج٢٥، ص٥٦، بشيء من التصرف.

التّفسير

المنحرفون جنسياً

بعد بيان جانب ممّا جرى لإبراهيم عليه السلام يتحدث القرآن عن قسم من قصّة حياة النّبي المعاصر لإبراهيم «لوط» عليه السلام فيقول: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١).

«الفاحشة» كما بيّناها من قبل، مشتقّة من مادة «فَحَشَ» وهي في الأصل تعني كل فعل أو كلام سيّىء للغاية، والمراد بها هنا الانحراف الجنسي. (اللواط).

ويستفاد من جملة ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بصورة جليّة أن هذا العمل السيّىء والمخزي لم يسبق له - على الأقل بشكل عام وجماعي - أن يقع في أية أُمة أو قوم كما وقع في قوم لوط.

ذكروا في أحوال قوم لوط أنّ واحداً من عوامل تلوثهم بهذا الذنب هو أنّهم كانوا قوماً بخلاء جدّاً، ولمّا كانت مدنهم على قارعة الطريق التي تمرّ بها قوافل الشام، فقد كانوا يظهرون هذا العمل «الانحراف» لبعض ضيوفهم أو العابرين لينفروهم وكي لا يضيفوهم، إلاّ أنّهم تعودوا على هذا العمل القبيح، وقويت فيهم رغبة اللواط، فسقطوا في الوحل المخزي شيئاً فشيئاً.

على كل حال، سينؤون بحمل ذنوبهم وذنوب من يعمل عملهم، دون أن ينقص من ذنوب الآخرين شيء أبداً ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾!.

لأنّهم كانوا مؤسسي هذه السنّة المشؤومة، ونحن نعرف أنّ من سنّ سنّة ما فهو شريك في عمل من يعمل بها أيضاً.

لوط عليه السلام هذا النّبي العظيم، كشف أخيراً ما في نفسه وقال لقومه: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ أفتريدون أن تقطعوا النسل ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾(٢)؟.

---

(١) يمكن أن تكون كلمة «لوطاً» عطفاً على كلمة (نوحاً) فتكون بمنزلة المفعول «لأرسلنا» ويمكن أن يكون مفعولاً لفعل محذوف تقديره «واذكر لوطاً».

(٢) يرى جماعة من المفسّرين وجوهاً واحتمالات أُخرى لجملة ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ منها ما فسّروه بقطع الطريق على الناس في سفرهم مع الالتفات إلى ماضيهم وتاريخهم المعروف، لأنّ القوافل تضطر أن تأخذ طريقاً غير مطروق من أجل أن تسلم من شرّ هؤلاء ولئلا تبتلي بهم، كما فسّره بعضهم بسرقة أموال=

ولا ترعوون عن الأعمال المخزية في مجالسكم العامة ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾.

«النادي» مشتق من «النداء» وهو يعني المجلس العام، كما يأتي أحياناً بمعنى مكان التنزّه، لأنّ الأفراد هناك ينادي بعضهم بعضاً وترتفع أصواتهم.

والقرآن لم يبيّن هنا بتفصيل أية منكرات كانوا يأتونها في مجالسهم ونواديهم.. لكنّها قطعاً كانت متناسبة مع عملهم السيّىء المخزي.. وكما ورد في بعض التواريخ، فإنّهم كانوا يتسابون بكلمات الفحش والابتذال، أو يضرب أحدهم الآخر على ظهره. أو يلعبون القمار، أو يعبثون كالاطفال وخاصّة الترامي بالحجارة الصغيرة فيما بينهم أو على العابرين، ويستعملون أنواع الآلات الموسيقية، ويكشفون عوراتهم في مجتمعهم ويغدون عراة... الخ(١).

في حديث عن النّبي ﷺ كما تنقله «أم هاني» أنّه قال مفسراً لمعنى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ أنّهم «كانوا يخذفون من يمرّ بهم ويسخرون منه»(٢) أي يرمون من يمرّ بهم بالحجارة ويسخرون منه.

والآن فلنلاحظ ماذا كان جواب هؤلاء القوم الضالين المنحرفين، على كلمات النّبي لوط عليه السلام المنطقية؟.

يقول القرآن: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

أجل هكذا، كان جواب هؤلاء المفتونين فاقدي العقل والدراية إذ أجابوا به من منطلق السخرية والاستهزاء إزاء دعوة لوط عليه السلام المنطقية والمعقولة.

كما يستفاد جيداً من هذا الجواب أنّ لوطاً عليه السلام كان قد هدّدهم بعذاب الله، بالإضافة إلى كلامه البيّن ذي الدليل الواضح في ما لو استمروا بهذا العمل القبيح، إلاّ أنّهم تركوا جميع مواعظه وتمسكوا بتهديده بالعذاب، فقالوا: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ على سبيل الاستهزاء والسخرية!!... كما أشير إلى هذا الموضوع في سورة القمر الآية (٣٦) بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾.

= المسافرين في القافلة ولكن التّفسير الأوّل المشار إليه في المتن أنسب للآية كما يبدو للنظر، لأنّ واحداً من أسرار تحريم اللواط وفلسفته هو خطر قطع النسل كما صرحت به الرّوايات.

(١) سفينة البحار، ج ٢، ص ٥١٧.

(٢) تفسير القرطبي ذيل الآيات محل البحث.

ويستشف - ضمناً - من تعبير هؤلاء القوم أنّهم كانوا يريدن أن يستنتجوا من عدم نزول العذاب على كذب لوط عليه السلام، في حين أنّ رحمة الله هي التي تمهلهم وتعطيهم الفرصة لمراجعة أنفسهم وإعادة النظر!

وهنا لم يكن للوط عليه السلام بدّ إلاّ أن يلتفت إلى الله بقلب حزين مهموم... و﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

القوم المنحرفين، المتمادين في الأرض فساداً، والذين تركوا تقواهم وأخلاقهم الإنسانية وألقوا العفة والطهارة خلف ظهورهم، وسحقوا العدل الاجتماعي تحت أقدامهم، ومزجوا عبادة الأوثان بفساد الأخلاق والظلم، وهددوا نسل الإنسان بالفناء والزوال، فيا ربّ انصرني على هؤلاء القوم المفسدين.

ملاحظة

بلاء الانحراف الجنسي

الانحراف الجنسي - سواءً كان في أوساط الرجال «اللواط» أم في أوساط النساء «المساحقة» - لهو من أسوأ الانحرافات الأخلاقية، ومصدر المفاسد الكثيرة في المجتمع.

وأساساً فإنّ طبيعة «كلّ من الرجل والمرأة» مخلوقة بشكل يمنح الهدوء والإشباع الصحيح السالم في العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة «عن طريق الزواج المشروع» وأي نوع من الميول الجنسية في غير هذه الصورة هو انحراف عن طبع الإنسان الصحيح، وهو نوع من الأمراض النفسيّة الذي لو قُدّر له أن يستمرّ لاشتد خطره يوماً بعد يوم، وتكون نتيجته البرود الجنسي بالنسبة ما بين الرجل والمرأة، والإشباع غير الصحيح من «الجنس المماثل» أي «اللواط» أو «السحاق».

ولهذا النوع من العلائق غير المشروعة أثر مدمّر في جهاز البدن، بل حتى في سلسلة الأعصاب والروح، إذ يسقط الرجل من رجولته والمرأة من أنوثتها! بحيث إنّ أمثال هؤلاء الرجال والنساء المنحرفين جنسياً يبتلون بضعف جنسي شديد، ولايستطيعون أن يكونوا آباءً وأمهات صالحين لأبنائهم في المستقبل، وربّما كانوا غير قادرين حتى على الإنجاب بصورة كلية «بسبب هذا الانحراف».

إنّ المنحرفين جنسياً يغدون بالتدريج منزوين منعزلين عن المجتمع، ويحسون بالغربة

في مجتمعهم وفي أنفسهم أيضاً، كما يبتلون بانفصام الشخصية، وإذا لم يهتموا بإصلاح أنفسهم، فمن الممكن أن يبتلوا بأمراض جسمية ونفسية مختلفة.

ولهذا السبب - ولأسباب أخلاقية واجتماعية أُخرى - حرّم الإسلام الانحراف الجنسي تحريماً شديداً بأي شكل كان وفي أية صورة، كما قرر للذي يقوم بهذا العمل عقاباً صارماً يبلغ أحياناً إلى درجة الإعدام والقتل!.

والموضوع المهم هو أنّ الانفلات الأخلاقي والتميّع الجنسي والابتذال للعالم المتمدن والحضارة المادية قد جرّت كثيراً من الفتيان والفتيات إلى الانحراف الكبير.

في البداية يرغّبون الفتيان في أن يلبسوا ثياب النساء وأن يظهروا بمظهر خاص، ويدعون النساء أن يلبسن ثياب الرجال، وتبدأ من هنا قضية الانحراف الجنسي حتى تصل إلى أقبح الأعمال الوقحة في هذا المجال، وتأخذ شكلاً قانونياً بحيث يعدون هذا الأمر عادياً لا يستحق أي نوع من العقاب أو التبعة، ولا يسع القلم إلاّ أن يستحي ويخجل من وصف ذلك(١).

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ
إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ
بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَن
جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ
إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنزِلُونَ
عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَد
تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥)﴾

التّفسير

وهذه هي عاقبة المنحرفين

لقد استجيب دعاءُ لوط أخيراً، وصدر الأمر من الله تعالى بالعقاب الصارم والشديد

(١) كان لنا في صدد الانحراف الجنسي بحث مفصل في ذيل الآية (٨١) سورة هود.

لهؤلاء القوم المنحرفين والمفسدين، فمرّ الملائكة المأمورون بعذاب قوم لوط بالأرض التي فيها إبراهيم عليه السلام لأداء رسالة أُخرى قبل أن ينزلوا العقاب بقوم لوط، وهذه الرسالة التي سبقت العذاب، هي بشارتهم لإبراهيم عليه السلام بالوَلد: «بشروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب».

والآيات المتقدمة تذكر أوّلاً قصّة مرورهم بإبراهيم عليه السلام فتقول: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

والتعبير بـ ﴿هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ يدل على أن مُدن قوم لوط كانت قريبة من أرض إبراهيم عليه السلام

والتعبير بالظالمين هو لأجل كونهم يظلمون أنفسهم باتخاذهم سبيل الشرك والفساد الأخلاقي وعدم العفة، وظلمهم الآخرين حتى شمل العابرين والقوافل التي كانت تمرّ على طريقهم.

فلمّا سمع «إبراهيم» هذا النبأ حزن على لوط النّبي العظيم و﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾.

فما عسى أن تكون عاقبته؟!

إلاّ أنّهم أجابوه على الفور، ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ فلا تحزن عليه، لأنّنا لا نحرق «الأخضر واليابس» معاً، وخطتنا دقيقة ومحسوبة تماماً... ثمّ أضافوا ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾.

ويستفاد من هذه الآية جيداً أنّ أسرة واحدة فقط في جميع تلك المدن والقرى كانت مؤمنة وغير مدنّسة، وقد نجاها الله في ذلك الحين أيضاً... كما نقرأ مثل ذلك في الآية (٣٦) من سورة الذاريات: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ومع ذلك فإنّ امرأة لوط كانت خارجة عن جماعة المؤمنين، فشملها العذاب.

والتعبير بـ«الغابرين» جمع «غابر» ومعناه المتخلف عن جماعته الماضين في الطريق، فالمرأة التي كانت في عائلة النبوّة لا ينبغي لها أن تنفصل عن المؤمنين والمسلمين... غير أنّ الكفر والشرك وعبادة الأوثان - كل ذلك - دعاها إلى الانفصال!

ويتّضح من هنا أنّ انحرافها كان من جهة العقيدة، ولا يبعد أن يكون هذا الانحراف متأثراً بسبب محيطها... وكانت في بداية الأمر مؤمنة موحدة، وبهذا فلن يرد أي إشكال على لوط عليه السلام في أنّه لم يتزوج بمثل هذه المرأة؟!

وإذا كان جماعة من المؤمنين الآخرين قد آمنوا بلوط، فمن المؤكّد أنّهم كانوا قد هاجروا عن تلك الأرض المدنّسة قبل هذا الحادث، ما عدا لوطاً وأهله، فإنّه كان عليه أن يبقى إلى آخر ساعة هناك، لاحتمال تأثير تبليغه وإنذاره.

هنا ينقدح هذا السؤال: ترى هل كان «إبراهيم» يحتمل أنّ عذاب الله سيشمل لوطاً، فأظهر تأثره أمام الملائكة، غير أنّهم طمأنوه بنجاة لوط؟!

والجواب الواضح على هذا السؤال، وهو أنّ إبراهيم كان يعرف الحقيقة، وإنّما سأل ليطمئن قلبه، نظير هذا السؤال ما كان من هذا النّبي العظيم في شأن المعاد وإحياء الموتى، إذ جسد له الله ذلك في إحياء أربعة من الطير «ليطمئن قلبه».

إلاّ أنّ المفسّر الكبير العلاّمة الطباطبائي يعتقد أنّ المراد من سؤال إبراهيم هو أنّ وجود «لوط» بين هؤلاء القوم سيكون دليلاً على رفع العذاب عنهم... ويستعين بالآيات (٧٤) - (٧٦) من سورة هود على هذا المقصد، لأنّ هذه الآيات تبيّن: أنّه عليه السلام كان يريد بقوله: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ أن يصرف العذاب بأن فيها لوطاً وإهلاك أهلها يشمله، فأجابوه بأنّهم لا يخفى عليهم ذلك بل معه غيره ممن لا يشملهم العذاب وهم أهله إلاّ امرأته[1].

لكننا نعتقد أنّ هذا الجواب من الملائكة - في صدد نجاة لوط وأهله - يدلّ بوضوح أنّ الكلام في هذه الآيات هو على لوط فحسب، ولكن آيات سورة هود تتحدث عن موضوع منفصل، وكما قلنا آنفاً فإنّ إبراهيم كان ليطمئن قلبه أكثر «فلاحظوا بدقة».

انتهى كلام الملائكة مع إبراهيم هنا، وتوجهوا إلى ديار لوط عليه السلام وقومه، يقول القرآن في هذا الشأن: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾.

وكان كلّ استيائه وعدم ارتياحه بسبب أنّه لم يعرفهم... فقد جاؤوا إليه بهيئة فتيان ذي وجوه مليحة، ومجيء أمثال هؤلاء الضيوف في مثل هذا المحيط الملوّث، ربّما كان يجرّ على لوط الوبال، وأن يذهب ماء وجهه أمامهم، لذلك فكر مليّاً: ما عسى أن يكون ردّ فعل هؤلاء القوم الضالين الوقحين الذين لا حياء لهم قبال هؤلاء الضيوف؟!

«سيء» مشتقّة من «ساء» ومعناه سوء الحال، و«الذرع» معناه «القلب» «الخلق»، فعلى هذا يكون معنى ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي ضاق قلبه وانزعج.

---

(١) تفسير الميزان، ج ١٦، ص ١٢٤.

وقال بعض المفسّرين: إنّ هذه الكلمة في الأصل تعني «الفاصلة بين أطراف البعير أثناء السير» وحيث إنّهم إذا وضعوا على البعير حملاً ثقيلاً قصّر خطاه وضيّق الفاصلة، عبروا بجملة «ضاق ذرعاً» كناية عن الحادثة الثقيلة «الصعبة» التي لا تطاق!

إلاّ أنّ الضيوف حين أدركوا عدم ارتياحه كشفوا عن «هويّتهم» وعرفوا أنفسهم ورفعوا عنه الحزن: ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

ويستفاد بالطبع من الآيات التي في سورة هود أنّ أُولئك القوم الأراذل، حين عرفوا بوجود الضيوف عند لوط عليه السلام أسرعوا إليه، وكان في نيّتهم أن يعتدوا عليهم، وحيث إنّ لوطاً كان لا يزال غير عارف بحقيقة الملائكة فقد كان متأثراً جدّاً، وكان تارةً ينصحهم وأُخرى يهدّدهم ومرّةً يقول لهم: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾[١] فيحرك ضمائرهم وتارةً يقترح عليهم الزواج من بناته، وأراد أن يمنعهم من الوصول إلى أضيافه، لكن هؤلاء المنحرفين الذين لا حياء لهم لم يقتنعوا بأي شيء ولم يفكروا إلاّ بهدفهم المخزي.

ولكن رسل الله عرفوا أنفسهم للوط عليه السلام، وأعموا أبصار هؤلاء القوم الذين أرادوا الهجوم على الملائكة وأثلجوا قلب ذلك النّبي العظيم عليه السلام [٢].

وما ينبغي الالتفات إليه أنّ رسُل الله قالوا للوط: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ فما الفرق بين كلمتي «الخوف» و«الحزن»؟

ورد في تفسير الميزان أنّ الخوف يقع على الحوادث غير المستساغة احتمالا.. أمّا الحزن فيقع في الموارد القطعية.

وقال بعضهم: الخوف يطلق على الحوادث المستقبلية، أمّا الحزن فعلى ما مضى!

كما يرد هذا الاحتمال وهو أن الخوف في المسائل الخطرة، أمّا الحزن فهو في المسائل الموجعة، وإن لم يكن فيها أي خطر!..

وهنا ينقدح هذا السؤال، وهو أنّه طبقاً لآيات سورة هود فإنّ لوطاً وخوفه لم يكن على نفسه، بل كان يخشى أن يضايقوا «ضيفه»[٣] غير أنّ جواب الملائكة يتعلق بنجاة لوط وأهله، وهذان الأمران غير منسجمين.

---

(١) سورة هود، الآية: ٧٨.

(٢) ذكرنا تفصيل هذا الحادث في ذيل الآيات ٧٧ - ٨١ من سورة هود فلا بأس بمراجعتها.

(٣) «الضيف» يطلق على المفرد والجمع، وجمعه: ضيوف وأضياف. (المصحح).

والجواب على هذا السؤال يستفاد إجمالاً من الآية (٨١) من سورة هود، لأنّ القوم المنحرفين حين مدّوا أيديهم إلى الضيوف قال الملائكة: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ أي مسألتنا سهلة... ولن يصل إليك سوء وأذى منهم أيضاً، فعلى هذا كان الملائكة يرون النجاة بالنسبة لهم من المسلّم بها، وإنّما ركزوا على البشارة للوط وأهله فحسب.

وبعد هذا، ولكي تتضح خطة عملهم في شأن عاقبة هؤلاء القوم المنحرفين أكثر، أضافوا: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾.

والمراد بالقرية هي «سدوم» وما جاورها من القرى والمدن التي كان يسكنها قوم لوط، وقد أوصل بعضهم عدد هؤلاء إلى سبعمائة ألف نفر[١].

والمراد من «الرجز» هنا هو العذاب، ومعناه الأصلي الاضطراب، ثمّ عبروا عن كل شيء يوجب الاضطراب بالرجز، ولذلك استعمل العرب كلمة الرجز في كثير من المعاني كالبلايا الشديدة، والطاعون أو البرد، والأصنام، ووساوس الشيطان، والعذاب الإلهي.. الخ.

وجملة ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ هي سبب عقابهم الشديد، لأنّهم لم يطيعوا الله، والتعبير بالفعل المضارع ﴿يَفۡسُقُونَ﴾ دليل على استمرارهم ودوامهم على العمل القبيح!.

وهذا التعبير يبيّن هذه الحقيقة، وهي لو أن أُولئك لم يستمروا على الذنب، وكانوا يتوبون ويعودون إلى طريق الحق والتقوى، لم يبتلوا بمثل هذا العذاب وكانت ذنوبهم الماضية مغفورة.

وهنا لم يذكر القرآن كيفية العذاب الأليم، سوى أنّه قال: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾.

إلاّ أنّ في سورة هود الآية (٨٢) منها، وكذلك سورة الأعراف الآية ٨٤ منها، تفصيلاً في بيان العذاب، وهو أنّه أصابت قراهم في البداية زلزلة شديدة فجعلت عاليها سافلها، ثمّ أمطرت عليها حجارة من السماء بحيث توارت بيوتهم وقراهم وأجسادهم تحتها!.

والتعبير بـ«الآية البينة» أي العلامة الواضحة، هو إشارة إلى الآثار الباقية من مدينة

---

(١) تفسير روح البيان، ج ٦، ص ٤٦٧.

«سدوم» التي كانت في طريق قوافل أهل الحجاز طبقاً «لآيات القرآن». . . وكانت باقية حتى ظهور النبي ﷺ. كما نقرأ في الآية (٧٦) من سورة الحجر ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾، وكما نقرأ في سورة الصافات الآيتين (١٣٧) و(١٣٨): ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

التّفسير

تنوع العذاب للظالمين

بعد بيان قصّة لوط وقومه يقع الكلام عن أقوام آخرين أمثال قوم شعيب وعاد وثمود، وقارون وفرعون، وقد أشير في هذه الآيات - محل البحث - إلى كلٍّ منهم إشارة موجزة «مكثفة» للاستنتاج والعبرة!

في البداية تقول الآية: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[1].

والتعبير بكلمة ﴿أَخَاهُمْ﴾ كما قلنا مراراً، هو إشارة إلى منتهى محبّة هؤلاء الأنبياء إلى أممهم، وإلى عدم طلبهم السلطة، وبالطبع فإنّ هؤلاء الأنبياء كانت لهم علاقة قرابة بقومهم أيضاً.

(١) هذه الجملة معطوفة على جملة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾.

و«مدين» مدينة واقعة جنوب غربي الأردن، وتدعى اليوم بـ«معان» وهي في شرق خليج العقبة، وكان شعيب عليه السلام وقومه يقطنون فيها[١].

وشعيب كسائر أنبياء الله العظام، بدأ بالدعوة إلى الاعتقاد بالمبدأ والمعاد، وهما أساس كل دين وطريقة ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾.

فالإيمان بالمبدأ يكون سبباً لإحساس الإنسان بأن الله يراقبه مراقبةً دقيقةً بشكل دائم ويسجّل أعماله؛ والإيمان بالمعاد يذكّر الإنسان بمحكمة عظيمة يحاسب فيها عن كل شيء وكل عمل مهما كان تافهاً... ومن المسلّم أنّ الاعتقاد بهذين الأصلين له أثره البالغ على تربية الإنسان وإصلاحه!.

والمبدأ الثّالث هو بمثابة خطّة عمل جامعة، تحمل بين طياتها جميع الخطط الاجتماعية، إذ قال: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾.

وللفساد مفهوم واسع يشمل كل نقص انحراف، وتدمير، وظلم.. الخ.. ويقابله الصلاح والإصلاح، ومفهومهما يشمل جميع الخطط البنّاءة!.

أمّا كلمة «تعثوا» فهي من مادة «عثى» ومعناه إحداث الفساد أو الإفساد، غاية ما في الأمر أن هذا التعبير كثيراً ما يستعمل في الموارد التي تكون فيها «مفاسد أخلاقية»، فعلى هذا يكون ذكر كلمة «مفسدين» بعدها تأكيداً على هذا المفهوم.

إلاّ أنّ تلك الجماعة بدلاً من أن تصغي لمواعظه ونصائحه بآذان القلوب، خالفته ولم تصغ إليه «فكذبوه».

وكان هذا التكذيب سبباً في أن تصيبهم زلزلة شديدة ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ أي مكبوبين على وجوههم ميتين.

و«الجاثم» مشتق من «جثم» على زنة «سهم» ومعناه الجلوس على الركبة والتوقف في مكان ما... ولا يبعد أن يكونوا نائمين عند وقوع هذه الزلزلة الشديدة.. فهذا التعبير إشارة إلى أنّهم عند وقوع هذه الحادثة نهضوا وجثوا على الركب، إلاّ أنّ الحادثة لم تمهلهم حيث انهارت الجدران عليهم ونزلت عليهم الصاعقة التي تزامنت معها فماتوا[٢].

---

(١) ورد الكلام على مدين في ذيل الآية (٢٣) من سورة القصص في هذا الجزء بإسهاب.

(٢) بيان هذه الحادثة المؤلمة فصلناه في تفسير «سورة هود» ذيل الآيات في شرح قصة «شعيب وقومه».

أمّا الآية التي بعده فتتحدث عن «عاد» و«ثمود» قومي (هود وصالح)، دون أن تذكر ما قاله نبيّاهما لهما، وما ردّ عليهما قومهما المعاندون، لأنّهما مذكوران في آيات عديدة من القرآن، وهما أي قوم هود وقوم صالح معروفان، فلذلك، تقول الآية: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾(١).

ثمّ تضيف الآية ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡ﴾ المتهدمة والتي هي على طريقكم في منطقة الحجر واليمن.

فأنتم في كل سنة تمرون في أسفاركم للتجارة بأرض «الحجر» التي تقع شمال جزيرة العرب، وبالأحقاف التي تقع قريباً من اليمن وجنوبها، وترون آثار المساكن المتهدمة وبقاياها من عاد وثمود، فعلام لا تعتبرون؟!

ثمّ تشير الآية إلى السبب الأصلي لشقائهم وسوء حظّهم، إذ تقول: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

وكانت فطرتهم على فطرة الله وتقواه، ولم يأل الأنبياء جهداً في هدايتهم، وبذلوا قدراً كافياً من النصح والإرشاد لهم، لكنّهم حادوا ﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾.

قال بعض المفسّرين: إنّ جملة ﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ تعني أنّهم كانوا ذوي أعين بصيرة، وعقل كاف.

وقال بعضهم: إنّها تعني أنّهم كانوا على الفطرة السليمة.

كما قال آخرون: إنّها تعني هداية الأنبياء لهم.

ولا يمنع اجتماع جميع هذه المعاني في الآية الكريمة، فهي إشارة إلى أنّهم لم يكونوا جاهلين قاصرين، بل كانوا يعرفون الحق جيداً من قبل، وكانت ضمائرهم حية ولديهم العقل الكافي، وأتمّ الأنبياء عليهم الحجّة البالغة، ولكن... مع كل ما تقدم... من نداء العقل والضمير، ودعوة الأنبياء، فقد انحرفوا عن السبيل ووسوس لهم الشيطان، ويوماً بعد يوم يرون أعمالهم القبيحة حسنةً، وبلغوا مرحلة لا سبيل لهم إلى الرجوع منها، فأحرق قانون الخلق والإيجاد هذه العيدان اليابسة.. وهي جديرة بذلك!

---

(١) ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ مفعولان لفعل مقدر وهو «أهلكنا» وهو يستفاد من الآية السابقة. وقال بعضهم: فعلهما المحذوف تقديره «اذكر».

والآية الأُخرى تذكر أسماء ثلاثة من الجبابرة الذين كان كل واحد منهم بارزاً للقدرة الشيطانية، فتقول: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ﴾[1].

فقارون كان مظهر الثروة المقرونة بالغرور وعبادة «الذات» والأنانية والغفلة.

وفرعون كان مظهر القدرة الاستكبارية المقرونة بالشيطنة.

وأمّا هامان، فهو مثل لمن يعين الظالمين المستكبرين!.

ثمّ يضيف القرآن ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ والدلائل ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فاعتمد قارون على ثروته وخزائنه وعلمه، واعتمد فرعون وهامان على جيشهما وعلى القدرة العسكرية، وعلى قوة إعلامهم وتضليلهم لطبقات الناس المغفّلين الجهلة.

لكن.. برغم كل ذلك لم يفلحوا ﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾.

فأمر الله الأرض التي هي مهد الاطمئنان والدعة بابتلاع قارون.

وأمر الماء الذي هو مصدر الحياة بابتلاع فرعون وهامان.

وعبأ جنود السماوات والأرض لإهلاكهم جميعاً، بل ما كان مصدر حياتهم أمر الله أن يكون هو نفسه سبباً لفنائهم[2].

كلمة ﴿سَٰبِقِينَ﴾ تعني من يتقدم ويكون أمام الآخرين، فمفهوم قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ أي إنّهم لم يستطيعوا أن يهربوا من سلطان الله برغم ما كان عندهم من إمكانات، بل أهلكهم الله في اللحظة التي أراد، وأرسلهم إلى ديار الفناء والذلة والخزي.

كما يذكر في الآية التي بعدها ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾.

وحيث إنّ القرآن ذكر «الطوائف الأربع» في الآيتين المتقدمتين، ولم يبيّن عذابهم، وهم:

١ - قوم هود «عاد».

٢ - وثمود «قوم صالح».

٣ - قارون.

---

(١) هذه الكلمات الثلاث مفاعيل للفعل المقدر «أهلكنا» أو كما قال البعض: هي مفاعيل لفعل تقديره «اذكر»!

(٢) شرح قصّة حياة قارون في الآيات السبع ٧٦ - ٨٢ من سورة القصص، وهلاك فرعون وجماعته في تفسير سورة القصص، كما ورد في سورة الأعراف أيضاً.

٤ - فرعون وهامان.

فإنه يذكر في هذه الآية بحسب الترتيب أنواع عذابهم. فيقول: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾.

و«الحاصب» معناه الإعصار الذي يحمل حصى كثيرة معه، و«الحصباء» «الحصى الصغيرة».

والمقصود بـ«منهم» هنا هم «عاد» قوم هود، وحسب ما جاء في بعض السور كالذاريات والحاقة والقمر، أصابهم إعصار شديد مهلك خلال ثمانية أيام وسبع ليال فدمرهم تدميراً.

يقول القرآن: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ «الحاقة» ٧ و ٨.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وقلنا: إنّ الصيحة السماوية التي هي نتيجة الصاعقة التي تقترن مع الزلزلة في زمان الوقوع، وهذا هو العذاب الذي عذب الله به ثمود «قوم هود» كما عذب آخرين... ويقول القرآن في الآية (٦٧) من سورة هود في شأن ثمود ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾. وهذا هو عقاب قارون الثري المغرور المستكبر من بني إسرائيل، وقد أشير إليه في الآية (٨١) من سورة القصص.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ ونعرف أنّ هذا الكلام إشارة إلى عقاب فرعون وهامان وجنودهما، وقد ذكرت هذه القصّة في سور متعددة من القرآن الكريم.

وعلى كلّ حال، فمع الالتفات لهذا البيان فإن أنواع العذاب الأربعة ذكرت هنا للطوائف الأربع المذكورين في الآيتين المتقدمتين. حيث أشارتا إلى ضلالهم وانحرافهم وذنوبهم دون أن تذكرا عقابهم.

ولكن من البعيد أن تشمل هذه الأنواع الأربعة من العذاب الواردة في هذه الآية أقواماً آخرين، كما يقول بعض المفسّرين. «كالغرق لقوم نوح، وإمطار الحجارة والحصباء على قوم لوط» لأنّ عقابهم مذكور هناك وفي موارد ذكرهم ولا حاجة للتكرار هنا، وأمّا عقاب الفئات الأربع فلم يذكر في هذه السلسلة من الآيات، ولذا بيّنه الله سبحانه في الآيتين الأخيرتين.

ويبيّن في ختام الآية التأكيد على هذه الحقيقة، وهي أنّ ما أصابهم هو بسبب أعمالهم،

وهم زرعوا فحصدوا ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

أجل، إنّ عقاب هذه الدنيا والآخرة هو تجسيد أعمالهم، حيث يغلقون جميع طرق الإصلاح في وجوههم. فالله أكثر عدلاً وأسمى من أن يظلم الإنسان أدنى ظلم!.

وهذه الآية - كسائر كثير من آيات القرآن - تثبت أصل الحرية في الإرادة والاختيار عند الإنسان، وتقرر أن التصميم في كل مكان يصدر من الإنسان نفسه، وقد خلقه الله حرّاً ويريده حرّاً.. فعلى هذا يبطل اعتقاد أتباع مذهب «الجبر» الذين لهم وجود بين المسلمين - مع الأسف - بهذا المنطق القوي للقرآن الكريم.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾

التّفسير

دعامة واهية كبيت العنكبوت

بيّنت الآيات السابقة ما آل إليه المشركون والمفسدون الظلمة والأنانيون من مصير وخيم وعاقبة سوداء وعذاب أليم... وبهذه المناسبة، ففي الآيات التي بين أيدينا، يبيّن القرآن الكريم مثالاً بليغاً ومؤثراً يعبدون غير الله ويتخذون من دونه أولياء! وكلما أمعنا النظر في هذا المثال وفكرنا فيه مليّاً انقدحت في أذهاننا منه لطائف دقيقة، يقول تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾.

كم هو بديع هذا المثال وطريف، وكم هو بليغ ودقيق هذا التشبيه!.

تأمّلوا بدقّة... إنّ كل حيوان - وكل حشرة - له بيت أو وكر وما أشبه ذلك، لكن ليس في هذه البيوت بيت أوهن من بيت العنكبوت! فكل بيت - عادةً - يحتوي على سقف وباب وجدار، وهو يحفظ صاحبه من الحوادث، ويكون مكاناً أميناً لإيداع

الأطعمة والأشياء الأُخرى وحفظها. . . فبعض البيوت لا سقف لها إلاّ أنّها على الأقل لها جدار، كما أنّ هناك بيوتاً لا جدار لها إلاّ أنّ لها سقفاً.

لكن بيت العنكبوت المنسوج من خيوط دقيقة واهية، ليس له سقف ولا جدار ولا ساحة ولا باحة ولا باب، هذا من جانب. . . ومن جانب آخر فإنّ مواد بنائه واهية جدّاً وسرعان ما تتلاشى إزاء أية حادثة بسيطة، فهي لا تقدر على المقاومة.

فلو هبّ نسيم عليل لتمزق هذا النسيج.

ولو سقطت عليه قطرات المطر لتلاشى وتلف.

ولو لامسته شعلة خفيفة لأحرقته.

وحتى لو تراكم عليه الغبار لتركه أشلاء ممزقة معلقة.

فآلهة هؤلاء الجماعة ومعبوداتهم «الكاذبة» كمثل هذا البيت لا تنفع ولا تضر ولا تحلّ مشكلة، ولا تكون ملجأ لأحد في المحنة والشدّة!.

صحيح. . . إنّ هذا البيت للعنكبوت - مع ما لها من أرجل طويلة - هو محل استراحتها، وشركٌ لاصطياد الحشرات والحصول على الغذاء إلاّ أنّ هذا البيت - بالقياس إلى البيوت الأُخرى للحيوانات والحشرات - في منتهى الوهن والانهيار!.

فمن يعتمد على غير الله ويتخذ من دونه ولياً، فقد اعتمد على بيت العنكبوت!!.

والذين اختاروا سوى الله، اعتمدوا على بيوت العناكب، كعرش فرعون وتاجه، والأموال المتراكمة عند قارون، وقصور الملوك وخزائنهم، جميع هذه الأمورالمذكورة كمثل بيت العنكبوت!.

فهي لا تدوم، ولا يمكن الاعتماد عليها، ولا أساس لها حتى تكون راسخة أمام طوفان الحوادث.

والتاريخ يدل على أنّه لا يمكن الاعتماد على أيّ من هذه الأُمور حقّاً.

أمّا الذين اعتمدوا على الله وتوكلوا عليه، فقد اعتمدوا على سدّ حصين منيع.

والجدير بالذكر، أنّ بيت العنكبوت ونسيج خيوطه المضروب به المثل، هو نفسه من عجائب الخلق، والتدقيق فيه يعرف الإنسان على عظمة الخالق أكثر. . فخيوط العنكبوت «مصنوعة» ومنسوجة من مائع لزج، هذا المائع مستقر في حفر دقيقة وصغيرة كرأس الإبرة تحت بطن العنكبوت، ولهذا المائع خصوصية أو تركيب خاص هو أنّه متى ما لامس الهواء جهد وتصلّب.

والعنكبوت تخرج هذا المائع بواسطة آليات خاصة وتصنع خيوطها منه.

يقال: إنّ كلّ عنكبوت يمكن لها أن تصنع من هذا المائع القليل جدّاً ما مقداره خمسمائة متر من خيطها المفتول!

وقال بعضهم: إنّ الوهن في هذه الخيوط منشؤه دقّتها القصوى، ولولا هذه الدقّة فإنّها أقوى من الفولاذ «لو قدر أن تفتل بحجم الخيط الفولاذي».

العجيب أنّ هذه الخيوط تنسج أحياناً من أربع جدائل كل جديلة هي أيضاً منسوجة أو مصنوعة من ألف جديلة! وكل جديلة تخرج من ثقب صغير جدّاً في بدن العنكبوت، ففكروا الآن في هذه الخيوط التي تتكون منها هذه الجديلة كم هي ناعمة ودقيقة وظريفة؟!

وإضافةً إلى العجائب الكامنة في بناء بيت العنكبوت ونسجه، فإنّ شكل بنائه وهندسته طريف أيضاً، فلو دققنا النظر في بيوت العنكبوت لرأينا منظراً طريفاً مثل الشمس وأشعتها مستقرةً على قواعد هذا «البناء النسيجي»، وبالطبع فإنّ هذا البيت مناسب للعنكبوت وكاف، ولكنّه في المجموع لا يمكن تصور بيت أوهن منه، وهكذا بالنسبة إلى آلهة الضالين ومعبوديهم، إذ تركوا عبادة الله والتجأوا إلى الأصنام والأحجار والأوثان!!.

ومع الالتفات إلى أن العناكب ليست نوعاً واحداً، بل - كما يدعي بعض العلماء - عرف منها حتى الآن عشرون ألف نوع، وكل نوع له خصوصياته التي تبين عظمة الخالق وقدرته في خلق هذا الموجود الصغير بوضوح وجلاء.

التعبير بـ«الأولياء» جمع ولي مكان التعبير بالأصنام، ربّما كان إشارة ضمنية إلى هذه اللطيفة، وهي أنّه ليس الحكم مختصاً بالأصنام والآلهة المزعومة، بل حتى الأئمة والقادة الأرضيين مشمولون بهذا الحكم أيضاً.

وجملة ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ تتعلق بالأصنام والمعبودين من دون الله ولا ترتبط بوهن بيت العنكبوت... لأنّ وهن بيت العنكبوت معلوم عند الجميع، فعلى هذا يكون مفهوم الجملة كالتالي: لو كانوا يعلمون وهن المعبودين من دون الله وما ركنوا إليه من دونه واختاروه، لعلموا أنّهم في الوهن والضعف كما هي الحال في بيت العنكبوت من الوهن!.

أمّا الآية التالية ففيها تهديد لهؤلاء المشركين الغفلة الجهلة.. إذ تقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾! ولا يخفى على الله شركهم الظاهر ولا شركهم الخفي ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ على الإطلاق!

وإذا أمهلهم، فليس بسبب العجز والضعف، أو عدم العلم، أو أن قدرته محدودة، بل كل ذلك من حكمته التي توجب أن يمنحوا الفرصة الكافية لتتم الحجة البالغة لله عليهم، فيهتدي من هو جدير بالهدى!.

قال بعض المفسّرين: إنّ هذه الجملة إشارة إلى حجج المشركين وإلى ادّعائهم أنّهم في عبادتهم للأصنام لا يريدون بها الأصنام ذاتها، بل إنّ الأصنام عندهم مظهر ورمز للنجوم السماوية والأنبياء والملائكة، فهم - كما يزعمون - يسجدون لأُولئك لا للأصنام وخيرهم وشرهم ونفعهم وضررهم بيدها أيضاً.

فالقرآن يبيّن أن الله يعلم الأشياء التي تدعونها - كائناً من كان، وأي شيء كان - فكل أُولئك المعبودين إزاء قدرته كمثل بيت العنكبوت، ولا يملكون لأنفسهم شيئاً كي يعطوه لكم، والآية الثّالثة - من الآيات محل البحث - لعلها تشير إلى ما استشكله أعداء الإسلام على النّبي ﷺ في هذه الأمثلة التي ضربها الله، وكانوا يقولون: الله الذي خلق السماوات والأرض كيف يضرب الأمثال بالعنكبوت والذباب والحشرات وما شاكلها؟

فيردّ القرآن بقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾.

إنّ أهميّة المثال وظرافته لا تكمن في كبره وصغره، بل تظهر أهميته في انطباق المثال على المقصود، فقد يكون صغر الشيء الممثل به أكبر نقطة في قوته.

قالوا في ضرب الأمثال: ينبغي عند الكلام عن الأشياء الضعيفة والتي فيها وهن أن يمثل لها في ما لو اعتمد عليها ببيت العنكبوت، فهو أحسن شيء ينتخب لهذا الوهن وعدم الثبات، فهذا المثال هو الفصاحة بعينها والبلاغة ذاتها، ولذا قيل: إنّه لايعلم دقائق أمثلة القرآن ولا يدركها إلاّ العلماء!.

وفي آخر آية - من الآيات محل البحث - يضيف القرآن الكريم: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾. ليس في عمل الله باطل أو عبث... فإذا التشبيه بالعنكبوت وبيته الخاوي هو أمر محسوب بدقّة، وإذا ما اختار موجوداً صغيراً للتمثيل به فهو لبيان الحقّ، وإلاّ فهو خالق أعظم المجرّات والمنظومات الشمسيّة وغيرها.

ومن الطريف - هنا - أن نهاية هذه الآيات تنتهي بالعلم والإيمان، ففي مكان يقول

القرآن: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ وفي مكان آخر يقول: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ وفي الآية التي نحن في صددها يقول: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾. وهي إشارة إلى أنّ وجه الحق مشرق جلي دائماً ولكنّه يثمر في الموارد المستعدة... في قلب مطّلع باحث، وعقل يقظ مذعن للحق... وإذا كان هؤلاء الذين عميت قلوبهم لا يرون جمال الحق، فليس ذلك لخفائه، بل لعماهم! وضلالهم!.

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

التّفسير

إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر:

بعد الفراغ من بيان أقسام مختلفة من قصص الأُمم السابقة وأنبيائهم العظام وما عاملهم به قومهم من معاملة سيئة مذمومة، وبيان نهاية هؤلاء الظالمين الأليمة، يتوجه الخطاب - على سبيل تسلية الخاطر، وتقوية الروحية، وإراءة الخط الكلّي أو الخطوط العامة - للنبيّ ﷺ ويأمره بما ينبغي عليه أن يفعل.

فيبدأ أوّلاً بقوله: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾... أي إقرأ هذه الآيات فسوف تجد فيها ما تبتغيه وتطلبه من العلم والحكمة والنصح، ومعيار معرفة الحق من الباطل، وسبل تنوير القلب والروح، ومسير حركة كل طائفة، أو مجموعة واتجاهها!.

اقرأ... وامض على نهجها في حياتك، اقرأها واستلهم منها... اقرأها ونوّر قلبك بتلاوتها.

وبعد بيان هذا الأمر الذي يحمل - في الحقيقة - طابعاً تعليمياً، يأتي الأمر الثّاني الذي هو محور أصيل للتربية فيقول تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

ثمّ يبيّن فلسفة الصلاة الكبرى فيقول: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[1].

---

(١) بيّنا الفرق بين الفحشاء والمنكر في تفسير الآية (٩٠) من سورة النحل في عبارة موجزة، وقلنا: إنّه يمكن التفريق بينهما بأنّ الفحشاء هي إشارة للذنوب الكبيرة الخفية، وأمّا المنكر فهو الذنوب الكبيرة الظاهرة، أو أنّ الفحشاء هي الذنوب التي تنتج بغلبة القوى الشهوانية، والمنكر من أثر القوى الغضبية.

طبيعة الصلاة - حيث إنّها تذكر بأقوى رادع للنفس، وهو الاعتقاد بالمبدأ والمعاد - فإنّها تردع عن الفحشاء والمنكر، فالإنسان الذي يقف للصلاة، ويكبّر، يرى الله أعلى من كل شيء وأسمى من كل شيء، ويتذكر نعمه فيحمده ويشكره، ويثني عليه وينعته بأنّه رحمان رحيم، ويذكر يوم الجزاء «يوم الدين» ويعترف بالعبودية له، ويطلب منه العون، ويستهديه الصراط المستقيم، ويتعوذ به من طريق المغضوب عليهم، ويلتجىء إليه (مضمون سورة الحمد).

فلا شك أنّ قلب مثل هذا الإنسان وروحه سوف تدبّ فيها حركة نحو الحقّ، واندفاع نحو الطهارة، ونهوض نحو التقوى.

يركع لله.. ويضع جبهته على الأرض ساجداً لحضرته، ويغرق في عظمته، وينسى أنانيته وذاتيّاته جميعاً.

ويشهد بوحدانيته وبرسالة النّبي ﷺ.

ويصلّي ويسلّم على نبيّه، ويرفع يديه متضرعاً بالدعاء ليجعله في زمرة عباده الصالحين.

جميع هذه الأُمور تمنح وجوده موجاً من المعنوية، وتكون سدّاً منيعاً بوجه الذنوب.

ويتكرر هذا العمل عدة مرّات «ليل نهار» فحين ينهض صباحاً يقف بين يدي ربّه وخالقه ليناجيه..

وعند منتصف النهار وبينما هو غارق في حياته المادية يفاجأ بصوت تكبير المؤذن، فيقطع عمله ويسرع إلى حضرته، بل في آخر النهار بداية الليل أيضاً وقبل أن يدلف إلى فراش الدعة والراحة، يدعوه ويطلب منه حاجته، ويجعل قلبه مركز أنواره.

وبغض النظر عن كلّ ما تقدم فإنّ الإنسان حين يتهيأ لمقدمات الصلاة، يطهّر بدنه ويبعد عنه مسائل الحرام والغصب، ويتّجه إلى الحبيب، فكلّ هذه الأُمور لها تأثير رادع لنوازع الفحشاء والمنكر.

غاية ما في الأمر أنّ كل صلاة - بحسب شروط الكمال وروح العبادة لها - أثر رادع ناهٍ عن الفحشاء والمنكر، فتارة تنهى نهياً كليّاً وأُخرى جزئياً.. ومحدوداً.

ولا يمكن لأحد أن يصلّي ولا تدع الصلاة فيه أثراً حتى لو كانت الصلاة صورية، وحتى لو كان ملوّثاً بالذنب! وبالطبع فإنّ مثل هذه الصلاة قليلة الفائدة ومثل هؤلاء الأفراد لو لم يصلّوا صلاةً كهذه لكانوا أسوأ ممّا هم عليه.

ولنوضّح أكثر فنقول: النهي عن الفحشاء والمنكر له سلسلة درجات ومراتب كثيرة، وكل صلاة مع رعاية الشروط لها نسبة من هذه الدرجات.

وممّا بيّناه آنفاً يتّضح أن تخبط بعض المفسّرين في تفسير هذه الآية، وانتخاب تفسيرات غير مناسبة لا وجه له! وربّما فسّروها بتفسير غير مناسب، لأنّهم رأوا بعض الناس يصلون ويرتكبون الذنوب، ففسّروا الآية في معناها المطلق دون سلسلة المراتب، وأخذوا يشكّون ويترددون، فاختاروا طرقاً أُخرى في تفسير الآية.

فمنها ما قاله بعضهم: من أنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ما دام الإنسان مشغولاً بها، وهذا كلام عجيب، إذ لا تتميز الصلاة بهذا وحدها، فكثير من الأعمال على هذه الشاكلة.

وقال بعضهم: إنّ أعمال الصلاة وأذكارها بمثابة عبارات وجمل، كل جملة تنهى الإنسان عن الفحشاء والمنكر، فمثلاً كل من التكبير والتهليل والتسبيح.. كلٌّ منها يقول للإنسان: لا تذنب ولكن هل أنّ هذا الإنسان يصغي لهذا النهي أم لا... فهذا أمر آخر.

ولكن من ذهب إلى هذا التّفسير، غفل عن هذه الحقيقة، وهي أنّ النهي هنا ليس نهياً تشريعياً فحسب، بل هو نهي تكويني، فظاهر الآية أنّ الصلاة لها أثر ناه، والتّفسير الأصيل هو ما قدمناه ذكره وبيانه آنفاً.

وبالطبع فلا مانع من القول أنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر نهياً تكوينياً ونهياً تشريعياً أيضاً.

«أحاديث» ينبغي الإلتفاتُ إليها:

١ - في حديث عن النّبي الأكرم محمّد ﷺ ورد أنّه قال: «من لم تنهَهُ صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلاّ بُعداً»(١).

٢ - وفي حديث آخر عنه ﷺ أيضاً: «لا صلاة لمن لم يطع الصلاة، وطاعة الصلاة أن ينتهي عن الفحشاء والمنكر»(٢).

٣ - كما نقرأ في حديث ثالث عنه ﷺ أنّ شاباً من الأنصار أدّى الصلاة معه،

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٨، ص٢٨٥، ذيل الآية محل البحث «والحديث الثّاني يشعر بالنهي التشريعي».

(٢) المصدر السابق.

ولكنّه كان ملوثاً بالذنوب القبيحة، فأخبروا النّبي ﷺ فقال: «إن صلاته تنهاه يوماً»(١).

٤ - هذا الأثر للصلاة له أهمّية قصوى إلى درجة أنّنا نجده في الرّوايات الإسلامية معياراً لقبول الصلاة وعدمها، إذ ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «من أحبّ أن يعلم أقبلت صلاته أم لم تقبل، فلينظر هل منعت صلاته عن الفحشاء والمنكر؟! فبقدر ما منعته قبلت منه!»(٢).

ويقول القرآن تعقيباً على ما ذكره من شأن الصلاة ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

وظاهر الجملة هو بيان غاية وحكمة أُخرى في الصلاة، أي أن أثراً آخر من آثار الصلاة وبركاتها أهم من كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر هو تذكير الإنسان بربّه، هذا الذكر هو أساس السعادة والخير، بل العامل الأصلي للنهي عن الفحشاء والمنكر أيضاً هو ذكر الله، وكونه أكبر لأنّه العلّة والأساس للصلاة!.

وأساساً... فإنّ ذكر الله فيه حياة القلوب ودعتها، ولا شيء يبلغ مبلغه ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾(٣).

ولا ريب أنّ روح العبادة بجميع أقسامها - صلاة كانت أم غيرها - هو ذكر الله، فأذكار الصلاة، وأفعالها ومقدماتها، جميعها في الواقع تحيي ذكر الله في قلب الإنسان.!

وممّا يلفت النظر أنّ في الآية (١٤) من سورة طه إشارة إلى هذه الحكمة الأساسية من الصلاة، إذ نلاحظ فيها الخطاب لموسى قائلاً: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾.

إلاّ أنّ المفسّرين الكبار ذكروا للجملة المتقدمة تفسيرات أُخرى، وقد ورد في الرّوايات الإسلامية إشارة إليها أيضاً... من ضمنها: إنّ المراد من الجملة المتقدمة، أنّ ذكر الله لكم برحمته أكبر من ذكركم لله بطاعته(٤).

ومنها: إنّ ذكر الله أكبر من الصلاة وأعلى، لأنّ روح كل عبادة «ذكر الله».

وهذه التّفاسير التي ورد بعضها في الرّوايات الإسلامية، ربّما كانت إشارة إلى بطون الآية، وإلاّ فإنّ ظاهرها منسجم مع المعنى الأوّل، لأنّه في أغلب الموارد التي يرد

(١-٢) تفسير مجمع البيان ذيل الآية محل البحث «والحديث الثّاني يشعر بالنهي التشريعي».

(٣) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

(٤) على ضوء هذا التّفسير يكون لفظ الجلالة «الله» فاعلا في المعنى، وعلى التّفسير السابق يكون مفعولا.

التعبير فيها بـ «ذكر الله» أو «ذكروا الله» أو «اذكروا الله» . . . الخ، يقصد بها ذكر الناس لله!

والآية المذكورة آنفاً، يتداعى لها هذا المعنى، إلاّ أنّ ذكر الله لعباده يمكن أن يكون نتيجة مباشرة لذكر العباد لله، وبهذا يرتفع التضاد بين المعنيين.

في حديث عن معاذ بن جبل أنّه قال: لا شيء من أعمال ابن آدم لنجاته من عذاب الله أكبر من ذكر الله، فسألوه: حتى الجهاد في سبيل الله؟! فقال: أجل، فالله يقول: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

والظاهر أنّ «معاذ بن جبل» سمع هذا الكلام من رسول الله ﷺ: لأنّه نفسه ينقل أنّه سأل رسول الله ﷺ: أيّ الأعمال أفضل؟ فقال ﷺ: «أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله».

وحيث إنّ نيّات الناس، وميزان حضور القلب منهم في الصلاة وسائر العبادات، كل ذلك متفاوت جدّاً، فإنّ الآية تختتم بالقول: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾.

أي يعلم ما تصنعون من أعمال في الخفاء أو العلن، والنيّات التي في قلوبكم أو الكلمات التي تجري على ألسنتكم!.

بحث

تأثير الصلاة في تربية الفرد والمجتمع

بالرغم من أنّ فائدة الصلاة لا تخفى على أحد، لكن التدقيق في متون الروايات الإسلامية يدلنا على لطائف ودقائق أكثر في هذا المجال!.

١ - إنّ روح الصلاة وأساسها وهدفها ومقدمتها ونتيجتها . . . وأخيراً حكمتها وفلسفتها(١)، هي ذكر الله، كما بيّنت في الآية على أنّها أكبر النتائج.

وبالطبع فإنّ الذكر المراد هنا، هو الذكر الذي يكون مقدمة للفكر، والفكر الذي يكون باعثاً على العمل، كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير جملة ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال: «ذكر الله عندما أحلّ وحرّم» أي على أن يتذكر الله فيتبع الحلال ويغضي أجفانه عن الحرام «بحار الأنوار، ج ٨٢، ص ٢٠٠».

---

(١) «الفلسفة» كلمة يونانية معناها «الحكمة» فهي ليست عربية لكنّها شاعت في العربية أيضاً.

٢ - إنّ الصلاة وسيلة لغسل الذنوب والتطهر منها، وذريعة إلى مغفرة الله، لأنّ الصلاة - كيف ما كانت - تدعو الإنسان إلى التوبة وإصلاح الماضي، ولذلك فإننا نقرأ في حديث عن النّبي الأكرم ﷺ إذ سأل بعض أصحابه: «لو كان على باب دار أحدكم نهر واغتسل في كل يوم منه خمس مرات أكان يبقى في جسده من الدرن شيء؟! قلت لا، قال: فإنّ مثل الصلاة كمثل النهر الجاري كلما صلّى كفرت ما بينهما من الذنوب»(١).

وعلى هذا فإنّ الجراح التي تخلفها الذنوب في روح الإنسان، وتكون غشاوة على قلبه، تلتئم بضماد الصلاة وينجلي بها صدأ القلوب!

٣ - إنّ الصلوات سدّ أمام الذنوب المقبلة، لأنّ الصلاة تقوي روح الإيمان في الإنسان، وتربّي شجيرة التقوى في قلب الإنسان، ونحن نعرف أنّ الإيمان والتقوى هما أقوى سدّ أمام الذنوب، وهذا هو ما بيّنته الآية المتقدمة عنوان: «النهي عن الفحشاء والمنكر»، وما نقرؤه في أحاديث متعددة من أنّ أفراداً كانوا مذنبين، فذكر حالهم لأئمّة الإسلام فقالوا: لا تكترثوا فإنّ الصلاة تصلح شأنهم... وقد أصلحتهم.

٤ - إنّ الصلاة توقظ الإنسان من الغفلة، وأعظم مصيبة على السائرين في طريق الحقّ أن ينسوا الهدف من إيجادهم وخلقهم، ويغرقوا في الحياة المادية ولذائذها العابرة!

إلاّ أنّ الصلاة بما أنّها تؤدى في أوقات مختلفة، وفي كل يوم وليلة خمس مرات، فإنّها تخطر الإنسان وتنذره، وتبيّن له الهدف من خلقه، وتنبهه إلى مكانته وموقعه في العالم بشكل رتيب، وهذه نعمة كبرى للإنسان بحيث إنّها في كل يوم وليلة تحثه وتقول له: كن يقظاً.

٥ - إنّ الصلاة تحطّم الأنانية والكبر، لأنّ الإنسان في كل يوم وليلة يصلي سبع عشرة ركعة، وفي كل ركعة يضع جبهته على التراب تواضعاً لله، ويرى نفسه ذرة صغيرة أمام عظمة الخالق، بل يرى نفسه صفراً بالنسبة إلى ما لا نهاية له!.

ولأمير المؤمنين علي عليه السلام كلام معروف تتجسد فيه، فلسفة العبادات الإسلامية بعد الإيمان بالله، فبيّن أوّل العبادات وهي الصلاة مقرونة بهذا الهدف إذ قال: «فرض الله

(١) وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٧ (الباب الثّاني من أبواب أعداد الفرائض الحديث ٣).

الإيمان تطهيراً من الشرك، والصلاة تنزيهاً عن الكبر»[1].

٦ - الصلاة وسيلة لتربية الفضائل الخُلقية والتكامل المعنوي للإنسان، لأنّها تخرج الإنسان عن العالم المحدود وتدعوه إلى ملكوت السماوات، وتجعله مشاركاً للملائكة بصوته ودعائه وابتهاله، فيرى نفسه غير محتاج إلى واسطة إلى الله أو أنّ هناك «حاجباً» يمنعه... فيتحدث مع ربّه ويناجيه!.

إنّ تكرار هذا العمل في اليوم والليلة - وبالاعتماد على صفات الله الرحمن الرحيم العظيم، خاصة بالاستعانة بسور القرآن المختلفة بعد سورة الحمد التي هي خير محفّز للصالحات، والطهارة - له الأثر في تربية الفضائل الخُلقية في وجود الإنسان!

لذلك نقرأ في تعبير الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام عن حكمتها قوله: «الصلاة قربان كل تقيّ!»[2].

٧ - إنّ الصلاة تعطي القيمة والروح لسائر أعمال الإنسان؛ لأنّ الصلاة توقظ في الإنسان روح الإخلاص... فهي مجموعة من النية الخالصة والكلام الطاهر «الطيب» والأعمال الخالصة... وتكرار هذه المجموعة في اليوم والليلة ينثر في روح الإنسان بذور سائر الأعمال الصالحة ويقوّي فيه روح الإخلاص.

لذلك فإنّنا نقرأ في بعض ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في ضمن وصاياه المعروفة بعد أن ضربه ابن ملجم بالسيف ففلق هامته، أنّه قال: «الله الله في صلاتكم فإنها عمود دينكم»[3].

ونعرف أنّ عمود الخيمة إذا انكسر أو هوى، فلا أثر للأوتاد والطنب مهما كانت محكمة... فكذلك ارتباط عباد الله به عن طريق الصلاة، فلو ذهبت لم يبق لأي عمل آخر أثر.

ونقرأ عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «أوّل ما يحاسب به العبد الصلاة، فإن قبلت قبل سائر عمله، وإن ردّت ردّ سائر عمله!»[4].

ولعل الدليل على هذا الحديث هو أنّ الصلاة رمزٌ للعلاقة والإرتباط بين الخالق

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار الكلمة ٢٥٢.
(٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٣٦.
(٣) نهج البلاغة، ومن كتاب له «وصية له» ٤٧.
(٤) وسائل الشيعة، ج٤، ص٣٤، (طبع آل البيت).

والمخلوق! فإذا ما أدّيت بشكل صحيح، وكان فيها قصد القربة والإخلاص «حيّاً» كان وسيلة القبول لسائر الأعمال، وإلاّ فإنّ بقية أعماله تكون مشوبة وملوّثة وساقطةً من درجة الاعتبار.

٨ - إنّ الصلاة - بقطع النظر - عن محتواها، ومع الالتفات إلى شرائط صحتها، فإنّها تدعو إلى تطهير الحياة! لأنّنا نعلم أنّ مكان المصلي، ولباس المصلي، وبساطه الذي يصلي عليه، والماء الذي يتوضأ به أو يغتسل منه، والمكان الذي يتطهر فيه «وضوءاً أو غسلاً» ينبغي أن يكون طاهراً من كل أنواع الغصب والتجاوز على حقوق الآخرين. فإنّ من كان ملوّثاً بالظلم والغصب والبخس في الميزان والبيع وآكلاً للرشوة ويكتسب أمواله من الحرام... كيف يمكن له أن يهيىء مقدمات الصلاة!؟ فعلى هذا فإنّ تكرار الصلاة خمس مرات في اليوم والليلة - هو نفسه - دعوة إلى رعاية حقوق الآخرين!

٩ - إنّ للصلاة - بالإضافة إلى شرائط صحتها - شرائط لقبولها، أو بتعبير آخر: شرائط لكمالها، ورعايتها - أيضاً - عامل مؤثر ومهم لترك كثير من الذنوب!.

وقد ورد في كتب الفقه ومصادر الحديث روايات كثيرة تحت عنوان موانع قبول الصلاة، ومنها «شرب الخمر» إذ جاء في بعض الرّوايات: لا تقبل صلاة شارب الخمر أربعين يوماً إلاّ أن يتوب(١).

كما نقرأ في روايات متعددة أنّ من جملة من لا تقبل صلاته «الإمام الظالم»(٢).

كما صُرّح في بعض الرّوايات بأنّ الصلاة لا تُقبل من «مانع الزكاة».

كما أنّ هناك بعض الرّوايات تقول: «إنّ الصلاة لا تقبل ممن يأكل السحت والحرام، ولا ممن يأخذه العجب والغرور» وهكذا تتّضح الحكمة والفائدة الكبيرة من وجود هذه الشروط.

١٠ - إنّ الصلاة تقوي في الإنسان روح الانضباط والالتزام، لأنّها ينبغي أن تؤدّى في أوقات معينة، لأنّ تأخيرها عن وقتها أو تقديمها عليه موجب لبطلانها.

وكذلك الآداب والأحكام الأُخرى في موارد النية والقيام والركوع والسجود وما شابهها، إذ إن رعايتها تجعل الاستجابة للالتزام في مناهج الحياة ممكناً وسهلاً.

(١) بحار الأنوار، ج ٨٤، ص ٣١٧ و٣٢٠.
(٢) المصدر السابق، ص ٣١٧.

كل هذه من فوائد الصلاة - بغض النظر عن صلاة الجماعة - وإذا أضفنا إليها خصوصية الجماعة، حيث إنّ روح الصلاة هي الجماعة، ففيها بركات لا تحصى ولا تعدّ، ولا مجال هنا لشرحها وبيانها، مضافاً إلى أنّ الجميع يدرك خيراتها وفوائدها على الإجمال.

ونختم كلامنا في مجال حكمة الصلاة وفلسفتها وأسرارها بحديث جامع منقول عن الإمام الرضا عليه السلام إذ سئل عنها فأجاب بما يلي: «إن علة الصلاة أنّها إقرار بالربوبية لله عزّ وجلّ، وخلع الأنداد، وقيام بين يدي الجبار جلّ جلاله بالذل والمسكنة والخضوع والاعتراف، والطلب للإقالة من سالف الذنوب، ووضع الوجه على الأرض كل يوم إعظاماً لله عزّ وجلّ، وأن يكون ذاكراً غير ناس ولا بطر، ويكون خاشعاً متذللاً، راغباً طالباً للزيادة في الدين والدنيا مع ما فيه من الإيجاب والمداومة على ذكر الله عزّ وجلّ بالليل والنهار، لئلا ينسى العبد سيده ومديره وخالقه فيبطر ويطغى، ويكون في ذكره لربّه وقيامه بين يديه زاجراً له عن المعاصي ومانعاً له عن أنواع الفساد»[1].

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

التّفسير

اتّبعوا أحسن الأساليب في البحث والجدال

كان أكثر الكلام في الآيات المتقدمة في كيفية التعامل مع المشركين المعاندين وكان مقتضى الحال أن يكون الكلام شديد اللهجة حاداً، وأن يعدّ ما يعبدون من دون الله

(١) وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٤.

أوهى من بيت العنكبوت، أمّا في هذه الآيات - محل البحث - فيقع الكلام في شأن مجادلة أهل الكتاب الذين ينبغي أن يكون الكلام معهم لطيفاً، إذ إنّهم - على الأقل - قد سمعوا قسماً ممّا جاء به الأنبياء والكتب السماوية، ولديهم استعداد أكثر للتعامل المنطقي، إذ ينبغي أن يكلم كل شخص بمقدار علمه وعقله وأخلاقه.

فيقول القرآن في هذا الصدد: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾(١).

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ﴾ مشتق من «جدال» ومعناه في الأصل فتل الحبل وإحكامه، كما تستعمل هذه المفردة في البناء المحكم وما أشبهه، وحين يتناقش اثنان في بحث معين فكل واحد منهما - في الحقيقة - يريد أن يلوي صاحبه عن عقيدته وفكرته.. لذا فقد سمّي هذا النقاش جدالاً. كما يرد هذا التعبير في النزاع أيضاً، وعلى كل حال فإنّه المراد من قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ﴾ المناقشات المنطقية.

والتعبير بـ﴿ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ تعبير جامع يشمل الأساليب والطرق الصحيحة والمناسبة للتباحث أجمع، سواءً كان ذلك في الألفاظ أو المحتوى، وسواء كان في طريقة الكلام، أو الحركات والإشارات المصاحبة له.

فعلى هذا يكون مفهوم الجملة المتقدمة: إنّ ألفاظكم ينبغي أن تكون بطريقة مؤدّبة، والكلام ذا مودّة، والمحتوى مستدلاً، وصوتكم هادئاً غير خشن، ولا متجاوزاً لحدود الأخلاق أو لهتك الحرمة، وكذلك بالنسبة لحركات الأيدي والعيون والحواجب التي تكمل البيان، ينبغي أن تكون هذه الحركات ضمن هذه الطريقة المؤدبة... وكم هو جميل هذا التعبير القرآني، إذ أوجز عالماً من المعاني الدقيقة في جملة قصيرة.

كل هذه الأُمور لأجل أن الهدف من وراء النقاش والبحث ليس هو طلب التفوق ودحر الطرف الآخر، بل الهدف أن يكون الكلام حتى ينفذ في القلب وفي أعماق الطرف الآخر... وخير السبل للوصول إلى هذا الهدف هو هذا الأسلوب القرآني.

وكثيراً ما يتفق أنّه لو استطاع الإنسان أن يبيّن قول الحق بصورة يراه الطرف الآخر متطابقاً لفكره ورأيه، فسرعان ما ينعطف إليه وينسجم معه، لأنّ الإنسان ذو علاقة بفكره كعلاقته بأبنائه.

وهكذا فإنّ القرآن الكريم يثير الكثير من المسائل على صورة «السؤال والاستفهام» لينتزع جوابه من داخل فكر المخاطب فيراه منه!

---

(١) «التي» هنا صفة لموصوف محذوف تقديره الطريقة أو ما شاكلها.

وبالطبع فإنّ لكل قانون استثناءً، ومنها هذا القانون أو الأصل الكلي في البحث والمجادلة الإسلامية، فقد يُعدّ في بعض الموارد ضعفاً، أو يكون الطرف الآخر مغروراً إلى درجة أنّ هذا التعامل الإنساني يزيده جرأة وعدواناً وتكبراً، لذلك فإنّ القرآن يضيف مستثنياً: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾.

وهم الذين ظلموا أنفسهم وظلموا الآخرين، وكتموا كثيراً من الآيات، لئلا يطلع الناس على أوصاف النبي محمّد ﷺ.

الظالمون الذين جعلوا أوامر الله التي لا تنسجم مع منافعهم الشخصية تحت أقدامهم.

الظالمون الذين آمنوا بالخرافات فكانوا كالمشركين في عقيدتهم إذ قالوا: إنّ المسيح ابن الله، أو العزير ابن الله.

وأخيراً فهم أُولئك الذين ظلموا وتذرعوا بالسيف والقوّة بدلاً من البحث المنطقي، وتوسّلوا بالشيطنة والتآمر على النّبي ﷺ وعلى الإسلام.

ويختتم الآية بمصداق بارز من «المجادلة بالتي هي أحسن» ويمكنه أن يكون قدوة لأي بحث؛ فيقول القرآن الكريم: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾.

كم هو جميل هذا التعبير! وكم هو رائع هذا النغم واللهجة! لهجة الوحدة والإيمان بكل ما أنزل الله الواحد، وحذف جميع العصبيّات، ونحن وأنتم جميعاً موحدون لله مسلمون له.

وهذا مثل واحد من المجادلة بالتي هي أحسن التي ينجذب إليها كل من يسمعها، ويدلّ على أنّ الإنسان يجب أن يكون بعيداً عن التحزب أو طلب التفرقة، فنداء الإسلام هو نداء الوحدة والتسليم لكل كلام حق.

وأمثلة هذا البحث كثيرة في القرآن، ومن ضمنها ما أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام إذ قال: «أمّا الجدال بالتي هي أحسن فهو ما أمر الله تعالى نبيّه أن يجادل به من جحد البعث بعد الموت وإحيائه له، فقال الله حاكياً عنه: قل (يا محمّد) ﴿يُحۡيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾[1] [2].

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٦٣. (٢) سورة يس، الآيتان: ٧٩ - ٨٠.

والآية الأُخرى تؤكّد على الأصول الأربعة التي سبق ذكرها في الآية المتقدمة، فتقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي القرآن.

أجل. . . نزل هذا القرآن على أساس توحيد المعبود، وتوحيد دعوة جميع الأنبياء إلى الحق، والتسليم دون قيد أو شرط لأمر الله؛ والمجادلة بالتي هي أحسن!.

قال بعض المفسّرين: إنّ المراد من جملة ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هو تشبيه نزول القرآن على النّبي محمّد ﷺ أيّ كما أنزلنا كتباً من السماء على الأنبياء الماضين، فكذلك أنزلنا إليك الكتاب!.

إلاّ أنّ التّفسير السابق يبدو أكثر دقّة، وإن كان الجمع بين التّفسيرين ممكناً أيضاً.

ثمّ يضيف القرآن الكريم: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ ويعتقدون بصدقه. . إذ أنّهم وجدوا علائمه في كتبهم، كما أنّ محتواه من حيث الأصول العامّة والكلية منسجم مع كتبهم!.

ومن المعلوم أنّ جميع أهل الكتاب ﴿ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ لم يؤمنوا بنبوّة محمّد ﷺ: «نبي الإسلام» فتكون هذه الجملة في خصوص تلك الجماعة المؤمنة منهم، والتي تبتغي الحق دون تعصب، فتكون جديرة أن يطلق عليها «أهل الكتاب».

ويضيف القرآن بعدئذ: ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾(١) أي أهل مكّة والمشركون العرب.

ثمّ يقول القرآن في كفر الطائفتين من اليهود والنصارى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

ومع الالتفات إلى أنّ مفهوم الجحود، هو أنّ يعتقد الإنسان بشيء بقلبه وينكره بلسانه، فإنّ مفهوم الجملة المتقدمة أن الكفّار يعترفون في قلوبهم بعظمة هذه الآيات، ويرون علامات الصدق عليها، ومنهج النّبي وطريقته وحياته النقية، وأن أتباعه هم المخلصون، ويعدّون كل ذلك دليلاً على أصالته، إلاّ أنّهم ينكرون ذلك عناداً وتعصباً، وتقليداً أعمى لأسلافهم ولآبائهم، ولحفظ منافعهم الشخصية.

---

(١) قال بعض المفسّرين: إنّ جملة «الذين آتيناهم الكتاب» إشارة إلى المسلمين، وجملة «من هؤلاء من يؤمن به» إشارة إلى أهل الكتاب، إلاّ أنّ هذا التّفسير بعيد - كما يبدو - جدّاً لأنّ التعبير بـ (الذين آتيناهم الكتاب) وما شابهه لم يأت في القرآن - بحسب الظاهر - إلاّ في خصوص اليهود والنصارى.

وعلى هذا فإنّ القرآن يحدد مواقف الأُمم المختلفة إزاء هذا الكتاب ويصنفهم إلى قسمين:

فقسمٌ هم أهل الإيمان، سواءً من علماء اليهود والنصارى، أو المؤمنين بصدق، أو المشركين العطاشى إلى الحقّ الذين عرفوا الحق فتعلقت قلوبهم به.

وقسم آخر هم المنكرون المعاندون، الذين رأوا الحق إلاّ أنّهم أنكروه وأخفوا أنفسهم عنه كالخفاش، لأنّ ظلمة الكفر كانت جزءاً من نسيج وجودهم، فهم يستوحشون من نور الإيمان.

وممّا ينبغي الالتفات إليه أنّ هذه القسم - أو هذه الطائفة - كانوا كفرةً من قبل، ولكن التأكيد على كفرهم ممكن أيضاً، وذلك لأنّهم لم تتمّ الحجّة عليهم من قبل، ولكنّهم بعد أن تمّت عليهم الحجّة، فقد أصبحوا كافرين كفراً حقيقياً، وحادوا بعلمهم واطلاعهم عن الصراط المستقيم، وخطوا في دروب الضلال!.

ثمّ يضيف القرآن مشيراً إلى علامة أُخرى من علائم حقانية دعوة النبي ﷺ الجلية والواضحة، وهي تأكيدٌ على محتوى الآية السابقة، فيقول: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ وقالوا إنّ ما جاءنا به هذا النّبي هو حصيلة مطالعاته لكتب الماضين.

ومعنى هذه الآية أنّك لم تذهب إلى مدرسة قط، ولم تكتب من قبل كتاباً قط، لكنّك بإشارة من وحي السماء أصبحت تعرف المسائل أفضل من مئة مدرس!.

كيف يمكن أن يُصدق أن شخصاً لم يقرأ كتاباً ولم ير أستاذاً ولا مدرسةً، أن يأتي بكتاب يتحدى به جميع البشر أن يأتوا بمثله، فيعجز جميعهم عن الإتيان بما طلب.

أليس هذا دليلاً على أنّ قوّتك تستمدّ من قوة الخالق غير المحدودة، وأنّ كتابك وحي السماء ألقاه الله إليك؟!

وينبغي الإشارة إلى أنّه لو سأل سائل: من أين نعرف أنّ النّبي ﷺ لم يذهب إلى مدرسة قط؟!.

فنجيب أنّه ﷺ قد عاش في بيئة المثقفون والمتعلمون فيها معدودون ومحدودون... حتى قيل أن ليس في مكّة أكثر من سبعة عشر رجلاً يجيدون القراءة والكتابة، ففي مثل هذا المحيط وهذه البيئة، لو قدّر لأحد أن يمضي إلى المدرسة فيتعلم القراءة والكتابة، فمن المستحيل أن يكون مجهولاً، بل يكون معروفاً في كل مكان. كما يعرف الناس أستاذه ودرسه أيضاً.

فكيف يمكن لمثل هذا الشخص أن يدعي أنّه نبيّ صادق ومع ذلك يكذب هذه الكذبة المفضوحة والمكشوفة؟ خاصة أنّ هذه الآيات نزلت في مكّة، مهد نشأة النّبي ﷺ وكذلك في قبال الأعداء الألدّاء الذين لا تخفى عليهم أقل نقطة ضعف!!.

وفي الآية التالية علامة أُخرى أيضاً على حقانية القرآن، إذ تقول: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾.

والتعبير بـ «الآيات البينات» كاشف عن هذه الحقيقة وهي أنّ دلائل حقانية القرآن تتجلى بنفسها عياناً، وتشرق في أرجائه، فدليلها معها.

وفي الحقيقة، إنّها مثل الآيات التكوينية التي تجعل الإنسان يذعن بحقيقتها عند مطالعتها دون حاجة إلى شيء آخر، هذه الآيات التشريعية - أيضاً - من حيث ظاهرها ومحتواها كذلك، إذ هي دليل على صدقها.

ثمّ بعد هذا كلّه، فإنّ أتباع هذه الآيات وطلابها المشدودة قلوبهم إليها هم أولو العلم والاطلاع، بالرغم من أن أيديهم خالية وأرجلهم حافية!.

وبتعبير أوضح: إنّ واحداً من طرق معرفة أصالة مذهب ما دراسة حال المؤمنين به، فإذا كان الجهال المحتالون قد التفوا حول الشخص، فهو أيضاً من نسيجهم، ولكن إذا كان من التفّ حول الشخص هم الذين امتلأت صدورهم بأسرار العلوم وهم أوفياء له، فيكون هذا الأمر دليلاً على حقانية ذلك الشخص، ونحن نرى أنّ جماعة من علماء أهل الكتاب، ورجالاً متقين أمثال أبي ذر وسلمان والمقداد وعمار بن ياسر، وشخصية كبيرة كعلي بن أبي طالب عليه السلام، هم حماة هذا المبدأ.

وفي روايات كثيرة منقولة عن أهل البيت عليهم السلام، إنّ المراد بالذين أوتوا العلم هم الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام وطبعاً... فليس هذا المعنى منحصراً فيهم، بل هم المصداق الجلي لهذه الآية(١).

وإذا ما لاحظنا أنّ بعض الرّوايات تصرّح أنّ المراد من هذه العبارة المتقدمة هم الأئمّة عليهم السلام، فإنّ ذلك في الحقيقة إشارة إلى المرحلة الكاملة لعلم القرآن الذي عندهم، ولا يمنع أن يكون للعلماء... بل لعامّة الناس الذين لهم نصيب من الفهم، أن يحظوا بقسط من علوم القرآن أيضاً.

(١) هذه الرّوايات وردت في تفسير البرهان، ج ٣، ص ٢٥٤ فما بعد بشكل مفصل.

كما أنّ هذه الآية تدلّ ضمناً على أن العلم ليس منحصراً بالكتاب، أو بما يلقيه الأستاذ على تلاميذه. . . لأنّ النّبي ﷺ - طبقاً لصريح الآيات المتقدمة - لم يدرس في مدرسة ولم يكتب من قبل كتاباً . . . إلاّ أنّه كان خير مصداق للذين «أوتوا العلم».

فإذاً فما وراء العلم «الرسمي» الذي نعهده، علم أوسع وأعظم، وهو علم يأتي من قبل الله تعالى على شكل نور يقذف في قلب الإنسان، كما ورد في الحديث «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء». وهذا هو جوهر العلم، أمّا ما سواه فهو الصدف والقشر!

وتُختتم الآية بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. . . لأنّ دليلها واضح، فالنّبي الأميّ الذي لم يقرأ ولم يكتب، هو الذي جاء بها. . . والعلماء المطلعون هم المؤمنون بها.

ثمّ بعد هذا كلّه، فإنّ الآيات نفسها مجموعة من الآيات البينات «كلمات ذوات محتوى جلي مشرق».

وقد وردت علائمها في الكتب المتقدمة.

ومع كل هذا ترى هل ينكر هذه الآيات إلاّ الذين ظلموا أنفسهم وظلموا مجتمعهم «ونكرر أن التعبير بـ «بالجحد» يكون في مورد ما لو أنّ الإنسان يعتقد بالشيء وينكره على خلاف ما يعلمه»!.

بحوث

١ - الرّسول ﷺ ... الأميّ

صحيح أنّ القراءة والكتابة تعدّان - لكل إنسان - كمالاً . . . إلاّ أنّه يتفق أحياناً - وفي ظروف معينة - أن يكون من الكمال في عدم القراءة والكتابة. . . ويصدق هذا الموضوع في شأن الأنبياء، وخاصة في نبوّة خاتم الأنبياء «محمّد» ﷺ.

إذ يمكن أن يوجد عالم قدير وفيلسوف مطّلع، فيدّعي النبوّة ويظهر كتاباً عنده على أنّه من السماء، ففي مثل هذه الظروف قد تثار الشكوك والاحتمالات أو الوساوس في أنّ هذا الكتاب - أو هذا الدين - هو من عنده لا من السماء!.

إلاّ أنّنا إذا رأينا إنساناً ينهض من بين أُمّة متخلفة، ولم يتعلم على يد أي أستاذ، ولم يقرأ كتاباً ولم يكتب ورقةً - فيأتي بكتاب عظيم عظمة عالم الوجود، بمحتوى عال

جداً. . . فهنا يمكن معرفة أنّ هذا الكتاب ليس من نسج فكره وعقله، بل هو وحي السماء وتعليم إلهي، ويدرك هذا بصورة جيدة!.

كما أنّ هناك تأكيداً على أُمية النّبي ﷺ في آيات القرآن الأُخرى، وكما أشرنا آنفاً في الآية (١٥٧) من سورة الأعراف إلى أنّ هناك ثلاثة تفاسير لمعنى «الأميّ»، وأوضحها وأحسنها هو أنّه من لا يقرأ ولا يكتب.

ولم يكن في محيط الحجاز وبيئته - أساساً - درس ليقرأ النّبي ﷺ، ولا معلم ليحضر عنده ويستفيد منه، وقلنا: إنّ عدد المثقفين الذين كانوا يقرأون ويكتبون في مكّة لم يتجاوز سبعة عشر نفراً فحسب، ويقال إنّ من النساء كانت امرأة واحدة تجيد القراءة والكتابة(١).

وطبيعي في مثل هذا المحيط الذي تندر فيه أدنى مرحلة للعلم وهي القراءة والكتابة، لا يوجد شخص يعرف القراءة والكتابة ولا يعرف عنه الناس شيئاً. . . وإذا ظهر مدع وقال - بضرس قاطع - إنّني لم أقرأ ولم أكتب، لم ينكر عليه أحد دعاءه، فيكون عدم الإنكار دليلاً جليّاً على صدق مدّعاه، وعلى كل حال فإنّ هذه الكيفية الخاصة للنّبي ﷺ التي نوهت عنها الآيات المتقدمة، إنّما هي لإكمال إعجاز القرآن، ولقطع السبيل أمام حجج المتذرعين بالأباطيل الواهية، وفيها تأثير بالغ ونافع جدّاً.

أجل، إنّه عالم منقطع النظير، لكنّه لم يدرس في مدرسة، بل تعلّم من وحي السماء!.

تبقى هناك ذريعة واحدة يحتج بها المتذرعون، وهي أنّ النّبي سافر إلى الشام مرّة أو مرتين «لفترة وجيزة ولغرض التجارة». . . قبل نبوّته، فيقولون: ربّما اتصل في بعض هاتين السفرتين بعلماء أهل الكتاب وتعلّم منهم هذه المسائل!.

والدليل على ضعف هذا الادّعاء منطو في نفسه، فكيف يمكن أن يسمع إنسان جميع هذه الدروس وتواريخ الأنبياء والأحكام والمعارف الجليلة، وهو لم يمض إلى مدرسة ولم يقرأ شيئاً، فيحفظ كل ذلك بهذه السرعة، ويودعه في ذهنه، ثمّ يبيّنه ويفصّله خلال مدّة ثلاث وعشرين سنة؟! وأن يبدي موقفاً مناسباً للحوادث غير المتوقعة والتي لم يسبق لها مثيل.

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري طبع مصر، ص ٤٥٩.

وهذا يشبه تماماً أن نقول مثلاً: إنّ فلاناً تعلم قائمة العلوم والفنون الطبية كلّها في عدّة أيّام، وأنّه كان مشرفاً على معالجة المرضى في المستشفى الفلاني، ومستشاراً للأطباء، هذا كلام أقرب إلى المزاح والهزل منه إلى الجد.

وينبغي الالتفات إلى هذه المسألة، هي أنّ النّبي ﷺ بعد أن بلغ مرحلة النبوّة، يحتمل أن يكون قادراً على القراءة والكتابة، حينئذ وذلك بواسطة التعليم الإلهي وإن لم يرد في التواريخ أنّه استفاد من هذه الطريقة! ولم يقرأ شيئاً بنفسه أو يكتب شيئاً بيده، ولعل النّبي ﷺ تجنب كل ذلك في طول عمره لئلا يتذرّع المتذرّعون فيثيروا الشكوك بنبوّته! الشيء الوحيد الذي جاء في كتب التاريخ أنّ النّبي ﷺ كتبه بنفسه، هو صلح الحديبية الذي جاء في مسند أحمد أنّ «النّبي أمسك القلم بيده وكتب معاهدة الصلح»[1].

إلاّ أنّ جماعة من علماء الإسلام أنكروا هذا الحديث، وقالوا: إنّ هذا مخالف لصريح الآيات، وإن اعتقد البعض بأنّه ليس في الآيات صراحة، لأنّ الآيات ناظرة لحال النّبي قبل بعثته، فما يمنع أن يكتب النّبي على وجه الاستثناء بعد أن نال مقام النبوّة.. في مورد واحد.. ويكون ذلك بنفسه معجزة أُخرى من معاجزه!.

إلاّ أنّ الاعتماد في مثل هذه المسألة على خبر الواحد مجانب للحزم والاحتياط، ومخالف لما ثبتت في علم الأصول حتى لو قلنا إنّ هذا الخبر لا إشكال فيه[2].

٢ - طريق النفوذ في الآخرين

لا يكفي الاستدلال القوي المتين للنفوذ إلى قلوب الآخرين واكتسابهم بالكلام الحق، فإنّ أُسلوب التعامل مع الطرف الآخر وطريقة البحث والمناظرة تترك أعمق الأثر في هذه المرحلة... فكثيراً ما يتفق أن يوجد أناس مطّلعون ولهم يد طولى في البحوث العلمية الدقيقة، إلاّ أنّهم قلّما يوفقون للنفوذ إلى قلوب الآخرين، بسبب عدم معرفتهم بكيفية المجادلة بالتي هي أحسن، وعدم معرفتهم بالبحوث البنّاءة!.

وبتعبير آخر فإنّ النفوذ إلى مرحلة الوعي - في المخاطب - غير كاف وحده، بل ينبغي الدخول إلى مرحلة عدم الوعي الذي يمثل القسم الأكبر لروح الإنسان أيضاً.

---

(١) مسند أحمد، ج ٤، ص ٢٩٨.

(٢) ورد في صدد «النّبي الأمي» شرح مفصل آخر ذيل الآية (١٥٧) من سورة الأعراف.

ويستفاد من مطالعة أحوال الأنبياء، ولا سيما حال النّبي محمّد ﷺ وأئمّة الهدى عليهم السلام - بصورة جيدة أنّ هؤلاء العظام سلكوا أحسن سبل الأخلاق الاجتماعية وأسس المعارف النفسية والإنسانية، لأجل تحقيق أهدافهم التبليغية والتربوية!.

وكانت طريقة تعاملهم مع الناس أن يكتسبوهم إليهم بشكل سريع فينجذبوا إليهم، وإن كان بعض الناس يميل إلى أن يضفي على مثل هذه الأُمور ثوب الإعجاز دائماً، إلاّ أنّه ليس كذلك، فلو اتّبعنا سنّتهم وطريقتهم لاستطعنا بسرعة أن نترك في الناس عظيم الأثر، وأن ننفذ إلى أعماق قلوبهم.

والقرآن يخاطب نبيّ الإسلام ﷺ بصراحة فيقول: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[1] أو كثيراً ما يرى أنّ بعضهم بعد ساعات من الجدال والمناظرة، لا أنّه لا يحصل على تقدم في مناقشاته فحسب، بل على العكس يجعل الطرف الآخر متعصباً ومتشدداً في عقيدته الباطلة بصورة أكثر... وذلك دليل على أنّه لم يتبع أُسلوب المجادلة بالتي هي أحسن.

فالخشونة في البحث، وطلب الاستعلاء، وتحقير الطرف المقابل، وإظهار التكبر والغرور، وعدم احترام أفكار الآخرين، وعدم الجدية في المناقشات والبحوث، كلّها من الأُمور التي تبعث على انهزام الإنسان في بحثه، وعدم انتصاره على الطرف الآخر، لذلك فإنّنا نرى في مباحث الأخلاق الإسلامية بحثاً تحت عنوان «تحريم الجدال والمراء» والمراد منه الأبحاث التي لا يطلب من ورائها الحق، بل المراد منها الاستعلاء وإبراز العضلات لا غير!.

وتحريم الجدال والمراء - بالإضافة إلى الجوانب المعنوية والأخلاقية - إنّما هو لأنّه لا يحصل من ورائهما على نتيجة فكرية ملحوظة.

والجدال والمراء في حرمتهما متقاربان، إلاّ أنّ العلماء من المسلمين جعلوا فرقاً بين كلّ منهما... «فالمراء» معناه إظهار الفضل والكمال، «والجدال» يراد منه تحقير الطرف المقابل!.

وقالوا: إنّ الجدال هي المراحل الهجومية الأُولى في البحث... وأمّا المراء فيراد منه الصدّ الدفاعي في الكلام.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

كما أنّ هناك قولاً بأنّ الجدال في المسائل العلمية، أمّا المراء فهو في الأعم منها «وبالطبع فإنّه لا تضادّ بين هذه التفاسير جميعاً».

وعلى كل حال، فإنّ الجدال أو البحث مع الآخرين، تارة يقع بالتي هي أحسن، وذلك ما بيّناه بالشرائط المتقدمة آنفاً، وينبغي رعايتها بدقّة، وتارة يكون بغير الأحسن، وذلك في ما لو أهملت الأُمور التي ذكرناها في مستهل كلامنا على الجدال، وجعلت في طيّ النسيان.

ونختتم هذا الكلام بعدّة روايات بليغة ونافعة لنتعلم منها:

ففي حديث عن النّبي ﷺ أنّه قال: «لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء وإن كان محقاً»[1].

ونقرأ في حديث آخر أنّ سليمان النّبي عليه السلام قال لولده: «يا بني إيّاك والمراء، فإنّه ليست فيه منفعة، وهو يهيج بين الإخوان العداوة»[2].

٣ - الكافرون والظالمون

نواجه في الآيات المتقدمة آنفاً هذا التعبير ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ومرّة أُخرى نواجه المضمون ذاته مع شيء من التفاوت فبدلاً من كلمة ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ جاءت كلمة ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

والموازنة بين التعبيرين تدلّ على أنّ المسألة ليست من قبيل التكرار، بل هي لبيان موضوعين، أحدهما يشير إلى جانب عقائدي ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ والآخر يشير إلى جانب عملي ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

فالآية الأُولى تقول: إنّ الذين اختاروا الشرك والكفر بأحكامهم المسبّقة الباطلة وتقليدهم الأعمى لأسلافهم، لا يرون آيةً من آيات الله إلاّ أنكروها وإن تقبلتها عقولهم»!

أمّا التعبير الثّاني فيقول: إنّ الذين اختاروا بظلمهم أنفسهم ومجتمعهم طريقاً يرون فيه منافعهم الشخصية، وعزموا على الاستمرار في هذه الطريق، لا يذعنون لآياتنا، لأنّ آياتنا كما أنّها لا تنسجم مع خطّهم الفكري، فهي لاتنسجم مع خطّهم العملي أيضاً.

---

(١) سفينة البحار مادة مرأ.

(٢) إحياء العلوم.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

التّفسير

أليس القرآن كافياً في إعجازه؟!

الأشخاص الذين لم يذعنوا ويسلّموا للبيان الاستدلالي والمنطقي الذي جاء به القرآن بسبب عنادهم وإصرارهم على الباطل، ولم يقبلوا بكتاب كالقرآن الذي جاء به إنسان أمي كالنّبي محمّد ﷺ دليلاً جليّاً على حقانيّة دعوته... تذرّعوا بحجّة أُخرى على سبيل الاستهزاء والسخرية، وهي أنّه لم لا تأت - يا محمّد - بمعجزة من المعاجز التي جاء بها موسى وعيسى ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

ولِم لَم يكن لديه مثل عصا موسى ويده البيضاء ونفخة المسيح؟!

ولم لا يهلك أعداءه بمعاجزه، كما فعل موسى وشعيب وهود ونوح بأممهم المعاندين؟!.

أو كما يعبّر على لسانهم القرآن في الآيات ٩٠ - ٩٣ من سورة الإسراء ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾.

ومن دون شك فإنّ النّبي ﷺ كانت لديه معاجز غير القرآن الكريم، كما أنّ التواريخ تصرّح بذلك أيضاً . . . إلاّ أنّ أُولئك لم يكن قصدهم من وراء كلامهم الحصول على معجزة، بل كان قصدهم - من جهة - أن لا يعتبروا القرآن شيئاً مهماً وكتاباً إعجازياً، ومن جهة أُخرى كانوا يريدون معجزات مقترحة: «والمراد من المعجزات المقترحة هو أن يأتي النّبي ﷺ طبقاً لرغبات هذا وذاك بمعاجز خارقة للعادة يقترحونها عليه، فمثلاً يريد منه بعضهم أن يفجّر له الأرض ينابيع من الماء الزلال، ويريد الآخر منه أن يقلب له الجبال التي في مكّة ذهباً، ويتذرّع الثّالث بأنّ هذا لا يكفي أيضاً بل ينبغي أن يصعد إلى السماء، وهكذا يجعلون المعجزة على شكل ألعوبة لا قيمة لها، وآخر الأمر . . وبعد رؤية كل هذه الأُمور يتهمونه بأنّه ساحر».

لذلك فإنّ القرآن يقول في الآية: (١١١) من سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ﴾.

وعلى كل حال فإنّ القرآن، للردّ على ذرائع هؤلاء المحتالين ذوي الحجج الواهية، يدخل من طريقين:

فيقول أوّلاً في خطابه لنبيّه: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي قل لأُولئك المعاندين أنّ الله يدري أية معجزة تناسب أي زمان وأي قوم، وهو يعلم أي الأفراد هم أتباع الحق، وينبغي أن يريهم المعاجز الخارقة للعادة، وأي الأفراد المتذرّعون وأتباع هوى النفس؟!

ثمّ يضيف القرآن معقباً أن قل: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ . . فمسؤوليتي الإنذار - فحسب - والإبلاغ وبيان كلام الله، أمّا المعاجز والأُمور الخارقة للعادة فهي بأمر الله.

والجواب الآخر هو قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

فهم يطلبون معاجز مادية «جسمانية»، والقرآن بحدّ ذاته أعظم معجزة معنوية . .

وهم يريدون معجزة عابرة لا تمكث طويلاً، في حين أنّ القرآن معجزة خالدة تتلى آياته ليل نهار عليهم وعلى الأجيال من بعدهم.

ترى هل يعقل أن يأتي إنسان أُمّي وحتى لو كان يقرأ ويكتب فرضاً بكتاب بهذا المحتوى العظيم والجاذبية العجيبة، التي هي فوق قدرة الإنسان والبشر، ثمّ يدعو أهل العلم متحدياً لهم للإتيان بمثله فيعجزون عن الإتيان بمثله؟!

فلو كانوا حقّاً طلاّب معجزة، فقد آتيناهم بنزول القرآن أكثر ممّا طلبوه إلاّ أنّهم لم يكونوا طلاّب معجزة، بل هم متذرّعون بالأباطيل!.

وينبغي الالتفات إلى أنّ التعبير ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ إنّما يستعمل - غالباً - في موارد يكون الإنسان قد أدّى عملاً فوق ما ينتظره الطرف الآخر، وهو غافل عنه أو يتغافل عنه، كأن يقول مثلاً: لم أحصل على الخدمة الفلانيّة، في حين أنّ الخدمة التي قدمت إليه - كما في هذه الحال - أكبر خدمة، إلاّ أنّه لا يعتبرها شيئاً، ونقول له: أو لم يكفك ما قدمناه؟!

ثمّ بعد هذا كله ينبغي أن تكون المعجزة منسجمة مع ظروف «الزمان والمكان وكيفية دعوة النّبي» فالنّبي الذي يدعو إلى مبدأ خالد، ينبغي أن تكون معجزته خالدة أيضاً.

والنّبي الذي تستوعب دعوته العالم وتستوعب القرون والأعصار المقبلة، لابدّ له من أن يأتي بمعجزة نيّرة «روحية وعقلانية» ليجلب إليه أفكار جميع العلماء والمفكرين، ومن المسلّم به أنّ مثل هذا الهدف يتناسب مع القرآن، لا عصا موسى ولا يده البيضاء.

وفي نهاية الآية يضيف القرآن للتأكيد والتوضيح بصورة أجلى، فيقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

«ذلك» هنا إشارة إلى الكتاب المنزل من السماء، وهو القرآن.

أجل، إنّ القرآن رحمة «وسيلة» للذكرى والتذكر أيضاً، فهو للمؤمنين الذين فتحوا قلوبهم بوجه الحقيقة، والذين يبتغون النور والطريق السويّ هو لهم رحمة إلهية يحسونها بكل وجودهم، ويشعرون بالاطمئنان والدعة عنده.. وكلّما قرأوا آياته تذكروا، فهي لهم ذكرى وأية ذكرى؟!

ولعل الفرق بين «الرحمة» و«الذكرى» أنّ القرآن ليس معجزة وذكرى فحسب، بل هو إضافة إلى كل ذلك يحتوي على القوانين التي تمنح الرحمة والمناهج التربوية والإنسانية.

فمثلاً كانت عصا موسى معجزة فحسب، إلاّ أنّها لم يكن لها أثرٌ في حياة الناس اليومية، غير أنّ القرآن معجزة، هو في الوقت ذاته منهج كامل الحياة ورحمة أيضاً.

ولمّا كان كل مدع بحاجة إلى الشاهد، فالقرآن يبيّن في الآية الأُخرى أنّ خير شاهد هو الله ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾.

وبديهي أنّه كلّما كان اطلاع الشاهد وشهادته أكثر، فإنّ قيمة الشهادة تكون أهم، لذلك يضيف القرآن بعدئذ قائلاً: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

والآن لنعرف كيف شهد الله على حقّانيّة نبيّه ﷺ؟!

يحتمل أن تكون هذه الشهادة شهادة عملية، لأنّه حين يؤتي الله نبيّه معجزة كبرى كالقرآن، فقد وقع على سند حقّانيّته وأمضاه.

ترى هل يمكن أن يأتي الله الحكيم العادل بمعجزة على يد كذّاب، والعياذ بالله! فعلى هذا كانت طريقة إعطاء المعجزة لشخص النبي ﷺ - بنفسها - أعظم شهادة على نبوّته من قبل الله.

وإضافةً للشهادة العملية المتقدمة، نقرأ في آيات كثيرة من القرآن شهادة قولية في نبوّة النّبي ﷺ، كما في الآية (٤٠) من سورة الأحزاب ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وفي الآية (٢٩) من سورة الفتح أيضاً: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾

قال بعض المفسّرين: إنّ هذه الآية كانت جواباً على ما قاله بعض رؤساء اليهود من أهل المدينة، أمثال «كعب بن الأشرف» وأتباعه، إذ قالوا: يا محمّد، من يشهد على أنك مرسل من قبل الله، فنزلت هذه الآية: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾!.

كما يمكن أن تفسّر الآية المتقدمة بتفسير آخر وبيان ثان، وذلك أنّ المراد من شهادة الله في الآية هي ما سبق من الوعد والذكر في كتب الله السابقة «كالتّوراة والإنجيل» ويعلم بذلك علماء أهل الكتاب بصورة جيدة!.

وفي الوقت ذاته لا منافاة بين التفسيرات الثلاثة الآنفة الذكر، ومن الممكن أن تجتمع هذه التفاسير في معنى الآية أيضاً.

وتختتم الآية بنحو من الوعيد والتهديد لأُولئك الكفّار بالله، فيقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

وأي خسران أعظم من أن يعطي الإنسان جميع وجوده في سبيل لا شيء؟! كما فعله المشركون، فقد أعطوا قلوبهم وأرواحهم للأوثان والأصنام.. ووظّفوا جميع قواهم الجسمانية والإمكانات الاجتماعية والفردية في سبيل الإعلام والتبليغ لمذهبهم الوثني وأهملوا ذكر الله، فلم يعد عليهم هذا إلاّ بالضرر والخسران!.

وغالباً ما يشير القرآن إلى هذا الخسران في آياته، وفي بعض الآيات يرد التعبير بكلمة «أخسر» وهي إشارة إلى أنّه ليس فوق هذا الخسران من خسارة ولا أعظم منه!.. (راجع آيات السور «هود ٢٢ والنمل ٥ والكهف ١٠٣»).

والمثل الأهمّ هو أنّه قد يتفق للإنسان أحياناً أن يتضرر في معاملته ويخسر رأس ماله

ويُغلب على أمره، وقد تتسع هذه الدائرة أحياناً فيثقل كاهله بالديون، وهذه الحالة أسوأ الحالات والمشركون هم في مثل هذه الحالة، بل قد يكونون سبباً لضلال الآخرين وخسرانهم، وكما يصطلح عليه: «الفشل سلسلة متصلة»[١].

في الآيات المتقدمة عرض قسمان من ذرائع الكفّار قبال دعوة النّبي ﷺ وقد أجيب عنهما:

الأوّل: كان قولهم: لم لا يأتي بمعجزة؟!

فأجاب القرآن: إنّ هذا الكتاب المنزل من السماء هو أعظم معجزة.

والثّاني: سؤالهم: من الشاهد على صدق دعواك وحقانيّة النبوّة عندك؟

فأجاب القرآن: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾.

أمّا في الآية التالية فإشارة إلى الذريعة الثّالثة إذ تقول: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ إذ يقولون: لو كان عذاب الله حقّاً على الكافرين فلم لا يأتينا!؟

فيجيب القرآن على هذه الذريعة بثلاثة أجوبة:

الأوّل: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ﴾.

وهذا الزمان المعين «الأجل» إنّما هو لهدف أصلي، للإرعواء عن باطلهم وتيقظهم، أو إتمام الحجة عليهم، فالله لا يستعجل أبداً في أمره، لأنّ العجلة خلاف حكمته.

والثّاني: إنّ أُولئك الذين يتذرّعون بهذا القول ما يدريهم لعل العذاب يأخذهم على حين غرة من أنفسهم ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٢].

وبالرغم من أنّ موعد العذاب - في الواقع - معين ومقرّر إلاّ أنّ المصلحة تقتضي ألاّ يطّلعوا عليه، وأن يأتيهم دون مقدمات، لأنّه لو عرف وقته لكان باعثاً على تجرؤ الكفّار والمذنبين وجسارتهم... وكانوا يواصلون الذنب والكفر إلى آخر لحظة... وحين يأزف الوعد بالعذاب فإنّهم سيتجهون بالتوبة - جميعاً - إلى الله وينيبون إليه.

والحكمة التربوية لمثل هذا العقاب تقتضي أن يكتم موعده، لتكون كل لحظة ذات أثر بنفسها، ويكون الخوف والاستيحاش منها عاملاً على الردع، ويتّضح ممّا قلناه - ضمناً - أنّ المراد من جملة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لا تعني أنّهم لا يدركون أصل وجود

---

(١) لنا في هذا الصدد بحث مفصّل بيّناه في ذيل الآية (١٠٣) من سورة الكهف.

(٢) «البغتة» مشتقة من «البغت» على زنة «وقت» ومعناه التحقق المفاجىء وغير المنتظر لأمر.

العذاب، وإلاّ فإنّ فلسفة العذاب والحكمة منه لا يكون لها أثر، بل المراد أنّهم لا يعرفون اللحظة التي ينزل فيها العذاب ولا مقدماته، وبتعبير آخر: إنّ العذاب ينزل عليهم كالصاعقة وهم غافلون.

ويظهر من آيات متعددة من القرآن أنّ التذرع بالحجج الواهية لم يكن منحصراً بأهل مكّة، بل كثير من الأمم السابقين يلتجئون إلى مثل هذه الذريعة، ويصرون على تعجيل العقوبة والعذاب!.

وأخيراً فإنّ الجواب القرآني الثّالث يتبيّن في الآية إذ يقول: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

فإذا تأخر عنهم عذاب الدنيا، فإنّ عذاب الآخرة واقع لا محالة، ومحيط بهم تماماً وسيصيبهم حتماً بحيث إنّ القرآن يذكره بصورة أمر فعليّ (وكأن جهنّم الآن محيطة بهم).

ويوجد تفسير آخر أكثر دقّةً لهذه الآية، وهو أنّ جهنم محيطة، الآن فعلاً بالكافرين، من جهتين - بالمعنى الواقعي للكلمة.

الجهة الأولى: إنّها جهنم الدنيا، إذ هم على أثر شركهم وتلوثهم بالذنب يحترقون بجهنم التي أعدّوها لأنفسهم، جهنم الحرب وسفك الدماء، جهنم النزاع والشقاق والاختلافات، جهنم القلق والفزع، جهنم الظلم، وجهنم الهوى والهوس والعناد.

والجهة الثّانية: طبقاً لظاهر الآيات في القرآن فإنّ جهنم موجودة فعلاً، وكما تقدم سابقاً فإنّ جهنم موجودة في باطن الدنيا، وبهذا فهي محيطة بهم على نحو الحقيقة.. وفي سورة التكاثر إشارة لها أيضاً ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝﴾ الآيات ٥ - ٧ من سورة التكاثر(١).

ثمّ يضيف القرآن ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢).

يمكن أن تكون هذه الآية توضيحاً لإحاطة عذاب جهنم في يوم القيامة بالكفّار، ويمكن أن تكون بياناً مستقلاً لذلك العذاب الأليم لهم الذي يحيط بهم اليوم على أثر أعمالهم، وفي غد يتجلى هذا العذاب بوضوح ويكون محسوساً ظاهراً.

(١) لمزيد الإيضاح يراجع - في هذا الصدد تفسير الآية (١٢٣) من سورة آل عمران.

(٢) يرى بعض المفسّرين أنّ كلمة «يوم» متعلقة بفعل محذوف مقدر، وقال بعضهم: هو متعلق بـ«محيطة».

وعلى كلّ حال فذكره لإحاطة العذاب ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ وعدم ذكره لبقية الجهات - في الحقيقة - هو لوضوح المطلب، وإضافة إلى ذلك فإنّ نار العذاب إذا امتدت ألسنتها من تحت الأرجل ونزلت على الرؤوس، فإنّها تحيط بجميع البدن أيضاً وتغشى جميع أطرافه وجوانبه.

وأساساً فإنّ هذا التعبير مستعمل في اللغة العربية، إذ يقال مثلاً: إنّ فلاناً غارق من قرنه إلى قدمه في مستنقع الفسق وعدم العفة، أي أنّ جميع وجوده غارق في هذا الذنب، وبهذا يرتفع الإشكال عند المفسّرين في ذكر القرآن للجهة العليا ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ والجهة السفلى «من تحتهم» والسكوت عن الجهات الأربع الأُخرى، ويتّضح المراد منه بالتقرير الذي بيّناه!

أمّا جملة ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ التي يظهر أنّ قائلها هو الله تعالى، فهي بالإضافة إلى أنّها نوع من العقوبة النفسية لمثل هؤلاء الأشخاص، فهي كاشفة عن هذه الحقيقة، وهي أنّ عذاب الله ليس إلاّ انعكاساً للأعمال التي يقوم بها الإنسان نفسه في النشأة الآخرة!.

ملاحظات

١ - دلائل إعجاز القرآن

لا شك أنّ القرآن أعظم معجزة للإسلام... معجزة بليغة، خالدة وباقية، مناسبة لكل عصر وزمان ولجميع الطبقات الاجتماعية، وقد ذكرنا بحثاً مفصلاً عن إعجاز القرآن في ذيل الآية ٢٣ من سورة البقرة، ولا حاجة إلى إعادته هنا.

٢ - التشبث بالحيل لإنكار المعجزات

يصرُّ بعض العلماء المتأثرين بالغرب - الذين يميلون إلى أن لا يعتدّوا بظواهر الأنبياء الخارقة للعادة - أنّ النّبي ﷺ ليس له معجزة غير القرآن، وربّما يرون القرآن ليس معجزاً، في حين أنّ مثل هذا الكلام مخالف لآيات القرآن، وللرّوايات المتواترة، وللتأريخ الإسلامي أيضاً.

«وقد بيّنا تفصيل هذا الكلام في ذيل الآيات ٩٠ - ٩٣ من سورة الإسراء».

٣ - المعجزات الاقتراحيّة

كانت أساليب المخالفين للأنبياء دائماً هي اقتراحهم المعجزات التي يرتؤونها، وكانوا بعملهم هذا يحاولون أن يحطّوا من قيمة المعجزات وعظمتها ويجروها إلى

الابتذال من جهة، وأن تكون في أيديهم ذريعة إلى عدم قبول دعوة الأنبياء من جهة أُخرى، لكن الأنبياء لم يستسلموا لهذه المؤامرات أبداً.. وكما رأينا في إجابتهم آنفاً، فإنّ المعجزة ليست باختيارهم لتكون مطابقة «لميلكم وهوسكم» كل يوم وكل ساعة نأتي بمعجزة كما تريدون... بل المعاجز هي بأمر الله فحسب، وهي خارجة عن أمرنا.

«وقد ذكرنا شرحاً حول المعجزة الاقتراحية في ذيل الآية ٢٠ من سورة يونس».

﴿يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

سبب النّزول

يعتقد كثير من المفسّرين أنّ الآية - من هذا المقطع - نزلت في شأن المؤمنين الذين كانوا تحت ضغط الكفّار الشديد، حتى أنّهم لم يستطيعوا أنّ يؤدوا وظائفهم الإسلامية، فجاءت هذه الآية لتأمرهم بالهجرة من هذه الأرض.

كما يعتقد بعض المفسّرين أيضاً أنّ الآية ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ وهي الآية الأخيرة - من المقطع محل البحث نزلت في شأن بعض المؤمنين الذين كانوا يتعرضون لأذى أعدائهم في مكّة! وكانوا يقولون لو هاجرنا إلى المدينة فليست لدينا دار ولا أرض، من يطعمنا ويسقينا هناك؟ فنزلت الآية ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ...﴾.

التّفسير

لابدّ من الهجرة

حيث إنّ الآيات السابقة كانت تتحدث عن مواقف المشركين المختلفة من الإسلام والمسلمين، ففي الآيات محل البحث يقع الكلام عن حال المسلمين ومسؤولياتهم قبال

المشاكل المختلفة، أي مشاكل أذى الكفّار وضغوطهم وقلّة عدد المسلمين وما إلى ذلك، فتقول الآية الأولى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

وبديهي أنّ هذا ليس قانوناً خاصاً بمؤمني أهل مكّة، ولا يحدد سبب النّزول مفهوم الآية الواسع المنسجم مع الآيات الأُخرى. . . فعلى هذا لو سلب الإنسان حريته في أي عصر أو زمان ومكان بشكل كامل، فإنّ بقاءه هناك لا يجلب عليه إلاّ الذل «والخسران والضرر» والابتعاد عن أداء المناسك الإلهيّة، فوظيفة الإنسان المسلم عندئذ الهجرة إلى منطقة «حرّة» يستطيع أن يؤدّي فيها وظائفه الإسلامية بحرية تامّة أو حرية نسبية.

وبتعبير آخر: إنّ الهدف من خلق الإنسان أن يكون عبداً لله، عبودية هي في الواقع سبب للحرية والكرامة والانتصار في جميع الجهات. . . وجملة ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ إشارة إلى هذا المعنى، كما ورد هذا التعبير في الآية (٥٦) من سورة الذاريات: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾.

فمتى ما أصبح هذا الهدف الأساسي والنهائي مستحيلاً، فلا سبيل عندئذ إلاّ الهجرة، فأرض الله واسعة، وينبغي أن يهاجر الفرد نحو منطقة أُخرى، ولا يكون أسيراً لمفاهيم «القبلية والقومية والوطنية والبيت والأهل» في مثل هذه الموارد، ولا يذل الإنسان نفسه من أجلها، فإنّ احترام هذه الأُمور هو فيما لو كان الهدف الأصلي قائماً غير مخاطر به، أمّا إذا أصبح الهدف الأصلي «عبادة الله» مخاطراً به فلا سبيل إلاّ الهجرة!

وفي مثل هذه الموارد يقول الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ليس بلد بأحق بك من بلدك، خير البلاد ما حملك»[1].

صحيح أنّ حبّ الوطن والعلاقة بمسقط الرأس جزء من طبيعة كل إنسان، ولكن قد يتفق أن تحدث في حياة الإنسان مسائل أهم من تلك الأُمور، فتجعلها تحت شعاعها وتكون أولى منها.

وفي مجال موقف الإسلام ونظرته من مسألة الهجرة والرّوايات الواردة في هذا الصدد، كان لنا بحث مفصل في ذيل الآية (١٠٠) من سورة النساء.

والتعبير بـ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ هو أكثر التعابير رأفة وحبّاً للناس من قبل خالقهم. وتاج للفخر

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم الكلمة ٤٤٢.

أعلى حتى من مقام الرسالة والخلافة، كما نذكر ذلك في التشهد حيث نقدم العبودية على الرسالة دائماً أشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله».

من الطريف أنّه حين خلق الله آدم لقبه بـ«خليفة الله»، وهو فخر لآدم، إلاّ أنّ الشيطان لم ييأس من التسويل والوسوسة له، فكان ما كان، ولكن حين بوأه مقام العبودية أذعن الشيطان له ويئس من إغوائه وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾[1].

والله سبحانه ضمن هذا الأمر فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[2].

ويتّضح ممّا ذكرناه - بصورة جيدة - أنّ المراد بالعباد ليس جميع الناس - في الآية محل البحث - بل هم المؤمنون منهم فحسب، وجملة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ جاءت للتأكيد والتوضيح[3].

وحيث إنّ البعض بقوا في ديار الشرك، ولم يرغبوا بالهجرة بذريعة أنّهم يخشون الخروج من ديارهم ويخافون أن يحدق بهم الموت بسبب الأعداء أو الجوع أو العوامل الأُخرى التي تهددهم... إضافة إلى فراق الأحبّة والمتعلقين والأبناء والأصدقاء، فإنّ القرآن يردّهم بجواب جامع قائلاً: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

فهذه الدنيا ليست بدار بقاء لأي أحد، فبعض يمضي عاجلاً، وبعض يتأخر، ولابدّ أن يذهبوا جميعاً، وعلى كلّ حال ففراق الأحّبة والأبناء والأقارب لابدّ أن يقع ويتحقق، فعلام يبقى الإنسان في ديار الشرك من أجل المسائل العابرة... وأن يحمل عبء الذل والأسر على كاهله، أكلّ ذلك من أجل أن يبقى بضعة أيّام أو أكثر؟!

ثمّ بعد هذا كلّه ينبغي أن تخافوا أن يدرككم الموت في ديار الكفر والشرك قبل أن تبلغوا دار الإسلام، فما أشدّ ألم مثل هذا الموت وما أتعسه!

ثمّ لا تظنوا أنّ الموت نهاية كل شيء، فالموت بداية لحياة الإنسان الأصلية، لأنّكم جميعاً ﴿إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾... إلى الله العظيم، وإلى نعمه التي لاحدّ لها ولا انتهاء لأمدها.

---

(١) سورة ص، الآيتان: ٨٢ - ٨٣. (٢) سورة الحجر، الآية: ٤٢.

(٣) جملة ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ عطف على جزاء جملة الشرط المحذوف والتقدير «إن ضاقت بكم الأرض فهاجروا منها إلى غيرها وإيّاي فاعبدون».

والآية التالية تبيّن جانباً من هذه النعم فتقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾(١).

فهم في قصور تحيط بها أشجار الجنّة من كلّ جانب، الأنهار المختلفة التي لكلّ منها طعمه ولونه، طبقاً لآيات القرآن الأُخر، وهي ما بين الأشجار وتحت تلك القصور جارية أبداً.. (لاحظوا أن «غرف» جمع غرفة، ومعناها البناء المرتفع المشرف على أطرافه).

والامتياز الآخر لغرف الجنّة أنّها ليست كغرف الدنيا وقصورها ومنازلها التي ما أن يضع الإنسان فيها قدمه حتى يسمع نداء «الرحيل»، فغرف الجنّة دائمة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

ويضيف القرآن معقباً في ختام الآية ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾.

وبموازنة بسيطة بين ما ذكر آنفاً في شأن الكفّار والمذنبين في الآيات السابقة، وما ورد في هذه الآية، تتّضح عظمة ثواب المؤمنين.

فالكفّار غارقون في نار جهنم من قرنهم إلى قدمهم، ويقال لهم على سبيل التوبيخ ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أمّا المؤمنون فهم مقيمون في نعيم الجنّة وتحيط بهم رحمة الله من كلّ جانب، وبدلاً من كلمات التوبيخ يُكلمون بكلام طيب ملؤه المحبّة واللطف الإلهي الكريم، أجل يقال لهم: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾.

وبديهي أنّ المراد بالعاملين هنا مع قرائن الجمل السابقة، هم الذين يعملون الصالحات المقرونة بإيمانهم، وإن كانت كلمة العاملين مطلقة.

وفي حديث عن نبيّ الإسلام العظيم ﷺ يصف الجنّة فيقول: «إنّ في الجنّة لغرفاً يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها» فنهض بعض أصحابه فقال: يا رسول الله ﷺ لمن هذه الغرف؟ فقال ﷺ: «هي لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وصلى لله بالليل والناس نيام»(٢).

والآية التالية تصف أهمّ ما يتحلّى به المؤمنون العاملون فتقول: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

إذ يبتعدون عن الزوجة والأولاد والأهل والبيت والأحباب والأصدقاء وكل شيء

---

(١) «النبوئنهم» من مادة «تبوئة» على زنة «تذكرة» معناها إعطاء السكنى للإقامة والبقاء الدائم.

(٢) تفسير القرطبي ذيل الآيات محل البحث، ج ٧، ص ٥٠٧٥.

عزيز عليهم، لكنّهم يصبرون برغم الفراق يذوقون مرارة الغربة والتهجير عن أوطانهم ويصبرون، وتتلقى أنفسهم العذاب والأذى من أعدائهم من أجل حفظ إيمانهم، ويواجهون الصعاب في جهادهم الأكبر «جهادهم مع النفس» وجهادهم أعداءهم بشدّة، ويتحملون أنواع المشاكل فيصبرون!

أجل، هذا الصبر وهذه الاستقامة هما رمز انتصارهم وعامل فخرهم الكبير، وبدونه لا يتحقق عمل إيجابي في الحياة.

ثمّ بعد هذا كلّه، فهم لا يعتمدون على أموالهم ولا على أصدقائهم، بل يعتمدون على الله ويتوكلون على ذاته المقدّسة، وإذ ابتغى ألف عدو هلاكهم تمثلوا قائلين: «امتحانك رحمة فلا أكترث بالأعداء».

وإذ أمعنا النظر وفكّرنا جيداً رأينا أنّ الصبر والتوكل هما أساس جميع الفضائل الإنسانية، فالصبر هو عامل الاستقامة أمام العوائق والمشاكل، والتوكل هو الهدف والباعث على الحركة في هذا الطريق المديد الملتوي.

وفي الحقيقة ينبغي الاستمداد من هاتين الفضيلتين (الصبر والتوكل) للأعمال الصالحة، إذ بدونهما لا يمكن أن تؤدى الأعمال الصالحة بالمقياس الواسع[1].

وفي آخر آية - من الآيات محل البحث - جواب لأولئك الذين كان لسان حالهم أو لسان مقالهم يقول إذا خرجنا عن ديارنا وأهلينا، فمن سيطعمنا ويرزقنا؟ يخاطبهم القرآن أن لا تحزنوا على الرزق ولا تحملوا ثقل الذلة والأسر، فالرازق هو الله، لا لكم فحسب بل: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾.

قليل من الدواب والحيوانات والحشرات - وكذلك الإنسان - يأتي برزقه من الصحراء والشجر إلى وكره ومسكنه كالنحل - التي تنتج العسل - والنمل، وغالباً ما تكون الحيوانات بمثابة «طائر اليوم» أي كل يوم عليها أن تمضي لرزقها وتبحث عنه من جديد. وهكذا فإنّ ملايين الملايين من الحيوانات التي من حولنا، في النقاط القريبة والبعيدة، وفي الصحاري وأعماق البحار وأعالي الجبال والأماكن الأُخرى، فإنّها كلّها تقتات من مائدة الله السرمدية.

---

(١) تحدثنا عن حقيقة التوكل وحكمته وفلسفته بإسهاب في ذيل الآية (١٢) من سورة إبراهيم، وعن حقيقة الصبر لدى تفسير الآية (١٢) من سورة إبراهيم والآية (٢٤) من سورة الرعد والآية (٢٦) من سورة الأعراف.

وأنت أيّها الإنسان أقوى من تلك الحيوانات وأذكى في جلب الرزق، فلم كلّ خوف من انقطاع الرزق؟!

ولِمَ الركون إلى حياة الذل والاستكانة والفجور؟!

ولِمَ تظل سادراً تحت وطأة الظلم والقهر والهوان والذل؟! اخرج أنت أيضاً خل هذه الدائرة المظلمة، واجلس على مائدة خالقك الواسعة ولا تفكر بالرزق!.

فأنت يوم كنت جنيناً محبوساً في بطن أُمّك، ولا تصل إليك أية يد حتى من أب مك الرؤوم، لم ينسك الله الذي خلقك، وهيأ ما كنت تحتاج إليه لك بكل دقّة، فك نت اليوم كائن قوي ورشيد؟!

وحيث إنّ إيصال الرزق للمحتاجين هو فرع علمه تعالى بحاجاتهم، فالقرآن يؤكّد اية الآية قائلاً: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

يسمع كلامكم كلّه، ويعرف لسان حالكم، ولسان حال جميع الدواب، وهو ـ ـاجات الجميع، ولا يخفى على علمه الذي لا حدّ له شيءٌ أبداً.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

التّفسير

قرار بالتوحيد في الباطن والشرك في الظاهر

كان الحديث في الآيات السابقة موجّهاً إلى المشركين الذين أدركوا حقانيّة الإسلا أنّهم لم يكونوا مستعدين للإيمان والهجرة، خوفاً من انقطاع الرزق عليهم.

أمّا في هذه الآيات، فالحديث موجه للنّبي ﷺ، وفي الواقع لجميع المؤمنين، وهو يبيّن دلائل التوحيد عن طرق «الخلقة»، و«الربوبيّة»، و«الفطرة»، أي عن ثلاث طرائق متفاوتة، ويريهم أن مصيرهم وعاقبة أمرهم بيد الله الذي يجدون آثاره في الآفاق وفي أنفسهم، لابأيدي الأصنام والأوثان التي لا تضر ولا تنفع.

فتبدأ الآية الأُولى من هذه الآيات محل البحث - مشيرةً إلى خلق السماوات والأرض وتستعين باعتقاداتهم الباطنية... فتقول: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾!

لأنّ من المسلم به أنّه لا عبدة الأصنام ولا غيرهم ولا أي أحد آخر يقول: إنّ خالق السماوات والأرض ومسخر الشمس والقمر حفنة من الأحجار والخشب المصنوعة بيد الإنسان.

وبتعبير آخر: لا يشك في «توحيد الخالق» حتى عبدة الأصنام حيث كانوا مشركين في عبادة الخالق، وكانوا يقولون: إنّما نعبد أوثاناً ليقربونا إلى الله زلفى، فهم الوسطاء بيننا وبين الله، كما نقرأ في الآية (١٨) من سورة يونس: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.. فنحن غير جديرين أن نرتبط بالله مباشرةً، بل ينبغي أن نرتبط به عن طريق الأصنام ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾(١).

وهم غافلون عن أنّه لا تفصل بين الخالق والمخلوق أية فاصلة، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، زد على ذلك: إذا كان الإنسان - الذي هو بمثابة الدرّة اليتيمة في تاج الموجودات - لا يستطيع أن يرتبط بالله مباشرةً، فأي شيء يكون واسطة الإنسان إلى الله؟!

وعلى كلّ حال، فإنّ الآية بعد ذكر هذا الدليل الواضح تتساءل: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي مع هذا المال كيف يعرضون عن عبادة خالقهم ويستبدلونها بعبادة مجموعة من الأحجار والأخشاب؟!

كلمة «يؤفكون» مشتقّة من «إفك» على زنة «فكر» ومعناها إعادة الشيء من صورته الواقعية والحقيقية، وبهذه المناسبة تطلق الكلمة على الكذب وعلى الرياح المخالفة «للاتجاه» أيضاً.

(١) سورة الزمر، الآية: ٣.

والتعبير بـ «يؤفكون» بصيغة المجهول إشارة إلى أنّهم لا قدرة لهم على التصميم، فكأنّهم منجذبون إلى عبادة الأوثان دون إرادة.

والمراد من تسخير الشمس والقمر النظم التي أقرها الله تعالى، وجعل الشمس والقمر في دائرة هذه النظم في خدمة الإنسان، ومنافعه.

ثمّ يضيف القرآن تأكيداً لهذا المعنى، وهو أنّ الله خالق الخلق ورازقهم، فيقول: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ . . . فمفتاح الرزق بيده لا بيد الناس ولا بيد الأصنام.

وما ورد بيانه في الآيات السابقة من أنّ المؤمنين حقّاً هم وحدهم يتوكلون عليه، فلأجل هذا المعنى، وهو أنّ شيء بيده وبأمره، فعلام يخشون من إظهار الإيمان، ويرون حياتهم في خطر من جهة الأعداء.

وإذا كانوا يتصورون أنّ الله قادر، إلاّ أنّه غير مطّلع على حالهم، فهذا خطأ كبير لـ ﴿أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

ترى هل يمكن لخالق مدبر يصل فيضهُ لحظة بعد أُخرى لموجوداته، وفي الوقت ذاته يكون جاهلاً بحالها؟.

وفي المرحلة الثّانية يقع الكلام عن «التوحيد الربوبي» ونزول مصدر الأرزاق من قبله عليهم، فيقول: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.

فهذا هو ما يعتقده عبدة الأصنام في الباطن، ولا يتأبون من الاعتراف على ألسنتهم! فهم يعرفون أنّ الخالق هو الله، وأنّه ربّ العالم ومدبره.

ثمّ يضيف القرآن مخاطباً نبيّه ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾. فالحمد والثناء لمن أنعم جميع النعم، إذ لمّا كان الماء الذي هو مصدر الحياة لجميع الحيوانات من رزق الله فيكون واضحاً أنّ الأرزاق جميعها صادرة من قبله أيضاً.

قل الحمد لله «واشكره»، لأنّهم يعترفون بهذه الحقائق.

وقل الحمد لله، فمنطقنا قوي متين حيٌّ إلى درجة لا يستطيع أي أحد إبطاله أو تفنيده، وحيث إنّ أقوال المشركين من جهة، وأعمالهم وأفعالهم وكلماتهم من جهة أُخرى، يناقض بعضها بعضاً، فإنّ الآية تختتم بإضافة الجملة التالية ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

وإلاّ فكيف يمكن للإنسان العاقل أن يتناقض في كلماته، فتارةً يرى أنّ الخالق والرازق والمدبّر للعالم هو الله، وتارة يسجد للأوثان التي لا تأثير لها بالنسبة لعواقب الناس!. فمن جهة يعتقدون بتوحيد الخالق والربّ، ومن جهة أُخرى يظهرون الشرك في العبادة.

ومن الطريف أنّ الآية لا تقول: «أكثرهم لا عقل لهم» بل تقول: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ ومعناها أنّهم لديهم العقول، إلاّ أنّهم لا يستوعبون ولا يتعقلون!

ومن أجل أن يحوّل القرآن أفكارهم من أفق هذه الحياة المحدودة إلى عالم أوسع من خلال منظار العقل، فإنّه يبيّن في الآية التالية كيفية الحياة الدنيا قياساً إلى الحياة الأُخرى الخالدة، في عبارة موجزة ومليئة بالمعاني، فيقول: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

كم هو تعبير بليغ وبديع! لأنّ «اللهو» معناه الانشغال... أو كل عمل يصرف الإنسان إليه ويشغله عن مسائل الحياة الأساسية.

أمّا «اللعب» فيطلق على الأعمال التي فيها نوع من النظم الخيالي، والهدف الخيالي أيضاً، ففي اللعب يكون أحد اللاعبين ملكاً، والآخر وزيراً، والثّالث قائداً للجيش، والرابع - السارق أو «الحرامي»، والخامس يمثل القافلة وهكذا، وبعد انتهاء اللعب المؤقت يعود كل شيء إلى مكانته، وكأنّ المسألة لا تعدو طيفاً.. أو خيالاً.. فلا أثر ولا خبر.

فالقرآن في هذا الصدد يشرح حال الدنيا وحال الآخرة، مبيّناً أنّ الحياة الدنيا هي نوع من الانشغال واللعب يجتمع الناس فيها وينشدّون إلى تصورات قلوبهم وأنفسهم، وبعد أيّام يتفرقون ويختفون تحت التراب، ثمّ يطوى كل شيء ويغدو في سلة النسيان.

أمّا الحياة الحقيقية التي لا فناء بعدها، ولا ألم فيها، ولا قلق ولاخوف ولا تضاد ولا تزاحم، فهي الحياة الآخرة فحسب... لو كان الإنسان يعرف ذلك، وكان أهلاً للتدقيق والتحقيق!

أمّا الذين تعلقت قلوبهم بهذه الحياة، وفتنوا برزقها وزخرفها وزبرجها، ويأنسون بها، فهم أطفال لا غير وإن امتدت أعمارهم سنين طويلة.

وينبغي الالتفات إلى أنّ المراد من «الحيوان» على زنة «خفقان» هو الحياة، فهذه الكلمة تحمل معنى مصدرياً(١)..

---

(١) أصل الكلمة مشتق من «حيي» ومصدرها «حييان» ثمّ أبدلت الياء الثّانية واواً فصارت حيوان.

وهذا التعبير: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ إشارة إلى أنّ الحياة الحقيقية هي في الأُخرى، لا في هذه الدار الدنيا - فكأنّ الحياة في الأُخرى تفور من جميع أبعادها، ولا شيء هناك إلاّ الحياة.

وبديهي أنّ القرآن لا يريد أن ينسى وينفي مواهب الله في هذه الدار الدنيا، بل يريد أن يجسد قيمة هذه الدنيا بالقياس إلى الأُخرى قياساً صريحاً وواضحاً. . . وإضافةً إلى كل ذلك فإنّه ينذر الإنسان لئلا يكون أسيراً لهذه المواهب، بل ينبغي أن يكون أميراً عليها، ولا يؤثرها على القيم الأصيلة أبداً.

وفي المرحلة الثّالثة. . . يتجه القرآن نحو الفطرة والجبلّة الإنسانية، ونحو تجلّي نور التوحيد في أشدّ الأزمات في أعماق روح الإنسان، وضمن مثال بديع جدّاً وبليغ فيقول: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

أجل، إنّ الشدائد والأزمات هي التي تهيىء الأرضية لتفتح الاجتماعية «الفطرة» الإنسانية، لأنّ نور التوحيد مخفي في أرواح الناس جميعاً، إلاّ أنّ الآداب والمسائل الخرافية والتربية الخاطئة والتلقينات السيئة تلقي عليه ظلالاً وأستاراً، ولكن حين تحدق بالإنسان الشدائد وتحيط به دوّامات المشاكل، ويرى يده قاصرة عن الأسباب الظاهرية، يتجه بدون اختياره إلى عالم ما وراء الطبيعة، ويخلص قلبه من كل نوع من أنواع الشرك والكفر، وينصهر في تنور الحوادث، ويكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

وملخص الكلام: إنّه توجد في داخل قلب الإنسان دائماً نقطة نورانية، وهي خطّ ارتباطه بما وراء عالم الطبيعة، وأقرب طريق إلى الله.

إلاّ أنّ التعليمات الخاطئة والغفلة والغرور - وخاصة عند السلامة ووفور النعمة - تلقي عليها أستاراً، غير أن طوفان الحوادث يزيل هذه الأستار، وتتجلى نقطة النور آنذاك.

وعلى هذا، فإنّ أئمّة المسلمين العظام كانوا يرشدون المترددين في مسألة «معرفة الله» ويغرقون في الشك والحيرة. . بهذا الأمر.

وقصّة الرجل المتحيّر المبتلى بالشك في معرفة الله، والذي أرشده الإمام الصادق عليه السلام عن طريق الفطرة والوجدان، سمعناها جميعاً إذ قال: يابن رسول الله، دلّني على الله ما هو؟! فقد أكثر علي المجادلون وحيّروني!

فقال له الإمام عليه السلام: «يا عبد الله، هل ركبت سفينة قطّ؟

قال: نعم.

قال: فهل كسر بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك؟!

قال: نعم!

قال: فهل تعلّق قلبك هنالك أنّ شيئاً من الأشياء قادر على أن يخلصك من ورطتك؟!

قال: نعم.

قال الصادق عليه السلام: فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حيث لا منجي، وعلى الإغاثة حيث لا مغيث»(١).

وفي آخر آية - من الآيات محل البحث - وبعد ذكر جميع هذه الدلائل على التوحيد وعبادة الله، يواجه القرآن المشركين والكفّار بتهديد شديد فيقول: إنّ هؤلاء أنكروا آياتنا وكفروا بما رزقناهم من النعم فليتمتعوا بها أيّاماً قلائل: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ عاقبة كفرهم وشركهم إلى أين ستبلغ بهم؟ وأي ابتلاء ومصير مشؤوم سيقعون فيه؟!

وبالرغم من أنّ ظاهر الآية هنا هو الأمر بالكفر وإنكار آيات الله... إلاّ أنّ من البديهي أنّ المراد منه التهديد... وهذا تماماً ينطبق مثلاً على ما لو قلنا لمذنب جان: افعل ما بدا لك من إجرام، إلاّ أنّك سرعان ما تذوق مرارة عملك؟

ففي مثل هذه العبارات، وإن استعملت صيغة الأمر فيها، إلاّ أنّ الهدف من ورائها هو التهديد وليس الطلب.

والطريف أنّ جملة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ جاءت بصورة مطلقة، فهي لا تقول: أي شيء يعلمون... بل تقول: سيعلمون عاجلاً، هذا هو معنى ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

إطلاق الكلام هذا ليكون مفهومه واسعاً ولا يتحدد ذهن السامع بأي شيء فنتيجة الأعمال السيئة هي عذاب الله، الافتضاح في الدارين، وكل أنواع الشقاء وسوء العاقبة!.

ملاحظة

الشدائد وإشراق الفطرة

سنتحدث بإذن الله في ذيل الآية الثلاثين من سورة الروم حول «فطريّة» أصل التوحيد

---

(١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٤١ الطبعة الجديدة.

ومعرفة الله بشكل مفصّل، وما يلزم ذكره هنا هو أنّ القرآن المجيد يتحدث في آيات كثيرة عن المشاكل والصعاب على أنّها باعثة على ظهور الفطرة الإنسانية وبروزها «فالمشاكل والصعاب وسيلة لإشراق الفطرة».

يقول القرآن في بعض آياته: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾(١).

ويأتي هذا المعنى في سورة يونس، ولكن بأُسلوب آخر، إذ يقول القرآن ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾(٢) كما ورد هذا المعنى في سورة الروم الآية (٣٢) وسورة الزمر الآية (٤٩) وسورة الإسراء الآيات (٦٧) - (٦٩) بعبارات أُخرى وإشارات مليئة بالمعاني.

وفي الآيات - محل البحث - قرأنا أيضاً أنّ المشركين في الحالات العادية يتّجهون إلى الأصنام، ولكن إذا سافروا في البحر وأحاطت بهم الأمواج والطوفان، وأضحت سفينتهم كالقشة في وسط الأمواج المتلاطمة تتقاذفها هنا وهنا، وانقطعت بهم السبل تتنور قلوبهم بنور التوحيد ويلقون جانباً جميع المعبودات المصنوعة، ويخلصون قلوبهم كاملاً - لكن خلوصاً إجبارياً لا قيمة له - فما أن يهدأ الطوفان وتتلاشى الأمواج وتعود الحالة الاعتيادية، حتى تنزل الأسدال على الفطرة وتظهر أشواك الشرك والوثنية على هذه «الوردة».

قد يقال: إنّ هذه الحالة من التوجه تحصل على أثر التلقين والرسوبات الفكرية من الثقافة الاجتماعية وأفكار المحيط.

ويمكن قبول مثل هذا الكلام فيما إذا كانت هذه المسألة تحدث خاصّة في موارد المتدينين أو الذين نشؤوا في محيط ديني، ولكن مع الالتفات إلى أنّ هذه الحالة تظهر حتى عند أشد المنكرين لله، وفي المجتمعات غير المذهبية، فيتّضح حينئذ أنّ جذرها كامن في الضمير (غير الواعي) للإنسان، وفي داخل فطرته وجبلّته!.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ

---

(١) سورة النحل، الآيتان: ٥٣ - ٥٤. (٢) سورة يونس، الآية: ١٢.

كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

سبب النّزول

نقل في تفسير «الدر المنثور» عن ابن عباس - ذيل الآية محل البحث - أنّ جماعة من المشركين قالوا: يا محمّد ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلاّ مخافة أن يتخطفنا الناس لِقلّتنا والعرب أكثر منّا فمتى بلغهم أنا قد دخلنا في دينك اختطفنا فكنّا أكلة رأس، فأنزل الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ وكانت جواباً لهم.

التّفسير

أشارت الآيات - التي سبق ذكرها - إلى بعض الحجج الواهية للمشركين، وهي أنّنا نخاف على حياتنا إذا أظهرنا الإيمان ثمّ هاجرنا معك يا رسول الله، وقد ردّ عليها القرآن بطرق مختلفة.

وفي الآيات - محل البحث - يردّ القرآن عليهم بطريق آخر فيقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أي أرض مكّة المكرمة.

في حين أنّ العرب كانوا يعيشون في حالة غير آمنة خارج مكّة، وكانت قبائلهم مشغولة بالنهب والسلب والغارات، إلاّ أنّ هذه الأرض باقية على أمنها ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾.

فالله المقتدر على أن يجعل في هذا البحر المتلاطم والطوفان المحدق بأرض الحجاز «من الفتن» حَرَم مكّة كالجزيرة الهادئة الآمنة وسط البحر، كيف لا يمكنه أن يحفظهم من أعدائهم؟! وكيف يخافون الناس الضعاف قبال قدرة الله العظيمة جلّ وعلا؟ ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾.

وملخص الكلام، إنّ الله القادر على أن يجعل في أرض مضطربة في وسط جماعة من الناس أنصاف وحشيين منطقة صغيرة آمنة، فكيف لا يقدر على حفظ جماعة المؤمنين القلائل بين جماعات كثيرة من الكفّار.

وبعد ذكر هذا الدليل الواضح ينتهي القرآن إلى هذه النتيجة في الآية التالية ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُۥٓ﴾.

لقد قدمنا دلائل واضحة لكم على أنّه لا شيء أحق بالعبادة وأحرى بها من الله، لكنّكم كذبتم على الله، وصنعتم له شركاء بأيديكم، وتدعون أن هذا هو منهج إلهي.

ومن جهة أُخرى، فإنّ القرآن الذي أنزلناه عليكم فيه دلائل الحق لائحة واضحة، إلاّ أنّكم لم تكترثوا به، وألقيتموه وراءكم ظهرياً! فهل يتصور ظلم أشدّ من هذا؟! لقد ظلمتم أنفسكم وظلمتم الناس جميعاً، لأنّ الشرك ظلم عظيم.

وبتعبير آخر: هل الظلم بمعناه الوسيع إلاّ الانحراف وإخراج الشيء عن محلّه الجدير به، وهل يرى أسوأ من أن يعدّ الإنسان حفنة من الأحجار المصنوعة التي لا قيمة لها أو الخشب المصنوع شركاء للخالق سبحانه الذي خلق السماوات والأرض.

إضافة إلى ذلك فإنّ الشرك مصدر جميع المفاسد الاجتماعية، وفي الواقع إنّ المظالم الأُخرى تسترفد منه، عبادة الهوى، عبادة المقام، عبادة الدنيا، كل منها نوع من الشرك.

ولكن اعلموا أنّ عاقبة الشؤم والخزي للمشركين ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾.

من الجدير ذكره أنّ في القرآن الكريم ١٥ مورداً عبّر فيها القرآن عن بعض الأفراد بأنّهم الأظلم، وجميع هذه الموارد بدأت بجملة استفهامية ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ طبعاً الاستفهام هنا استنكاري.

والتدقيق في هذه الآيات يدل على أنّ الآيات المذكورة وإن عالجت مسائل متنوعة، إلاّ أنّها جميعاً تعود إلى الشرك، فعلى هذا لا تضاد بينها أبداً، «لمزيد الإيضاح يراجع تفسير الآية (٢١) من سورة الأنعام».

وآخر آية - من الآيات محل البحث - وهي في الوقت ذاته آخرَ آية سورة العنكبوت، تبيّن واقعاً مهماً، وهي عصارة جميع هذه السورة، وتنسجم مع بدايتها.

تقول الآية... بالرغم من أنّ المشاكل المتعددة تحيط بطريق المسير إلى الله، من قبيل مشكلة معرفة الحق، ومشكلة وساوس الشياطين من الإنس والجن، ومشكلة عناد الأعداء الألداء الظالمين الذين لا يرحمون، ومشكلة الانحرافات الاحتمالية، لكن هنا حقيقة ثابتة، وهي أنّ الله يمنحكم القوّة والاطمئنان قبال المشاكل ويدافع عنكم، تقول الآية: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وفي معنى «الجهاد» هنا والمراد منه احتمالات متعددة. أهو جهاد الأعداء؟ أم جهاد النفس؟ أم الجهاد في سبيل معرفة الله عن الطرق العلمية؟

للمفسّرين آراء في هذا المجال.

وكذلك في معنى «فينا» الذي ورد تعبيره في الآية، هل المراد منه في سبيل الله؟! أم في سبيل الجهاد للنفس، أم في سبيل العبادة، أم مواجهة الأعداء؟

ولكن من الواضح أنّ التعبير بالجهاد له معنى واسع مطلق، ومثله التعبير بكلمة «فينا» فالتعبير يشمل كل سعي وجهاد في سبيل الله ومن أجله، وللوصول إلى الأهداف الإلهيّة، كل ذلك يصدق عليه ﴿جَـٰهَدُواْ فِينَا﴾ سواءٌ كان في سبيل كسب المعرفة! أو جهاد النفس، أو مواجهة الأعداء، أو الصبر على الطاعة، أو الصبر على المعصية، أو في إعانة الضعفاء، أو في الإقدام على أي عمل حسن وصالح!

ويتّضح ممّا قلناه ضمناً أنّ المراد بـ«السبل» الطرق المتعددة التي تنتهي إلى الله، سبيل جهاد النفس، سبيل جهاد الأعداء، سبيل العلم والثقافة. والخلاصة، فإن الجهاد في كل طريق من هذه الطرق والسبل سبب لهداية المسير المنتهي إلى الله.

وهذا وعدٌ وعده الله لجميع المجاهدين في سبيله، وأكده بأنواع التأكيدات كـ«لام التأكيد والنون الثقيلة» وجعل التوفيق والانتصار والرقي في محور شيئين هما «الجهاد» و«خلوص النية».

ويعتقد جماعة من الفلاسفة أنّ التفكر والمطالعة لا يوجدان العلم، بل يهيئان روح الإنسان لقبول صور المعقولات، وحين تتهيأ الروح الإنسانية للقبول يتنزّل «الفيض» من قبل الخالق المتعال وواهب الصور بالعلم و«الحكمة».

فعلى هذا ينبغي على الإنسان أن يجاهد في هذا الطريق، إلاّ أنّ الهداية بيد الله تعالى.

وما ورد في الحديث أنّه: «ليس العلم بكثرة التعلم والتعليم، بل هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء»، فلعله إشارة إلى هذا المعنى أيضاً.

بحثان

١ - الجهاد والإخلاص

يستفاد من الآية المتقدمة بصورة جيدة أنّنا إذا أصبنا بأي نوع من الهزيمة عدم الموفقية، فسبب ذلك وعلته أحد أمرين: إمّا أنا قصّرنا في جهادنا، أو لم يكن لدينا

إخلاص في العمل، وإذا اجتمع الجهاد والإخلاص - فبناء على وعد الله - فإنّ النصر والهداية حتميّان.

ولو فكّرنا جيداً لاستطعنا أن نعزو جميع المشاكل والمصائب في المجتمع الإسلامي إلى التقاعد عن الجهاد وعدم الاخلاص، فهما مصدرها.

فلِمَ تأخر المسلمون، الذين كانوا متقدمين بالأمس!؟

ولِمَ يمدون يد الحاجة إلى الأجانب في كل شيء، حتى في الثقافة والقوانين، وحتى نظمهم الخاصة.

ولِمَ يعتمدون على غيرهم من أجل حفظ أنفسهم من التيارات السياسية والهجومات العسكرية.

لِمَ كان الآخرون جالسين يوماً على مائدة المسلمين التي كان خوانها مبسوطاً بالعلم والثقافة والمعرفة، واليوم أصبح المسلمون جالسين على مائدة الآخرين؟!!

وأخيراً، لِمَ نرى المسلمين أسرى في قبضة الآخرين، وأراضيهم مغصوبة من قبل الظالمين؟

الإجابة على جميع هذه الأسئلة منحصرة في سبب واحد، هو «نسيانهم الجهاد» أو «عدم الخلوص في النية».

أجل، لقد أهملوا الجهاد في الميادين العلمية والثقافية والسياسية والاقتصادية والعسكرية، وتغلّب عليهم حبّ النفس وعشق الدنيا وطلب الراحة والنظرة الضيقة والأغراض الشخصيّة، حتى أصبح قتلاهم على أيديهم أكثر من قتلاهم على أيدي أعدائهم!.

إنّ استغراب بعض المسلمين الذى انبهروا بحضارة الغرب الرأسمالي أو الشرق الاشتراكي، وعمالة بعض الرؤساء والزعماء، ويأس وانزواء العلماء والمفكرين كل ذلك سلبهم التوفيق إلى الجهاد، وكذلك حرمهم من الإخلاص.

ومتى ما ظهر قليل من الإخلاص بين صفوفنا، وتحرك مجاهدونا حركة ذاتية، فإنّ النصر يكون حليفنا واحداً بعد الآخر... وتتقطع غلال الأسر... ويتبدل اليأس إلى أمل مشرق، وسوء الحظ إلى حسن الحظ، والذلة إلى العزة ورفعة الرأس، كما تتبدل الفرقة والشتات إلى الوحدة والانسجام.

وما أعظم ما قاله القرآن! وما أبلغ إلهامه! إذ جمع في جملة واحدة الداء والدواء معاً.

أجل إن الذين يجاهدون في سبيل الله تشملهم هدايته، ومن البديهي أنّه مع هداية الله، فلا ضلال ولا خسران، ولا انهزام.

وإذا لاحظنا أنّ الآية مفسّرة في بعض روايات أهل البيت عليهم السلام بآل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وأتباعهم، فهي مصداق كامل لذلك «التّفسير» لأنّهم كانوا السابقين والمتقدمين في طريق الجهاد، وليس في الآية دليل على تحديد مفهومها أبداً.

وعلى كل حال، فإنّ كل إنسان يلمس هذه الحقيقة القرآنية.. في سعيه واجتهاده، حيث يجد الأبواب مفتوحة عندما يعمل لله وفي سبيل الله، وتنتهي مشاكله السهلة والصعبة وتضحى بسيطة متحملة.

٢ - الناس ثلاثة أصناف

فصنف لجوج معاند لا تنفعه أية هداية.

وصنفٌ مجد دؤوب مخلص، وهذا الصنف يصل إلى الحق.

وصنفٌ ثالث أعلى من الصنف الثاني، فهذا الصنف ليس بعيداً حتى يقترب من الحق، ولا منفصلاً عنه حتى يتصل به، لأنّه معه أبداً.

فالآية المتقدمة ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ إشارة إلى الصنف الأوّل.

وجملة ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ إشارة إلى الصنف الثّاني.

وجملة ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إشارة إلى الصنف الثّالث.

ويستفاد - ضمناً - من هذا التعبير أنّ مقام «المحسنين» أسمى من مقام «المجاهدين»، لأنّ المحسنين إضافة إلى جهادهم في سبيل الله لنجاة أنفسهم، فهم مؤثرون غيرهم على أنفسهم، ويحسنون إلى الآخرين، ويسعون لإعانتهم.

ربّنا وفقنا توفيقاً ترحمنا به، فلا نكفّ أيدينا عن الجدّ والاجتهاد.

إلهنا.. ارزقنا الإخلاص حتى لا نفكر في سواك، ولا نخطو لغيرك.

إلهنا.. ارفع درجاتنا حتى نعلو على مقام المجاهدين وننال درجة المحسنين، وارزقنا هدايتك في جميع أعمارنا.

سُورَةُ الرُّوم

مكيّة وعدد آياتـها ستّون

محتوى سورة الروم

حيث إنّ هذه السورة جميعها نزلت بمكّة - كما هو المشهور - فإنّ محتوى السور المكّية، وروحها بادٍ عليها . . . أي إنّها تبحث قبل كل شيء عن المبدأ والمعاد، لأنّ فترة مكّة هي فترة تعلم الاعتقادات الإسلامية الأصلية الأساسية، كالتوحيد ومواجهة الشرك والتوجه ليوم المعاد ومحكمة العدل الإلهي والبعث والنشور . . الخ . . . كما تُثار خلال هذه المباحث مسائل أُخرى ترتبط بها .

ويمكن تلخيص مضامين هذه السورة في سبعة أقسام :

١ - التنبؤ بانتصار الرُّوم على الفُرس في معركة تحدث في المستقبل، وذلك لما جرى من الحديث بين المسلمين والمشركين في هذا الصدد، وسيأتي تفصيل ذلك في الصفحات المقبلة بإذن الله .

٢ - جانب من طريقة التفكير عند غير المؤمنين وكيفية أحوالهم، ثمّ التهديدات لهم بالعذاب والجزاء (الإلهي) في يوم القيامة .

٣ - قسم مهم من آيات «عظمة الله» في الأرض والسماء، وفي وجود الإنسان، من قبيل خروج الحي من الميت، وخروج الميت من الحيّ . . . وخلقَ الإنسان من تراب، ونظام الزوجية بالنسبة للناس، وعلاقة المودّة بين كل من الزوجين، خلق السماوات والأرض واختلاف الألسن، نعمة النوم في الليل والحركة في النهار، وظهور البرق والرعد والغيث وحياة الأرض بعد موتها، وتدبير الله لأمر السماء والأرض .

٤ - الكلام عن التوحيد «الفطري» بعد بيان دلائله في الآفاق وفي الأنفس لمعرفة الله سبحانه .

٥ - العودة إلى شرح أحوال غير المؤمنين والمذنبين وتفصيل حالاتهم، وظهور الفساد في الأرض نتيجة لآثامهم وذنوبهم .

٦ - إشارة إلى مسألة التملك، وحق ذوي القربى، وذم الربا .

٧ - العودة - مرّة أُخرى - إلى دلائل التوحيد، وآيات الله وآثاره، والمسائل المتعلقة بالمعاد.

وبشكل عام فإنّ في هذه السورة - كباقي سور القرآن الأُخرى مسائل استدلالية وعاطفية وخطابية ممزوجة مزجاً.. حتى غدت «مزيجاً» كاملاً لهداية النفوس وتربيتها.

فضيلة سورة الروم

ورد في حديث للإمام الصادق عليه السلام كما أشرنا إليه من قبل، في فضيلة هذه السورة وسورة العنكبوت ما يلي: «من قرأ سورة العنكبوت والروم في شهر رمضان ليلة ثلاث وعشرين فهو والله - يا أبا محمّد - من أهل الجنّة لا أستثني فيه أبداً، ولا أخاف أن يكتب الله علي في يميني إثماً، وإن لهاتين السورتين من الله مكاناً»(١).

وفي حديث آخر عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ورد ما يلي «من قرأها كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل ملك سبح الله بين السماء والأرض، وأدرك ما ضيع في يومه وليلته»(٢).

ومن البديهي أنّ من جعل محتوى هذه السورة التي هي درس عامٌ للتوحيد ومحكمة القيامة الكبرى، في روحه وقلبه، وراقب الله في كل لحظة، واعتقد بيوم الجزاء حقاً، فإنّ تقوى الله تملأ قلبه حتى يكون حقيقاً بهذا الأجر والثواب.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾

سبب النّزول

يتفق المفسّرون الكبار على أنّ الآيات الأُولى من هذه السورة نزلت في أعقاب

(١) ثواب الأعمال للصدوق، طبقاً لنقل تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٦٤.
(٢) تفسير مجمع البيان، ج٨، ص٢٩٤، بداية سورة الروم.

الحرب التي دارت بين الروم والفُرس، وانتصر الفرس على الروم، وكان النّبي حينئذ في مكّة، والمؤمنون يمثلون الأقلية.

فاعتبر المشركون هذا الانتصار للفرس فألا حسناً، وعدّوه دليلاً على حقانيّة المشركين و«الشرك»، وقالوا: إنّ الفرس مجوسٌ مشركون، وأمّا الروم فهم مسيحيون «نصارى» ومن أهل الكتاب. . فكما أنّ الفرس غلبوا «الروم» فإنّ الغلبة النهائية للشرك أيضاً، وستنطوي صفحة الإسلام بسرعة ويكون النصر حليفنا.

وبالرغم من أنّ مثل هذا الاستنتاج عار من أي أساس، إلاّ أنّه لم يكن خالياً من التأثير في ذلك الجوّ والمحيط للتبليغ بين الناس الجهلة، لذلك كان هذا الأمر عسيراً على المسلمين.

فنزلت الآيات الآنفة وقالتْ بشكل قاطع: لئن غلب الفرس الروم ليأتينّ النصر والغلبة للروم خلال فترة قصيرة، وقد حدّدت الفترة لانتصار الروم على الفرس في ﴿بِضْعِ سِنِينَ﴾.

وهذا الكلام السابق لأوانه، هو من جهة دليل على إعجاز القرآن، هذا الكتاب السماوي الذي يستند علمه إلى الخالق غير المحدود، ومن جهة أُخرى كان فألاً حسناً للمسلمين في مقابل فأل المشركين، حتى أنّ بعض المسلمين عقدوا مع المشركين رهاناً على هذه المسألة المهمّة، ولم يكن في ذلك الحين قد نزل الحكم بتحريم مثل هذا الشرط(١).

التّفسير

تنبؤ عجيب!

هذه السورة ضمن مجموع تسع وعشرين سورة تبدأ بالحروف المقطعة (ألم).

وقد بحثنا مراراً في تفسير هذه الحروف المقطعة «وخاصةً في بداية سورة البقرة وآل عمران والأعراف».

---

(١) جاء سبب النّزول هذا في كتب التفاسير المختلفة بشيء من الاختلاف البسيط في التعابير، فراجع مجمع البيان والميزان ونور الثقلين وتفسير الفخر الرازي وأبي الفتوح الرازي، وتفسير الآلوسي وفي ظلال القرآن والتفاسير الأُخرى.

والفارق الوحيد الذي نلاحظه هنا عن بقية السور، ويلفت النظر، هو أنّه خلافاً لكثير من السور التي تبدأ بالحروف المقطعة، التي يأتي الحديث بعدها على عظمة القرآن الكريم، بل بحثاً عن اندحار الروم وانتصارهم في المستقبل، ولكن مع التدقيق يتّضح أنّ هذا البحث يتحدث عن عظمة القرآن الكريم أيضاً. . . لأنّ هذا الخبر الغيبي المرتبط بالمستقبل هو من دلائل إعجاز القرآن، وعظمة هذا الكتاب السماوي!.

يقول القرآن بعد الحروف المقطعة: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ ۝٣﴾ وهم قريب منكم يا أهل مكّة، إذ إنّهم في شمال جزيرة العرب، في أراضي الشام في منطقة بين «بصرى» و«أذرعات».

ومن هنا يعلم بأنّ المراد من الروم هنا هم الروم الشرقيون، لا الروم الغربيون.

ويرى بعض المفسّرين كالشيخ الطوسي في تفسير «التبيان» - أنّ من المحتمل أن يكون المراد بأدنى الأرض المكان القريب من بلاد فارس، أي إنّ المعركة وقعت في أقرب نقطة بين الفرس والروم(١).

وصحيحٌ أن التّفسير الأوّل معه الألف واللام للعهد - في «الأرض» مناسبٌ أكثر، ولكن ومن جهات متعددة - كما سنذكرها - يبدو أنّ التّفسير الثّاني أصحّ من الأوّل!

ويوجد هنا تفسير ثالث، ولعلّه لا يختلف من حيث النتيجة مع التّفسير الثّاني، هو أنّ المراد من هذه الأرض - هي أرض الروم، أي إنّهم غلبوا في أقرب حدودهم مع بلاد فارس، وهذا يشير إلى أهميّة هذا الاندحار وعمقه، لأنّ الاندحار في المناطق البعيدة والحدود المترامية البعد ليس له أهميّة بالغة، بل المهم أن تندحر دولة في أقرب نقاطها من حدودها مع العدو، إذ هي فيها أقوى وأشدّ من غيرها.

فعلى هذا سيكون ذكر جملة ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ إشارة إلى أهمّية هذا الاندحار.

وبالطبع فإنّ التنبؤ عن انتصار البلد المغلوب خلال بضع سنين في المستقبل، له أهمّية أكبر، إذ لا يمكن التوقع له إلاّ عن طريق الإعجاز.

ثمّ يضيف القرآن: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ وهم أيّ الروم، ومع أنّ جملة ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ كافية لبيان المقصود، ولكن جاء التعبير ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ بشكل خاص

(١) تفسير التبيان، ج ٨، ص ٢٠٦.

لتتّضح أهمّية هذا الانتصار أكثر، لأنّه لا ينتظر أن تغلب جماعة مغلوبة وفي أقرب حدودها وأقواها في ظرف قصير، لكن القرآن يخبر بصراحة عن هذه الحادثة غير المتوقعة.

ثمّ يبيّن الفترة القصيرة من هذه السنين بهذا التعبير: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾[1] والمعلوم أنّ «بضع» ما يكون أقله الثلاث وأكثره التسع.

وإذا أخبر الله عن المستقبل، فلأنّه ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾.

وبديهيّ أنّ كون الأشياء جميعها بيد الله - وبأمره وإرادته - لا يمنع من اختيارنا في الإرادة وحريتنا وسعينا وجهادنا في مسير الأهداف المنظورة.

وبتعبير آخر: إنّ هذه العبارة لا تريد سلب الاختيار من الآخرين، بل تريد أن توضح هذه اللطيفة، وهي أنّ القادر بالذات والمالك على الإطلاق هو الله، وكل من لديه شيء فهو منه!.

ثمّ يضيف القرآن، أنّه إذا فرح المشركون اليوم بانتصار الفرس على الروم فإنّه ستغلب الروم ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

أجل، يفرحون ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

ولكن ما المراد من فرح المؤمنين؟!

قال جماعة: المراد منه فرحهم بانتصار الروم، وإن كانوا في صفوف الكفّار أيضاً، إلاّ أنّهم لكونهم لديهم كتاب سماوي فانتصارهم على المجوس يعدّ مرحلة من إنتصار «التوحيد» على «الشرك».

وأضاف آخرون: إنّ المؤمنين إنّما فرحوا لأنّهم تفألوا من هذه الحادثة فألا حسناً، وجعلوها دليلاً على انتصارهم على المشركين.

أو أنّ فرحهم كان لأنّ عظمة القرآن وصدق كلامه المسبق القاطع - بنفسه - انتصار معنوي للمسلمين وظهر في ذلك اليوم.

ولا يبعد هذا الاحتمال وهو أنّ انتصار الروم كان مقارناً مع بعض انتصارات المسلمين على المشركين، وخاصة أن بعض المفسّرين أشار إلى أن هذا الانتصار كان

---

(١) توجد احتمالات كثيرة في معنى «بضع» فقيل: إنّها تتراوح بين ثلاث وعشر، أو أنّها تتراوح بين واحدة وتسع، وقيل: أقلّها ست وأكثرها تسع. إلاّ أنّ ما ذكرناه في المتن هو المشهور.

مقارناً لانتصار بدر أو مقارناً لصلح الحديبية. وهو بنفسه يعدّ انتصاراً كبيراً، وخاصة أن التعبير بنصر الله أيضاً يناسب هذا المعنى.

والخلاصة: إنّ المسلمين «المؤمنين» فرحوا في ذلك اليوم لجهات متعددة:

١ - من انتصار أهل الكتاب على المجوس، لأنّه ساحة لانتصار الموحدين على المشركين.

٢ - من الانتصار المعنوي لظهور إعجاز القرآن.

٣ - ومن الانتصار المقارن لذلك الانتصار، ويحتمل أن يكون صلح الحديبية، أو بعض فتوحات المسلمين الأُخر!.

ولزيادة التأكيد يضيف أيضاً: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١) والسبب في عدم علم الناس، هو عدم معرفتهم بالله وقدرته، فهم لم يعرفوا الله حق معرفته، فهم لا يعلمون هذه الحقيقة، وهي أنّ الله محال عليه أن يتخلف عن وعده، لأنّ التخلف عن الوعد إمّا للجهل، أو لأنّ الأمر كان مكتوماً ثمّ اتضح وصار سبباً لتغيير العقيدة، أو للضعف وعدم القدرة، إذ لم يرجع الذي وعد عن عقيدته لكنّه غير قادر، لكن الله لا يتخلف عن الوعد، لأنّه يعرف عواقب الأمور، وقدرته فوق كل شيء.

ثمّ يضيف القرآن معقباً: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

إنّهم لا يعلمون إلاّ الحياة الدنيا فحسب، بل يعلمون الظاهر منها ويقنعون به! فكلّ ما تمثله نظراتهم ونصيبهم من هذه الحياة هو اللهو واللذة العابرة والنوم والخيال... وما ينطوي في هذا الإدران السطحي للحياة من الغفلة والغرور، غير خاف على أحد.

ولو كانوا يعلمون باطن الحياة وواقعها في هذه الدنيا، لكان ذلك كافياً لمعرفة الآخرة! لأنّ التدقيق في هذه الحياة العابرة، يكشف أنّها حلقة من سلسلة طويلة ومرحلة من مسير مديد كبير، كما أنّ التدقيق في مرحلة تكوين الجنين يكشف عن أن الهدف النهائي ليس هو هذه المرحلة من حياة الجنين فحسب! بل هي مقدمة لحياة أوسع!.

أجل، هم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا فحسب، ولكنّهم غافلون عن مكنونها ومحتواها ومفاهيمها!.

---

(١) نصب ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ على أنّه مفعول مطلق وعامله محذوف، ويعلم من الجملة التي قبله أي «سيغلبون» التي هي مصداق الوعد الإلهي، ويكون تقديره: وعد الله ذلك وعداً!.

ومن الطريف هنا أن تكرار الضمير «هم» يشير إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ علة هذه الغفلة وسرّها تعود إليهم «فهم الغفلة وهم الجهلة» وهذا يشبه تماماً قول القائل لك مثلاً: لقد أغفلتني عن هذا الأمر، فتجيبه: أنت كنت غافلاً عن هذا الأمر، أي إنّ سبب الغفلة يعود إلى نفسك أنت!.

بحوث

١ - إعجاز القرآن من جهة «علم الغيب»

إنّ واحداً من طرق إثبات إعجاز القرآن، هو الإخبار بالمغيبات، ومثله الواضح في هذه الآيات - محل البحث - ففي عدّة آيات يخبر بأنواع التأكيدات عن انتصار كبير لجيش منهزم بعد بضع سنين.. ويعدّ ذلك وعداً إلهيّاً غير مكذوب ولا يتخلف أبداً.

فمن جهة يتحدث مخبراً عن أصل الانتصار والغلب ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾.

ومن جهة يتحدث عن خبر لانتصار آخر للمسلمين على الكفّار مقترناً لزمان الانتصار الذي يتحقق للروم ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِ ۝٥﴾.

ومن جهة ثالثة يصرّح أنّ هذا الأمر سيقع خلال عدّة سنوات ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾.

ومن جهة رابعة يسجّل قطعية هذا الوعد الإلهي بتأكيدين بالوعد ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾.

ويحدثنا التاريخ أنّه لم تمض تسع سنوات حتى تحققت هاتان الحادثتان... فقد انتصر الروم في حربهم الجديدة على الفرس، واقترن زمان هذا الانتصار بـ«صلح الحديبية» وطبقاً لرواية أُخرى أنّه كان مقارناً لمعركة بدر، إذ حقق المسلمون انتصاراً ملحوظاً على الكفّار.

والآن ينقدح هذا السؤال، وهو: هل يستطيع إنسان أن يخبر بعلم عادي بسيط، عن مثل هذه الحادثة المهمّة بضرس قاطع؟.. حتى لو فرضنا أنّ الأمر كان مع تكهّن سياسي - ولم يكن - فينبغي أن يذكر هذا الأمر بقيد «الاحتياط» والاحتمال، لا بمثل هذه الصراحة والقطع، إذ لو ظهر خلافه لكان أحسن دليل وسند على إبطال دعوى النبوّة بيد الأعداء!.

والحقيقة هي أنّ مسائل من قبيل توقّع انتصار دولة كبيرة كالروم، أو مسألة المباهلة،

تدل بصورة جيدة على أنّ نبيّ الإسلام ﷺ كان قلبه متعلقاً بمكان آخر، وكان له سند قوي، وإلاّ فلا يمكن لأي أحد - في مثل هذه الظروف - أن يجرؤ على مثل هذا الأمر!.

وخاصة، إنّ مطالعة سيرة النّبي ﷺ تكشف أنّه لم يكن إنساناً يتصيد بالماء العكر، بل كانت أعماله محسوبة... فمثل هذا الادعاء من مثل هذا الشخص يدل على أنّه كان يعتمد على ما وراء الطبيعة، وعلى وحي الله وعلمه المطلق.

وسنتحدث عن تطبيق هذا التنبؤ التاريخي في القريب العاجل إن شاء الله.

٢ - السطحيّون «أصحاب الظاهر»

تختلف نظرة الإنسان المؤمن الإلهي أساساً مع نظرة الفرد المادي المشرك، اختلافاً كبيراً.

فالأوّل طبقاً لعقيدة التوحيد - يرى أن العالم مخلوق لربّ عليم حكيم، وجميع أفعاله وفق حساب وخطة مدروسة، وعلى هذا فهو يعتقد أنّ العالم مجموعة أسرار ورموز دقيقة، ولا شيء في هذا العالم بسيط واعتيادي، وجميع كلمات هذا الكتاب «التكويني» ذات محتوى ومعنى كبير.

هذه النظرة التوحيدية تقول لصاحبها: لا تمرّ على أية حادثة وأي موضوع ببساطة، إذ يمكن أن يكون أبسط المسائل أعقدها.. فهو ينظر دائماً إلى عمق هذا العالم ولا يقنع بظواهره، قرأ الدرس في مدرسة التوحيد، ويرى للعالم هدفاً كبيراً، وما من شيء إلاّ يراه في دائرة هذا الهدف غير خارج عنها.

في حين أنّ الإنسان المادي غير المؤمن يعدّ الدنيا مجموعة من الحوادث العُمي والصمّ التي لا هدف لها، ولا يفكر بغير ظاهرها، ولا يرى لها باطناً وعمقاً أساساً.

ترى هل يعقل أن يكون لكتاب رسم طفل على صفحاته خطوطاً عشوائية، أهميّة تذكر؟! وكما يقول بعض العلماء الكبار في علوم الطبيعة: إنّ جميع علماء البشر من أية فئة كانوا وأية طبقة، حين نهضوا للتفكير في نظام هذا العالم، كانوا ينطلقون من تفكير ديني «فتأملوا بدقّة».

«آينشتاين» العالم المعاصر يقول: من الصعب العثور بين المفكرين في العالم شخص لا يحس بدين خاص... وهذا الدين يختلف مع دين الإنسان العامي، إنّه يدعو هذا العالم إلى التحيّر من هذا النظام العجيب والدقيق للكائنات، إذ تكشف عن وجهها

أسراراً لا تقاس مع جميع تلك الجهود والأفكار المنظمة للبشر[١]!.

ويقول في مكان آخر: إن الشيء الذي دعا العلماء والمفكرين والمكتشفين - في جميع القرون والأعصار - أن يفكروا في أسرار العالم الدقيقة، هو اعتقادهم الديني[٢].

ومن جهة أُخرى كيف يمكن أن يساوى بين من يعتبر هذه الدنيا مرحلة نهائية وهدفاً أصليّاً، ومن يعدّها مزرعة وميداناً للامتحان للحياة الخالدة التي تعقب هذه الحياة الدنيا، فالأوّل لا يرى أكثر من ظاهر هذه الحياة، والآخر يفكر في أعماقها!.

وهذا الاختلاف في النظر يؤثر في حياتهم بأجمعها، فالذي يعيش حياة سطحية وظاهرية يعتبر الإنفاق سبباً للخسران والضرر، في حين أنّ هذا «الموحد» يعدّها تجارة رابحة لن تبور.

وذلك المادي يعتبر «أكل الربا» سبباً للزيادة ووفرة المال. وأمّا الموحد فيعدّه وبالاً وشقاءً وضرراً.

وذلك يعتبر الجهاد ضنىً وشقاءً ويعتبر الشهادة فناءً وانعداماً، وأمّا الموحد فيعدّ الجهاد رمزاً للرفعة، والشهادة حياة خالدة!

أجل، إن غير المؤمنين لا يعرفون إلاّ الظواهر من الدنيا، وهم في غفلة عن الحياة الأُخرى ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

٣ - المطابقة التاريخية

لكي نعرف المقطع التاريخي الذي حدثت فيه المعارك بين الروم والفرس، يكفي أن نعرف في ذلك التاريخ أنّ حرباً طويلة حدثت في عهد «خسرو درويز» ملك الفرس مع الروم استمرت زهاء أربع وعشرين سنة، حيث دامت من سنة «٦٠٤ ميلادية إلى سنة ٦٢٨».

وفي حدود سنة ٦١٦ ميلادية هجم قائدان عسكريان في الجيش الفارسي هما: (شهربراز) و(شاهين) على الحدود الشرقية للروم، فهزما الروم هزيمة نكراء، وسيطرا على منطقة الشامات ومصر وآسيا الصغرى، فواجهت الروم الشرقية بسبب هذه الهزيمة حالة الانقراض تقريباً، واستولى الفرس على جميع ما كان تحت يد الروم من آسيا ومصر.

(١-٢) نقلاً عن كتاب «الدنيا التي أراها».

وكان ذلك في حدود السنة السابعة للبعثة!

غير أنّ ملك الروم «هرقل» بدأ هجومه على بلاد فارس سنة ٦٢٢ ميلادية وألحق هزائم متتابعة بالجيش الفارسي، واستمرت هذه المعارك حتى سنة ٦٢٨ لصالح الروم، وغُلب خسرو درويز، وانكسر انكساراً مريراً، فخلعه الفرس عن السلطنة وأجلسوا مكانه ابنه «شيرويه».

وبملاحظة أنّ مولد النّبي ﷺ كان سنة ٥٧١ ميلادية وكانت بعثته سنة ٦١٠ ميلادية، فإن هزيمة الروم وقعت في السنة السابعة للبعثة، وكان انتصارهم بين سنتي خمس وست للهجرة النبوية، ومن المعلوم أنّ السنة الخامسة حدثت فيها معركة الخندق، وتم في السنة السادسة صلح الحديبية، وبطبيعة الحال فإن تنقّل الأخبار عن حرب فارس والروم إلى منطقة الحجاز ومكّة كانت تستوعب عادة فترة من الزمان، وبهذا ينطبق هذا الخبر القرآني على هذه الفترة التاريخية بوضوح «فلاحظوا بدقّة».

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾

التّفسير

عاقبة المسيئين

كان الكلام في آخر آية من البحث السابق عن السطحيين وأصحاب الظاهر، حيث كان أفق فكرهم لا يتجاوز حدود الدنيا والعالم المادي.. وكانوا جاهلين بما وراء الطبيعة ويوم القيامة.

أمّا في هذه الآيات - محل البحث - والآيات المقبلة، فيقع الكلام على مطالب متنوعة حول المبدأ والمعاد، فتبدأ هذه الآيات أولاً على صورة استفهام فتقول: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

أي: لو أنّهم فكروا جيداً ورجعوا إلى عقلهم في الحكم ووجدانهم، لكانوا يطلعون جيداً على هذين الأمرين:

أوّلاً: إنّ العالم خلق على أساس الحق، وتحكمه أنظمة هي دليل على أنّ الخالق لهذا العالم ذو علم مطلق وقدرة كاملة.

وثانياً: هذا العالم يمضي إلى الزوال، وحيث إنّ الخالق الحكيم لا يمكن أن يخلقه عبثاً، فيدل ذلك على وجود عالم آخر هو الدار الباقية بعد هذه الدنيا، وإلاّ فلا مفهوم لخلق هذا العالم، وهذا الخلق الطويل العريض لا يعقل أن يكون من أجل أيّام معدودات في الحياة الدنيا، وبذلك يذعنون بوجود الآخرة!.

فعلى هذا يكون التدقيق في نظم هذا العالم وحقانيته دليلاً على وجود المبدأ، والتدقيق في أنّ هناك «أجلا مسمى» دليل على المعاد «فلاحظوا بدقة».

لذلك يضيف القرآن في نهاية الآية قائلاً: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَآيِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ فينكرون لقاء الله.

أو إنّهم ينكرون المعاد أصلاً، كما نقلنا عن قول المشركين مراراً في آيات القرآن، إذ كانوا يقولون: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾[1] ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾[2]. إنَّ هذا.. إنّ هذا.. الخ.. وبتعابير مختلفة «كما ورد في سورة الرعد الآية (٥)، وسورة المؤمنون الآية (٣٥)، وسورة النمل الآية (٦٧)، وسورة ق الآية (٣) وفي غيرها من السور».

أو إنّهم لا ينكرون بلسانهم، لكن أعمالهم «ملوثة» ومخزية تدل على أنّهم غير معتقدين بالمعاد، إذ لو كانوا يعتقدون بالمعاد لم يكونوا فاسدين أو مفسدين!.

والتعبير بـ ﴿فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ لا يعني أن يطالعوا في أسرار وجودهم، كما يدّعي الفخر الرازي في تفسيره، بل المراد منه أن يفكروا في داخل أنفسهم عن طريق العقل والوجدان بخلق السماوات والأرض.

والتعبير ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ له معنيان: الأوّل: أنّ الخلق كان توأماً مع الحق والقانون والنظم، والآخر: أنّ الهدف من الخلق كان بالحق، ولا منافاة بين هذين التّفسيرين طبعاً[3].

---

(١) سورة ق، الآية: ٣. (٢) سورة ق، الآيات: ٥ - ٧.

(٣) في صورة ما لو قلنا بالتّفسير الأوّل، فإن «الباء» في كلمة «بالحق» للمصاحبة، وفي التّفسير الثّاني تكون الباء بمعنى اللام، أي للحق.

والتعبير ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ كما قلنا مراراً، هو إشارة إلى يوم القيامة والنشور، حيث تنكشف الحجب، والإنسان يعرف عظمة الله بالشهود الباطنيّين.

وحيث إنّ التعبير بـ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ كاشف عن أنّ هذه الحياة على كل حال لا تدوم، وهذا إنذار لجميع عبدة الدنيا، فإنّ القرآن يضيف في الآية التالية قائلاً: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالدلائل الواضحات... إلاّ أنّهم أهملوا ذلك، ولووا رؤوسهم، ولم يستسلموا للحق، فابتلوا بعقاب الله الأليم! ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

في الواقع إنّ القرآن يشير إلى أمم كانت لهم - في نظر مشركي مكّة - عظمة ملحوظة من حيث القدرة والقوّة الجسمية والثروة المالية، وكان مصيرهم الأليم يمثل درساً من العبرة لهؤلاء المشركين.

ويمكن أن تكون جملة ﴿وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ﴾ إشارة إلى حرث الأرض للزراعة والتشجير، أو حفر الأنهار، أو تأسيس العمارات على الأرض، أو جميع هذه الأمور، لأنّ جملة ﴿وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ﴾ لها مفهوم واسع يشمل جميع هذه الأُمور التي هي مقدمة للعمارة والبناء(١).

وحيث كانت أكبر قدرة - في ذلك العصر - تعني التقدم في الزراعة والرقي الملحوظ من حيث البناء والعمارات، فإنّه يتّضح رفعة الأُمم السالفة وعلوهم على مشركي مكّة الذين كانت قدرتهم في هذه المجالات محدودة جدّاً.

إلاّ أنّ أُولئك مع كل قدراتهم حين أنكروا آيات الله وكذبوا الأنبياء، لم يستطيعوا الفرار من مخالب العقاب، فكيف تستطيعون الفرار من عذاب الله؟!

وهذا العقاب والجزاء الأليم هو نتيجة أعمالهم المهلكة أنفسهم، إذ ظلموا أنفسهم، ولا يظلم ربّك أحداً.

أمّا آخر آية من الآيات محل البحث، فتبيّن آخر مرحلة من كفرهم فتقول: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

---

(١) «آثار» مأخوذة من مادة (ثور) على زنة (غور) ومعناها التفريق والنشر، وإنّما سمي الثور ثوراً لأنّه يثير الأرض ويفرّقها.

أجل، إنّ الذنب أو الإثم يقع على روح الإنسان كالمرض الخبيث، فيأكل إيمانه ويعدمه، ويبلغ الأمر حدّاً يكذب الإنسان فيه آيات الله، وأبعد من ذلك أيضاً إذ يحمل الذنب صاحبه على الاستهزاء بالأنبياء، والسخرية بآيات الله، ويبلغ مرحلة لا ينفع معها وعظ ونصيحة أبداً، ولا تؤثر فيه أية حكمة وأيّة آية، ولا يبقى طريق سوى أسواط عذاب الله المؤلمة له.

إنّ نظرة واحدة في صفحات تاريخ كثير من الجناة والبغاة تكشف أنّهم لم يكونوا هكذا في بداية الأمر، إذ كان لديهم على الأقل نور إيمان ضعيف يشع في قلوبهم، ولكن ارتكابهم للذنوب المتتابعة سبّب يوماً بعد آخر أن ينفصلوا عن الإيمان والتقوى، وأن يبلغوا آخر الأمر إلى المرحلة النهائية من الكفر.

ونلاحظ في خطبة العقيلة زينب عليها السلام أمام يزيد بن معاوية في الشام، النتيجة ذاتها التي أشرنا إليها آنفاً... لأنّها حين رأت يزيد يسخر بكل شيء ويتكلم بكلمات الكفر وأنشد أشعاراً من ضمنها:

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل

وهذه الكلمات تكشف عن عدم إيمانه بأساس الإسلام، فحمدت زينب الله تعالى وصلّت وسلّمت على النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وقالت: «صدق الله، كذلك يقول: ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

أي إذا أنكرت الإسلام والإيمان هذا اليوم بأشعارك المشوبة بالكفر، وتقول لأسلافك المشركين الذين قتلوا على أيدي المسلمين في معركة بدر: ليتكم تشهدون انتقامي من بني هاشم، فلا مجال للتعجب، فذلك ما قاله الله سبحانه: ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾.. وقد ذكرت في هذا الصدد مطالب كثيرة.

ولمزيد من الإيضاح يراجع الجزء الخامس والأربعون من بحار الأنوار الصفحة ١٥٧[(١)].

---

(١) طبقاً لما ذكرنا في التّفسير تكون كلمة «السوءى» مفعولاً لأساؤوا وجملة ﴿أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ مكان اسم كان وخبرها «عاقبة الذين». =

﴿اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاؤُا وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

التّفسير

مصير المجرمين ومآلهم يوم القيامة!

كان الكلام في الآيات المتقدمة عن الذين يكذّبون ويستهزئون بآيات الله، وفي الآيات - محل البحث - تستكمل البحوث السابقة عن المعاد، مع بيان جوانب منه، ومآل المجرمين في القيامة!

فتبدأ الآيات بالقول: ﴿اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ويُبيّن في هذه الآية استدلال قصير موجز، وذو معنى كبير، على مسألة المعاد، وقد ورد هذا المعنى بعبارة أُخرى في بعض آيات القرآن الأُخرى ومنها ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾(١).

= ويذكر العلاّمة الطباطبائي ذلك في الميزان بصورة احتمال، وإن لم ينتخبه هو نفسه، ويرى «أبو البقاء» في كتاب «إملاء ما منّ به الرحمن» ص ١٨٥ الجزء الثاني، أنّه واحد من احتمالين مقبولين.
إلاّ أن أغلب المفسّرين كالطبرسي وصاحب الميزان، والفخر الرازي، والآلوسي، وأبو الفتوح الرازي والقرطبي وسيد قطب في ظلاله، والطوسي في تبيانه، يقوّون، احتمالاً آخر في تفسير الآية... وهو أنّ كلمة «السوءى» اسم كان، وجملة «إن كذبوا» في مقام التعليل.
وطبقاً لهذا التّفسير يكون معنى الآية: وأخيراً فإن عاقبة أعمال المسيئين كانت السوء، لأنّهم كذبوا بآياتنا. وهذا المعنى شبيه بقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾.
إلاّ أنّ الإنصاف أنّ هذا التفسير خلاف ما يستظهر من الآية، وانتخاب المفسّرين لهذا الرأي والتّفسير لا يصرفنا عما هو منسجم مع الآية، وخاصة أنّهم اضطروا إلى أن يقدروا اللام في جملة «أن كذبوا» والتقدير خلاف الظاهر «فلاحظوا بدقّة».

(١) سورة يس، الآيات: ٧٩ - ٨١.

وجملة ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إشارة إلى أنه بعد النشور والقيامة يعود الجميع إلى محكمة الله.

والأسمى من ذلك أنّ المؤمنين يمضون في تكاملهم نحو ذات الله المقدسة إلى ما لا نهاية..

والآية الأُخرى تجسد حالة المجرمين يوم القيامة ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

«يبلس» مأخوذ من مادة «إبلاس» وتعني في الأصل الغم والحزن المترتبان على أثر شدة اليأس والقنوط.

وبديهي أنّه إذا يئس الإنسان من شيء غير ضروري، فهذا اليأس غير مهم، لكن الحزن والغم يكشف في هذه الموارد عن أُمور ضرورية مأيوس منها، لذلك يرى بعض المفسّرين أنّ «الضرورة» جزء من «الإبلاس» وإنّما سمّي «إبليس» بهذا الاسم، فلأنّه أبلس من رحمة الله واستولى عليه الهمّ.

وعلى كل حال فيحق للمجرمين أي ييأسوا ويبلسوا في ذلك اليوم، إذ ليس لديهم إيمان وعمل صالح فيشفع لهم في عرصات المحشر، ولا صديق حميم، ولا مجال للرجوع إلى الدنيا وتدارك ما مضى!.

لذلك يضيف القرآن في الآية التالية قائلاً: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟﴾.

فتلك الأصنام والمعبودات المصنوعة التي كانوا يتذرّعون بها عندما يسألون: من تعبدون؟ فيقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾(١)، سيتّضح لهم جيداً حينئذ أنّه لا قيمة لها ولا تنفعهم أبداً... فلذلك يكفرون بهذه المعبودات من دون الله ويبرأون منها ﴿وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾.

ولم لا يكفرون بهذه الأصنام؟ وهم يرونها ساكنة عن الدفاع عنهم بل كما يعبّر القرآن تقوم بتكذيبهم وتقول: يا رب ﴿مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾(٢) بل كانوا يعبدون هوى أنفسهم؟!

وأكثر من هذا، فقد عبّر القرآن عن هذ المعبودات في الآية (٦) من سورة الأحقاف أنّها ستكون معادية لهم وكافرة بهم ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾.

ثمّ يشير القرآن إلى الجماعات المختلفة من الناس في يوم القيامة، فيقول: ﴿وَيَوْمَ

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٨. (٢) سورة القصص، الآية: ٦٣.

تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾.

كلمة «يحبرون» مأخوذة من مادة «حبر» على زنة «قشر» ومعناها الأثر الرائق الرائع، كما يطلق هذا التعبير على حالة السرور والفرح التي يظهر أثرها على الوجه أيضاً، وحيث إنّ قلوب أهل الجنّة في غاية السرور والفرح بحيث إنّ آثارها تظهر في وجودهم قاطبة، فقد استعمل هذا التعبير لهذه الحالة أيضاً.

و«الروضة» معناها المكان الذي تكثر فيه الأشجار والماء، ولذلك تطلق هذه الكلمة على البساتين النضرة بأشجارها واخضرارها.. وقد جاءت هذه الكلمة هنا بصيغة التنكير لغرض التعظيم والمبالغة، أي إنّهم في أفضل الجنان وأعلاها التي تبعث السرور، فهم منعمون، بل غارقون في نعيم الجنّة.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

الطريف هنا أنّه في شأن أهل الجنّة استعملت كلمة ﴿يُحْبَرُونَ﴾ وتدلّ على منتهى الرضا من جميع الجوانب لدى أهل الجنّة.. ولكن استعملت كلمة «محضرون» في أهل النّار، وهي دليل على منتهى الكراهة وعدم الرضا لما يتلقونه ويستقبلونه، لأنّ الإحضار يطلق في موارد تكون على خلاف الرغبات الباطنيّة للإنسان.

اللطيفة الأُخرى أنّ أهل الجنّة ذكروا بقيد الإيمان والعمل الصالح، ولكن أهل النّار اكتفي من ذكرهم بعدم الإيمان «إنكار المبدأ والمعاد». وهي إشارة أنّ ورود الجنّة - لابدّ له من الإيمان والعمل الصالح - فلا يكفي الإيمان وحده، ولكن يكفي لدخول النّار عدم الإيمان - وإن لم يصدر من ذلك «الكافر» ذنب - لأنّ الكفر نفسه أعظم ذنب!.

ملاحظة

لم كان أحد أسماء القيامة «الساعة»؟!

ينبغي الالتفات إلى هذه المسألة الدقيقة... وهي أنّه في كثير من آيات القرآن، ومن ضمنها الآيتان من الآيات محل البحث، عبر عن قيام «القيامة» بقيام «الساعة» وذلك لأنّ «الساعة» في الأصل جزء من الزمان، أو لحظات عابرة، وحيث إنّه من جهة تكون القيامة بصورة مفاجئة وكالبرق الخاطف، ومن جهة أُخرى بمقتضى أنّ الله سريع الحساب فإنّه ينهي حساب عباده بسرعة، فقد استعمل هذا التعبير في شأن يوم القيامة ليفكر الناس بيوم القيامة ويكونوا على «أهبة الاستعداد».

يقول: «ابن منظور» في «لسان العرب» اسم للوقت الذي تصعق فيه العباد والوقت الذي يبعثون فيه وتقوم فيه القيامة، سمّيت ساعة لأنّها تفاجىء الناس في ساعة فيموت الخلق كلّهم عند الصيحة الأُولى التي ذكرها الله عزّ وجلّ فقال: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾(1) . . . وأشار إلى الثّانية بقوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾(2).

وينقل «الزبيدي» في «تاج العروس» عن بعضهم أنّ الساعة ثلاث «ساعات»:

فساعة كبرى: وهي يوم القيامة، وإحياء الموتى للحساب.

وساعة وسطى: وهي يوم الموت الفجائي لأهل زمان واحد «بالعذاب والعقوبة الإلهية للاستئصال».

وساعة صغرى: وهي يوم الموت الطبيعي لكل إنسان.

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾

التّفسير

التسبيح والحمد في جميع الأحوال لله!

بعد الأبحاث الكثيرة التي وردت في الآيات السابقة في شأن المبدأ والمعاد، وقسم من ثواب المؤمنين، وجزاء المشركين وعقابهم. . . ففي الآياتُ محل البحث يذكر التسبيح والحمد والتقديس والتنزيه لله من جميع أنواع الشرك والنقص والعيب، إذ تقول الآيـة: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

وعلى هذا فقد ورد في هاتين الآيتين ذكر لأربعة أوقات لتسبيح الله:

١ - بداية الليل ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾.

٢ - وطلوع الفجر ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾.

(1) سورة يس، الآية: ٢٩.

(2) سورة يس، الآية: ٥٣.

٣ - وعصراً ﴿وَعَشِيًّا﴾.

٤ - وعند الزوال - في الظهر - ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾[1].

أمّا «الحمد» من حيث المكان فهو عام وشامل لجميع السماوات والأرض.

وذكر هذه الأوقات الأربعة في الآيات المتقدمة لعله كناية عن الدوام والاستمرار في التسبيح، «أي كل وقت وكل زمان».

كما احتمل بعض المفسّرين أنّ المراد من هذه الأوقات الأربعة الإشارة إلى أوقات الصلاة، إلاّ أنّهم لم يجيبوا على هذا السؤال، وهو: لِمَ ذكر في القرآن أربعة أوقات بدلاً من خمسة أوقات؟ «ولم يرد الكلام على صلاة العشاء»!

ولكن يمكن الجواب على هذا السؤال بأن وقت صلاة المغرب مقارب لوقت صلاة العشاء نسبياً، والفاصلة بينهما حدود الساعة إلى الساعة والنصف، فجاءت الصلاتان في مكان واحد، غير أنّ الفاصلة بين الظهر والعصر أطول نسبياً، حيث تطول أكثر من ساعتين.

لكننا لو أخذنا التسبيح والحمد بمفهومهما الوسيع في الآية، لوجدنا أنّهما لا يتحدّدان بالصلوات الخمس، وإن كانت هذه الصلوات من مصاديقهما الواضحة.

وينبغي أن نذكر هذه المسألة «اللطيفة» وهي: إنّ كلاً من جملتي ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ و﴿لَهُ الْحَمْدُ﴾ يمكن أن تكونا إنشاء لتسبيح الله وحمده من قبل الله سبحانه، كما قال في الآية (١٤) من سورة المؤمنون ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

ويمكن أن يكون هذا الحمد والتسبيح بمعنى الأمر، أي «سبّحوه واحمدوا له».

وهذا التّفسير يبدو أقرب للنظر، إذ الآيات المتقدمة هي بمثابة دستور لجميع العباد لمحو آثار الشرك والذنب من الروح والقلب كل صباح ومساء وكل ظهر وعصر، فسبحوا الله واحمدوا له في الصلاة وفي غير الصلاة.

ونقرأ حديثاً عن النّبي ﷺ يقول فيه: «من قال حين يمسي ثلاث مرات فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون (الآيات الثلاث إلى.. تخرجون) أدرك مافاته في يومه، وإن قالها حين يمسي أدرك ما فاته ليلته»[2].

---

(١) يرجى ملاحظة أنّ «عشياً» و«حين تظهرون» قد عطفتا على «حين تمسون» ويرجع الجميع للتسبيح.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٧٢.

وفي الآية التالية عودة إلى المعاد، ويرد القرآن المنكرين له عن طريق آخر، فيقول: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾

أي إنّ ميدان «المعاد» وميدان «نهاية الدنيا» المتمثّل أحدهما بخروج «الحي من الميت» والآخر «خروج الميت من الحي» يتكرران أمام أعينكم، فلا مجال للتعجب من أن تحيا الكائنات جميعاً، ويعود الناس في يوم القيامة إلى الحياة مرّة أُخرى!

أمّا التعبير بـ ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ المستعمل للأراضي الموات، فقد ذكره القرآن مراراً في مسألة المعاد وواضح أنّ الأرض تبدو ميتة في فصل الشتاء، فلا خضرة ولا أزهار تضحك ولا براعم تتفتح، ولكن في فصل الربيع مع سقوط الغيث واعتدال الهواء، تدبّ الحركة في الأرض، وتنمو الخضرة في كل مكان، وتتبسّم الأزهار وتنمو البراعم على الأغصان وهذا ميدان المعاد الذي نراه في هذه الدنيا.

وأمّا مسألة «إخراج الميت من الحيّ» فهي ليست شيئاً خافياً ولا مستتراً، فدائماً تموت الأشجار على الأرض وتتبدل إلى أخشاب، ويفقد الإنسان والحيوان حياتهما، ويتبدل كل منهما إلى جسد هامد لا روح فيه.

وأمّا ما يتعلق بـ «إخراج الحيّ من الميت» ففسّره بعضهم بخروج الإنسان والحيوان من النطفة، وقال بعضهم: بل المراد منه تولد المؤمن من الكافر، وقال بعضهم: المراد منه تيقظ النائمين والراقدين.

والظاهر أنّه ليس أيّاً من هذه المعاني هو المعنى الأصلي، لأنّ النطفة بنفسها موجود حي، ومسألة «الكفر والإيمان» هي من بطون الآية، لا من ظواهر الآية، وأمّا موضوع التيقظ والنوم فهو أمر مجازي، إذ ليس النوم والتيقظ موتاً وحياة حقيقيين.

إنّما ظاهر الآية هو أنّ الله يخرج الموجودات الحية دائماً من الموجودات الميتة، ويبدل الموجودات الهامدة التي لا روح فيها إلى موجودات حيّة.

وبالرغم من أنّه من المسلّم به - في العصر الحاضر على الأقل - أنّه لم يُر في المختبرات والمشاهدات اليوميّة أن موجوداً حيّاً يتولد من موجود ميّت، بل تتولد الموجودات الحية دائماً من البيوض أو البذور أو نطف الموجودات الحيّة الأُخرى، غير أنّ الثابت علمياً والمسلّم به أنه كانت الأرض في البداية قطعة ملتهبة من النّار، ولم يوجد عليها أي موجود حي، ثمّ وفقاً لظروف خاصة لم يكتشفها العلم - حتى الآن - بصورة دقيقة، تولدت الموجودات الحيّة من مواد لا روح فيها بقفزة كبيرة. لكن هذا

الموضوع وفي الظروف الفعلية للكرة الأرضية، وحيث إنّ العلم البشري لم يتوصل إليه، فلم يشاهد هذا الموضوع (وبالطبع يحتمل أن تتحقق هذه القفزة الكبرى في أعماق البحار والمحيطات في بعض الظروف الحالية).

لكن الذي نلمسه وندركه، هو أنّ الموجودات الميتة دائماً تكون جزءاً من الموجودات الحيّة وتكسى ثوب الحياة! فالماء والطعام اللذان نتناولهما ليسا من الموجودات الحيّة، لكنّهما حين يكونان في البدن ويصيران جزءاً منه يتحولان إلى موجود حيّ وتضاف كريات جديدة وخلايا جديدة إلى كريات البدن وخلاياه، كما يتبدل الطفل الرضيع عن هذا الطريق إلى شاب قوي متين.

أليس هذا إخراج الحياة من قلب الموت، أو «الحي من الميت»؟!

فعلى هذا يمكن القول بأن في نظام الطبيعة دائماً يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، وبهذا الدليل فإنّ الله الذي خلق الطبيعة قادر على إحياء الموتى في العالم الآخر.

وبالطبع فإنّ الآية الآنفة من جهة البعد المعنوي لها تفاسير أُخر... منها تولد المؤمن من الكافر، وتولد الكافر من المؤمن، والعالم من الجاهل، والجاهل من العالم، والصالح من المفسد، والمفسد من الصالح، كما أشير إلى كل ذلك في الروايات الإسلامية أيضاً.

ويمكن أن تكون هذه المعاني من بطون الآية، لأنّنا نعرف أنّ آيات القرآن لها ظاهر وباطن، كما يمكن أن يكون للموت والحياة معنى جامع واسع يشمل الجانب المادي والجانب المعنوي.

هذا وقد جاء في رواية عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في تفسير الآية ﴿يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ ما يلي: «ليس يحييها بالقطر، ولكن يبعث الله رجالاً فيحيون العدل، فتحيي الأرض لإحياء العدل ولإقامة العدل فيه أنفع في الأرض من القطر أربعين صباحاً»[(١)].

وواضح أنّ مراد الإمام عليه السلام أنّ معنى الآية لا ينحصر بنزول الغيث، ولا ينبغي تفسير الآية بالغيث فحسب، لأنّ الإحياء المعنوي للأرض بالعدل أهم من إحيائها بالغيث عند نزوله.

---

(١) نقلاً عن كتاب الكافي وطبقاً لتفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٧٣.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾
وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ
بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ
ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾

التّفسير

آيات الله في الآفاق وفي الأنفس

تحدثت هذه الآيات - وبعض الآيات الأخر التي تليها - عن طرائف ولطائف من دلائل التوحيد، وآيات الله وآثاره في نظام عالم الوجود، وهي تكمل البحوث السابقة، ويمكن القول بأنّ القسم المهم بشكل عام من آيات التوحيد في القرآن تمثله هذه الآيات!

هذه الآيات التي تبدأ جميعها بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ ولها وقع خاص ولحن بليغ جاذب وتعبيرات مؤثرة وعميقة، مجموعة من سبع آيات، ستٌ منها متتابعات، وواحدة منفصلة «وهي الآية السادسة والأربعون».

هذه الآيات مقسمة تقسيماً طريفاً من حيث «آيات الآفاق» و«آيات الأنفس» إذ تتحدث ثلاث منها عن آيات الأنفس (دلائل الخالق في وجود الإنسان نفسه) وثلاث منها عن آيات الآفاق (دلائل الخالق خارج وجود الإنسان) وواحدة من هذه الآيات تتحدث عن الآيات في الأنفس وفي الآفاق معاً.

وممّا ينبغي الالتفات إليه أنّ الآيات التي تبدأ بهذه العبارة: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ مجموعها إحدى عشرة آية فحسب، في سائر سور القرآن، سبع منها في هذه السورة، واثنتان في سورة فصلت هما «الآية ٣٧ والآية ٣٩» وآيتان أُخريان في سورة الشورى هما الآية ٢٩ والآية ٣٢ - ومجموعها كما ذكرنا آنفاً إحدى عشرة لا غير، وهي تشكل دورة متكاملة في التوحيد.

ويجدر التنبيهُ - قبل الدخول إلى تفسير هذه الآيات - على هذه «اللطيفة» وهي أنّ ما

أشار إليه القرآن في هذه الآيات، وإن كانت تبدو للنظر محسوسة وملموسة، يمكن أن يدركها عامّة الناس، إلاّ أنّه مع تطور العلم وتقدمه تبدو للبشر لطائف جديدة في هذا المجال، وتتّضح للعلماء أُمور ذات أهمّية كبرى، وسنشير إلى قسم منها خلال تفسيرنا لهذه الآيات إن شاء الله.

ويتحدث القرآن هنا أوّلاً عن خلقة الإنسان التي تعد أوّل موهبة إلهيّة له، وأهمهما أيضاً، فيقول: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾!

في هذه الآية إشارة دليلين من أدلة عظمة الله.

الأوّل: خلق الإنسان من التراب، وربّما كان إشارة إلى الخلق الأوّل للإنسان، أي آدم عليه السلام، أو خلق جميع الناس من التراب، لأنّ المواد الغذائية التي تشكل وجود الإنسان، جميعها من التراب بشكل مباشرة أو غير مباشر!

الثّاني: كثرة النسل «الآدمي» وانتشار أبناء «آدم» على سطح المعمورة، فلو لم تُخلق خصوصية التناسل في آدم، لانطوى نسله من الوجود بسرعة!.

تُرى أين التراب وأين الإنسان بهذا الهندام والرشاقة؟!

فلو وضعنا خلايا وأستار العين التي هي أدق من ورق الزهور وألطف وأكثر حساسية، وكذلك الخلايا الدقيقة للدماغ والمخ إلى جانب التراب وقارناهما بالقياس إلى بعضهما البعض، نعرف حينئذ كم لخالق العالم من قدرة عجيبة، بحيث أوجد من مادة كدرة سوداء لا قيمة لها هذه الأجهزة الظريفة والدقيقة القيّمة.

فالتراب ليس فيه نور، ولا حرارة، ولا جمال، ولا طراوة، ولا حس، ولا حركة ومع ذلك فقد أضحى عجينة الإنسان ولها جميع هذه الصفات، فالذي أوجد من هذا الموجود الميت التافه موجوداً حيّاً عجيباً، لحقيق بكل حمد وثناء على هذه القدرة الباهرة والعلم المطلق ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾(١).

والآية محل البحث تبيّن ضمناً هذه الحقيقة، وهي أنّه لا تفاوت بين بني الإنسان، ويعود جذرهم إلى شيء واحد، وأصل واحد وهو التراب وبالطبع فنهايتهم إلى ذلك التراب أيضاً.

وممّا ينبغي الالتفات إليه، أن كلمة «إذا» تستعمل في لغة العرب في الموارد الفجائية

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

ولعل هذا التعبير هنا إشارة إلى أنّ الله له القدرة البالغة على أن يخلق مثل آدم أعداداً هائلة بحيث ينتشر نسلها في فترة قصيرة - فجأةً - ويملأ سطح الأرض. . ويكون مجتمعاً إنسانيّاً كاملاً.

والآية الثّانية من الآيات محل البحث تتحدث أيضاً عن قسم آخر من الآيات في الأنفس، التي تمثل مرحلة ما بعد خلق الإنسان، فتقول: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾. أي من جنسكم والغاية هي السكينة الروحية والهدوء النفسي

وحيث إنّ استمرار العلاقة بين الزوجين خاصة، وبين جميع الناس عامة، يحتاج إلى جذب قلبي وروحاني، فإنّ الآية تعقب على ذلك مضيفةً ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

ولمزيد التأكيد تُختتم الآية بالقول: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

الطريف هنا أن القرآن - في هذه الآية - جعل الهدف من الزواج الاطمئنان والسكن، وأبان مسائل كثيرة في تعبير غزير المعنى «لتسكنوا» كما ورد نظير هذا التعبير في سورة الأعراف الآية ١٨٩.

والحقّ أنّ وجود الأزواج مع هذه الخصائص للناس التي تعتبر أساس الاطمئنان في الحياة، هو أحد مواهب الله العظيمة.

وهذا السكن أو الاطمئنان ينشأ من أن هذين الجنسين يكمل بعضهما بعضاً، وكل منهما أساس النشاط والنماء لصاحبه، بحيث يعد كل منهما ناقصاً بغير صاحبه، فمن الطبيعي أن تكون بين الزوجين مثل هذه الجاذبيّة القوية.

ومن هنا يمكن الاستنتاج بأنّ الذين يهملون هذه السنّة الإلهيّة وجودهم ناقص، لأنّ مرحلة تكاملية منهم متوقفة، (إلاّ أن توجب الظروف الخاصة والضرورة في بقائهم عزّاباً).

وعلى كل حال، فإنّ هذا الاطمئنان أو السكن يكون من عدّة جهات «جسمياً وروحيّاً وفردياً واجتماعيّاً».

ولا يمكن إنكار الأمراض التي تصيب الجسم في حالة عدم الزواج، وكذلك عدم التعادل الروحي والاضطراب النفسي عند غير المتزوجين.

ثم إنّ الأفراد العزّاب لا يحسّون بالمسؤولية - من الناحية الاجتماعية - كثيراً. .

ولذلك فإن الانتحار تزداد بين أمثال هؤلاء أكثر. . كما تصدر منهم جرائم مهولة أكثر من سواهم أيضاً.

وحين يخطو الإنسان من مرحلة العزوبة إلى مرحلة الحياة الأُسرية يجد في نفسه شخصية جديدة، ويحس بالمسؤولية أكثر، وهذا السكن والاطمئنان في ظل الزواج.

وأمّا مسألة «المودة والرحمة» فهما في الحقيقة «ملاط» البناء في المجتمع الإنساني، لأنّ المجتمع يتكون من أفراد متفرقين كما أن البناء العظيم يتألف من عدد من الطابوق و«الآجر» أو الأحجار، فلو أن هؤلاء الأفراد المتفرقين اجتمعوا، أو أنّ تلك الأجزاء المتناثرة وصلت بعضها ببعض، لنشأ من ذلك المجتمع أو البناء حينئذ.

فالذي خلق الإنسان للحياة الاجتماعية جعل في قلبه وروحه هذه الرابطة الضرورية.

والفرق بين «المودة» و«الرحمة» قد يعود إلى الجهات التالية:

١ - المودة هي الباعثة على الارتباط في بداية الأمر بين الزوجين، ولكن في النهاية، وحين يضعف أحد الزوجين فلا يكون قادراً على الخدمة، تأخذ الرحمة مكان المودة وتحلّ محلها.

٢ - المودة تكون بين الكبار الذين يمكن تقديم الخدمة لهم، أمّا الأطفال والصبيان الصغار، فإنهم يتربون في ظلّ الرحمة.

٣ - المودّة، غالباً ما يكون فيها «تقابل بين الطرفين»، فهي بمثابة الفعل ورد الفعل، غير أنّ الرحمة من جانب واحد لديه إيثار وعطف، لأنّه قد لا يحتاج إلى الخدمات المتقابلة أحياناً، فأساس بقاء المجتمع هو «المودة» ولكن قد يحتاج إلى الخدمات بلا عوض، فهو الإيثار والرحمة.

وبالطبع فإنّ الآية تبيّن المودة والرحمة بين الزوجين، ولكن يحتمل أن يكون التعبير «بينكم» إشارة إلى جميع الناس. . والزوجان مصداق بارز من مصاديق هذا التعبير، لأنّه ليست الحياة العائلية وحدها لا تستقيم إلاّ بهذين الأصلين (المودّة والرحمة) بل جميع المجتمع الإنساني قائم على هذين الأصلين وزوالهما من المجتمع وحتى نقصانهما يؤدّي إلى أنواع الإرباك والشقاء والاضطراب الاجتماعي.

أمّا آخر آية - من هذه الآيات محل البحث - فهي مزيج من آيات الآفاق وآيات الأنفس، فتبدأ بالإشارة إلى خلق السماء والأرض، فتقول: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

السماوات بجميع ما فيها من كرات، وبجميع ما فيها من منظومات ومجرّات، السماوات التي مهما حلّق فيها الفكر عجز عن إدراك عظمتها ومطالعتها... وكلّما تقدم علم الإنسان تتجلى له نقاط جديدة من عظمتها.

كان الإنسان يرى الكواكب في السماء بهذا العدد الذي تراه العين (وقد أحصى العلماء الكواكب التي تُرى بالعين المجرّدة فوجدوها تتراوح بين خمسة الآف إلى ستة الآف كوكب).

ولكن كلما تقدم العلم في صناعة المجهر والتلسكوب، فإنّ عظمة وكثرة الكواكب تزداد أكثر... إلى درجة بلغ الاعتقاد اليوم أنّ مجرتنا لوحدها من بين مجاميع المجرات في السماء تحتوي على أكثر من مئة مليون كوكب وتعد الشمس على عظمتها المذهلة واحدة من النجوم المتوسطة، ولا يعلم عدد المجرات ولا يحصيها إلاّ الله، إذ هو وحده يعلم كم من كوكب ونجمة في هذا المجرات!

وكذلك كلما تقدم العلم الطبيعي والجيولوجيا، وعلم النبات والعلوم البيولوجية «والحيوانية» وعلم التشريح والفيزياء، والعلوم النفسية وغيرها، فستتضح عجائب في خلق الأرض كانت خافية، كل واحدة تعدُّ آية من آيات الله.

ثمّ ينتقل القرآن إلى آية من آيات الأنفس الكبيرة فيقول: ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ﴾.

وبلا شك فإنّ الحياة الاجتماعية للبشر، لا تقوم بغير معرفة وتشخيص الأفراد والأشخاص، إذ لو كان الناس جميعاً في يوم ما على صورة واحدة ولباس واحد، فإن أسلوب حياتهم يضطرب في ذلك اليوم، إذ لا يعرف الأب والابن والزوج من الغرباء، ولايميز المجرم من البريء، ولا الدائن من المدين، ولا الآمر من المأمور، ولا الرئيس من المرؤوس، ولا الضيف من المضيف ولا العدوّ من الصديق، وأي إرباك عجيب كان سيحدث لو كانوا على هذه الشاكلة!.

وعلى سبيل الاتفاق قد تحدث هذه المسألة بين الإخوة التوائم، أو الشقيقين التوأمين المتشابهين من جميع الوجوه، وكم تحدث من المشاكل بين الناس وبينهم، وقد سمعنا ذات مرّة أنّ امرأة كان لديها توأمان متشابهان تماماً، وكان أحدهما مريضاً، فأعطت الدواء للمعافى دون السقيم!!.

لذلك خلق الله الأصوات والألون لتنظيم المجتمع البشري، على حد تعبير «الرازي»

في تفسيره في ذيل الآية محل البحث: إن معرفة الإنسان للإنسان تحصل إمّا عن طريق العين أو الأذن، فخلق الله الألوان والصور والأشكال المختلفة لتعرفها العين وتشخصها، وأوجد اختلاف الأصوات لتشخصها الأذن، حتى أنّه لا يمكن العثور في جميع العالم على إنسانين متشابهين في الوجه والصوت معاً، أي إنّ وجه الإنسان الذي هو عضو صغير، وصوته الذي هو موضوع بسيط، بقدرة الله جاءا على مليارات الأشكال والأصوات المختلفة، وما ذلك الاختلاف إلاّ من آيات عظمة الله.

كما يحتمل أنّ المراد باختلاف الألسنة كما أشار إليه كبار المفسّرين هو اختلاف اللغات، من قبيل العربية والفارسية واللغات الأُخرى.

ولكن يمكن أن يستفاد من كلمة «اختلاف» معنى واسع بحيث يشمل هذا التّفسير وما قبله، وأي تفسير آخر، فهذا التنوع في الخلقة شاهد على عظمة الخالق وقدرته.

يقول «فريد وجدي» في دائرة معارفه، نقلاً عن قول «نيوتن» العالم الغربي المعروف (لا تشكوا في الخالق، فإنه ممّا لا يُعقل أن تكون الضرورة وحدها هي قائدة الوجود، لأنّ ضرورة عمياء متجانسة في كل مكان وفي كل زمان لا يتصور أن يصدر منها هذا التنوع في الكائنات، ولا هذا الوجود كله بما فيه من ترتيب أجزائه وتناسبها، مع تغيرات الأزمنة والأمكنة، بل إنّ كل هذا لا يعقل أن يصدر إلاّ من كائن أزلي له حكمة وإرادة)[1].

ويقول القرآن في نهاية الآية الآنفة الذكر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾.

فالعلماء يعرفون هذه الأسرار قبل كل أحد.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥)﴾

(١) دائرة المعارف، محمّد فريد وجدي، ج ١، ص ٤٩٦ (مادة اله).

التفسير

آياتُ عظمته - مرّةً أخرى

تعقيباً على الأبحاث السابقة حول آيات الله في الآفاق وفي الأنفس، تتحدث هذه الآيات - محل البحث - حول قسم آخر من هذه الآيات العظيمة.

فتتحدث في البداية عن ظاهرة «النوم» على أنّها ظاهرة مهمّة من ظواهر الخلق ومثل بارز من نظام الحكيم الخالق، فتقول: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾.

وتُختتم الآية بإثارة العبرة بالقول: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

وهذه الحقيقة غير خافية على أحد، هي أنّ جميع «الموجودات الحية» تحتاج إلى الراحة والدعة، وذلك لتجديد قوّتها وتهيئة الاستعداد اللازم لإدامة العمل والفعالية، الراحة التي لابدّ منها حتى لأولئك الأفراد الحريصين والجادّين.

فأي شيء يُتصور أحسن من النوم للوصول إلى هذا الهدف، وهو يأتيه بشكل إلزامي، ويدعوه إلى تعطيل نشاطه الجسماني، وقسم مهم من نشاطه الفكري والذهني، بينما تستمر أجهزة خاصة في العمل في جسم الإنسان كالقلب والرئة وبعض النشاط الذهني، وما إلى ذلك ممّا يستلزمه استمرار الحياة في الإنسان فحسب، أمّا البقية فتهدأ وتتعطل عن العمل.

هذه الموهبة العظيمة تؤدّي إلى أن يحصل جسم الإنسان وروحه على الراحة اللازمة، فيرتفع التعب بطرو النوم الذي بمثابة وقفة لعمل البدن، ونوع من التعطيل له، ويجد الإنسان على أثرها قوة ونشاطاً جديداً في حياته.

ومن المسلّم به أنّه لولا النوم لتصدّعت روح الإنسان وذبل جسمه وانهار بسرعة، ولعجل عليه العجز والشيخوخة. . . وبهذا فإن النوم المناسب والهادىء مدعاة للسلامة وطول العمر، ودوام «الشباب» ونشاطه.

وممّا يجدر التنبيه عليه أوّلاً: أنّ النوم ورد قبل عبارة: ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ التي تعني السعي وراء الرزق، وهذا التعبير هو إشارة إلى أنّ النوم أساس السعي لأنّه - من دون النوم الكافي - يصعب الابتغاء من فضل الله.

ثانياً: صحيح أنّ النوم يقع في الليل، والابتغاء من فضل الله في النهار، إلاّ أنّه ليس

صعباً على الإنسان أن يغيّر هذا المنهج إذا اقتضت الضرورة، بل الله خلق الإنسان بصورة يستطيع معها تغيير منهجية النوم، ويجعلها وفقاً للضرورات والحاجات، فكأنّ التعبير ﴿مَنَامُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إشارة إلى هذه «اللطيفة» الدقيقة.

ولا شك أنّ المنهج الأصل للنوم متعلق بالليل، ولأنّ الليل هادىء بسبب الظلمة، فله أولوية خاصة في هذا المورد.

ولكن قد يتفق للإنسان ولظروف خاصة يكون مجبراً على السفر ليلاً وأن يستريح نهاراً. . . فلو كان منهج تنظيم النوم خارجاً عن اختيار الإنسان فسيواجه العديد من الصعوبات حتماً.

وأهميّة هذا الموضوع، خاصة في عصرنا الذي تضطر فيه بعض المؤسسات الصناعية والطبية والعلاجية أن تعمل ليل نهار، ولا يمكن لها أن تعطل منهجها بحيث يتناوب عمالها في ثلاث مراحل للعمل فيها، هذه الأهميّة في هذا العصر أجلى منه في أي عصر مضى!

وحاجة جسم الإنسان وروحه إلى النوم كثيرة إلى درجة لا يستطيع الفرد أن يتحمل السهر المتواصل أكثر من يومين أو ثلاثة.

ولذلك فإنّ المنع من النوم يعتبر من أشد أنواع التعذيب الذي يمارسه الطغاة والجبابرة مع سجنائهم.

وكذلك يُعدُّ النوم واحداً من الطرق العلاجية لكثير من الأمراض، حيث يوصي الأطباء المريض بأن يغطّ في نوم عميق فتزداد بذلك قوّة المريض ومناعته.

وبالطبع لا يمكن لأحد أن يحدد مقداراً معيناً للنوم على أنّه «مقدار النوم اللازم» لعموم الناس لأنّ ذلك يرتبط بسنّ الأشخاص ووضعهم ومزاجهم وكيفية البناء الفيسيولوجي والسيكولوجي «الجسيمي والروحي»، بل المهم النوم الكافي بمقدار يحسّ الإنسان بعده بأنّه شبع منه. . . كما هي الحال بالنسبة للشبع من الغذاء والماء تماماً.

وينبغي الالتفات إلى هذه المسألة، وهي أنّه بالإضافة إلى «طول» زمان النوم، فلعمقه خصوصية وأهميّة أُخرى أيضاً. . . فرب ساعة ينام فيها الإنسان نوماً عميقاً تسد عن عدد من الساعات التي ينامها نوماً سطحياً في إعادة بناء روح الإنسان وجسمه.

وبالطبع، فحيث لا يمكن النوم العميق، فالنعاس أيضاً من النعم الإلهيّة، كما أشارت إليه الآية الحادية عشرة من سورة الأنفال في شأن المجاهدين يوم بدر ﴿إِذْ

﴿يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ لأنّه لا يمكن النوم العميق في ميدان الحرب، وليس مفيداً - أيضاً - ولا نافعاً.

وعلى كل حال فإن نعمة النوم والهدوء والاطمئنان الناشىء منه، وما يحصل عليه الانسان من قوة ونشاط بعد النوم، هي من النعم التي لا يمكن وصفها بأي بيان!.

والآية التي تلتها، والتي تبيّن خامس آية من آيات عظمة الله، تتجه أيضاً إلى «الآيات في الآفاق» وتتحدث عن البرق والرعد والغيث وحياة الأرض بعد موتها فتقول: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

«الخوف» ممّا يخطر على البال من احتمال نزول الصاعقة مع البرق فتحرق كل شيء تقع عليه وتحيله رماداً.

«والطمع» من جهة نزول الغيث الذي ينزل بعد البرق والرعد على هيئة قطر أو مزنة.

وعلى هذا فإنّ البرق السماوي مقدمة لنزول الغيث «بالإضافة إلى فوائد البرق المختلفة المهمّة والتي كشف العلم عنها أخيراً وقد تحدثنا عنه في بداية سورة الرعد»(١).

ثمّ يضيف القرآن معقباً ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾.

الأرض الميتة التي لا يؤمل فيها الحياة والنبات، تهتز بنزول الغيث الذي يمنحها الحياة، فتحيا وتظهر آثار الحياة عليها على هيئة الأزهار والنباتات، بحيث لا تصدق أحياناً أنّها الأرض الميتة سابقاً.

ويؤكّد القرآن في نهاية هذه الآية مضيفاً: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ويفهمون أن وراء هذه الخطة المدروسة يداً قادرة تقودها وتهديها، ولا يمكن أن تكون المسألة وليدة الصدفة والضرورة العمياء الصّماء أبداً.

وفي آخر آية من الآيات محل البحث، يقع الكلام عن آية أُخرى من الآيات الآفاقية، وذلك عن تدبير نظام السماء والأرض وبقائهما ودوامهما، إذ تقول: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾.

أي إنّ خلق السماوات - المشار إليه في الآيات السابقة - ليس آية واحدة فحسب، بل بقاؤها ودوام نظامها أيضاً آية أُخرى، فهذه الأجرام العظيمة في دورانها المنظّم حول

---

(١) راجع تفسير «سورة الرعد» الآيات الأُولى منها.

نفسها تحتاج إلى أُمور كثيرة، وأهمّها المحاسبة المعقدة للقوّة الجاذبة والدافعة!

إنّ الخالق الكبير جعل هذا التعادل دقيقاً، بحيث لا يعترض الأجرام أدنى انحراف في مسيرها ودورانها حول نفسها إلى ملايين السنين.

وبتعبير آخر: إنّ الآية السابقة كانت إشارة إلى «توحيد الخلق» وأمّا هذه الآية فهي إشارة إلى «توحيد الربوبية والتدبير».

والتعبير بقيام السماء والأرض، تعبير لطيف مأخوذ من حالات الإنسان، لأنّ أحسن حالات الإنسان لأجل استدامة نشاطه هي حالة قيامه، إذ يستطيع فيها أداء جميع حوائجه، وتكون له السيطرة والتسلط الكامل على أطرافه.

والتعبير بـ«أمره» هنا إشارة إلى منتهى قدرة الله، إذ يكفي أمر واحد من قبله لاستمرار الحياة، ونظم هذا العالم الوسيع.

وفي نهاية الآية وبالاستفادة من عامل التوحيد لإثبات المعاد، ينقل القرآن البحث إلى هذه المسألة فيقول: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

ولقد رأينا - مراراً - في آيات القرآن أن الله سبحانه يستدل على المعاد بآيات قدرته في السماء والأرض، والآية محل البحث واحدة من تلك الآيات.

والتعبير بـ﴿دَعَاكُمْ﴾ إشارة إلى أنّه كما أنّ أمراً واحداً منه كاف للتدبير ولنظم العالم، فإنّ دعوة واحدة منه كافية لأن تبعثكم من رقدتكم وتنشركم من قبوركم ليوم القيامة، وخاصة إذا لاحظنا جملة ﴿إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ فإنّ كلمة «إذا» تبين بوضوح مؤدّى هذه الجملة، حيث إنّها «فجائية» كما يصطلح عليها أهل النحو واللغة، ومعناها: إذا دعاكم الله تخرجون بشكل سريع وفجائي.

والتعبير بـ﴿دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ﴾ دليل واضح على المعاد الجسماني، إذ يثب الإنسان في يوم القيامة من هذه الأرض «فلاحظوا بدقّة».

بحوث

١ - دورة دروس كاملة لمعرفة الله

تناولت الآيات الستُ المتقدمة بحوثاً مختلفة في معرفة الله، وهي بمجموعها تمثل حلقات متصلة ودورة كاملة طريفة، بدءاً بخلق السماء إلى خلق البشر من التراب، ومن رباط الحب في الأسرة، إلى النوم الذي يمنح الدعة والاطمئنان في الليل والنهار، ومن

تدبير النظام والعالم متدرجاً، إلى البرق والغيث واختلاف الألسنة والألوان... فهي مجموعة مناسبة من آيات الآفاق وآيات الأنفس!.

الطريف هنا أن كلّ آية من الآيات الست يذكر فيها قسمان من دلائل التوحيد، ليهيىء الأوّل الأرضية المناسبة، والآخر للتحكيم والتأكيد، وهذا يشبه تماماً الإتيان بشاهدين عدلين لإثبات المدّعى، فيكون المجموع اثني عشر شاهداً صادقاً على قدرة الله الحق، التي لا نهاية ولا أمد لها.

٢ - من هم المستلهمون من هذه الآيات؟

ورد في أربع آيات من هذه الآيات الست التأكيد على أنّ في هذه الأُمور دلائل واضحة «للعالمين، المتفكرين، السميعين، العاقلين» إلاّ أنّ هذا التأكيد لم يرد في الآية الأولى، ولا الآية الأخيرة.

ويوضح الفخر الرازي في هذا المجال فيقول: لعل عدم ذكر ذلك، في الآية الأُولى لأنّ الآية الأُولى والثّانية جاءتا متصلتين في سياق واحد، وكلتاهما من الآيات التي تتحدث في الأنفس.

وأمّا في الآية الأخيرة فإنّ الأمر واضح إلى درجة لا يحتاج بعدها إلى مزيد إيضاح، ولا تأكيد على التعقل والتفكر[1]!

الطريف هنا أن الحديث عن التفكر ورد قبل الحديث والكلام عن «العلم» لأنّ التفكر مقدمة وقاعدة للعلم، ثمّ يأتي الكلام على من يسمع، لأنّ الإنسان يستعد للاستماع وتقبل الحق، إذا كان في صدد العلم والاطلاع، كما يقول القرآن في هذا المجال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۝١٨﴾[2].

وفي آخر مرحلة كان الكلام عن العقل، لأنّ أُولئك كانوا يسمعون، فلابدّ أن يبلغوا مرحلة العقل الكامل!

كما ينبغي الإلتفات إلى هذه اللطيفة، هي أنّه وقع الكلام في ذيل الآية الأُولى عن خلق الإنسان وانتشار نسله في الأرض ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾.

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي، ج٢٥، ذيل الآيات محل البحث.

(٢) سورة الزمر، الآيتان: ١٧ - ١٨.

ووقع الكلام في آخر آية أيضاً عن خروج الناس ونشورهم في يوم القيامة ﴿إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ﴾.

فالآية الأُولى لبداية الخلق، والأخيرة للنهاية.

٣ - عجائب عالم النوم

بالرغم من جميع الأبحاث التي كتبها العلماء حول النوم وخصائصه، يبدو أنّ زوايا هذا العالم لم تنكشف جميعها، ولم يرفع النقاب عن أسراره وحقائقه الغامضة!

فما زال البحث يدور بين العلماء: أي فعل وانفعال يكون في البدن بحيث يتوقف - خلال لحظة مفاجئة - قسم من نشاطات المخ والبدن، ويظهر تحول في عامّة الروح والجسد؟!

قال بعضهم: إنّ العامل الأصلي للنوم هو «عامل فيزياوي» ويعتقدون أن انتقال الدم من المخ إلى أجزاء البدن الأُخرى، يوجد هذه الظاهرة، ولأجل إثبات معتقدهم عمدوا إلى صنع سرير للنوم على شكل خاص يدعى «سرير النوم المعياري» يبيّن كيفية انتقال الدم من المخ إلى سائر أعضاء البدن!.

وقال جماعة: إنّ العامل الأصلي للنوم هو «عامل كيمياوي» ويعتقدون أنّ الإنسان في حالة السعي والعمل تزداد فيه السموم بحيث تؤدّي إلى تعطيل قسم من المخ عن عمله، فينام الإنسان على أثر ذلك، وحين تتلاشى السموم وتسيطر عليها كريات الدم يتيقظ الإنسان مرّة أُخرى!

وقال جماعة آخرون: إنّ العامل الأصلي للنوم هو «عامل عصبي» ويعتقدون أن للنشاط العصبي خصوصيةً في المخ لها حكم وقود السيارة، فعندما تتعب ينطفىء المخ ويتوقف عن العمل مؤقتاً.

ولكن هناك أسئلة ونقاط مبهمة حول جميع هذه النظريات، لم نحصل إلى الآن على جواب واضح لها، وما يزال النوم محتفظاً بوجهه المليء بالأسرار.

من عجائب عالم النوم ما أماط العلماء النقاب عنه أخيراً، وهو حين يتعطل قسم كبير من المخ عن العمل تبقى بعض خلاياه التي ينبغي أن تسمى بـ«الخلايا الحارسة» متيقظة ولا تنسى الوصايا التي يوصيها الإنسان قبل النوم عند ساعة التيقظ... وعند الحاجة توقظ هذه الخلايا جميع المخ ويتحرك نحو العمل مرّة أُخرى!

فمثلاً: الأم المرضعة المتعبة حين تنام الليل وإلى جنبها رضيعها في المهد، يوصي عقلها الباطني الخلايا الحارسة التي تربط بين الروح والجسم، أنّه متى ما سمعت أقل صوت لطفلي فأيقظيني، ولكن لا يهمني أي صوت آخر، فقد لا تتيقظ المرأة من صوت الرعد المهول، ولكنّها تتيقظ لأقل صوت من ولدها الرضيع، فهذه المهمّة هي وظيفة الخلايا الحارسة.

ونحن أيضاً جرّبنا هذا الموضوع كثيراً، فمتى ما كان لدينا تصميم أن نستيقظ مبكرين أو في منتصف الليل لنسافر أو لأداء مهمّة، ونحدث أنفسنا بذلك، فإننا غالباً ما نستيقظ في الوقت المطلوب، في حين أن من الممكن أن نغرق في النوم لساعات طوال في غير هذه الحالة!

والخلاصة، حيث إنّ النوم هو من الظواهر الروحية، وللروح عالم مليء بالأسرار، فليس عجيباً أن تبقى كثير من زوايا هذه المسألة غامضة... ولكن كلما سبرنا غور هذا العالم نتعرف على عظمة خالق هذه الظاهرة.

هذا عن ظاهرة النوم، وأمّا عن الرؤيا والأحلام، فقد بحثنا عنه بحوثاً كثيرة، ولا بأس بمراجعة تفسير سورة يوسف عليه السلام.

٤ - علاقة الحب بين الزوجين

بالرّغم من أنّ العلاقة أو الارتباط بين الإنسان وأبيه وأمه وإخوته هي علاقة نسبية، تمتد جذورها العميقة بالقرابة. والعلاقة بين الزوجين علاقة قانونية، و«معاقدة بينهما» لكن كثيراً ما تتغلب هذه العلاقة حتى على علاقة الإنسان بأبيه وأمه، وفي الحقيقة هذا هو ما أشارت إليه الآيات الآنفة بالتعبير ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

ونقرأ حديثاً عن الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم أنّه أخبر ابنة جحش باستشهاد خالها حمزة، فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون. فأخبرها باستشهاد أخيها فقالت مرّة أُخرى: «إنا لله وإنا إليه راجعون» (وطلبت له الأجر والثواب من الله).

ولكن حين أخبرها باستشهاد زوجها، وضعت يدها على رأسها وصرخت، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «ما يعدل الزوج عند المرأة شيء»[1].

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٤، ص ١٧٤.

﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٩)﴾

التّفسير

المالكية لله وحده

كانت الآيات المتقدمة تتحدث حول توحيد الخالق، وتوحيد الرّب، أمّا الآية الأُولى من هذه الآيات محل البحث فتتحدث عن فرع آخر من فروع التوحيد، وهو توحيد الملك فتقول: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

ولأنّهم ملك يده فـ ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ وخاضعون.

وواضح أنّ المراد من المالكية وخضوع المخلوقات وقنوتها، الملك والقنوت التكوينيان... أي إنّ زمام أمر الجميع من جهة القوانين التكوينية كلّه في يده، وهم مستسلمون لقانون عالم التكوين وفق مشيئة الله، شاؤوا أم أبوا.

حتى العُتاة الطغاة الألدّاء والمتمردون على القانون والجبابرة، هم مضطرون أيضاً أن يحنوا رؤوسهم لأمر الله في القوانين التكوينية.

والدليل على هذه «المالكية» هو الخالقية والربوبية، فإنّ من خلق الموجودات في البداية وتكفلها بالتدبير، فمن المسلم أنّه هو المالك الأصلي لها لا سواه!

وبما أنّ جميع موجودات الدنيا سواسية في هذا الأمر، فمن الواضح أن لا يكون معه أي شريك في الملك حتى الأوثان والمعبودات المصطنعة التي يتصورها المشركون أنّها أربابهم، هي أيضاً مملوكة لمالك «الملك» والملوك، وهي طوع أمره.

وينبغي الالتفات - ضمناً - إلى أنّ كلمة «قانت» تعني - كما يقول الراغب في مفرداته - في الأصل: الطاعة الملازمة للخضوع!

ونقرأ حديثاً عن النّبي ﷺ أنّه قال: «كل قنوت في القرآن فهو طاعة».

غاية ما في الأمر، تارة تأتي هذه الطاعة «تكوينية» وأُخرى «تشريعية».

وما ذهب إليه بعض المفسّرين من أنّ كلمة «قانتون» معناها هنا «قائمون بالشهادة على وحدانيته»[1] فهو في الحقيقة بيان لأحد مصاديق الطاعة، لأنّ الشهادة على وحدانية الله نوع من الطاعات.

وحيث إنّ المسائل المرتبطة بالمبدأ والمعاد هي كالنسيج الواحد في انسجامها في سلسلة الآيات الآنفة، والتي ستأتي في ما بعد، ففي الآية التالية يعود القرآن إلى موضوع المعاد، فيقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾[2].

إنّ القرآن يثبت في هذه الآية - بأوجز الاستدلال - مسألة إمكان المعاد، إذ يقول لهم: إنّكم تعتقدون أنّ بداية الخلق من قبل الله، فعودة الخلق مرّة أُخرى أيسر وأهون من بداية الخلق!.

والدليل على أنّ عودة الخلق أهون من البداية، هو أنّه في البداية لم يكن شيء ولكن الله هو الذي أبدعه، وفي الإعادة توجد المواد الأصلية على الأقل، فبعضها في طيّات التراب، وبعضها متناثر في الفضاء، وإنّما تحتاج إلى نظم وإلى إعطائها صورتها الأُولى فحسب، فهي أهون!

ولكن من الضروري أن نلتفت إلى هذه «اللطيفة»، وهي أنّ التعبير بالهيّن والصعب، هو من خلال نافذتنا الفكرية، وأمّا بالنسبة للقادر المطلق فلا فرق عنده بين «الصعب والسهل».

---

(١) نقل «الآلوسي» في تفسيره «روح المعاني» ذيل الآية محل البحث هذا الكلام عن بعض المفسّرين المتقدمين.

(٢) ينقل «الفخر الرازي» عن «الزمخشري» في تفسير الكشّاف أنّ الله قال في شأن ولادة عيسى عليه السلام دون أب «هو علي هين» ولأنّ كلمة «عليّ» مقدمة، فهي دليل على الحصر، أي إنّ هذا العمل سهل علي فحسب لا على سواي، أمّا في هذه الآية محل البحث فقد قال سبحانه: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ فلا يستفاد منها الحصر، وهي إشارة إلى أنّ كل من يستطيع أن يؤدّي عملاً في البداية فهو قادر على إعادته أيضاً «فلاحظوا بدقّة».

وأساساً فإنّ «الصعب والسهل» يصدقان مفهوماً في مكان يكون الكلام عن قدرة محدودة، كأن يستطيع أحد أن يؤدّي عملاً بصورة جيدة، والآخر لا يؤدّيه بصورة جيدة، بل بمشقّة، أمّا حين يكون الكلام على قدرة لا حدّ لها، فلا معنى للصعب والهيّن هناك!

وبتعبير آخر: إنّ حمل «أعظم الجبال» على الأرض بالنسبة إلى الله وحمل أخف الأشياء عليها عنده سواء، لقدرته التي لا يعظم عليها شيء.

وربّما كان لهذا السبب أن عقّب القرآن في ذيل الآية مباشرة بالقول: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

لأننا لو تصورنا أي وصف كمالي لأي موجود في السماء والأرض، من علم وقدرة وملك وعظمة وجود وكرم، فمصداقه الأتم والأكمل هو عند الله، لأنّ الجميع لديهم المحدود من الصفات، إلاّ هو وحده فإنّ لديه الأوصاف غير المحدودة، والجميع لديهم أوصاف عارضة، أمّا أوصاف الله فذاتية، وهو مصدر الكمالات وأساسها.

حتى الألفاظ التي تجري على ألسنتنا لبيان مقاصدنا يوميّاً.. لا يمكن أن تكون مبينة لأوصافه... كما هو في تعبير «أهون» الذي نجده مثلاً عندنا.

والجملة الآنفة هي كالآية (١٨٠) في سورة الأعراف، إذ ورد فيها ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ والآية (١١) في سورة الشورى إذ يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

وتنتهي الآية - بما هو ضرب من التأكيد أو الدليل، إذ يقول سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

هو عزيز لا يقهر، إلاّ أنّه وفي منتهى قدرته غير المحدودة لا يصدر منه فعل غير دقيق، فكل أفعاله وفق حكمته.

وبعد بيان قسم آخر من دلائل التوحيد والمعاد في الآيات المتقدمة، يتناول القرآن موضوع «نفي الشرك» في مثال بيّن فيقول: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.

هذا المثال هو لو كان لديكم - أيّها المشركون - عبيد ومماليك ف ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي إنّ عبيدكم هؤلاء يشاركونكم في أموالكم وفي ما رزقناكم. بحيث تكونون أنتم وعبيدكم سواء في مالكية هذه الأموال والنعم وتخافون أن يتصرفوا في هذه الأموال بشكل مستقل

كما هو الحالة في تصرف شركائكم الأحرار فيها أو في الميراث مثلاً. . . فأنتم غير مستعدين لأنّ يتصرفوا في أموالكم.

فلو كان لكم عبيد وملك يمين «وهو ملك مجازي» لما رضيتم بمثل هذا الفعل منهم، فكيف تتصورون المخلوقات التي هي ملك حقيقي لله شركاءه! أو تزعمون أنّ بعض الأنبياء كالمسيح أو ملائكة الله أو بعض المخلوقات الأُخرى كالجن أو الأصنام الحجرية والخشبيّة شركاءه، ألا ساء ما تحكمون!!

المملوكات المجازية التي يمكن أن تتحرر وتنعتق بسرعة، وتكون في صفوفكم ومن أمثالكم «كما جرى ذلك في الإسلام» - لا تكون حالة كونها مملوكة - في صف مالكها، وليس لها حق التدخل في منطقة نفوذه، فكيف تجعلون العبيد الحقيقيين أو المملوكات الحقيقية شركاء لله، في حين أنّهم متعلقون بالله ذاتاً ووجوداً، ولا يمكن أن يُسلب هذا التعلق بالله والارتباط به منهم، وكل ما عندكم فمن عنده، وما أنتم بشيء من دونه!.

قال بعض المفسّرين: إنّ هذه الآية ناظرة لما قاله المشركون من قريش، عند التلبية في مناسك الحج، إذ كانوا يقولون عند التلبية. . «لبيك، اللّهم لا شريك لك، إلاّ شريكاً هو لك، تملكه وما ملك». . . هكذا كان محتوى تلبية المشركين(1).

وبديهي أن شأن نزول هذه الآيات شأن سائر الآيات في نزولها، إذ لا يحدد معنى الآية، كما هي في الوقت ذاته جواب لجميع المشركين، هي مستقاة من حياتهم أنفسهم التي تدور حول الرق والمملوكين، وتحتج عليهم احتجاجاً متيناً.

والتعبير بـ﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ يشير إلى هذه اللطيفة، وهي أنّكم لستم المالكين الحقيقيين لهؤلاء العبيد والمماليك، ولا المالكين الواقعيين للمال، لأنّ كل ذلك لله وحده، ولكنّكم غير مستعدين لأن تخوّلوا مماليككم المجازيين بالتصرف في أموالكم المجازية وتعدّوهم شركاءكم، في حين أنّه لا يستلزم محالاً ولا مشكلة من الناحية التكوينية لأنّ الكلام يدور مدار الاعتباريّات.

غير أنّ التفاوت بين الله ومخلوقاته تفاوت تكويني ولا يتغيّر، وجعل هذه المخلوقات شريكة لله من سابع المستحيلات.

---

(١) تفسير الميزان، ج١٦، وتفسير مجمع البيان، ج٨، ص٢٠٣، وتفسير نور الثقلين، ج٤، ص١٨١، ذيل الآية محل البحث.

ومن جهة أُخرى فإنّ عبادة أحد الموجودات، إمّا لعظمته، أو لأنّه ينفع ويضر الإنسان، إلاّ أنّ هذه المعبودات لا تنفع ولا تضر(١).

ويعقب القرآن في ختام الآية للتأكيد والدقة على مضمون السؤال، فيقول: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

أجل، نذكر لكم الحقائق من الأمثلة الواضحة في حياتكم لتفكروا فيها، ولكيلا تنسبوا لله - على الأقل - ما لا ترضون أن تنسبوه لأنفسكم!.

غير أنّ هذه الآيات البينات وهذه الأمثلة الواضحة هي لأولي الألباب، لا للظالمين عبدة الهوى الجهلة الذين قلوبهم أسدال الجهل، واستوعبت آفاقهم الخرافات والعصبيات، لذلك يضيف القرآن في الآية التالية قائلاً: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

ولذلك فإنّ الله خلّى بينهم وبين أنفسهم بسبب أعمالهم السيئة، فتاهوا في وادي الضلالة ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾؟!

والتعبير بـ «ظلموا» مكان «أشركوا» إشارة إلى أنّ الشرك بعد أعظم الظلم: فهو ظلم للخالق، إذ جعله مخلوقه إلى جانبه وأشركه معه (ونعرف أنّ الظلم أن تضع الشيء في غير موضعه).

وظلم للخلق، إذ منعوهم عن طريق الخير والسعادة «طريق التوحيد».

وظلم لأنفسهم، لأنّهم أطلقوا جميع وجودهم وكيانهم للريح، وظلوا في مفازة عمياء! وبيداء قفراء.

وهذا التعبير - ضمناً - مقدمة للجملة التالية، وهو إنّما أضلهم الله عن طريق الحق فبظلمهم، كما جاء مثل هذا التعبير في سورة إبراهيم الآية (٢٧) ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ولا شك أنّ من يتركهم الله ويخلّي بينهم وبين أنفسهم ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

وبهذا يوضح القرآن عاقبة هذه الجماعة المشؤومة، ولِمَ لا تكون كذلك؟! وهم

---

(١) فسّر بعض المفسّرين جملة ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ بهذه المناسبة تفسيراً آخر، حاصله أنّ هؤلاء المعبودين ليست لديهم القدرة حتى تخافوهم كما تخافون من بعضكم، فكيف إذا كان الخوف أكثر! «إلاّ أنّ التّفسير الذي ذكرناه في البداية يبدو أقرب للنظر».

يرتكبون «أعظم الذنوب وأعظم الظلم»، إذ عطلوا عقولهم وأفكارهم عن العمل، وتركوا شمس العلم خلف ظهورهم، وتوجهوا إلى ظلمة الجهل والهوى.

فمن الطبيعي أن يسلب الله منهم التوفيق، ويتركهم في ظلماتهم، وما لهم من ناصرين ولا معينين!.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)﴾

التّفسير

كان لدينا حتى الآن أبحاث كثيرة حول التوحيد ومعرفة الله، عن طريق مشاهدة نظام الخلق، والاستفادة منه لإثبات مبدأ العلم والقدرة في ما وراء عالم الطبيعة، بالاستفادة من آيات التوحيد في هذه السورة!

وتعقيباً على الآيات الآنفة الذكر، فإن الآية الأُولى من هذه الآيات محل البحث - تتحدث عن التوحيد الفطري، أي الاستدلال على التوحيد عن طريق المشاهدة الباطنية والدرك الضروري والوجداني، إذ يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ لأنّها ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

«الوجه» معناه معروف، وهو مقدم الرأس. والمراد به هنا الوجه الباطني، ووجه القلب والروح فعلى هذا ليس المراد هنا من الوجه أو المحيّا وحده، بل التوجه بجميع الوجود، لأنّ الوجه أهم أعضاء البدن!

وكلمة «أقم» مشتقة من الإقامة، ومعناه الاستقامة والوقوف بثبات (على قدم راسخة)...

وكلمة «حنيف» مشتقة من «حَنَف»، ومعناها الميل من الباطل نحو الحق، ومن الاعوجاج نحو الاستواء والاستقامة، على العكس من «جنف» على وزن «حنف» أيضاً، ومعناها الميل من الاستواء إلى الضلالة والاعوجاج.

فمعنى الدين الحنيف هو الدين المائل نحو العدل والاستواء عن كل انحراف وباطل وخرافة وضلال.

فيكون معنى هذه الجملة بمجموعها، أن وجّه نفسك دائماً نحو مبدأ ومذهب خال من أي أنواع الاعوجاج والانحراف، وذلك هو مبدأ الإسلام ودين الله الخالص والطاهر(١).

إنّ الآية المتقدمة تؤكّد على أن الدين الحنيف الخالص الخالي من كل أنواع الشرك، هو الدين الذي ألهمه الله سبحانه في كل فطرة، الفطرة الخالدة التي لاتتغير، وإن كان كثير من الناس غير ملتفت لهذه الحقيقة.

والآية المتقدمة تبيّن عدة حقائق:

١ - إنّ معرفة الله - ليست وحدها - بل الدين والاعتقاد بشكل كلي وفي جميع أبعاده هو أمر فطري، وينبغي أن يكون كذلك، لأنّ الدراسات التوحيدية تؤكّد أنّ بين جهاز التكوين والتشريع انسجاماً لازماً، فما ورد في الشرع لابدّ أن يكون له جذر في الفطرة، وما هو في التكوين وفطرة الإنسان متناغم مع قوانين الشرع!

وبتعبير آخر: إنّ التكوين والتشريع عضدان قويان يعملان بانسجام في المجالات كافة، فلا يمكن أن يدعو الشرع إلى شيء ليس له أساس ولا جذر في أعماق فطرة الإنسان، ولا يمكن أن يكون شيء في أعماق وجود الإنسان مخالف للشرع!

وبدون شك فإنّ الشرع يعين حدوداً وقيوداً لقيادة الفطرة لئلا تقع في مسار منحرف، إلاّ أنّه لا يعارض أصل مشيئة الفطرة، بل يهديها من الطريق المشروع، وإلاّ فسيقع التضاد بين التشريع والتكوين، وهذا لا ينسجم مع أساس التوحيد.

وبعبارة أُخرى: إنّ الله لا يفعل أعمالاً متناقضة أبداً، بحيث يقول أمره التكويني: افعل! ويقول أمره التشريعي: لا تفعل.

٢ - إنّ الدين له وجود نقي خالص من كل شائبة داخل نفس الإنسان، أمّا الانحرافات فأمر عارض، ووظيفة الأنبياء إذن إزالة هذه الأُمور العارضة، وفسح المجال لفطرة الإنسان في الإشراق.

---

(١) الألف واللام في كلمة «الدين» هما للعهد، وهما هنا إشارة إلى الدين الذي أمر النّبي ﷺ أن يبلغه، أي دين «الإسلام».

٣ - إنّ جملة ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ وبعدها جملة ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ تأكيدان آخران على مسألة كون الدين فطرياً، وعدم إمكان تغيير هذه الفطرة!... وإن كان كثير من الناس لا يدركون هذه الحقيقة بسبب عدم رشدهم كما ينبغي!

وينبغي الالتفات إلى هذه اللطيفة، وهي أنّ الفطرة في الأصل من مادة «فطر» على زنة «بذر» ومعناها شق الشيء من الطول، وهنا معناها الخلقة، فكأن ستار العدم ينشق عند خلق الموجودات ويبرز كل شيء منها.

وعلى كل حال فمنذ أن وضع الإنسان قدمه في عالم الوجود، كان هذا النور متوقداً في داخله، من أوّل يوم ومن ذلك الحين!

والرّوايات المتعددة التي وردت في تفسير الآية تؤيد ما ذكرناه آنفاً، وسنتحدث عن ذلك لاحقاً إن شاء الله، بالإضافة إلى الأبحاث الأُخرى في مجال كون التوحيد فطرياً.

ويضيف القرآن في الآية التالية: ينبغي أن يكون التفاتكم للدين الحنيف والفطري حالة كونكم ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ فأصلكم وأساسكم على التوحيد، وينبغي أن تعودوا إليه أيضاً.

وكلمة ﴿مُنِيبِينَ﴾ من مادة «إنابة» وهي في الأصل تعني الرجوع المكرر، وتعني هنا الرجوع نحو الله والعودة نحو الفطرة (التوحيدية) ومعناها متى ما حصل عامل يحرف الإنسان عقيدته وعن أصل التوحيد فينبغي أن يعود إليه.. ومهما تكرر هذا الأمر فلا مانع من ذلك إلى أن تغدو أسس الفطرة متينة وراسخة، وتغدو الموانع والدوافع خاوية ويقف الإنسان بصورة مستديمة في جبهة التوحيد، ويكون مصداقاً للآية ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾.

وممّا ينبغي الالتفات إليه أن ﴿أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ جاءت بصيغة الإفراد، وكلمة ﴿مُنِيبِينَ﴾ جاءت بصيغة الجمع، وهذا يدل على أنّه وإن كان الأمر الأوّل مخاطباً به النبي ﷺ إلاّ أنّ الخطاب - في الحقيقة - لعموم المؤمنين وجميع المسلمين.

ويعقب على الأمر بالإنابة والعودة إليه، بالأمر بالتقوى، وهي كلمة تجمع معاني أوامر الله ونواهيه، إذ يقول: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي اتقوا مخالفة أوامره!.

ثمّ يؤكّد القرآن على موضوع الصلاة من بين جميع الأوامر فيقول: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

لأنّ الصلاة في جميع أبعادها، هي أهم منهج لمواجهة الشرك، وأشدّ الوسائل تأثيراً في تقوية أسس التوحيد والإيمان بالله سبحانه.

كما أنّه يؤكّد في نهيه عن «الشرك» من بين جميع النواهي فيقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

لأنّ الشرك أعظم الذنوب وأكبر الكبائر، إذ يمكن أن يغفر الله جميع الذنوب إلاّ الشرك بالله، فإنّه لا يغفره. كما نقرأ في الآية (٤٨) من سورة النساء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

وواضح أنّ الأوامر الأربعة الواردة في هذه الآية، هي تأكيد على مسألة التوحيد وآثاره العملية، فالمسألة أعمّ من التوبة والعودة إليه تعالى وإلى تقواه وإقامة الصلاة وعدم الشرك به.

وفي آخر آية - من الآيات محل البحث - يبيّن القرآن واحداً من آثار الشرك وعلائمه في عبارة موجزة ذات معنى كبير، فيقول: لا تكونوا من المشركين الذين انقسموا في دينهم على فرق وأحزاب كثيرة: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾.

والعجيب في الأمر أنّهم على تضادّهم واختلافهم فإنّ ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

أجل، إنّ واحدة من علائم الشرك هي التفرقة، لأنّ المعبودات المختلفة هي منشأ الأساليب المتفاوتة وهي أساس الانفصال والتفرق، خاصة وأنّ الشرك هو توأم عادة لهوى النفس والتعصّب والكبر والأنانية وعبادة الذات، أو متولد عنها، لذلك لا يمكن أن تتحقق الوحدة والاتحاد إلاّ في ظل عبادة الله، والعقل والتواضع والإيثار!.

فعلى هذا، حيثما وجدنا تفرقة واختلافاً فينبغي أن نعرف أنّ نوعاً من الشرك حاكم هناك، ويمكن أن نستنتج من هذا الموضوع أنّ نتيجة الشرك هي تفرق الصفوف، والتضاد، وهدر القوى، وأخيراً الضعف وعدم القدرة.

وأمّا مسألة ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ فهي واضحة ودليلها بيّن، حين يعتقدون أن ما لديهم حق، لأنّ الهوى يزيّن للنفس عملها في نظر الإنسان وهذا التزيين نتيجته التعلق أكثر فأكثر، والفرح بالطريق الذي اختارته النفس، وإن كان هذا الطريق يؤدّي إلى الضلال والانحراف.

إنّ عبادة الهوى لا تسمح للإنسان أن يرى وجه الحقيقة كما هو، ولا يمكنه أن يقضي قضاءً صحيحاً خالياً من الحبّ والحقد.

يقول القرآن المجيد في الآية (٨) من سورة فاطر: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾.

كالذي يمضي في طريق الحق، ويرى الحقائق كما هي، ويعرفها حق المعرفة؟!

بحثان

١ - التوحيد باعث داخلي قوي

كما أنّ الدلائل العقلية والمنطقية توجّه الإنسان، فإنّ في داخله دوافع وموانع أيضاً. . بحيث تعين له الجهة «أحياناً» من حيث يدري أو لا يدري!

وفلسفة وجودها في داخل الإنسان، هي أنّ الإنسان لا يستطيع - دائماً - أن ينتظر إيعاز العقل والمنطق، لأنّ هذا العمل قد يعطل الأهداف «الحياتية» بعض الأحيان.

فمثلاً لو أراد الإنسان أن يستلهم من منطق «لزوم بدل ما يتحلل» ضرورة تناول الطعام. . أو «لزوم استمرار النسل عن طريق التوالد والتناسل» ضرورة الممارسة الجنسية، وأن يعمل ويتحرك وفق المنطق في كل ذلك، لكان ينبغي أن ينقرض الإنسان - قبل هذا الزمان بكثير - إلاّ أنّ الغريزة الجنسية من جهة وجاذبيتها، والاشتهاء للطعام من جهة أُخرى، يجرانه نحو هذا الهدف شاء أم أبى. وكلما كانت الأهداف حياتيةً أكثر وعمومية، كانت هذه «الدوافع» أشدّ وأقوى أيضاً.

لكن ينبغي الالتفات إلى أنّ هذه الدوافع على نحوين:

فبعضها باطنية (غير واعية) لا تحتاج إلى وساطة العقل والشعور، كما ينجذب الحيوان نحو الطعام والجنس دون الحاجة إلى التفكير.

وقد يكون تأثير الدوافع عن طريق الوعي، أي إنّ هذه الدوافع الداخلية تترك أثرها في العقل والتفكير وتدفعه إلى انتخاب الطريق!

وعادة يطلق على النوع الأوّل من هذه الدوافع «الغريزة» وعلى النوع الثّاني «الفطرة» (فلاحظوا بدقّة).

عبادة الله والاتجاه نحوه لهما مكانه في نفوس جميع الناس، وهو ما يصطلح عليه بـ «الفطرة».

ويمكن أن يعدّ بعض الناس هذا الكلام ادعاءً محضاً، يدّعيه المؤمنون، إلاّ أنّ لدينا دلائل وشواهد مختلفة توضح بجلاء كون «الميل إلى الله» فطرياً، بل تؤكّد هذا الميل في جميع أُصول الدين وأبعاده:

١ - إنّ دوام الاعتقاد الديني والإيمان بالله على امتداد التاريخ البشري بنفسه دليل

على الفطرة! لأنّه إذا كان ذلك على سبيل العادة، لما كانت له جنبة عمومية ولا جنبة دائمية، فهذا العموم وهذا الدوام دليل على فطرية الحالة.

يقول المؤرخون الكبار: لم يُر في المجتمعات الإنسانية في أعماق التاريخ البشري، وفي عصر ما قبل التاريخ أن أقواماً بشرية عاشت بلا دين إلاّ بشكل استثنائي.

ويقول «ويل دورانت» المؤرخ المعاصر:

«إذا عرّفنا الدين على أنّه عبادة القوى التي هي أسمى من الطبيعة، فينبغي أن نأخذ بنظر الاعتبار هذه المسألة الدقيقة، وهي أن بعض الأُمم البدائية لم يكن لها أي دين ظاهراً» ثمّ يضيف بعد ذكر أمثلة لهذا الموضوع: «فما ذكر من الأمثلة هو في عداد الحالات النادرة، والرأي القائل: التدين يشمل عموم أفراد البشر، يوافق الحقيقة»!

ثمّ يضيف قائلاً: «تعدّ هذه القضية في نظر الفيلسوف واحدة من القضايا الأساسية في التاريخ والدراسات النفسيّة، فهو لا يقنع بهذه المسألة: إنّ جميع الأديان محشوّة بالباطل واللغو والخرافات، بل هو ملتفت إلى هذه المسألة، وهي أنّ الدين منذ قديم الأيّام كان مرافقاً للتاريخ البشري»[(١)].

ويختتم كلامه بهذا الاستفهام الكبير معنىً ومغزى «ترى أين هو مصدر التقوى التي لا يخلو القلب منها بأي وجه»؟!

وهذا المؤرخ نفسه يقول في تحقيقاته حول وجود الدين في فترات ما قبل التاريخ «وإذا لم نتصور للدين جذوراً في فترات ما قبل التاريخ، فلا يمكن أن نعرفها في الفترة التاريخية كما هي عليه»[(٢)].

والتنقيبات عن إنسان ما قبل التاريخ التي تمت عن طريق الحفر، تؤيد هذا الموضوع أيضاً، كما يصرح بذلك العالم الاجتماعي «ساموئيل كنيج» في كتابه «دراسة المجتمع»: إنّ الأسلاف الماضين للإنسان المعاصر «ممن ينتمون إلى إنسان نئاندرتال» كان لديهم دين حتماً، ويستدلّ بعدئذ لإثبات هذا الموضوع بالآثار التي عثر عليها عن طريق التنقيب والحفر، ومنها أنّهم كانوا يدفنون موتاهم بكيفية خاصة، ويدفنون معهم أشياء تدل على اعتقادهم بيوم القيامة»[(٣)].

---

(١) تاريخ التمدن، ج ١، ص ٨٧ - ٨٩.

(٢) المصدر السابق، ص ١٥٦.

(٣) دراسة المجتمع، ص ١٩٢ أصله بالفارسية وعنوانه جامعه شناسي.

وعلى كل حال، فإنّ فصل الدين عن التاريخ البشري لا يمكن أن يقبله أي محقق وباحث.

٢ - إنّ المشاهدات عياناً في العالم المعاصر تكشف أنّه مع جميع ما بذل الطغاة والمستبدون - وأنظمتهم الجائرة من جهود وسعي لمحو الدين وآثاره وعن طرق مختلفة - لم يستطيعوا أن يستأصلوا الدين وجذوره من أعماق هذه المجتمعات.

ونعرف جيداً أنّ الحزب الشيوعي الحاكم في الاتحاد السوفياتي، ومنذ أكثر من ستين سنة، وبوسائل الإعلام و«الدعايات» المختلفة، حاول أن يغسل الأذهان والعقول والقلوب من الاعتقادات الدينية مستعيناً بالخلايا التنظيمية الجماعية، إلاّ أنّ الأخبار التي تسربت وتهربت من ذلك المحيط المغلق، وما نقرؤه في الصحف والجرائد، تكشف أنّهم «أي الحزب الحاكم في روسيا» مضافاً إلى عدم تحقيقهم هدفهم بالرغم من تشددهم في وسائل الإعلام، فإنّه تبدو هذه الأيّام حالة من التطلع المتزايد إلى المسائل الدينية في بعض الدول الاشتراكية وجمهوريات روسيا ممّا أقلق قادة النظام، وهذا يدل على أنّه لو رفعوا الضغوط ولو يوماً واحداً، لعاد الدين إلى مكانه بسرعة فائقة، وهذا بنفسه شاهد آخر على فطرية الدافع الديني أيضاً.

٣ - الكشوفات الأخيرة من قبل النفسانيين وعلماء النفس في مجال أبعاد الروح الإنسانية، شاهد آخر على هذا المدعى، إذ إنّهم يقولون: «إنّ التحقيقات في المجالات النفسيّة تشير إلى بعد أصيل هو «البعد الديني» أو بتعبير آخر «بعد قدسي» أو «رباني» وربّما عدّوا هذا البعد أساساً للأبعاد الثلاثة الأُخرى وهي «البعد العلمي»، و«البعد الجمالي»، و«البعد الخيّر».

إذ يدّعون بأنّ البواعث الأساسية للروح البشرية هي هذه:

١ - دافع البحث عن الحقيقة (الشعور العلمي) وهو مصدر أنواع العلوم، والأهداف التحقيقية المستمرة، والمتابعات في معرفة عالم الوجود!

٢ - حس «الإحسان والعمل الصالح» الذي يجذب الإنسان نحو المفاهيم الأخلاقية كالتضحية والإيثار والعدل والشهامة وأمثالها. حتى أنّه لو كان الإنسان غير واجد لهذه الصفات، فإنّه يعشق من تتوفر فيهم هذه الصفات، وهذا يدل على أن العشق للعمل الصالح والإحسان كامن في جذور النفس.

٣ - الحس «الجمالي»: وهو يجذب الإنسان نحو الفن الأصيل والأدب والمسائل الذوقية، وربّما أصبح مصدر التحول في حياة الفرد أو المجتمع أحياناً.

٤ - الحس «الديني»، أي الإيمان بمبدأ عال وعبادته واتّباعه.

ونقرأ في مقالة كتبها «كوونتايم» في هذا المجال ما يلي:

«إنّ معرفة النفس بالبحث داخل النفس البشرية غير الواعية - التي بوشر بها بواسطة فرويد «في البداية» استمرّت بالاستعانة بـ«آدلر» و«يونك» - في أعماق روح الإنسان وصلت إلى عالم جديد من القوى المستورة، وأنحاء الدرك والمعرفة وراء العقل، ويمكن أن يكون الحسّ الديني مفتاحاً من مفاتيح حل هذه الأحجية.

وبالرغم من أنّنا بعيدون للآن عن اتفاق الآراء، إلاّ أنّه ومع هذه الحال فما يزال «مسير فكري» في ازدياد يوماً بعد يوم، إذ يعتقد كثير من المفكرين بالتعريف الذي نورده ذيلاً:

«إنّ الحس الديني واحد من العناصر الأولية الثابتة والطبيعية لروح الإنسان، وهو أكثرها أصالة وماهويّة، ولا يمكن مطابقته لأي من الأحاسيس والدوافع الأُخرى، حيث يمدّ جذوره إلى أعماق اللاوعي ويعدّ «المفهوم الديني» أو بتعبير أصح «المفهوم المقدس» بالنسبة لمفاهيم الجمال والإحسان والحقيقة، مقولة رابعة، ولها أصالة المفاهيم الثلاثة ذاتها واستقلالها أيضاً»(١).

كما نقرأ في المقالة المترجمة المقتبسة عن المحقق «تان كي دو - كنتن» ما يلي «كما أن من مزايا العصر الحاضر - في عالم الطبيعة - هو اكتشاف البعد الرابع، الذي أطلق عليه اسم «بعد» الزمان مضافاً إلى الأبعاد الثّلاثة للجسم، وهو في الوقت ذاته جامع لها، فكذلك اكتشفت في هذا العصر المقولة الرابعة «المقدسة» أو المقولة الإلهيّة «الربانية» بموازاة المفاهيم الثلاثة «الجمال، الإحسان، طلب الحقيقة» وهي البعد الرّابع لروح الإنسان، ففي هذا المقام أيضاً فإن هذا البعد الرّابع الروحي منفصل عن الأبعاد الثلاثة الأُخرى، وربّما كان هذا البعد منشأ ولادة الأبعاد الثلاثة الأُخرى»(٢).

٤ - إن التجاء الإنسان في الشدائد والمحن إلى قوة خفية وراء الطبيعة، وطلب حل

---

(١) يراجع كتاب الحسّ المذهبي أو البعد الرّابع ترجمة المهندس البياني (للكاتب كوونتايم).

(٢) المصدر السابق، ص ٣٩، الطبعة الثّانية.

المشاكل والازمات من قبل هذه القوة، لهو أيضاً شاهد آخر على أصالة هذا الدافع الباطني والإلهام الفطري، ويمكن - بضمها إلى مجموع الشواهد التي ذكرناها آنفاً - أن توقفنا على مثل هذا الدافع الباطني في داخلنا نحو الله سبحانه.

وبالطبع فمن الممكن أن يعدّ بعضهم هذا التوجه من آثار التلقينات أو الإعلام الديني في المحيط الاجتماعي المتدين!

إلاّ أن عمومية هذه الظواهر في جميع الناس، حتى في أُولئك الذين لا علاقة لهم بالمسائل الدينية عادةً، تدلّ على أن لها جذراً أعمق من هذه الفرضية.

٥ - وفي حياة الإنسان حوادث وظواهر لا يمكن تفسيرها إلاّ عن طريق أصالة الحسّ الديني... فكثير من الناس نجدهم قد ضحوا بجميع ما لديهم من الإمكانات المادية، ولا يزالون يضحون أيضاً، ويصبّون كل ما عندهم مع ما لديهم من سوابق تحت قدم الدين، وربّما قدّموا أنفسهم في سبيله أيضاً.

الشهداء الذين شربوا كأس الشهادة - من أجل تقدم الأهداف الإلهيّة وتحقّقها - بشوق وعشق بالغين، بحيث نرى أمثالهم في تاريخ جهاد الإسلام الطويل، بل في تأريخ الأمم الأُخرى أيضاً، يكشفون عن هذه الحقيقة، وهي أنّ الحس الديني له جذر عميق في روح الإنسان.

لكن قد يرد على هذا الكلام إشكال، وهو أنّ أفراداً - كالشيوعيين مثلاً - لهم موقع إلحاديّ - ضد الأيديولوجية والدين - ولا يكتمون موقعهم هذا أبداً... كما أنّ لهم مواقف تضحوية في سبيل حفظ فكرتهم واعتقادهم!

إلاّ أنّ هذا الإشكال ينحل تماماً بملاحظة هذه المسألة، وهي أنّه حتى الشيوعيون الذين ينفون الدين كليّاً - بحسب الظاهر - ويعتقدون أنّ الدين مرتبط بالتاريخ القديم، ولا يمكن أن يكون له مكان في المجتمعات الشيوعية.. أجل، إنّ هؤلاء أنفسهم قد قبلوا بالدين بشكل آخر عن طريق العقل الباطني «واللاوعي».

فهم يقدّسون زعماءهم وقادتهم بالنظرة التي ينظرها المصريون القدماء أوثانهم، وصفوفهم الطويلة عند جسد «لينين» لزيارته هي شاهد آخر على هذا الموضوع أيضاً.

وهم عادة يعتبرون الأصول الماركسية كوحي السماء لا تقبل النقد والخدش، فهي مقدّسة عندهم، ويتصورون أن ماركس ولينين وأنجلس كالمعصومين من الأخطاء والسهو، ويعدون مراجعة العقل لاتخاذ موقف جديد من هذه الأصول ذنباً لا يغتفر

أبداً.. ويخاطبون مخالفيهم بتعبيرنا الديني على أنّهم «مرتدون» وعلى هذا فهم يعتقدون بكثير من المفاهيم والمسائل الدينية، غاية ما في الأمر هو أن تفكيرهم نوع من الفكر الديني في شكل منحرف!

٢ - فطرة التوحيد في الأحاديث الإسلامية

موضوع «معرفة الله الفطرية» لم يختص به القرآن الكريم فحسب، بل هو وارد في الأحاديث الإسلامية بشكل يسترعي الانتباه، حيث إنّ بعضها يؤكّد على التوحيد بالفطرة، وبعضها يؤكّد على المعرفة، وقسم يتناول الفطرة «على الإسلام» وأخيراً فإن قسماً منها تناول عنوان الولاية أيضاً.

ففي حديث معتبر يرويه المحدث الكبير الشيخ الكليني في أصول الكافي، وهو ما نقله عن هشام بن سالم، قال: سألت الإمام الصادق عليه السلام: ما المراد من قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾... فقال: «هي التوحيد»(١).

كما ورد في الكافي نفسه نقلاً عن بعض أصحاب الإمام الصادق عليه السلام أيضاً حين سأله عن تفسير الآية المتقدمة فقال الإمام عليه السلام: «هي الإسلام»(٢).

كما نقرأ حديثاً متشابهاً لما سبق - عن الإمام الباقر عليه السلام جواباً لزرارة أحد أصحابه العلماء حين سأله عن تفسير الآية فقال عليه السلام: «فطرهم على المعرفة به»(٣).

والحديث المنقول عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: «كل مولود يولد على الفطرة حتى ليكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه» يؤكّد هذا المضمون أيضاً(٤).

وأخيراً فإننا نقرأ في أصول الكافي حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً في تفسير الآية قال: «هي الولاية»(٥).

وقد ورد في الخطبة الأُولى لنهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث موجز العبارة غزير المعنى، إذ يقول عليه السلام «فبعث فيهم رسوله، وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول».

وطبقاً للرّوايات المتقدمة، فليست معرفة الله هي الفطرية فحسب، بل مجموع

(١-٣) أصول الكافي، ج ٢، ص ١٠، باب «فطرة الخلق على التوحيد».
(٤) تفسير «جمع الجوامع» للمرحوم الطبرسي ذيل الآية محل البحث.
(٥) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٨٢.

الإسلام بشكل موجز «مضغوط» كامن في داخل الفطرة الإنسانية بدءاً من التوحيد وانتهاءً بالقادة الإلهيين وخلفائهم الصادقين، وكذلك فروع الأحكام أيضاً.

فعلى هذا، وطبقاً للتعبير الوارد في نهج البلاغة، فإن عمل الانبياء هو رعاية الفطرة حتى تفتح، وتذكر الناس نعم الله المنسية، ومن جملة هذه النعم الفطرة على التوحيد، واستخراج كنوز المعرفة الدفينة في روح الإنسان وأفكاره!

وممّا يسترعي الانتباه أنّ القرآن الكريم - في آيات متعددة - يتخذ من الشدائد والمشاكل والحوادث المؤلمة التي يمرّ بها الإنسان في حياته مناخاً ملائماً للحس الديني، إذ يقول في واحدة من هذه الآيات: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[(١)].

وسنتحدث بإذن الله في هذا المجال ذيل الآيات المقبلة التي تشبه الآيات من سورة العنكبوت أيضاً.

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾

التّفسير

إنّ الآية الأُولى من المقطع الذي بين أيدينا، هي في الحقيقة استدلال وتأكيد على البحث السابق في مجال كون التوحيد فطرياً، وتفتح هذا النور الإلهي عند الشدائد والصعاب! إذ تقول الآية: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾.

إلاّ أنّهم إلى درجة من السطحية والغباء التعصب والتقليد الأعمى لأسلافهم المشركين، بحيث إنّه بمجرّد انتهاء المشكلة وهبوب نسيم الرحمة الإلهيّة... ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٥.

والتعبير بـ ﴿مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ إشارة إلى إصابتهم بقليل من الضرر. . . كما أنّ التعبير ﴿أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ إشارة إلى بلوغ شيء من النعمة، لأنّ التعبير بـ «مسّ» أو «ذاق» في مثل هذه الموارد يطلق على الأُمور القليلة والجزئية، وخاصّة باستعمال كلمتي «ضر» و«رحمة» نكرتين.

أي إنّ طائفةً تبلغ بهم الحال إلى أن يفزعوا إلى الله عند حدوث أقل مشكلة لهم، وتنكشف الحُجب عن فطرتهم التوحيدية، ولكن إذا رأوا نعمة ولو بأقل ما يتصوّر، فإنّهم يغفلون عن واقعهم كليّاً، وينسون كل شيء!

وبالطبع ففي الحالة الأُولى يبيّن القرآن أنّ الناس يفزعون جميعاً إلى الله عند الضر والشدائد، لأنّ فطرة التوحيد موجودة في الجميع.

ولكن في الحالة الثّانية يتحدث القرآن عن جماعة تسلك طريق الشرك فحسب، لأنّ طائفة من عباد الله يذكرون الله في الشدائد وفي الرخاء وفي السراء والضراء. فلا تُنسيهم المتغيّرات ذكر الله أبداً.

والتعبير بـ ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ - كما رأينا في مفهوم الإنابة سابقاً - من مادة «النوب» وتعني العودة ثانيةً إلى الشيء، هذا التعبير إشارة لطيفة للمعنى التالي، وهو أنّ الأساس في الفطرة هو توحيد الله وعبادته، والشرك أمر عارض، حيث متى ما يئسوا منه فهم يعودون نحو الإيمان والتوحيد، شاؤوا أم أبوا!.

والطريف هنا أنّ «الرحمة» في الآية مسندة إلى «الله»، فهو سبحانه مصدر الرحمة للعباد، سواء بطريق مباشر أو غير مباشر إلاّ أنّ الضرّ لم يسند إليه سبحانه، لأنّ كثيراً من الابتلاءات والمشاكل التي تحوطنا هي من نتائج أعمالنا وذنوبنا.

وكلمة «ربّهم» التي تكررت في الآية تكررت في الآية مرّتين، تؤكّد على أنّ الإنسان يحسّ بالتدبير الإلهي وربوبية الله على وجوده ما لم تؤثر عليه التعليمات الخاطئة فتسوقه نحو الشرك والضلال.

وينبغي ذكر هذه المسألة الدقيقة، وهي أنّ الضمير في كلمة «منه» يعود إلى الله، وهذا تأكيد على أنّ جميع النعم من الله سبحانه. وقد اختار كثير من المفسّرين هذا المعنى أمثال «الطباطبائي» في الميزان، و«الطوسي» في التبيان، و«أبو الفتوح الرازي» في تفسيره وغيرهم، وإن ذهب غيرهم كالفخر الرازي إلى أنّ الضمير في كلمة «منه» يعود على الضرّ، وفسّروا الآية هكذا «حين يذيق الله عباده بعد الضرّ رحمة. إذا فريق منهم

يشركون بالله». (فيكون معنى «من» هنا البدلية). إلاّ أنّه من الواضح أنّ التّفسير الأوّل أكثر انسجاماً مع ظاهر الآية!

أمّا الآية الأُخرى فجاءت بعنوان التهديد لأُولئك المشركين، الذين ينسون ربّهم عند نيل النعم، إذ تقول: اتركهم ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ وليفعلوا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً! ثمّ يخاطب المشركين بأن يتمتعوا بهذه النعم والمواهب الدنيوية الفانية. وسوف يرون العاقبة السيئة لذلك: ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾(١).

وبالرغم من أنّ المخاطبين بالآية هم المشركون، إلاّ أنّه لا يَبعُد أن يكون لها مفهوم واسع بحيث يشمل جميع الذين ينسون الله عند إقبال النعم، وينشغلون بالتمتع بهذه النعم فحسب، دون أن يذكروا واهب النعم.

وبديهيّ أن صيغة الأمر استعملت هنا للتهديد!.

والقرآن في الآية الأُخرى يصوغ الكلام في صيغة الاستفهام المقرون بالتوبيخ فيقول: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾.

«أم» هنا للاستفهام، ويحمل الاستفهام هنا غرضاً استنكارياً وتوبيخاً... أي إن سلوك هذا الطريق والخطة يجب أن يكون إمّا لنداء الفطرة، أو بحكم العقل، أو بأمر الله، لكن حين يصرخ الوجدان والفطرة في الشدائد والملمات بالتوحيد... فإن العقل يقول أيضاً: ينبغي التوجه نحو واهب النعم.

يبقى أن حكمَ الله في هذه الآية هو في مورد النفي، أي: لم يؤمروا من قِبل الله بمثل هذا الأمر، فعلى هذا فإن هؤلاء في اعتقادهم هذا لم يستندوا إلى أي أصل مقبول!.

و«السلطان» معناه ما يدل على السلطة وينتهي إلى الانتصار عادةً، ومعناه هنا هو الدليل المحكم المقنع.

والتعبير بـ«يتكلم» هو نوع من التعبير المجازي، إذ ترانا نعبر عند وضوح الدليل قائلين «كأن هذا الدليل يتكلم مع الإنسان»!

---

(١) إنّ «اللام» في جملة ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ هي لام الأمر، وهذا الأمر للتهديد، وكذلك جملة «تمتعوا» إذ هي للتهديد أيضاً. وإن كانت الأُولى جاءت بصيغة «الغائب» والثّانية بصيغة «الخطاب»... فكأنّما افترض في الحالة الأُولى أنّهم غيّاب ثمّ من أجل التشدّد بالتهديد جعلهم مواجهين للتهديد والخطاب، إلاّ أنّ بعض المفسّرين عدّوا «اللام» للعاقبة، أي كان عاقبة أمرهم الكفر بنعم الله، إلاّ أن المعنى الأوّل أكثر انسجاماً مع ظاهر الآية.

واحتمل بعض المفسّرين أنّ المراد بالسلطان هنا هو أحد الملائكة المقتدرين، فيكون استعمال «يتكلم» هنا على نحو الحقيقة، أي لم نرسل عليهم ملكاً يتكلم بالشرك فيتبعوه!.

إلاّ أنّ التّفسير الأوّل أوضح كما يبدو!

أمّا آخر آية من الآيات محل البحث، فهي ترسم طريقة تفكير وروحية هؤلاء الجهلة الأغبياء الذين يقنطون ويحزنون لأقل مصيبة، فتقول: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾.

في حين أنّ المؤمنين الصادقين هم الذين لا يغفلون عن ذكر الله عند النعم، ولا يقنطون عند الشدائد والمصيبة، إذ هم يشكرون الله على نعمه، ويرون المصيبة امتحاناً واختباراً، أو يعدونها نتيجة أعمالهم، فيصبرون ويتّجهون إلى الله تعالى.

فالمشركون يعيشون دائماً بين «الغرور» و«اليأس»، أمّا المؤمنون فهم بين «الشكر» و«الصبر».

ويستفاد ضمناً من هذه الآية بصورة جيدة أنّ قسماً من المصائب والابتلاءات التي تحل بالإنسان هي - على الأقل - نتيجة أعماله وذنوبه، فالله يريد أن ينبههم ويطهرهم ويلفتهم إليه.

و ينبغي الالتفات الى أنّ جملة ﴿فَرِحُواْ بِهَاۖ﴾ ليس المراد منها هنا السرور بالنعمة فحسب، بل السرور المقرون بالغرور ونوع من السكر والنشوة، وهي الحالة التي يكون عليها الأراذل عندما تتهيأ لهم وسائل العيش والحياة، وإلاّ فإنّ السرور المقرون بالشكر والتوجه نحو الله ليس أمراً سيئاً، بل هو مأمور به ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾(١).

والتعبير ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ الذي ينسب المعاصي إلى الأيدي، هو لأنّ أكثر الذنوب والأعمال يكون على يد الإنسان، وإن كانت هناك ذنوب يكتسبها القلب أو البصر أو السمع، إلاّ أنّ كثرة الأعمال التي تصدر عن اليد استدعى هذا التعبير.

وهنا ينقدح هذا السؤال، وهو: ألا تخالف هذه الآية، الآية الثّالثة والثلاثين «ما قبل آيتين» لأنّ الكلام في هذه الآية عن يأسهم عند المصائب، في حين أنّ الآية السابقة

(١) سورة يونس، الآية: ٥٨.

ىدث عن توجههم إلى الله عند بروز المشاكل والشدائد، والخلاصة، إن واحدة
يتين تتحدث عن «الرجاء» والأُخرى عن «اليأس»؟
لكن مع الالتفات إلى مسألة دقيقة يتّضح جواب هذا السؤال، وذلك أنّ ال
تقدمة كان الكلام فيها عن «الضر» أي الحوادث الضارة كالطوفان والزلزلة والشد
خرى التي تصيب عامة الناس «الموحدين منهم والمشركين»، فيتذكرون الله في
ال، وهذا واحد من دلائل الفطرة على التوحيد.
أمّا في الآية محل البحث فالكلام على نتائج المعاصي واليأس الناشىء منها،
س الأفراد إذا عملوا صالحاً أصبحوا مغرورين وحسبوا أنفسهم مصونين من عذ
، وحين يعملون السيئات وتحلّ بهم العقوبة فيغم وجودَهم اليأسُ من رحمة ا
تا الحالين «العُجب والغرور» و«اليأس والقنوط من رحمة الله» مذمُومتان!
فعلى هذا تكون كلّ آية من الآيتين قد تناولت موضوعاً منفصلاً عن الآخر.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾

التّفسير

الآية الأُولى من الآيات محل البحث - تتحدث عن التوحيد والربوبيّة أيض
سجاماً مع سياق الآيات السابقة التي كانت تتحدث عن غرور بعض الناس الماد
. إقبال النعمة عليهم، ويأسهم وقنوطهم عند مواجهتهم الشدائد والبلاء، فإنّها تقو
لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾.
فلا ينبغي أن يكون إقبال النعم مدعاةً للغرور ونسيان الله والطغيان، ولا إدبارها

لليأس والقنوط، لأنّ سعة الرزق وضيقه بيد الله، فتارة يرى المصلحة للعبد في الحالة الأُولى «سعة الرزق»، وتارةً يراها في الثّانية، أي «الضيق».

وصحيح أنّ العالَم هو عالم الأسباب، فمن جَدّ وجد، ومن سعى قاوم الصعاب ينلْ فائدة أكثر ويربح عادةً، وأمّا أُولئك الكسالى فلا ينالون إلاّ قليلاً... لكن هذه القاعدة في الوقت ذاته ليست دائمية ولا كلية، إذ يتفق أن نرى أناساً جديرين وجادّين يركضون من هنا وهناك، إلاّ أنّهم لا يصلون إلى نتيجة يبلغون هدفهم، وعلى العكس منهم قد نشاهد أناساً لا يسعون ولا يجدّون وتتفتح عليهم أبواب الرزق من كل حدب وصوب.

وهذه الاستثناءات كأنّها لبيان أنّ الله بالرغم من جميع ما جَعَل للأسباب من تأثير، لا ينبغي أن يُنسى في عالم الأسباب، ولا ينبغي للإنسان أن يغفل أن وراء هذا العالم يداً قوية أُخرى تديره كيف شاءت!

فأحياناً - ووفق مشيئته - توصد جميع الأبواب بوجه الإنسان مهما سعى وجدّ في الأمر، وقد يرحم الإنسان وييسّر له الأُمور إلى درجة أنه ما أن يخطو خطوة... وإذا الأبواب متفتحة أمامه!

فما نرى في حياتنا من هذه المفارقات، بالإضافة إلى أنّه يحدّ من الغرور المتولد من وفور النعمة، واليأس الناشىء من الفقر، فهو في الوقت ذاته دليل على أن وراء إرادتنا ومشيئتنا يداً قوية أُخرى «تسيّر أعمالنا».

لذلك يقول القرآن في نهاية الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وينقل بعض المفسّرين كلاماً بهذا المضمون وهو: سئل أحد العلماء: ما الدليل على أنّ للعالم صانعاً واحداً؟

فقال هناك ثلاثة أدلة: «ذل اللبيب، وفقر الأديب، وسقم الطبيب»(١).

أجل إنّ وجود هذه المستثنيات والمفارقات دليل على أنّ الأُمور بيد قادر آخر، كما ورد في كلام الإمام علي عليه السلام أيضاً «عرفت الله سبحانه بفسخ العزائم، وحلّ العقود، ونقض الهمم»(٢).

وحيث إنّ كل نعمة وموهبة ينالها الإنسان تحمّله وظائف ومسؤوليّات وعليه أداؤها،

---

(١) تفسير روح البيان، ج ٧، ص ٣٩، ذيل الآية محل البحث.

(٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار الكلمة ٢٥٠.

فإنّ القرآن يوجه الخطاب للنّبي ﷺ في الآية التالية قائلاً: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

وينبغي أن لا تتصور عند سعة الرزق أن ما عندك هو لك فقط، بل إنّ للآخرين في مالك حقّاً أيضاً، ومن هؤلاء الأقارب والمساكين الذين باتوا متربين لشدّة الفقر، وكذلك الأعزة الذين ابتعدوا عن الوطن وانقطع بهم الطريق نتيجة حوادث معينة وهم محتاجون!...

والتعبير بـ «حقّه» كاشف عن أنّهم شركاء في أموال الإنسان، وإذا دفع المرء شيئاً من ماله إليهم فإنّما يؤدّي حقّهم، وليس له منٌّ عليهم!.

وهناك جماعة من المفسّرين يرون أنّ المخاطب في هذه الآية هو النّبي ﷺ فحسب، وأنّ «ذا القربى» أرحامه، وقد ورد في رواية عن أبي سعيد الخدري وغيره ما يلي: «لما نزلت هذه الآية على النّبي أعطى فاطمة فدكاً وسلّمها إليها»[1].

وبالمضمون نفسه نقل عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام أيضاً[2].

وقد ورد المعنى نفسه مفصلاً في احتجاج فاطمة الزهراء عليها السلام على أبي بكر في قضية فدك، وذلك في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام [3].

غير أنّ جماعة من المفسّرين قالوا: إنّ الخطاب في هذه الآية عام، وهو يشمل النّبي ﷺ وغيره، وطبقاً لهذا التّفسير فإنّ جميع الناس عليهم أن لا ينسوا حق ذوي القربى أيضاً.

وبالطبع فإنّه لا منافاة في الجمع بين التّفسيرين، وعلى هذا فإنّ مفهوم الآية مفهوم واسع، والنّبي ﷺ وقرباه وخاصة فاطمة الزهراء عليها السلام هم المصداق الأتم لهذه الآية.

ومن هنا يتّضح أن لا منافاة لأي من التفاسير الآنفة مع كون السورة مكّية، لأنّ مفهوم الآية مفهوم جامع ينبغي العمل به في مكّة وفي المدينة أيضاً، وحتى خبر إعطاء «فدك» لفاطمة عليها السلام على أساس هذه الآية مقبول جدّاً.

الشيء الوحيد الذي يبقى هنا، هو جملة «لما نزلت هذه الآية....» في رواية أبي

(١-٣) تفسير مجمع البيان، ج٨، ص٣٠٦، ذيل الآية مورد البحث.

(٣) تفسير علي بن إبراهيم، طبقاً لنقل نور الثقلين عنه، ج٤، ص ١٨٦.

سعيد الخدري، إذ إنّ ظاهرها أن إعطاء فدك كان بعد نزول الآية، ولكن لو أخذنا كلمة «لما» به معنى العلة، لا بمعنى الزمان الخاص، ينحل هذا الإشكال، ويكون مفهوم الآية أنّ الرّسول ﷺ أعطى فاطمة فدكاً لأمر الله إيّاه، أضف إلى ذلك فإنّ بعض آيات القرآن يتكرر نزولها!.

ولكن لِمَ ذكر هؤلاء الثلاثة من بين جميع المحتاجين وأصحاب الحق؟

لعل ذلك لأهميّتهم، لأنّ حق ذي القربى أهم وأعلى من أي حق سواه، ومن بين المحرومين والمحتاجين فإنّ المساكين وأبناء السبيل أحوج من الجميع!.

أو أنّ ذلك لما أورده «الفخر الرازي» هنا إذ يقول: «في تخصص الأقسام الثلاثة بالذكر دون غيرهم، مع أنّ الله ذكر الأصناف الثمانية في الصدقات، فنقول: أراد هاهنا بيان من يجب الإحسان إليه على كل من له مال، سواء كان زكوياً أم لم يكن، وسواءً كان بعد الحول أو قبله، لأنّ المقصود هاهنا الشفقة العامة، وهؤلاء الثلاثة يجب الإحسان إليهم وإن لم يكن للمحسن مال زائد، أمّا القريب فتجب نفقته وإن كان لم تجب عليه زكاة كمال القاصرين أو مال لم يحل عليه الحول، والمسكين كذلك فإنّ من لا شيء له إذا بقي في ورطة الحاجة حتى بلغ الشدة، يجب على من له مقدرة دفع حاجته وإن لم يكن عليه زكاة، وكذلك من انقطع في مفازة ومع آخر دابةٌ يمكنُه بها إيصاله إلى مأمن، يلزمه ذلك، وإن لم تكن عليه زكاة، والفقير داخل في المسكين، لأنّ من أوصى للمساكين شيئاً يصرف إلى الفقراء أيضاً «فما ذكرته الآية من ترتيب لهؤلاء إنّما يناسب شأنهم»[1].

وعلى كل حال فإنّ القرآن يبيّن في نهاية الآية ترغيباً للمحسنين، وشَرَطَ القبول ضمناً، فيقول: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

أُولئك المفلحون في هذه الدنيا، لأنّ الإنفاق يجلب معه البركات العجيبة، وفي الآخرة أيضاً، لأنّ الإنفاق هو أكثر الأعمال ثقلاً في ميزان الله يوم القيامة.

ومع الالتفات إلى أن المراد من ﴿وَجْهُ اللَّهِ﴾ ليس هو المحيّا الجسماني، إذ ليس له تعالى وجه جسماني، بل هو بمعنى ذاته المقدّسة، فإنّ هذه الآية تشير إلى أنّ الإنفاق وإيتاء حق الأقارب وأصحاب الحق الآخرين ليس كافياً، بل المهم هو الإخلاص والنية الطاهرة والخالية من أي أنواع الرياء والمنة والتحقير وانتظار الأجر والثواب.

---

(١) ذيل الآيات محل البحث «الفخر الرازي».

وخلافاً لما ذهب إليه بعض المفسّرين، من أنّ الإنفاق لغرض الوصول إلى الجنّة ليس مصداقاً لوجه الله، فإن جميع الأعمال التي يؤدّيها الإنسان وفيها نوع من الارتباط بالله، سواء كانت لمرضاته أو ابتغاء ثوابه أو للنجاة من جزائه، فكلها مصداق لوجه الله، وإن كانت المرحلة العليا والكاملة من ذلك أن لا يبتغي الإنسان من وراء عمله إلاّ الطاعة والعبودية المحضة!.

وتشير الآية التالية - بمناسبة البحث المتقدم عن الإنفاق الخالص - إلى نوعين من الإنفاق: أحدهما لله، والآخر يراد منه الوصول إلى مال الدنيا، فتقول: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾.

مفهوم الجملة «الثّانية» وهي إعطاء الزكاة والإنفاق لوجه الله والثواب واضح، إلاّ أنّ الجملة الأُولى ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ مختلَف في تفسيرها مع الالتفات إلى أنّ «الربا» معناه في الأصل «الزيادة».

فالتّفسير الأوّل، وهو أوضح من جميع التفاسير، ومنسجم مع مفهوم الآية أكثر، ومتناسق مع الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، أنّ المراد من الربا هو الهدايا التي يقدمها بعض الأفراد للآخرين، ولا سيما إلى أصحاب الثروة والمال، كي ينالوا منهم أجراً أحسن وأكثر!

وبديهي أنّه في مثل هذه الهدايا لايؤخذ بنظر الاعتبار استحقاق الطرف الآخر ولا الجدارة والأولوية، بل كل ما يهدف إليه أن تصل الهدية إلى مكان، تعود على مُهديها بمبلغ أوفر ومن الطبيعي أنّ مثل هذه الهدايا ليس فيها «جنبة» إخلاص، فلا قيمة لها من الجهة الأخلاقية، والمعنوية!.

فعلى هذا يكون معنى «الربا» في هذهِ الآية هو «الهدية والعطية» والمراد من جملة ﴿لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ هو أخذ الأجر الوافر من الناس!

ولا شك أنّ أخذ مثل هذه الأجرة ليس حراماً، إذ ليس فيه شرط أو قرار، إلاّ أنّه فاقد للقيمة الأخلاقية والمعنوية... ولذلك فقد ورد التعبير عن هذا الربا - في روايات متعددة عن الإمام الصادق عليه السلام في مصادر معروفة، بـ«الربا الحلال» في قِبالِ «الربا الحرام» الذي يستلزم الشرط والعقد أو الاتفاق.

ونقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام في كتاب تهذيب الأحكام، في تفسير

الآية هو قوله عليه السلام: «هو هديتك إلى الرجل تطلب منه الثواب أفضل منهما، فذلك ربا يؤكل»!

كما نقرأ حديثاً آخر عنه عليه السلام «الربا رباءان، أحدهما حلال والآخر حرام، فأمّا الحلال فهو أن يقرض الرجل أخاه قرضاً يريد أن يزيده ويعوضه بأكثر ممّا يأخذه بلا شرط بينهما، فإن أعطاه أكثر ممّا أخذه على غير شرط بينهما فهو مباح له، وليس له عند الله ثواب فيما أقرضه، وهو قوله: ﴿فَلَا يَرْبُوا عِندَ اللَّهِ﴾ وأمّا الحرام فالرجل يقرض قرضاً ويشترط أن يردّ أكثر ممّا أخذه فهذا هو الحرام»(١).

وهناك تفسير آخر لهذه الآية، وهو أنّ المراد من الربا في هذه الآية هو الربا الحرام، وطبقاً لهذا التّفسير فإنّ القرآن يريد أن يقيس الربا بالإنفاق الخالص لوجه الله، ويبين أنّ الربا وإن كان ظاهره زيادة المال، إلاّ أنّه ليس زيادةً عند الله، فالزيادة الحقيقية والواقعية هي الإنفاق في سبيل الله.

وعلى هذا الأساس فقد عدّوا الآية مقدمة لمسألة «تحريم الربا» التي ذكرها القرآن في بداية الأمر وقبل الهجرة على سبيل الإرشاد الأخلاقي والنصح، ولكن تمّ تحريم الربا بعد الهجرة في ثلاث سور «البقرة وآل عمران والنساء» بصورة تدريجية «وكانت لنا إشارة أيضاً في الجزء الثّاني من التّفسير الأمثل على هذا الأساس».

وبالطبع ليس بين المعنيين أيُّ تضاد، ويمكن أن تؤخذ الآية بمعناها الواسع الذي يجمع «الربا الحلال» و«الربا الحرام» ويقاس كلاهما بالإنفاق في سبيل الله، إلاّ أنّ تعبيرات الآية أكثر انسجاماً مع التّفسير الأول، لأنّ الظاهر من الآية هنا أنّ عملاً قد صدر ليس فيه ثواب، وهو مباح، لأنّ الآية تقول: إنّ هذا العمل لا يربو عند الله، وهذا يتناسب مع الربا الحلال الذي ليس فيه وزر ولا ثواب، وليس شيئاً يستوجب مَقْتَ الله وغضبَهُ... وقد قلنا: إنّ الروايات الإسلامية ناظرة إلى هذا المعنى.

وينبغي الإشارة إلى هذه اللطيفة اللغوية، وهي أنّ كلمة «مضعفون» التي هي صيغة لاسم الفاعل، لا تعني أنّهم يزيدون ويُضعفون بأنفسهم للمال، بل معناها أنّهم أصحاب الثواب المضاعف، لأنّ اسم الفاعل قد يأتي في لغة العرب ويراد منه اسم المفعول، مثل «الموسِر» أي: صاحب المال الكثير.

وينبغي أيضاً أن يُعرف بالنظرة البعيدة أنّ المراد من الضعف والمضاعف ليس معناه

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٨٩ و ١٩١.

«مثل الشيء مرّتين» بل يشمل المثل مرتين ويشمل أمثال الشيء، والحدّ الأقل في الآية هنا عشرة أمثال، لأنّ القرآن يقول: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[1].

وتبلغ الزيادة أحياناً كما في القرض إلى ثمانية عشر كما نقرأ في هذا حديثاً للإمام الصادق عليه السلام يقول فيه: «على باب الجنّة مكتوب: القرض بثمانية عشر والصدقة بعشر»[2].

وقد تبلغ الزيادة إلى سبعمائة «ضعف» كما هو في شأن الإنفاق في سبيل الله، إذ تقول الآية: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾[3].

وفي الآية الأخيرة - من الآيات محل البحث - عودة أُخرى إلى مسألة المبدأ والمعاد، وهي الموضوع الأساس الذي ورد في كثير من آيات هذه السورة... وتصف الآية «الله» بأربعة أوصاف لتكون إشارة للتوحيد ومواجهة الشرك، ودليلاً على المعاد أيضاً فتقول: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ومن المسلّم به أنّ المشركين لم يكن أيّ منهم يعتقد بأنّ الخلق كان من قِبل الأوثان، أو أنّ أرزاقهم بيد الأوثان والأصنام، أو أنّ نهاية حياتهم بأيدي هذه الأوثان كذلك!! بل لأنّهم جعلوا هذه الأوثان المصنوعة واسعة وشفعاء بينهم وبين الله، فعلى هذا يكون الجواب على هذه الأسئلة هو النفي، والاستفهام هنا استفهام إنكاري!.

الموضوع الآخر الذي يثير السؤال هنا هو أنّ أُولئك المشركين لم يكونوا يعتقدون بالحياة بعد الموت، فكيف يستند القرآن في آخر وصف لله تعالى إلى ذلك؟!

لعل هذا التعبير هو لأنّ مسألة المعاد والحياة بعد الموت - كما ذكرناها في بحوثنا المتقدمة - لها «جنبة» فطريّة، والقرآن هنا لا يستند إلى معتقداتهم، بل إلى فطرتهم.

إضافة إلى ذلك فقد يتفق أنّ متكلّماً ذلقاً حين يواجه شخصاً آخر يُنكر موضوعاً ما، فيستدرجه بما لديه من حقائق يتقبلها ذلك الآخر ويستند إليها بشكل قطعي ليظهر أثرها، وينزل صاحبه من مركب الإنكار.

ثمّ بعد هذا كله فإن بين الحياة الأُولى من قبل الله وقدرته على ذلك، والحياة بعد

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٩٠.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.

الموت رابطة لا تقبل الانفصام، ومع ملاحظة هذه الرابطة المنطقية فإنّ «كلا الأمرين» جاءا في عبارة واحدة.

وعلى كل حال فإنّ القرآن يقول: عندما يكون الخلق والرزق والموت والحياة بيد الله، فالعبادة ينبغي أن تكون له فقط، ويكشف هذه الحقيقة بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهي أنّ المشركين أهانوا كثيراً مقام رب العزة إذ أشركوه في العبادة مع أوثانهم.

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

التّفسير

أساس الفساد ومصدره أعمال الناس أنفسهم

كان الكلام في الآيات السابقة عن الشرك، ونعلم أنّ أساس جميع المفاسد هو الغفلة عن أصل التوحيد والتوجه نحو الشرك، لذلك فإنّ القرآن - في هذه الآيات محل البحث - يتحدث عن ظهور الفساد في الأرض بسبب أعمال الناس أنفسهم، فيقول: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾.

والله يريد أن يريهم ما قدموه و﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

والآية الآنفة الذكر تبيّن المعنى الواسع حول ارتباط الفساد بالذنب، الذي لا يختصّ بأرض «مكّة» والحجاز، ولا بعصر النّبي ﷺ، بل هو من قبيل القضية الحقيقية التي تبيّن العلاقة بين الموضوع والمحمول!

وبعبارة أُخرى: حيثما ظهر الفساد فهو انعكاس لأعمال الناس وفيه - ضمناً - هدف تربوي، ليذوق الناس «طعم العلقم» نتيجة أعمالهم، لعلهم ينتهون ويثوبون إلى رشدهم!

ويقول بعضهم: إنّ هذه الآية ناظرة إلى القحط و«الجدب» الذي أصاب المشركين بسبب دعاء النّبي ﷺ على مشركي مكّة!... فانقطعت المُزن ويبست الصحاري، وصار من الصعب عليهم الصيد من البحر الأحمر أيضاً.

وعلى فرض أن يكون هذا الكلام صحيحاً تاريخياً، إلاّ أنّه بيان لأحد المصاديق ولا يحدد معنى الآية في مسألة ارتباط الفساد بالذنب، فهي ليست محدّدة بذلك الزمان والمكان، ولا بالجدب وانقطاع «الغيث».

وممّا ذكرناه آنفاً يتّضح جيداً أنّ كثيراً من التّفاسير المحدودة والضيقة التي نقلها بعض المفسّرين في ذيل الآية غير مقبولة بأي وجه.

كما فسّروا الفساد في الأرض بأنّه قتل «هابيل» على يد «قابيل»، أو أنّ المراد بالفساد في البحر هو غصب السفن في عصر موسى، والخضر عليهما السلام.

أو أنّ المراد من الفساد في البر والبحر هو ظهور الحكّام المتسلطين الفاسدين الذين يشيعون الفساد في جميع هذه المناطق!.

وبالطبع فإنّ الممكن أن تكون مصاديق الآية مثل هؤلاء الأفراد الذين يتسلطون على الناس نتيجة الدنيا والمجاملة وجرّ الناس للذل، ولكن من المسلّم به أنّ هذا المصداق لا يعني تخصيص مفهوم الآية!.

كما أنّ جماعة من المفسّرين بحثوا في معنى الفساد في البحر أيضاً، فقال بعضهم: المراد بالبحر هو المدن التي إلى جانب البحر، وقال بعضهم: إنّ المراد بالبحر هو «المناطق المخصبة ذات البساتين والأثمار».

ولا نجد دليلاً على هذه التمحّلات، لأنّ البحر معناه معروف، والفساد فيه لعله قلّة المواهب البحرية، أو عدم الأمن فيه، أو الحروب البحرية.

ونقرأ حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام في هذا الصدد «حياة دواب البحر بالمطر، فإذا كفّ المطر ظهر الفساد في البحر والبرّ، وذلك إذا كثرت الذنوب والمعاصي»(١).

وبالطبع فإنّ ما ورد في هذه الرواية هو مصداق واضح للفساد وما ورد في شأن نزول المطر «وحياة دواب البحر به» فهو موضوع دقيق، تؤكّد عليه التجربة، فكلما قلّ ماء

---

(١) تفسير القمي: طبقاً لنقل تفسير الميزان، ج ١٦، ص ٢١٠. تفسير علي بن إبراهيم، طبقاً لنقل تفسير مجمع البيان، ج٤، ص١٩٠.

السماء «المطر» قل السمك في البحر، حتى أنّنا سمعنا ممن يقطنون ساحل البحر يقولون: إن فائدة الغيث للبحر أكثر من فائدته للصحراء!.

وفي الآية التالية يأمر الله الناس بالسير في الأرض ليروا شواهد كثيرة «حيّة» من مسألة ظهور الفساد في الأرض بسبب المعاصي والذنوب من قبل الناس. ويوصي نبيّه ﷺ أن يأمرهم بذلك، فيقول: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾.

انظروا قصور «الظالمين» المتهدمة، وأبراجها المتداعية والخزائن المطموسة، وجماعاتهم المتفرقة، ثمّ انظروا إلى قبورهم المدروسة وعظامهم النخرة!

وانظروا عاقبة أمر الظلم والشرك وما آلا إليه.

أجل ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾.

والشرك أساس الفساد والانحراف والضلال!

ممّا يستلفت الانتباه، أنّه حين كان الكلام في الآيات السابقة عن نعم الله، كانت بدايته حول خلق الإنسان ثمّ رزقه من قبل الله ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ إلاّ أن الكلام في الآيات محل البحث التي تتحدث عن العقاب يبدأ الكلام فيها أوّلاً بالإشارة إلى زوال النعم على أثر المعاصي والذنوب، ثمّ الهلاك على أثر الشرك، لأنّه عند الهبة والعطاء «أوّل الأمر يذكر الخلق ثمّ الرزق».. وعند الاسترجاع، «فأوّل الأمر زوال النعمة ثمّ الهلاك».

والتعبير بـ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ مع الالتفات إلى أنّ هذه السورة مكّية وكان المسلمون في ذلك الوقت قلّة، فلعل ذلك إشارة إلى أن لا تخافوا من كثرة المشركين، لأنّ الله أهلك من قبلهم من هو أشدّ منهم، وأكثر جمعاً، وهو في الوقت ذاته إنذار للطغاة ليسيروا في الأرض فينظروا بأم أعينهم عاقبة الظالمين من قبلهم!.

وحيث إنّ التصور والوعي والانتباه، ثمّ العودة والإنابة إلى الله، كل ذلك لا يكون - دائماً - مفيداً ومؤثراً، ففي الآية التالية يوجه القرآن الخطاب للنبيّ الأكرم ﷺ قائلاً: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾(١) أي يتفرقون «فريق في الجنّة وفريق في السعير».

---

(١) كلمة «مردّ» في جملة «لا مرد له من الله» مصدر ميمي وهو هنا بمعنى اسم الفاعل فيكون معنى الجملة: لا رادّ له من الله. والضمير في «له» يعود إلى «يوم» ويكون المفهوم العام للجملة. لا يستطيع أي كان أن يعيد ذلك اليوم من الله، أي يقف بوجه القضاء والمحاكمة بتأخير ذلك اليوم و«تعطيله». =

ووصف الدين بأنه «قيّم» مع ملاحظة أن «القيّم معناه الثابت والقائم» هو إشارة إلى أنّ هذا التوجه المستمر «أو الإقامة» هي للدين. . أي لأنّ الإسلام دين ثابت ومستقيم وذو نظام قائم في الحياة المادية والمعنوية للناس، فلا تمل عنه أبداً، بل أقم وجهك للدين القيم!

وإنّما وجه الخطاب للنبيّ ﷺ ليعرف الآخرون واجبهم ووظيفتهم أيضاً.

والتعبير بـ «يصدعون» من مادة «صدع» معناه في الأصل: كسر الإناء، ثمّ انتقل بالتدريج إلى أي نوع من أنواع التفرق والتشتت. وهنا إشارة إلى انفصال صفوف أهل الجنان عن صفوف أهل النيران، وكل من هذه الصفوف يتفرق إلى عدة صفوف، وذلك لسلسلة المراتب في الجنان، ودركات النيران «والعياذ بالله».

والآية التالية - بيان لهذا الانفصال في يوم القيامة، إذ تقول: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾.

كلمة «يمهدون» مشتقّة من «المهد» على زنة «عهد» وكما يقول الراغب في مفرداته فإنّ معناه السرير المعدّ للطفل، ثمّ توسعوا في المعنى فصار المهد والمهاد لكل مكان مهيأ ومعد «وفيه منتهى الدعة والراحة» وقد انتخب هذا التعبير لأهل الجنّة والمؤمنين الصالحين، من هذه الجهة.

والخلاصة: لا تحسبوا أنّ إيمانكم وكفركم وأعمالكم الصالحة والطالحة لها أثر على الله، بل أنتم الذين تفرحون بها أو تساؤون ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾.

ومن الطريف أنّ القرآن اكتفى في شأن الكفّار بالتعبير بـ ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ ولكن بالنسبة للمؤمنين تضيف الآية التالية: أنّ المؤمنين لا يرون أعمالهم فحسب، بل يوليهم الله من مواهبه وفضله فيقول: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾.

ومن المسلّم به أنّ هذا الفضل لا يشمل الكفّار إذ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. . . ولا شك أنّ الله يعاملهم وفق عدالته، ويجزيهم ما يستحقون، لا أكثر، لكن لا ينالهم منه فضل وموهبة أيضاً.

= والخلاصة: إنّه لا يخلف الله وعده ليعيد ذلك اليوم، وليس لأحد سواه القدرة على ذلك؛ فوقوع ذلك اليوم لابدّ منه وهو يوم محتوم» (فلاحظوا بدقة).

بحوث

١ - العلاقة بين الذنب والفساد

ممّا لا شك فيه أنّ كل ذنب يترك أثره في المجتمع، كما يترك أثره في الأفراد عن طريق المجتمع أيضاً... ويسبب نوعاً من الفساد في التنظيم الاجتماعي، فالذنب والعمل القبيح، وتجاوز القانون، مثلها كمثل الغذاء السيّىء والمسموم، إذ يترك أثره غير المطلوب والسيّىء في البدن شئنا أم أبينا، ويقع الإنسان فريسة للآثار الوضعية لذلك الغذاء المسموم.

«الكذب» يسلب الاعتماد. و«خيانة الأمانة» تحطّم الروابط الاجتماعية.

و«الظلم» يسبب إيذاء الآخرين وظلمهم.

والإفراط في الحرية يجرّ إلى الديكتاتورية، والديكتاتورية تجر إلى الانفجار.

و«ترك حقوق المحرومين» يورث العداوة والحقد والبغضاء، و«تراكم الأحقاد والعداوات» يزلزل أساس المجتمع!.

والخلاصة، أنّ كلّ عمل غير صحيح له أثره السيّىء سواء كان ذلك في دائرة محدودة أم واسعة، وأحد تفاسير الآية ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ هو هذا (وهذا يبيّن العلاقة الطبيعية بين الذنب والفساد - «هنا»).

إلاّ أنّه يستفاد من الروايات الإسلامية أنّ كثيراً من الذنوب - إضافة لما ذكرنا - تجلب معها سلسلة من الآثار السيئة، وعلاقتها وارتباطها مع تلك الآثار - من الناحية الطبيعية على الأقل - غير معروفة.

فمثلاً ورد في الرّوايات الإسلامية أن قطع الرحم يقصر العمر، وأن أكل المال الحرام يورث ظلمة القلب، وأنّ كثرة الزنا يورث فناء الناس ويقلل الرزق[1].

حتى أنّنا لنقرأ حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام يقول فيه: «من يموت بالذنوب أكثر ممن يموت بالآجال»[2].

---

(١) في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «للزنا عقوبات ثلاث منها في الدنيا وثلاث في الآخرة، فأمّا العقوبات في الدنيا فإنه يسلب النور من الإنسان، ويبتله بموت الفجأة، ويقطع الرزق. وأمّا التي في الآخرة فهو على سوء الحساب وغضب الله والخلود في نار جهنم» (سفينة البحار - مادة زنى).

(٢) سفينة البحار (مادة ذنب).

وقد ورد في القرآن نظير هذا المعنى في تعبير آخر، حيث يقول القرآن: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾(١).

إذن فالفساد - في الآية محل البحث - هو الفساد الأعمّ «الذي يشمل المفاسد الاجتماعية، والبلايا، وسلب النعم والبركات».

وممّا يستلفت الانتباه أن الآية المتقدمة يستفاد منها ضمناً أن واحداً من حكم الآفات والبلايا تأثيرها التربوي على الناس، إذ عليهم أن يروا ردّ الفعل الناتج من أعمالهم.. ليفيقوا من نومهم وغفلتهم، ويعودوا إلى الطهارة والتقوى!

ولا نقول: إنّ جميع الشرور والآفات هي من هذا القبيل، ولكننا نقول: إنّ قسماً منها - على الأقل - فيه هذه الحكمة والغاية وبالطبع فإنّ له حكمة أُخرى بحثناها في محلها.

٢ - فلسفة السير في الأرض

لقد وردت مسألة «السير في الأرض» ست مرّات في القرآن المجيد، (في سور آل عمران والأنعام والنحل والنمل والعنكبوت والروم) حيث وردت مرّة بقصد التفكر في أسرار الخلق (سورة العنكبوت الآية ٢٠) وخمس مرات بقصد العبرة من العواقب الوخيمة التي نالها الظالمون والجبابرة والطغاة الآثمون!

والقرآن يهتمّ بالمسائل العينية والحسية - التي يمكن لمس آثارها في الأُمور التربوية - اهتماماً خاصاً، ولا سيما أنّه يأمر المسلمين أن ينطلقوا من محيطهم المحدود إلى المدى الأرحب، ويسيروا ويسيحوا في هذا العالم، وليفكروا في أعمال الآخرين وسجاياهم وعواقب أُمورهم، وأن يستوحوا من هذه «الحياة» العابرة «ويدخروا ذخيرة قيمة» من العبرة والاطلاع!

إنّ القوى الشيطانية في العصر الحاضر - من أجل سعة استثمارها في العالم كافة - مشطت وفحصت جميع الدول والبلدان والأمم وطريقة حياتهم وثقافتهم ونقاط القوّة والضعف فيهم بصورة جيدة.

إنّ القرآن يقول: بدلاً من هؤلاء المستكبرين سيروا أنتم في أرجاء الأرض وبدلاً من خططهم ومؤامراتهم الشيطانية تعلموا دروساً رحمانية.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

العبرة والاعتبار من حياة الآخرين أهم من التجارب الشخصية وأكثر قيمة، لأنّ الإنسان ينبغي أن يتحمل خلال تجاربه أضراراً ليتعلم مسائل جديدة إلاّ أنّ الإنسان عند استلهام العبرة من الآخرين يربح معارف جمة وثمينة دون أن يتحمل ضرراً.

وأمر القرآن بالسير في الأرض ينطبق على أكمل الأساليب والطرق التي حصل عليها البشر في العصر الحاضر، وذلك بأن يأخذوا بأيدي التلاميذ - بعد استيعاب المسائل في الكتب - ويسيروا في الأرض، ويطالعوا الشواهد العينية التي قرأوها في الكتب!

وبالطبع فهناك اليوم نوع آخر من السير في الأرض بعنوان «السياحة» في العالم، وذلك من قبل «الحضارة الشيطانية» لجلب الأموال والثروة «الحرام» التي راجت سوقها، وغالباً ما تكون فيها أهداف منحرفة وتضليلية، كنقل الثقافة السقيمة وإشاعة الهوى والسفاهة والحماقة واللهو هذه هي «السياحة المخربة»!

ولكن الإسلام يؤيد السياحة التي تكون وسيلة لنقل الثقافات الصحيحة والتجارب المتراكمة، واستكناه أسرار الخلق في عالم البشر وعالم الطبيعة، واستلهام دروس العبرة من عواقب المفسدين والظالمين الوخيمة.

ولا بأس بالإشارة إلى أنّ هناك سياحة منعها الإسلام ونقرأ حديثاً يقول: «لاسياحة في الإسلام»(١).

والمراد من هذا الحديث هو في جميع سنوات حياتهم - أو بعضها - منفصلين عن الحياة الاجتماعية تماماً، ودون أن يكون لهم نشاط ملحوظ، فهم يسيحون في الأرض ويعيشون كالرهبان! فيكونون عالة على الآخرين.

وبتعبير آخر: إنّ عمل هؤلاء بمثابة «الرهبانية السيارة» مقابل الرهبان الثابتين المنزوين في الدير والمنعزلين عن المجتمع، وحيث إنّ الإسلام يخالف هذا الاتجاه والانزواء الاجتماعي، فهو يعد هذه «السياحة» غير مشروعة أيضاً.

٣ - الدين القيّم

كان الخطاب في الآيات المتقدمة للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يجعل تمام توجهه نحو الدين المستقيم والثابت، الذي ليس فيه اعوجاج ولا انحراف ولا تزلزل في قواعده أبداً.

---

(١) مجمع البحرين مادة «سيح»، وفي حديث آخر عن النّبي العظيم صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الكتاب نفسه نقرأ قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «سياحة أمتي الغزو والجهاد».

ومن الطريف أن تعبيرات أُخرى في آيات القرآن المتعددة جاءت بصدد هذا الدين، ففي الآية (١٠٥) من سورة يونس جاء التعبير عنه بالحنيف ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾.

وفي الآية (٣) من سورة الزمر وصف بالخالص ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾.

وفي الآية (٥٢) من سورة النحل، وصف بأنّه واصب، أي لا يتغير ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾.

وفي الآية (٧٨) من سورة الحج وصف بأنّه خال من الحرج والشدّة ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾!

ونظائر هذه الآيات كثيرة في القرآن!

وكل واحد من هذه الأُمور يمثل بعداً من أبعاد الدين الإسلامي، وهو في الوقت ذاته من باب اللازم والملزوم.

أجل ينبغي أن ينتخب مثل هذا الدين، وأن يسعى في معرفته، وأن يحفظ حتى آخر رمق!

٤ - لا عودة في يوم القيامة!

قرأنا في الآيات المتقدمة عن يوم القيامة قوله تعالى: ﴿يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ ولا طريق للعودة إلى الدنيا!

ويلاحظ في آيات القرآن الآخر ما يشبه هذا التعبير، ومن ذلك الآية (٤٤) من سورة الشورى - حين يرى الظالمون العذاب يقولون: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾.

كما وصف يوم القيامة في الآية (٤٧) من سورة الشورى - أيضاً - بقوله تعالى: ﴿يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾.

والحقيقة أن عالم الوجود له مراحل لا عودة فيها إلى مرحلة سابقة، وهذه سنة الله التي لا تتبدل ولا تتحول!

ترى، هل يرجع الطفل - سواء ولد كاملاً أو ناقصاً - جنيناً مرّة أُخرى إلى رحم أمه؟!

وهل ترجع الثمرة المقطوفة من الشجرة - ناضجة كانت أم لا - إلى أغصانها؟!

فانتقال الإنسان من هذا العالم إلى العالم الآخر على هذه الشاكلة، أي لا طريق للعودة أبداً... وهذه حقيقة تخيف الإنسان وتهزّه وتنذره ليكون يقظاً!.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

التّفسير

انظر إلى آثار رحمة الله

قلنا: إنّ في هذه السورة قسماً مهمّاً «يستلفت النظر» من دلائل التوحيد وآيات الله، مبيناً في سبع آيات تبدأ كل منها بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ قرأنا ست آيات منها بصورة متتابعة، والآية الأُولى من الآيات أعلاه هي سابع الآيات التي مرّت، وآخرها.

وحيث كان الكلام في الآيات السابقة عن الإيمان والعمل الصالح، فبيان دلائل التوحيد - أيضاً - تأكيداً على ذلك!

تقول هذه الآية: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ فهي تمضي سابقةً للغيث في حركتها، فتجمع القطع المتفرقة من الغيوم وتربط بينها وتؤلفها وتحملها إلى الأرض اليابسة العطشى، وتغطي صفحة السماء، ومع تغير درجة حرارة الجوّ تهيّىء المطر للنزول من هذه الغيوم.

ولعلّ أهميّة قدوم الرياح المبشرات - لأهل المدن المتنعمة - ليست جليّة واضحة.. إلاّ أنّ أهل الصحاري اليابسة الظمأى إلى المطر، ما إن تتحرك الرياح مصحوبة بالسحاب التي هطلت في نقطة أُخرى - والنسيم يحمل رائحة الطلّ والرطوبة منها، حتى يلمع وميض الأمل في قلوبهم.

وبالرغم من أنّ آيات القرآن تستند إلى البشارة في نزول الغيث أكثر من غيرها، إلاّ أنّه لا يمكن تحديد كلمة «مبشرات» في هذا المضمون فحسب، لأنّ الرياح تصحب بشائر أخر أيضاً.

فالرياح تبدل حرارة الجوّ وبرودته الشديدة إلى «الإعتدال».

والرياح تستهلك العفونة في الفضاء الكبير وتصفي الهواء.

والرياح تخفف من وطء حرارة الشمس على الأوراق والنباتات، وتمنع من احتراقها بحرارة الشمس.

كما أنّ الرياح تنقل غاز الأوكسجين المتولد من النباتات وأوراق الشجر - إلى الإنسان، وتهب غاز ثاني أوكسيد الكاربون الخارج مع زفير الإنسان وتنفسه إلى النباتات أيضاً.

وهي كذلك تؤدّي وظيفة أُخرى، فقد أرسلها الله لواقح تنقل معها لقاح الأزهار الذكور للاناث.

والرياح تحرك الطواحين الهوائية وتصفي البيادر.

والرياح تنقل البذور من المناطق التي قد تجمعت فيها وتنشرها وتبسطها على الصحراء، كأنّها فلاح مشفق، فتغدو خضراء ممرعة بعد أن كانت يباباً.

والرياح تنقل السفن مع مسافريها وأثقالهم إلى نقاط مختلفة.

وحتى في هذا العصر الذي حلت الوسائل الحديثة «الماكنات» مكان الرياح، فما تزال الرياح ذات أثر بالنسبة للسفن في اتجاهاتها المخالفة لها أو الموافقة لها... سرعةً وبطأً!

أجل، إنّ الرياح مبشرات من جهات شتى.

ولذلك فنحن نقرأ في تعقيب الآية قوله تعالى: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أجل، إنّ الرياح هي وسيلة لتكاثر النعم العديدة في مجال الزراعة والتدجين، وهي وسيلة للحمل والنقل أيضاً، وأخيراً فهي سبب للازدهار التجاري.

وقد أشير إلى الموضوع الأوّل بجملة: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ وإلى الثّاني بجملة: ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ وللثالث بجملة: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾!

والطريف هنا أنّ جميع هذه البركات منشؤها الحركة، الحركة في ذرات الهواء في الفضاء الجوي.

لكن لا يُعرف قدر أية نعمة حتى تسلب عن الإنسان! فيعرفها حينذاك. فما لم تتوقف هذه الرياح والنسائم، فلا يعرف الإنسان ماذا يحلّ به من بلاء؟!

فتوقف الهواء يجعل الحياة في أفضل الحقول كالحياة في أشد المطامير والسجون ظلمةً! وعلى العكس، فلو أنّ نسيماً عليلاً هب في خلايا السجون الانفرادية لجعلها كالفضاء الرحب «المفتوح»، وعادةً فإنّ واحداً من أساليب التعذيب في السجون هو سدّ منافذ الهواء!.

حتى أنّ الهواء لو توقف في المحيطات وهدأت الأمواج، لأصبحت حياة الحيوانات البحرية مهددة بالخطر على أثر قلّة الأوكسجين، ويتحول البحر حينذاك إلى مستنقع متعفن موحش!

يقول «الفخر الرازي» إن جملة ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ مع ملاحظة أنّ الإذاقة تستعمل في الشيء القليل، فهي إشارة أنّ جميع الدنيا ونعمها لاتتجاور الرحمة القليلة، أمّا الرحمة الواسعة (من قبل الله) فهي خاصة بالحياة الأُخرى!.

وفي الآية التالية يقع الكلام عن إرسال الأنبياء إلى قومهم، في حين أنّ الآية التي بعدها تتحدث عن هبوب الرياح مرّة أُخرى، ولعل وجود هذه الآية بين آيتين تتحدثان عن نعمة هبوب الرياح له جانب اعتراضي، كما يذهب إلى ذلك بعض المفسّرين.

ولعل ذكر النبوّة إلى جانب هذه المسائل، إنّما هو لإكمال البحث المتعلق بالمبدأ والمعاد، إذ ورد البحث عنهما مراراً في هذه السورة كما قاله بعض المفسّرين.

ويمكن أن يكون وجود هذه الآية إنذاراً لأُولئك الذين يتمتعون بجميع هذه النعم الكثيرة ويكفرون بها.

وعلى كلّ حال، فإنّ الآية تقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَٰتِ﴾ أي المعجزات والدلائل الواضحة والبراهين العقلية، فاستجاب جماعة منهم لهذه الدلائل، ولم يستجب آخرون لها برغم النصائح ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ ونصرنا المؤمنين ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

والتعبير بـ«كان» التي تدل على أنّ هذه السنة لها جدر عميق، والتعبير بـ«حقّاً» وبعده التعبير بـ«علينا» هو بنفسه مبين للحق ومشعر به، جميع هذه الألفاظ تأكيدات متتابعة في هذا المجال وتقديم «حقاً علينا» على «نصر المؤمنين» الذي يدل على الحصر، هو تأكيد آخر، وبالمجموع تعطي الآية هذا المعنى «إن نصر المؤمنين من المسلّم به هو في عهدتنا وهذا الوعد سنجعله عملياً دون الحاجة إلى نصر من الآخرين».

وهذه الجملة - ضمناً - فيها تسلية وطمأنة لقلوب المسلمين، الذين كانوا حينئذ في مكّة تحت ضغوط الأعداء واضطهادهم وكان الأعداء أكثر عَدَداً وعُدَداً.

وأساساً فإنّ أعداء الله طالما كانوا غرقى في الآثام والذنوب، فإنّ ذلك بنفسه أحد عوامل انتصار المؤمنين، لأنّ الذنب سيدمرهم آخر الأمر ويهيّىء وسائل هلاكهم بأيديهم، ويرسل عليهم نقمة الله.

أمّا الآية الأخرى فتعود ثانية لذكر نعمة هبوب الرياح فتقول: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾[1] أي القطع الصغيره المتراكمة ثمّ تخرج قطرات المطر منها على شكل حبات صغيرة ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ[2] يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾.

أجل، إنّ واحداً من الآثار المهمة عند نزول الغيث، يقع على عاتق الرياح، إذ تحمل قطعات السحاب من البحر إلى الأرض العطشى واليابسة، والرياح هي المأمورة ببسط السحاب والغيوم في السماء جعلها متراكمة بعضها فوق بعض، وبعد أن تلطف الجو وتصيره رطباً تهيّىء الغيث للنزول.

إنّ مثل الرياح كمثل راعي الغنم المحنّك، الذي يجمع قطيع الغنم عند الاقتضاء من أطراف الصحراء، ويسير بها في مسير معيّن ليقوم بالتالي على حلب لبنها!.

وجملة: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ لعلها إشارة إلى أنّ غلظة الغيوم وشدة هبوب الرياح، ليستا في تلك الدرجة التي تمنع خروج قطرات الغيث الصغيرة من الغيم ونزولها على الأرض، بل إنّ هذه الذرات الصغيرة - على الرغم من الغيوم المغطاة بها صفحة السماء - تجد طريقها من خلال الغيوم إلى الأرض، وتتناثر ناعمةً على الأراضي العطشى حتى ترويها بصورة جيدة وفي الوقت ذاته لا تدمر الثمر.

إنّ الرياح الشديدة والأعاصير التي تقلع الشجرة من أصلها أحياناً - على عظمتها وتحرك الصخور، تأذن للقطرة الناعمة أن تمرّ من خلالها وتستقر على الأرض!

وينبغي الالتفات إلى أن كون السحاب قطعات متراكمة «كِسَفاً» - وإن لم يكن لنا

---

(١) «الكِسَف» جمع «كسفَة» على وزن «حجلة» ومعناها القطعة، وهي هنا - كما يبدو - إشارة إلى القطعات (من الغيوم) المتراكمة بعضها فوق بعض فتجعلها غليظة وشديدة، وذلك حين تكون الغيوم مهيأة لنزول المطر.

(٢) «الودق» على وزن (الحلق) وتطلق على ذرات الماء الصغيرة كمثل الغبار أحياناً، إذ تتناثر عند نزول الغيث في السماء، كما تطلق على قطرات «المطر» المتفرقة أحياناً.

جلياً بهذه الصورة - في اليوم الغائم، حيث تغطي هذه القطع صفحة السماء، فلانحسّ بأنّها على شكل قطع، بل نراه سحاباً مبسوطاً. . لكن حين تقلّنا الطائرة وتحلق بنا فوق السحاب أو من خلاله، نلمس هذه الظاهرة بوضوح!

ويضيف القرآن في نهاية الآية قائلاً: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

ثمّ تأتي الآية الأُخرى بعدها فتقول: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾(١).

وإنّما يدرك هذا اليأس أو تلك البشارة أمثال العرب الذين يعيشون في رحلاتهم وتنقّلهم في الصحراء، ولحياتهم علاقة وصلة قريبة مع هذه القطرات، فأُولئك يتفق أحياناً أن يلقى اليأس ظلاله السوداء على أنفسهم الظمأى، كما أنّ أراضيهم ومزارعهم تبدو عليها آثار العطش، وفجأة تهب الرياح المبشرة بنزول المطر، الرياح التي يشمّ من خلالها رائحة «الغيث»! وتمرّ لحظات، فتتسع الغيوم في السماء ثمّ تغلظ وتكون أكثر كثافةً، ثمّ ينزل «القطر» والغيث، وتمتلىء الحفر بالماء الزلازل، وتفيض الروافد والسواقي الصغيرة والكبيرة من هذه المائدة السماوية، وتعود الحياة النضرة إلى الأرض اليابسة، كما تتبرعم الآمال في قلوب الرحّل في الصحراء ويشرق الأمل في قلوبهم، وتنجلي عنها غيوم الظلمة واليأس والقنوط!

ويبدو أنّ تكرار كلمة ﴿مِن قَبْلِ﴾ في الآية للتأكيد، إذ تبيّن الآية أنّ الوجوه كانت عابسة متجهمة من قبل المطر بلحظات، أجل. . . لحظات قبل المطر، وهم قلقون ولكن حين ينزل عليهم الغيث. . . تشرق فجأة الوجوه وتبتسم الشفاه، فكم هو موجود ضعيف هذا الإنسان! وكم هو رحيم هذا الربّ.

ومثل هذا التعبير وارد في كلماتنا العرفية حيث نقول مثلاً: إنّ فلاناً كان بالأمس، نعم بالأمس صديقاً لنا، واليوم هو من أعدائنا. . . والهدف من هذا التكرار هو التأكيد على تغيير حالات الإنسان.

وفي آخر آية - من الآيات محل البحث - يتوجه الخطاب إلى النّبي ﷺ قائلاً: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

---

(١) «مبلس» مأخوذة من مادة الإبلاس، ومعناها اليأس وعدم الرجاء.

والاهتمام أو الاعتماد على كلمة «انظر» هو إشارة إلى أنّ آثار رحمة الله في إحياء الأرض بالمطر، هي من الوضوح بمكان بحيث تكفي نظرة واحدة لمشاهدة هذه الآثار، دون حاجة للبحث والتدقيق.

والتعبير بـ ﴿رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ في شأن المطر هو إشارة الآثار المباركة فيه من جهات مختلفة!.

فالمطر يسقي الأرض ويرعى بذور النباتات... ويهب الأشجار الحياة الجديدة!

وهو ينقيّ الجوّ والمحيط من الغبار المتراكم أو المتناثر في الفضاء.

وهو يغسل النباتات ويمنحها النضرة والطراوة!.

وهو يمضي إلى أعماق التربة والأرض، وبعد فترة يعود على شكل عيون وقنوات إلى سطح الأرض.

والمطر يدفع الأنهار والسيول وبعد تجمعها خلف السدود يتولد منها «الكهرباء» أو الطاقة والنور والحركة!.

وأخيراً فإنّ قطر السماء يحسّن الجوّ إذ يخفف من شدّة الحر، ويهدىء من شدّة البرودة.

والتعبير بـ«الرحمة» عن المطر مذكور في عدة آيات من القرآن كما في الآية (٤٨) من سورة الفرقان، والآية (٦٣) من سورة النمل، ونقرأ كذلك في سورة الشورى الآية (٢٨) قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾.

ومع الالتفات إلى العلاقة بين المبدأ والمعاد في المسائل المختلفة، فإنّ «القرآن» يضيف قائلاً في نهاية الآية: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

والتعبير بـ«محيي» بصيغة اسم الفاعل مكان الفعل المضارع، وخاصّة مع كونه مسبوقاً بلام التوكيد، دليل على منتهى التأكيد.

ولقد رأينا مراراً في آيات القرآن الكريم، أن هذا الكتاب السماوي - من أجل إثبات مسألة المعاد - ينتخب نزول الغيث وإحياء الأرض بعد موتها شاهداً على ذلك!.

ففي سورة (ق) الآية (١١) يعقب القرآن بعد التعبير بحياة الأرض بعد موتها قائلاً: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾!

ويشبه هذا التعبير في الآية (٩) من سورة فاطر إذ يقول القرآن: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾.

والواقع أنّ قانون الحياة والموت في كل مكان متشابه.. فالذي يحيي الأرض الميتة

بقطرات السماء، ويهبها الحركة والبهجة، ويتكرر هذا العمل على طول السنة، وأحياناً في كل يوم، فإن له هذه القدرة على إحياء الناس بعد الموت، فالموت بيده في كل مكان، كما أنّ الحياة بأمره أيضاً.

صحيح أنّ الأرض الميتة لا تحيى ظاهراً، بل تنمو البذور التي في قلب الأرض، ولكننا نعلم أنّ هذه البذور الصغيرة تجذب مقداراً عظيماً من أجزاء الأرض إلى نفسها، وتحوّل الموجودات الميتة إلى موجودات حية! وحتى بقايا هذه النباتات المتلاشية - أيضاً - تمنح القدرة والقوة للأرض لكي تحيى من جديد.

وفي الحقيقة لم يكن لمنكري المعاد أي دليل على مدعاهم سوى الاستبعاد، والقرآن المجيد إنّما يستشهد بهذه الأمثال لإحباط هذا الاستبعاد منهم أيضاً.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾

التّفسير

الموتى والصُمّ لا يسمعون كلامك

حيث إنّ الكلام كان - في الآيات السابقة - عن الرياح المباركة التي كانت مبشرات بالغيث والرحمة، ففي أوّل آية من الآيات أعلاه إشارة إلى الرياح المدمرّة والتي تجلب الضرر، إذ يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾.

أُولئك هم الضعفاء الحمقى فهم قبل نزول الغيث مبلسون آيسون، وبعد نزوله مستبشرون، وإذا هبت ريح صفراء في بعض الأيّام وابتلُوا مؤقتاً تراهم يتصارخون وبالكفر يجأرون ويتجرأون!

على العكس من المؤمنين الصادقين الذين هم بنعمة الله مستبشرون وعليها يشكرون،

وعند نزول المصائب والمشاكل تراهم صابرون، ولا يؤثر التغيير المعاشي والحياتي المادي في إيمانهم أبداً، وليسوا كعمي القلوب ضعيفي الإيمان، الذين يظهرون إيمانهم بمجرّد هبوب الريح، ويكفرون مرّة أُخرى إذا هبت الريح بشكل آخر!

وكلمة «مصفراً» مشتقّة من «الصُّفرة» على زنة «سفرة» وهي لون معروف، ويعتقد أكثر المفسّرين أن الضمير في «رأوه» يعود على الشجر والنباتات التي تصفر وتذبل على أثر هبوب الرياح المخربة.

واحتمل بعضهم أنّ الضمير يعود على السحاب، والسحاب المصفّر طبعاً سحاب خفيف، وهو عادة لا يحمل قطراً، على العكس من الغيوم السود الكثيرة، فإنّها تولد الغيث والقطر.

كما يعتقد بعضهم أنّ الضمير في «رأوه» يعود على الريح، لأنّ الرياح الطبيعية عادة لا لون فيها (فهي عديمة اللون) إلاّ أنّ الرياح التي تهب وهي مصفرة، فهي ريح سموم وهجير، وفي كثير من الأحيان تحمل معها الغبار.

وهناك احتمال رابع، وهو أنّ «المصفّر» معناه الخالي، لأنّه كما يقول الراغب في مفرداته، يطلق على الإناء الخالي، والبطن الخالية من الطعام، والأوردة من الدم أنّها (صفر) على وزن (سفر)، فعلى هذا يكون هذا التعبير آنف الذكر في شأن الرياح الخالية من القطر والغيث.

وفي هذه الصورة يعود الضمير في «رأوه» على الريح (فلاحظوا بدقة).

إلاّ أنّ التّفسير الأوّل أشهر من الجميع!

وما يستلفت النظر، هو أنّ الرياح النافعة ذات الغيث جاءت هنا بصيغة الجمع، ولكن على العكس منها الريح التي تجلب الضرر فقد جاءت بصيغة المفرد، وهي إشارة إلى أنّ معظم الرياح نافعة ومفيدة، غير أنّ ريح السموم هي من الحالات الاستثنائية التي تهب أحياناً في السنة مرّة أو في الشهر مرّة.. لكن الرياح المفيدة تهب دائماً (ليل نهار).

أو أنّها إشارة إلى أنّ الرياح النافعة إنّما تكون كذلك ويكون لها أثرها المفيد، إذا تتابعت، غير أنّ الريح السيئة تترك أثرها عند هبوبها في المرّة الأولى.

وآخر ما ينبغي الإشارة إليه من اللطائف الضرورية في ذيل هذه الآية، هو التفاوت ما بين ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ في شأن الرياح النافعة التي ذكرتها الآية المتقدمة، وجملة ﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ الواردة في الآية محل البحث.

وهذا الاختلاف أو التفاوت يدل على أنّهم يرون هذه النعم العظيمة المتتابعة التي أنعمها الله عليهم فيفرحون ويستبشرون، غير أنّهم لو أصيبوا مرّة واحدة أو يوماً واحداً بمصيبة، فإنّهم يضجون ويكفرون حتى كأنّهم غير تاركين للكفر، حل بهم!.

وهذا تماماً يشابه حال أُولئك الذين يعيشون عمراً بسلامة ولا يشكرون الله، لكنّهم إذا مرضوا ليلة واحدة بالحمى «واشتعلوا بحرارتها» فإنّهم يظهرون الكفر وهذه هي حال الجهلة من ضعفاء الإيمان، وكان لنا في هذا الصدد في الآية (٣٥) من هذه السورة، والآيتين (٩) و(١٠) من سوره هود، والآية (١١) من سورة الحج بحوث أُخر أيضاً.

وفي الآيتين التاليتين - بمناسبة البحث الوارد في الآية السابقة - فإن الناس يُقسمون إلى أربع طوائف:

١ - طائفة «الموتى» الذين لا يدركون أية حقيقة، وإن كانوا أحياءً في الظاهر!

٢ - وطائفة «الصُّم» الذين هم غير مستعدين للاستماع إلى الكلام الحق.

٣ - وطائفة «العمي» الذي حُرموا من رؤية وجه الحق!

٤ - وأخيراً طائفة المؤمنين الصادقين الذين لهم قلوب يفقهون بها، ولهم أعين يبصرون بها، ولهم آذان يسمعون بها.

فتقول الآية الأولى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ولذلك لا تؤثر مواعظك في أصحاب القلوب الميتة.

وكذلك ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾.

وتأتي الآية الثّانية لبيان بقية الطوائف فتقول: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

وكما قلنا من قبل، فإنّ القرآن لديه ماهو أفضل من «الحياة والموت الماديين والجسمانيين» وأفضل من السمع والبصر الظاهريين فلديه نوع أسمى من هذه الحياة والموت والسمع والبصر، وتكمن فيها سعادة الإنسان أو شقاؤه!

فالقرآن لديه معيار لتقييم هذه الأمور، لا بالقيمة المادية والفيزيائية، بل بالقيمة المعنوية والإنسانية.

والشرط الأوّل لإدراك الحقيقة أن يكون للإنسان قلب مهيأ ومستعد، وعين باصرة وأذن سميعة، وإلاّ فلو اجتمع جميع الأنبياء والأولياء وتلوا جميع الآيات الإلهيّة على من لا يدرك الحقيقة لما اقترفه من الذنوب واللجاجة والعناد، فإنها لن تؤثر فيه!.

وإنّما أشار القرآن إلى هاتين الحاستين الظاهرتين، بالإضافة إلى الإدراك الباطني فحسب، فلأجل أن أكثر معلومات الإنسان، إمّا أن يكون عن طريق هاتين الحاستين (العين والأذن)، أو عن طريق الوجدان والتحليل العقلي!

والطريف هنا أنّ المراحل الثلاث - الواردة في الآيات الآنفة الذكر - هي ثلاث مراحل مختلفة من الانحراف وعدم درك الحقيقة، وهي تبدأ من شديدها وتنتهي بالخفيف منها!

فالمرحلة الأولى: هي موت القلوب المعبر عنها بـ «الموتى» وهذه المرحلة ليس للحقيقة أي طريق للنفوذ فيها.

والمرحلة الثّانية: مرحلة «الصمم» وعدم السمع، ولا سيما عند أُولئك الذين يديرون ظهورهم وهم في حالة الفرار، فقد يؤثر فيهم الصراخ الشديد لو كانوا قريبين، لكن في مثل هذه الحال وهم يفرون، فلا!

وبالطبع فإنّ هذه الطائفة ليست كالموتى، فمن الممكن أحياناً أن يتمّ تفهيمهم بالإشارة أو العلامة، إلاّ أنّنا نعرف أنّ كثيراً من الحقائق لا يمكن بيانها وإيصالها إلى الذهن بالإشارة! وخاصة حين يدير الطرف الآخر ظهره ويكون بعيداً.

المرحلة الثّالثة: (العمى)، وبالطبع فإن الحياة مع العمي أسهل بمراتب من الحياة مع «الصُّم» أو الحياة مع «الموتى»، فعلى الأقل لديهم آذان سميعة، ويمكن إيصال كثير من المفاهيم إليهم... لكن اين السمع في إدراك الحقائق من البصر؟!

ثمّ بعد هذا كلّه، فإنّ تبيين المسائل غير كاف وحده، فلنفرض أن يقال للأعمى سر باتجاه اليمين أو اليسار، فإنّ تطبيق هذا الأمر ليس سهلاً، وربّما بأقل خطأ - أحياناً - في تحديد المقدار، يؤدّي بالأعمى إلى السقوط!

وفي بحثنا المفصل في ذيل الآيتين (٨٠) و(٨١) من سورة النمل، بيّنا - ضمن التحليل لحقيقة الحياة والموت - الإشكال الواهي الذي أثاره جماعة من الوهابيين، إذ يستعينون بمثل هذه الآيات - محل البحث وغيرها - لإثبات عدم جواز التوسل بالنّبي والأئمّة الطاهرين، ويقولون: إنّ الموتى (حتى النّبي) لايفهمون شيئاً.

غير أنّنا أثبتنا هناك أن الإنسان - خاصّة من هو بمستوى الأئمّة الكرام والشهداء العظام - له نوع من الحياة البرزخية بعد الموت، وهناك وثائق كثيرة وأدلة متعددة من القرآن والأحاديث تشهد بذلك وتؤيده، وفي هذه الحياة البرزخية إدراك وبصر أوسع من

الحياة الدنيوية (لمزيد الإيضاح يراجع التّفسير الأمثل، ذيل الآيات المشار إليها آنفاً).

وهنا ينبغي أن نضيف هذه الجملة، وهي أنّ جميع المسلمين في صلاتهم - دائماً - يخاطبون النّبي ﷺ ويسلمون عليه بهذه الجملة «السلام عليك أيّها النّبي ورحمة الله وبركاته» ونعرف أنّ المخاطبة الحقيقية لا المجازية يجب أن تكون - حتماً - مع إنسان يسمع ويدرك!

فعلى هذا الأساس لازم السلام على النّبي بهيئة المخاطبة من بعيد أو قريب، أن روحه المقدسة تسمع جميع هذه التحيات، ولا دليل يقودنا إلى أن نحمل هذه التحيات على المجاز!.

وفي آخر آية - من الآيات محل البحث - يشير القرآن إلى دليل آخر من أدلة التوحيد، وهو دليل الفقر والغنى، ويكمل البحوث التي تدور حول التوحيد في هذه السورة، فيقول: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾.

كنتم في البداية ضعافاً إلى درجة أنّكم لم تكن لكم القدرة على طرد الذباب عنكم، أو أن تحافظوا على لعاب أفواهكم أن يسيل، هذا من الناحية الجسمية، أمّا من الناحية الفكرية فمصداقه قوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ بحيث لم تعرفوا حتى أبويكم المشفقين عليكم.

لكن - قليلاً قليلاً - صرتم ذوي رشد وقوّة، وصار لكم جسم قوي، وفكر جيد، وعقل مقتدر وإدراك واسع!

ومع هذه الحال لم تستطيعوا أن تحافظوا على هذه القوّة، فمثلكم كمن يصعد من طرف الجبل إلى قمته، ثمّ يبدأ بالانحدار من القمة إلى قعر الوادي، الذي يمثل «مرحلة ضعف الجسم والروح».

هذا التغير والصعود والنّزول خير دليل لهذه الحقيقة، وهي أنّه لم تكن القوّة من عندكم ولا الضعف، فكل منهما كان من جهة أُخرى، وهذا بنفسه دليل على أنّ وراءكم من يدبّر أُموركم ويسيّر حياتكم وما عندكم فهو أمر عارض!

وهذا هو ما أشار إليه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في كلامه النيّر إذ قال: «عرفت الله بفسخ العزائم وحل العقود ونقض الهمم»(١).

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة رقم ٢٥٠.

لقد عرفت من هذا الاختلاف والتغير أنّ القوة الأصلية ليست بأيدينا، فهي بيد الله، وليس لدينا بنحو مستقل أي شيء سوى ما وهبنا إيّاه!

ومن الطريف أنّ القرآن يضيف - عند بيان الضعف الثّاني للإنسان - كلمة (وشيبة) غير أنّه لم يذكر «الطفولة» في الضعف الأول.

وهذا التعبير ربّما كان إشارة إلى أن ضعف الشيخوخة والشيب أشدّ ألماً، لأنّه على العكس من ضعف الطفولة، إذ يتجه نحو الفناء والموت... هذا أوّلاً.

وثانياً فإن ما يتوقع من الشيبة والمسنين مع ما لهم تجارب ليس كما يتوقع من الأطفال، على حين أن ضعف كل منهما مشابه للآخر، وهذا الموضوع يدعو إلى الاعتبار كثيراً.

فهذه المرحلة هي التي تدفع الأقوياء والطغاة إلى الانحناء، وتجرهم إلى الضعف والذلة!

أمّا آخر جملة في الآية فهي إشارة إلى علم الله الواسع وقدرته المطلقة: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ وهي بشارة وإنذار في الوقت ذاته، أي إنّ الله مطلع على جميع نيّاتكم، وهو قدير على مجازاتكم وثوابكم!

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠)﴾

التّفسير

يوم لا ينفع الإعتذار

قلنا إن في هذه السورة أبحاثاً منسجمة ومتناغمة تتعلق بالمبدأ والمعاد.. وفي الآيات

- محل البحث - يعقب القرآن على البحوث التي كانت حول المبدأ والمعاد أيضاً، فيعود إلى بيان مشهد من مشاهد يوم القيامة الأليمة، وذلك بتجسيمه حالة المجرمين في ذلك اليوم، إذ يقول: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾ في عالم البرزخ أجل ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾ فإنّهم فيما سبق كانوا محرومين من إدراك الحقائق ومصروفين عنها.

والتعبير بـ «الساعة» عن يوم القيامة - كما أشرنا إليه سابقاً - هو إمّا لأنّ يوم القيامة يقع في لحظة مفاجئة، أو لأنّه من جهة أنّ أعمال العباد تحاسب بسرعة هناك، لأنّ الله سريع الحساب، ونعرف أنّ «الساعة» في لغة العرب تعني جزءاً أو لحظة من الزمن[١].

وبالرغم من أنّ الآية المتقدمة لم تشر إلى مكان (اللبث) حتى احتمل بعضهم أنّ المراد منه هو لبثهم في الدنيا، الذي هو في الواقع بمثابة لحظة عابرة لا أكثر، إلاّ أنّ الآية التي بعدها دليل واضح على أن المراد منه هو اللبث في عالم البرزخ.. وعالم ما بعد الموت.. وما قبل القيامة، لأنّ جملة ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ﴾ تنهي هذا اللبث إلى يوم القيامة، ولا يصح هذا إلاّ في شأن البرزخ (فلاحظوا بدقة).

ونعرف - هنا أيضاً - أنّ «البرزخ» ليس للجميع على شاكلة واحدة، فقسم له في البرزخ حياة واعية، وقسم مثلهم كمن يغط في نوم عميق - في عالم البرزخ - ويستيقظون في يوم القيامة، ويتصورون آلاف السنين ساعة واحدة[٢].

مسألتان

الأوّل: كيف يقسم المجرمون مثل هذا القسم الكاذب؟

والجواب واضح، فهم يتصورون - واقعاً - مثل هذا التصور، ويظنون أنّ فترة البرزخ كانت قصيرة جدّاً، لأنّهم كانوا في حالة تشبه النوم، ألا ترى أنّ أصحاب الكهف الذين كانوا صالحين مؤمنين، حين أفاقوا بعد نوم طويل، تصوروا أنّهم لبثوا يوماً أو بعض يوم في منامهم.

---

(١) كان لنا في هذا الصدد بحث مفصّل ذيل الآية (١٤) من هذه السورة.

(٢) بيّنا هذا البحث «المتعلق بموضوع البرزخ» في ذيل الآية ١٠٠، من سورة المؤمنون، كما نوّهنا عن هذه اللطيفة والمسألة الدقيقة هناك.

أو أنّ أحد الأنبياء الواردة قصته في سورة البقرة (الآية ٢٥٩) بعد أن أماته الله مائة عام ثمّ بعثه للحياة ثانية، لم يدرك في تصوره غير أنّه لبث يوماً أو بعض يوم.

فما يمنع أن يتصور المجرمون - مع ملاحظة حالتهم الخاصة في عالم البرزخ وعدم اطلاعهم - مثل هذا التصور!؟

لذا يقول المؤمنون الذين أُوتوا العلم - كما تذكره الآية التي تأتي بعد هذه الآية -: إنّكم غير مُصيبين في قولكم، إذ لبثتم في عالم البرزخ إلى يوم القيامة، وهذا هو يوم القيامة!.

ومن هنا تتّضح المسألة الثّانية. أي تفسير جملة ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ لأنّ «الإفك» في الأصل معناه تبدل الوجه الحقيقي والانصراف عن الحق، وهذه الجماعة ابتعدت عن الواقع لحالتها الخاصة في عالم البرزخ، فلم تستطع أن تحدد لبثها في عالم البرزخ.

ومع ملاحظة أنّه لاحاجة لنا إلى الأبحاث الطويلة التي بحثها جمع من المفسّرين، وفي أنّه لم يكذب المجرمون عمداً في يوم القيامة، لأنّه ليس في الآية دليل على كذبهم العمدي في هذه المرحلة!.

وبالطبع فإنّنا نرى في آيات القرآن الأُخر أمثلة من أكاذيب المجرمين يوم القيامة، وقد بيّنا الإجابة المفصلة على كل ذلك في ذيل الآية (٢٣) من سورة الأنعام، لكن ذلك البحث لا علاقة له بموضوع هذه الآيات!

أمّا الآية التالية فتتحدث عن جواب المؤمنين المطلعين على كلام المجرمين الغافلين عن حالة البرزخ والقيامة فتقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وتقديم العلم على الإيمان هو لأنّ العلم أساس الإيمان.

والتعبير ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۖ﴾ لعله إشارة إلى الكتاب التكويني، أو إلى الكتاب السماوي، أو إشارة إليهما معاً، أي كان - بأمر الله التكويني والتشريعي - مقدّراً أن تلبثوا مثل هذه المدّة في البرزخ، ثمّ تحشرون في يوم القيامة[1].

---

(١) في كون الآية، هل فيها تقديم وتأخير، أم لا؟ هناك كلام ونقاش بين المفسّرين والعلماء، فقال بعضهم «في كتاب الله» متعلق بجملة «أوتوا العلم والإيمان» فيكون معنى الآية هكذا: الذين أوتوا العلم في=

وفي أن المقصود بـ ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ من هم؟!

قال بعض المفسّرين: هي إشارة إلى ملائكة الله الذين لهم علم وهم مؤمنون أيضاً.

وقال بعضهم: المقصود هم المؤمنون العالمون، والمعنى الثّاني أظهر طبعاً.

وما ورد في بعض الرّوايات من تفسير هذه الآية بالأئمّة الطاهرين، فهو من قبيل المصداق الواضح لها، ولا يحدد معناها الوسيع.

وهذه اللطيفة جديرة بالالتفات، وهي أنّ بعض المفسّرين قالوا: إنّ ما قاله المجرمون مقسمين بأنّهم ما لبثوا غير ساعة، وما ردّه عليهم الذين أوتوا العلم والإيمان بأنّهم لبثوا إلى يوم البعث، هذه المحاورة والكلام منشؤهما أنّ الطائفة الأُولى - لأنّهم كانوا يتوقعون العذاب - كانوا يرغبون في تأخيره، وكانت الفاصلة وإن طالت بالنسبة لهم قصيرة جدّاً عندهم.

أمّا الطائفة الثّانية فلأنّهم كانوا ينتظرون الجنّة ونعمها الخالدة وراغبين في تقديمها، فكانوا يرون الفاصلة طويلة جدّاً[(١)].

وعلى كلّ حال، فحين يواجه المجرمون واقعهم المرير المؤلم يظهرون ندمهم ويتوبون ويعتذرون ممّا صنعوا، لكن القرآن يقول في هذا الصدد: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[(٢)].

وتجدر الإشارة إلى هذه المسألة، وهي أنّ في بعض آيات القرآن تصريحاً بعدم الإذن للمجرمين أن يعتذروا ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[(٣)].

غير أنّ الآية محل البحث تقول: لا ينفعهم الاعتذار هناك، وظاهرها أنّهم يعتذرون، إلاّ أنّه لا أثر لاعتذارهم.

= كتاب الله ويؤمنون به قالوا مثل هذا الكلام، وقال بعضهم «في كتاب الله» متعلق بجملة «لبثتم» ونحن اخترنا هذا الرأي أيضا في شرحنا للآية، لأنّ الحكم بالتقديم والتأخير يحتاج إلى قرينة واضحة ولا نجد هنا قرينة على ذلك!.

(١) تفسير الفخر الرازي، ج٢٥، ص١٣٧، ذيل الآيات محل البحث.

(٢) كلمة «يستعتبون» مشتقة من «عتب» على وزن «حتم» ومعناها في الأصل الاضطراب النفسي «الداخلي» وحين يصاغ هذا الفعل من باب الإفعال فيكون معناه إزالة هذا الأثر والاضطراب، كما جاء في لسان العرب أنّ الاستفعال يؤدّي معنى الإفعال هنا، لذلك يقال في شأن الاسترضاء معناه طلب الرضا والتوبة، ومعنى الكلمة هنا في الآية هو بمثل ما ذكرناه، ومعنى ذلك أنّ المجرمين في يوم القيامة ليس لهم القدرة على التوبة.

(٣) سورة المرسلات، الآية: ٣٦.

وبالطبع فإنّه لا تضاد بين هذه الآيات، لأنّ يوم القيامة فيه مراحل مختلفة، وفي بعض المراحل لا يؤذن للمجرمين بالاعتذار أبداً ويختم على أفواههم. . . وإنّما تتحدث الجوارح بما أساءت فحسب. . . وفي بعض المراحل تنطلق ألسنتهم بالاعتذار، إلاّ أنّه. . . لا ينفعهم الاعتذار أبداً. ؟!

وواحد من أعذارهم أنّهم يلقون تبعات ذنوبهم على أشياخهم في الكفر والنفاق، فيقولون لهم: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾(١)، إلاّ أنّ أُولئك يردون عليهم بالقول: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾(٢).

وأحياناً يلقون اللوم على الشيطان في تضليلهم وانحرافهم وأنّه وسوس لهم، إلاّ أنّ الشيطان يجيبهم ﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾(٣)، أي لم أكرهكم على الكفر، إلاّ أنّكم استجبتم لي برغبتكم.

وفي الآية التالية إشارة لجميع المواضيع الوارد بيانها في هذه السورة. . . إذ تقول: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ لقد ذكرنا فيه الوعد والوعيد، الأمر والنهي، البشارة والإنذار، الآيات الآفاقية والأنفسية، دلائل المبدأ والمعاد والأخبار الغيبية والخلاصة ذكرنا فيه كل شيء يمكن أن يؤثر في نفوس الناس.

وفي الحقيقة، إنّ في القرآن - بشكل عام - وسورة الروم - بشكل خاص - حيث نحن الآن في مراحلها النهائية، مجموعة من المسائل والدروس الموقظة لكل فئة، ولكل طبقة، ولكل جماعة، ولكل فكر وأسلوب. . . مجموعة من العبر، والمسائل الأخلاقية، والخطط والمناهج العملية، والأُمور الاعتقادية، بحيث استفيد من جميع الطرق والأساليب المختلفة للنفوذ في أفكارالناس ودعوتهم إلى طريق السعادة!

ومع هذه الحال، فهناك طائفة لا يؤثر في قلوبهم المظلمة السوداء أي من هذه الأُمور، لذلك يقول القرآن في شأنهم: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾.

والتعبير بـ ﴿مُبْطِلُونَ﴾ تعبير جامع يحمل كل معاني الدجل والافتراء والنسب الكاذبة والفاسدة من قبل المشركين، كنسبة الكذب للنّبي ﷺ والسحر والجنون والأساطير الخرافية، إذ إن كل واحد من هذه الأُمور يمثل وجهاً من وجوه الباطل، وقد جمعت كل هذه الأُمور تحت كلمة ﴿مُبْطِلُونَ﴾.

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٣١.
(٢) سورة سبأ، الآية: ٣٢.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

أجل، إنّهم كانوا يتهمون الأنبياء دائماً بواحد من هذه الأُمور الباطلة، ليشغلوا عنهم الناس الطيبين الطاهرين ولو لعدّة أيّام - بما ينسبونه للأنبياء ممّا أشرنا إليه.

والمخاطب في كلمة «أنتم» يمكن أن يكون النّبي ﷺ والمؤمنين الحقيقيين، ويمكن أن يكون جميع أصحاب الحق من الأنبياء والأئمّة المعصومين عليهم السلام وأتباعهم، لأنّ هذه المجموعة من الكفّار تخالف جميع اتباع الحق.

والآية التي بعدها تبيّن السبب في مخالفة هذه الطائفة، فتقول: إنّ لجاجة هؤلاء التي لاحدّ لها وعداءهم للحق، إنّما هو لفقدانهم الاحساس والإدراك بسبب كثرة ذنوبهم، ولأنّهم لا يعلمون شيئاً... إذ تقول: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وكلمة «يطبع» مأخوذة من الطبع، ومعناها ختم الشيء، وهي إشارة إلى ما كان يجري في السابق، وهو جار أيضاً اليوم إذ يختم على الشيء كيلا يتصرف به ويُغلق بإحكام، وقد يضعون عليه القفل ويضربون عليه مادة لزجة مختومة بإشارة معينة كما بيّنا بحيث لا يمكن فتح ذلك الشيء إلاّ بكسره، فيفتضح أمره بسرعة.

وكان القرآن استعمل هذا التعبير كناية عن القلوب التي لا ينفذ إليها النصح، والذين فقدوا الوجدان والعقل والعلم، ولا أمل في هدايتهم.

وممّا يسترعي الانتباه أنّ في الآيات السابقة ذكر العلم أساساً للإيمان، وفي هذه الآية ذُكر الجهل أساساً للكفر وعدم التسليم للحق.

أمّا آخر آية - من الآيات محل البحث - التي تقع في آخر سورة الروم، فهي تأمر النّبي ﷺ أمرين مهمين، وتبشره بشارة كبرى، لتحثه على مواصلة الوقوف والتصدي للمشركين والجاهلين والسفهاء بالاستقامة والصبر.

تقول أوّلاً: إذا كان الأمر كذلك، فعليك بالصبر والاستقامة أمام الحوادث المختلفة، وفي مقابل أنواع الأذى والبهتان والمصاعب (فاصبر).

لأنّ الصبر والإستقامة هما مفتاح النصر الأصيل.

وليكون النّبي ﷺ أكثر اطمئناناً، فإنّ الآية تضيف ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فقد وعدك والمؤمنين بالنصر، والاستخلاف في الأرض، وغلبة الإسلام على الكفر، والنور على الظلمة، والعلم على الجهل. وسوف يُلبس هذا الوعد ثوب العمل!.

وكلمة «الوعد» هنا إشارة إلى الوعود المكررة التي وعدها القرآن في انتصار المؤمنين، ومن ضمنها الآية (٤٧) من هذه السورة ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

والآية (٥١) من سورة غافر ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ﴾.

وتقول الآية (٥٦) من سورة المائدة أيضاً ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَـٰلِبُونَ﴾.

وتأمر ثانياً بضبط الأعصاب والهدوء وعدم الانحراف في المواجهة الشديدة والمتابعة، حيث تقول الآية: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

إنّ مسؤوليتك أن تتحمل كل شيء، وأن يتسع صدرك وخلقك لجميع الناس فهذا هو الجدير بقائد وزعيم لأمثال هؤلاء.

كلمة ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ مشتقّة من «الخفة» وهي خلاف الثقل، أي كن رزيناً قائماً على قدميك لئلا يهزك مثل هؤلاء الأفراد ويحركوك من مكانك، وكن ثابتاً ومواصلاً للمسيرة باطمئنان، إذ إنّهم فاقدو اليقين، وأنت مركز اليقين والإيمان!.

هذه السورة بدأت بوعد انتصار المؤمنين على الأعداء، وانتهت أيضاً بهذا الوعد، إلاّ أنّ شرطها الأساس هو الصبر والاستقامة!.

ربّنا، هب لنا صبراً واستقامة حتى لا يهزنا طوفان الحوادث والمشاكل من مكاننا أبداً.

إلهنا، نلتجىء إلى ذاتك المقدسة، ألاّ نكون من زمرة الذين لا تؤثر في قلوبهم الموعظة والنصح والإرشاد والعبر والنذر!.

إلهنا، إن أعداءنا متحدون، وهم مسلّحون بأنواع الأسلحة الشيطانية، فانصرنا - ربّنا - على أعدائنا في الخارج، وشيطاننا في الداخل.

سُورَة لُقمَانَ

مكيّة وعدد آياتـها أربع وثلاثون

محتوى السورة

المعروف والمشهور بين المفسّرين أنّ هذه السورة نزلت في مكّة، وبالرغم من أنّ بعض المفسّرين قد استثنى بعض آيات هذه السورة كالشيخ الطوسي في (التبيان) حيث استثنى الآية الرّابعة التي تتحدّث عن الصلاة والزكاة، أو الفخر الرازي الذي استثنى مضافاً إلى هذه الآية، الآية (٢٧) التي تبحث في علم الله الواسع، إلاّ أنّه لا يوجد دليل واضح لهذه الاستثناءات، لأنّ الصلاة والزكاة - الزكاة بصورة عامّة طبعاً - كانتا موجودتين في مكّة أيضاً، وقضيّة البحث عن سعة علم الله لا تصلح لأن تكون دليلاً على كونها مدنية.

بناءً على هذا، فإنّ سورة لقمان بحكم كونها مكّية تشتمل على محتوى السور المكّية العام، أي إنّها تبحث حول العقائد الإسلامية الأساسية، وخاصّة المبدأ والمعاد، وكذلك النبوّة، وبصورة عامّة فإنّ محتوى هذه السورة يتلخّص في خمسة أقسام:

القسم الأوّل: يشير - بعد ذكر الحروف المقطّعة - إلى عظمة القرآن وكونه هدى ورحمة للمؤمنين الذين يتمتّعون بصفات خاصّة، ويتحدّث في الطرف المقابل عن الذين يظهرون التعصّب والعناد أمام هذه الآيات البيّنات بحيث يبدون وكأنّهم صمّ الآذان، بل يسعون أيضاً إلى صرف الآخرين عن القرآن عن طريق إيجاد وسائل لهو غير صحيحة.

القسم الثّاني: يتحدّث عن آيات الله في خلق السماء ورفعها بدون أي عمد، وخلق الجبال، والأحياء المختلفة، ونزول المطر، ونموّ النباتات.

القسم الثّالث: ينقل جانباً من كلام لقمان الحكيم والمتألّه في وصيّته لابنه، ويبدأ من التوحيد ومحاربة الشرك، وينتهي بالوصيّة بالإحسان إلى الوالدين، والصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والثبات أمام الحوادث الصعبة، والبشاشة والطلاقة مع الناس، والتواضع والإعتدال في الأمور.

في القسم الرّابع: تعود السورة إلى أدلّة وعلامات التوحيد مرّة أُخرى فتتحدّث عن

تسخير السماء والأرض ونعم الله الوفيرة، وذمّ منطق الوثنيين الذين سقطوا في وادي الضلال والانحراف نتيجة التقليد واتّباع الآباء والأجداد، وتجعلهم يقرّون بمسألة كون الله خالقاً التي هي أساس العبودية له.

وتكشف الستار عن علم الله المطلق بذكر مثال واضح، وتبحث في هذا الباب - إضافة إلى ذكر آيات الآفاق - عن التوحيد الفطري الذي يتجلّى عند الوقوع في عواصف البلاء، وتطرح ذلك بشكل رائع.

أمّا القسم الخامس: فإنّه يشير إشارة قصيرة مؤثّرة تهزّ الوجدان إلى مسألة المعاد والحياة بعد الموت، وتحذّر الإنسان من الاغترار بهذه الدنيا، وتحثّه على أن يفكّر بتلك الحياة الخالدة ويتهيّأ لها.

ثمّ تنهي هذا المبحث بذكر جانب من علم الله بالغيب بما يتعلّق بالإنسان، ومن جملة ذلك لحظة موته، وحتى على الجنين في بطن أُمّه، وبذلك تنتهي السورة.

ومن الواضح أنّ تسمية هذه السورة بسورة «لقمان» بسبب البحث المهمّ العميق المحتوى الذي ورد في هذه السورة عن مواعظ لقمان، وهي السورة الوحيدة التي تتحدّث عن هذا الرجل الحكيم.

فضل سورة لقمان

وردت روايات عديدة عن الرّسول الأكرم ﷺ وبعض أئمّة أهل البيت عليهم السلام في فضل هذه السورة، ومن جملتها ما ورد في حديث عن النّبي ﷺ: «من قرأ سورة لقمان كان لقمان له رفيقاً يوم القيامة، وأُعطي من الحسنات عشراً بعدد من عمل بالمعروف ونهى عن المنكر»[1].

وفي حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام: «من قرأ سورة لقمان في ليلة وكّل الله به في ليلته ثلاثين ملكاً يحفظونه من إبليس وجنوده حتى يصبح، فإذا قرأها بالنهار لم يزالوا يحفظونه من إبليس وجنوده حتى يمسي»[2].

وقلنا مراراً، بأنّ كلّ هذا الفضل والثواب والامتياز لتلاوة سورة من القرآن لأنّ التلاوة مقدّمة للتفكّر، والتفكّر مقدّمة للعمل، ويجب أن لا يتوقّع الإنسان كلّ هذا الفضل بلقلقة اللسان فقط.

(١) تفسير مجمع البيان، ج٨، ص ٣١٢.

(٢) المصدر السابق، وتفسير نور الثقلين، ج٤، ص١٩٣.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾

التّفسير

من هم المحسنون؟

﴿الٓمٓ﴾ تبدأ هذه السورة بذكر أهميّة وعظمة القرآن، وبيان الحروف المقطّعة في بدايتها إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ هذه الآيات التي تتركّب من حروف الألف باء البسيطة، لها محتوى ومفهوم سام يغيّر مصير البشر بصورة تامّة، ولذلك فإنّها تقول بعد ذكر الحروف المقطّعة: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

﴿تِلْكَ﴾ في لغة العرب إشارة للبعيد، وقلنا مراراً أنّ هذا التعبير بالخصوص كناية عن عظمة وأهميّة هذه الآيات، وكأنّها في أعالي السماء وفي نقطة بعيدة المنال.

إنّ وصف «الكتاب» بـ«الحكيم» إمّا لقوّة ومتانة محتواه، لأنّ الباطل لا يجد إليه طريقاً وسبيلاً، ويطرد عن نفسه كلّ نوع من الخرافات والأساطير، ولا يقول إلاّ الحقّ، ولا يدعو إلاّ إليه، وهذا التعبير في مقابل ﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ الذي يأتي في الآيات التالية تماماً.

أو بمعنى أنّ القرآن كالعالم الحكيم الذي يتكلّم بألف لسان في الوقت الذي هو صامت لا ينطق، فيعلّم، ويعظ وينصح، ويرغّب ويرهّب، ويحذّر ويتوعّد، ويبيّن القصص ذات العبرة، وخلاصة القول فإنّه حكيم بكلّ معنى الكلمة. ولهذه البداية علاقة مباشرة بكلام لقمان الحكيم الذي ورد البحث فيه في هذه السورة.

ولا مانع - طبعاً - من أن يكون المعنيان مرادين في الآية أعلاه.

ثمّ تذكر الآية التالية الهدف النهائي من نزول القرآن، فتقول: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾.

إنّ الهداية في الحقيقة مقدّمة لرحمة الله، لأنّ الإنسان يجد الحقيقة أوّلاً في ظلّ نور القرآن، ويعتقد بها ويعمل بها، وبعد ذلك يكون مشمولاً برحمة الله الواسعة ونعمه التي لا حدّ لها.

وممّا يستحقّ الانتباه أنّ هذه السورة اعتبرت القرآن سبباً لهداية ورحمة «المحسنين»، وفي بداية سورة النمل: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي بداية سورة البقرة: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

وهذا الاختلاف في التعبير ربّما كان بسبب أنّ روح التسليم وقبول الحقائق لا تحيا في الإنسان بدون التقوى، وعند ذلك سوف لا تتحقّق الهداية، وبعد مرحلة قبول الحقّ نصل إلى مرحلة الإيمان التي تتضمّن البشارة بالنعم الإلهيّة علاوة على الهداية، وإذا تقدّمنا أكثر فسنصل إلى مرحلة العمل الصالح، وعندها تتجلّى رحمة الله أكثر من ذي قبل.

بناءً على هذا فإنّ الآيات الثلاث أعلاه تبيّن ثلاث مراحل متعاقبة من مراحل تكامل عباد الله: مرحلة قبول الحقّ، ثمّ الإيمان، فالعمل، والقرآن في هذه المراحل مصدر الهداية والبشارة والرحمة على الترتيب - تأمّلوا ذلك -.

ثمّ تصف الآية التالية المحسنين بثلاث صفات، فتقول: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ فإنّ ارتباط هؤلاء بالخالق عن طريق الصلاة، وبخلق الله عن طريق الزكاة، ويقينهم بمحكمة القيامة باعث قوي على الابتعاد عن الذنب والمعصية، ودافع لأداء الواجبات.

وتبيّن الآية الأخيرة - من الآيات مورد البحث - عاقبة عمل المحسنين، فتقول: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

جملة ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ توحي بأنّ هداية أُولئك قد ضُمنت من قبل ربّهم من جهة، ومن جهة أُخرى فإنّ التعبير بـ﴿عَلَىٰ﴾ دليل على أنّ الهداية كأنّها مطيّة سريعة السير، وأُولئك قد ركبوها وأخذوا بزمامها، ومن هنا يتّضح التفاوت بين هذه الهداية، والهداية التي وردت في بداية السورة، لأنّ الهداية الأُولى هي الاستعداد لقبول الحقّ، وهذه الهداية برنامج للوصول إلى الغاية والهدف.

ثمّ إنّ جملة ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ التي تدلّ على الحصر وفقاً للقواعد العربية، توحي بأنّ هذا الطريق هو الطريق الوحيد إلى الإخلاص، طريق المحسنين، طريق أُولئك المرتبطين بالله وخلقه، وطريق أُولئك الذين يؤمنون إيماناً كاملاً بالمبدأ والمعاد.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٩﴾

سبب النّزول

قال بعض المفسّرين: إنّ الآية الأُولى من هذه الآيات نزلت في «النضر بن الحارث»، فقد كان تاجراً يسافر إلى إيران، وكان يحدّث قريشاً بقصص الإيرانيين وأحاديثهم، وكان يقول: إذا كان محمّد يحدّثكم بقصص عاد وثمود فإنّي أُحدّثكم بقصص رستم وإسفنديار وأخبار كسرى وسلاطين العجم، فكانوا يجتمعون حوله ويتركون استماع القرآن.

وقال البعض الآخر: إنّ هذا المقطع من الآيات نزل في رجل اشترى جارية مغنّية، وكانت تغنّيه ليل نهار فتشغله عن ذكر الله.

يقول المفسّر الكبير الطبرسي رحمه الله، بعد ذكر سبب النّزول هذا: وقد روي حديث عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الباب يؤيّد سبب النّزول أعلاه، لأنّه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا يحلّ تعليم المغنّيات ولا بيعهن، وأثمانهنّ حرام، وقد نزل تصديق ذلك في كتاب الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ...﴾.

التّفسير

الغناء أحد مكائد الشياطين الكبيرة

الكلام في هذه الآيات عن جماعة يقعون تماماً في الطرف المقابل لجماعة المحسنين والمؤمنين الذين ذكروا في الآيات السابقة.

الكلام والحديث هنا عن جماعة يستخدمون طاقاتهم من أجل بثّ اللاهدفية وإضلال المجتمع، ويشترون شقاء وبؤس دنياهم وآخرتهم! فتقول أوّلاً: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي

﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾[١] ثمّ تضيف أخيراً: ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

إنّ شراء لهو الحديث والكلام الأجوف إمّا أن يتمّ عن طريق دفع المال في مقابل سماع الخرافات والأساطير، كما قرأنا ذلك في قصّة النضر بن الحارث.

أو أن يكون عن طريق شراء المغنّيات لعقد مجالس اللهو والباطل والغناء، أو صرف المال بأيّ شكل كان وفي أي طريق للوصول إلى هذا الهدف غير المشروع، أي لهو الحديث والكلام الفارغ.

والعجيب أنّ عمي القلوب هؤلاء، كانوا يشترون الكلام الباطل واللهو بأغلى القيم والأثمان، ويعرضون عن الآيات الإلهيّة والحكمة التي منحهم الله إيّاها مجّاناً!

ويحتمل أيضاً أن يكون للشراء هنا معنى كنائي، والمراد منه كلّ أنواع السعي للوصول إلى هذه الغاية.

وأمّا ﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ فإنّ له معنىً واسعاً يشمل كلّ نوع من الكلام أو الموسيقى أو الترجيع الذي يؤدّي إلى اللهو والغفلة، ويجرّ الإنسان إلى اللاهدفيّة أو الضلال، سواء كان من قبيل الغناء والألحان والموسيقى المهيّجة المثيرة للشهوة والغرائز والميول الشيطانية، أو الكلام الذي يسوق الإنسان إلى الفساد عن طريق محتواه ومضامينه، وقد يكون عن كلا الطريقين كما هو الحال في أشعار وتأليفات المغنّين الغراميّة العاديّة المضلّلة في محتواها وألحانها.

أو يكون كالقصص الخرافية والأساطير التي تؤدّي إلى انحراف الناس عن الصراط المستقيم.

أو يكون كلام الاستهزاء والسخرية الذي يطلق بهدف محو الحقّ وتضعيف أُسس ودعائم الإيمان، كالذي ينقلونه عن أبي جهل أنّه كان يقف على قريش ويقول: أتريدون أن أُطعمكم من الزقّوم الذي يتهدّدنا به محمّد؟ ثمّ يبعث فيحضرون الزبد والتمر، فكان يقول: هذا هو الزقّوم! وبهذا الأُسلوب كان يستهزىء بآيات الله.

وعلى كلّ حال، فإنّ للهو الحديث معنىً واسعاً يتضمّن كلّ هذه المعاني وأمثالها،

---

(١) ضمير «يتّخذها» يعود إلى (آيات الكتاب) التي وردت في الآيات السابقة. واحتمل البعض أنّه يعود إلى (السبيل)، لأنّ كلمة (السبيل) قد وردت في آيات القرآن بصيغة المذكّر تارةً، وبصيغة المؤنث تارةً أخرى.

وإذا أشارت الروايات الإسلامية وكلمات المفسّرين إلى إحداها، فإنّ ذلك لا يدلّ مطلقاً على انحصار معنى الآية فيه.

وتلاحظ في الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام تعبيرات تبيّن سعة معنى هذه الكلمة، ومن جملتها ما نراه في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «الغناء مجلس لا ينظر الله إلى أهله، وهو ممّا قال الله عزّوجلّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾»(١).

والتعبير بـ﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ بدلاً من (حديث اللهو) ربّما كان إشارة إلى أنّ الهدف الأساس لهؤلاء هو اللهو والعبث، والكلام والحديث وسيلة للوصول إليه.

ولجملة ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ مفهوم واسع أيضاً، يشمل الإضلال العقائدي، كما قرأنا ذلك في قصّة النضر بن الحارث وأبي جهل، وكذلك يشمل الإفساد الأخلاقي كما جاء في أحاديث الغناء.

والتعبير بـ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إشارة إلى أنّ هذه الجماعة الضالّة المنحرفة لا تؤمن حتى بمذهبها الباطل، بل يتّبعون الجهل والتقليد الأعمى لا غير، فإنّهم جهلاء يورطون ويشغلون الآخرين بجهلهم.

هذا إذا اعتبرنا ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وصفاً للمضلّين، إلاّ أنّ بعض المفسّرين اعتبر هذا التعبير وصفاً للضالّين، أي أنّهم يجرّون الناس الجهلة إلى وادي الانحراف والباطل دون أن يعلموا بذلك لجهلهم.

إنّ هؤلاء المغفّلين قد يتمادون في غيّهم فلا يقنعون بلهو هذه المسائل، بل إنّهم يجعلون كلامهم الأجوف ولهو حديثهم وسيلة للاستهزاء بآيات الله، وهذا هو الذي أشارت إليه نهاية الآية حيث تقول: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾.

أمّا وصف العذاب بـ(المهين) فلأنّ العقوبة متناغمة مع الذنب، فإنّ هؤلاء قد استهزؤوا بآيات الله وأهانوها، ولذلك فإنّ الله سبحانه قد أعدّ لهم عذاباً مهيناً، إضافة إلى كونه أليماً.

وأشارت الآية التالية إلى ردّ فعل هذه الفئة أمام آيات الله، وتوحي بالمقارنة بردّ فعلهم تجاه لهو الحديث، فتقول: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ أي ثقلاً يمنعه من السماع..

---

(١) وسائل الشيعة، ج١٢، ص٢٢٨ (باب تحريم الغناء) و(ج١٧، ص٣٠٧، طبعة آل البيت).

ثمّ تذكر أخيراً عقاب مثل هؤلاء الأفراد الأليم فتقول: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

إنّ التعبير بـ ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ إشارة إلى أنّ إعراضه لم يكن نابعاً من تضرّر مصالحه الدنيويّة والحدّ من رغباته وشهواته فحسب، بل إنّ الأمر أكبر من ذلك، فإنّ فيه دافع التكبّر أمام عظمة الله وآياته، وهو أعظم ذنب فيه.

والرائع في تعبير الآية أنّها تقول أوّلاً: إنّه لم يعبأ بآيات الله كأنّه لم يسمعها قطّ، ويمرّ عليها دون اكتراث بها، ثمّ تضيف: بل كأنّه أصمّ لا يسمع أيّ كلام قطّ!

إنّ جزاء مثل هؤلاء الأفراد يناسب أعمالهم، فكما أنّ أعمالهم كانت مؤلمة ومؤذية لأهل الحقّ، فإنّ الله سبحانه قد جعل عقابهم وعذابهم أليماً أيضاً.

وينبغي الالتفات إلى أنّ تعبير ﴿بَشِّرْ﴾ في مورد العذاب الإلهي الأليم، يتناسب مع عمل المستكبرين الذين كانوا يتّخذون آيات الله هزواً، والتشبّه بصفات أبي جهل، حيث كانوا يفسّرون «زقّوم جهنّم» بالزبد والتمر!

ثمّ تعود الآيات التالية إلى شرح وتبيان حال المؤمنين الحقيقيّين، وقد بدأت السورة في مقارنتها هذه بذكر حالهم أوّلاً ثمّ ختمت به في نهاية هذا المقطع أيضاً، فتقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾.

أجل، إنّ هذه الفئة على عكس المستكبرين والضالّين المضلّين الذين لا يرون آثار قدرة الله في عالم الوجود، ولا يصغون إلى كلام أنبياء الله.

إنّ هؤلاء يؤمنون بحكم العقل الواعي، والعين البصيرة، والأُذن السامعة التي منحهم الله إيّاها، يؤمنون بآيات الله ويعملون بها صالحاً، فما أجدر أن يكون لأُولئك العذاب الأليم، ولهؤلاء جنّات النعيم!

والأهمّ من ذلك أنّ هذه الجنان الوافرة النعم خالدة لهؤلاء ﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ والله سبحانه لا يعد كذباً، وليس عاجزاً عن الوفاء بوعوده ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وثمّة مسألة تستحقّ الدقّة، وهي أنّه قد ورد العذاب في حقّ المستكبرين بصيغة المفرد، وفي شأن المؤمنين الذين يعملون الصالحات جاءت «الجنّات» بصيغة الجمع، وذلك لأنّ رحمة الله عزّوجلّ وسعت غضبه.

والتأكيد على الخلود ووعد الله الحقّ، تأكيد أيضاً على سعة هذه الرحمة، وتفوّقها على الغضب.

وللنعيم معنىً واسع يشمل كلّ أنواع النعم المادّيّة والمعنوية، وحتى النعم التي لا

يمكن أن ندركها، فنحن أُسارى شهوات البدن في هذه الدنيا، والراغب في (مفرداته) يقول: النعيم: النعمة الكثيرة.

بحوث

١ - تحريم الغناء

لا شكّ في أنّ الغناء بصورة إجمالية حرام على المشهور بين علماء الشيعة، وتصل هذه الشهرة إلى حدّ الإجماع.

وأكّد كثير من علماء أهل السنّة على هذه الحرمة، وإن كان بعضهم قد استثنوا بعض الأُمور، وربّما لا يُعدّ بعضها استثناءً في الحقيقة، بل تعتبر خارجة عن موضوع الغناء، أو كما يقال: خارج تخصّصاً.

يقول «القرطبي» في ذيل الآيات مورد البحث في هذا الباب: «وهو الغناء المعتاد عند المشتهرين به، الذي يحرّك النفوس ويبعثها على الهوى والغزل، والمجون الذي يحرّك الساكن ويبعث الكامن، فهذا النوع إذا كان في شعر يُشبّب فيه بذكر النساء ووصف محاسنهن وذكر الخمور والمحرّمات لا يختلف في تحريمه، لأنّه اللهو والغناء المذموم بالاتّفاق، فأمّا ما سلم من ذلك فيجوز القليل منه في أوقات الفرح، كالعرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقّة كما كان في حفر الخندق وحدو أنجشة وسلمة بن الأكوع، فامّا ما ابتدعته الصوفية اليوم من الإدمان على سماع الأغاني بالآلات المطربة من الشبابات والطار والمعازف والأوتار فحرام»(١).

إنّ ما ذكره القرطبي وبيّنه كاستثناء، من قبيل الحداء للإبل، أو الأشعار الخاصّة التي كان يقرؤها المسلمون أثناء حفر الخندق، يحتمل قوياً أنّه لم يكن من الغناء أساساً، فهو شبيه بالأشعار التي يقرؤها جماعة بلحن خاصّ في المسيرات أو مجالس الفرح ومجالس العزاء الدينيّة.

وفي أيدينا أدلّة كثيرة على تحريم الغناء في المصادر الإسلامية، ومن جملتها الآية أعلاه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ وبعض آيات أُخر من القرآن التي تنطبق -

(١) تفسير القرطبي، ج٧، ص٥١٣٦.

على الأقلّ طبق الروايات الواردة في تفسير هذه الآيات - على الغناء، أو أنّ الغناء اعتُبر من مصاديقها:

ففي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير آية: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾[1] قال: «قول الزور الغناء»[2].

وعنه عليه السلام في تفسير الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾[3] قال: «الغناء»[4].

وقد رويت في تفسير هذه الآية روايات عديدة عن الأئمة الباقر والصادق والرضا عليهم السلام أوضحوا فيها أنّ أحد مصاديق لهو الحديث الموجب للعذاب المهين هو «الغناء»[5].

إضافةً إلى هذا فإنّه تلاحظ في المصادر الإسلامية روايات كثيرة أُخرى - عدا ما ورد في تفسير الآيات - تبيّن تحريم الغناء بصورة مؤكّدة:

ففي حديث مروي عن جابر بن عبد الله، عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: «كان إبليس أوّل من تغنّى»[6].

وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «بيت الغناء لا تؤمن فيه الفجيعة، ولا تجاب فيه الدعوة، ولا يدخله الملك»[7].

وفي حديث آخر عنه عليه السلام: «الغناء يورث النفاق، ويعقب الفقر»[8].

وفي حديث آخر عن الصادق عليه السلام: «المغنّية ملعونة، ومن أدّاها ملعون، وآكل كسبها ملعون»[9].

وقد نقلت روايات كثيرة في هذا المجال في كتب أهل السنّة المعروفة أيضاً، ومن جملتها الرواية التي نقلها في (الدرّ المنثور) عن جماعة كثيرة من المحدّثين، عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، أنّه قال: «لا يحلّ تعليم المغنّيات ولا بيعهنّ، وأثمانهنّ حرام»[10].

ونقل نظير هذا المعنى كاتب (التاج) عن الترمذي والإمام أحمد[11].

---

(١) سورة الحجّ، الآية: ٣٠.

(٢) وسائل الشيعة، ج١٢، ص٢٢٥ - ٢٢٧، ٢٣١ باب تحريم الغناء.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٧٢.

(٤-٨) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٢٢٥ باب تحريم الغناء.

(٩) سفينة البحار، ج٢، ص ٣٣٨.

(١٠) تفسير الدرّ المنثور، ذيل الآية مورد البحث.

(١١) التاج، ج ٥، ص ٢٨٧.

ويروي ابن مسعود عن النّبي ﷺ أنّه قال: «الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل»(١).

وبالجملة، فإنّ الرّوايات الواردة في هذا الباب كثيرة جدّاً بحيث تصل إلى حدّ التواتر، ولهذا فإنّ أكثر علماء الإسلام قد أفتوا بالحرمة، علاوةً على علماء الشيعة، الذين يتّفقون بالرأي في هذا الموضوع تقريباً، وقد نقل تحريمه عن أبي حنيفة أيضاً، وعندما سألوا «أحمد» - إمام السنّة المعروف - عن الغناء قال: ينبت النفاق.

وقال «مالك» - إمام أهل السنّة المعروف - مجيباً عن هذا السؤال: يفعله الفسّاق.

وصرّح «الشافعي» بأنّ شهادة أصحاب الغناء غير مقبولة، وهذا بنفسه دليل على فسق هؤلاء.

ونقل عن أصحاب الشافعي أيضاً أنّهم اعتبروا فتوى الشافعي تحريماً، على خلاف ما اعتقده البعض(٢).

٢ - ما هو الغناء؟

لا يواجهنا إشكال مهم في حرمة الغناء، إنّما الإشكال الصعب هو تشخيص موضوع الغناء، فهل أنّ كلّ صوت حسن غناء؟

من المسلّم أنّ الأمر ليس كذلك، لأنّه قد ورد في الرّوايات الإسلامية، وسيرة المسلمين تحكي أيضاً، أن اقرؤوا القرآن وأذّنوا بصوت حسن.

هل أنّ الغناء كلّ صوت فيه ترجيع - وهو تردّد الصوت في الحنجرة -؟ هذا أيضاً غير ثابت.

والذي يمكن استفادته من مجموع كلمات فقهاء وأقوال أهل السنّة في هذا المجال، أنّ الغناء هو كلّ لحن وصوت يطرب، ويشتمل على اللهو والباطل.

وبعبارة أوضح: الغناء هو الأصوات والألحان التي تناسب مجالس الفسق والفجور، وأهل المعصية والفساد.

وبتعبير آخر: الغناء يقال للصوت الذي يحرّك القوى الشهوانية في الإنسان، بحيث يشعر الإنسان في تلك الحال بأنّه لو كان إلى جانب هذا الصوت خمر ومسكر وإباحة وفساد جنسي، لكان ذلك مناسباً جدّاً!

(١-٢) تفسير روح المعاني، ذيل الآية مورد البحث.

وهناك مسألة تستحقّ الانتباه، وهي أنّ بعض الألحان تعدّ أحياناً غناءً ولهواً باطلاً بذاتها ومحتواها، مثال ذلك أشعار العشق والغرام والأشعار المفسدة التي تُقرأ بألحان وموسيقى راقصة.

وقد تكون الألحان بذاتها غناءً أحياناً أُخرى، مثال الأشعار الجيدة، أو آيات القرآن والدعاء والمناجاة التي تُقرأ بلحن يناسب مجالس الفاسدين والفسّاق، وهو حرام في كلتا الصورتين «فتأمّل».

وثمّة مسألة ينبغي ذكرها، وهي أنّه يذكر للغناء معنيان: معنى عامّ، ومعنى خاصّ، والمعنى الخاصّ هو ما ذكرناه أعلاه، أي الموسيقى والألحان التي تحرّك الشهوات، وتناسب مجالس الفسق والفجور.

والمعنى العامّ هو كلّ صوت حسن، فمن فسّر الغناء بالمعنى العامّ قسّمه إلى قسمين: غناء حلال، وغناء حرام.

والمراد من الغناء الحرام: هو ما قيل أعلاه، والمراد من الغناء الحلال: الصوت الحسن الجميل والذي لا يكون باعثاً على الفساد، ولا يناسب مجالس الفسق والفجور.

وبناءً على هذا فلا يوجد اختلاف - تقريباً - في أصل تحريم الغناء، بل الاختلاف في كيفية تفسيره.

ومن الطبيعي أن يكون للغناء موارد شكّ - ككلّ المفاهيم الأُخرى - وأنّ الإنسان لا يعلم حقّاً هل أنّ الصوت الفلاني يناسب مجالس الفسق والفجور، أم لا؟ وفي هذه الصورة يحكم بالحلّية بحكم أصل البراءة، وهذا - طبعاً - بعد الإحاطة الكافية بالمفهوم العرفي للغناء طبق التعريف أعلاه.

ومن هنا يتّضح أنّ الأصوات والموسيقى الحماسية التي تناسب ساحات الحرب أو الرياضة وأمثالها لا دليل على حرمتها.

ومن الطبيعي أنّ هناك بحوثاً أُخرى في باب الغناء، من قبيل بعض الاستثناءات التي قبلها جماعة وأنكرها آخرون، ومسائل أُخرى ينبغي الكلام عنها في الكتب الفقهيّة.

والكلام الأخير هو أنّ ما ذُكر أعلاه يتعلّق بالغناء، وأمّا استعمال الآلات الموسيقية وحرمتها، فهو بحث آخر خارج عن هذا الموضوع.

٣ - فلسفة تحريم الغناء

إنّ التدقيق في مفهوم الغناء - مع الشروط التي قلناها في شرح هذا المفهوم - تجعل الغاية من تحريم الغناء واضحة جدّاً.

فبنظرة سريعة إلى معطيات الغناء سنواجه المفاسد أدناه:

أوّلاً: الترغيب والدعوة إلى فساد الأخلاق

لقد بيّنت التجربة - والتجربة خير شاهد - أنّ كثيراً من الأفراد الواقعين تحت تأثير موسيقى وألحان الغناء قد تركوا طريق التقوى، واتّجهوا نحو الشهوات والفساد.

إنّ مجلس الغناء - عادةً - يُعدّ مركزاً لأنواع المفاسد، والدافع على هذه المفاسد هو الغناء.

ونقرأ في بعض التقارير التي وردت في الصحف الأجنبية أنّه كان في مجلس جماعة من الفتيان والفتيات فعُزفت فيه موسيقى خاصّة وعلى نمط خاص من الغناء، فهيّجت الفتيان والفتيات إلى الحدّ الذي هجم فيه بعضهم على البعض الآخر، وعملوا من الفضائح ما يخجل القلم عن ذكره.

وينقل في تفسير (روح المعاني) حديثاً عن أحد زعماء بني أُميّة أنّه قال لهم: إيّاكم والغناء فإنّه ينقص الحياء، ويزيد في الشهوة، ويهدم المروءة، وإنّه ينوب عن الخمر، ويفعل ما يفعل السكر(١). وهذا يبيّن أنّه حتى أُولئك كانوا مطّلعين على مفاسده أيضاً.

وعندما نرى في الرّوايات الإسلامية: أنّ الغناء ينبت النفاق، فإنّه إشارة إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ روح النفاق هي روح التلوّث بالفساد والابتعاد عن التقوى.

وإذا جاء في الرّوايات أنّ الملائكة لا تدخل البيت الذي فيه غناء، فبسبب التلوّث بالفساد، لأنّ الملائكة طاهرة تطلب الطهارة، وتتأذّى من هذه الأجواء الملوّثة.

ثانياً: الغفلة عن ذكر الله

إنّ التعبير باللهو الذي فسّر بالغناء في بعض الرّوايات الإسلامية إشارة إلى حقيقة أنّ الغناء يجعل الإنسان عبداً ثملاً من الشهوات حتى يغفل عن ذكر الله.

وفي الآيات أعلاه قرأنا أنّ «لهو الحديث» أحد عوامل الضلالة عن سبيل الله، وموجب للعذاب الأليم.

---

(١) تفسير روح المعاني، ج ٢١، ص ٦٠.

في حديث عن علي عليه السلام: «كلّ ما ألهى عن ذكر الله (وأوقع الإنسان في وحل الشهوات) فهو من الميسر»[١] - أي في حكم القمار -.

ثالثاً: الإضرار بالأعصاب

إنّ الغناء والموسيقى - في الحقيقة - أحد العوامل المهمّة في تخدير الأعصاب، وبتعبير آخر: إنّ الموادّ المخدّرة ترد البدن عن طريق الفمّ والشرب أحياناً كالخمر، وأحياناً عن طريق الشمّ وحاسّة الشمّ كالهيروئين، وأحياناً عن طريق التزريق كالمورفين، وأحياناً عن طريق حاسّة السمع كالغناء.

ولهذا فإنّ الغناء والموسيقى المطربة قد تجعل الأفراد منتشين أحياناً إلى حدّ يشبهون فيه السكارى، وقد لا يصل إلى هذه المرحلة أحياناً، ولكنّه يوجد تخديراً خفيفاً، ولهذا فإنّ كثيراً من مفاسد المخدّرات موجودة في الغناء، سواء كان تخديره خفيفاً أم قويّاً.

«إنّ الانتباه بدقّة إلى سيرة مشاهير الموسيقيين يبيّن أنّهم قد واجهوا تدريجيّاً مصاعب وصدمات نفسية خلال مراحل حياتهم حتى فقدوا أعصابهم شيئاً فشيئاً، وابتُلي عدد منهم بأمراض نفسية، وجماعة فقدوا مشاعرهم وساروا إلى دار المجانين، وبعضهم أُصيبوا بالشلل والعجز، وبعضهم أُصيب بالسكتة، حيث ارتفع ضغط الدم عندهم أثناء عزف الموسيقى»[٢].

وقد جاء في بعض الكتب التي كتبت في مجال الآثار المضرّة للموسيقى على أعصاب الإنسان، حالات جمع من الموسيقيين والمغنّين المعروفين الذين أُصيبوا بالسكتة وموت الفجأة أثناء أداء برامجهم، وزهقت أرواحهم في ذلك المجلس[٣].

وخلاصة القول فإنّ الآثار المضرّة للغناء والموسيقى على الأعصاب تصل إلى حدّ إيجاد الجنون، وتؤثّر على القلب وتؤدّي إلى ارتفاع ضغط الدم وغير ذلك من الآثار المخرّبة.

ويستفاد من الإحصاءات المعدّة للوفيّات في عصرنا الحالي بأنّ معدّل موت الفجأة قد ازداد بالمقارنة مع السابق، وقد ذكروا أسباباً مختلفة كان من جملتها الغناء والموسيقى.

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٢٣٥.
(٢) تأثير الموسيقى على النفس والأعصاب، ص ٢٦.
(٣) يراجع المصدر السابق، ص ٩٢ وما بعدها.

رابعاً: الغناء أحد وسائل الاستعمار

إنّ مستعمري العالم يخافون دائماً من وعي الشعوب، وخاصّة الشباب، ولذلك فإنّ جانباً من برامجهم الواسعة لاستمرار وإدامة الاستعمار هو إغراق المجتمعات بالغفلة والجهل والضلال، وتوسعة وسائل اللهو المفسدة.

إنّ المخدّرات لا تتّصف اليوم بصفة تجارية فقط، بل هي أحد الوسائل السياسية المهمّة، فإنّ السياسات الاستعمارية تسعى إلى إيجاد مراكز الفحشاء ونوادي القمار ووسائل اللهو الفاسدة الأُخرى، ومن جملتها توسعة ونشر الغناء والموسيقى، وهي من أهمّ الوسائل التي يصرّ عليها المستعمرون لتخدير أفكار الناس، ولهذا فإنّ الموسيقى تشكّل القسم الأكبر من وقت إذاعات العالم ووسائل الإعلام الأساسية.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾﴾

التّفسير

هذا خلق الله

مواصلة للبحث حول القرآن والإيمان به في الآيات السابقة، تتحدّث الآيتان أعلاه عن أدلّة التوحيد الذي هو أهمّ الأُصول العقائدية.

تشير الآية الأُولى إلى خمسة أقسام من مخلوقات الله التي ترتبط مع بعضها ارتباطاً وثيقاً لا ينفصل، وهي: خلق السماء، وكون الكواكب معلّقة في الفضاء، وخلق الجبال لتثبيت الأرض، ثمّ خلق الدواب، وبعد ذلك الماء والنباتات التي هي وسيلة تغذيتها، فتقول: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾.

(العَمَد) جمع (عمود)، وتقييد بنائها وإقامتها بـ ﴿تَرَوۡنَهَا﴾ دليل على أنّه ليس لهذه السماء أعمدة مرئيّة، ومعنى ذلك أنّ لها أعمدة إلاّ أنّها غير قابلة للرؤية، وكما قلنا قبل هذا في تفسير سورة الرعد أيضاً، فإنّ هذا التعبير إشارة لطيفة إلى قانون الجاذبيّة الذي يبدو كالعمود القويّ جدّاً، إلاّ أنّه غير مرئيّ، يحفظ الأجرام السماوية.

وقد صُرّح في حديث رواه حسين بن خالد، عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، أنّه قال: «سبحان الله! أليس الله يقول: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ «قلت: بلى، قال: «ثمّ عمد ولكن لا ترونها»[(١)] [(٢)].

وعلى كلّ حال، فإنّ الجملة أعلاه أحد معاجز القرآن المجيد العلميّة، وقد أوردنا تفصيلاً أكثر عنها في ذيل الآية (٢) من سورة الرعد.

ثمّ تقول الآية في الغاية من خلق الجبال: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[(٣)].

إنّ هذه الآية التي لها نظائر كثيرة في القرآن، توضّح أنّ الجبال وسيلة لتثبيت الأرض، وقد ثبتت هذه الحقيقة اليوم من الناحية العلميّة من جهات عديدة:

فمن جهة أنّ أُصولها مرتبطة مع بعضها، وهي كالدرع المحكم يحفظ الكرة الأرضية أمام الضغوط الناشئة من الحرارة الداخلية، ولولا هذه الجبال فإنّ الزلازل المدمّرة كانت ستبلغ حدّاً ربّما لا تدع معه للإنسان مجالاً للحياة.

ومن جهة أنّ هذه السلسلة المحكمة تقاوم جاذبية القمر والشمس الشديدة، وإلاّ فسيحدث جزر ومدّ عظيمان في القشرة الأرضية أقوى من جزر ومدّ البحار، وتجعل الحياة بالنسبة للإنسان مستحيلة.

ومن جهة أنّها تقف سدّاً أمام العواصف والرياح العاتية، وتقلّل من تماسّ الهواء المجاور للأرض عند دوران الأرض حول نفسها إلى أقلّ حدّ، ولو لم تكن هذه الجبال لكان سطح الأرض كالصحاري اليابسة، وعرضة للأعاصير والزوابع المهلكة، والعواصف الهوجاء المدمّرة ليل نهار[(٤)].

وبعد ذكر نعمة استقرار السماء بأعمدة الجاذبية. واستقرار وثبات الأرض بواسطة الجبال، تصل النوبة إلى خلق الكائنات الحيّة واستقرارها، بحيث تستطيع أن تضع أقدامها في محيط هادىء مطمئن، فتقول: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾.

---

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٢٧٨.

(٢) إنّ الذين اعتبروا الآية أعلاه دليلاً على نفي العمد مطلقاً لابدّ لهم من التقديم والتأخير في الآية ليقولوا: إنّ أصل الجملة كانت: خلق السماوات ترونها بغير عمد، وهذا خلاف الظاهر قطعاً.

(٣) «تميد» من (الميد) أي تزلزل الأشياء واضطرابها اضطراباً عظيماً، وجملة ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ في تقدير: لئلاّ تميد بكم.

(٤) لمزيد الاطلاع حول فوائد الجبال راجع ذيل الآية (٣) من سورة الرعد.

إنّ التعبير بـ ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ إشارة إلى تنوّع الحياة في صور مختلفة، ابتداءً من الكائنات الحيّة المجهرية والتي ملأت جميع الأرجاء إلى الحيوانات العملاقة والمخوفة.

وكذلك الحيوانات المختلفة الألوان، والمتفاوتة الأشكال التي تعيش في الماء والهواء من الطيور والزواحف، والحشرات المختلفة وأمثالها، والتي لكلّ منها عالمها الخاصّ تعكس الحياة في مئات الآلاف من المرايا.

إلاّ أنّ من المعلوم أنّ هذه الحيوانات تحتاج إلى الماء والغذاء، ولذلك فإنّ الجملة التالية أشارت إلى هذا الموضوع، فقالت: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.

وبهذا فإنّ الآية تبيّن أساس حياة كلّ الحيوانات - وخاصّة الإنسان - والذي يكوّنه الماء والنبات، فالكرة الأرضية تعتبر سماطاً واسعاً ذا أغذية متنوّعة يمتدّ في جميع أنحائها، ويصلح لكلّ نوع منها حسب خلقته، ممّا يدلّ على عظمة الخالق جلّ وعلا.

وممّا يستحقّ الانتباه هو أنّه في بيان خلق الأقسام الثلاثة الأُولى ذكرت الأفعال بصيغة الغائب، وحين وصل الأمر إلى نزول المطر ونمو النباتات أتت الأفعال بصيغة المتكلّم، فيقول: نحن أنزلنا من السماء ماءً، ونحن أنبتنا النباتات في الأرض.

وهذا بنفسه أحد فنون الفصاحة، حيث إنّهم عندما يريدون ذكر أُمور مختلفة، فإنّهم يبيّنونها بشكلين أو أكثر، كي لا يشعر السامع بأيّ نوع من الضجر والرتابة، إضافةً إلى أنّ هذا التعبير يوضّح أنّ نزول المطر ونمو النبات كانا محطّ اهتمام خاصّ.

ثمّ تشير هذه الآية مرّة أُخرى إلى مسألة (الزوجيّة في عالم النباتات) وهي أيضاً من معجزات القرآن العلميّة، لأنّ الزوجيّة - أي وجود الذكر والأُنثى - في عالم النباتات لم تكن ثابتة في ذلك الزمان بصورة واسعة، والقرآن كشف الستار عنها، ولزيادة التفصيل حول هذه المسألة يمكنكم مراجعة ذيل الآية (٧) من سورة الشعراء.

ثمّ إنّ وصف أزواج النباتات بـ«الكريم» إشارة ضمنية إلى أنواع المواهب الموجودة فيها.

بعد ذكر عظمة الله في عالم الخلقة، وذكر صور مختلفة من المخلوقات، وجّهت الآية الخطاب إلى المشركين، وجعلتهم موضع سؤال واستجواب، فقالت: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾؟!

من المسلّم أنّ أُولئك لم يكونوا يستطيعون ادّعاء كون أيّ من المخلوقات من
الأصنام، وعلى هذا فإنّهم كانوا يقرّون بتوحيد الخالق، مع هذا الحال كيف يستطي
تعليل الشرك في العبادة؟! لأنّ توحيد الخالق دليل على توحيد الربّ وكون مدبّر ال
واحداً، وهو دليل على توحيد العبوديّة.

ولذلك اعتبرت الآية عمل أُولئك منطبقاً على الظلم والضلال، فقالت: ﴿بَلِ ٱلظَّٰ
فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

ومعلوم أنّ «الظلم» له معنىً واسعاً يشمل وضع كلّ شيء في غير موضعه، ولمّا
المشركون يربطون العبادة، وتدبير العالم أحياناً بالأصنام، فإنّهم كانوا مرتكبين لأ
ظلم وضلالة.

ثمّ إنّ التعبير أعلاه يتضمّن إشارة لطيفة إلى ارتباط «الظلم» و«الضلال»، لأنّ الإن
عندما لا يعرف مكانة الموجودات الموضوعية في العالم، أو يعرفها ولا يراعيها،
يرى كلّ شيء في مكانه، فمن المسلّم أنّ هذا الظلم سيكون سبباً للضلالة والضياع.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴿١٢﴾ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

التّفسير

احترام الوالدين

لتكميل البحوث السابقة حول التوحيد والشرك، وأهميّة وعظمة القرآن، والحـ
التي استعملت واتّبعت في هذا الكتاب السماوي، فقد ورد الكلام في هذه الآيات ا
نبحثها والآيات الأُخرى التالية عن لقمان الحكيم، وعن جانب من المواعظ الم

لهذا الرجل المتألّه في باب التوحيد ومحاربة الشرك، وقد انعكست المسائل الأخلاقيّة المهمّة في مواعظ لقمان لابنه.

إنّ هذه المواعظ العشر التي ذكرت ضمن ستّ آيات، قد بيّنت بأُسلوب رائع المسائل العقائدية، إضافةً إلى أُصول الواجبات الدينيّة والمباحث الأخلاقية.

وسنبحث فيما بعد - في بحث الملاحظات - إن شاء الله تعالى، من هو لقمان؟ وأيّة خصائص كان يمتلكها؟ ولكن ما نذكره هنا هو أنّ القرائن تبيّن أنّه لم يكن نبيّاً، بل كان رجلاً ورعاً مهذّباً انتصر في ميدان جهاد هوى النفس، فكان أن فجّر الله تعالى في قلبه ينابيع العلم والحكمة.

ويكفي في عظمة مقامه أنّ الله قد قرن مواعظه بكلامه، وذكرها في طيّات آيات القرآن.

أجل... عندما يتنوّر قلب الإنسان بنور الحكمة نتيجة للطهارة والتقوى، فإنّ الكلام الإلهي يجري على لسانه، ويقول ما يقوله الله، ويفكّر بالشكل الذي يرضاه الله!

بعد هذا التوضيح الموجز نعود إلى تفسير الآيات:

تقول الآية الأُولى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾(١).

فما هي الحكمة؟

في معرض الحديث عن ماهية الحكمة ينبغي القول: إنّهم قد ذكروا للحكمة معانٍ كثيرة، مثل: معرفة أسرار عالم الوجود، والإحاطة والعلم بحقائق القرآن، والوصول إلى الحقّ من جهة القول والعمل، ومعرفة الله.

إلاّ أنّ كلّ هذه المعاني يمكن جمعها في تعريف واحد، فالحكمة التي يتحدّث عنها القرآن، والتي كان الله قد آتاها لقمان، كانت مجموعة من المعرفة والعلم، والأخلاق الطاهرة والتقوى ونور الهداية.

---

(١) هناك بحث بين المفسّرين في أنّه هل يوجد لجملة ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ شيء مقدّر أم لا؟ فالبعض يعتقد أنّ جملة (قلنا له) مقدّرة قبلها، والبعض يقولون: لا تحتاج إلى تقدير، و(أنّ) في جملة ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾ تفسيرية، لأنّ الشكر بنفسه عين الحكمة، والحكمة عينه. وكلا التّفسيرين يمكن قبوله.

وفي حديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، أنّه قال لهشام بن الحكم في تفسير هذه الآية: «إنّ الحكمة هي الفهم والعقل»[١].

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية، أنّه قال: «أُوتي معرفة إمام زمانه»[٢].

ومن الواضح أنّ كلاً من هذه المفاهيم يعتبر أحد فروع معنى الحكمة الواسع، ولا منافاة بينها.

وعلى كلّ حال، فإنّ لقمان بامتلاكه هذه الحكمة كان يشكر الله، فقد كان يعلم الهدف من وراء هذه النعم الإلهيّة، وكيفيّة استغلالها والاستفادة منها، وكان يضعها بدقّة وصواب كامل في مكانها المناسب لتحقيق الهدف الذي خلقت من أجله، وهذه هي الحكمة، وهي وضع كلّ شيء في موضعه، وبناءً على هذا فإنّ الشكر والحكمة يعودان إلى نقطة واحدة.

وقد اتّضحت نتيجة الشكر والكفران للنعم بصورة ضمنية في الآية، وهي أنّ شكر النعمة سيكون من صالح الإنسان وفي منفعته، وأنّ كفران النعمة سيكون سبباً لضرره أيضاً، لأنّ الله سبحانه غنيّ عن العالمين، فلو أنّ كلّ الممكنات قد شكرته فلا يزيد في عظمته شيء، ولو أنّ كلّ الكائنات كفرت فلا ينقص من كبريائه شيء!

إنّ «اللام» في جملة ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ لام الاختصاص، و«اللام» في (لنفسه) لام النفع، وبناءً على هذا، فإنّ نفع الشكر، والذي هو دوام النعمة وكثرتها، إضافة إلى ثواب الآخرة يعود على الإنسان نفسه، كما أنّ مضرّة الكفر تحيق به فقط.

والتعبير بـ ﴿غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ إشارة إلى أنّ شكر الناس للأفراد العاديين إمّا أن يؤدّي إلى النفع الماديّ للمشكور، أو زيادة مكانة صاحبه في أنظار الناس، إلاّ أنّ أيّاً من هذين الأمرين لا معنى له ولا مصداق في حقّ الله تعالى، فإنّه غنيّ عن الجميع، وهو أهل لحمد كلّ الحامدين وثنائهم، فالملائكة تحمده، وكلّ ذرّات الوجود والموجودات مشغولة بتسبيحه، وإذا ما نطق إنسان بالكفر فليس له أدنى تأثير، فحتّى ذرّات وجوده مشغولة بحمده وثنائه بلسان الحال!

---

(١) أُصول الكافي، ج١، ص١٣ كتاب العقل والجهل حديث ١٢.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٩٦.

وممّا يجدر ذكره أنّ الشكر قد ذكر بصيغة المضارع، والذي يدلّ على الاستمرار، أمّا الكفر فقد جاء بصيغة الماضي الذي يصدق حتى على المرّة الواحدة، وهذا إشارة إلى أنّ الكفران ولو لمرّة واحدة يمكن أن يؤدّي إلى عواقب وخيمة مؤلمة، أمّا الشكر فإنّه لازم، ويجب أن يكون مستمرّاً ليطوي الإنسان مسيره التكاملي.

وبعد تعريف لقمان ومقامه العلمي والحِكَمي، أشارت الآية التالية إلى أُولى مواعظه، وهي في الوقت نفسه أهمّ وصاياه لولده، فقالت: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

إنّ حكمة لقمان توجب عليه أن يتوجّه قبل كلّ شيء إلى أهمّ المسائل الأساسية، وهي مسألة التوحيد. . . التوحيد في كلّ المجالات والأبعاد، لأنّ كلّ حركة هدّامة ضدّ التوجّه الإلهي تنبع من الشرك، من عبادة الدنيا والمنصب والهوى وأمثال ذلك، والذي يعتبر كلّ منها فرعاً من الشرك.

كما أنّ أساس كلّ الحركات الصحيحة البنّاءة هو التوحيد والتوجّه إلى الله، وإطاعة أوامره، والابتعاد عن غيره، وكسر كلّ الأصنام في ساحة كبريائه!

وممّا يستحقّ الإشارة أنّ لقمان الحكيم قد جعل علّة نفي الشرك هو أنّ الشرك ظلم عظيم، وقد أُحيط بالتأكيد من عدّة جهات[1].

وأيّ ظلم أعظم منه، حيث جعلوا موجودات لا قيمة لها في مصافّ الله ودرجته، هذا من جانب، ومن جانب آخر يجرّون الناس إلى الضلال والانحراف، ويظلمونهم بجناياتهم وجرائمهم، وهم يظلمون أنفسهم أيضاً حيث ينزلونها من قمّة عزّة العبودية لله ويهوون بها إلى منحدر ذلّة العبودية لغيره.

والآيتان التاليتان جمل معترضة ذكرها الله تعالى في طيّات مواعظ لقمان، لكنّ هذا الاعتراض لا يعني عدم الاتّصال والارتباط، بل يعني الصلة الواضحة لكلام الله عزّوجلّ بكلام لقمان، لأنّ في هاتين الآيتين بحثاً عن نعمة وجود الوالدين ومشاقّهما وخدماتهما وحقوقهما، وجعل شكر الوالدين في درجة شكر الله.

إضافةً إلى أنّهما تعتبران تأكيداً على كون مواعظ لقمان لابنه خالصة، لأنّ الوالدين مع هذه العلاقة القويّة وخلوص النيّة لا يمكن أن يذكرا في مواعظهما إلاّ ما فيه خير

(١) إنّ كلاًّ من (أن) و«اللام»، وكون الجملة اسمية من أدوات التأكيد.

وصلاح الولد، فتقول أوّلاً: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ وعندئذ تشير إلى جهود ومتاعب الأُمّ العظيمة، فتقول: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾(١).

وهذه المسألة قد ثبتت من الناحية العلمية، إذ أوضحت التجارب أنّ الأُمّهات في فترة الحمل يُصبن بالضعف والوهن، لأنّهنّ يصرفن خلاصة وجودهنّ في تغذية وتنمية الجنين، ويقدّمن له من موادهنّ الحياتية أفضلها، ولذلك فإنّ الأُمّهات أثناء فترة الحمل يبتلين بنقص أنواع الفيتامينات وفي حالة عدم تعويض هذا النقص فسيؤدّي إلى آلام ومتاعب كثيرة.

وهذا الأمر يستمر حتى في فترة الرضاعة، لأنّ اللبن عصارة وجود الأُمّ، ولهذا تضيف بعد ذلك فترة رضاعه سنتان ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ كما أُشير إلى ذلك في موضع آخر من القرآن: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾(٢)، والمراد فترة الرضاعة الكاملة، وإن كانت تتمّ أحياناً بفترة أقلّ.

وعلى كلّ حال، فإنّ الأُمّ في هذه الـ (٣٣) شهراً - فترة الحمل، وفترة الرضاع - تبدي وتقدّم أعظم تضحية لولدها، سواء كان من الجانب الروحي والعاطفي، أو الجسمي، أو من جهة الخدمات والرعاية.

والملفت للنظر هنا أنّها توصي في البداية بالوالدين معاً، إلاّ أنّها عند بيان المشاقّ والمتاعب تؤكّد على متاعب الأُمّ، لتنبّه الإنسان إلى إيثارها وتضحياتها وحقّها العظيم.

ثمّ تقول: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ فاشكرني لأنّي خالقك والمنعم الأصليّ عليك، ومنحتك مثل هذين الأبوين العطوفين الرحيمين، واشكر والديك لأنّهما واسطة هذا الفيض وقد تحمّلا مسؤولية إيصال نعمي إليك، فما أجمل أن يجعل شكر الوالدين قرين شكر الله! وما أعمق مغزاه!

ويقول الله تعالى في نهاية الآية بنبرة لا تخلو من التهديد والعتاب: ﴿وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾. نعم، فإنّك إذا قصّرت هنا فستحاسب على كلّ هذه الحقوق والمصاعب والخدمات بدقّة فيجب على الإنسان أن يؤدّي ما عليه من شكر مواهب الله، وكذلك شكر نعمة وجود الأبوين وعواطفهما الصادقة الطاهرة لينجح في ذلك الحساب وتلك المحكمة.

---

(١) إنّ جملة ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ يمكن أن تكون حالاً للأمّ بتقدير كلمة «ذات»، فكان تقديرها (حملته أُمّه ذات وهن على وهن). واحتُمل أيضاً أن تكون مفعولاً مطلقاً لفعل مقدّر من مادّة (وهن) فكان تقديره: (تهن وهناً على وهن).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

وفي هذا المجال التفت بعض المفسّرين إلى مسألة لطيفة، وهي أنّه قد ورد التأكيد على رعاية حقوق الأبوين مراراً في القرآن المجيد، إلاّ أنّ التوصية بالأولاد تلاحظ قليلاً - ما عدا مورد النهي عن قتل الأولاد، والتي كانت عادةً مشؤومة قبيحة واستثنائية في عصر الجاهلية - وذلك لأنّ الوالدين، وبحكم عواطفهما القويّة، قلّ ما يهملوا أولادهما بيد النسيان، في حين يلاحظ بكثرة أنّ الأولاد ينسون الأبوين، وخاصّة عند الكبر والعجز، وتعتبر هذه آلم وأشدّ حالة لهما، وأسوأ صور كفران النعمة بالنسبة للأولاد[1].

إنّ الوصيّة بالإحسان إلى الأبوين قد توجد الاشتباه والوهم عند البعض وذلك حينما يظنّ أنّه يجب مداراتهما واتّباعهما حتى في مسألة العقيدة والكفر والإيمان، لكنّ الآية التالية تقول: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ فيجب أن لا تكون علاقة الإنسان بأُمّه وأبيه مقدّمة على علاقته بالله مطلقاً، وأن لا تكون عواطف القرابة حاكمة على عقيدته الدينيّة أبداً.

جملة ﴿جَٰهَدَاكَ﴾ إشارة إلى أنّ الأبوين قد يظنّان أحياناً أنّهما يريدان سعادة الولد، ويسعيان إلى جرّه إلى عقيدتهما المنحرفة والإيمان بها، وهذا يلاحظ لدى كلّ الآباء والأُمّهات.

إنّ واجب الأولاد أن لا يستسلموا أبداً أمام هذه الضغوط، ويجب أن يحافظوا على استقلالهم الفكري، ولا يساوموا على عقيدة التوحيد، أو يبدّلوها بأيّ شيء.

ثمّ إنّ جملة ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ تشير ضمناً إلى أنّنا لو نتجاهل أدلّة بطلان الشرك، ولم نقم لها وزناً، فإنّه لا يوجد دليل على إثباته، ولا يستطيع أيّ متعنّت إثبات الشرك بالدليل.

وإذا تجاوزنا ذلك، فإنّ الشرك إن كانت له حقيقة، فينبغي أن يكون هناك دليل على إثباته، ولمّا لم يكن هناك دليل على إثباته، فإنّ هذا بنفسه دليل على بطلانه.

ولمّا كان من الممكن أيضاً أن يوجد هذا الأمر توهّم وجوب استخدام الخشونة مع الوالدين المشركين وعدم احترامهما، ولذلك أضافت الآية إنّ عدم طاعتهما في مسألة الشرك ليس دليلاً على وجوب قطع العلاقة معهما، بل تأمره الآية أن ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾.

---

(١) تفسير في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٤٨٤.

فلاطفهما وأظهر المحبّة لهما في الحياة الدنيويّة والمعاشرة، ولا تستسلم لأفكارهما واقتراحاتهما من الناحية العقائدية والبرامج الدينيّة، وهذه بالضبط نقطة الاعتدال الأصليّة التي تجمع فيها حقوق الله والوالدين، ولذا يضيف بعد ذلك ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ لأنّ المصير إليه سبحانه ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

إنّ سبب النفي والإثبات المتلاحق، والأوامر والنواهي المتتابعة في الآيات أعلاه هو أن يجد المسلمون الخطّ الأصلي ويشخّصوه في مثل هذه المسائل، حيث يبدو في أوّل الأمر أنّ هناك تناقضاً في أداء هذين الواجبين، فإن تفكّروا قليلاً فإنّ المسير الصحيح سيكون نصب أعينهم، وسيسيرون فيه دون أدنى إفراط ولا تفريط، وهذه الدقّة واللطافة القرآنية في أمثال هذه الدقائق من صور فصاحة القرآن وبلاغته العميقة.

وعلى كلّ حال، فإنّ الآية أعلاه تشبه ما جاء في الآية (٨) من سورة العنكبوت، حيث تقول: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وقد أوردنا في ذيل الآية (٨) من سورة العنكبوت سبب نزول لها ذُكر في بعض التفاسير.

بحثان

١ - من هو لقمان؟

لقد ورد اسم «لقمان» في آيتين من القرآن في هذه السورة، ولا يوجد في القرآن دليل صريح على أنّه كان نبيّاً أم لا، كما أنّ أُسلوب القرآن في شأن لقمان يوحي بأنّه لم يكن نبيّاً، لأنّه يلاحظ في القرآن أنّ الكلام في شأن الأنبياء عادةً يدور حول الرسالة والدعوة إلى التوحيد ومحاربة الشرك وانحرافات البيئة، وعدم المطالبة بالأجر والمكافأة، وكذلك بشارة الأُمم وإنذارها، في حين أنّ أيّاً من هذه الأُمور لم يذكر في شأن لقمان، والذي ورد هو مجموعة مواعظ خاصّة مع ولده (رغم شموليتها وعموميتها)، وهذا دليل على أنّه كان رجلاً حكيماً وحسب.

وفي حديث عن الرّسول الأكرم ﷺ: «حقّاً أقول: لم يكن لقمان نبيّاً، ولكن كان عبداً كثير التفكّر، حسن اليقين، أحبّ الله فأحبّه ومنّ عليه بالحكمة».

وجاء في بعض التواريخ: أنّ لقمان كان عبداً أسود من سودان مصر، ولكنّه إلى جانب وجهه الأسود كان له قلب مضيء وروح صافية، وكان يصدق في القول من

البداية، ولا يمزج الأمانة بالخيانة، ولم يكن يتدخّل فيما لا يعنيه(١).

واحتمل بعض المفسّرين نبوّته، لكن - كما قلنا - لا يوجد دليل على ذلك، بل لدينا شواهد واضحة على نقيض ذلك.

وجاء في بعض الرّوايات: أنّ شخصاً سأل لقمان: ألم تكن ترعى معنا؟ قال: نعم.

قال الرجل: فمن أين أتاك كلّ هذا العلم والحكمة؟

قال: قدر الله، وأداء الأمانة، وصدق الحديث، والصمت عمّا لا يعنيني(٢).

وورد كذلك في ذيل الحديث الذي نقلناه عن الرّسول الأكرم ﷺ: «كان لقمان نائماً نصف النهار، إذ جاءه نداء: يا لقمان، هل لك أن يجعلك الله خليفة تحكم بين الناس بالحقّ؟

فأجاب الصوت: إن خيّرني ربّي قبلت العافية، ولم أقبل البلاء، وإن عزم عليّ فسمعاً وطاعة، فإنّي أعلم أنّه إن فعل بي ذلك أعانني وعصمني.

فقالت الملائكة: دون أن يراهم: لِمَ يالقمان؟

قال: لأنّ الحكم أشدّ المنازل وآكدها، يغشاه الظلم من كلّ مكان، إن وقي فبالحري أن ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنّة، ومن يكن في الدنيا ذليلاً وفي الآخرة شريفاً خير من أن يكون في الدنيا شريفاً وفي الآخرة ذليلاً، ومن يخيّر الدنيا على الآخرة تفته الدنيا ولا يصيب الآخرة.

فتعجّبت الملائكة من حسن منطقه، فنام نومة فأُعطي الحكمة، فانتبه يتكلّم بها»(٣).

٢ - صور من حكمة لقمان

لقد ذكر بعض المفسّرين بعضاً من كلمات لقمان الحكيمة مناسبة للمواعظ التي وردت في آيات هذه السورة، ونحن نذكر هنا مختصراً منها:

أ - كان لقمان يقول لابنه: يابني، إنّ الدنيا بحر عميق، وقد هلك فيها عالم كثير، فاجعل سفينتك فيها الإيمان بالله، واجعل شراعها التوكّل على الله، واجعل زادك فيها تقوى الله، فإن نجوت فبرحمة الله، وإن هلكت فبذنوبك(٤).

---

(١) قصص القرآن. شرح أحوال لقمان.

(٢) تفسير مجمع البيان ذيل الآيات مورد البحث.

(٣-٤) تفسير مجمع البيان، ج ٨، ص ٣١٦ ذيل الآية مورد البحث.

وقد ورد نفس هذا المطلب ضمن كلام الإمام الكاظم عليه السلام مع هشام بن الحكم بصورة أكمل، نقلاً عن لقمان الحكيم: «يابنيّ، إنّ الدنيا بحر عميق، قد غرق فيها عالم كثير، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله، وحشوها الإيمان، وشراعها التوكّل، وقيّمها العقل، ودليلها العلم، وسكّانها الصبر»(١).

ب - وفي حوار آخر مع ابنه حول آداب السفر يقول:

يابنيّ، سافر بسيفك وخفّك وعمامتك، وخبائك وسقائك، وخيوطك ومخرزك، وتزوّد معك من الأدوية ما تنتفع به أنت ومن معك، وكن لأصحابك موافقاً إلاّ في معصية الله عزّ وجلّ.

يابنيّ، إذا سافرت مع قوم فأكثر استشارتهم في أمرك وأُمورهم.

وأكثر التبسّم في وجوههم.

وكن كريماً على زادك بينهم.

وإذا دعوك فأجبهم، وإذا استعانوا بك فأعنهم.

واستعمل طول الصمت، وكثرة الصلاة، وسخاء النفس بما معك من دابّة أو ماء أو زاد.

وإذا استشهدوك على الحقّ فاشهد لهم.

واجهد رأيك إذا استشاروك، ثمّ لا تعزم حتى تتثبّت وتنظر، ولا تجب في مشورة حتى تقوم فيها وتقعد، وتنام وتأكل وتصلّي، وأنت مستعمل فكرتك وحكمتك في مشورته، فإنّ من لم يمحض النتيجة لمن استشاره سلبه الله رأيه.

وإذا رأيت أصحابك يمشون فامش معهم، فإذا رأيتهم يعملون فاعمل معهم.

واسمع لمن هو أكبر منك سنّاً.

وإذا أمروك بأمر، وسألوك شيئاً فقل: نعم، ولا تقل: لا، فإنّ (لا) عيّ ولؤم.

يابنيّ، إذا جاء وقت الصلاة فلا تؤخّرها لشيء، صلّها واسترح منها فإنّها دَين.

وصلّ في جماعة ولو على رأس زجّ.

وإن استطعت أن لا تأكل طعاماً حتى تبتدىء فتتصدّق منه فافعل.

وعليك بقراءة كتاب الله(٢).

---

(١) أُصول الكافي، ج ١، ص ١٣ كتاب العقل والجهل.

(٢) أُصول الكافي، ج ١، ص ١٣ كتاب العقل والجهل، وتفسير مجمع البيان، ج٨، ص٣١٧.

ج – وثمّة قصّة معروفة أيضاً عن لقمان، وهي أنّ مولاه دعاه – يوم كان عبداً – فقال: اذبح شاة، فأتني بأطيب مضغتين منها، فذبح شاة، وأتاه بالقلب واللسان.

وبعد عدّة أيّام أمره أن يذبح شاة، ويأتيه بأخبث أعضائها، فذبح شاة وأتاه بالقلب واللسان، فتعجّب وسأله عن ذلك فقال: إنّ القلب واللسان إذا طهرا فهما أطيب من كلّ شيء، وإذا خبثا كانا أخبث من كلّ شيء(١).

وننهي هذا البحث بحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «والله ما أُوتي لقمان الحكمة لحسب ولا مال ولا بسط في جسم ولا جمال، ولكنّه كان رجلاً قويّاً في أمر الله، متورّعاً في الله، ساكتاً سكيناً عميق النظر، طويل التفكّر، حديد البصر.

ولم ينم نهاراً قطّ – أي أوّله – ولم يتكىء في مجلس قطّ – وهو عرف المتكبّرين – ولم يتفل في مجلس قوم قطّ، ولم يعبث بشيء قطّ، ولم يره أحد من الناس على بول ولا غائط قطّ، ولا على اغتسال لشدّة تستّره وتحفّظه في أمره.

ولم يمرّ بين رجلين يقتتلان أو يختصمان إلاّ أصلح بينهما، ولم يسمع قولاً استحسنه من أحد قطّ إلاّ سأله عن تفسيره وعمّن أخذه، وكان يكثر مجالسة الفقهاء والعلماء، ويتعلّم من العلوم ما يغلب به نفسه، ويجاهد به هواه، وكان لا يظعن إلاّ فيما ينفعه، ولا ينظر إلاّ فيما يعنيه، فبذلك أُوتي الحكمة ومنح القضيّة»(٢).

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

---

(١) تفسيرا البيضاوي والثعلبي، ولكن نقل في مجمع البيان جزءه الأوّل فقط.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج٨، ص٣١٧، بتلخيص.

التفسير

اثبت كالجبل، وعامل الناس بالحسنى!

كانت أُولى مواعظ لقمان عن مسألة التوحيد ومحاربة الشرك، وثانيتها عن حساب الأعمال والمعاد، والتي تكمّل حلقة المبدأ والمعاد، فيقول: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾ أي في يوم القيامة ويضعها للحساب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾.

«الخردل»: نبات له حبّات سوداء صغيرة جدّاً يضرب المثل بصغرها، وهذا التعبير إشارة إلى أنّ أعمال الخير والشرّ مهما كانت صغيرة لا قيمة لها، ومهما كانت خفيّة كخردلة في بطن صخرة في أعماق الأرض، أو في زاوية من السماء، فإنّ الله اللطيف الخبير المطّلع على كلّ الموجودات، صغيرها وكبيرها في جميع أنحاء العالم، سيحضرها للحساب والعقاب والثواب، ولا يضيّع شيئاً في هذا الحساب.

والضمير في «إنّها» يعود إلى الحسنات والسيّئات، والإحسان والإساءة[(١)].

إنّ الالتفات والتوجّه إلى هذا الاطّلاع التامّ من قبل الخالق سبحانه على أعمال الإنسان وعلمه بها، وبقاء كلّ الحسنات والسيّئات محفوظة في كتاب علم الله، وعدم ضياع وتلف شيء في عالم الوجود هذا، هو أساس كلّ الإصلاحات الفرديّة والاجتماعية، وهو قوّة وطاقة محرّكة نحو الخيرات، وسدّ منيع من الشرور والسيّئات، وذكر السماوات والأرض بعد بيان الصخرة، هو في الواقع من قبيل ذكر العامّ بعد الخاصّ.

وفي حديث روي عن الإمام الباقر عليه السلام: «اتّقوا المحقّرات من الذنوب، فإنّ لها طالباً، يقول أحدكم: أذنب وأستغفر، إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾[(٢)]. وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾»[(٣)].

وبعد تحكيم أُسس المبدأ والمعاد، والتي هي أساس كلّ الاعتقادات الدينيّة، تطرّق

---

(١) احتمل البعض أنّ الضمير أعلاه ضمير الشأن والقصّة، أو يعود إلى مفهوم الشرك، وكلا الاحتمالين بعيد.

(٢) سورة يس، الآية: ١٢.

(٣) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٢٠٤.

لقمان إلى أهمّ الأعمال، أي مسألة الصلاة، فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لأنّ الصلاة أهمّ علاقة وارتباط مع الخالق، والصلاة تنوّر قلبك، وتصفّي روحك، وتضيء حياتك، وتطهّر روحك من آثار الذنب، وتقذف نور الإيمان في أنحاء وجودك، وتمنعك عن الفحشاء والمنكر.

وبعد الصلاة يتطرّق لقمان إلى أهمّ دستور اجتماعي، أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيقول: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

وبعد هذه الأوامر العمليّة المهمّة الثلاثة، ينتقل إلى مسألة الصبر والاستقامة، والتي هي من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فيقول: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

من المسلّم أنّه توجد مشاكل وعقبات كثيرة في سائر الأعمال الاجتماعية، وخاصّة في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن المسلّم أيضاً أنّ أصحاب المصالح والمتسلّطين، والمجرمين والأنانيّين لا يستسلمون بهذه السهولة، بل يسعون إلى إيذاء واتّهام الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، ولا يمكن الانتصار على هذه المصاعب والعقبات بدون الصبر والتحمّل والاستقامة أبداً.

«العزم» بمعنى الإرادة المحكمة القويّة، والتعبير بـ ﴿عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ هنا إمّا بمعنى الأعمال التي أمر الله بها أمراً مؤكّداً، أو الأُمور والأعمال التي يجب أن يمتلك الإنسان فيها إرادة فولاذية وتصميماً راسخاً، وأيّاً من هذين المعنيين كان فإنّه يشير إلى أهميّة تلك الأعمال.

والتعبير بـ «ذلك» إشارة إلى الصبر والتحمّل، ويحتمل أيضاً أن يعود إلى كلّ الأُمور والمسائل التي ذكرت في الآية أعلاه، ومن جملتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلاّ أنّ هذا التعبير قد ورد بعد مسألة الصبر في بعض الآيات القرآنية الأُخرى، وهذا يدعم ويقوّي الاحتمال الأوّل.

ثمّ انتقل لقمان إلى المسائل الأخلاقية المرتبطة بالناس والنفس، فيوصي أوّلاً بالتواضع والبشاشة وعدم التكبّر، فيقول: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي لا تعرض بوجهك عن الناس ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

«تُصعّر»: من مادّة (صعّر)، وهي في الأصل مرض يصيب البعير فيؤدّي إلى اعوجاج رقبته.

و«المرح»: يعني الغرور والبطر الناشىء من النعمة.

و«المختال»: من مادّة (الخيال) و(الخيلاء)، وتعني الشخص الذي يرى نفسه عظيماً وكبيراً، نتيجة سلسلة من التخيّلات والأوهام.

و«الفخور»: من مادّة (الفخر) ويعني الشخص الذي يفتخر على الآخرين.

والفرق بين كلمتي المختال والفخور، أنّ الأُولى إشارة إلى التخيّلات الذهنيّة للكبر والعظمة، أمّا الثّانية فهي تشير إلى أعمال التكبّر الخارجي.

وعلى هذا، فإنّ لقمان الحكيم يشير هنا إلى صفتين مذمومتين جدّاً وأساس توهين وقطع الروابط الاجتماعية الصميميّة: إحداهما التكبّر وعدم الاهتمام بالآخرين، والأُخرى الغرور والعجب بالنفس، وهما مشتركتان من جهة دفع الإنسان إلى عالم من التوهّم والخيال ونظرة التفوّق على الآخرين، وإسقاطه في هذه الهاوية، وبالتالي تقطعان علاقته بالآخرين وتعزلانه عنهم، خاصّة وأنّه بملاحظة الأصل اللغوي لـ «صعّر» سيتّضح أنّ مثل هذه الصفات مرض نفسي وأخلاقي، ونوع من الانحراف في التشخيص والتفكير، وإلاّ فإنّ الإنسان السالم من الناحية الروحية والنفسية لا يبتلى مطلقاً بمثل هذه الظنون والتخيّلات.

ولا يخفى أنّ مراد لقمان لم يكن مسألة الإعراض عن الناس، أو المشي بغرور وحسب، بل المراد محاربة كلّ مظاهر التكبّر والغرور، ولمّا كانت هذه الصفات تظهر في طليعة الحركات العاديّة اليوميّة، فإنّه وضع إصبعه على مثل هذه المظاهر الخاصّة.

ثمّ بيّن في الآية التالية أمرين وسلوكين أخلاقيين إيجابيّين في مقابل النهيين عن سلوكين سلبيين في الآية السابقة فيقول: ابتغ الاعتدال في مشيك: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ وابتغ الاعتدال كذلك في كلامك ولا ترفع صوتك عالياً ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[1].

إنّ هاتين الآيتين في الحقيقة أمرتا بصفتين، ونهتا عن صفتين:

فالنهي عن «التكبّر» و«العجب»، فإنّ أحدهما يؤدّي إلى أن يتكبّر الإنسان على عباد الله، والآخر يؤدّي إلى أن يظنّ الإنسان أنّه في مرتبة الكمال وأسمى من الآخرين، وبالتالي سيغلق أبواب التكامل بوجهه، وإن كان لا يقارن بينه وبين الآخرين.

---

(١) «أنكر» أفعل تفضيل، ومع أنّه لا يأتي عادةً في مورد المفعول، إلاّ أنّ هذه الصيغة وردت بصورة نادرة في باب العيوب.

وبالرغم من أنّ هاتين الصفتين مقترنتان غالباً، ولهما أصل مشترك، إلاّ أنّهما قد تفترقان أحياناً.

أمّا الأمر بصفتين، فهما رعاية الاعتدال في العمل والكلام، لأنّ التأكيد على الاعتدال في المشي أو إطلاق الصوت هو من باب المثال في الحقيقة.

والحقّ أنّ الإنسان الذي يتّبع هذه النصائح الأربع موفّق وسعيد وناجح في الحياة، ومحبوب بين الناس، وعزيز عند الله.

وممّا يستحقّ الانتباه أنّ من الممكن أن نسمع أصواتاً أزعج من أصوات الحمير في محيط حياتنا، كصوت سحب بعض القطع الفلزّية إلى بعضها الآخر، حيث يحسّ الإنسان عند سماعه بأنّ لحمه يتساقط، إلاّ أنّ هذه الأصوات لا تمتلك صفة عامّة، إضافةً إلى وجود فرق بين المزعج والقبيح من الأصوات، والحقّ هو أنّ صوت الحمار أقبح من كلّ الأصوات العاديّة التي يسمعها الإنسان، وبه شُبّهت صرخات ونعرات المغرورين البله.

وليس القبح من جهة ارتفاع الصوت وطريقته فحسب، بل من جهة كونه بلا سبب أحياناً، لأنّ بعض المفسّرين يقولون: إنّ أصوات الحيوانات تعبّر غالباً عن حاجة، إلاّ أنّ هذا الحيوان يطلق صوته أحياناً بدون مبرّر أو داع، وبدون أيّ حاجة أو مقدّمة! وربّما كان سبب ذلك ما ورد في بعض الرّوايات من أنّ الحمار كلّما أطلق صوته فقد رأى شيطاناً.

وقال البعض: إنّ صراخ كلّ حيوان تسبيح إلاّ صوت الحمار!

وعلى كلّ حال، فإنّنا إذا تجاوزنا كلّ ذلك، فإنّ كون هذا الصوت قبيحاً من بين الأصوات لا يحتاج إلى بحث، وإذا رأينا في الرّوايات المرويّة عن الإمام الصادق عليه السلام، والتي فسّرت هذه الآية بالعطسة بصوت عال، أو الصراخ عند التكلّم والتحدّث، فإنّه في الحقيقة مصداق واضح لذلك(١).

تعليقات

١ - آداب المشي

صحيح أنّ المشي مسألة سهلة وبسيطة، إلاّ أنّ نفس هذه المسألة السهلة يمكن أن تعكس أحوال وأوضاع الإنسان الداخلية والأخلاقية، وقد تحدّد ملامح شخصيته، لأنّ

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

روحيّة الإنسان وأخلاقه تنعكس في طيّات كلّ أعماله، كما قلنا سابقاً، وقد يكون العمل الصغير حاكياً عن روحية متأصّلة أحياناً، ولمّا كان الإسلام قد اهتمّ بكلّ أبعاد الحياة، فإنّه لم يهمل شيئاً في هذا الباب أيضاً.

ففي حديث عن رسول الله ﷺ: «من مشى على الأرض اختيالاً لعنته الأرض ومن تحتها ومن فوقها»(١).

وفي حديث آخر عن النّبي الأكرم ﷺ أنّه نهى أن يختال الرجل في مشيه، وقال: «من لبس ثوباً فاختال فيه خسف الله به من شفير جهنّم، وكان قرين قارون لأنّه أوّل من اختال!»(٢).

وكذلك ورد عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ الله تبارك وتعالى فرض الإيمان على جوارح ابن آدم وقسّمه عليها وفرّقه فيها - إلى أن قال - وفرض على الرجلين أن لا تمشي بهما إلى شيء من معاصي الله، وفرض عليهما المشي إلى ما يرضي الله عزّوجلّ، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ وقال: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾»(٣).

وقد نقل ذلك عن نبيّ الإسلام العزيز ﷺ، وذلك أنّه كان قد مرّ من طريق، فرأى مجنوناً قد اجتمع الناس حوله ينظرون إليه، فقال: «علام اجتمع هؤلاء؟» فقالوا: على مجنون يصرع، فنظر إليهم النّبي ﷺ وقال: «ما هذا بمجنون! ألا أُخبركم بالمجنون حقّ المجنون؟» قالوا: بلى يارسول الله، فقال: «إنّ المجنون: المتبختر في مشيه، الناظر في عطفيه، المحرّك جنبيه بمنكبيه، فذلك المجنون وهذا المبتلى»(٤).

٢ - آداب الحديث

لقد وردت إشارة إلى آداب الحديث في مواعظ لقمان، وقد فتح في الإسلام باب واسع لهذه المسألة، وذكرت فيه آداب كثيرة من جملتها:

- طالما لم تكن هناك ضرورة للحديث والتكلّم، فإنّ السكوت خير منه، كما نرى ذلك في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «السكوت راحة للعقل»(٥).

(١-٢) ثواب الأعمال وأمالي الصدوق، طبقاً لنقل تفسير نور الثقلين، الجزء ٤، ص ٢٠٧.
(٣) أُصول الكافي، ج ٢، ص ٢٨ باب (أنّ الإيمان مبثوث لجوارح البدن كلّها).
(٤) بحار الأنوار، ج ٧٦، ص ٣٠٣.
(٥) وسائل الشيعة، ج٨، ص ٥٣٠ و ٥٣٢.

- وجاء في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «من علامات الفقه: العلم والحلم والصمت، إنّ الصمت باب من أبواب الحكمة»(١).

- وقد ورد التأكيد في روايات أُخرى على أنّه لا ينبغي للمؤمن أن يسكت في المواضع التي يلزم فيها الكلام، وأنّ الأنبياء بعثوا بالكلام لا بالسكوت، وأنّ وسيلة الوصول إلى الجنّة والخلاص من النار هي الكلام في الموضع المناسب(٢).

٣ - آداب العشرة

لقد اهتّمت الروايات الإسلامية الواردة عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وأئمّة أهل البيت عليهم السلام بمسألة التواضع وحسن الخُلُق والملاطفة في المعاملة، وترك الخشونة والجفاء في المعاشرة، اهتماماً قلّ نظيره في الموارد الأُخرى، وأفضل وأبلغ شاهد في هذا الباب هي الروايات الإسلامية نفسها، ونذكر منها هنا نماذج:

- جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يارسول الله، أوصني، فكان فيما أوصاه أن قال: «الق أخاك بوجه منبسط»(٣).

وفي حديث آخر عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «ما يوضع في ميزان امرىء يوم القيامة أفضل من حسن الخُلُق»(٤).

- وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «البرّ وحسن الخُلُق يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار»(٥).

ونقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أكثر ما تلج به أُمّتي الجنّة تقوى الله وحسن الخُلُق»(٦).

وعن علي عليه السلام في شأن التواضع: «زينة الشريف التواضع»(٧).

- وأخيراً نطالع في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «التواضع أصل كلّ خير نفيس، ومرتبة رفيعة، ولو كان للتواضع لغة يفهمها الخلق لنطق عن حقائق ما في مخفيات العواقب... ومن تواضع لله شرّفه الله على كثير من عباده... وليس لله عزّ وجلّ عبادة يقبلها ويرضاها إلاّ وبابها التواضع»(٨).

(١-٢) وسائل الشيعة، ج٨، ص ٥٣٠ و ٥٣٢.

(٣) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٧١.

(٤-٦) أصول الكافي، ج ٢، باب حسن الخُلُق وما بعده ص ٨١، ٨٢.

(٧) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٢٠.

(٨) المصدر السابق، ص ١٢١.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠)
وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١)
وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢)
وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣)
نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤)﴾

التّفسير

بعد انتهاء مواعظ لقمان العشر حول المبدأ والمعاد وطريقة الحياة، وخطط وبرا ـرآن الأخلاقية والاجتماعية، ولأجل إكمال البحث، تتّجه الآيات إلى بيان نعم الى لتبعث في الناس حسن الشكر. . . الشكر الذي يكون منبعاً لمعرفة الله وطا مره[1]، فيوجّه الخطاب لكلّ البشر، فيقول: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ الْأَرْضِ﴾.

إنّ لتسخير الموجودات السماوية والأرضيّة للإنسان معنى واسعاً يشمل الأُمور ال ، قبضته واختياره، ويستخدمها برغبته وإرادته في طريق تحصيل منافعه ككثير ـوجودات الأرضيّة، كما تشمل الأُمور التي ليست تحت تصرّفه واختياره، لكنّها تـ ـنسان بأمر الله جلّ وعلا كالشمس والقمر. وبناءً على هذا فإنّ كلّ الموجودات مسـ ن الله لنفع البشر، سواءً كانت مسخّرة بأمر الإنسان أم لا، وعلى هذا فإنّ اللام ـكم) لام المنفعة[2].

---

(١) اعتقد بعض المفسّرين كالآلوسي في روح المعاني، والفخر الرازي في التّفسير الكبير، بأنّ الآيات مرتبطة بالآيات التي سبقت مواعظ لقمان، حيث تخاطب المشركين: ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُو مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ وتقول في الآيات مورد البحث: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ﴾. إلاّ أنّ آخر هذه الآية والآيات التي بعدها، والروايات الواردة في تفسيرها تتناسب عموميّة الآية.

(٢) كانت لنا بحوث أُخرى حول تسخير الموجودات للإنسان في ذيل الآية (٢) من سورة الرعد.

ثمّ تضيف الآية: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾.

«أسبغ» من مادّة (سَبغ) وهي في الأصل بمعنى الثوب أو الدرع العريض الكامل، ثمّ أُطلق على النعم الكثيرة الوفيرة أيضاً.

هناك اختلاف بين المفسّرين في المراد من النعم الظاهرة والباطنة في هذه الآية..

فالبعض اعتقد أنّ النعمة الظاهرة هي الشيء الذي لا يمكن لأيّ أحد إنكاره كالخلق والحياة وأنواع الأرزاق، والنعم الباطنة إشارة إلى الأُمور التي لا يمكن إدراكها من دون دقّة ومطالعة ككثير من القوى الروحية والغرائز المهمّة.

والبعض عدّ الأعضاء الظاهرة هي النعم الظاهرة، والقلب هو النعمة الباطنة.

والبعض الآخر اعتبر حسن الصورة والوجه والقامة المستقيمة وسلامة الأعضاء النعمة الظاهرة، ومعرفة الله هي النعمة الباطنة.

وفي حديث عن الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم أنّ ابن عبّاس سأله عن النعم الظاهرة والباطنة فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يابن عبّاس، أمّا ما ظهر فالإسلام وما سوّى الله من خلقك، وما أفاض عليك من الرزق، وأمّا ما بطن فستر مساوىء عملك ولم يفضحك به»[(١)].

وفي حديث آخر عن الباقر عليه السلام: «النعمة الظاهرة: النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وما جاء به النّبي صلى الله عليه وآله وسلم من معرفة الله، وأمّا النعمة الباطنة ولايتنا أهل البيت وعقد مودّتنا»[(٢)].

إلاّ أنّه لا توجد أيّة منافاة بين هذه التفاسير في الحقيقة، وكلّ منها يبيّن مصداقاً بارزاً للنعمة الظاهرة والنعمة الباطنة دون أن يحدّد معناها الواسع.

وتتحدّث الآية في النهاية عمّن يكفر بالنعم الإلهية الكبيرة العظيمة، والتي تحيط الإنسان من كلّ جانب، ويهبّ إلى الجدال ومحاربة الحقّ، فتقول: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ وبدل أن يعرف ويقدّر هبة وعطاء كلّ هذه النعم الظاهرة والباطنة، فإنّه يتّجه إلى الشرك والجحود نتيجة الجهل.

ولكن ما هو الفرق بين «العلم» و«الهدى» و«الكتاب المنير»؟

لعلّ أفضل ما يمكن أن يقال في ذلك هو أنّ «العلم»: إشارة إلى الإدراكات التي يدركها الإنسان عن طريق عقله، و«الهدى»: إشارة إلى المعلّمين والقادة الربّانيين والسماويين، والعلماء الذين يأخذون بيده في هذا المسير ويوصلونه إلى الغاية والهدف،

(١-٢) تفسير مجمع البيان، ج٨، ص٣٢٠، ذيل الآية مورد البحث.

والمراد من «الكتاب المنير»: الكتب السماوية التي تملأ قلب الإنسان نوراً عن طريق الوحي.

إنّ هذه الجماعة العنيدة في الحقيقة لا يمتلكون علماً، ولا يتّبعون مرشداً وهادياً، ولا يستلهمون من الوحي الإلهي، ولمّا كانت طرق الهداية منحصرة بهذه الأمور الثلاثة فإنّ هؤلاء لمّا تركوها سقطوا في هاوية الضلال والضياع ووادي الشياطين.

وتشير الآية التالية إلى المنطق الضعيف السقيم لهذه الفئة، فتقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ ولمّا لم يكن اتّباع الآباء الجهلة المنحرفين جزءاً من أيّ واحد من الطرق الثلاثة المذكورة أعلاه للهداية، فإنّ القرآن ذكره بعنوان الطريق الشيطاني، وقال: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[1].

إنّ القرآن - في الحقيقة - يزيح هنا الغطاء عن اتّباع سنّة الآباء والأجداد الزائفة، ويبيّن الوجه الحقيقي لعمل هؤلاء والذي هو في حقيقته اتّباع الشيطان في مسير جهنّم.

أجل، إنّ قيادة الشيطان بذاتها تستوجب أن يخالفها الإنسان وإن كانت مبطّنة بالدعوة إلى الحقّ، فمن المسلّم أنّه غطاء وخدعة، والدعوة إلى النار كافية لوحدها أيضاً للمخالفة بالرغم من أنّ الداعي مجهول الحال، فإذا كان الداعي الشيطان، ودعوته إلى نار جهنّم المستعرة، فالأمر واضح.

هل يوجد عاقل يترك دعوة أنبياء الله إلى الجنّة، ويلهث وراء دعوة الشيطان إلى جهنّم؟!

ثمّ تطرّقت الآية التالية إلى بيان حال مجموعتين: المؤمنين الخلّص، والكفّار الملوّثين، وتجعلهم مورد اهتمامها في المقارنة بينهم، فقالت: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾.

والمراد من تسليم الوجه إلى الله سبحانه، هو التوجّه الكامل وبكلّ الوجود إلى ذات الله المقدّسة، لأنّ الوجه لمّا كان أشرف عضو في البدن، ومركزاً لأهمّ الحواسّ الإنسانية، فإنّه يستعمل كناية عن ذاته.

والتعبير بـ ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ من قبيل ذكر العمل الصالح بعد الإيمان.

---

(١) اعتبر المفسّرون (لو) هنا شرطية كالمعتاد، وجزاؤها محذوف، والتقدير: لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير أيتبعونه.

والاستمساك بالعروة الوثقى تشبيه لطيف لهذه الحقيقة، وهي أنّ الإنسان يحتاج لنجاته من منحدر الماديّة والارتقاء إلى أعلى قمم المعرفة والمعنويات وتسامي الروح، إلى واسطة ووسيلة محكمة مستقرّة ثابتة، وليست هذه الوسيلة إلاّ الإيمان والعمل الصالح، وكلّ سبيل ومتّكأ غيرهما متهرّىء متخرّق هاوٍ وسبب للسقوط والموت، إضافة إلى أنّ ما يبقى هو هذه الوسيلة، وكلّ ما عداها فانٍ، ولذلك فإنّ الآية تقول في النهاية: ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

جاء في حديث نقل في تفسير البرهان عن طرق العامّة عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «وسيكون بعدي فتنة مظلمة، الناجي منها من تمسّك بالعروة الوثقى، فقيل: يارسول الله، وما العروة الوثقى؟ قال: ولاية سيّد الوصيّين، قيل: يارسول الله، ومن سيّد الوصيّين؟ قال: أمير المؤمنين، قيل: يارسول الله ومن أمير المؤمنين؟ قال: مولى المسلمين وإمامهم بعدي، قيل: يارسول الله، ومن مولى المسلمين وإمامهم بعدك؟ قال: أخي علي بن أبي طالب»[1].

وقد رويت روايات أُخرى في هذا الباب تؤيّد أنّ المراد من العروة الوثقى مودّة أهل البيت عليهم السلام، أو حبّ آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، أو الأئمّة من ولد الحسين عليهم السلام[2].

وقد قلنا مراراً: إنّ هذه التفاسير بيان للمصاديق الواضحة، ولا تتنافى مع المصاديق الأُخرى كالتوحيد والتقوى وأمثال ذلك.

ثمّ تطرقت الآية التالية إلى بيان حال الفئة الثّانية، فقالت: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾ لأنّك قد أدّيت واجبك على أحسن وجه، وهو الذي قد ظلم نفسه.

ومثل هذه التعبيرات التي وردت مراراً في القرآن، تبيّن أنّ النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كان يتألّم ويتعذّب كثيراً عندما يرى الجاهلين العنودين يتركون سبيل الله مع تلك الدلائل البيّنة والعلامات الواضحة، ويسلكون سبيل الغيّ والضلال، وكان يغتمّ إلى درجة أنّ الله تعالى كان يسلّي خاطره في عدّة مرّات، وهذا دأب وحال المرشد والقائد الحريص المخلص.

فلا تحزن أن تكفر جماعة من الناس، ويظلموا ويجوروا وهم متنعّمون بالنعم الإلهيّة

(١) تفسير البرهان، ج ٣، ص ٢٧٩ ذيل الآية مورد البحث.
(٢) لمزيد الإيضاح راجع تفسير البرهان، ج ٣، ص ٢٧٨ و٢٧٩.

يعاقبون، فلا عجلة في الأمر، إذ: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ فإننا مطلع
، أسرارهم ونيّاتهم كاطّلاعنا على أعمالهم، ف: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.
إنّ تعبير: إنّ الله ينبّىء الناس في القيامة بأعمالهم، أو أنّه تعالى ينبّئهم بما كانوا
ملون، قد ورد في آيات كثيرة من القرآن المجيد، وبملاحظة أنّ (ننبّئكم) من مادّة (
نبأ - على ما أورده الراغب في مفرداته - يقال للخبر الذي ينطوي على محتوى وفا
ئة، وهو صريح وخال من كلّ أشكال الكذب، سيتّضح أنّ هذه التعبيرات تشير إلى
سبحانه يفشي ويفضح أعمال البشر بحيث لا يبقى لأحد أيّ اعتراض وإنكار، ا
ر ما عمله الناس في هذه الدنيا ونسوه أو تناسوه، ويهيّئوه للحساب والجزاء، وحتى
طر في قلب الإنسان ولم يطّلع عليه إلاّ الله تعالى، فإنّه سبحانه سيذكرهم بها.
ثمّ يضيف بأنّ تمتّع هؤلاء بالحياة لا ينبغي أن يثير عجبك، لأنّا ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلً
طَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ذلك العذاب الأليم المستمر.
إنّ هذا التعبير لعلّه إشارة إلى أنّ هؤلاء لا يتصوّرون أنّهم خارجون عن قبضة قدرة
حانه، بل إنّه يريد أن يمهل هؤلاء للفتنة وإتمام الحجّة والأهداف الأُخرى، وإنّ
تاع القليل من جانبه أيضاً، وكم يختلف حال هؤلاء الذين يجرّون ويُسحبون ب
راه إلى العذاب الإلهي الغليظ، وحال أُولئك الذين وضعوا كلّ وجودهم في ط
بودية لله سبحانه، واستمسكوا بالعروة الوثقى، فهم يعيشون في هذه الدنيا طاه
لحين، وفي الآخرة يتنعّمون بجوار رحمة الله.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ
ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ
سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا
بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ
فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ
أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا
يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾

التّفسير

عشر صفات لله سبحانه

بيّنت الآيات السّت أعلاه مجموعة من صفات الله سبحانه، وهي عشر صفات رئيسيّة، أو عشرة أسماء من الأسماء الحسنى: الغني، الحميد، العزيز، الحكيم، السميع، البصير، الخبير، الحقّ، العليّ، والكبير.

هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فإنّ الآية الأُولى تتحدّث عن «خالقية» الله، والآية الثّانية عن «مالكيته» المطلقة، والثالثة عن «علمه» اللامتناهي، والآيتين الرّابعة والخامسة عن «قدرته» اللامتناهية، والآية الأخيرة تخلص إلى هذه النتيجة، وهي أنّ الذي يمتلك هذه الصفات ويتمتّع بها هو الله تعالى، وكلّ ما دونه باطل أجوف حقير.

مع ملاحظة هذا البحث الإجمالي نعود إلى شرح الآيات، فتقول الآية الأُولى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.

هذا التعبير - والذي يلاحظ في آيات القرآن الأُخرى، كالآيات (٦١ - ٦٣) من سورة العنكبوت، والآية (٣٨) من الزمر، والآية (٩) من الزخرف - يدلّ من جهة على أنّ المشركين لم يكونوا منكرين لتوحيد الخالق مطلقاً، ولم يكونوا يستطيعون ادّعاء كون الأصنام خالقة، إنّما كانوا معتقدين بالشرك في عبادة الأصنام وشفاعتها فقط، ومن جهة أُخرى يدلّ على كون التوحيد فطريّاً وأنّ هذا النور كامن في طينة وطبيعة كلّ البشر.

ثمّ تقول: إذا كان هؤلاء معترفين بتوحيد الخالق فـ ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثمّ تتطرّق إلى «مالكية» الله، لأنّه بعد ثبوت كونه خالقاً لا حاجة إلى دليل على كونه مالكاً، فتقول: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ومن البديهي أنّ الخالق والمالك يكون مدبّراً لأمر العالم أيضاً، وبهذا تثبت أركان التوحيد الثلاثة، وهي: «توحيد الخالقية» و«توحيد المالكية» و«توحيد الربوبية». والذي يكون على هذا الحال فإنّه غنيّ عن كلّ شيء، وأهل لكلّ حمد وثناء، ولذلك تقول الآية في النهاية: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

إنّه غنيّ على الإطلاق، وحميد من كلّ جهة، لأنّ كلّ موهبة في هذا العالم تعود إليه، وكلّ ما يملكه الإنسان فإنّه صادر منه وخزائن كلّ الخيرات بيده، وهذا دليل حيّ على غناه.

ولمّا كان «الحمد» بمعنى الثناء على العمل الحسن الذي يصدر عن المرء باختياره، وكلّ حسن نراه في هذا العالم فهو من الله سبحانه، فإنّ كلّ حمد وثناء منه، فحتّى إذا مدحنا جمال الزهور، ووصفنا جاذبية العشق الملكوتي، وقدّرنا إيثار الشخص الكريم، فإنّنا في الحقيقة نحمده، لأنّ هذا الجمال والجاذبية والكرم منه أيضاً. . . إذن فهو حميد على الإطلاق.

ثمّ تجسّد الآية التالية علم الله اللامحدود من خلال ذكر مثال بليغ جدّاً، وقبل ذلك نرى لزوم ذكر هذه المسألة، وهي - طبقاً لما جاء في تفسير علي بن إبراهيم: إنّ قوماً من اليهود عندما سألوا النبي ﷺ حول مسألة الروح، وأجابهم القرآن بأن ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[1] صعب هذا الكلام عليهم، وسألوا النبي ﷺ: هل أنّ هذا في حقّنا فقط؟ فأجابهم النّبي ﷺ: «بل الناس عامّة»، قالوا: فكيف يجتمع هذا يا محمّد؟! أتزعم أنّك لم تؤت من العلم إلاّ قليلاً، وقد أُوتيت القرآن وأُوتينا التوراة، وقد قرأت: ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ - وهي التوراة - فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[2] هنا نزلت الآية: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ. . .﴾ - الآية مورد البحث - وأوضحت أنّ علم الإنسان مهما كان واسعاً فإنّه في مقابل علم الله عزّ وجلّ ليس إلاّ ذرّة تافهة، والذي يعدّ كثيراً في نظركم، هو قليل جدّاً عند الله[3].

وقد بيّنا نظير هذه الرواية عن طريق آخر في ذيل الآية (١٠٩) من سورة الكهف.

وعلى كلّ حال، فإنّ القرآن الكريم ولأجل تجسيد علم الله اللامتناهي يقول: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾.

﴿يَمُدُّهُۥ﴾ من مادّة (المداد) وهي بمعنى الحبر أو المادّة الملوّنة التي يكتبون بها، وهي في الأصل من (مدّ) بمعنى الخطّ، لأنّ الخطوط تظهر على صفحة الورق بواسطة جرّ القلم.

ونقل بعض المفسّرين معنى آخر لها، وهو الزيت الذي يوضع في السراج ويسبّب إنارة السراج، وكلا المعنيين في الواقع يرجعان إلى أصل واحد.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.
(٣) تفسير البرهان، ج ٣، ص ٢٧٩.

«الكلمات» جمع «كلمة»، وهي في الأصل الألفاظ التي يتحدّث ويتكلّم بها الإنسان، ثمّ أُطلقت على معنى أوسع، وهو كلّ شيء يمكنه أن يبيّن المراد والمطلب، ولمّا كانت مخلوقات هذا العالم المختلفة يبيّن كلّ منها ذات الله المقدّسة وعظمته، فقد أطلق على كلّ موجود (كلمة الله)، واستعمل هذا التعبير خاصّة في الموجودات الأشرف والأعظم، كما نقرأ في شأن المسيح في الآية (١٧١) من سورة النساء ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥ﴾ ثمّ استعملت كلمات الله بمعنى علم الله لهذه المناسبة.

والآن يجب أن نفكّر بدقّة وبشكل صحيح بأنّه قد يكفي أحياناً قلم واحد مع مقدار من الحبر لكتابة كلّ المعلومات التي تتعلّق بإنسان ما، بل قد يكون من الممكن أن يسجّل أفراد آخرون مجموعة معلوماتهم على الأوراق بنفس ذلك القلم، إلاّ أنّ القرآن يقول: لو أنّ كلّ الأشجار الموجودة على سطح الأرض تصبح أقلاماً وجميع البحار تصبح حبراً ما نفذت العلوم الإلهيّة - ومعلوم أنّه قد تصنع من شجرة ضخمة، من ساقها وأغصانها، آلاف، بل ملايين الأقلام، ومع الأخذ بنظر الاعتبار المقدار العظيم للأشجار الموجودة في الأرض، والغابات التي تغطّي الكثير من الجبال والسهول، وعدد الأقلام الذي سينتج منها. . .

وكذلك لو كانت كلّ البحار والمحيطات الموجودة، والتي تشكّل ثلاثة أرباع الكرة الأرضيّة تقريباً، بذلك العمق الساحق، تصبح حبراً، عند ذلك يتّضح عظمة ما سيكتب، وكم من العلوم يمكن كتابتها بهذا المقدار من الأقلام والحبر! سيّما مع ملاحظة مضاعفة ذلك بإضافة سبعة أبحر أُخرى، وكلّ واحد منها يعادل كلّ محيطات الأرض، وبالأخصّ إذا علمنا أنّ عدد السبعة هنا لا يعني العدد، بل للكثرة والإشارة إلى البحار التي لا عدّ لها، فعند ذلك ستّتضح سعة علم الله عزّوجلّ وترامي أطرافه - ومع ذلك فإنّ كلّ هذه الأقلام والمحابر تنتهي ولكنّ علومه سبحانه لا تعرف النهاية.

هل يوجد تجسيد وتصوير للاّنهاية أروع وأبلغ وأجمل من هذا التجسيد؟ إنّ هذا العدد حيّ وناطق إلى الحدّ الذي يصطحب معه أمواج فكر الإنسان إلى الآفاق اللامحدودة، ويغرقها في الحيرة والهيبة والجلال.

إنّ الإنسان يشعر مع هذا البيان البليغ الواضح أنّ معلوماته مقابل علم الله كالصفر مقابل اللانهاية، ويليق به أن يقول فقط: إنّ علمي قد أوصلني إلى أن أطّلع على جهلي، فحتّى التشبيه بالقطرة من البحر لتبيان هذه الحقيقة لا يبدو صحيحاً.

ومن جملة المسائل اللطيفة التي تلاحظ في الآية: أنّ الشجرة قد وردت بصيغة المفرد، والأقلام قد وردت بصيغة الجمع، وهذا تبيان لعدد الأقلام الكثيرة التي تنتج من شجرة واحدة بساقها وأغصانها.

وكذلك التعبير بـ(البحر) بصيغة المفرد مع (ألف ولام) الجنس ليشمل كلّ البحار والمحيطات على وجه الأرض، خاصّة وأنّ كلّ بحار العالم ومحيطاته متّصلة ببعضها، وهي في الواقع بحكم بحر واسع.

والطريف في الأمر أنّه لا يتحدّث في مورد الأقلام عن أقلام إضافية ومساعدة، أمّا فيما يتعلّق بالبحار فإنّه يتحدّث عن سبعة أبحر أُخرى، لأنّ القلم يستهلك قليلاً أثناء الكتابة، والذي يستهلك أكثر هو الحبر.

انتخاب كلمة (سبع) للكثرة في لغة العرب، ربّما كان بسبب أنّ السابقين كانوا يعتقدون أنّ عدد كواكب المنظومة الشمسية سبعة كواكب - وفي أنّ ما يرى اليوم بالعين المجرّدة من المنظومة الشمسية سبعة كواكب لا أكثر - ومع ملاحظة أنّ الأسبوع دورة زمانية كاملة تتكوّن من سبعة أيّام لا أكثر، وأنّهم كانوا يقسّمون كلّ الكرة الأرضية إلى سبع مناطق، وكانوا قد وضعوا لها اسم الأقاليم السبعة، سيتّضح لماذا انتخب عدد السبعة كعدد كامل من بين الأعداد، واستعمل لبيان الكثرة[1].

بعد ذكر علم الله اللامحدود، تتحدّث الآية الأُخرى عن قدرته اللامتناهية، فتقول: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

قال بعض المفسّرين: إنّ جمعاً من كفّار قريش كانوا يقولون من باب التعجّب والاستبعاد لمسألة المعاد: إنّ الله قد خلقنا بأشكال مختلفة، وعلى مدى مراحل مختلفة، فكنّا يوماً نطفة، وبعدها صرنا علقة، وبعدها صرنا مضغة، ثمّ أصبحنا تدريجيّاً على هيئات وصور مختلفة، فكيف يخلقنا الله جميعاً خلقاً جديداً في ساعة واحدة؟! فنزلت الآية مورد البحث فأجابتهم:

إنّ هؤلاء كانوا غافلين في الحقيقة عن مسألة مهمّة، وهي أنّ هذه المفاهيم كالصعوبة والسهولة، والصغير والكبير يمكن تصوّرها من قبل موجودات لها قدرة محدودة كقدرتنا، إلاّ أنّها أمام قدرة الله اللامتناهية تكون متساوية، فلا يختلف خلق إنسان واحد عن خلق جميع البشر مطلقاً، وخلق موجود ما في لحظة واحدة أو على مدى سنين طوال بالنسبة إلى قدرته المطلقة.

---

(١) تحدّثنا حول (علم الله المطلق) في ذيل الآية (١٠٩) من سورة الكهف.

وإذا كان تعجّب كفّار قريش من أنّه كيف يمكن فصل الأجساد عن بعضها وإرجاع كلّ منها إلى محلّه بعد أن كانت الطبائع مختلفة، والأشكال متغايرة، والشخصيات متنوّعة، وذلك بعد أن تحوّل بدن الإنسان إلى تراب وتطايرت ذرّات ذلك التراب؟! فإنّ علم الله اللامتناهي، وقدرته اللامحدودة تجيبهم عن سؤالهم، فإنّه قد جعل بين الموجودات روابط وعلاقات بحيث إنّ الواحد منها كالمجموعة، والمجموعة كالواحد.

وأساساً فإنّ انسجام وترابط هذا العالم بشكل ترجع كلّ كثرة فيه إلى الوحدة، وخلقة مجموع البشر تتّبع خلقة إنسان واحد.

وإذا كان تعجّب هؤلاء من قصر الزمان، بأنّه كيف يمكن أن تطوى المراحل التي يطويها الإنسان خلال سنين طوال من كونه نطفة إلى مرحلة الشباب، في لحظات قصيرة؟! فإنّ قدرة الله تجيب على هذا التساؤل أيضاً، فإنّنا نرى في عالم الأحياء أنّ أطفال الإنسان يحتاجون لمدّة طويلة ليتعلّموا المشي بصورة جيّدة، أو يصبحوا قادرين على الاستفادة من كلّ أنواع الأغذية، في حين أنّنا نرى الفراخ بمجرّد أن تخرج من البيضة تنهض وتسير، وتأكل دونما حاجة حتى للأُمّ، وهذه الظاهرة تبيّن أنّ هذه الأُمور لا تعني شيئاً أمام قدرة الله عزّوجلّ .

إنّ ذكر كون الله «سميعاً وبصيراً» في نهاية الآية قد يكون جواباً عن إشكال آخر من جانب المشركين، وهو على فرض أنّ جميع البشر على اختلاف خلقتهم، وبكلّ خصوصياتهم يبعثون ويحيون في ساعة واحدة، لكن كيف ستخضع أعمالهم وكلامهم للحساب، فإنّ الأعمال والأقوال أُمور تفنى بعد الوجود؟!

فيجيب القرآن بأنّ الله سميع وبصير، قد سمع كلّ كلامهم، ورأى كلّ أعمالهم، علاوة على أنّ الفناء المطلق لا معنى ولا وجود له في هذا العالم، بل إنّ أعمالهم وأقوالهم موجودة دائماً.

وإذا تجاوزنا ذلك فإنّ الجملة أعلاه تهديد لهؤلاء المعاندين، بأنّ الله سبحانه مطّلع على أقوالكم ومؤامراتكم، بل وحتى على ما في قلوبكم وضمائركم.

الآية التالية تأكيد وبيان آخر لقدرة الله الواسعة، وقد وجّهت الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لخدمة الناس وتأمين احتياجاتهم ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

«الولوج» في الأصل بمعنى «الدخول»، ودخول الليل في النهار والنهار في الليل قد

يكون إشارة إلى طول وقصر الليل والنهار التدريجي على مدار السنة، حيث ينقص شيء من أحدهما تدريجياً، ويضاف على الآخر بصورة غير محسوسة، لتتكوّن الفصول الأربعة للسنة بخصائصها وآثارها المباركة، (وليست هناك إلاّ نقطتان على سطح الأرض لا يوجد فيهما هذا التغيير التدريجي والفصول الأربعة: إحداهما: النقطة الحقيقيّة للقطب الشمالي والجنوبي حيث يكون الليل هناك ستّة أشهر، والنهار ستّة أشهر طوال السنة، والأخرى خطّ الاستواء الدقيق حيث يتساوى ليله ونهاره كلّ السنة).

أو إشارة إلى أنّ تبديل الليل بالنهار والنهار بالليل لوجود الغلاف الجوّي لا يحدث بصورة مفاجئة فيتعرّض الإنسان وكلّ الموجودات الحيّة للأخطار المختلفة حينئذ، بل إنّ أشعّة الشمس تتوغّل من حيث طلوع الفجر في أعماق الظلام أوّلاً، ثمّ يتّسع ويزداد ضوء النهار حتى يعمّ كلّ أرجاء السماء، وعلى العكس تماماً ممّا يحدث عند انتهاء النهار ودخول الليل.

وهذا الانتقال التدريجي والمنظّم بدقّة متناهية من مظاهر قدرة الله تعالى.

ومن الطبيعي أنّ هذين التّفسيرين لا يتنافيان، ويمكن أن يجتمعا في معنى الآية وتفسيرها.

أمّا في مورد تسخير الشمس والقمر وسائر الكواكب السماوية للبشر، فإنّ المراد - وكما قلنا سابقاً أيضاً - تسخيرها في سبيل خدمة الإنسان، وبتعبير آخر فإنّ اللام في ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ لام النفع لا الاختصاص، وقد ورد هذا التعبير في القرآن المجيد في شأن الشمس والقمر، والليل والنهار، والأنهار والبحار والسفن، وكلّ هذه مبيّنة لعظمة شخصيّة الإنسان، وسعة نعم الله عليه حيث إنّ كلّ الموجودات الأرضية والسماوية مسخّرة ومطيعة له بأمر الله تعالى، ومع كلّ هذا التسخير فليس من الإنصاف أن يعصي الله سبحانه ولا يطيع أوامره[1].

وجملة ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إشارة إلى أنّ هذا النظام الدقيق لا يستمرّ إلى الأبد، بل إنّ له نهاية بانتهاء الدنيا، وهو ما ذكر في سورة التكوير: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾[2].

---

(١) كان لنا بحث مفصّل حول تسخير الشمس والقمر والموجودات الأُخرى للإنسان في ذيل الآية (٢) من سورة الرعد، والآية (٣٢) من سورة إبراهيم.

(٢) سورة التكوير، الآيتان: ١ - ٢.

إنّ ارتباط جملة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ بهذا البحث سيتّضح بملاحظة ما قلناه آنفاً، لأنّ الله الذي جعل الشمس والقمر العظيمين خاضعين لنظام دقيق، وعاقب بين الليل والنهار بذلك النظام الخاصّ آلاف وملايين السنين، كيف يمكن أن تخفى عليه أعمال البشر؟ نعم... إنّه يعلم الأعمال، وكذلك يعلم النيّات والأفكار.

وتقول الآية الأخيرة، كاستخلاص نتيجة جامعة كليّة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾(١).

إنّ مجموع البحوث التي وردت في الآيات السابقة حول كون الله خالقاً ومالكاً، وعن علمه وقدرته اللامتناهيين، أثبتت هذه الأُمور، وأنّ الحقّ هو الله وحده، وكلّ شيء غيره زائل وباطل ومحدود ومحتاج، والعلي والكبير الذي يسمو على كلّ شيء، ويجلّ عن كلّ وصف، هو ذاته المقدّسة، وعلى قول الشاعر:

ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل وكلّ نعيم لا محالة زائل(٢)

ويمكن إيضاح هذا الكلام بالتعبير الفلسفي كما يلي:

إنّ الحقّ إشارة إلى الوجود الحقيقي الثابت، وفي هذا العالم فإنّ الوجود الحقيقي القائم بذاته والثابت المستقرّ الخالد هو الله فقط، وكلّ ما عداه لا وجود له بذاته وهو عين البطلان، حيث إنّه يستمدّ وجوده عن طريق الارتباط بذلك الوجود الحقّ الدائم، فإذا انقطع الفيض عنه لحظة فإنّه سيفنى ويُمحى في ظلمات الفناء والعدم، وبهذا فإنّه كلّما قوي ارتباط الموجودات الأُخرى بوجود الله تعالى فإنّها تكتسب بتلك النسبة حقّاً أكبر.

وعلى كلّ حال، وكما قلنا سابقاً، فإنّ هذه الآيات مجموعة من عشر صفات من صفات الله تعالى، وعشرة أسماء من أسمائه، وتشتمل على أدلّة قويّة - لا يمكن إنكارها - وعلى بطلان كلّ أنواع الشرك، ولزوم التوحيد في كلّ مراحل العبودية.

---

(١) «الباء» في ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ بالرغم من أنّها تبدو في بادىء الأمر سببية، وربّما اعتبر بعض المفسّرين كالآلوسي في روح المعاني مضمون هذه الآية سبباً للمطالب السابقة، إلاّ أنّ سياق الآيات وذكر الصفات السابقة - أي الخالقية والمالكية والعلم والقدرة وعلاماتها في عالم الخلقة - ظاهر في أنّها جميعاً كانت شاهدة على هذه النتيجة، وبناءً على هذا، فإنّ محتوى هذه الآية نتيجة للآيات السابقة لا سبباً لها.

(٢) بحار الأنوار، ج٢٢، ص٢٦٧.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

التّفسير

في دوّامة البلاء!

يدور البحث والحديث في هاتين الآيتين أيضاً عن نعم الله سبحانه، وأدلّة التوحيد في الآفاق والأنفس، فالحديث في الآية الأُولى عن دليل النظام، وفي الآية الثّانية عن التوحيد الفطري، وهما في المجموع تكمّلان البحوث التي وردت في الآيات السابقة.

تقول الآية الأُولى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ(١) لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

لا شكّ أنّ حركة السفن على سطح المحيطات تتمّ بمجموعة من قوانين الخلقة:

- فحركة الرياح المنتظمة من جهة.
- والوزن الخاص للخشب أو المواد التي تصنع منها تلك السفينة من جانب آخر.
- ومستوى كثافة الماء من جانب ثالث.
- ومقدار ضغط الماء على الأجسام التي تسبح فيه من جهة رابعة.

وحينما يحدث اختلال في واحد من هذه الأُمور فإنّ السفينة إمّا أن تغرق وتنزل إلى قعر البحر، أو تنقلب، أو تبقى حائرة لا تهتدي إلى سبيل نجاتها في وسط البحر.

غير أنّ الله جلّ وعلا الذي أراد أن يجعل البحار الواسعة أفضل السبل وأهمّها لسفر البشر، ونقل المواد التي يحتاجونها من نقطة إلى أُخرى، قد هيّأ ويسّر هذه الشروط والظروف، وكلّ منها نعمة من نعمه تعالى.

---

(١) «الباء» في ﴿بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ يمكن أن تكون باء السببية، أو باء المصاحبة، إلاّ أنّ الاحتمال الأوّل هو الأنسب.

إنّ عظمة قدرة الله سبحانه في ميدان المحيطات، وصغر الإنسان مقابلها، تبلغ حدّاً بحيث إنّ كلّ البشر في العالم القديم - الذي كانت السفن تعتمد على الرياح في حركتها - لو اجتمعوا ليحرّكوا سفينة وسط البحر عكس اتّجاه ريح عاصف قويّة لما استطاعوا.

واليوم أيضاً، حيث حلّت المولّدات والمكائن العظيمة محلّ الهواء، فإنّ هبوب العواصف قد يبلغ من الشدّة أحياناً بحيث يحرّك ويهزّ أعظم السفن، وقد يحطّمها أحياناً.

والتأكيد الذي ورد في نهاية الآية على أوصاف (صبّار) و(شكور) إمّا أن يكون من باب أنّ الحياة الدنيا مجموعة من البلاء والنعمة، وكلاهما طريق ومحلّ للاختبار، حيث إنّ الصمود والتحمّل أمام الحوادث الصعبة، والشكر على النعم يشكّلان مجمل ما يجب على الإنسان، ولذا نقل كثير من المفسّرين عن الرّسول الأكرم ﷺ: «الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر»(١).

أو أن يكون إشارة إلى لزوم وجود هدف لأجل إدراك آيات الله العظيمة في ميدان الخلقة، وهذا الهدف هو شكر المنعم المقترن بالصبر والتحمّل من أجل دقّة وتفحّص أكبر.

وبعد بيان نعمة حركة السفن في البحار، والتي كانت ولا تزال أكبر وأنفع وسائل حمل ونقل البضائع والبشر، أشارت هذه الآية إلى صورة أُخرى لهذه المسألة، فقالت: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

«الظلل» جمع ظُلّة، وقد ذكر المفسّرون لها عدّة معان:

- فيقول الراغب في مفرداته: الظلّة سحابة تظلّ، وأكثر ما تقال لما يستوخم ويكره.
- والبعض اعتبرها بمعنى المظلّة الكبيرة، من مادّة الظلّ.
- والبعض اعتبرها بمعنى الجبل.

وبالرغم من أنّ هذه المعاني - من حيث تعلّقها بالآية مورد البحث - لا تختلف كثيراً عن بعضها، إلاّ أنّه بملاحظة أنّ هذه الكلمة قد وردت مراراً في القرآن بمعنى السحاب الذي يظلّ، وبملاحظة أنّ تعبير ﴿غَشِيَهُم﴾ يناسب معنى السحاب أكثر، فيبدو أنّ هذا التّفسير هو الأقرب.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٨، ص٣٢٣، والقرطبي، والفخر الرازي، والصافي.

أي إنّ أمواج البحر العظيمة تهيج فتحيط بهم كأنّ سحاباً قد أظلّهم بظلّ مرعب مهول.

هنا يجد الإنسان نفسه ضعيفاً وعاجزاً رغم كلّ تلك القوى والإمكانيات الظاهرية التي أعدّها لنفسه، ويجد يده قاصرة عن كلّ شيء ومكان، وتقف كلّ الوسائل العادية والماديّة عن العمل، ولا يبقى له أي بصيص أمل إلاّ النور الذي يشعّ من أعماق روحه وفطرته، فيزيح عن قلبه حجب الغفلة، ويقول له: هل يوجد أحد يستطيع إنقاذك؟

نعم، إنّه الذي تطيع أوامره أمواج البحر... انّه خالق الماء والهواء والتراب.

هنا يحيط التوحيد الخالص بكلّ قلبه ويغمره، ويعتقد بأنّ الدين والعبادة مختصّة به سبحانه.

ثمّ تضيف الآية إنّ الله سبحانه لمّا نجّاهم من الهلكة انقسم الناس قسمين: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾(١). وهؤلاء وفوا بعهدهم ولم ينقضوه، ولم ينسوا منّة الله عليهم في تلك اللحظات الحسّاسة.

أمّا القسم الثّاني فإنّهم نسوا كلّ ذلك، واستولى جيش الشرك والكفر على معسكر قلوبهم.

واعتبر بعض المفسّرين الآية أعلاه إشارة إلى إسلام «عكرمة بن أبي جهل»، إذ إنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم عفا عن جميع الناس عند فتح مكّة غير أربعة نفر أحدهم عكرمة بن أبي جهل، إذ أهدر دمهم، وأمر بقتلهم حيثما وجدوا، لأنّهم لم يتركوا أيّ سيّئة أو جريمة ضدّ الإسلام والمسلمين إلاّ عملوها، ولذلك اضطرّ عكرمة إلى الفرار من مكّة، فتوجّه إلى البحر الأحمر وركب السفينة، فأخذت بأطرافه ريح عاصف، فقال بعض أهل السفينة لبعضهم الآخر: تعالوا نترك الأصنام ونتضرّع إلى الله وحده ونسأله لطفه، فإنّ آلهتنا هذه لا تنفع شيئاً!

فقال عكرمة: إذا لم ينقذنا غير توحيدنا في البحر، فلن ينقذنا في البرّ سواه أيضاً، اللهمّ إنّي أُعطيك عهداً - إذا نجّيتني من هذه المحنة - لآتينّ محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم وأُبايعه، فإنّي أعلم أنّه كريم عفوّ.

وأخيراً نجا، وأتى إلى النّبي صلى الله عليه وآله وسلم (٢).

---

(١) «مقتصد» من مادّة قصد، بمعنى الاعتدال في العمل، والوفاء بالعهد.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج٨ ص٣٢٣، ذيل الآية مورد البحث، ووردت هذه الحادثة في (أُسد الغابة في معرفة الصحابة) ج٤، ص ٥ بتفاوت يسير.

وقد ورد في التواريخ الإسلامية أنّ عكرمة قد أصبح في صفّ المسلمين الحقيقيين، واستشهد في معركة اليرموك أو أجنادين.

وتضيف الآية في النهاية ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

(ختّار) من الختر، بمعنى نقض العهد، وهذه الكلمة صيغة مبالغة، لأنّ المشركين والعاصين يتوجّهون إلى الله مراراً، ويقطعون على أنفسهم العهود، وينذرون النذور، إلاّ أنّهم بمجرّد أن يهدأ طوفان الحوادث ينقضون عهودهم بصورة متلاحقة، ويكفرون بنعم الله عليهم.

إنّ تعبير «ختّار» و«كفور» الذي ورد في نهاية هذه الآية، هو في الحقيقة مقابل تعبير «صبّار» و«شكور» الذي ورد في نهاية الآية السابقة - فالكفران في مقابل الشكر، ونقض العهد في مقابل الصبر والثبات على العهد - لأنّ الوفاء بالعهد لا يتمّ إلاّ من قبل الثابتين الصامدين... أُولئك الذين إذا توهّج الإيمان الفطري في أعماق أرواحهم فلا يدعون هذا النور الإلهي ينطفىء مرّة أُخرى وتتكاثف عليه الحجب.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)﴾

التّفسير

سعة علم الله

في هاتين الآيتين اللتين هما آخر آيات سورة لقمان، تلخيص للمواعظ والنصائح السابقة ولأدلّة التوحيد والمعاد، وتوجيه الناس إلى الله واليوم الآخر وتحذير من الغرور الناشىء من الدنيا والشيطان، ثمّ الحديث عن سعة علم الله سبحانه وشموله لكلّ شيء، فتقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾.

إنّ الدستور الأوّل هو التوجّه إلى المعاد، فالدستور الأوّل يحيي في الإنسان قوّة المراقبة، والثّاني ينمّي روح الثواب والعقاب، ولا شكّ أنّ الإنسان الذي يعلم أنّ شخصاً خبيراً ومطّلعاً على كلّ أعماله يراه ويعلم به ويسجّل كلّ أعماله، ومن ناحية أخرى يعلم أنّ محكمة عادلة ستتشكّل للتحقيق في كلّ جزئيات أعماله، لا يمكن أن يتلوّث بأدنى فساد ومعصية.

جملة ﴿لَّا يَجۡزِي﴾ من مادّة الجزاء، و«الجزاء» ورد بمعنيين من الناحية اللغوية:

أحدهما: المكافأة والمعاقبة مقابل شيء، كما يقال: جزّاه الله خيراً.

والآخر: الكفاية والنيابة والتحمّل للشيء عن الآخرين، كما جاء في الآية مورد البحث: ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾.

ومن الممكن أن يعود كلا المعنيين إلى أصل واحد، لأنّ الثواب والعقاب يحلاّن محلّ العمل وينوبان عنه، وهما بمقداره أيضاً - تأمّلوا ذلك -.

على كلّ حال، فإنّ كلّ إنسان في ذلك اليوم مشغول بنفسه، ومبتلى بمعطيات أعماله وآثارها إلى درجة أنّه لا ينظر إلى أحد ولا يهتمّ به، حتى وإن كان أبوه، أو ابنه الذي كانت تربطه به أقرب الروابط، فلا يفكّر أحد بآخر مطلقاً.

وهذه الآية نظير ما ورد في بداية سورة الحجّ في الحديث حول القيامة والزلزلة: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾.

وممّا يستحقّ الانتباه أنّه يعبّر بـ ﴿لَّا يَجۡزِي﴾ في مورد الأب، وهي صيغة المضارع، أمّا في شأن الابن فإنّه يعبّر باسم الفاعل (جاز) وهذا التفاوت في التعبير لعلّه من باب التنوّع في الكلام، أو إشارة إلى واجب ومسؤولية الابن تجاه الأب، لأنّ اسم الفاعل يؤدّي معنى الدوام والتكرار أكثر.

وبتعبير آخر، فإنّ المتوقّع من العواطف الأبوية أن يتحمّل الأب مقداراً من العذاب عن ابنه، كما كان في الدنيا يتحمّل المصاعب والمشاكل في سبيله، لكن من الابن أن يتحمّل مصائب الأب أكثر وفاءً لحقوق الأُبوّة المترتّبة عليه، في حين أنّ أيّاً منهما لا يتحمّل أدنى مشكلة عن الآخر، وكلّ منهما مشغول بأعماله، وحائر في أمره ونفسه.

وتحذّر الآية في النهاية البشر من شيئين، فتقول: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ أي الشيطان.

في الواقع، يلاحظ هنا نهيان في مقابل الأمرين اللذين كانا في بداية الآية، فإنّ

الإنسان إذا نمت فيه مسألة التوجّه إلى الله، والخوف من الحساب والجزاء، فلا يخاف عليه من الإنحراف والفساد، إلاّ من طريقين:

أحدهما: أن تقلب زخارف الدنيا وزبرجها الحقائق في عينيه بصور أُخرى، وتسلب منه القدرة على التشخيص، لأنّ حبّ الدنيا رأس كلّ الخطايا وأساسها.

والآخر: أن تخدعه وساوس الشيطان وتغرّه، وتبعده عن المبدأ والمعاد.

فإذا أغلق طريقي نفوذ المعصية والذنب هذين، فسوف لا يهدّده أيّ خطر، وعلى هذا فإنّ الدساتير والبنود الأربعة أعلاه تمثّل مجموعة كاملة من برنامج نجاة وخلاص الإنسان.

وفي آخر آية من هذه السورة، وبمناسبة البحث الذي جاء في الآية السابقة حول يوم القيامة، يدور الكلام عن العلوم المختّصة بالله سبحانه، فتقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾ ومطّلع على جميع جزئياته وتفاصيله...

﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾.

فكأنّ مجموع هذه الآية جواب عن سؤال يطرح في باب القيامة، وهو نفس السؤال الذي سأل المشركون به النّبي ﷺ مراراً وتكراراً، وقالوا: ﴿مَتَىٰ هُوَۖ﴾؟[1]، فيجيبهم القرآن عن سؤالهم، ويقول: لا يعلم أحد بموعد قيام القيامة إلاّ الله سبحانه، وطبقاً لصريح آيات أُخرى، فإنّ الله أخفى هذا العلم عن الجميع: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾[2]، وذلك كي لا يحيط الغرور والغفلة بأطراف البشر.

ثمّ تقول الآية: إنّ مسألة القيامة ليست هي المسألة الوحيدة الخافية عليكم، ففي حياتكم اليومية، ومن بين أقرب المسائل المرتبطة بحياتكم ومماتكم، مسائل كثيرة تجهلونها...

أنتم لا تعلمون زمان نزول قطرات المطر، والتي ترتبط بها حياة كلّ الكائنات الحيّة، وإنّما تتوقّعونها على أساس الحدس والظنّ والتخمين.

وكذلك زمان تكوّنكم في بطون الأُمّهات وخصائص الجنين فلا علم لأحد منكم بذلك.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥١. (٢) سورة طه، الآية: ١٥.

ومستقبلكم القريب، أي حوادث الغد، وكذلك مكان موتكم وتوديعكم للحياة، خاف على الجميع.

فإذا كنتم جاهلين بهذه المسائل القريبة من حياتكم والمتّصلة بها، فلا مجال للعجب من عدم علمكم بلحظة قيام القيامة[١].

ونقل في الدرّ المنثور: أنّ رجلاً يقال له «الوراث»، من بني «مازن بن حفصة»، جاء إلى النّبي ﷺ، فقال: يا محمّد، متى تقوم الساعة؟ وقد أجدبت بلادنا فمتى تخصب؟ وقد تركت امرأتي حبلى فمتى تلد؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غداً؟ وقد علمت بأي أرض ولدت فبأي أرض أموت؟ فنزلت هذه الآية[٢].

بحوث

١ - أنواع الغرور والخدع!

إنّ الآيات أعلاه تحذّر من الانخداع والاغترار بزخارف الحياة الدنيا وبهارجها، ثمّ تتحدّث عن خدع الشيطان ومكائده، وتعلن عن خطورته، لأنّ الناس عدّة أقسام:

فبعضهم ضعيف وعاجز إلى الحدّ الذي يكفي لخداعه والتغرير به مجرّد رؤية زخارف الدنيا.

والبعض الآخر يمتلك مقاومة أكثر، فلابدّ أن تزداد الوساوس الشيطانية لازدياد مقاومتهم، ويتّحد لإضلالهم وخداعهم الشيطان الداخلي والخارجي. وتعبيرات الآية أعلاه تحذير لأفراد كلا الفئتين.

وممّا يجدر ذكره أنّ (الغرور) على وزن «جسور» يعني كلّ موجود خدّاع، وإنّما فسّروها بالشيطان لأنّه مصداقها الواضح في الحقيقة، وإلاّ فإنّ كلّ إنسان خدّاع، وكلّ كتاب مضلّ، وأيّ مقام ومنصب يوسوس، وكلّ موجود يخدع الإنسان ويضلّه فإنّه يدخل في المفهوم الواسع لهذه الكلمة، اللهمّ إلاّ أن نعطي للشيطان من سعة المعنى بحيث

---

(١) صحيح أنّ جملة ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ في الآيات أعلاه لا تتحدّث عن مسألة علم الله - ولهذا السبب فإنّ البعض اعتبر هذه الجملة استثناء من بين هذه الجمل، وجعلها مبيّنة لقدرة الله لا علمه، إلاّ أنّ انسجام الجمل الخمس مع بعضها من جهة، والروايات المتعدّدة التي وردت في نهج البلاغة وكتب أُخرى - وسنشير إليها قريباً - من جهة أُخرى، قرينة على أنّها ترتبط بعلم الله أيضاً.

(٢) تفسير الدرّ المنثور، طبقاً لنقل تفسير الميزان، ج، ١٦ ص ٢٥٤.

يشمل كلّ المعاني المتقدّمة، ولهذا فإنّ الراغب في مفرداته يقول: فالغرور كلّ ما يغرّ الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان، وقد فسّر بالشيطان إذ هو أخبث الغارّين.

وقد فسّرها البعض بالدنيا لخداعها وغرورها، كما نقرأ في نهج البلاغة: «تغرّ وتضرّ وتمرّ»(١).

٢ - خداع الدنيا

لا شكّ أنّ كثيراً من مظاهر الحياة الدنيا غارّة ومضلّة، وقد تشغل الإنسان بها أحياناً حتى يغفل عن كلّ شيء، ولا يشتغل إلاّ بها، ولذلك نقرأ في بعض الروايات عن أمير المؤمنين عليه السلام حينما سأله بعضهم: أيّ الناس أثبت رأياً؟ قال: «من لم يغرّه الناس من نفسه، ولم تغرّه الدنيا بتشويقها»(٢).

ولكن، ومع هذه الحال، فإنّ في طيّات مشاهد هذه الدنيا الخدّاعة المختلفة، مشاهد وحوادث ناطقة معبّرة عن زوال هذا العالم، وكون زخارفه وزبارجه جوفاء خالية بأبلغ تعبير وأوضحه، تلك الحوادث تستطيع أن توقظ كلّ إنسان عاقل، بل وتجعل الأغبياء عاقلين حكماء.

ففي حديث: أنّ أمير المؤمنين علياً عليه السلام سمع رجلاً يذمّ الدنيا وكان يعدّها خدّاعة، فقال عليه السلام: «أيّها الذامّ للدنيا المغترّ بغرورها، المخدوع بأباطيلها، أتغترّ بالدنيا ثمّ تذمّها؟

أنت المتجرّم عليها، أم هي المتجرّمة عليك؟

متى استهوتك؟ أم متى غرّتك؟ أبمصارع آبائك من البلى أم بمضاجع أُمّهاتك تحت الثرى...؟!

إنّ الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزوّد منها، ودار موعظة لمن اتّعظ بها، مسجد أحبّاء الله، ومصلّى ملائكة الله، ومهبط وحي الله، ومتجر أولياء الله...»(٣).

---

(١) وردت جملة (تغرّ وتضرّ وتمرّ) في شأن الدنيا في نهج البلاغة في باب الحكم القصار لأمير المؤمنين علي عليه السلام: ٤١٥.

(٢) من لا يحضره الفقيه، وفقاً لنقل نور الثقلين، ج ٤، ص ٢١٧.

(٣) نهج البلاغة، الحكم القصار، الحكمة ١٣١.

٣ - هذه العلوم الخمسة مختصّة بالله

إنّ أُسلوب الآية أعلاه يحكي أنّ العلم بالقيامة، ونزول المطر، ووضعيّة الجنين في رحم الأمّ، والأُمور التي سيقوم بها الإنسان في المستقبل، ومحلّ موته منحصر بالله، ولا سبيل للآخرين إلى العلم بذلك، إضافةً إلى هذا فإنّ الرّوايات الواردة في تفسير هذه الآية تؤكّد هذه الحقيقة، ومن جملتها ما ورد في حديث: «إنّ مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهنّ إلاّ الله، وقرأ هذه الآية»[١].

وجاء في رواية أُخرى وردت في نهج البلاغة: أنّ عليّاً عليه السلام كان يوماً يخبر بحوادث المستقبل، فقال له أحد أصحابه: يا أمير المؤمنين، أتتحدّث عن الغيب وتعلم به؟

فتبسّم الإمام، وقال له: «يا أخا كلب (لأنّ الرجل كان من بني كلب)، ليس هو بعلم غيب، وإنّما هو تعلّم من ذي علم، وإنّما علم الغيب علم الساعة وما عدده الله سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ. . .﴾ فيعلم الله سبحانه ما في الأرحام، من ذكر أو أُنثى، وقبيح أو جميل، وسخيّ أو بخيل، وشقيّ أو سعيد، ومن يكون في النار حطباً، وفي الجنان للنبيين مرافقاً، فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه أحد إلاّ الله، وما سوى ذلك فعلم علّمه الله نبيّه فعلّمنيه ودعا لي بأن يعيه صدري وتضطمّ عليه جوانحي»[٢].

ويظهر من هذه الروايات جليّاً أنّ المراد من عدم علم الناس بهذه الأُمور، جهلهم بكلّ خصوصياتها وجزئياتها، فمثلاً: إذا وضعت تحت تصرّف الإنسان يوماً ما وسائل معيّنة بحيث يطّلع تماماً على كون الجنين ذكراً أو أُنثى، فإنّ هذا الأمر برغم كونه تطوّراً علميّاً هامّاً لا يُعدّ شيئاً، لأنّ الاطّلاع على الجنين والعلم به يعني أن نعلم كلّ خصائصه الجسمية، القبح والجمال، الصحّة والمرض، الاستعدادات الداخلية، الذوق العلمي والفلسفي والأدبي، وسائر الصفات والكيفيات الروحية، وهذا الأمر لا يتمّ لغير الله سبحانه.

وكذلك ما يتعلّق بالمطر، فمتى ينزل؟ وأيّة منطقة يصيب ويهطل عليها؟ وأيّ مقدار - على وجه الدقّة - سينزل في البحر؟ وما مقدار ما ينزل في الصحراء والمنحدرات والجبال؟ لا يعلم بذلك إلاّ الله تعالى.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٨، ص٣٢٤، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) نهج البلاغة. الخطبة ١٢٨.

وكذلك شأن حوادث الغد، والأيّام التالية، وخصوصياتها وجزئيّاتها.

ومن هنا يتّضح جيّداً جواب السؤال الذي يطرح هنا غالباً، حيث يقولون: إنّنا نقرأ في التواريخ والروايات المتعدّدة أنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام، بل وحتى بعض أولياء الله من غير الأئمّة، قد أخبروا بموتهم، أو بيّنوا وحدّدوا مكان دفنهم، ومن جملتها الحوادث المتعلّقة بكربلاء، فقد قرأنا مراراً في الروايات أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، أو أمير المؤمنين عليه السلام والأنبياء السابقين قد أخبروا بشهادة الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه بأرض كربلاء.

وفي كتاب أُصول الكافي يلاحظ باب في علم الأئمّة بزمان وفاتهم[1].

والجواب هو: إنّ العلم بجزء من هذه الأُمور، علماً إجمالياً - وهذا العلم أيضاً عن طريق التعليم الإلهي - لا ينافي مطلقاً اختصاص العلم التفصيلي بها بذات الله المقدّسة.

ثمّ إنّ هذا الإجمال أيضاً - وكما قلنا - ليس ذاتياً ومستقلاً، بل هو عرضي وحصل بالتعليم الإلهي، بالمقدار الذي يريده الله ويرى فيه الصلاح، ولذلك نرى في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ أحد أصحابه سأله: هل يعلم الإمام الغيب؟ قال: «لا، ولكن إذا أراد أن يعلم الشيء أعلمه الله ذلك»[2].

وقد وردت في باب علم الغيب، وكيفيّة علم الأنبياء والأئمّة به روايات كثيرة سنبحثها في نهاية الآيات المناسبة، إلاّ أنّ من المسلّم أنّ هناك علوماً لم يطّلع عليها ولا يعلم بها أحد إلاّ الله عزّوجلّ [3].

اللهمّ نوّر قلوبنا بنور العلم، وهب لنا من علمك اللامتناهي.

اللهمّ اعصمنا من زخارف هذه الدنيا، ولا يغرّنا الشيطان وهوى أنفسنا.

إلهنا اجعلنا منتبهين دائماً إلى إحاطة علمك، وجنّبنا أن نعمل بين يديك ما يخالف رضاك ويجلب سخطك.

---

(١) أُصول الكافي، ج ١، ص ٢٠٢ باب أنّ الأئمّة يعلمون متى يموتون.

(٢) أُصول الكافي، ج ٢، ص ٢٠١ (باب نادر فيه ذكر الغيب).

(٣) لدينا في كتاب الكافي روايات عديدة في أنّ لله علماً لا يعلمه إلاّ هو، وعلماً علّمه الملائكة والأنبياء والأئمّة. ج ١، ص ١٩٩ باب أنّ الأئمّة عليهم السلام يعلمون جميع العلوم التي خرجت إلى الملائكة.

سُورَةُ السَّجْدَة

مكيّة وعدد آياتـها ثلاثون

أسماء هذه السورة

المعروف أنّ هذه السورة نزلت في مكّة، إلاّ أنّ البعض الآخر يرى أنّ الآيات ١٨ - ٢٠ مدنيّة، في حين لا تلاحظ أيّة قرينة أو علامة في هذه الآيات على كونها مدنية.

اسم هذه السورة في بعض الرّوايات، وكذلك المشهور على لسان المفسّرين: (سورة السجدة)، أو (الم السجدة)، ويسمّونها أحياناً (سجدة لقمان) لتمييزها عن سورة (حم السجدة)، لأنّها جاءت بعد سورة لقمان.

وذكرت في بعض الرّوايات باسم (الم تنزيل).

وذكر «الفخر الرازي» و«الآلوسي» أنّ من جملة أسمائها (سورة المضاجع)، وهو إشارة إلى الآية (١٦) من هذه السورة: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ...﴾.

فضل تلاوة سورة السجدة

ورد في حديث عن الرّسول الأكرم ﷺ: «من قرأ الم تنزيل، وتبارك الذي بيده الملك، فكأنّما أحيى ليلة القدر»(١).

وروي عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام في حديث آخر: «من قرأ سورة السجدة في كلّ ليلة جمعة أعطاه الله كتابه بيمينه، ولم يحاسبه بما كان منه، وكان من رفقاء محمّد ﷺ وأهل بيته»(٢).

ولمّا كانت قد وردت في هذه السورة بحوث واسعة عن المبدأ والمعاد، وعقاب المجرمين في يوم القيامة، ودروس محذّرة ترتبط بالمؤمنين والكافرين، فلا شكّ أنّ تلاوتها - التلاوة التي تكون مصدراً ومنبعاً للتفكير، وبالتالي مبدأً للتصميم والحركة - قادرة على أن تصنع من الإنسان مثالاً متكاملاً تشمله كلّ هذه الفضيلة والفخر، وأن يكون أثرها كإحياء ليلة القدر، ونتيجتها أن يكون في مصافّ أصحاب اليمين، ونيل افتخار محبّة النّبي وآله صلوات الله عليهم.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٢٤. (٢) المصدر السابق، ص ٣٢٥.

محتوى سورة السجدة

هذه السورة بحكم كونها من السور المكّية تتابع بقوّة الخطوط الأصلية للسور المكّية، أي البحث في المبدأ والمعاد، والبشارة والإنذار، وعلى العموم تنقسم مباحثها إلى عدّة أقسام:

١ - الكلام عن عظمة القرآن، ونزوله من قبل ربّ العالمين، ونفي اتّهامات الأعداء عنه.

٢ - ثمّ البحث حول آيات الله سبحانه في السماء والأرض، وتدبير هذا العالم.

٣ - بحث آخر حول خلق الإنسان من «التراب» و«النطفة» و«الروح الإلهيّة»، ومنحه وسائل تحصيل العلم، أي العين والأُذن والعقل من قبل الله تعالى.

٤ - ثمّ تتحدّث بعد ذلك عن القيامة والحوادث التي تسبقها، أي الموت، وما بعدها، أي السؤال والحساب.

٥ و٦ - بحوث مؤثّرة تهزّ الوجدان عن البشارة والإنذار، تبشّر المؤمنين بجنّة المأوى، وتهدّد الفاسقين بعذاب جهنّم الشديد.

٧ - وفي السورة إشارة قصيرة إلى تأريخ بني إسرائيل، وقصّة موسى عليه السلام وانتصارات هذه الأُمّة.

٨ - وكذلك تشير - مناسبة لبحث البشارة والإنذار - إلى أحوال قوم آخرين من الأُمم السابقة، ومصيرهم المؤلم.

٩ و١٠ - ثمّ تعود مرّة أُخرى إلى مسألة التوحيد وآيات عظمة الله، وتنتهي السورة بتهديد الأعداء المعاندين.

وبهذا فإنّ الهدف الأصلي للسورة تقوية أُسس الإيمان بالمبدأ والمعاد، وإيجاد دفعة قويّة في المحتوى الداخلي للإنسان نحو التقوى، والابتعاد عن العصيان والتمرّد والطغيان، والتوجّه إلى مقام الإنسان الرفيع، وهذا المعنى كان يحظى بالأهمّيّة القصوى خاصّة في بداية حركة الإسلام، وفي محيط مكّة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ
ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ

يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾

التّفسير

عظمة القرآن، والمبدأ والمعاد

مرّة أُخرى نواجه الحروف المقطّعة (الف - لام - ميم) في هذه السورة، وهذه هي المرّة الخامسة عشرة التي نرى فيها مثل هذه الحروف في بداية السور القرآنية.

ولقد بحثنا بصورة مفصّلة في بداية سورة البقرة، وآل عمران والأعراف التفاسير المختلفة لهذه الحروف، والبحث الذي جاء بعد هذه الحروف مباشرة حول أهميّة القرآن يبيّن مرّة أُخرى هذه الحقيقة، وهي أنّ (الم) إشارة إلى عظمة القرآن، والقدرة على إظهار عظمة الله سبحانه، وهذا الكتاب العظيم الغنيّ المحتوى، والذي هو معجزة محمّد ﷺ الخالدة يتكوّن من حروف المعجم البسيطة التي يعرفها الجميع.

تقول الآية: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1]. هذه الآية - في الواقع - جواب عن سؤالين: الأوّل عن محتوى هذا الكتاب السماوي، فتقول في الجواب: إنّ محتواه حقّ ولا مجال لأدنى شكّ فيه، والسؤال الثّاني يدور حول مبدع هذا الكتاب، وفي الجواب تقول: إنّ هذا الكتاب من قبل ربّ العالمين.

ويحتمل في التّفسير أيضاً أنّ جملة ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ جاءت دليلاً وبرهاناً لجملة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، فكأنّ سائلاً يسأل: ما هو الدليل على أنّ هذا الكتاب حقّ، ولا مجال للشكّ فيه؟ فتقول: الدليل هو أنّه من ربّ العالمين الذي يصدر منه كلّ حقّ وحقيقة.

ثمّ إنّ التأكيد على صفة ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ من بين صفات الله سبحانه قد يكون إشارة

---

(١) ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هذا) وجملة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ صفته، و﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ صفة أُخرى. واحتمل البعض أن تكون الجمل الثلاث أخباراً متعاقبة، إلاّ أنّ المعنى الأوّل أنسب، وعلى كلّ حال فإنّ ﴿تَنزِيلُ﴾ مصدر جاء بمعنى اسم المفعول، وإضافته إلى الكتاب من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف. ويحتمل أيضاً أن يكون المصدر بمعناه الأصلي ويؤدّي معنى المبالغة.

إلى أنّ هذا الكتاب مجموعة من عجائب عالم الخلقة، وعصارة حقائق عالم الوجود، لأنّه من ربّ العالمين.

وينبغي الالتفات أيضاً إلى أنّ القرآن لا يريد هنا الاكتفاء بالادّعاء الصرف، بل يريد أن يقول: إنّ الشيء الظاهر للعيان لا يحتاج إلى البيان، فإنّ محتوى هذا الكتاب شاهد بنفسه على صحّته وأحقّيته.

ثمّ يشير إلى التهمة التي طالما وجهها المشركون والمنافقون إلى هذا الكتاب السماوي العظيم حيث قالوا: إنّ هذا الكتاب من تأليف محمّد. وقد ادّعى كذباً بأنّه من الله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾(١) فيقول جواباً على ادّعاء هؤلاء الزائف: ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ وأدلّة أحقّيته واضحة وبيّنة فيه من خلال آياته.

ثمّ يتطرّق إلى الهدف من نزوله، فيقول: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.

فبالرغم من أنّ دعوة النّبي الأكرم ﷺ مبشّرة ومنذرة، وأنّه بشير قبل أن يكون نذيراً، إلاّ أنّه يجب التأكيد على الإنذار أكثر مع القوم الضالّين المعاندين.

وجملة ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إشارة إلى أنّ القرآن يهيّىء أرضية الهداية، إلاّ أنّ التصميم واتّخاذ القرار النهائي موكول ومرتبط بنفس الإنسان.

وهنا يطرح سؤالان:

١ - من هم هؤلاء القوم الذين لم يأتهم أي نذير قبل النّبي ﷺ؟

٢ - ألم يقل القرآن الكريم: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(٢).

قال جمع من المفسّرين في جواب السؤال الأوّل: المراد قبيلة قريش التي لم يكن لها نذير قبل نبيّ الإسلام.

وقال البعض الآخر: المراد مرحلة الفترة والفاصلة الزمنية بين نبوّة عيسى عليه السلام وظهور نبيّ الإسلام ﷺ.

إلاّ أنّ أيّاً من هذين الجوابين لا يبدو صحيحاً، لأنّ الأرض لا تبقى خالية من حجّة الله مطلقاً، وفي كلّ عصر وزمان لابدّ من وجود نبيّ أو وصي نبيّ لإتمام الحجّة.

---

(١) «أم» هنا بمعنى «بل»، واحتمل البعض أنّ في الجملة تقديراً، وكانت في الأصل: أيعترفون به أم يقولون افتراه - تفسير «الفخر الرازي وأبي الفتوح» إلاّ أنّ هذا الاحتمال يبدو بعيداً.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٤.

بناءً على هذا، يبدو أنّ المراد من «النذير» هنا النّبي الكبير الذي يوضّح ويبيّن دعوته مقرونة بالمعجزات وفي محيط واسع، ومعلوم أنّ مثل هذا النذير لم يقم في الجزيرة العربية وبين قبائل مكّة.

وفي الإجابة عن السؤال الثّاني ينبغي أن يقال: إنّ معنى جملة: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ هو أنّ كلّ أُمّة كان لها نذير، إلاّ أنّه لا يلزم حضوره بنفسه في كلّ مكان، بل يكفي أن يصل صوت دعوة أنبياء الله العظام بواسطة أوصيائهم إلى أسماع كلّ البشر في العالم.

وهذا يشبه قولنا: إنّ كلّ أُمّة كان لها نبي من أُولي العزم، ولها كتاب سماوي، فمعنى هذا الكلام أنّ صوت هذا النّبي وكتابه السماوي قد وصل عن طريق وكلائه وأوصيائه لكلّ تلك الأُمّة على طول التاريخ.

بعد بيان عظمة القرآن ورسالة النّبي ﷺ تطرّقت الآية التالية إلى أساس آخر من أهم أُسس ودعائم العقائد الإسلامية، فتقول: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[1].

وقلنا مراراً: إنّ المراد من ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ في هذه الآيات: ستّ مراحل، لأنّ أحد معاني اليوم في المحادثات اليومية: المرحلة، كما نقول: كان النظام المستبدّ يحكمنا بالأمس، واليوم يحكمنا نظام الشورى، في حين أنّ الحكومات المستبدّة كانت تحكم آلاف السنين، إلاّ أنّهم يعبّرون عن تلك المرحلة باليوم.

ومن جهة أُخرى، فقد مرّت فترات ومراحل مختلفة على السماء والأرض:

- فيوماً كانت كلّ كواكب المنظومة الشمسية كتلة واحدة مذابة.

- وفي يوم آخر انفصلت السيارات عن الشمس وبدأت تدور حولها.

- وفي يوم كانت الأرض كتلة نار ملتهبة.

- وفي يوم آخر أصحبت باردة وجاهزة لحياة النباتات والحيوانات، ثمّ وجدت الكائنات الحيّة عبر مراحل مختلفة.

---

(١) لفظ الجلالة في هذه الجملة مبتدأ، و(الذي) خبره. واحتملت في تركيب هذه الجملة احتمالات أُخرى، من جملتها، أنّ لفظ الجلالة خبر لمبتدأ محذوف، أو أنّ لفظ الجلالة مبتدأ وخبره ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾ إلاّ أنّ هذين الاحتمالين لا يبدوان مناسبين بتلك الدرجة.

وقد أوردنا شرحاً مفصّلاً لهذا المعنى والمراحل الستّ بصورة مفصّلة في ذيل الآية (٥٤) من سورة الأعراف.

ومن البديهي أنّ قدرة الله اللامتناهية كافية لإيجاد كلّ هذا العالم في لحظة، بل وفي أقلّ منها، إلاّ أنّ هذا النظام التدريجي يبيّن عظمة الله وعلمه وتدبيره في جميع المراحل بصورة أفضل.

فمثلاً: إذا طوى الجنين في لحظة واحدة كلّ مراحل تكامله وولد، فإنّ عجائبه ستبقى بعيدة عن نظر الإنسان، أمّا عندما نراه يطوي في كلّ يوم وأسبوع - طوال هذه التسعة أشهر - أشكالا عجيبة جديدة، فستتعرّف أكثر على عظمة الله سبحانه.

وبعد مسألة الخلق تتطرّق الآية إلى مسألة حاكمية الله سبحانه على عالم الوجود، فتقول: إنّ الله تعالى بعد ذلك استوى على عرش قدرته وسيطر على جميع الكائنات: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

كلمة (العرش) كما قلنا سابقاً، تعني في الأصل الكراسي الطويلة القوائم، وتأتي عادة كناية عن القدرة، كما نقول في تعبيراتنا اليومية: تكسّرت قوائم عرش فلان، أي إنّ قدرته وحكومته قد زالت.

بناءً على هذا، فإنّ استواء الله على العرش لا يراد منه المعنى الجسمي بأن يكون لله عرش كالملوك يجلس عليه، بل بمعنى أنّه خالق عالم الوجود، وكذلك الحاكم على كلّ العالم[1].

وتكمّل الآية مراحل التوحيد بالإشارة إلى توحيد «الولاية» و«الشفاعة»، فتقول: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾.

فمع هذا الدليل الواضح، بأنّ كونه سبحانه خالقاً دليل على كونه حاكماً، والحاكميّة دليل على توحيد الولي والشفيع والمعبود، فلماذا تنحرفون وتضلّون وتتمسّكون بالأصنام؟ ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾!

في الحقيقة، إنّ المراحل الثلاث للتوحيد التي انعكست في الآية أعلاه يعتبر كلّ منها دليلاً على الأُخرى، فتوحيد الخالقية دليل على توحيد الحاكمية، وتوحيد الحاكمية دليل على توحيد الوليّ والشفيع والمعبود.

---

(١) لمزيد التوضيح حول هذا الكلام راجع ذيل الآية (٥٤) من سورة الأعراف.

وهنا طرح بعض المفسّرين سؤالاً، وهو أنّ الجملة الأخيرة تقول: ما لكم من دون الله من وليّ ولا شفيع، ومعناها أنّ وليّكم وشفيعكم الوحيد هو الله سبحانه وحده، فهل من الممكن أن يشفع أحد عنده؟

ويمكن الإجابة على هذا السؤال من ثلاثة جوانب:

١ - بملاحظة أنّ جميع الشفعاء لا يشفعون إلاّ بإذنه تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[(١)]، يمكن القول بأنّ الشفاعة بالرغم من كونها من قبل الأنبياء وأولياء الله، إلاّ أنّها تعود إلى الله سبحانه، سواء كانت الشفاعة لغفران الذنوب والعفو عن العاصين، أم للوصول إلى النعم الإلهيّة، والشاهد على هذا الكلام الآية التي وردت في بداية سورة «يونس» بمضمون هذه الآية تماماً، حيث تقول: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾[(٢)].

٢ - إنّنا عند التوسّل بالله نتوسّل بصفاته، فنستمدّ من رحمته ورحمانيّته، من كونه غفّاراً غفوراً، ومن فضله وكرمه، فكأنّنا قد جعلناه شفيعاً إلى نفسه، ونعتبر هذه الصفات واسطة بينها وبين ذاته المقدّسة، وإن كانت صفاته عين ذاته في الحقيقة، وهذا هو نفس الشيء الذي جاء في دعاء كميل في عبارة علي عليه السلام العميقة المعنى: «واستشفع بك إلى نفسك».

٣ - المراد من «الشفيع» هنا: الناصر والمعين، ونحن نعلم أنّ الناصر والوليّ والمعين هو الله وحده، وما قيل من أنّ الشفاعة هنا بمعنى الخلق وتكميل النفوس يعود في الحقيقة إلى نفس هذا المعنى.

وتشير الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث إلى توحيد الله سبحانه في البداية، ثمّ إلى مسألة «المعاد»، وبهذا تكمل هنا فروع وأركان التوحيد الثلاثة التي اتّضحت في الآيات السابقة - (توحيد الخالقية والحاكمية والعبودية) - بذكر توحيد الربوبية، أي تدبير عالم الوجود من قبل الله سبحانه فقط، فتقول: إنّ الله يدبّر أُمور العالم من مقام القرب منه إلى الأرض: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾.

وبتعبير آخر، فإنّ الله سبحانه قد جعل عالم الوجود من السماء إلى الأرض تحت أمره وتدبيره، ولا يوجد مدبّر سواه في هذا العالم[(٣)].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥. (٢) سورة يونس، الآية: ٣.

(٣) طبقاً للتعبير الأوّل فإنّ «السماء» بمعنى مقام القرب من الله، وطبقاً للتعبير الثاني فإنّ «السماء» تعني نفس هذه السماء - تأمّلوا ذلك -.

ثمّ تضيف: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ والمراد من هذا اليوم يوم القيامة.

وتوضيح ذلك: أنّ المفسّرين قد تحدّثوا كثيراً في تفسير هذه الآية، واحتملوا احتمالات عديدة مختلفة:

١ - فاعتبرها بعضهم إشارة إلى قوس الصعود والنّزول لتدبير العالم في هذه الدنيا.

٢ - وذهب آخرون إلى أنّها إشارة إلى ملائكة الله الذين يطوون المسافة بين السماء والأرض في خمسمائة سنة، ويرجعون بهذه المدّة أيضاً، وهو مشغولون بتدبير هذا العالم بأمر الله سبحانه.

٣ - ويعتبرها البعض الآخر إشارة إلى مراحل التدبير الإلهي في هذا العالم، ويعتقدون أنّ مراحل التدبير الإلهي في هذا العالم كلّ ألف سنة، ويأمر الله سبحانه ملائكته بتدبير أمر السماء والأرض في كلّ الف سنة، وبعد انتهاء مرحلة الألف سنة هذه تبدأ مرحلة أُخرى.

إنّ هذه التفاسير علاوة على أنّها تطرح مطالب غامضة ومبهمة، فإنّها لا تمتلك قرينة وشاهداً من نفس الآية أو من آيات القرآن الأُخرى.

وفي اعتقادنا أنّ المراد من الآية - بقرينة آيات أُخرى من القرآن، وكذلك الروايات الواردة في تفسير الآية - شيء آخر، وهو أنّ الله سبحانه خلق هذا العالم، ونظّم ودبّر السماء والأرض بتدبير خاصّ، وألبس البشر والموجودات الحيّة الأُخرى لباس الحياة، إلاّ أنّه يطوى هذا التدبير في نهاية العالم، فتظلم الشمس، وتفقد النجوم أشعّتها، وبتعبير القرآن ستطوى السماوات حتى ترجع إلى حالتها قبل توسّع هذا العالم ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾(١)، وبعد طيّ هذا العالم سيبدأ إبداع برنامج ومشروع عالمي جديد أوسع، أي سيبدأ عالم آخر بعد انتهاء هذه الدنيا.

وهذا المعنى قد ورد في آيات القرآن الأُخرى، ومن جملتها الآية (١٥٦) من سورة البقرة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

وجاء في الآية (٢٧) من سورة الروم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.

ونقرأ في الآية (٣٤) من سورة يونس: ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾.

بملاحظة هذه التعبيرات، والتعبيرات الأُخرى التي تقول: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾(١)، يتّضح أنّ الآية مورد البحث تتحدّث أيضاً عن بداية ونهاية العالم وقيام يوم القيامة، والذي يعبّرون عنه أحياناً بـ«قوس النّزول» و«قوس الصعود».

بناءً على هذا فإنّ معنى الآية يصبح: إنّ الله سبحانه يدبّر أمر هذا العالم من السماء إلى الأرض - يبدأ من السماء وينتهي بالأرض - ثمّ يعود كلّ ذلك إليه في يوم القيامة.

ونطالع في تفسير علي بن إبراهيم في ذيل هذه الآية: يعني الأُمور التي يدبّرها، والأمر والنهي الذي أمر به، وأعمال العباد، كلّ هذا يظهر يوم القيامة فيكون مقدار ذلك اليوم ألف سنة من سنيّ الدنيا.

وهنا سؤال، وهو: إنّنا نرى في الآية (٤) من سورة المعارج في شأن طول يوم القيامة: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فكيف يمكن الجمع بين الآية مورد البحث، والتي عيّنت مقداره بألف سنة فقط، وآية سورة المعارج؟!

وقد ورد الجواب عن هذا السؤال في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام روي في (أمالي الشيخ الطوسي) أنّه قال: «إنّ في القيامة خمسين موقفاً، كلّ موقف مثل ألف سنة ممّا تعدّون، ثمّ تلا هذه الآية: في يوم كان مقداره خمسين الف سنة»(٢).

ومن الطبيعي أنّ هذه التعبيرات لا تنافي عدم كون المراد من عدد الألف والخمسين ألفاً، العدد والحساب هنا، بل كلّ منهما لبيان الكثرة والزيادة، أي إنّ في القيامة خمسين موقفاً يجب أن يتوقّف الإنسان في كلّ موقف مدّة طويلة جدّاً.

بحث

إساءة الاستفادة من آية ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾:

لقد اتّخذ بعض أتباع المذاهب المصطنعة المبتدعة(٣) الآية أعلاه وسيلة ودليلاً لتوجيه مسلكهم ومذهبهم، وأرادوا أن يطبّقوا هذه الآية على مرادهم بارتكاب

---

(١) سورة هود، الآية: ١٢٣.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج٤، ص٢٢١، وتفسير الصافي ذيل الآية مورد البحث.

(٣) «البهائية والبابية».

المغالطات والاشتباهات وادّعوا أنّ المراد من «الأمر» في الآية: الدين والمذهب، و«التدبير»: يعني إرسال الدين، و«العروج»: يعني رفع ونسخ الدين! وأستناداً إلى هذا فإنّ كلّ مذهب أو دين لا يمكنه أن يعمّر أكثر من ألف سنة، ويجب أن يترك مكانه لدين آخر، وبهذا فإنّهم يقولون: إنّنا نقبل القرآن، لكن، واستناداً إلى نفس هذا القرآن فإنّ ديناً آخر سيأتي بعد مرور ألف سنة!

والآن نريد أن نبحث ونحلّل الآية المذكورة بحثاً محايداً، لنرى هل يوجد فيها ارتباط بما يدّعيه هؤلاء، أم لا؟ ونغضّ النظر عن أنّ هذا المعنى بعيد عن مفهوم الآية إلى الحدّ الذي لا يخطر على ذهن أيّ قارىء خالي الذهن.

إنّنا نرى - بعد الدقّة - أنّ ما يقولونه لا ينسجم مع مفهوم الآية، بل إنّه مشكل بصورة واضحة من جهات كثيرة:

١ - إنّ تفسير كلمة «الأمر» بالدين لا دليل عليه، بل تنفي آيات القرآن الأُخرى ذلك، لأنّ كلمة الأمر قد استعملت في آيات أُخرى بمعنى أمر الخلق، مثل ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

وقد استعملت كلمة الأمر في هذه الآية، وآيات أُخرى مثل: الآية ٥٠/ من سورة القمر، الآية (٢٧) من سورة المؤمنون، الآية (٥٤) من سورة الأعراف، (٣٢) من سورة إبراهيم، (١٢) من سورة النحل، (٢٥) من سورة الروم، (١٢) من سورة الجاثية، بمعنى الأمر التكويني، لا بمعنى تشريع الدين والمذهب.

وأساساً فإنّ كلّ مورد يأتي الكلام فيه عن السماء والأرض، والخلق والخلقة وأمثال ذلك، فإنّ «الأمر» يأتي بهذا المعنى (فتأمّل).

٢ - كلمة «التدبير» تستعمل أيضاً في مورد الخلقة والخلق وتنظيم وضع عالم الوجود، لا بمعنى إنزال الدين والشريعة، ولذلك نرى في آيات القرآن الأُخرى - والآيات يفسّر بعضها بعضاً - أنّ هذه الكلمة لم تستعمل مطلقاً في مورد الدين والمذهب، بل استعملت كلمة «التشريع» أو «التنزيل» أو «الإنزال»:

- ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾[2].

- ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَـٰفِرُونَ﴾[3].

---

(١) سورة يس، الآية: ٨٢.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

- ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[1].

٣ - إنّ الآيات التي قبل وبعد هذه الآية مرتبطة بالخلقة وخلق العالم، ولا ترتبط بتشريع الأديان، لأنّ الكلام في الآية السابقة كان عن خلق السماء والأرض في ستّة أيّام - وبعبارة أُخرى ستّ مراحل - والكلام في الآية التالية عن خلق الإنسان.

ولا يخفى أنّ تناسب وانسجام الآيات يوجب أن تكون هذه الآية المتوسّطة لآيات الخلقة مرتبطة بمسألة الخلقة وتدبير أمر الخلق، ولهذا فإنّنا إذا طالعنا كتب التّفسير التي كتبت قبل مئات السنين فإنّنا لا نجد أحداً قد احتمل أن تكون الآية متعلّقة بتشريع الأديان، بالرغم من أنّهم احتملوا احتمالات مختلفة، فمثلاً: مؤلّف تفسير «مجمع البيان» - وهو من أشهر التفاسير الإسلامية، ومؤلّفه عاش في القرن السادس الهجري - لم ينقل عن أحد علماء الإسلام قولا يدّعي فيه أنّ الآية ترتبط بتشريع الأديان، مع أنّه ذكر أقوالاً مختلفة في تفسير الآية أعلاه.

٤ - إنّ كلمة «العروج»، تعني الصعود والارتفاع، لا نسخ الأديان وزوالها، ولا يلاحظ العروج في أي موضع من القرآن بمعنى النسخ - وهذه الكلمة قد ذكرت في خمس آيات من القرآن، ولا تؤدّي هذا المعنى في أيّ منها - بل تستعمل كلمة النسخ أو التبديل وأمثالهما في مورد الأديان.

إنّ الأديان والكتب السماوية في الأساس ليست كأرواح البشر تعرج إلى السماء مع الملائكة بعد انتهاء العمر، بل إنّ الأديان المنسوخة، موجودة في الأرض، إلاّ أنّها تسقط عن الاعتبار في بعض مسائلها، في حين أنّ أُصولها تبقى على قوّتها.

والخلاصة: فإنّ كلمة العروج علاوة على أنّها لم تستعمل في أيّ موضع من القرآن بمعنى نسخ الأديان، فهي لا تتناسب مع مفهوم نسخ الأديان، لأنّ الأديان المنسوخة لا تعرج إلى السماء.

٥ - إضافةً إلى كلّ ما مرّ فإنّ هذا المعنى لا ينطبق على الواقع الحقيقي العيني، لأنّ الفاصلة بين الأديان السابقة لم تكن ألف سنة في أيّ مورد!

فمثلاً: الفاصلة بين ظهور موسى والمسيح عليهما السلام أكثر من (١٥٠٠) سنة، والفاصلة بين المسيح عليه السلام وظهور نبيّ الإسلام العظيم صلى الله عليه وآله وسلم أقلّ من (٦٠٠) سنة، وكما

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣.

تلاحظون فإنّ أيّاً من هذين الموردين لا ينطبق على الألف سنة التي يقول بها هؤلاء، بل إنّ الفاصلة بين الواقع وما يدّعون كبيرة.

وذكروا أنّ الفترة الزمنية بين ظهور نوح عليه السلام الذي كان من أنبياء أُولي العزم، وواضع دعائم الدين والشريعة الخاصّة، وبين محطّم الأصنام الصنديد إبراهيم عليه السلام الذي كان نبيّاً آخر من ذوي الشرائع أكثر من (١٦٠٠) سنة، والفترة بين إبراهيم وموسى عليه السلام أقلّ من (٥٠٠) سنة.

من هذا الموضوع نخلص إلى هذه النتيجة، وهي أنّه لم تكن هناك فترة ولا فاصلة، ولو من باب المثال، بين أحد الأديان والمذاهب وبين الدين الذي يليه بمقدار ألف سنة.

٦ - وإذا غضضنا النظر عن كلّ ما مرّ، فإنّ بدعة «السيّد علي محمّد باب» والتي تحمّل أتباعه لأجل الدفاع عنها كلّ هذه التوجيهات الباطلة لا تتناسب مع هذا الحساب، لأنّه باعترافهم ولد سنة ١٣٢٥هجري، وكان بدء دعوته سنة ١٢٦٠ هجري قمري، وبملاحظة أنّ بداية دعوة الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم التي كانت بثلاثة عشر عاماً قبل الهجرة، فإنّ الفاصلة بين الاثنين تكون (١٢٧٣) أي بإضافة (٢٧٣) فماذا نصنع بهذا الفارق الكبير؟ وبأيّة خطّة سنتجاهله؟

٧ - ولو تركنا جانباً كلّ هذه الإيرادات الستّة، وصرفنا النظر عن هذه الردود الواضحة، وجعلنا أنفسنا مكان القرآن، وأردنا أن نقول للبشرية: كونوا بانتظار نبيّ جديد بعد مرور ألف سنة، فهل هذا يصحّ طرح هذا المفهوم بالشكل الذي ذكرته الآية، حتى لا ينتبه ويطّلع أحد من العلماء وغير العلماء أدنى اطّلاع على معنى الآية على مدى الاثني أو الثلاثة عشر قرناً، ثمّ تأتي جماعة بعد مرور (١٢٧٣) عام ليدّعوا أنّهم اكتشفوا اكتشافاً جديداً، وأزاحوا الغطاء عنه، وهو مع ذلك لا يتجاوز إطار قبولهم أنفسهم لا قبول الآخرين؟!

ألم يكن الأحسن والأكثر حكمة وعقلاً أن يقال مكان هذه الجملة: أُبشّركم بأنّ نبيّاً بهذا الاسم سيظهر بعد ألف سنة، كما قال عيسى عليه السلام في شأن نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾(١).

وعلى كلّ حال، فهذه المسألة قد لا تستحقّ بحثاً بهذا المقدار إلاّ أنّه لتنبيه وإيقاظ

---

(١) سورة الصف، الآية: ٦.

جيل الشباب المسلم، واطلاعهم على المكائد التي هيّأها الاستعمار العالمي، والمسالك والمذاهب التي ابتدعها لتضعيف جبهة الإسلام، لم يكن لنا سبيل إلاّ أن نستعرض مثل هذه الامور لكي يعلموا ويطّلعوا على جانب من منطق هؤلاء، وعليهم الباقي.

﴿ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾

التّفسير

مراحل خلق الإنسان العجيبة!

إنّ الآيات - مورد البحث - إشارة وتأكيد في البداية على بحوث التوحيد التي مرّت في الآيات السابقة، والتي كانت تتلخّص في أربع مراحل: توحيد الخالقية، والحاكمية، والولاية، والربوبيّة، فتقول: ﴿ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

من البديهي أنّ من يريد أن يدبّر أُمور السماء والأرض، وأن يكون حاكماً عليها، ويتعهّد ويقوم بمهام مقام الولاية والشفاعة والإبداع، يجب أن يكون مطّلعاً على كلّ شيء، الظاهر والباطن، حيث لا يمكن أن يتمّ أيّ من هذه الأُمور بدون الاطّلاع وسعة العلم.

وفي نفس الوقت الذي يجب أن يكون هذا المدبّر عزيزاً قويّاً لا يقهر ليقوى على القيام بهذه الأعمال المهمّة، ينبغي أن تقترن هذه العزّة باللطف والرحمة، لا الخشونة والغلظة.

ثمّ تشير الآية التالية إلى نظام الخلقة الأحسن والأكمل بصورة عامّة، ومقدّمة لبيان خلق الإنسان ومراحل تكامله بشكل خاصّ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ وأعطى كلّ شيء ما يحتاجه، وبتعبير آخر: فإنّ تشييد صرح الخلقة العظيم قد قام على أساس النظام الأحسن، أي قام على نظام دقيق سالم لا يمكن تخيّل نظام أكمل منه.

لقد أوجد سبحانه بين كلّ الموجودات علاقة وانسجاماً، وأعطى كلّاً منها ما يطلبه على لسان الحال.

إذا نظرنا إلى وجود الإنسان، وأخذنا بنظر الاعتبار كلّ جهاز من أجهزته، فسنرى أنّها خلقت من ناحية البناء والهيكل، والحجم، ووضع الخلايا، وطريقة عملها، بشكل تستطيع معه أن تؤدّي وظيفتها على النحو الأحسن، وفي الوقت ذاته فقد وضعت بين الأعضاء روابط قويّة بحيث يؤثّر ويتأثّر بعضها بالبعض الآخر بدون استثناء.

وهذا المعنى هو الحاكم تماماً في العالم الكبير مع المخلوقات المتنوّعة، وخاصّة في عالم الكائنات الحيّة، مع تلك التشكيلات والهيئات المختلفة جدّاً.

والخلاصة: فإنّه هو الذي أودع أنواع العطور البهيجة في الأزهار المختلفة، وهو الذي يهب الروح للتراب والطين ويخلق منه إنساناً حرّاً ذكيّاً عاقلاً، ومن هذا التراب المخلوط يخلق أحياناً الأزهار، وأحياناً الإنسان، وأحياناً أُخرى أنواع الموجودات الأُخرى، وحتى التراب نفسه خلق فيه ما ينبغي أن يكون فيه.

ونرى نظير هذا الكلام في الآية (٥٠) من سورة «طه» من قول موسى وهارون عليهما السلام: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

وهنا يطرح سؤال حول خلق الشرور والآفات، وكيفية انسجامها مع نظام العالم الأحسن، وسنبحثه إن شاء الله تعالى فيما بعد.

بعد هذه المقدّمة الآفاقية يدخل القرآن بحث الأنفس، وكما تحدّث في بحث الآيات الآفاقية عن عدّة أقسام للتوحيد، فإنّه يتحدّث هنا عن عدّة مواهب عظيمة في مورد البشر:

يقول أوّلاً: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ ليبيّن عظمة وقدرة الله سبحانه حيث خلق مثل هذا المخلوق الجليل العظيم من مثل هذا الموجود البسيط الحقير، هذا من جانب، ومن جانب آخر يحذّر الإنسان ويذكّره من أين أتيت، وإلى أين ستذهب؟!

ومن المعلوم أنّ هذه الآية تتحدّث عن خلق آدم، لا كلّ البشر، لأنّ استمرار نسله قد ذكر في الآية التالية، وظاهر هذه الآية دليل واضح على خلق الإنسان بشكل مستقل، ونفي فرضيّة تحوّل الأنواع (وعلى الأقل في مورد نوع الإنسان).

وبالرغم من أنّ البعض أراد أن يفسّر هذه الآية بحيث تناسب وتلائم فرضية تكامل الأنواع، بأنّ خلق الإنسان يرجع إلى أنواع سافلة، وهي تنتهي أخيراً إلى الماء والطين،

إلاّ أنّ ظاهر الآية ينفي وجود أنواع أُخرى من الموجودات الحيّة - وهم يدّعون أنّها أنواع لا تحصى - تفصل بين آدم والطين، بل إنّ خلق الإنسان قد تمّ من الطين مباشرة وبدون واسطة. ولم يتحدّث القرآن عن أنواع الكائنات الحيّة الأُخرى.

وهذا المعنى يتّضح أكثر عند ملاحظة الآية (٥٩) من سورة آل عمران، حيث تقول: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾.

ويقول في الآية (٢٦) من سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

ويستفاد من مجموع الآيات أنّ خلق آدم قد تكوّن من التراب والطين كخلق مستقل، ومن المعلوم أنّ فرضية تطور الأنواع لم تكن مسألة علمية قطعية لنحاول تفسير الآيات أعلاه بشكل آخر بسبب تضادّها وتعارضها مع هذه الفرضية، وبتعبير آخر: طالما لا توجد قرينة واضحة على خلاف ظواهر الآيات فيجب أن نطبّقها بمعناها الظاهر، وكذلك الحال في مورد خلق آدم المستقلّ.

ثمّ تشير الآية بعدها، إلى خلق نسل الإنسان، وكيفية تولّد أولاد آدم في مراحل، فتقول: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾.

«جعل» هنا بمعنى الخلق، و«النسل»: بمعنى الأولاد والأحفاد في جميع المراحل.

«السلالة» في الأصل، بمعنى العصارة الخالصة لكلّ شيء، والمراد منها هنا نطفة الإنسان التي تعتبر عصارة كلّ وجوده، ومبدأ حياة وتولّد الذريّة واستمرار النسل.

إنّ هذا السائل الذي يبدو تافهاً لا قيمة له ولا مقدار فإنّه يعدّ من الناحية البنائية والخلايا الحيوية التي تسبح فيه، وكذلك تركيب السائل الخاصّ الذي تسبح فيه الخلايا رقيقاً ودقيقاً ومعقّداً إلى أبعد الحدود، ويعتبر من آيات عظمة الله سبحانه، وعلمه وقدرته. وكلمة «مهين» التي تعني الضعيف إشارة إلى وضعه الظاهري، وإلاّ فإنّه من أعمق أسرار الموجودات.

وتشير الآية التالية إلى مراحل تكامل الإنسان المعقّدة في عالم الرحم، وكذلك المراحل التي طواها آدم عند خلقه من التراب، فتقول: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

«سوّاه» من التسوية، أي الإكمال، وهذه إشارة إلى مجموع المراحل التي يطويها الإنسان من حال كونه نطفة إلى المرحلة التي تتّضح فيها جميع أعضاء بدنه، وكذلك

المراحل التي طواها آدم بعد خلقه من التراب حتى نفخ الروح[١].

والتعبير بـ«النفخ» كناية عن حلول الروح في بدن الإنسان، فكأنّه شبّه الحال بالهواء والتنفّس، بالرغم من أنّه لا هذا ولا ذاك.

فإن قيل: إنّ نطفة الإنسان منذ استقرارها في الرحم - بل وقبل ذلك - كانت كائناً حيّاً وعلى هذا فأيّ معنى لنفخ الروح؟

قلنا في الجواب: إنّ النطفة عندما تنعقد في البداية ليس لها إلاّ نوعاً من «الحياة النباتية»، أي التغذية والنمو فقط، أمّا الحسّ والحركة التي هي علامة «الحياة الحيوانية»، وكذلك قوّة الإدراكات التي هي علامة الحياة الإنسانية، فلا أثر عن كلّ ذلك.

إنّ تكامل النطفة في الرحم تصل إلى مرحلة تبدأ عندها بالحركة، وتحيا وتنبعث فيها القوى الإنسانية الأُخرى تدريجياً، وهذه هي المرحلة التي يعبّر عنها القرآن بنفخ الروح.

أمّا إضافة «الروح» إلى «الله» فهي «إضافة تشريفية»، أي إنّ روحاً ثمينة وشريفة بحيث إنّ من المناسب أن تسمّى «روح الله» قد دبّت في الإنسان ونفخت فيه، وهذا يبيّن حقيقة أنّ الإنسان وإن كان من ناحية البعد المادّي يتكوّن من الطين والماء، إلاّ أنّه من البعد المعنوي والروحي يحمل «روح الله».

إنّ أحد طرفي وجوده ينتهي إلى التراب، وطرفه الآخر يتّصل بعرش الله، فإنّه خليط من الملائكة والحيوان، ولوجود هذين البعدين فإنّ منحني صعوده ونزوله، وتكامله وانحطاطه واسع جدّاً[٢].

وأشار القرآن في آخر مرحلة - والتي تعتبر المرحلة الخامسة في خلق الإنسان - إلى نعمة الأُذن والعين والقلب، ومن الطبيعي أنّ المراد هنا ليس خلقة هذه الأعضاء، لأنّ هذه الخلقة تتكوّن قبل نفخ الروح، بل المراد حسّ السمع والبصر والإدراك والعقل.

والتأكيد على هذه الحواس الثلاث فقط من بين كلّ الحواس «الظاهرة» و«الباطنة»، لأنّ أهمّ حسّ ظاهري يربط الإنسان بالعالم الخارجي رابطة قويّة هو السمع والبصر،

---

(١) البعض يعتبر هذه الآية إشارة إلى مراحل التكامل الجنيني فقط، والبعض الآخر احتمل أن تكون إشارة إلى مراحل تكامل آدم بعد خلقه من التراب، لأنّ عين هذه التعبيرات قد جاء في آيات أُخرى من القرآن. إلاّ أنّه لا مانع من أن تعود إلى الاثنين، لأنّ خلق آدم من التراب، ونسله من مني، طوى ويطوي هذه المراحل.

(٢) بحثنا في هذا الباب في ذيل الآية (٢٩) من سورة الحجر.

فالأُذن تدرك الأصوات، وخاصّة أنّ التربية والتعليم يتمّ بواسطتها، والعين وسيلة النظر إلى العالم الخارجي ومشاهدة مشاهد هذا العالم المختلفة، وقوّة العقل أهمّ حسّ باطني لدى الإنسان، وبتعبير آخر فإنّه حاكم على وجود البشر.

والجدير بالذكر أنّ «أفئدة» جمع «فؤاد» بمعنى «قلب» ولكن مفهومها أدقّ من القلب حين يقصد بها عادةً الحنكة والفطانة في الفرد، وبهذا يبيّن الله تعالى في هذه الآية أهمّ وسائل المعرفة والإدراك الظاهرية والباطنية في الإنسان، لأنّ العلوم والمعارف إمّا أن يحصل عليها الإنسان بواسطة «التجربة» فالوسيلة هي السمع والبصر، أو عن طريق التحليل والاستدلال العقلي، والوسيلة لذلك هو العقل والفؤاد كما ورد التعبير عنه في هذه الآية، وحتى الإدراك الحاصل من الوحي أو الإشراق والشهود القلبي يتمّ بواسطة هذه الوسيلة أيضاً، أي «الأفئدة».

ولو فقد الإنسان هذه الوسائل للمعرفة، فسوف يخسر قيمته تماماً ويصبح مجرّد كميّة مهملة من المادّة والتراب، ولهذا نجد الآية الشريفة محل البحث تؤكّد في ختامها على مسألة الشكر لهذه النعم العظيمة على الإنسان وتقول ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ وذلك إشارة إلى أنّ الإنسان مهما سعى في أداء شكر هذه النعم والمواهب العظيمة، فمع ذلك لا يؤدّي حقّ الشكر.

بحث

كيفية خلق آدم من التراب

رغم أنّ الآيات القرآنية تحدّثت أحياناً عن خلق الإنسان من «طين» (كالآيات محلّ البحث)، وكما ورد في قصّة آدم وإبليس في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينًا﴾[1].

وأحياناً أُخرى عن الخلق من الماء مثل: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّ﴾[2]. إلاّ أنّ من المعلوم أنّ هذه جميعاً تعود إلى مطلب واحد، وحتى عند الكلام عن خلق آدم من التراب، مثل ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾[3]. لأنّ المراد: التراب الممتزج بالماء، أي الطين.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦١. (٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

ومن هنا تتّضح عدّة نقاط:

١ - أنّ الذين احتملوا أنّ المراد من خلق الإنسان من التراب، هو أنّ أفراد البشر يتغذّون على النباتات - سواء كانت التغذية بصورة مباشرة أو غير مباشرة - وأنّ النباتات كلّها من التراب - قد جانبوا الصواب، لأنّ آيات القرآن يفسّر بعضها بعضاً، والآيات أعلاه إشارة إلى شخص آدم الذي خلق من التراب.

٢ - أنّ كلّ هذه الآيات دليل على نفي فرضية التكامل - وعلى الأقل في مورد الإنسان، وأنّ نوع البشر الذي ينتهي بآدم له خلق مستقلّ.

وما قيل من أنّ آيات الخلق من التراب إشارة إلى نوع الإنسان الذي يعود إلى الموجودات أحادية الخليّة بآلاف الوسائط، وهي أيضاً قد جاءت - طبقاً للفرضيات الأخيرة - من الطين الموجود على جانب المحيطات، أمّا نفس آدم فقد كان فرداً انتُخب من بين نوع البشر، ولم يكن له خلق مستقلّ، بل إنّ امتيازه كان في صفاته الخاصّة... هذه الفرضية لا تتناسب مع ظواهر آيات القرآن بأيّ وجه من الوجوه.

ونؤكّد مجدّداً أنّ مسألة تحوّل الأنواع ليست قانوناً علميّاً مسلّماً، بل هي مجرّد فرضيّة - لأنّ الشيء الذي امتدّ أصله إلى ملايين السنين وخفي فيها، فمن المسلّم أنّه لا يخضع للتجربة والمشاهدة، ولا يمكن أن يكون في مصاف القوانين العلمية الثابتة - بل هي فرضية لتوجيه ظاهرة تنوّع الأجناس التي ظهرت إلى الوجود توجيهاً تخمينياً، ونحن نعلم أنّ الفرضيات في حالة تغيّر وتحوّل دائماً حيث تخلي الساحة أمام الفرضيات الجديدة.

بناءً على هذا، فإنّه لا يمكن الاعتماد عليها مطلقاً في المسائل الفلسفية التي تحتاج إلى أُسس مسلّمة قطعية.

وقد أوردنا إيضاحاً مفصّلاً حول أُسس فرضية تكامل الأنواع، وعدم صحّتها، تحت عنوان (القرآن وخلق الإنسان) في ذيل الآية (٢٨) من سورة الحجر.

وفي نهاية هذا البحث نرى لزاماً ذكر هذه المسألة، وهي أنّه ليس لفرضية التكامل أي ارتباط بمسألة التوحيد ومعرفة الله، ولا تعتبر دليلاً على نفي عالم ما وراء الطبيعة، لأنّ الاعتقاد التوحيدي يقول: إنّ العالم قد خلق من قبل الله سبحانه، وإنّه هو الذي أعطى كلّ خواص الموجودات، ويشملها بفيضه في جميع المراحل.

إنّ هذا المعنى يمكن أن يقبله المعتقد بنظرية (ثبوت الأنواع) كما يقبله من يذهب إلى

ور الأنواع)، غير أنّ المشكلة الوحيدة التي يواجهها المعتقد بفرضية تحوّل الأ
أنّ هذه الفرضيّة لا تتناسب مع التفصيل الذي بيّنه القرآن الكريم حول خلق آ
ث يذكر كيفيّة خلقه من التراب والطين.
بناءً على هذا فإنّنا ننفي فرضية التكامل لهذا السبب فقط، لا بسبب مخالفتها لمس
حيد. هذا من الناحية التّفسيرية.
أمّا من الناحية العلمية - أي العلوم الطبيعية - فإنّنا ننفي فرضية التكامل - وكما أ
ذلك - من جهة عدم امتلاكها الأدلّة القطعيّة على ثبوتها.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ
﴿١٠﴾ ۞قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾
وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا
فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا
وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٣﴾
فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ
بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

التّفسير

دم وطلب الرجوع

تبدأ هذه الآيات ببحث واضح جلي حول المعاد، ثمّ تبيّن وتبحث حال المجرمين
لم الآخر، وهي في المجموع تتمّة للبحوث السابقة التي تحدّثت حول المبدأ، إذ
حث عن المبدأ والمعاد مقترنان غالباً في القرآن المجيد فتقول: إنّ هؤلاء الك
اءلون باستغراب بأنّنا إذا متنا وتحوّلت أبداننا إلى تراب واندثرت تماماً فهل سو
ق من جديد: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ﴾.
إنّ التعبير بـ﴿ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إشارة إلى أنّ الإنسان يصبح تراباً بعد موته كس
ربة ويتفرّق هذا التراب نتيجة العوامل الطبيعية وغير الطبيعية، ولا يبقى منه شيء ح
ده الله سبحانه في القيامة مرّة أخرى.

إلاّ أنّ هؤلاء ليسوا بمنكرين قدرة الله في الحقيقة ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ﴾ فإنّهم ينكرون مرحلة لقاء الله والحساب والثواب والعقاب لتبرير حرية العمل وليعملوا ما يريدون!

وهذه الآية تشبه كثيراً الآيات الأُولى من سورة القيامة التي تقول: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝٦﴾[1].

بناء على هذا، فإنّ هؤلاء ليسوا قاصرين من ناحية الاستدلال، ولكن شهواتهم حجبت قلوبهم، ونيّاتهم السيّئة منعتهم من قبول مسألة المعاد، وإلاّ فإنّ الله الذي أعطى قطعة المغناطيس القوّة التي تجذب إلى نفسها ذرّات الحديد الصغيرة جدّاً والمتناثرة في طيّات أطنان من تراب الأرض من خلال جولة سريعة في تلك الأرض، وتجمعها بكلّ بساطة، هو الذي يجعل بين ذرّات بدن الإنسان مثل هذه الجاذبية المتقابلة.

من الذي يستطيع أن ينكر أنّ المياه الموجودة في جسم الإنسان - وأكثر جسم الإنسان ماء - وكذلك المواد الغذائية، كانت ذرّاتها متناثرة في زاوية من العالم قبل ألف عام مثلاً، وكلّ قطرة في محيط، وكلّ ذرّة في إقليم، إلاّ أنّها تجمّعت عن طريق السحاب والمطر والعوامل الطبيعية الأُخرى، وكوّنت الوجود الإنساني في النهاية، فأي داع للعجب من أن تجتمع وترجع إلى حالها الأوّل بعد تلاشيها وتبعثرها؟!

وتجيب الآية هؤلاء عن طريق آخر، فتقول: لا تتصوّروا أنّ شخصيتكم بأبدانكم وأجسامكم، بل بأرواحكم، وهي باقية ومحفوظة: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

إذا لاحظنا أنّ معنى ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾ - من مادة «توفّى» (على وزن تصدّى)، هو الاستيفاء، فإنّ الموت سوف لا يعني الفناء، بل نوع من قبض الملائكة لروح الإنسان التي تشكّل أهمّ من وجود الإنسان.

صحيح أنّ القرآن يتحدّث عن المعاد الجسماني، ويعتبر رجوع الروح والجسم المادّي في المعاد حتمياً، إلاّ أنّ الهدف من الآية أعلاه هو بيان أنّ هذه الأجزاء المادية التي شغلتم بها فكركم تماماً ليست هي أساس شخصيّة الإنسان، بل الأساس هو الجوهر الروحي الذي جاء من قبل الله تعالى وإليه يرجع.

---

(١) سورة القيامة، الآيات: ٣ - ٦.

وفي المجموع يمكن أن يقال: إنّ الآيتين أعلاه تجيبان منكري المعاد بهذا الجواب: إذا كان إشكالكم في تفرّق الأجزاء الجسمية، فإنّكم تقرّون بقدرة الله سبحانه ولا تنكرونها، وإذا كان إشكالكم في اضمحلال وفناء شخصية الإنسان على أثر تناثر تلك الذرّات، فلا يصحّ ذلك لأنّ أساس شخصيّة الإنسان يستند إلى الروح.

وهذا الإيراد لا يختلف عن شبهة (الآكل والمأكول) المعروفة، كما أنّ جوابه في الموردين يشبه جواب تلك الشبهة[١].

وثمّة مسألة ينبغي التوجّه إليها، وهي أنّ في بعض آيات القرآن نُسب التوفّي إلى الله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[٢]، وفي بعضها إلى مجموعة من الملائكة: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾[٣]. وفي الآيات مورد البحث نسب قبض الأرواح إلى ملك الموت، إلاّ أنّه لا منافاة بين هذه التعبيرات مطلقاً، فإنّ لملك الموت معنى الجنس، وهو يطلق على كلّ الملائكة، أو هو إشارة إلى كبير الملائكة وزعيمها، ولمّا كان الجميع يقبضون الأرواح بأمر الله سبحانه، فقد نسب الفعل إلى الله عزّ وجلّ.

ثمّ تجسّد وضع هؤلاء المجرمين الكافرين ومنكري المعاد الذين يندمون في القيامة أشدّ الندم على ما كان منهم لدى مشاهدة مشاهدها ومواقفها المختلفة، فتقول: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[٤].

ستعجب حقّاً! أهؤلاء النادمون الناكسو الرؤوس هم أُولئك المتكبّرون العتاة العصاة الذين لم يكونوا يذعنون في الدنيا لأيّة حقيقة؟! إلاّ أنّهم الآن يتغيّرون تماماً عند رؤية مشاهد القيامة ويصلون إلى مستوى الشهود، لكنّ هذا الوعي وتغيير الموقف سريع الزوال، فإنّهم - وطبقاً لآيات القرآن الأُخرى - لو رجعوا إلى هذه الدنيا لعادوا إلى حالتهم الأُولى، الأنعام/ الآية ٢٨.

---

(١) لمزيد الإيضاح حول شبهة (الآكل والمأكول) وجوابها المفصّل راجع التفسير الأمثل، ذيل الآية (٢٦٠) من سورة البقرة.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

(٣) سورة النحل، الآية: ٢٨.

(٤) (لو) في الآية الشريفة شرطية، شرطها جملة (وترى ..) وجزاؤها محذوف، والتقدير: «ولو ترى إذ المجرمون... لرأيت عجباً». وفي جملة ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ حذف تقديره: يقولون ربّنا أبصرنا.

«الناكس» من مادّة (نكس) على وزن (كلب) بمعنى انقلاب الشيء، وهنا يعني خفض الرأس إلى الأسفل وطأطأته.

تقديم «أبصرنا» على «سمعنا» لأنّ الإنسان يرى المشاهد والمواقف أوّلاً، ثمّ يسمع استجواب الله والملائكة.

ويتبيّن ممّا قلناه أنّ المراد من «المجرمين» هنا الكافرون، وخاصّة منكري القيامة.

وعلى كلّ حال، فليست هذه المرّة الأُولى التي نواجه فيها هذه المسألة في آيات القرآن، وهي أنّ المجرمين يندمون أشدّ الندم عند مشاهدة نتائج الأعمال والعذاب الإلهي، ويطلبون الرجوع إلى الدنيا، في حين أنّ مثل هذا الرجوع غير ممكن في السنّة الإلهية، كما أنّ رجوع الطفل إلى رحم الأُمّ، والثمرة المقطوفة إلى الشجرة غير ممكن.

والجدير بالذكر أنّ طلب المجرمين الوحيد هو الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحاً، ومن هنا يتّضح جيّداً أنّ رأسمال النجاة الوحيد في القيامة هو الأعمال الصالحة... تلك الأعمال التي تنبع من قلب طاهر مليء بالإيمان، وتتمّ بخالص النيّة.

ولمّا كان كلّ هذا الإصرار والتأكيد على قبول الإيمان قد يوهم عجز الله سبحانه عن أن يلقي نور الإيمان في قلوب هؤلاء، فإنّ الآية التالية تضيف: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾.

فمن المسلّم أنّ الله تعالى يمتلك مثل هذه القدرة، إلاّ أنّ الإيمان الذي يتحقّق ويتمّ بالإجبار لا قيمة له، ولذا فالمشيئة الإلهيّة أرادت أن ينال الإنسان شرف كونه مختاراً، وأن يسير في طريق التكامل بحريته واختياره، ولذلك تضيف في النهاية لقد قرّرت أن أخلق الإنسان مختاراً ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

أجل... إنّ المجرمين سلكوا هذا الطريق بسوء اختيارهم، ولذلك فهم مستحقّون للعقاب، ونحن قد قطعنا على أنفسنا أن نملأ جهنّم منهم.

وبملاحظة ما قلناه، وبملاحظة مئات الآيات القرآنية التي تعتبر الإنسان موجوداً مختاراً ذا إرادة، ومكلّفاً بتكاليف، ومسؤولاً عن أعماله، وقابلاً للهداية بواسطة الأنبياء وتهذيب النفس وتربيتها، فإنّ كلّ توهّم يبتني على أنّ الآية أعلاه دليل على الجبر - كما ظنّ ذلك الفخر الرازي وأمثاله - واضح البطلان.

ولعلّ الجملة الشديدة القاطعة أعلاه إشارة إلى أن لا تتصوّروا أنّ رحمة الله الواسعة تمنع من عقاب المجرمين الفسقة والظالمين، وأن لا تغترّوا بآيات الرحمة وتعدّوا أنفسكم بمأمن من العذاب الإلهي، فإنّ لرحمته موضعاً، ولغضبه موضعاً.

إنّه عزّوجلّ سيَفِي بوعيده حتماً - وخاصّة بملاحظة لام القسم في جملة (لأملأنّ) ونون التوكيد في آخرها - وسيملأ جهنّم من أصحابها هؤلاء، وإن لم يفعل فذلك خلاف الحكمة، ولذلك تقول الآية التالية: إنّا سنقول لأصحاب النار ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

مرّة أُخرى يستفاد من هذه الآية أنّ نسيان محكمة القيامة العادلة هو الأساس لكلّ تعاسة وشقاء للإنسان، لأنّه سيرى نفسه في هذه الصورة حرّاً إزاء ارتكاب القبائح والظلم والعدوان(١).

وكذلك يستفاد من الآية بوضوح أنّ العقاب الأبدي للفرد معلول لما ارتكبه من أعمال في دار الدنيا، لا لشيء آخر.

وضمناً يتّضح أنّ المراد من «نسيان الله» هو عدم رعايته ونصرته لهم، وإلاّ فإنّ جميع العالم حاضر دوماً عند الله، ولا معنى للنسيان بالنسبة له عزّوجلّ.

مسألتان

١ - استقلال الروح وأصالتها

الآية الأُولى من الآيات مورد البحث، والتي لها دلالة على قبض الأرواح بواسطة ملك الموت، من أدلّة استقلال روح الإنسان، لأنّ التعبير بالتوفّي (والذي يعني القبض) يوحي بأنّ الروح تبقى بعد انفصالها عن البدن ولا تفنى.

والتعبير عن الإنسان في الآية بالروح أو النفس في الآية أعلاه شاهد آخر على هذا المعنى، لأنّ الروح - وفق نظرية الماديّين - ليست إلاّ الخواص الفيزيائية والكيميائية للخلايا المخيّة، وهي تفنى بفنائها، تماماً كما تفنى حركات عقارب الساعة بعد فنائها وتحطّمها. وطبقاً لهذه النظرية فإنّ الروح ليست هي المحافظة على شخصية الإنسان، بل هي جزء من خواصّ جسمه تتلاشى عند تلاشي جسمه.

ولدينا أدلّة فلسفية عديدة على أصالة الروح واستقلالها، ذكرنا بعضاً منها في ذيل الآية (٨٥) من سورة الإسراء، والمراد هنا بيان الدليل النقلي على هذا الموضوع، حيث تعتبر الآية أعلاه من الآيات الدالّة على هذا المعنى.

(١) لمزيد من الإيضاح يراجع إلى هذا التفسير، ذيل الآية ١٠٧ من سورة هود.

٢ - ملك الموت

يستفاد من آيات القرآن المجيد أنّ الله سبحانه يدبّر أُمور هذا العالم بواسطة مجموعة من الملائكة، كما في الآية (٥) من سورة النازعات حيث يقول: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ ونعلم أنّ السنّة الإلهيّة قد جرت على أن تمضي الأُمور بأسبابها.

وقسم من هؤلاء الملائكة هم الملائكة الموكّلون بقبض الأرواح، والذين أشارت إليهم الآيتان (٢٨ و٣٣) من سورة النحل، وبعض الآيات القرآنية الأُخرى، وعلى رأسهم ملك الموت.

وقد رويت أحاديث كثيرة في هذا الباب، تبدو الإشارة إلى بعضها لازمة من جهات:

١ - في حديث روي عن الرّسول الأكرم ﷺ أنّه قال: «الأمراض والأوجاع كلّها بريد الموت ورسل الموت! فإذا حان الأجل أتى ملك الموت بنفسه فقال: ياأيّها العبد، كم خبر بعد خبر؟ وكم رسول بعد رسول؟ وكم بريد بعد بريد؟ أنا الخبر الذي ليس بعدي خبر! وأنا الرّسول أجب ربّك طائعاً أو مكرهاً.

فإذا قبض روحه وتصارخوا عليه، قال: على مَن تصرخون؟ وعلى من تبكون؟ فوالله ما ظلمت له أجلاً، ولا أكلت له رزقاً، بل دعاه ربّه، فليبك الباكي على نفسه، وإنّ لي فيكم عودات وعودات حتى لا أُبقي فيكم أحداً»[1].

طالعوا هذا الحديث المروّع مرّة أُخرى، فقد أُخفيت فيه حقائق كثيرة.

٢ - وفي حديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «دخل رسول الله على رجل من الأنصار يعوده، فإذا ملك الموت عند رأسه، فقال رسول الله: يا ملك الموت، ارفق بصاحبي فإنّه مؤمن، فقال: أبشر يا محمّد، فإنّي بكلّ مؤمن رفيق، واعلم يا محمّد، أنّي لأقبض روح ابن آدم فيصرخ أهله، فأقوم في جانب الدار فأقول: والله، ما لي من ذنب، وإنّ لي لعودة وعودة، الحذر الحذر، وما خلق الله من أهل بيت ولا مدر ولا شعر ولا وبر، في برّ ولا بحر إلاّ وأنا أتصفّحهم في كلّ يوم وليلة خمس مرّات حتى أنّي لأعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم»[2].

وقد وردت روايات أُخرى بهذا المضمون في مختلف المصادر الإسلامية، تحذّر

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٨، ص٣٢٩، ذيل الآية مورد البحث، وتفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٢٢٥.

(٢) تفسير الدرّ المنثور طبقاً لنقل الميزان، ج ١٦، ص ٢٦٨.

يعاً كلّ البشر أنّ المسافة بينهم وبين الموت ليست كبيرة! ومن الممكن جدّاً أن ينت
، شيء في لحظة قصيرة.

أيحسن بالإنسان والحال هذه أن يغترّ وينخدع بزخارف هذه الدنيا وزبرجها، ويتلو
راع المعاصي والظلامات، ويبقى غافلاً عن عاقبة أعماله؟!

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾

التّفسير

وائز عظيمة لم يطّلع عليها أحد!

إنّ طريقة القرآن هي أنّه يبيّن كثيراً من الحقائق من خلال مقارنتها مع بعضها، لتك
بومة ومستقرّة في القلب تماماً، وهنا أيضاً بعد الشرح والتفصيل الذي مرّ في الآيا
ابقة حول المجرمين والكافرين، فإنّه يتطرّق إلى صفات المؤمنين الحقيقيين البارز
ين أُصولهم العقائدية، وبرامجهم العملية بصورة مضغوطة ضمن آيتين بذكر ثم
فات[1]، فيقول أوّلاً: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِـ
ـمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

التعبير بـ ﴿إِنَّمَا﴾ الذي يستعمل عادةً لإفادة معنى الحصر، يبيّن أنّ كلّ من يتحدّث

(١) ينبغي الالتفات إلى أنّ الآية الأُولى هي أُولى السجدات الواجبة في القرآن الكريم، وإذا ما تلاها أ
بتمامها، أو سمعها من آخر فيجب أن يسجد. طبعاً لا يجب فيها الوضوء، لكن يجب الاحتياط في و
الجبهة على ما يصحّ السجود عليه.

الإيمان ويتمشدق به، ولا يمتلك الخصائص والصفات التي وردت في هذه الآيات، فإنّه لا يكون في صفّ المؤمنين الواقعيين، بل هو شخص ضعيف الإيمان.

لقد بيّنت في هذه الآية أربع صفات:

١ - أنّهم يسجدون بمجرّد سماعهم آيات الله، والتعبير بـ(خرّوا) بدل (سجدوا) إشارة إلى نكتة لطيفة، وهي أنّ هؤلاء المؤمنين ينجذبون إلى كلام الله لدى سماعهم آيات القرآن ويهيمون فيها بحيث يسجدون لا إرادياً[1].

نعم... إنّ أوّل خصائص هؤلاء هو العشق الملتهب، والعلاقة الحميمة بكلام محبوبهم ومعشوقهم.

لقد ذكرت هذه الصفة والخاصية في بعض آيات القرآن الأُخرى كأحد أبرز صفات الأنبياء، كما يقول الله سبحانه في شأن جمع من الأنبياء العظام: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[2].

وبالرغم من أنّ الآيات هنا ذكرت بصورة مطلقة، ولكن من المعلوم أنّ المراد منها غالباً الآيات التي تدعو إلى التوحيد ومحاربة الشرك.

٢ و٣ - علامتهم الثّانية والثالثة تسبيح الله وحمده، فهم ينزّهون الله تعالى عن النقائص من جهة، ومن جهة أُخرى فإنّهم يحمدونه ويثنون عليه لصفات كماله وجماله.

٤ - والصفة الأُخرى لهؤلاء هي التواضع وترك كلّ أنواع التكبّر، لأنّ الكبر والغرور أوّل درجات الكفر والجحود، والتواضع أمام الحقّ والحقيقة أُولى خطوات الإيمان!

إنّ الذين يسيرون في طريق الكبر والعُجب لا يسجدون لله، ولا يسبّحونه ولا يحمدونه، ولا يعترفون بحقوق عباده! إنّ لهؤلاء صنماً عظيماً، وهو أنفسهم!

ثمّ أشارت الآية الثّانية إلى أوصاف هؤلاء الأُخرى، فقالت: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾[3] فيقومون في الليل، ويتّجهون إلى ربّهم ومحبوبهم ويشرعون بمناجاته وعبادته.

---

(١) يقول الراغب في المفردات: (خرّوا) في الأصل من مادّة الخرير، أي صوت الماء وأمثاله حين انحداره من مرتفع إلى منخفض، واستعماله هذا التعبير في شأن الساجدين إشارة إلى أنّ هؤلاء ترتفع أصواتهم بالتسبيح في لحظة هويّهم إلى الأرض للسجود.

(٢) سورة مريم، الآية: ٥٨.

(٣) «تتجافى» من مادّة «جفا»، وهي في الأصل بمعنى القطع والحمل والإبعاد، و(الجنوب) جمع جنب، وهو الجانب، و(المضاجع) جمع مضجع، وهو محل النوم، وإبعاد الجانب عن محلّ النوم كناية عن النهوض من النوم والتوجّه إلى عبادة الله في جوف الليل.

نعم. . . إنّ هؤلاء يستيقظون ويحيون قدراً من الليل في حين أنّ عيون الغافلين تغطّ في نوم عميق، وحينما تتعطّل برامج الحياة العادية، وتقلّ المشاغل الفكرية إلى أدنى مستوى، ويعمّ الهدوء والظلام كلّ الأرجاء، ويقلّ خطر التلوّث بالرياء في العبادة، والخلاصة: عند توفّر أفضل الظروف لحضور القلب، فإنّهم يتّجهون بكلّ وجودهم إلى معبودهم، ويطأطئون رؤوسهم عند أعتاب معشوقهم، ويخبرونه بما في قلوبهم، فهم أحياء بذكره، وكؤوس قلوبهم طافحة بحبّه وعشقه.

ثمّ تضيف: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

وهنا تذكر الآية صفتين أُخريين لهؤلاء هما: «الخوف» و«الرجاء»، فلا يأمنون غضب الله عزّ وجلّ، ولا ييأسون من رحمته، والتوازن بين الخوف والرجاء هو ضمان تكاملهم وتوغّلهم في الطريق إلى الله سبحانه، والحاكم على وجودهم دائماً، لأنّ غلبة الخوف تجرّ الإنسان إلى اليأس والقنوط، وغلبة الرجاء تغري الإنسان وتجعله في غفلة، وكلاهما عدوّ للإنسان في سيره التكاملي إلى الله سبحانه.

وثامن صفاتهم، وآخرها في الآية أنّهم ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

فهم لا يهبون من أموالهم للمحتاجين وحسب، بل ومن علمهم وقوّتهم وقدرتهم ورأيهم الصائب وتجاربهم ورصيدهم الفكري، فيهبون منها ما يحتاج إليه الغير.

إنّهم ينبوع من الخير والبركة، وعين فوّارة من ماء الصالحات العذب الصافي الذي يروي العطاشى، ويغني المحتاجين بحسب استطاعتهم.

نعم. . . إنّ أوصاف هؤلاء مجموعة من العقيدة الرصينة الثابتة، والإيمان القويّ والعشق الملتهب لله، والعبادة والطاعة، والسعي والحركة الدؤوبة، ومعونة عباد الله في كلّ المجالات.

ثمّ تطرّقت الآية التالية إلى الثواب العظيم للمؤمنين الحقيقيين الذين يتمتّعون بالصفات المذكورة في الآيتين السابقتين، فتقول بتعبير جميل يحكي الأهميّة الفائقة لثوابهم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

التعبير بـ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ وكذلك التعبير بـ﴿قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ مبيّن لعظمة هذه المواهب والعطايا التي لا عدّ لها ولا حصر، خاصّة وأنّ كلمة ﴿نَفْسٌ﴾ قد وردت بصيغة النكرة في سياق النفي، وهي تعني العموم وتشمل كلّ النفوس حتى ملائكة الله المقرّبين وأولياء الله.

والتعبير بـ ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ من دون الإضافة إلى النفس، إشارة إلى أنّ هذه النعم الإلهيّة التي خصّصت كثواب وجزاء للمؤمنين المخلصين في الآخرة، في هيئة تكون معها قرّة لعيون الجميع.

﴿قُرَّةَ﴾ مادّة القَرّ، أي البرودة، ومن المعروف أنّ دموع الشوق باردة دائماً، وأنّ دمع الغمّ والحسرة حارّ محرق، فالتعبير بـ ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ يعني في لغة العرب الشيء الذي يسبّب برودة عين الإنسان، أي أنّ دموع الشوق والفرح تجري من أعينهم، وهذه كناية لطيفة عن منتهى الفرح والسرور والسعادة.

وفي حديث عن النّبي الأكرم ﷺ: «إنّ الله يقول: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»(١).

وثمّة سؤال طرحه المفسّر الكبير العلاّمة «الطبرسي» في (مجمع البيان) وهو: لماذا أُخفي هذا الثواب والجزاء؟

ثمّ يذكر ثلاثة أجوبة لهذا السؤال:

١ - أنّ الأُمور المهمّة والقيّمة لا يمكن إدراك حقيقتها بسهولة من خلال الألفاظ والكلام، ولذلك فإنّ إخفاءها وإبهامها يكون أحياناً أكثر تحفيزاً، وأبعث على النشاط، وهو أبلغ من ناحية الفصاحة.

٢ - أنّ الشيء الذي يكون قرّة للأعين، يكون عادةً مترامي الأطراف إلى الحدّ الذي لا يصل علم ابن آدم إلى جميع خصوصياته.

٣ - لمّا كان هذا الجزاء قد جعل لصلاة الليل المستورة، فإنّ المناسب أن يكون ثواب هذا العمل عظيماً ومخفيّاً أيضاً، وينبغي الالتفات إلى أنّ جملة ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ في الآية السابقة إشارة إلى صلاة الليل.

وفي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «ما من حسنة إلاّ ولها ثواب مبيّن في القرآن، إلاّ صلاة الليل، فإنّ الله عزّ اسمه لم يبيّن ثوابها لعظم خطرها، قال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾»(٢).

وبغضّ النظر عن كلّ ذلك، فإنّ عالم القيامة - وكما أشرنا إلى ذلك سابقاً - عالم

(١) نقل هذا الحديث كثير من المفسّرين، ومن جملتهم الطبرسي في مجمع البيان، والآلوسي في روح المعاني، والقرطبي في تفسيره، وقد أورده المحدّثان المشهوران البخاري ومسلم في كتبهما أيضاً.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج٨، ص٣٣١، ذيل الآيات مورد البحث.

أوسع من هذا العالم سعةً لا تحتمل المقارنة، فهو أوسع حتى من الحياة الدنيا بالقياس إلى حياة الجنين في رحم الأمّ، وأبعاد ذلك العالم لا يمكن إدراكها عادةً بالنسبة لنا نحن السجناء داخل الجدران الأربعة للدنيا، ولا يمكن تصوّره من قبل أحد.

إنّنا نسمع كلاماً عنه فقط، ونرى شبحه من بعيد، لكنّنا ما لم ندرك ولم نر ذلك العالم، فإنّ من المحال إدراك أهميّته وعظمته، كما أنّ إدراك الطفل في بطن الأمّ لنعم هذه الدنيا - على فرض امتلاكه العقل والإحساس الكامل - غير ممكن.

وقد ورد نفس هذا التعبير في شأن الشهداء في سبيل الله، ذلك أنّ الشهيد عندما يقع على الأرض تقول له الأرض: مرحباً بالروح الطيّبة التي خرجت من البدن الطيّب، أبشر فإنّ لك ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر(١).

وتبيّن الآية التالية المقارنة التي مرّت في الآيات السابقة بصيغة أكثر صراحة، فتقول: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ﴾.

لقد وردت الجملة بصيغة الاستفهام الإنكاري، ذلك الاستفهام الذي ينبعث جوابه من عقل وفطرة كلّ إنسان بأنّ هذين الصنفين لا يستويان أبداً، وفي الوقت نفسه، وللتأكيد، فقد أوضحت الآية عدم التساوي بصورة أوضح بذكر جملة: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ﴾.

لقد جعل «الفاسق» في مقابل «المؤمن» في هذه الآية، وهذا دليل على أنّ للفسق مفهوماً واسعاً يشمل الكفر والذنوب الأخرى، لأنّ هذه الكلمة أخذت في الأصل من جملة (فسقت الثمرة) إذا خرجت من قشرها، ثمّ أطلقت على الخروج على أوامر الله والعقل وعصيانها، ونعلم أنّ كلّ من كفر، أو ارتكب معصية فقد خرج على أوامر الله والعقل.

وممّا يجدر ذكره أنّ الثمرة ما دامت في قشرها فهي سالمة، وبمجرّد أن تخرج من القشر تفسد، وبناءً على هذا فإنّ فسق الفاسق كفسق الثمرة، وفساده كفسادها.

ونقل جمع من المفسّرين الكبار في ذيل هذه الآية أنّ «الوليد بن عقبة» قال يوماً لعلي عليه السلام: أنا أبسط منك لساناً، وأحدّ منك سناناً! إشارة إلى أنّه - بظنّه - يفوق علياً في الفصاحة والحرب، فأجابه علي عليه السلام: «ليس كما تقول يا فاسق»، إشارة إلى أنّك أنت الذي اتّهمت بني المصطلق بوقوفهم ضدّ الإسلام في قصّة جمع الزكاة منهم،

(١) تفسير مجمع البيان، ج٢ ذيل الآية (١٧١) من آل عمران، والتّفسير الأمثل، ذيل نفس الآية.

فكذّبك الله وعدّك فاسقاً في الآية (٦) من سورة الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ...﴾[1].

وأضاف البعض هنا بأنّ آية: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ نزلت بعد هذه المحاورة، لكن يبدو من ملاحظة أنّ السورة مورد البحث (سورة السجدة) نزلت في مكّة، وقصّة الوليد وبني المصطلق وقعت في المدينة، فهذا من قبيل تطبيق الآية على مصداق واضح لها.

وبناءً على ما ذهب بعض المفسّرين من أنّ الآية أعلاه والآيتين بعدها مدنية، لا يبقى إشكال من هذه الجهة، ولا مانع من أن تكون هذه الآيات الثلاث قد نزلت بعد المحاورة أعلاه.

وعلى كلّ حال، فلا بحث ولا جدال في إيمان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام العميق المتأصّل، ولا في فسق الوليد، حيث أُشير في آيات القرآن لكلا الاثنين.

وتبيّن الآية التالية عدم المساواة هذه بصورة أوسع وأكثر تفصيلاً، فتقول: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[2] ثمّ تضيف الآية بأنّ هذه الجنّات قد أعدّها الله تعالى لاستقبالهم في مقابل أعمالهم الصالحة: ﴿نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

إنّ التعبير بـ ﴿نُزُلًا﴾، والذي يقال عادةً للشيء الذي يهيّئونه لاستقبال وإكرام الضيف، إشارة لطيفة إلى أنّ المؤمنين يُستقبلون ويُخدمون دائماً كما هو حال الضيف، في حين أنّ الجهنّميين - كما سيأتي في الآية الآتية - كالسجناء الذين يأملون الخروج منها في كلّ حين، ثمّ يعادون فيها!

وما ورد في الآية (١٠٢) من سورة الكهف: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ فإنّه من قبيل ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهو كناية عن أنّه يُعاقب ويعذّب هؤلاء بدل إكرامهم، ويهدّدون مكان بشارتهم.

---

(١) أورد هذه الرواية العلاّمة الطبرسي في مجمع البيان، والقرطبي في تفسيره، والفاضل البرسوئي في روح البيان. وممّا يستحقّ الانتباه أنّنا نقرأ في كتاب (أُسد الغابة في معرفة الصحابة) أنّه لا خلاف بين المطلعين على تفسير القرآن والعالمين به في أنّ آية ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾ قد نزلت في حقّ الوليد بن عقبة في قصّة بني المصطلق.

(٢) «المأوى» من مادّة (أوى) بمعنى انضمام شيء إلى شيء آخر، ثمّ قيلت للمكان والمسكن والمستقرّ.

ويعتقد البعض أنّ «النزل» أوّل شيء يستقبل به الضيف الوارد لتوّه - كالشاي والعصير في زماننا - وبناءً على هذا فإنّه إشارة لطيفة إلى أنّ جنّات المأوى بتمام نعمها وبركاتها هي أوّل ما يستقبل به ضيوف الرحمن، ثمّ تتبعها المواهب في بركات أُخرى لا يعلمها إلاّ الله سبحانه.

والتعبير بـ ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ لعلّه إشارة إلى أنّ الله سبحانه لا يعطيهم بساتين الجنّة عارية، بل يملّكهم إيّاها إلى الأبد، بحيث لا يعكّر هدوء فكرهم احتمال زوال هذه النعم مطلقاً.

وتطرّقت الآية التالية إلى النقطة التي تقابل هؤلاء، فتقول: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ فهؤلاء مخلّدون في هذا المكان المرعب بحيث إنّهم ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

مرّة أُخرى نرى هنا العذاب الإلهي قد جعل في مقابل «الكفر والتكذيب»، والثواب والجزاء في مقابل «العمل»، وهذا إشارة إلى أنّ الإيمان لا يكفي لوحده، بل يجب أن يكون حافزاً وباعثاً على العمل، إلاّ أنّ الكفر كافٍ لوحده للعذاب، وإن لم يرافقه ويقترن به عمل.

بحث

أصحاب الليل!

ورد لجملة: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ تفسيران في الروايات الإسلامية:

أحدهما: تفسيرها بصلاة «العشاء»، وهو يشير إلى أنّ المؤمنين الحقيقيين لا ينامون بعد صلاة المغرب وقبل صلاة العشاء مخافة أن يغلب عليهم النوم فتفوتهم صلاة العشاء (لأنّ المعتاد في ذلك الزمان أنّهم كانوا يستريحون في أوّل الليل - وكانوا يفرّقون بين صلاتي المغرب والعشاء، طبقاً لاستحباب التفريق بين الصلوات الخمس، وكانوا يؤدّون كلاً منهما في وقت فضيلتها) فربّما لم يستيقظوا لصلاة العشاء إذا ما ناموا بعد صلاة المغرب مباشرةً.

وقد روى هذا التّفسير ابن عبّاس عن النّبي ﷺ طبقاً لنقل الدرّ المنثور، وكذلك روي في أمالي الصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام [١].

(١) تفسير الدرّ المنثور وأمالي الشيخ طبقاً لنقل تفسير الميزان، ج ١٦، ص ٢٨٣.

وثانيهما: أنّها فسّرت بالقيام والنهوض من النوم والمضجع لأداء صلاة الليل في أغلب الرّوايات وكلمات المفسّرين:

ففي رواية عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال لأحد أصحابه: «ألا أُخبرك بالإسلام أصله وفرعه وذروة سنامه»؟ قال: بلى، جعلت فداك، قال: «أمّا أصله فالصلاة، وفرعه الزكاة، وذروة سنامه الجهاد»!

ثمّ قال: «إن شئت أخبرتك بأبواب الخير»؟ قال: نعم جعلت فداك، قال: «الصوم جنّة، والصدقة تذهب بالخطيئة، وقيام الرجل في جوف الليل بذكر الله، ثمّ قرأ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾[1].

وروي في (تفسير مجمع البيان) عن معاذ بن جبل، قال: بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة تبوك، وقد أصابنا الحرّ فتفرّق القوم، فإذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقربهم منّي، فدنوت منه، فقلت: يارسول الله، أنبئني بعمل يدخلني الجنّة، ويباعدني من النار، قال: «لقد سألت عن عظيم وإنّه ليسير على من يسّره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدّي الزكاة المفروضة، وتصوم شهر رمضان».

قال: «وإن شئت أنبأتك بأبواب الخير» قال: قلت: أجل يارسول الله، قال: «الصوم جنّة، والصدقة تكفّر الخطيئة، وقيام الرجل في جوف الليل يبتغي وجه الله» ثمّ قرأ هذه الآية ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾[2].

وبالرغم من عدم وجود المانع من أن يكون للآية معنى واسعاً يشمل البقاء على اليقظة في أوّل الليل لصلاة العشاء، إضافةً إلى النهوض في السحر لصلاة الليل، إلاّ أنّ الدقّة في مفهوم ﴿تَتَجَافَىٰ﴾ تعكس المعنى الثّاني في الذهن أكثر، لأنّ ظاهر الجملة أنّ الجنوب قد اضطجعت وهدأت في المضاجع، ثمّ تجافت وابتعدت عنها، وهذا يناسب القيام آخر الليل لأداء الصلاة، وبناءً على هذا فإنّ المجموعة الأُولى من الروايات من قبيل شمولية المفهوم وإلغاء الخصوصية.

وبالرغم من أنّ هذه الروايات القليلة تبدو كافية حول أهميّة هذه الصلاة المباركة، إلاّ أنّ الروايات الإسلامية قد أولت هذه العبادة اهتماماً عظيماً قلّ أن تحدّثت بهذا المقدار عن عبادة أُخرى.

---

(١) أصول الكافي، ج ٢، باب دعائم الإسلام ص ٢٠ حديث ١٥، والمصدر السابق.

(٢) تفسير مجمع البيان ذيل الآيات مورد البحث، وتفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٢٢٩.

لقد اهتمّ أنصار الحقّ ومحبّوه وسالكو طريق الفضيلة كثيراً بهذه العبادة الخالية من الرياء، والتي تنير القلب وتصفّيه من كلّ الشوائب.

ومن الممكن أن لا يوفّق البعض إلى هذه العبادة المباركة دائماً، ولكن ما المانع من أن يسعى الفرد إلى نيل هذا التوفيق في بعض الليالي، وفي الوقت الذي يرخي الليل سدوله، وتهدأ الأصوات وتنام العيون يكون الجوّ مهيئاً لحضور القلب، يهبّ إلى مناجاة الله وينوّر قلبه بنور عشق الحبيب ومحبّته[1].

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

التّفسير

عقوبات تربوية

بعد البحث الذي مرّ في الآيات السابقة حول المجرمين وعقابهم الأليم، فإنّ الآيات مورد البحث تشير إلى أحد الألطاف الإلهيّة الخفيّة وهي موارد العذاب الخفيف في الدنيا ليتّضح أنّ الله سبحانه لا يريد أن يبتلي عبداً بالعذاب الخالد أبداً، ولذلك يستخدم كلّ وسائل التوعية لنجاته، فيرسل الأنبياء، وينزل الكتب السماوية، ينعم ويبتلي بالمصائب، وإذا لم تنفع أيّة وسيلة منها فليس إلاّ نار الجحيم.

تقول الآية: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

من المسلّم أنّ «العذاب الأدنى» له معنىً واسع يتضمّن أغلب الاحتمالات التي كتبها المفسّرون بصورة مفصّلة:

فمن جملتها، أنّ المراد المصائب والآلام والمشقّة.

أو القحط والجفاف الشديد الذي دام سبع سنين وابتلي به المشركون في مكّة حتى اضطروا إلى أكل أجساد الموتى!

أو الضربة القاصمة التي نزلت عليهم في غزوة بدر، وأمثال ذلك.

---

(١) كان لنا بحث آخر حول أهميّة صلاة الليل وطريقتها في ذيل الآية (٧٩) من سورة الإسراء.

أمّا ما احتمله البعض من أنّ المراد عذاب القبر، أو العقاب في الرجعة فلا يبدو صحيحاً، لأنّه لا يناسب جملة ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي عن أعمالهم.

من البديهي أنّ العذاب موجود في هذه الدنيا أيضاً، بحيث إذا نزل أُغلقت أبواب التوبة، وهو عذاب الاستئصال، أي العذاب والعقوبات التي تنزل لفناء الأقوام العاصين حينما لا تنفع ولا تؤثّر فيهم أيّ وسيلة توعية وتنبيه.

وأمّا «العذاب الأكبر» فيعني عذاب يوم القيامة الذي يفوق كلّ عذاب حجماً وألماً.

وهناك التفاتة أشار إليها بعض المفسّرين في أنّه لماذا جعل «الأدنى» في مقابل «الأكبر»، في حين أنّه يجب إمّا أن يقع الأدنى مقابل الأبعد، أو الأصغر في مقابل الأكبر؟

وذلك أنّ لعذاب الدنيا صفتين: كونه صغيراً، وقريباً، وليس من المناسب التأكيد على صغره عند التهديد، بل يجب التأكيد على قربه. ولعذاب الآخرة صفتان أيضاً: كونه بعيداً وكبيراً، والمناسب في شأنه التأكيد على كبره وعظمته لا بعده - تأمّلوا جيداً -.

وتقدّم أنّ التعبير بـ(لعلّ) في جملة ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بسبب أنّ الإحساس بالعقوبات التحذيرية ليس علّة تامّة للوعي واليقظة، بل هو جزء العلّة، ويحتاج إلى أرضيّة مهيّأة، وبدون هذا الشرط لا يحقّق النتيجة المطلوبة، وكلمة (لعلّ) إشارة إلى هذه الحقيقة.

وتتّضح من هذه الآية إحدى حكم المصائب والابتلاءات والآلام التي تعتبر من المسائل الملحّة والمثيرة للجدل في بحث التوحيد ومعرفة الله وعدله.

وليس في هذه الآية فحسب، بل أُشير في آيات أُخرى من القرآن إلى هذه الحقيقة، ومن جملتها في الآية (٩٤) من سورة الأعراف ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾.

ولمّا لم تنفع أيّة وسيلة من وسائل التوعية والتنبيه، حتى العذاب الإلهي، لم يبق طريق إلاّ انتقام الله من هؤلاء القوم الذين هم أظلم الناس، وكذلك تقول الآية التالية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

فلم تؤثّر فيهم النعمة الإلهيّة، ولا العذاب والابتلاءات التحذيرية، وعلى هذا فلا أحد أظلم منهم، وإذا لم يُنتقم من هؤلاء فممّن الانتقام؟

من الواضح - وبملاحظة الآيات السابقة - أنّ المراد من ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ هنا هم منكرو المبدأ والمعاد الذين لا إيمان لهم.

وقد وصف جماعة من الناس في آيات القرآن مراراً بأنّهم ﴿أَظْلَمُ﴾ من الباقين، وبالرغم من تعبيراتها المختلفة إلاّ أنّها تعود جميعاً إلى أصل الكفر والشرك، وبناءً على هذا فإنّ معنى ﴿أَظْلَمُ﴾ الذي يعتبر صيغة تفضيل يتطابق مع هذه المصاديق.

والتعبير بـ﴿ثُمَّ﴾ في الآية، والذي يدلّ عادةً على التراخي، لعلّه إشارة إلى أنّ أمثال هؤلاء يُعطون فرصة ومجالا كافياً للتفكير والبحث، ولا تكون معاصيهم الابتدائية سبباً لانتقام الله أبداً، إلاّ أنّهم سيستحقّون انتقام الله عزّوجلّ بعد انتهاء الفرصة اللازمة.

ويجب الالتفات إلى أنّ التعبير بـ«الانتقام» يعني العقوبة في لسان العرب، ومع أنّ معنى الكلمة أصبح في المحادثات اليومية يعني تشفّي القلب وإبراد الغليل من العدوّ، إلاّ أنّ هذا المعنى لا وجود له في الأصل اللغوي، ولذلك فإنّ هذا التعبير قد استعمل مراراً في شأن الله عزّوجلّ في القرآن المجيد، في حين أنّه سبحانه أسمى وأعلى من هذه المفاهيم، فهو لا يفعل شيئاً إلاّ وفق الحكمة.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي
إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا
بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

التّفسير:

شرطا الإمامة: الصبر والإيمان

تشير الآيات مورد البحث إشارة قصيرة وعابرة إلى قصّة «موسى عليه السلام» وبني إسرائيل لتسلّي نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله والمؤمنين الأوائل وتطيّب خواطرهم، وتدعوهم إلى الصبر والتحمّل والثبات أمام تكذيب وإنكار المشركين التي أُشير إليها في الآيات السابقة، ولتكون بشارة للمؤمنين بانتصارهم على القوم الكافرين العنودين كما انتصر بنو إسرائيل على أعدائهم وأصبحوا أئمّة في الأرض.

ولمّا كان موسى عليه السلام نبيّاً جليلاً يؤمن به كلّ من اليهود والنصارى، فإنّه يكون حافزاً على توجّه أهل الكتاب نحو القرآن والإسلام.

تقول الآية أوّلاً: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ أي فلا تشكّ أو تتردّد في أنّ «موسى» قد تلقّى آيات الله، وقد جعلنا كتاب موسى «التوراة» وسيلة لهداية بني إسرائيل ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

ثمّة اختلاف بين المفسّرين في عودة الضمير في قوله: ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾، وقد احتملوا في ذلك سبعة احتمالات أو أكثر، إلاّ أنّ أقربها هو عودته إلى الكتاب - كتاب موسى السماوي، أي «التوراة» - كما يبدو، وله معنى المفعول وفاعله موسى، وبناءً على هذا فإنّ المعنى الكلّي لهذه الجملة يصبح: لا تشكّ في أنّ موسى عليه السلام تلقّى الكتاب السماوي الذي أُلقي إليه من قبل الله تعالى.

والشاهد القويّ على هذا التّفسير هو أنّه قد وردت في الآية أعلاه ثلاث جمل، تتحدّث الجملتين الأُولى والأخيرة عن التوراة قطعاً، فمن المناسب أن تتابع الجملة الوسط هذا المعنى أيضاً، لا أن تتحدّث عن القيامة أو القرآن المجيد حيث ستكون جملة معترضة في هذه الصورة، ونعلم أنّ الجملة المعترضة خلاف الظاهر، وما دمنا في غنىً عنها فلا ينبغي التوجّه إليها.

السؤال الوحيد الذي يبقى في هذا التّفسير هو استعمال كلمة (لقاء) في مورد الكتاب السماوي، حيث إنّ هذه الكلمة قد استعملت في القرآن الكريم غالباً بإضافتها إلى الله أو الربّ أو الآخرة وأمثالها، وهي إشارة إلى القيامة، ولهذا السبب رجّح البعض كون الآية أعلاه تتحدّث أوّلاً عن نزول التوراة على موسى، ثمّ تأمر نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم أن لا يشكّ في لقاء الله ومسألة المعاد، ثمّ تعود إلى مسألة التوراة، لكن في هذه الصورة ينهار الانسجام بين جمل هذه الآية ويزول التناسب فيما بينها.

غير أنّه ينبغي الالتفات إلى أنّ تعبير «لقاء» وإن لم يستعمل في القرآن في مورد الكتب السماوية، إلاّ أنّ الإلقاء والتلقّي قد استعمل مراراً في هذا المعنى، كما في الآية (٢٥) من سورة القمر: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾.

ونقرأ في قصّة سليمان وملكة سبأ أنّها قالت عندما وصلتها رسالة سليمان: ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾[١].

وفي نفس هذه السورة «سورة سليمان» في الآية (٦) نقرأ في شأن القرآن الكريم ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾.

---

(١) سورة النمل، الآية: ٢٩.

بناءً على هذا فإنّ فعل الإلقاء والتلقّي قد استعمل مراراً في هذا المورد، بل وحتى نفس فعل اللقاء قد استعمل في مورد صحيفة أعمال الإنسان، فنقرأ في الآية (١٣) من سورة الإسراء: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾.

ومن مجموع ما قلناه يتّضح ترجيح هذا التّفسير على سائر الاحتمالات التي احتملت في الآية أعلاه(١).

لكن ينبغي الالتفات إلى أنّ النّبي ﷺ لم يشكّ في مثل هذه المسائل مطلقاً، بل إنّ مثل هذه التعبيرات تستعمل عادةً لتأكيد المطلب، وليكون نموذجاً للآخرين.

ثمّ تشير الآية التالية إلى الأوسمة والمفاخر التي حصل عليها بنو إسرائيل في ظلّ الاستقامة والإيمان لتكون درساً للآخرين، فتقول: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

لقد ذكرت الآية هنا شرطين للإمامة: أحدهما: الإيمان واليقين بآيات الله عزّ وجلّ، والثاني: الصبر والاستقامة والصمود. وهذا الأمر ليس مختصّاً ببني إسرائيل، بل هو درس لكلّ الأُمم، ولجميع مسلمي الأمس واليوم والغد بأن يُحكموا أُسس يقينهم، ولا يخافوا من المشاكل التي تعترضهم في طريق التوحيد، وأن يتحلّوا بالصبر والمقاومة ليكونوا أئمّة الخلق وقادة الأُمم ومرشديها في تاريخ العالم.

التعبير بـ ﴿يَهْدُونَ﴾ و﴿يُوقِنُونَ﴾ بصيغة الفعل المضارع دليل على استمرار هاتين

---

(١) ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ مرجع الضمير في (لقائه) إلى موسى، وبناءً على هذا يصبح المعنى: لا شكّ يامحمّد بأنّك ستلتقي بموسى، واعتبروا ذلك إشارة إلى لقائه به في ليلة المعراج أو في يوم القيامة. وهذا المعنى لا يبدو منسجماً مع مفهوم الجملة.
وقال البعض الآخر: إنّ الضمير يرجع إلى الكتاب، والمراد منه القرآن، أي: لا تدع أيّها النّبي للشكّ في أنّ هذا القرآن وحي إلهي إلى نفسك سبيلاً، وهذا المعنى وإن كان يتلاءم مع آيات بداية السورة، إلاّ أنّه لا يتلاءم كثيراً مع الجمل الأُخرى الموجودة في نفس هذه الآية. إضافة إلى أنّ الكتاب في الآية مورد البحث بمعنى التوراة، فلا ينسجم معه عود الضمير إلى القرآن - وتوجيه هذا المعنى بأنّ المراد مطلق الكتاب السماوي لا يقلّل من كونه خلاف الظاهر.
وقال بعض المفسّرين: إنّ الضمير في (لقائه) يعود إلى الله، وهذه الجملة إشارة إلى أنّه لا شكّ أبداً في مسألة المعاد، وهذا المعنى وإن كان يتّفق وينسجم مع الآيات السابقة، إلاّ أنّه لا يتلاءم من أي وجه تقريباً مع نفس الآية مورد البحث.
ومن هنا يتّضح أنّ ما ورد في بعض التفاسير من أنّ الآية إشارة إلى التقاء خطّي وبرنامجي موسى ونبي الإسلام، مطلب ذوقي لا يناسب المفهوم الواقعي لألفاظ الآية، وبناءً على هذا فإنّ أوضح التفاسير وأجلاها ما أوردناه أعلاه.

الصفتين طيلة حياة هؤلاء، لأنّ مسألة القيادة لا تخلو لحظة من المشكلات، ويواجه شخص القائد وإمام الناس مشكلة جديدة في كلّ خطوة، ويجب أن يهبّ لمواجهتها مستعيناً بقوّة اليقين والاستقامة المستمرّة، ويديم خطّ الهداية إلى الله سبحانه.

والجدير بالانتباه أنّ الآية تقيّد الهداية بأمر الله، فتقول: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ وهذا هو المهمّ في أمر الهداية بأن تنبع من الأوامر الإلهية، لا من أمر الناس، أو تقليد هذا وذاك، أو بأمر من النفس والميول القلبية.

يقول الإمام الصادق عليه السلام في حديثه العميق المحتوى، بالاستناد إلى مضامين القرآن المجيد: «إنّ الأئمّة في كتاب الله عزّ وجلّ إمامان: قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾، لا بأمر الناس، يقدّمون أمر الله قبل أمرهم، وحكم الله قبل حكمهم، وقال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾، يقدّمون أمرهم قبل أمر الله، وحكمهم قبل حكم الله، ويأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب الله عزّ وجلّ»(١).

ثمّ إنّ المراد من الأمر هنا هل هو الأمر التشريعي، أم الأمر التكويني؟ ظاهر الآية يعطي المعنى الأوّل، وتعبيرات الرّوايات والمفسّرين تؤيّد ذلك، إلاّ أنّ بعض كبار المفسّرين اعتبروه بمعنى الأمر التكويني.

وتوضيح ذلك: أنّ الهداية قد وردت في الآيات والروايات بمعنيين: «تبيان الطريق»، و«الإيصال إلى المطلوب»، وكذلك هداية الأئمّة الإلهيين تتّخذ صورتين: فيكتفون أحياناً بالأمر والنهي، وأحياناً أُخرى ينفذون إلى أعماق القلوب المستعدّة والجديرة بالهداية ليوصلوها إلى الأهداف التربوية والمقامات المعنوية.

وقد استعملت كلمة «الأمر» في بعض آيات القرآن بمعنى «الأمر التكويني»، مثل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(٢)، وجملة ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ في الآية مورد البحث إشارة إلى هذا المعنى أيضاً، أي إنّ أُولئك كانوا أئمّة ينفذون إلى النفوس المستعدّة بقدرة الله، ويسوقونها إلى الأهداف التربوية والإنسانية العالية(٣).

إنّ هذا المعنى يستحقّ الملاحظة والانتباه، وهو أحد شؤون الإمامة، وفروع وطرق الهداية، إلاّ أنّ حصر جملة: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ بهذا المعنى لا يوافق ظاهر الآية، لكن لا مانع من أن نفسّر كلمة الأمر في هذه الجملة بمعناها الواسع الذي يتضمّن الأمر

---

(١) أُصول الكافي، ج ١، ص ١٦٨ باب أنّ الأئمّة في كتاب الله إمامان.

(٢) سورة يس، الآية: ٨٢.

(٣) تفسير الميزان، ج ١، ص ٢٧٥.

التكويني والتشريعي، ويجمع كلا معنيي الهداية في الآية، وهذا المعنى ينسجم مع بعض الأحاديث الواردة في تفسير هذه الآية.

ولكن، وعلى كلّ حال، لا يمكن أن يصل الإمام والهادي إلى هذا المقام إلاّ في ظلّ اليقين والاستقامة فقط.

ويبقى سؤال، وهو: هل المراد من هؤلاء الأئمّة في بني إسرائيل هم الأنبياء الذين بُعثوا إليهم، أم أنّ العلماء الذين كانوا يهدون الناس إلى الخيرات بأمر الله يدخلون في هذه الزمرة؟

الآية ساكتة عن ذلك، واكتفت بالقول بأنّنا قد جعلنا منهم أئمّة، لكن بملاحظة جملة: (جعلنا) يرجّح في رأينا أنّ المراد هم الأنبياء الذين نصبوا بأمر الله في هذا المنصب.

ولمّا كان بنو إسرائيل - كسائر الأُمم - قد اختلفوا بعد هؤلاء الأئمّة الحقيقيين، وسلكوا مسالك مختلفة، فإنّ الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث تقول بلحن التهديد: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

أجل... إنّ مصدر ومنبع الاختلاف دائماً هو مزج الحقّ بالأهواء والميول، ولمّا كانت القيامة يوماً لا معنى فيه للأهواء والميول، حيث تمحى ويتجلّى الحقّ بأجلى صوره، فهناك ينهي الله سبحانه الاختلافات بأمره، وهذه أيضاً إحدى فلسفات المعاد. تأمّلوا ذلك.

ملاحظة

صمود واستقامة القادة الإلهيين

قلنا: إنّه قد ذكر في الآيات مورد البحث شرطان للأئمّة: الأوّل: الصبر والثبات، والآخر: الإيمان واليقين بآيات الله.

ولهذا الصبر والثبات فروعاً وأشكالاً كثيرة:

فيكون أحياناً أمام المصائب التي تحلّ بالإنسان.

وأُخرى مقابل الأذى الذي يحيق بأصحابه ومؤيّديه.

وثالثة في مقابل التعديّات والألسن البذيئة التي تنال مقدّساته.

وأُخرى في مقابل المنحرفين فكرياً.

وأُخرى أمام الجاهلين الحمقى.

وأُخرى أمام العلماء الخبثاء.

والخلاصة: فإنّ القائد الواعي الرشيد يجب أن يصمد أمام كلّ هذه المشاكل وغيرها، ولا ينسحب من ميدان الصراع والحوادث، ولا يجزع وييأس، ولا يفقد زمام الأُمور من يده، ولا يضطرب ولا يندم حتى يحقّق هدفه الكبير.

وقد روي في هذا الباب حديث جامع ورائع عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال لأحد أصحابه: إنّ من صبر صبر قليلاً (وبعده الظفر) وإنّ من جزع جزع قليلاً (ومن بعده الخسران).

ثمّ قال: عليك بالصبر في جميع أُمورك، فإنّ الله عزّ وجلّ بعث محمّداً فأمره بالصبر والرفق؛ فقال: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾(1) وقال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾(2).

فصبر رسول الله حتى نالوه بالعظائم ورموه بها - فسمّوه ساحراً ومجنوناً وشاعراً، وكذّبوه في دعوته - فضاق صدره، فأنزل الله عزّ وجلّ عليه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾(3) - أي إنّ هذه العبادة تمنحك الاطمئنان والهدوء -.

ثمّ كذّبوه ورموه فحزن لذلك، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴿٣٤﴾﴾(4).

فألزم النّبي نفسه الصبر، فتعدّوا فذكروا الله تبارك وتعالى وكذّبوه، فقال: قد صبرت في نفسي وأهلي وعرضي ولا صبر لي على ذكر إلهي، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، فصبر النّبي في جميع أحواله.

ثمّ بُشّر في عترته بالأئمّة ووصفوا بالصبر، فعند ذلك قال: الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، فشكر الله عزّ وجلّ ذلك له، فأباح له قتال المشركين، فقتلهم الله على يدي رسول الله وأحبّائه، وجعل له ثواب صبره مع ما ادّخر له في الآخرة».

---

(1) سورة المزمل، الآية: ١٠.

(2) سورة فصلت، الآيتان: ٣٤ - ٣٥.

(3) سورة الحجر، الآيتان: ٩٧ - ٩٨.

(4) سورة الأنعام، الآيتان: ٣٣ - ٣٤.

ثمّ أضاف الإمام الصادق عليه السلام: «فمن صبر واحتسب لم يخرج من الدنيا حتى يقرّ الله له عينه في أعدائه مع ما يدّخر له في الآخرة»(١).

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ
الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧)
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا
يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ
إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠)﴾

التّفسير

يوم انتصارنا

كانت الآيات السابقة ممزوجة بتهديد المجرمين من الكفّار، وتقول الآية الأُولى من الآيات مورد البحث إكمالاً لهذا التهديد: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ﴾(٢) فهؤلاء يسيرون بين الخرائب ويرون آثار أُولئك الأقوام الذين هلكوا من قبلهم ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾(٣).

تقع مساكن «عاد» و«ثمود» المدمّرة، ومدن «قوم لوط» الخربة في طريق هؤلاء إلى الشام، وكانت هذه المساكن مقرّاً ومركزاً للأقوام الأقوياء المنحرفين، وطالما حذّرهم الأنبياء فلم يؤثّر فيهم ذلك، وأخيراً طوى العذاب الإلهي ملفّ حياتهم، وكان المشركون يمرّون على تلك الخرائب فكأنّ لبيوت هؤلاء وقصورهم المتهدّمة مئة لسان، تصيح بهؤلاء أن يتنبّهوا، وتبيّن لهم وتحدّثهم بنتيجة الكفر والانحطاط، لكنّهم لم يعبؤوا

---

(١) أُصول الكافي، ج ٢، ص ٨٨ باب الصبر باختصار قليل.
(٢) فاعل (لم يهد) يفهم من جملة ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ والتقدير: أو لم يهد لهم كثرة من أهلكنا.
(٣) ذكر أغلب المفسّرين في تفسير الآية ما ذكرناه أعلاه، إلاّ أنّ البعض احتمل أن تكون جملة ﴿يَمْشُونَ﴾ بياناً لحال المهلكين، أي أنّ أُولئك الأقوام كانوا في غفلة تامّة عن العذاب الإلهي، وكانوا يسيرون في مساكنهم ويتنعّمون بها، إذ أتاهم عذاب الله بغتةً وأهلكهم. إلاّ أنّ هذا الاحتمال يبدو بعيداً.

بها ويلتفتوا إليها، وكأنّهم فقدوا أسماعهم تماماً، ولذلك تضيف الآية في النهاية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾.

وتشير الآية التالية إلى أحد أهمّ النعم الإلهيّة التي هي أساس عمران كلّ البلدان، ووسيلة حياة كلّ الكائنات الحيّة، ليتّضح من خلالها أنّ الله سبحانه كما يمتلك القدرة على تدمير بلاد الضالّين المجرمين، فإنّه قادر على إحياء الأراضي المدمّرة والميّتة، ومنح عباده كلّ نوع من المواهب، فتقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

﴿الْجُرُزِ﴾ تعني الأرض القاحلة التي لا ينبت فيها شيء قطّ، وهي في الأصل من مادّة (جَرْزْ) على وزن (مرض) بمعنى «القطع»، فكأنّ النباتات قد اجتثّت من مثل هذه الأرض، أو أنّ الأرض نفسها قد قطعت تلك النباتات.

والطريف هنا أنّه قد عُبّر بـ: ﴿نَسُوقُ الْمَاءَ﴾ وهو إشارة إلى أنّ طبيعة الماء توجب - بحكم ثقله - أن يكون على الأرض وفي المنخفضات، وبحكم كونه مائعاً يجب أن ينزل إلى أعماق الأرض، إلاّ أنّه عندما يصله أمرنا يفقد طبيعته، ويتحوّل إلى بخار خفيف يتحرّك إلى كلّ الجهات بهبوب النسيم.

نعم، إنّ هذه السحب السابحة في السماء بحار كبيرة من المياه العذبة تُرسل إلى الأراضي اليابسة بأمر الله ومعونة الرياح.

والواقع أنّه لولا المطر فإنّ كثيراً من الأراضي لا ترى حتى القطرة الواحدة من الماء، وإذا افترضنا أنّ هناك أنهاراً غزيرة المياة فإنّ تلك المياه لا تصل إلى أغلب الأراضي، إلاّ أنّنا نرى أنّه ببركة هذه الرحمة الإلهيّة قد نبتت ونمت الأعشاب والغابات والأشجار الكثيرة جدّاً على قمم كثير من الجبال والوديان الوعرة والتلال المرتفعة، وهذه القدرة العجيبة للمطر على الري لا يستطيع القيام بها شيء آخر.

﴿زَرْعًا﴾ له هنا معنى واسعاً يشمل كلّ أنواع العشب والشجر، وإن كان يستعمل أحياناً في مقابل الشجر.

ويمكن أن يكون تقديم الدوابّ والأنعام على البشر في هذه الآية لأنّ تغذية الحيوانات تعتمد على النبات، في حين أنّ البشر يتغذّى على النبات وعلى لحوم الحيوانات.

أو من جهة أنّ النبات بمجرّد نموّه يصبح غذاء للحيوانات، وتستطيع الاستفادة منه

وهضمه، في حين أنّ استفادة الإنسان من النباتات، تتأخّر حتى تحمل الشجرة وتنضج الثمرة.

والطريف هنا أنّ جملة: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ قد وردت في نهاية الآية مورد البحث، في حين أنّ الآية السابقة التي كانت تتحدّث عن أطلال قصور الأقوام الغابرة قد ختمت بجملة: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾.

وعلّة هذا الاختلاف هو أنّ الجميع يرون بأُمّ أعينهم منظر الأراضي الميّتة وهي تحيا على أثر نزول الأمطار ونموّ نباتها وينع ثمرها، في حين أنّهم يسمعون المسائل المرتبطة بالأقوام السابقين كأخبار غالباً.

ويستفاد من مجموع الآيتين أعلاه أنّ الله تعالى يقول لهؤلاء العصاة المتمردّين: انتبهوا جيّداً، وافتحوا عيونكم وأسماعكم، فاسمعوا الحقائق، وانظروا إليها، وتفكّروا كيف أمرنا الرياح يوماً أن تحطّم قصور قوم عاد ومساكنهم وتجعلها أطلالاً وآثاراً، وفي يوم آخر نأمر ذات الرياح أن تحمل السحاب الممطر إلى الأراضي الميّتة البور لتحيي تلك الأراضي وتجعلها خضراء نضرة، ألا تستسلمون وتذعنون لهذه القدرة؟!

ولمّا كانت الآيات السابقة تهدّد المجرمين بالانتقام، وتبشّر المؤمنين بالإمامة والنصر، فإنّ الكفّار يطرحون هذا السؤال غروراً واستكباراً وتعلّلاً بأنّ هذه التهديدات متى ستتحقّق؟ كما يذكر القرآن ذلك: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

فيجيبهم القرآن مباشرةً، ويأمر النّبي ﷺ أن ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: إذا كان مرادكم أن تروا صدق الوعيد الإلهي الذي سمعتموه من النّبي لتؤمنوا، فإنّ الوقت قد فاتكم، فإذا حلّ ذلك اليوم لا ينفعكم إيمانكم فيه شيئاً.

وممّا قلنا يتّضح أنّ المراد من «يوم الفتح» يوم نزول «عذاب الاستئصال»، أي العذاب الذي يقطع دابر الكافرين، ولا يدع لهم فرصة الإيمان. وبتعبير آخر فإنّ عذاب الاستئصال نوع من العذاب الدنيوي، لا من عذاب الآخرة، ولا من العقوبات الدنيوية المعتادة، بل هو العذاب الذي يُنهي حياة المجرمين بعد إتمام الحجّة.

والشاهد على هذا القول أُمور:

أ: إذا كان المراد العقوبات الدنيوية المعتادة، أو الانتصارات الشبيهة بانتصار المسلمين في معركة بدر ويوم فتح مكّة - كما قال ذلك بعض المفسّرين - فإنّ جملة:

﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَـٰنُهُمْ﴾ لا تصحّ حينئذ، لأنّ الإيمان كان مفيداً حينذاك، وأبواب التوبة كانت مفتّحة يوم الانتصار في بدر، وفي يوم فتح مكّة.

ب: إذا كان المراد من يوم الفتح يوم القيامة - كما ارتضى ذلك بعض المفسّرين - فإنّ ذلك لا يناسب جملة: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ لأنّ إعطاء الفرصة وعدمه يرتبط بالحياة الدنيا، إضافةً إلى أنّ «يوم الفتح» لم يستعمل بمعنى يوم القيامة في أيّ موضع من القرآن الكريم.

ج: إنّ التعبير بالفتح في مورد عذاب الاستئصال يلاحظ مراراً في القرآن، مثل الآية (١١٨) من سورة الشعراء، حيث يقول نوح: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهو إشارة إلى عقوبة الطوفان.

وورد نظير هذا المعنى في الآية (٧٧) من سورة المؤمنون أيضاً.

إلاّ أنّ المراد إذا كان عذاب الاستئصال في الدنيا فإنّه يتّفق مع ما قلناه أعلاه، وينسجم مع كلّ القرائن، وهو في الواقع تهديد للكافرين والظالمين بأن لا تطلبوا تحقّق الوعد بالفتح للمؤمنين ووقوع عذاب الإستئصال على الكافرين، فإنّ طلبكم إذا تحقّق فسوف لا تجدون الفرصة للإيمان، وإذا وجدتم الفرصة وآمنتم فإنّ إيمانكم سوف لا يقبل.

وهذا المعنى خاصّة يتلاءم كثيراً مع الآيات السابقة التي تحدّثت عن هلاك الأقوام المتمردّين الطاغين الذين كانوا يعيشون في القرون الماضية، وابتلوا بالعذاب الإلهي والفناء، لأنّ كفّار مكّة إذا سمعوا الكلام الذي ورد في الآيتين السابقتين فإنّهم سيطلبون تحقّق مثل هذا الموضوع في حقّهم، إلاّ أنّ القرآن الكريم يحذّرهم بأن لا يطلبوا مثل هذا الطلب، فإنّ العذاب إذا نزل لا يبقى لهم شيء.

وأخيراً تنهي الآية الأخيرة هذه السورة - سورة السجدة - بتهديد بليغ عميق المعنى، فتقول: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾.

الآن، حيث لم تؤثّر في هؤلاء البشارة ولا الإنذار، ولا هم أهل منطق واستدلال ليعرفوا الله سبحانه بمشاهدة الآثار الإلهيّة في خفايا الخلقة فيعبدوه، وليس لهم وجدان حيّ يترنّم في أعماقهم بنغمة التوحيد فيسمعونها، فأعرض عنهم، وانتظر رحمة الله سبحانه، ولينتظروا عذابه فإنّهم لا يستحقّون سواه.

اللهمّ اجعلنا ممّن يسلّم ويؤمن عند رؤية أوّل علامات الحقّ وآياته.

اللهمّ ابعد عنّا روح الكبر والغرور والعناد ونجّنا منها.

اللهمّ عجلّ بنصر جند الإسلام على جنود الكفر والاستكبار والاستعمار.

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

مع تهذيب جديد

تأليف

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

الجزء العشرون

منشورات

مؤسسة الأعلى للمطبوعات

بيروت - لبنان

سُورَةُ الأحزَاب

مدنيّة وعدد آياتـها ثلاث وسبعون

سبب التسمية وفضلها

هذه السورة نزلت في المدينة باتّفاق علماء الإسلام، ومجموع آياتها (٧٣) آية، ولمّا كان جزء مهمّ من هذه السورة يتحدّث عن أحداث غزوة الأحزاب (الخندق) فإنّ هذا الاسم قد اختير لها.

ويكفي في فضل هذه السورة أن نقرأ في حديث عن الرّسول الأكرم ﷺ: «من قرأ سورة الأحزاب وعلّمها أهله... أُعطي الأمان من عذاب القبر»[١].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «من كان كثير القراءة لسورة الأحزاب كان يوم القيامة في جوار محمّد ﷺ وأزواجه»[٢].

وقد قلنا مراراً: إنّ هذه الفضائل لا تُنال بالتلاوة الخالية من الروح، والعارية من كلّ أنواع الفكر والعمل، بل التلاوة التي تكون مبدأً للتفكّر الذي يضيء آفاق الإنسان يظهر آثاره في أعماله وسلوكه.

محتوى سورة الأحزاب

إنّ هذه السورة من أغنى سور القرآن المجيد وأجناها ثماراً، وتتابع وتبحث مسائل متنوّعة وكثيرة جدّاً في باب أُصول الإسلام وفروعه.

ويمكن تقسيم الأبحاث التي وردت في هذه السورة إلى سبعة أقسام:

الأوّل: بداية السورة التي تدعو الرّسول الأكرم ﷺ إلى طاعة الله وترك اتّباع الكافرين ومقترحات المنافقين، وتبشّره بأنّ الله سبحانه سيدعمه وينصره في مقابل استكبار هؤلاء.

الثّاني: أشار إلى بعض خرافات زمان الجاهلية، كالظهار، حيث كانوا يعتبرونه سبباً للطلاق وافتراق الرجل عن امرأته، وكذلك مسألة التبنّي، وأكّدت على بطلانها، وحصرت العلاقات والروابط العائلية والسببية بالروابط الواقعية والطبيعية.

(١-٢) تفسير مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٣٤، بداية سورة الأحزاب.

الثّالث: وهو أهمّ أقسام هذه السورة، ويرتبط بمعركة «الأحزاب» وحوادثها المرعبة، وانتصار المسلمين المعجز على الكفّار، وإعاقات وتخرّصات وتعذّر المنافقين، ونقضهم لعهودهم، وقد بيّنت في هذا المجال قوانين رائعة وجامعة.

الرّابع: يرتبط بزوجات النّبي، حيث يجب أن يكنّ أُسوة وأُنموذجاً أسمى لكلّ نساء المسلمين، ويصدّر لهنّ في هذا الباب أوامر مهمّة.

الخامس: يتطرّق إلى قصّة «زينب بنت جحش» التي كانت يوماً زوجة لزيد، وهو ابن النّبي بالتبنّي، وافترقت عنه، فتزوّجها النّبي ﷺ بأمر الله سبحانه، فأصبح هذا الزواج حربة بيد المنافقين، فأجابهم القرآن الجواب الكافي الشافي.

السّادس: يتحدّث عن مسألة الحجاب، والتي ترتبط بالبحوث السابقة، ويوصي كلّ النساء المؤمنات بمراعاة هذا القانون الإسلامي.

السّابع: الذي يشكّل الجزء الأخير، ويشير إلى مسألة المعاد المهمّة، وطريق النجاة في ذلك الموقف العظيم، وكذلك يشرح ويبيّن مسألة أمانة الإنسان العظمى، أي مسألة التعهّد والتكليف والمسؤولية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾

سبب النّزول

لقد ذكر المفسّرون هنا أسباب نزول مختلفة، تبحث كلّها تقريباً موضوعاً واحداً.

ومن جملتها: إنّ هذه الآيات نزلت في شأن أبي سفيان وبعض آخر من رؤوس الكفر والشرك الذين أخذوا الأمان من الرّسول الأكرم ﷺ بعد معركة أُحد ودخلوا المدينة، وأتوا مع عبد الله بن أُبي وجماعة من أصحابه، إلى النّبي ﷺ، وقالوا: يامحمّد، لا تذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة بسوء وقل: إنّ لها شفاعة لمن عبدها وندعك وربّك، فشقّ ذلك على رسول الله ﷺ، فقال عمر بن الخطّاب: ائذن لنا - يارسول الله - في قتلهم، فقال النّبي ﷺ: «إنّي أعطيتهم الأمان» وأمر فأُخرجوا من المدينة ونزلت

الآية: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وأمرته أن لا يصغي لمثل هذه الاقتراحات[1].

التّفسير

اتّبع الوحي الإلهي فقط

إنّ من أخطر المنعطفات والمنحدرات التي تعترض طريق القادة الكبار قضيّة اقتراحات الصلح والتنازل والوفاق التي تطرح من قبل المخالفين، وتضع الخطوط الملتوية والطرق المنحرفة إلى جانب طريق القادة، وتسعى لحرفهم عن مسيرهم الأصلي، وهذا امتحان صعب وعسير لهؤلاء.

لقد بذل مشركو «مكّة» ومنافقو «المدينة» كلّ ما في وسعهم ليحرّفوا الرّسول الأكرم ﷺ عن خطّ التوحيد من خلال طرح مقترحات السلام والاتّفاق، ومن جملتها ما قرأناه في سبب النّزول، إلاّ أنّ أُولى آيات سورة الأحزاب نزلت فأنهت مؤامراتهم، ودعت النّبي ﷺ إلى الاستمرار في أُسلوبه الحاسم في خطّ «التوحيد» بدون أدنى تراجع وتنازل ومسالمة.

إنّ هذه الآيات بمجموعها تأمر النّبي ﷺ بأربعة أوامر مهمّة:

الأوّل: في مجال التقوى، والتي تهيّىء الأرضية لكلّ برنامج آخر، فتقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾.

إنّ حقيقة التقوى هي ذلك الإحساس الداخلي بالمسؤولية، ولولا هذا الإحساس فإنّ الإنسان لا يندفع ولا يتحرّك باتّجاه أي برنامج بنّاء.

التقوى هي الهدف الأسمى للهداية والانتفاع بآيات الله، كما جاء في الآية الثّانية من سورة البقرة: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

صحيح أنّ المرحلة النهائية للتقوى تحصل بعد الإيمان والعمل طبق أوامر الله سبحانه، إلاّ أنّ مرحلتها الابتدائية تقع قبل كلّ هذه المسائل، لأنّ الإنسان إذا لم يحسّ بالمسؤولية داخلياً، فإنّه لا يسعى للتحقّق من دعوة الأنبياء والتثبّت منها، ولا يصغي إليها، وحتى مسألة (دفع الضرر المحتمل) التي عدّها علماء الكلام والعقائد أساس ودعامة السعي إلى معرفة الله، فإنّها في الحقيقة فرع التقوى.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٨، ص٣٣٥، ذيل الآية مورد البحث، وتفاسير أُخرى.

الثّاني: نفي ورفض طاعة الكافرين: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ وتقول الآية في النهاية تأكيداً لهذا الموضوع: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فإنّه تعالى حينما يأمرك بعدم اتّباع هؤلاء، فإنّ ذلك صادر عن حكمته اللامتناهية، لأنّه يعلم ما أُخفي في هذا الاتّباع والمهادنة من المصائب، الأليمة، والمفاسد الجمّة.

وعلى كلّ حال، فإنّ أوّل وظيفة بعد التقوى والإحساس بالمسؤولية، هي غسل القلب وتصفيته من الغير، واقتلاع الأشواك الضارّة المؤذية من هذه الأرض المعنوية.

الثّالث: نشر بذور التوحيد واتّباع الوحي الإلهي، فيقول: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ واحذر فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ وبناءً على هذا فإنّ الواجب الأوّل هو طرد الشياطين من أعماق الروح لتحلّ محلّها الملائكة، وأن تقلع الأشواك لتبذر محلّها الورود، ويجب أن تطهّر الأرض من الطواغيت لتخلّفهم حكومة الله ونظامه المقدّس.

ولمّا كانت هناك مشاكل كثيرة، وتهديدات ومؤامرات، ومعوّقات في الاستمرار في سلوك هذا الطريق، فإنّه تعالى يصدر الأمر الرابع بأن ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ فلو أنّ الف عدوّ يسعى لقتلك، فلا تخش ولا تخف منهم لأنّي ناصرك ومعينك.

ومع أنّ المخاطب في هذه الآيات هو النّبي ﷺ، إلاّ أنّه خطاب لكلّ المؤمنين، ولعامّة المسلمين، وهو وصفة طبية تمنح الحياة، ودواء لبث النشاط والحيوية في كلّ عصر وزمان.

وقال بعض المفسّرين: إنّ الخطاب بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ خاصّ بالموارد التي يراد منها جلب انتباه العموم لمطلب ما، وإن كان المخاطب واحداً، بخلاف الخطاب بـ(يا) والذي يستعمل في الموارد التي يراد منها شخص المخاطب(١). ولمّا كانت هذه الآيات قد بدأت بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ فإنّها تؤكّد كون الهدف من هذه الآيات هو العموم.

والشاهد الآخر للتعميم، هو أنّ جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قد وردت بصيغة الجمع، وإذا كان المخاطب هو النّبي ﷺ، فينبغي أن تقول الآية: إنّ الله كان بما تعمل خبيراً -.

ولا يخفى أنّ هذه الأوامر الموجّهة إلى النّبي ﷺ لا تعني أنّه كان مقصّراً في

---

(١) تفسير الفخر الرازي، ج ٢٥، ص ١٩٠ ذيل الآيات مورد البحث.

التقوى أو أنّه يتّبع الكافرين والمنافقين، بل إنّ لهذه الأوامر صفة التأكيد على واجبات النّبي ﷺ من جهة، وهي درس وعبرة لكلّ المؤمنين من جهة أُخرى.

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْۗ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾

التّفسير

ادّعاءات جوفاء

تعقيباً للآيات السابقة التي كانت تأمر النّبي ﷺ أن يتّبع الوحي الإلهي فقط، ولا يتّبع الكافرين والمنافقين، تعكس هذه الآيات التي نحن بصددها عاقبة اتّباع هؤلاء وأنّه يدعو الإنسان إلى مجموعة من الخرافات والأباطيل، وقد ذكرت الآية الأُولى من الآيات مورد البحث ثلاث منها، فتقول أوّلاً: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ﴾.

وقد ذكر جمع من المفسّرين في سبب نزول هذا القسم من الآية: أنّ رجلاً في الجاهلية يدعى «جميل بن معمّر» كان عجيب الحفظ، وكان يدّعي أنّ في جوفه قلبين كلّ منهما أفهم من محمّد ﷺ، ولذلك كان مشركو قريش يسمّونه: ذا القلبين!

فلمّا كان يوم بدر وهزم المشركون، وفيهم جميل بن معمّر، تلقّاه أبو سفيان وهو آخذ بيده إحدى نعليه، والأُخرى في رجله، فقال له: ياأبا معمّر، ما حال الناس؟ قال: انهزموا، قال: فما بالك إحدى نعليك في يدك، والأُخرى في رجلك؟ فقال أبو معمّر: ما شعرت بذلك، وكنت أظنّهما في رجلي، فعرفوا يومئذ أنّه لم يكن له إلاّ قلب واحد

لما نسي نعله في يده[١]. بل لم يكن يعقل ويفهم حتى بمقدار ذي القلب الواحد.

والمراد من «القلب» في مثل هذه الموارد «العقل».

وعلى كلّ حال فإنّ اتّباع الكفّار والمنافقين، وعدم اتّباع الوحي الإلهي يدعو الإنسان إلى مثل هذه الاعتقادات الخرافية.

وبغضّ النظر عن ذلك، فإنّ للجملة معنى أعمق، وهو: أنّه ليس للإنسان إلاّ قلب واحد، ولا يحتوي هذا القلب ولا يختزن إلاّ عشق معبود واحد، وعلى هذا فإنّ أُولئك الذين يدعون إلى الشرك والآلهة المتعدّدة ينبغي أن تكون لهم قلوب متعدّدة، ليجعلوا كلّ واحد منها بيتاً لعشق معبود واحد!

من المسلّم أنّ شخصيّة الإنسان السليم شخصية واحدة، وخطّه الفكري واحد، ويجب أن يكون واحداً في وحدته واختلاطه بالمجتمع، في الظاهر والباطن، في الداخل والخارج، وفي الفكر والعمل، فإنّ كلّ نوع من أنواع النفاق وازدواج الشخصية أمر مفروض على الإنسان وعلى خلاف طبيعته.

إنّ الإنسان بحكم امتلاكه قلباً واحداً يجب أن يكون له كيان عاطفي واحد، وأن يخضع لقانون واحد...

ولا يدخل قلبه إلاّ حبّ معشوق واحد..

ويسلك طريقاً معيّناً في حياته، بأن يتآلف مع فريق واحد، ومجتمع واحد، وإلاّ فإنّ التعدّد والتشتّت والطرق المختلفة والأهداف المتفرّقة ستقوده إلى اللاهدفية والانحراف عن المسير التوحيدي الفطري.

ولهذا نرى في حديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام في تفسير هذه الآية: «لا يجتمع حبّنا وحبّ عدوّنا في جوف إنسان، إنّ الله لم يجعل لرجل قلبين في جوفه، فيحبّ بهذا ويبغض بهذا، فأمّا محبّنا فيخلص الحبّ لنا كما يخلص الذهب بالنار لا كدر فيه، فمن أراد أن يعلم فليمتحن قلبه، فإن شارك في حبّنا حبّ عدوّنا فليس منّا ولسنا منه»[٢].

وبناءً على هذا فإنّ القلب مركز الاعتقاد الواحد، وينفّذ برنامجاً عملياً واحداً، لأنّ الإنسان لا يستطيع أن يعتقد بشيء حقيقة وينفصل عنه في العمل، وما يدّعي بعض

(١) تفسير مجمع البيان، ج٨، ص٣٣٥، ذيل الآية مورد البحث، وتفسير القرطبي.
(٢) تفسير علي بن إبراهيم، طبقاً لنقل نور الثقلين، ج ٤، ص ٢٣٤.

المعاصرين من أنّهم يمتلكون شخصيات متعدّدة، ويقولون: إنّنا قد قمنا بالعمل الفلاني سياسياً، وبذلك العمل دينياً، والآخر اجتماعياً، ويوجّهون بذلك أفعالهم المتناقضة، فهو ناشىء من نفاقهم وسوء سريرتهم حيث يريدون أن يسحقوا بهذا الكلام قانون الخلقة.

صحيح أنّ أبعاد حياة الإنسان مختلفة، ولكن يجب أن يحكمها خطّ واحد، وتسير ضمن منهاج واحد.

ثمّ يتطرّق القرآن إلى خرافة أُخرى من خرافات الجاهلية، وهي خرافة «الظهار»، حيث إنّ المشركين كانوا إذا غضبوا على نسائهم، وأرادوا أن يبدوا تنفّرهم وعدم ارتياحهم، قالوا للزوجة: أنت عليّ كظهر أُمّي فيعتبرها بمثابة أُمّه، وكان يعدّ هذا الكلام بمنزلة الطلاق!

يقول القرآن الكريم في تتمّة هذه الآية: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ فلم يمض الإسلام هذا القانون الجاهلي، ولم يصادق عليه، بل جعل عقوبة لمن يتعاطاه، وهي: أنّ من نطق بهذا الكلام فلا يحقّ له أن يقرب زوجته حتى يدفع الكفّارة، وإذا لم يدفعها ولم يأت زوجته فإنّ لها الحقّ في أن تستعين بحاكم الشرع ليجبره على أحد أمرين: إمّا أن يطلّقها وفقاً لأحكام الإسلام ويفارقها، أو أن يكفّر ويستمرّ في حياته الزوجية كالسابق(١).

أي منطق هذا الذي تصبح فيه زوجة الإنسان بمنزلة أُمّه بمجرّد أن يقول لها: أنت عليّ كظهر أُمّي؟! إنّ ارتباط وعلاقة الأُمّ والولد علاقة طبيعية لا تتحقّق بمجرّد الكلام مطلقاً، ولذلك تقول الآية ٢ - سورة المجادلة بصراحة: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾.

وإذا كان هدف هؤلاء من إطلاق هذه الكلمات هو الافتراق والانفصال عن المرأة - (وهكذا كان في عصر الجاهلية، حيث كانوا يقولون هذه الكلمات بدل لفظ الطلاق) - فإنّ الانفصال عن المرأة لا يحتاج إلى مثل هذا الكلام القبيح السيّىء. ألا يمكن أن يصرّح بالطلاق بتعبير صحيح بعيد عن كلّ ذلك القبح؟

وقال بعض المفسّرين: إنّ «الظهار» في الجاهلية لم يكن يؤدّي إلى انفصال الرجل

---

(١) سيأتي - إن شاء الله تعالى - توضيح أكثر حول المسائل المرتبطة بالظهار في ذيل الآيات المناسبة في سورة المجادلة.

عن المرأة، بل إنّه كان يجعل المرأة كالمعلّقة لا يعرف حالها ومصيرها، وإذا كانت المسألة كذلك، فإنّ جناية هذا العمل وقبحه ستكون أوضح، لأنّ كلمة لا معنى لها كانت تحرّم على الرجل علاقته الزوجية مع زوجته من دون أن تكون المرأة مطلّقة(١).

ثمّ تطرّقت الآية إلى ثالث خرافة جاهلية، فقالت: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾.

وتوضيح ذلك: أنّه كان من المتعارف في زمن الجاهلية أنّهم كانوا ينتخبون بعض الأطفال كأولاد لهم، ويسمّونهم أولادهم، وبعد هذه التسمية يعطونهم كلّ الحقوق التي يستحقّها الولد من الأب، فيرث الولد من تبنّاه، كما يرث المتبنّي الولد، ويجري عليهما تحريم امرأة الأب أو زوجة الابن.

وقد نفى الإسلام هذه العادات غير المنطقية والخرافية أشدّ النفي، بل - وكما سنرى - أنّ النّبي ﷺ أقدم - لمحو هذه السنّة المغلوطة - على الزواج من زوجة ولده المتبنّى «زيد بن حارثة» بعد أن طلّقها زيد، ليتّضح من خلال هذه السنّة النبوية أنّ هذه الألفاظ الجوفاء لا يمكن أن تغيّر الحقائق والواقع، لأنّ علاقة البنوّة والأُبوّة علاقة طبيعية لا تحصل أبداً من خلال الألفاظ والاتّفاقيات والشعارات.

ومع أنّنا سنقول فيما بعد: إنّ زواج النّبي بزوجة زيد المطلّقة قد أثار ضجّة عظيمة بين أعداء الإسلام، وأصبح حربة بيدهم للإعلام المضادّ السيّىء، إلاّ أنّ هذا العمل كان يستحقّ تحمّل كلّ ذلك الصخب الإعلامي لتحطيم هذه السنّة الجاهلية، ولذلك يقول القرآن الكريم بعد هذه الجملة: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾.

إنّكم تقولون: إنّ فلاناً ولدي، وأنتم تعلمون علم اليقين أنّ الأمر ليس كذلك، فإنّ الأمواج الصوتية فقط هي التي تخرج من أفواهكم ولا تنبع مطلقاً من اعتقاد قلبي، وهذا كلام باطل ليس إلاّ ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾.

إنّ «قول الحقّ» يطلق على القول الذي ينطبق على الواقع الموضوعي تماماً، أو أن يكون من الأُمور الاعتبارية التي تنسجم مع مصالح كلّ أطراف القضيّة، ونعلم أنّ مسألة «الظهار» في الجاهلية، أو «التبنّي» الذي كان يسحق حقوق الأبناء الآخرين إلى حدّ كبير - لم يكونا من الموضوعات العينية، ولا من الاعتباريات الحافظة لمصلحة عامّة الناس.

---

(١) تفسير في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٥٣٤، ذيل الآية مورد البحث.

ثمّ يضيف القرآن مؤكّداً وموضّحاً الخطّ الصحيح والمنطقي للإسلام: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

إنّ التعبير بـ﴿أَقْسَطُ﴾ لا يعني أنّهم إن دعوهم بأسماء المتبنّين لهم فإنّه عدل، وإن دعوهم بأسماء آبائهم الواقعيين فإنّه أعدل، بل - وكما قلنا سابقاً مراراً - إنّ صيغة (أفعل التفضيل) تستعمل في بعض الموارد ولا تدلّ على الوصف المقابل لصفة ما، فمثلاً نقول: من الأفضل أن يحتاط الإنسان ولا يلقي بنفسه في الخطر، فلا يعني هذا أنّ إلقاء النفس في الخطر والتهلكة حسن، إلاّ أنّ الاحتياط أفضل منه، بل إنّ المراد المقارنة بين الحسن والقبح.

وتقول الآية لرفع الأعذار والحجج: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ أي إنّ عدم معرفة آبائهم لا يكون دليلاً على أن تضعوا اسم شخص آخر كأب لهذا الابن، بل يمكنكم أن تخاطبوهم كإخوانكم في الدين أو أصدقائكم ومواليكم.

(الموالي) جمع «مولى»، وقد ذكر المفسّرون له معانٍ عديدة، فالبعض فسّره هنا بمعنى الصديق والصاحب، والبعض الآخر بمعنى الغلام المعتق والمحرّر، لأنّ بعض الأدعياء كانوا عبيداً يُشترون ثمّ يتحرّرون، ولمّا كان أصحابهم قد اهتّموا بهم وأحبّوهم فإنّهم كانوا يدعونهم كأبناء لهم.

وممّا يجدر الإشارة إليه أنّ تعبير (مولى) في مثل هذه الموارد كان يرتبط بالعبيد المحرّرين من جهة أنّهم كانوا يحتفظون بعلاقاتهم مع مالكيهم بعد تحرّرهم، تلك العلاقات التي كانت تنوب عن أُولي الأرحام في بعض الجهات من الناحية الحقوقية، وكانوا يعبّرون عن ذلك بـ(ولاء العتق) ولذلك نقرأ في الروايات الإسلامية أنّ «زيد بن حارثة» بعد أن أعتقه النّبي كان يُدعى زيد بن محمّد، حتى نزل القرآن بالأمر أعلاه، فمن ذلك الحين قال له النّبي ﷺ: «أنت زيد بن حارثة»، وكان الناس يدعونه بعد ذلك: مولى رسول الله(١).

وقالوا أيضاً: كان لأبي حذيفة غلام يدعى «سالماً» فأعتقه وادّعاه، فلمّا نزلت هذه الآية كانوا يسمّونه: سالماً مولى أبي حذيفة(٢).

ولكن ربّما يدعو الشخص إنساناً لغير أبيه لاعتياده ذلك سابقاً، أو لسبق لسانه، أو

(١) تفسير روح المعاني، ج ٢١، ص ١٣١ ذيل الآية مورد البحث.

(٢) تفسير روح البيان، ذيل الآية مورد البحث.

لاشتباهه في تشخيص نسب الأفراد، وهذا خارج عن حدود اختيار الإنسان، فإنّ الله العادل الحكيم لا يعاقب مثل هذا الإنسان، ولذا أردفت الآية: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ(١) وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

إنّه تعالى يغفر لكم ما سبق، ويعفو عن السهو والنسيان والاشتباه، أمّا بعد نزول هذا الحكم فإنّ الله عزّوجلّ سوف لا يغفر لكم مخالفتكم إن صدرت عن عمد وقصد، فتدعون أفراداً بغير أسماء آبائهم، وتستمرّون على اتّباع هذا العرف السيّىء بالدعوة لغير الأب.

وقال بعض المفسّرين: إنّ موضوع الخطأ يشمل الموارد التي يقول فيها الإنسان لآخر تحبّباً: ولدي، أو يابنيّ، أو يقول فيها لآخر احتراماً: ياأبت!

وهذا الكلام صحيح - طبعاً - وهذه التعبيرات لا تعدّ ذنباً، لكن لا لأجل عنوان الخطأ، بل لأنّ لهذه التعبيرات صفة الكناية والمجاز، وقرينتها معها عادة، والقرآن ينفي التعبيرات الحقيقية في هذا الباب، لا المجازية.

ثمّ تتطرّق الآية التالية إلى مسألة مهمّة أُخرى، أي إبطال نظام «المؤاخاة» بينهم.

وتوضيح ذلك: أنّ المسلمين لمّا هاجروا من مكّة إلى المدينة وقطع الإسلام كلّ روابطهم وعلاقاتهم بأقاربهم وأقوامهم المشركين الذين كانوا في مكّة تماماً، فقد أجرى النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بأمر الله عقد المؤاخاة بينهم وعقد عهد المؤاخاة بين «المهاجرين» و«الأنصار»، وكان يرث أحدهم الآخر كالأخوين الحقيقيين، إلاّ أنّ هذا الحكم كان مؤقّتاً وخاصّاً بحالة استثنائية جدّاً، فلمّا اتّسع الإسلام وعادت العلاقات السابقة تدريجيّاً لم تكن هناك ضرورة لاستمرار هذا الحكم، فنزلت الآية أعلاه وألغت نظام المؤاخاة الذي كان يحلّ محلّ النسب، وجعل حكم الإرث وأمثاله مختصّاً بأُولي الأرحام الحقيقيين.

وبالرغم من أنّ نظام المؤاخاة كان نظاماً إسلامياً - على خلاف نظام التبنّي الذي كان نظاماً جاهلياً - ولكن كان من الواجب أن يُلغى بعد ارتفاع الحالة الموجبة له، وهكذا حصل، غاية ما في الأمر أنّ الآية قبل أن تذكر هذا الحكم ذكرت حكمين آخرين - أي كون النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وكون نساء النّبي صلى الله عليه وآله وسلم كأُمّهاتهم - كمقدّمة، فقالت: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾.

(١) قال المفسّرون: إنّ كلمة (ما) هنا موصولة، وهي من ناحية الإعراب مبتدأ، وخبرها محذوف، وتقدير الجملة: لكن ما تعمّدت قلوبكم فإنّكم تؤاخذون عليه.

ومع أنّ النّبي ﷺ بمنزلة الأب، وأزواجه بمنزلة أُمّهات المؤمنين إلاّ أنّهم لا يرثون منهم مطلقاً، فكيف يُنتظر أن يرث الابن المتبنّى؟!

ثمّ تضيف الآية: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ ولكن مع ذلك، ومن أجل أن لا تغلق الأبواب بوجه المسلمين تماماً وليكون بإمكان المؤمنين تعيين شيئاً من الإرث لإخوانهم - وإن كان بأن يوصوا بثلث المال - فإنّ الآية تضيف في النهاية: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾.

وتقول في آخر جملة تأكيداً لكلّ الأحكام السابقة، أو الحكم الأخير: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ - في اللوح المحفوظ أو في القرآن الكريم -.

كان هذا خلاصة تفسير الآية أعلاه، والآن يجب أن نتطرّق إلى تفصيل كلّ واحد من الأحكام الأربعة التي وردت في هذه الآية:

الحكم الأول: ما هو المراد من كون النّبي أولى بالمؤمنين؟

لقد ذكر القرآن في هذه الآية أولوية النّبي ﷺ بالمسلمين بصورة مطلقة، ومعنى ذلك أنّ النّبي ﷺ أولى بالإنسان المسلم من نفسه في جميع الصلاحيات التي يمتلكها الإنسان في حقّ نفسه.

ومع أنّ بعض المفسّرين فسّروها بمسألة «تدبير الأُمور الاجتماعية»، أو «الأولوية في مسألة القضاء»، أو «طاعة الأمر»، إلاّ أنّنا في الواقع لا نمتلك أي دليل على انحصار الآية في أحد هذه الأُمور الثلاثة.

وإذا لاحظنا في بعض الروايات الإسلامية تفسير الأولوية بـ «الحكومة»، فهو في الحقيقة بيان لأحد فروع هذه الأولوية(١).

لذلك يجب أن يقال: إنّ النّبي ﷺ أولى من كلّ إنسان مسلم في المسائل الاجتماعية والفردية، وكذلك في المسائل المتعلّقة بالحكومة والقضاء والدعوة، وإنّ إرادته ورأيه مقدّم على إرادة أي مسلم ورأيه.

ولا ينبغي العجب من هذه المسألة، لأنّ النّبي ﷺ معصوم ووكيل لله سبحانه، ولا يفكّر ويقرّر إلاّ في صالح المجتمع والفرد، ولا يتّبع الهوى أبداً، ولا يعتبر مصالحه

---

(١) وردت هذه الروايات في أُصول الكافي، وكتاب علل الشرائع. راجع تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٢٣٨ - ٢٣٩.

مقدّمة على مصالح الآخرين وأهمّ منها، بل على العكس من ذلك، فهو يؤثّر ويقدّم مصالح الأُمّة على مصالحه دائماً عند تعارض المصلحتين.

إنّ هذه الأولوية فرع من أولوية المشيئة الإلهيّة، لأنّ كلّ ما لدينا من الله سبحانه، إضافة إلى أنّ الإنسان لا يصل إلى أوج الإيمان إلاّ عند ما يضحّي بأقوى العلائق والدوافع فيه، وهو عشقه لذاته في طريق عشقه لذات الله وخلفائه، ولذلك نقرأ في حديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[(١)].

وجاء في حديث آخر: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين»[(٢)].

وكذلك روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من مؤمن إلاّ وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة»[(٣)].

ويقول القرآن الكريم في الآية (٣٦) من سورة الأحزاب هذه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

ونؤكّد مرّة أُخرى على أنّ هذا الكلام لا يعني أنّ الله قد جعل أمر الناس تبعاً لأهواء ورغبات شخص ما، بل من جهة أنّ للنبي صلى الله عليه وآله وسلم مقام العصمة، وبمصداق: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[(٤)] فإنّ كلّ ما يقوله هو كلام الله ومن الله، وهو أحرص وأرحم حتى من الأب بهذه الأُمّة.

إنّ هذه الأولوية في الحقيقة تقع في مسير منافع الناس في جوانب الحكومة وتدبير المجتمع الإسلامي، وكذلك في المسائل الشخصية والفردية.

ويتبيّن من هذه الأدلّة أنّ هذه الأولوية تضع على عاتق النّبي صلى الله عليه وآله وسلم مسؤوليات ثقيلة ضخمة، ولذلك نقرأ في الرواية المشهورة الواردة في مصادر الشيعة والسنّة، أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أنا أولى بكلّ مؤمن من نفسه، ومن ترك مالاً فللوارث، ومن ترك دَيناً أو ضياعاً فإليّ وعليّ»[(٥)].

(١-٢) تفسير في ظلال القرآن، ج٦، ص٥٤٠، ذيل الآيات مورد البحث.

(٣) صحيح البخاري، ج ٦، ص ١٤٥ تفسير سورة الأحزاب، ومسند أحمد، ج ٢، ص ٣٣٤.

(٤) سورة النجم، الآيتان: ٣ - ٤.

(٥) نقل هذا الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في وسائل الشيعة، ج ٧، ص ٥٥١، وورد هذا المضمون بتفاوت يسير في تفسير القرطبي، وروح المعاني في ذيل الآيات مورد البحث، وورد أيضاً في صحيح البخاري، ج ٦، ص ١٤٥ تفسير سورة الأحزاب.

ينبغي الالتفات إلى أنّ «الضياع» هنا بمعنى الأولاد أو العيال الذين بقوا بدون معيل، والتعبير بـ «الدَّين» قبلها قرينة واضحة على هذا المعنى، لأنّ المراد بقاء الدَّين بدون مال يسدّد به.

الحكم الثّاني: في هذا الباب يتعلّق بأزواج النّبي حيث يُعتبرن كأُمّهات لكلّ المؤمنين، وهي طبعاً أُمومة معنوية وروحية، كما أنّ النّبي ﷺ أب روحي ومعنوي للأُمّة.

إنّ تأثير هذا الارتباط المعنوي كان منحصراً في مسألة حفظ احترام أزواج النّبي وحرمة الزواج منهنّ، كما جاء الحكم الصريح بتحريم الزواج منهنّ بعد وفاة النّبي ﷺ في آيات هذه السورة، وإلاّ فليس لهذه العلاقة أدنى أثر من ناحية الإرث وسائر المحرّمات النسبية والسببية، أي إنّ المسلمين كان من حقّهم أن يتزوّجوا بنات النّبي، في حين أنّ أيّ أحد لا يستطيع الزواج من ابنة أُمّه، وكذلك مسألة كونهنّ أجنبيات، وعدم جواز النظر إليهن إلاّ للمحارم.

في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ إمرأة قالت لعائشة: ياأُمّه! فقالت: لست لك بأُمّ إنّما أنا أُمّ رجالكم»[(١)] وهو إشارة إلى أنّ الهدف من هذا التعبير هو حرمة التزويج، وهذا صادق في رجال الأُمّة فقط.

وثمّة مسألة مطروحة، وهي احترامهنّ وتعظيمهنّ - كما قلنا - إضافةً إلى قضيّة عدم الزواج، ولذلك فإنّ نساء المسلمين كنّ قادرات على مخاطبة نساء النّبي بالأُمّ بعنوان احترامهنّ.

والشاهد لهذا القول، أنّ القرآن الكريم يقول: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وهذا يعني أولوية النّبي بكلّ النساء والرجال، وضمير الجملة التالية يعود إلى هذا العنوان الواسع المعنى، ولذلك نقرأ في العبارة التي نقلت عن «أُمّ سلمة» - وهي من أزواج النّبي ﷺ - أنّها قالت: أنا أُمّ الرجال منكم والنساء[(٢)].

وهنا يطرح سؤال، وهو: هل أنّ تعبير ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ يتناقض مع ما ورد في الآية (٢) من سورة المجادلة: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٨، ص٣٣٨، وتفسير روح المعاني، ذيل الآيات مورد البحث.

(٢) تفسير روح المعاني، ذيل الآيات مورد البحث.

﴿ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ﴾ فكيف تعتبر نساء النّبي - والحال هذه - أُمّهات المسلمين ولم يولدوا منهنّ؟

وينبغي في الإجابة على هذا السؤال الالتفات إلى أنّ مخاطبة امرأة ما بالأُمّ إمّا أن تكون من الناحية الجسمية أو الروحية..

فأمّا من الناحية الجسمية: فإنّ هذه المخاطبة تكون واقعية في حالة كون الإنسان مولوداً منها فقط، وهذا هو الذي جاء في الآيات السابقة بأنّ الأُمّ الجسمية للإنسان هي التي تلده فقط.

وأمّا الأب أو الأُمّ الروحيين، فهو الذي له حقّ معنويّ على الإنسان كالنّبي ﷺ الذي يعتبر الأب الروحي للأُمّة، ولأجله اكتسبت أزواجه منزلة واحترام الأُمّ.

والإشكال الذي كان يوجّه إلى عرب الجاهلية في مورد «الظهار» أنّهم عندما كانوا يخاطبون أزواجهم بخطاب الأُمّ فمن المسلّم أنّ مرادهم ليس الأُمّ المعنوية، بل المقصود أنّهنّ كالأُمّ الجسمية، ولذلك كانوا يعدّونه نوعاً من الطلاق، ونعلم أنّ الأُمّ الجسمية لا تتحقّق بمجرّد الألفاظ، بل إنّ شرط ذلك الولادة الجسمية، وبناءً على هذا فإنّ كلامهم كان منكراً وزوراً.

أمّا في مورد أزواج النّبي ﷺ، فبالرغم من أنّهنّ لسن أُمّهات جسمياً، إلاّ أنّهنّ أُمّهات روحيات اكتساباً من مقام واحترام النّبي ﷺ ولهنّ وجوب الاحترام كأُمّهات، وإذا رأينا القرآن قد حرّم الزواج من أزواج النّبي ﷺ في الآيات القادمة، فإنّ ذلك شأن آخر من شؤون احترامهنّ واحترام النّبي ﷺ كما سيأتي توضيح ذلك بصورة مفصّلة إن شاء الله تعالى.

وهناك نوع ثالث من الأُمّهات في الإسلام وهي الأُمّ المرضعة، والتي أُشير إليها في الآية

(٢٣) من سورة النساء: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ إلاّ أنّها في الحقيقة فرع من فروع الأُمّ الجسمية.

الحكم الثالث: مسألة أولوية أُولي الأرحام في الإرث بالنسبة إلى الآخرين، لأنّ قانون الإرث في بداية الإسلام - حيث قطع المسلمون علاقتهم بأقوامهم وأقاربهم على أثر الهجرة - نظّم على أساس الهجرة والمؤاخاة، أي أنّ المهاجرين كانوا يرثون بعضهم من بعض أو مع الأنصار الذين تآخوا معهم ولكن لم تكن هناك ضرورة للاستمرار عليه

بعد توسّع الإسلام وإعادة كثير من العلاقات القومية والرحمية السابقة نتيجة إسلام أقوامهم - (وينبغي الالتفات إلى أنّ سورة الأحزاب قد نزلت في السنة الخامسة للهجرة، وهي سنة «حرب الأحزاب») لذلك ثبّتت أولوية أُولي الأرحام بالنسبة إلى الآخرين.

وهناك قرائن على أنّ المراد من الأولوية هنا هي الأولوية الإلزامية لا الاستحبابية، لأنّ إجماع علماء الإسلام على هذا المعنى، إضافة إلى الروايات الكثيرة الواردة في المصادر الإسلامية، والتي تثبت هذا الموضوع.

ويجب هنا الالتفات إلى هذه المسألة بدقّة، وهي: أنّ هذه الآية بصدد بيان أولوية أُولي الأرحام في مقابل الأجانب، لا بيان أولوية طبقات الإرث الثلاث بالنسبة إلى بعضها البعض، وبتعبير آخر، فإنّ المفضّل عليهم هنا هم المؤمنون والمهاجرون الذين ورد ذكرهم في متن القرآن: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾.

بناءً على هذا فإنّ مفهوم الآية يصبح: إنّ أُولي الأرحام أولى من الأجانب من ناحية الإرث، أمّا كيف يرث هؤلاء الأرحام؟ وعلى أي أساس ومعيار؟ فإنّ القرآن سكت عن ذلك في هذا الموضع، مع أنّه بحث الموضوع مفصّلاً في آيات سورة النساء(١). نعم... إنّ تعبير ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ لا يستطيع أن يشعر بمفرده أنّ المعيار هو الرحم والقرابة، وأنّ درجة القرابة كلّما قويت وارتفعت فستكون أحقّ بالتقدّم - لاحظوا ذلك -.

الحكم الرّابع: الذي ورد في الآية أعلاه كاستثناء، هو استفادة وإنتفاع الأصدقاء والأفراد المعينين الذين يخصّهم الأمر من الأموال التي يتركها الإنسان كذكرى، والذي بُيّن بجملة: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًاۚ﴾ ومصداقه الواضح هو حكم الوصيّة، حيث يستطيع الإنسان أن يتصرّف في ثلث أمواله ويضعه حيث يشاء، أو يوصي به لمن يشاء.

وبهذا فإنّ الإسلام عندما وضع أساس الإرث على دعامة القرابة والرحم بدل الروابط

(١) بناءً على هذا، فإنّ استدلال بعض الفقهاء بهذا التعبير على أولوية طبقات الإرث بالنسبة إلى بعضها البعض لا يبدو صحيحاً، وربّما سبّب حرف الباء في ﴿أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ مثل هذا الاشتباه، فظنّوا أنّ المفضّل عليهم هنا هم البعض، في حين أنّ القرآن الكريم ذكر صريحاً أنّ المفضّل عليهم هم من المؤمنين والمهاجرين.

والعلاقات السابقة، لم يقطع وشائج الصلة بين الإنسان ورفقائه الذين يعزّهم وباقي إخوته المسلمين تماماً، فالإنسان حرّ في التصرّف في ماله من ناحية الكميّة والكيفية، إلاّ أنّ هذه الحرية مشروطة بأن لا تزيد على الثلث، ومن الطبيعي أنّ الإنسان إذا لم يوص بشيء فإنّ كلّ أمواله تقسّم بين أقاربه وذوي رحمه طبقاً لقانون الإرث، ولا يترك له ثلث في هذه الحالة(١).

ملاحظة

وردت روايات كثيرة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام في تفسير الآية أعلاه فيما يتعلّق بأُولي الأرحام، حيث فسّرت هذه الآية في بعض منها بمسألة «إرث الأموال»، كما هو المعروف بين المفسّرين، في حين فسّرت في البعض الآخر بمسألة «إرث الخلافة والحكومة» في آل النبي صلى الله عليه وآله وأئمّة أهل البيت عليهم السلام.

ومن جملتها ما نقرؤه في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام حينما سئل عن تفسير هذه الآية، أنّه قال: «نزلت في ولد الحسين عليه السلام»... قيل: في المواريث؟ قال: «لا، نزلت في الإمرة»(٢).

من البديهي أنّه ليس المراد من هذه الأحاديث نفي مسألة إرث الأموال، بل المراد لفت الانتباه إلى أنّ للإرث معنىً واسعاً يشمل إرث الأموال وإرث الولاية والخلافة.

وليس لهذا التوارث أي وجه شبه مع مسألة توارث السلطنة في سلسلة الملوك والسلاطين، فإنّ التوارث هنا نتيجة للأهلية واللياقة، ولذلك فإنّه يشمل من بين أولاد الأئمّة من كانت له هذه الأهلية، ويشبه تماماً ما يريده إبراهيم عليه السلام من الله سبحانه لذريّته، فيقول الله له: إنّ الإمامة والولاية لا تنال الظالمين، بل هي خاصّة بالطاهرين ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

ويشبه أيضاً ما نقوله في الزيارات أمام قبور الشهداء في سبيل الله، ومن جملتها ما

---

(١) يعتقد جمع من المفسّرين أنّ الإستثناء في جملة ﴿إِلَّا أَن تَفْعَلُوا...﴾ إستثناء منقطع، لأنّ حكم الوصيّة غير حكم الإرث، ولكنّا نعتقد أن لا مانع من أن يكون الاستثناء هنا متّصلاً، لأنّ جملة ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ...﴾ دليل على أن الأقارب أولى من الأجانب بالنسبة إلى الأموال التي يتركها الميّت، إلاّ أن يكون قد أوصى، فإنّ الموصى له يكون حينئذ أولى من الأرحام في إطار الثلث، وهذا في الحقيقة شبيه بالاستثناءات التي وردت في آيات الإرث بصيغة ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ...﴾.

(٢) أخرج هذه الأحاديث العلاّمة السيّد هاشم البحراني في تفسير البرهان، ج ٣، ص ٢٩٢ - ٢٩٣، ومن جملتها الحديث أعلاه، والحديث (١٦) من سلسلة الأحاديث هذه.

نقوله أمام قبر الإمام الحسين عليه السلام: السلام عليك يا وارث آدم، ووارث نوح، ووارث إبراهيم، ووارث موسى وعيسى ومحمّد... فإنّ هذا الإرث في الجوانب العقائدية والأخلاقية والمعنوية والروحية.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾

التّفسير

ميثاق الله الغليظ

لمّا كانت الآيات السابقة قد بيّنت الصلاحيات الواسعة للرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم تحت عنوان: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فإنّ هذه الآيات تبيّن واجبات النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وسائر الأنبياء العظام الثقيلة العظيمة، لأنّا نعلم أنّ الصلاحيات تقترن دائماً بالمسؤوليات، وحيثما وجد «حقّ» كان إلى جانبه «تكليف» ومسؤولية، فإنّ هذين الأمرين لا يفترقان أبداً، بناءً على هذا فإنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم إن كان له حقّ وصلاحية واسعة، فإنّ عليه في المقابل مسؤوليات ضخمة.

تقول الآية الأولى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ وعلى هذا فإنّها تذكر أوّلاً جميع الأنبياء في مسألة الميثاق، ثمّ تخصّ بالذكر منهم خمسة أنبياء هم أُولو العزم، وعلى رأسهم نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم لعظمته وجلالته وشرفه، وبعده الأنبياء الأربعة من أُولي العزم حسب ترتيب ظهورهم، وهم: «نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام».

وهذا يوحي بأنّ الميثاق المذكور كان ميثاقاً عامّاً أُخذ من جميع الأنبياء، وإن كان أُولو العزم متعهّدين بذلك الميثاق ومسؤولين عنه بصورة أشدّ، ذلك الميثاق الذي بُيّن بتأكيد شديد جدّاً بجملة: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾[1].

---

(١) الميثاق - كما يقول الراغب في مفرداته - هو العقد المؤكّد بيمين وعهد، وبناءً على هذا فإن ذكر ﴿غَلِيظًا﴾ في الآية تأكيد يضاف على هذا المعنى.

المهمّ أن نعلم أيّ ميثاق هذا الذي أخذ من كلّ الأنبياء؟! للمفسّرين هنا أقوال مختلفة يمكن القول أنّها جميعاً فروع مختلفة لأصل واحد، وهو تأدية مسؤولية التبليغ والرسالة والقيادة وهداية الناس في كلّ الأبعاد والمجالات.

إنّ الأنبياء كانوا مكلّفين جميعاً بدعوة كلّ البشر إلى التوحيد قبل كلّ شيء، وكانوا مكلّفين أيضاً بأن يؤيّد بعضهم بعضاً، كما أنّ الأنبياء اللاحقين يصدّقون ويؤكّدون صحّة دعوة الأنبياء السابقين، والخلاصة: أن تكون الدعوة إلى جهة واحدة، وأن يبلغ الجميع حقيقة واحدة، ويوحّدوا الأمم تحت راية واحدة.

ويمكن ملاحظة الشاهد على هذا الكلام في سائر آيات القرآن أيضاً، فنقرأ في الآية (٨١) من سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

وورد نظير هذا المعنى في الآية (١٨٧) من سورة آل عمران، حيث تقول بصراحة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ وعلى هذا فإنّ الله سبحانه قد أخذ الميثاق المؤكّد من الأنبياء بأن يدعوا الناس إلى توحيد الله، وتوحيد دين الحقّ والأديان السماوية، وكذلك أخذه من علماء أهل الكتاب بأن لا يقصّروا في تبيان الدين الإلهي بكلّ ما في وسعهم، وأن لا يكتموا ذلك أبداً.

وتبين الآية التالية الهدف من بعثة الأنبياء والميثاق الغليظ الذي أُخذ منهم، فتقول: ﴿لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

للمفسّرين تفسيرات كثيرة لكلمة «الصادقين»، ومن هم المقصودون بها؟ وأيّ سؤال هذا السؤال؟ إلاّ أنّ الذي يبدو منسجماً مع آيات هذه السورة وآيات القرآن الأخرى، هو: أنّ المراد منهم المؤمنون الذين صدّقوا ادّعاءهم بالعمل، وأثبتوا صدقه بترجمته عمليّاً، وبتعبير آخر: فإنّهم خرجوا من ساحة الاختبار والامتحان الإلهي مرفوعي الرؤوس.

والشاهد لهذا القول:

أوّلاً: إنّ «الصادقين» هنا وُضعوا في مقابل الكافرين، فيستفاد هذا المعنى بوضوح من قرينة المقابلة.

ثانياً: نقرأ في الآية (٢٣) من هذه السورة: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ

عَلَيۡهِۖ﴾ ثمّ تقول الآية (٢٤) مباشرةً: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾.

ثالثاً: عرّفت الآية (١٥) من سورة الحجرات، والآية (٨) من سورة الحشر ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ جيّداً، ففي آية الحجرات نقرأ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

وتقول آية الحشر: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

وبهذا يتّضح أنّ المراد من الصادقين: هم الذين أثبتوا صدقهم وإخلاصهم في ميادين حماية دين الله والجهاد والثبات والصمود أمام المشاكل وبذل الأرواح والأموال[1].

أمّا ما هو المراد من سؤال الصادقين عن صدقهم؟ فيتّضح بملاحظة ما قلناه آنفاً أنّ المراد هو: هل يُثبتون إخلاص نيّتهم في أعمالهم ويصدقون في ادّعائهم... في الإنفاق والجهاد والثبات أمام الصعاب والمشاكل، وخاصّة صعوبات ميدان الحرب، أم لا؟

وأين يُسأل هذا السؤال؟ ظاهر الآية أنّه في القيامة، في محكمة العدل الإلهيّة، وآيات القرآن العديدة أيضاً تخبر عن وقوع مثل هذا السؤال في القيامة بصورة عامّة.

إلاّ أنّه يحتمل أيضاً أن يكون لهذا السؤال جانب عملي ويقع في الدنيا، حيث يخضع كلّ من يدّعي الإيمان للسؤال عن بعثة الأنبياء، وعمله هو الجواب على هذا السؤال، لأنّه سيقرّر فيما إذا كان صادقاً في ادّعائه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾﴾

---

(١) احتمل جمع من المفسّرين احتمالاً آخر في معنى هذه الآية، وهو أنّ المراد من ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ هنا هم الأنبياء، حيث يسألون يوم القيامة عن مدى قيامهم ووفائهم بعهدهم وميثاقهم؟ إلاّ أنّ الشواهد الثلاثة التي ذكرناها أعلاه تنفي هذا التفسير.
واحتمل أيضاً أن يكون المراد أعمّ من الأنبياء والمؤمنين، إلاّ أنّ التفسير الذي ذُكر أعلاه أكثر انسجاماً مع آيات هذه السورة وسائر آيات القرآن.

التّفسير

الامتحان الإلهي العظيم في مواجهة الأحزاب

تتحدّث هذه الآيات والآيات الأُخرى التالية، والتي تشكّل بمجموعها سبع عشرة آية، عن أعسر الامتحانات والاختبارات الإلهية للمؤمنين والمنافقين، واختبار مدى صدقهم في العمل، الذي بحث في الآيات السابقة.

إنّ هذه الآيات تبحث أحد أهمّ حوادث تاريخ الإسلام، أي عن «معركة الأحزاب»، تلك المعركة التي كانت في الواقع نقطة انعطاف في تأريخ الإسلام، وقلبت موازين القوى بين الإسلام والكفر لصالح المسلمين، وكان ذلك النصر مفتاحاً للانتصارات المستقبلية العظيمة، فقد انقصم ظهر الأعداء في هذه الغزوة، ولم يقدروا بعد ذلك على القيام بأيّ عمل مهمّ.

إنّ حرب الأحزاب - وكما يدلّ عليها اسمها - كانت مجابهة شاملة من قبل عامّة أعداء الإسلام والفئات المختلفة التي تعرّضت مصالحها ومنافعها اللامشروعة للخطر نتيجة توسّع وانتشار هذا الدين.

لقد أُشعلت أوّل شرارة للحرب من قبل يهود «بني النظير» الذين جاؤوا إلى مكّة وأغروا «قريش» بحرب النّبي ﷺ، ووعدوهم بأن يساندوهم ويقفوا إلى جانبهم حتى النفس الأخير، ثمّ أتوا قبيلة «غطفان» وهيّؤوهم لهذا الأمر أيضاً.

ثمّ دعت هذه القبائل حلفاءها كقبيلة «بني أسد» و«بني سليم»، ولمّا كان الجميع قد أحسّ بالخطر فإنّهم اتّحدوا واتّفقوا على أن يقضوا على الإسلام إلى الأبد، ويقتلوا النّبي ﷺ، ويقضوا على المسلمين، ويغيروا على المدينة ويطفئوا مشعل الإسلام ونوره.

أمّا المسلمون الذين رأوا أنفسهم أمام هذا الجحفل الجرّار، فإنّهم اجتمعوا للتشاور بأمر النّبي ﷺ، وقبل كلّ شيء أخذوا برأي «سلمان الفارسي» وحفروا حول المدينة خندقاً حتى لا يستطيع العدوّ عبوره بسهولة ويهجم على المدينة، ولهذا كان أحد أسماء هذه المعركة «معركة الخندق».

لقد مرّت لحظات صعبة وخطرة جدّاً على المسلمين، وكانت القلوب قد بلغت الحناجر، وكان المنافقون من جهة أُخرى قد شمّروا عن السواعد وجدّوا في تآمرهم

على الإسلام، وكذلك ضخامة عدد الأعداء وقلّة عدد المسلمين - (ذكروا أنّ عدد الكفّار كان عشرة آلاف أمّا المسلمون فكانوا ثلاثة آلاف) واستعداد الكفّار من ناحية المعدّات الحربية وتهيئة كافّة المستلزمات، كلّ ذلك قد رسم صورة كالحة للمصير المجهول في أعين المسلمين.

إلاّ أنّ الله سبحانه أراد أن ينزل هنا آخر ضربة بالكفر، ويميّز صفّ المنافقين عن صفوف المسلمين، ويفضح المتآمرين، ويضع المسلمين الحقيقيين في موضع الاختبار العسير.

وأخيراً انتهت هذه الغزوة بانتصار المسلمين - كما سيأتي تفصيل ذلك - فقد هبّت بأمر الله عاصفة هوجاء اقتلعت خيام الكفّار وأتلفت وسائلهم، وألقت في قلوبهم الرعب الشديد، وأرسل سبحانه قوى الملائكة الغيبية لعون المسلمين.

وقد أُضيف إلى ذلك تجلّي قدرة وعظمة أمير المؤمنين علي عليه السلام أمام عمرو بن عبد ودّ، فلاذ المشركون بالفرار من دون القدرة على القيام بأيّ عمل.

نزلت الآيات السبع عشرة من هذه السورة، واستطاعت بتحليلاتها الدقيقة والفاضحة أن تستفيد من هذه الحادثة المهمّة من أجل انتصار الإسلام النهائي وقمع المنافقين بأفضل وجه.

كان هذا عرضاً لمعركة الأحزاب التي وقعت في السنة الخامسة للهجرة[1]، ومن هنا نتوجّه إلى تفسير الآيات ونؤجّل سائر جزئيات هذه الغزوة إلى بحث الملاحظات.

يلخّص القرآن الكريم هذه الحادثة في آية واحدة أوّلاً، ثمّ يتناول تبيان خصوصياتها في الستّ عشرة آية الأُخرى، فيقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ (كثيرة جدّاً) ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ ويعلم أعمال كلّ جماعة وما قامت به في هذا الميدان الكبير.

وهنا جملة مطالب تستحقّ الدقّة:

١ - إنّ تعبير ﴿ٱذْكُرُوا۟﴾ يوحي بأنّ هذه الآيات نزلت بعد انتهاء الحرب ومضي فترة من الزمن أتاحت للمسلمين أن يحلّلوا في عقولهم وأفكارهم ما كانوا قد رأوه ليكون التأثير أعمق.

٢ - إنّ التعبير بـ «الجنود» إشارة إلى مختلف الأحزاب الجاهلية كقريش وغطفان وبني

---

(١) ما ذكرناه أعلاه كان اختصاراً لبحث مفصّل أورده المؤرّخون، ومن جملتهم ابن الأثير في الكامل.

سليم وبني أسد وبني فزارة وبني أشجع وبني مرّة، وكذلك إلى طائفة اليهود في داخل المدينة.

٣ - إنّ المراد من ﴿جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ والتي نزلت لنصرة المسلمين، هو «الملائكة» التي ورد نصرها للمؤمنين في غزوة بدر في القرآن المجيد بصراحة، ولكن كما بيّنا في ذيل الآية (٩) من سورة الأنفال، فإنّا لا نمتلك الدليل على أنّ هذه الجنود الإلهيّة اللامرئية نزلت إلى الميدان وحاربت، بل إنّ القرائن الموجودة تبيّن أنّ الملائكة نزلت لرفع معنويات المؤمنين وشدّ عزيمتهم وإثارة حماسهم(١).

وتقول الآية التالية تجسيداً للوضع المضطرب في تلك المعركة، وقوّة الأعداء الحربية الرهيبة، والقلق الشديد لكثير من المسلمين: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾.

يعتقد كثير من المفسّرين أنّ كلمة (فوق) في هذه الآية إشارة إلى الجانب الشرقي للمدينة، وهو المكان الذي دخلت منه قبيلة غطفان، و(أسفل) إشارة إلى غربها حيث دخلت منه قريش ومن معها.

إذا لاحظنا أنّ «مكّة» تقع في جنوب المدينة تماماً، فمن الطبيعي أنّ قبائل المشركين أتت من الجنوب، لكن ربّما كان وضع الطريق ومدخل المدينة في حالة بحيث إنّ هؤلاء قد داروا قليلاً حول المدينة ودخلوا من الغرب، وعلى كلّ حال فإنّ الجملة أعلاه إشارة إلى محاصرة هذه المدينة من قبل مختلف أعداء الإسلام.

إنّ جملة ﴿زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ - بملاحظة أنّ ﴿زَاغَتِ﴾ من مادّة الزيغ، أي الميل إلى جانب واحد - إشارة إلى الحالة التي يشعر بها الإنسان عند الخوف والاضطراب، حيث تميل عيناه إلى جهة واحدة، وتتسمّر وتثبت على نقطة معيّنة، ويبقى متحيّراً حينذاك.

وجملة ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ كناية جميلة عن حالة القلق والاضطراب، وإلاّ فإنّ القلب المادّي لا يتحرّك من مكانه مطلقاً، ولا يصل في أي وقت إلى الحنجرة.

وجملة ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ إشارة إلى أنّ بعض المسلمين خطرت على أفكارهم ظنون شيطانية، لأنّهم لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى مرحلة الكمال في الإيمان، وهؤلاء هم الذين تقول عنهم الآية التالية: إنّهم زلزلوا زلزالاً شديداً.

---

(١) لمزيد الإيضاح في هذا الباب راجع التّفسير الأمثل ذيل الآية (٩) من سورة الأنفال.

ربّما كان بعضهم يفكّر ويظنّ بأنّنا سننهزم في نهاية المطاف، وينتصر جيش العدوّ بهذه القوّة والعظمة، وقد حانت نهاية عمر الإسلام، وأنّ وعود النّبي ﷺ بالنصر سوف لا تتحقّق مطلقاً.

من الطبيعي أنّ هذه الأفكار لم تكن عقيدة راسخة، بل كانت وساوس حدثت في أعماق قلوب البعض، وهذا شبيه بما ذكره القرآن في معركة أُحد، حيث يقول: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَٰهِلِيَّةِ﴾(١).

ولا شكّ أنّ المخاطب في هذه الآية محل البحث هم المؤمنون، وجملة ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ التي وردت في الآية السابقة دليل واضح على هذا المعنى، وربّما لم يلتفت الذين اعتبروا المنافقين هم المخاطبون هنا إلى هذه المسألة، أو لعلّهم ظنّوا أنّ مثل هذه الظنون لا تتناسب مع الإيمان والإسلام، في حين أنّ ظهور مثل هذه الأفكار لا يتعدّى كونها وسوسة شيطانية، خاصّة في تلك الظروف الصعبة المضطربة جدّاً، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لضعفاء الإيمان، والحديثي العهد بالإسلام(٢).

هنا كان الامتحان الإلهي قد بلغ أشدّه كما تقول الآية التالية: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾.

من الطبيعي أنّ الإنسان إذا أُحيط بالعواصف الفكرية، فإنّ جسمه لا يبقى بمعزل عن هذا الابتلاء، بل ستظهر عليه آثار الاضطراب والتزلزل، وكثيراً ما نرى أنّ الأشخاص المضطربين فكرياً لا يستطيعون الاستقرار في مجلسهم وتنعكس وبشكل واضح اضطراباتهم الفكرية من خلال حركاتهم وصفقهم يداً بيد.

وأحد شواهد هذا القلق والاضطراب الشديد ما نقلوه من أنّ خمسة من أبطال العرب المعروفين - وكان على رأسهم «عمرو بن عبد ودّ» - نزلوا إلى الميدان بغطرسة متميّزة واعتداد بالنفس كبير، فقالوا: هل من مبارز؟ سيّما عمرو بن عبد ودّ الذي كان يرتجز ويسخر من المسلمين ويستهزىء بالجنّة والآخرة، وكان يقول: أيّها المسلمون ألم تزعموا أنّ قتلاكم في الجنّة؟ فهل فيكم من يشتاق إلى الجنّة؟ إلاّ أنّ السكوت ساد على معسكر المسلمين أمام سخريته واستهزائه ودعوته للبراز، ولم يجرؤ أحد على مناجزته،

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.
(٢) فسّر جمع من المفسّرين (الظنون) هنا بالمعنى الأعمّ من الظنّ السيّىء والحسن، إلاّ أنّ القرائن الموجودة في هذه الآية والآية التالية تبيّن أنّ المراد من الظنون هنا السيّئة منها.

إلاّ علي بن أبي طالب عليه السلام الذي هبّ لمبارزته، وحقّق نصراً كبيراً للمسلمين، وسيأتي ذلك مفصّلاً في البحوث.

نعم... إنّ الحديد يزداد صلابة وجودة إذا عرض على النار، والمسلمون الأوائل كان يجب أن يوضعوا في بوتقة الحوادث الصعبة المرّة، وخاصّة في غزوات كغزوة الأحزاب، ليصبحوا أشدّ مقاومة وصلابة.

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

التّفسير

المنافقون في عرصة الأحزاب

فار تنوّر امتحان حرب الأحزاب، وابتلي الجميع بهذا الامتحان الكبير العسير، ومن الواضح أنّ الناس الذين يقفون ظاهراً في صفّ واحد في الظروف العادية، ينقسمون إلى صفوف مختلفة في مثل هذه الموارد المضطربة الصعبة، وهنا أيضاً انقسم المسلمون إلى فئات مختلفة: فمنهم المؤمنون الحقيقيون، وفئة خواصّ المؤمنين، وجماعة ضعاف الإيمان، وفرقة المنافقين، وجمع المنافقين العنودين المتعصّبين، وبعضهم كان يفكّر في بيته وحياته والفرار، وجماعة كانوا يسعون إلى صرف الآخرين عن الجهاد، والبعض الآخر كان يسعى إلى تحكيم أواصر الودّ مع المنافقين.

والخلاصة: فإنّ كلّ واحد قد أظهر أسراره الباطنية وما ينطوي عليه في هذه القيامة العجيبة، وفي يوم البروز هذا.

كان الكلام في الآيات السابقة عن جماعة المسلمين ضعفاء الإيمان، والذين وقعوا تحت تأثير الوساوس الشيطانية والظنون السيّئة، وتعكس أُولى الآيات مورد البحث مقالة المنافقين ومرضى القلوب، فتقول: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

جاء في تاريخ حرب الأحزاب: أنّه خلال حفر الخندق، وبينما كان المسلمون مشغولين بحفر الخندق، اصطدموا بقطعة حجر كبيرة صلدة لم يؤثّر فيها أي معول، فأخبروا النّبي ﷺ بذلك، فأتى بنفسه إلى الخندق ووقف إلى جنب الصخرة، وأخذ المعول، فضرب الحجر أوّل ضربة قويّة فانصدع قسم منه وسطع منه برق، فكبّر النّبي ﷺ وكبّر المسلمون.

ثمّ ضرب الحجر ضربة أُخرى فتهشّم قسم آخر وظهر منه برق، فكبّر النّبي وكبّر المسلمون، وأخيراً ضرب النّبي ضربته الثالثة، فتحطّم الباقي من الحجر وسطع برق، فكبّر النّبي ﷺ ورفع المسلمون أصواتهم بالتكبير، فسأل سلمان النّبي عن ذلك فقال ﷺ: «أضاءت الحيرة وقصور كسرى في البرقة الأُولى، وأخبرني جبرئيل أنّ أُمّتي ظاهرة عليها، وأضاء لي في الثّانية القصور الحمر من أرض الشام والروم، وأخبرني أنّ أُمّتي ظاهرة عليها، وأضاء لي في الثالثة قصور صنعاء، وأخبرني أنّ أُمّتي ظاهرة عليها، فأبشروا» فاستبشر المسلمون.

فنظر المنافقون إلى بعضهم وقالوا: ألا تعجبون؟ يعدكم الباطل ويخبركم أنّه ينظر من يثرب إلى الحيرة ومدائن كسرى وأنّها تفتح لكم، وأنتم لا تستطيعون أن تبرزوا؟ فأنزل الله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾(١).

والحقّ أنّ مثل هذه الأخبار والبشارات اعتبرها المنافقون في ذلك اليوم خدعة وغروراً، إلاّ أنّ عين النّبي ﷺ الملكوتية كانت قادرة على رؤية فتح أبواب قصور ملوك ايران والروم واليمن من خلال الشرر المتطاير من ذلك الحجر، ويبشّر هذه الأُمّة المضحيّة التي حملت القلوب على الأكفّ، ويزيح الستار عن أسرار المستقبل.

وربّما لا نحتاج إلى التذكير بأنّ المراد من ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم المنافقون،

---

(١) الكامل لابن الأثير، ج ٢، ص ١٧٩، وورد هذا الحادث بتفاوت يسير في سيرة ابن هشام، وهو أنّ النّبي ﷺ قال: «أمّا الأُولى فإنّ الله فتح علي بها اليمن، وأمّا الثّانية فإنّ الله فتح عليّ بها الشام والمغرب، وأمّا الثالثة فإنّ الله فتح عليّ بها المشرق». وهذا الترتيب ينسجم مع التسلسل التاريخي لفتح هذه المناطق الثلاث.

وذكر هذه الجملة توضيح في الواقع لكلمة «المنافقين» التي وردت من قبل، وأيّ مرض أسوأ وأضرّ من مرض النفاق؟! لأنّ الإنسان السليم الذي له فطرة إلهيّة سليمة ليس له إلاّ وجه واحد، أمّا أُولئك الذين لهم وجهان أو وجوه متلوّنة عديدة فإنّهم مرضى، حيث إنّهم مبتلون دائماً بالاضطراب والتناقض في الأقوال والأفعال.

والشاهد لهذا الأمر ما ورد في بداية سورة البقرة في وصف المنافقين، حيث تقول: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾(١).

ثمّ تتطرّق الآية الأُخرى إلى بيان حال طائفة أُخرى من هؤلاء المنافقين مرضى القلوب، والذين كانوا أخبث وأفسق من الباقين، فمن جانب تقول الآية عنهم: واذكر إذ قالت مجموعة منهم للأنصار: يا أهل المدينة (يثرب) ليس لكم في هذا المكان موقع فلا تتوقّفوا هنا وارجعوا إلى بيوتكم: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾.

وخلاصة الأمر أنّكم لا تقدرون على عمل أيّ شيء في مقابل جحفل الأعداء اللجب، فانسحبوا من المعركة ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وبنسائكم وأطفالكم إلى ذلّ الأسر، وبذلك كانوا يريدون أن يعزلوا الأنصار عن جيش الإسلام.

ومن جانب آخر: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾.

كلمة ﴿عَوْرَةٌ﴾ مأخوذة من مادّة (عار)، وتقال للشيء الذي يوجب ظهوره العار، وتقال أيضاً للشقوق والثقوب التي تظهر في اللباس أو جدران البيت، وكذلك للثغور الضعيفة والنقاط الحدودية التي يمكن اختراقها وتدميرها، وعلى ما يخافه الإنسان ويحذره، والمراد هنا البيوت التي ليس لها جدار مطمئن وباب محكم، ويخشى عليها من هجوم العدوّ.

والمنافقون بتقديمهم هذه الأعذار كانوا يريدون الفرار من ساحة الحرب واعتزال القتال، واللجوء إلى بيوتهم.

وجاء في رواية: أنّ طائفة «بني حارثة» أرسلوا رسولاً منهم إلى النّبي ﷺ وقالوا: إنّ بيوتنا غير مأمونة، وليس هناك بيت من بيوت الأنصار يشبه بيوتنا، ولا مانع بيننا وبين

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠.

«غطفان» الذين هجموا من شرق المدينة، فائذن لنا أن نرجع إلى بيوتنا وندافع عن نسائنا وأولادنا، فأذن لهم النبي[1].

فبلغ ذلك «سعد بن معاذ» كبير الأنصار، فقال للنّبي ﷺ: لا تأذن لهم، فإنّي أُقسم بالله أنّ هؤلاء القوم تعذّروا بذلك كلّما عرضت لنا مشكلة، إنّهم يكذبون، فأمر رسول الله ﷺ أن يرجعوا.

و«يثرب» هو الاسم القديم للمدينة قبل أن يهاجر إليها النّبي ﷺ، وبعد هجرته أصبح اسمها تدريجياً «مدينة الرّسول»، ومخفّفها المدينة.

ولهذه المدينة أسماء عديدة، ذكر لها الشريف المرتضى (رحمة الله عليه) أحد عشر اسماً آخر إضافةً إلى هذين الاسمين، ومن جملتها: طيبة، وطابة، وسكينة، والمحبوبة، والمرحومة، والقاصمة. ويعتقد البعض أنّ «يثرب» اسم لأرض هذه المدينة[2].

وجاء في بعض الروايات أنّ النّبي ﷺ قال: «لا تسمّوا هذه المدينة يثرب» وربّما كان ذلك بسبب أنّ يثرب في الأصل من مادّة «ثرب» (على وزن حرب) أي اللوم، ولم يكن النّبي ﷺ ليرضى مثل هذا الاسم لهذه المدينة المباركة.

وعلى كلّ حال فإنّ خطاب المنافقين لأهل المدينة بـ(ياأهل يثرب) لم يكن خطاباً عشوائياً، وربّما كان الباعث لخطابهم بهذا الاسم أنّهم كانوا يعلمون أنّ النّبي ﷺ يشمئز من هذا الاسم، أو أنّهم كانوا يريدون إعلان عدم اعترافهم بالإسلام واسم مدينة الرّسول، أو أن يعودوا بأهلها إلى مرحلة الجاهلية!

وتشير الآية التالية إلى ضعف إيمان هذه الفئة، فتقول: إنّ هؤلاء بلغ بهم ضعف الإيمان إلى درجة أنّ جيش الكفر لو دخل المدينة من كلّ جانب وصوب، واستولى عليها، ثمّ دعاهم إلى الشرك والكفر فسوف يقبلون ذلك ويسارعون إليه: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾.

من المعلوم أنّ أُناساً بهذا الضعف والتزلزل وعدم الثبات غير مستعدّين للقاء العدوّ ومحاربته، ولا هم متأهّبون لتقبّل الشهادة في سبيل الله، بل يستسلمون بسرعة ويغيّرون مسيرهم، وبناءً على هذا، فإنّ المراد من كلمة «الفتنة» هنا هي الشرك والكفر، كما جاء في آيات القرآن الأُخرى، كالآية (١٩٣) من سورة البقرة: غير أنّ بعض المفسرين

(١) تفسير في ظلال القرآن، ج٦، ص٥٥٤. (٢) تفسير مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٤٦.

احتملوا أن يكون المراد من «الفتنة» هنا: الحرب ضدّ المسلمين، بحيث إنّها لو عرضت على هؤلاء المنافقين لأجابوا إليها بسرعة، ويعينوا أصحاب الفتنة! إلاّ أنّ هذا التفسير لا يتلاءم مع ظاهر جملة: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ وربّما اختار أكثر المفسّرين المعنى الأوّل لهذا السبب.

ثمّ يستدعي القرآن الكريم فئة المنافقين إلى المحاكمة، فيقول: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ وعليه فإنّهم مسؤولون أمام تعهّدهم.

وقال البعض: إنّ المراد من هذا العهد والميثاق هو تلك العهد الذي عاهد «بنو حارثة» عليه الله ورسوله يوم أحد حينما قرّروا الرجوع عن ميدان القتال ثمّ ندموا بعد ذلك، فقطعوا العهد على أنفسهم أن لا يرتكبوا مثل هذه الأمور، إلاّ أنّهم فكّروا مرّة ثانية في معركة الأحزاب في نقض عهدهم وميثاقهم[1].

ويعتقد البعض أنّه إشارة إلى العهد الذي عاهدوا به رسول الله ﷺ في غزوة بدر، أو في العقبة قبل هجرة النّبي[2].

ولكن يبدو أنّ للآية أعلاه مفهوماً واسعاً يشمل هذه العهود والمواثيق، وكلّ عهودهم الأخرى.

إنّ كلّ من يؤمن ويبايع النّبي ﷺ يعاهده على أن يدافع عن الإسلام والقرآن ولو كلّفه ذلك حياته.

والتأكيد على العهد والميثاق هنا من أجل أنّه حتى عرب الجاهلية كانوا يحترمون مسألة العهد، فكيف يمكن أن ينقض إنسان عهده ويضعه تحت قدميه بعد ادّعائه الإسلام؟!

وبعد أن أفشى الله سبحانه نيّة المنافقين وبيّن أنّ مرادهم لم يكن حفظ بيوتهم، بل الفرار من ميدان الحرب، يجيبهم بأمرين:

الأوّل: أنّه يقول للنّبي ﷺ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

فافرضوا أنّكم استطعتم الفرار، فلا يعدو الأمر حالين: إمّا أن يكون أجلكم الحتمي

(١) تفسير القرطبي، وتفسير في ظلال القرآن، ذيل الآيات مورد البحث.
(٢) نقل هذا القول الآلوسي في روح المعاني.

وموتكم قد حان، فأينما تكونوا يأخذ الموت بتلابيبكم، حتى وإن كنتم في بيوتكم وبين زوجاتكم وأولادكم.

وإن لم يكن أجلكم قد حان فستعمّرون في هذه الدنيا أيّاماً قليلة أُخرى تكون مقترنة بالذلّ والهوان، وستصبحون تحت رحمة الأعداء وفي قبضتهم، وبعدها ستلقون العذاب الإلهي.

إنّ هذا البيان يشبه ما ورد في غزوة أُحد، حيث أشار القرآن إلى فئة أُخرى من المنافقين المثبّطين للعزائم، والمفرّقين لوحدة الصفّ: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾(1).

والثّاني: ألم تعلموا أنّ كلّ مصائركم بيد الله، ولن تقدروا أن تفرّوا من حدود حكومة الله وقدرته ومشيئته: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

بناءً على هذا، فإنّكم إذا علمتم أنّ كلّ مقدّراتكم بيده سبحانه، فأطيعوا أمره في الجهاد الذي هو أساس العزّة والكرامة والشموخ في الدنيا وعند الله، وحتى إذا تقرّر أن تنالوا وسام الشهادة فعليكم أن تستقبلوا ذلك برحابة صدر.

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾

التّفسير

فئة المعوّقين

أشارت هذه الآيات إلى وضع فئة أُخرى من المنافقين الذين اعتزلوا حرب

(1) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

الأحزاب، وكانوا يدعون الآخرين أيضاً إلى اعتزال القتال، فقالت: ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

«المعوّقين» من مادّة (عوق) على زنة (شوق) تعني منع الشيء ومحاولة صرف الآخرين عنه، و«البأس» في الأصل يعني (الشدّة)، والمراد منه هنا الحرب.

ويحتمل أن تكون الآية أعلاه مشيرة إلى فئتين: فئة من المنافقين الذين كانوا بين صفوف المسلمين - وتعبير ﴿مِنكُمْ﴾ شاهد على هذا - وكانوا يسعون إلى صرف ضعاف الإيمان من المسلمين عن الحرب، وهؤلاء هم «المعوّقون».

والفئة الأُخرى هم (المنافقون أو اليهود) الذين تنحّوا جانباً، وعندما كانوا يلتقون بجنود النّبي ﷺ كانوا يقولون: هلمّ إلينا وتنحّوا عن القتال، وهؤلاء هم الذين أشارت إليهم الجملة الثّانية.

ويحتمل أن تكون هذه الآية بياناً لحالتين مختلفتين لفئة واحدة، وهم الذين يعوّقون الناس عن الحرب عندما يكونون بينهم، وعندما يعتزلونهم يدعون الناس إليهم.

ونقرأ في رواية: أنّ أحد أصحاب النّبي ﷺ جاء من ميدان حرب الأحزاب إلى داخل المدينة لحاجة، فرأى أخاه قد وضع أمامه الخبز واللحم المشوي والشراب، فقال له: أنت في هذه الحال تلتذّ ورسول الله مشغول بالحرب، وهو بين الأسنّة والسيوف؟! فقال أخوه: ياأحمق! ابق معنا وشاركنا مجلسنا، فوالذي يحلف به محمّد إنّه لن يرجع من هذه المعركة! وسوف لن يدع هذا الجيش العظيم الذي اجتمع عليه محمّد وأصحابه أحياء!

فقال له الأوّل: أنت تكذب، وأُقسم بالله لأذهبنّ إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما قلت، فجاء إلى النّبي ﷺ وأخبره بما جرى، فنزلت الآية.

وبناءً على سبب النّزول هذا، فإنّ كلمة (إخوانهم) وردت هنا بمعنى الإخوة الحقيقيين، أو بمعنى أصحاب المذهب والمسلك الواحد، كما سمّت الآية (٢٧) سورة الإسراء المبذّرين إخوان الشياطين: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾.

وتضيف الآية التالية: إنّ الدافع لكلّ تلك العراقيل التي وضعوها أمامكم هو أنّهم بخلاء: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾[1] لا في بذل الأرواح في ساحة الحرب، بل هم بخلاء حتى

(١) ﴿أَشِحَّةً﴾ جمع شحيح، من مادّة (الشحّ)، أي البخل المقترن بالحرص، ومحلّ الكلمة من الإعراب هنا برأي أكثر المفسّرين (حال)، لكن ذلك لا ينافي أن تكون حالاً في مقام بيان العلّة. (تأمّلوا ذلك).

في المعونات الماديّة لتهيئة مستلزمات الحرب، وفي المعونة البدنية في حفر الخندق، بل ويبخلون حتى في المساعدة الفكرية، بخلاً يقترن بالحرص المتزايد يومياً!

وبعد تبيان بخل هؤلاء وامتناعهم عن أيّ نوع من المساعدة والإيثار، تتطرّق الآية إلى بيان صفات أُخرى لهم، والتي لها صفة العموم في كلّ المنافقين، وفي كلّ العصور والقرون، فتقول: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾.

فلأنّهم لما لم يذوقوا طعم الإيمان الحقيقي، ولم يستندوا إلى عماد قويّ في الحياة، فإنّهم يفقدون السيطرة على أنفسهم تماماً عندما يواجهون حادثاً صعباً ومأزقاً حرجاً، وكأنّهم يواجهون الموت.

ثمّ تضيف الآية: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ فيأتون إليكم كأنّهم هم الفاتحون الأصليون والمتحمّلون أعباء الحرب، فيعربدون ويطلبون سهمهم من الغنائم، وهم كانوا أبخل من الجميع في المشاركة في الحرب والثبات فيها.

﴿سَلَقُوكُم﴾ من مادّة (سَلْق)، وهي في الأصل بمعنى فتح الشيء بعصبية وغضب، سواء كان هذا الفتح باليد أو اللسان، وهذا التعبير يستعمل في شأن من يطلب الشيء بالزجر وأسلوب الأمر. و«الألسنة الحداد» تعني الألسنة الجارحة المؤذية، وهي هنا كناية عن الخشونة في الكلام.

وتشير الآية في النهاية إلى آخر صفة لهؤلاء، والتي هي في الواقع أساس كلّ شقائهم وتعاستهم، فقالت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ لأنّها لم تكن منبعثة عن الإخلاص والدافع الديني الإلهي: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

وممّا مرّ نخلص إلى هذه النتيجة، وهي: أنّ المعوّقين كانوا منافقين يتميّزون بالصفات التالية:

١ - أنّهم لم يكونوا أهل حرب أبداً، إلاّ بنسبة قليلة جدّاً.

٢ - لم يكونوا من أهل التضحية والإيثار سواء بالمال والنفس، ولم يكونوا يتحمّلون أقلّ المصاعب والمتاعب.

٣ - كانوا يفقدون توازنهم وشخصيتهم في اللحظات الحرجة العاصفة من شدّة الخوف.

٤ - يظنّون أنّهم سبب كلّ الانتصارات، ولهم كلّ الفخر عند الانتصار.

٥ - أنّهم كانوا أُناساً بلا إيمان، ولم يكن لأعمالهم أيّة قيمة عند الله تعالى.

وهذه الصفات هي التي تعرّفنا بالمنافقين في كلّ عصر وزمان، وفي كلّ مجتمع وفئة.

وهذا الوصف الدقيق الذي وصفهم القرآن به يمكن من خلاله معرفة من يشاركهم في الفكر والسلوك، وكم نرى بأُمّ أعيننا في عصرنا من أمثالهم!!

وتجسّد الآية التالية بتصوير أبلغ جبن وخوف هذه الفئة، فتقول: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ﴾ من شدّة خوفهم ورعبهم، فقد خيّم عليهم كابوس مخيف، فكأنّ جنود الكفر يمرّون دائماً أمام أعينهم وقد سلّوا السيوف ومالوا عليهم بالرماح!

إنّ هؤلاء المحاربين الجبناء، والمنافقين خائرو القلوب والقوى يخافون حتى من ظلالهم، وينطوون على أنفسهم من الخوف لدى سماع صهيل الخيل ورغاء البعير، ظنّاً أنّ جيوش الأحزاب قد عادت!

ثمّ تضيف الآية: ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي منتشرون في الصحراء بين أعراب البادية، فيختفون هناك ويتتبّعون أخباركم ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ فيسألون لحظة بلحظة من كلّ مسافر آخر الأخبار لئلاّ تكون الأحزاب قد اقتربت منهم، وهم مع ذلك يمنّون عليكم بأنّهم كانوا يتابعون أخباركم دائماً!!

وتضيف الآية في آخر جملة: وعلى فرض أنّهم لم ينهزموا ويفرّوا من الميدان، بل بقوا معكم: ﴿وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

فلا تحزنوا وتقلقوا لذهابهم، ولا تفرحوا بوجودهم بينكم، فإنّهم أُناس لا قيمة لهم ولا صفة تحمد، وعدمهم أفضل من وجودهم!

وحتى هذا القدر المختصر من العمل لم يكن لله أيضاً، بل هو نتيجة الخوف من ملامة وتقريع الناس، وللتظاهر والرياء، لأنّه لو كان لله لكانوا يقفون ويثبتون في ساحة الحرب ما دام فيهم عرق ينبض.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا

بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ
أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ
لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾

التّفسير

دور المؤمنين المخلصين في معركة الأحزاب

يستمرّ الكلام إلى الآن عن الفئات المختلفة ومخطّطاتهم وأدوارهم في غزوة الأحزاب، وقد تقدّم الكلام عن ضعفاء الإيمان والمنافقين ورؤوس الكفر والنفاق والمعوّقين عن الجهاد.

ويتحدّث القرآن المجيد في نهاية المطاف عن المؤمنين الحقيقيين، ومعنوياتهم العالية ورجولتهم وثباتهم وسائر خصائصهم في الجهاد الكبير.

وتبدأ مقدّمة هذا البحث بالحديث عن النّبي الأكرم ﷺ، حيث كان إمامهم وقدوتهم، فيقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

فإنّ النّبي ﷺ خير نموذج لكم، لا في هذا المجال وحسب، بل وفي كلّ مجالات الحياة، فإنّ كلاً من معنوياته العالية، وصبره واستقامته وصموده، وذكائه ودرايته، وإخلاصه وتوجّهه إلى الله، وتسلّطه وسيطرته على الحوادث، وعدم خضوعه وركوعه أمام الصعاب والمشاكل، نموذج يحتذي به كلّ المسلمين.

إنّ هذا القائد العظيم لا يدع للضعف والعجلة إلى نفسه سبيلاً عندما تحيط بسفينته أشدّ العواصف، وتعصف بها الأمواج المتلاطمة، فهو ربّان السفينة، ومرساها المطمئن الثابت، وهو مصباح الهداية، ومبعث الراحة والهدوء والاطمئنان الروحي لركابها.

إنّه يأخذ المعول بيده ليحفر الخندق مع بقيّة المؤمنين، فيجمع ترابه بمسحاة ويخرجه بوعاء معه، ويمزح مع أصحابه لحفظ معنوياتهم والتخفيف عنهم، ويرغّبهم في إنشاد الشعر الحماسي لإلهاب مشاعرهم وتقوية قلوبهم، ويدفعهم دائماً نحو ذكر الله تعالى ويبشّرهم بالمستقبل الزاهر والفتوحات العظيمة.

يحذّرهم من مؤامرات المنافقين، ويمنحهم الوعي والاستعداد اللازم.

ولا يغفل لحظة عن التجهيز والتسلّح الحربي الصحيح، وانتخاب أفضل الأساليب العسكرية، ولا يتوانى في الوقت نفسه عن اكتشاف الطرق المختلفة التي تؤدّي إلى بثّ التفرقة وإيجاد التصدّع في صفوف الأعداء.

نعم إنّه أسمى مقتدى، وأحسن أُسوة للمؤمنين في هذا الميدان، وفي كلّ الميادين.

«الأُسوة» تعني في الأصل الحالة التي يتلبّسها الإنسان لدى اتّباعه لآخر، وبتعبير آخر: هي التأسّي والاقتداء، وبناءً على هذا فإنّ لها معنى المصدر لا الصفة، ومعنى جملة: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ هو أنّ لكم في النّبي ﷺ تأسّياً واقتداءً جيّداً، فإنّكم تستطيعون بالاقتداء به واتباعه أن تصلحوا أُموركم وتسيروا على الصراط المستقيم.

والطريف أنّ القرآن الكريم يعتبر هذه الأُسوة الحسنة في الآية أعلاه مختّصة بمن لهم ثلاث خصائص: الثقة بالله، والإيمان بالمعاد، وأنّهم يذكرون الله كثيراً.

إنّ الإيمان بالمبدأ والمعاد هو سبب وباعث هذه الحركة في الحقيقة، وذكر الله يعمل على استمراره، إذ لا شكّ أنّ من لم يمتلىء قلبه بهكذا إيمان لا يقدر أن يضع قدمه موضع قدم النّبي، وإذا لم يُدم ذكر الله ويعمّر قلبه به أثناء استمراره في هذا الطريق، ويبعد الشياطين عنه، فسوف لا يكون قادراً على إدامة التأسّي والاقتداء.

وتجدر الإشارة إلى أنّ علياً عليه السلام مع شهامته وشجاعته في كلّ ميادين الحرب، والتي تمثّل معركة الأحزاب نموذجاً منها، وسيشار إليها فيما بعد، يقول في نهج البلاغة فيما روي عنه: «كنّا إذا احمرّ البأس اتّقينا برسول الله ﷺ فلم يكن أحد منّا أقرب إلى العدوّ منه»[1].

بعد ذكر هذه المقدّمة تطرّقت الآية التالية إلى بيان حال المؤمنين الحقيقيين، فقالت: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

ولكن ما هذا الوعد الذي كان الله ورسوله قد وعدهم به؟

قال البعض: إنّه إشارة إلى الكلام الذي كان رسول الله قد تكلّم به من قبل بأنّ قبائل العرب ومختلف أعدائكم سيتّحدون ضدّكم قريباً ويأتون إليكم، لكن اعلموا أنّ النصر

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، فصل الغرائب جملة ٩.

سيكون حليفكم في النهاية، فلمّا رأى المؤمنون هجوم الأحزاب أيقنوا أنّ هذا ما وعدهم به رسول الله ﷺ وقالوا: ما دام الجزء الأوّل من الوعد قد تحقّق، فمن المسلّم أنّ جزأه الثّاني - أي النصر - سيتحقّق بعده، ولذلك زاد إيمانهم وتسليمهم.

وقال البعض الآخر: إنّ هذا الوعد هو ما ذكره الله سبحانه في الآية (٢١٤) من سورة البقرة حيث قال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾.

أي إنّهم قيل لهم من قبل: إنّكم ستخضعون لامتحان عسير، فلمّا رأوا الأحزاب تيقّنوا صدق إخبار الله ورسوله، وزاد إيمانهم وتسليمهم.

ومن الطبيعي أنّ هذين التّفسيرين لا يتنافيان، خاصّة بملاحظة أنّ أحد الوعدين كان في الأساس وعد الله، والآخر وعد الرّسول ﷺ، وقد جاءا معاً في الآية مورد البحث، ويبدو أنّ الجمع بينهما مناسب تماماً.

وتشير الآية التالية إلى فئة خاصّة من المؤمنين، وهم الذين كانوا أكثر تأسّياً بالنّبي ﷺ من الجميع، وثبتوا على عهدهم الذي عاهدوا الله به، وهو التضحية في سبيل دينه حتى النفس الأخير، وإلى آخر قطرة دم، فتقول: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ﴾ من دون أن يتزلزل أو ينحرف ويبدّل العهد ويغيّر الميثاق الذي قطعه على نفسه ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾.

إنّهم لم ينحرفوا قيد أنملة عن خطّهم، ولم يألوا جهداً في سبيل الله، ولم يتزلزلوا لحظة، بعكس المنافقين أو ضعاف الإيمان الذين بعثرتهم عاصفة الحوادث هنا وهناك وأفرزت الشدائد في أدمغتهم الخاوية أفكاراً جوفاء خبيثة. . . إنّ المؤمنين وقفوا كالجبل الأشمّ وأثبتوا أنّ العهد الذي عاهدوا به لا يقبل النقض أو التراجع عنه.

إنّ لفظة (نحب) على زنة (عهد) تعني العهد والنذر والميثاق، ووردت أحياناً بمعنى الموت، أو الخطر، أو سرعة السير، أو البكاء بصوت مرتفع[١].

وهناك اختلاف بين المفسّرين في المعنيّ بهذه الآية.

يروي العالم المعروف (الحاكم أبو القاسم الحسكاني) - وهو من علماء السنّة - بسند عن علي عليه السلام أنه قال: «فينا نزلت ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ﴾ فأنا - والله -

(١) مفردات الراغب، ومجمع البيان، ولسان العرب مادّة نَحب.

المنتظر وما بدّلت تبديلاً، ومنّا رجال قد استشهدوا من قبل كحمزة سيّد الشهداء»[١].

وقال آخرون: إنّ جملة ﴿مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ إشارة إلى شهداء بدر وأُحد، وجملة: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ إشارة إلى المسلمين الصادقين الآخرين الذين كانوا بانتظار إحدى الحسنيين: النصر، أو الشهادة.

وروي عن «أنس بن مالك» أيضاً: أنّ عمّه «أنس بن النضر» لم يكن حاضراً في غزوة بدر، فلمّا علم فيما بعد، وكانت الحرب قد وضعت أوزارها، أسف لعدم اشتراكه في الجهاد، فعاهد الله على أن يشارك في الجهاد إن وقعت معركة أُخرى ويثبت فيها وإن زهقت روحه، ولذلك فقد شارك في معركة أُحد، وحينما فرّ جماعة لم يفرّ معهم، وقاوم وصمد حتى جرح ثمّ استشهد[٢].

وروي عن «ابن عبّاس» أنّه قال: إنّ جملة: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ إشارة إلى حمزة ابن عبدالمطّلب وباقي شهداء أُحد، وأنس بن النضر وأصحابه[٣].

ولا منافاة بين هذه التفاسير مطلقاً، لأنّ للآية مفهوماً واسعاً يشمل كلّ شهداء الإسلام الذين استشهدوا قبل معركة الأحزاب، وكلّ من كان منتظراً للنصر أو الشهادة، وكان على رأسهم رجال كحمزة سيّد الشهداء وعلي عليه السلام، ولذلك ورد في تفسير الصافي: أنّ أصحاب الحسين بكربلاء كانوا كلّ من أراد الخروج للقتال ودّع الحسين عليه السلام وقال: السلام عليك يابن رسول الله، فيجيبه: وعليك السلام ونحن خلفك، ويقرأ: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾[٤].

ويستفاد من كتب المقاتل أنّ الإمام الحسين عليه السلام تلا هذه الآية عند أجساد شهداء آخرين كمسلم بن عوسجة، وحين بلغه خبر شهادة «عبد الله بن يقطر»[٥].

ومن هنا يتّضح أنّ للآية مفهوماً واسعاً يشمل كلّ المؤمنين المخلصين الصادقين في كلّ عصر وزمان، سواء من ارتدى منهم ثوب الشهادة في سبيل الله، أم من ثبت على عهده مع ربّه ولم يتزعزع، وكان مستعدّاً للجهاد والشهادة.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٨، ص٣٥٠، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) أورد هذه الرّوايات بتفاوت يسير أصحاب تفاسير القرطبي وفي ظلال القرآن، ومجمع البيان في كتبهم.

(٣) تفسير مجمع البيان، ج٨، ص٣٥٠، ذيل الآية مورد البحث.

(٤) تفسير الصافي ذيل الآية مورد البحث.

(٥) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٢٥٩.

وتبيّن الآية التالية النتيجة النهائية لأعمال المؤمنين والمنافقين في جملة قصيرة، فتقول: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ﴾ فلا يبقى صدق وإخلاص ووفاء المؤمنين بدون ثواب، ولا ضعف وإعاقات المنافقين بدون عقاب.

ومع ذلك، ولكي لا يغلق طريق العودة والإنابة بوجه هؤلاء المنافقين العنودين، فإنّ الله سبحانه قد فتح أبواب التوبة أمامهم بجملة: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ - إذا تابوا - ووصف نفسه بالغفور والرحيم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ليحيي فيهم الحركة نحو الإيمان والصدق والإخلاص والوفاء بالتزاماتهم أمام الله والعمل بمقتضاها.

ولمّا كانت هذه الجملة قد ذكرت كنتيجة لأعمال المنافقين القبيحة، فإنّ بعض كبار المفسّرين رأى على أساسها بأنّ الذنب الكبير في القلوب التي لها قابلية الهداية ربّما كان دفعاً للحركة المضادّة والرجوع إلى الحقّ والحقيقة، وقد يكون الشرّ مفتاحاً للخير والرشاد(١).

وتطرح الآية الأخيرة من هذه الآيات - والتي تتحدّث عن غزوة الأحزاب وتنهي هذا البحث - خلاصة واضحة لهذه الواقعة في عبارة مختصرة، فتقول في الجملة الأُولى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾.

«الغيظ» يعني (الغضب) ويأتي أحياناً بمعنى (الغمّ)، وهنا جاء مزيجاً من المعنيين، فإنّ جيوش الأحزاب قد بذلت قصارى جهدها للانتصار على جيش الإسلام، لكنّها خابت، ورجع جنود الكفر إلى أوطانهم يعلوهم الغمّ والغضب.

والمراد من «الخير» هنا الانتصار في الحرب، ولم يكن انتصار جيش الكفر خيراً أبداً، بل إنّه شرّ، ولمّا كان القرآن يتحدّث من وجهة نظرهم الفكرية عبّر عنه بالخير، وهو إشارة إلى أنّهم لم ينالوا أيّ نصر في هذا المجال.

وقال البعض: إنّ المراد من «الخير» هنا (المال) لأنّ هذه الكلمة أُطلقت في مواضع أُخرى بهذا المعنى، ومن جملتها ما في آية الوصية (١٨٠) من سورة البقرة: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ﴾.

ومع أنّ أحد الأهداف الأصليّة لمعسكر الكفر كان الحصول على غنائم المدينة والإغارة على هذه الأرض، وهذا الباعث كان أهمّ البواعث في عصر الجاهلية، لكنّنا

(١) تفسير الميزان، ذيل الآية مورد البحث.

لا نمتلك الدليل على حصر معنى (الخير) هنا بالمال، بل يشمل كلّ الانتصارات التي كانوا يطمحون إليها، وكان المال أحدها لكنّهم حرموا من الجميع.

وتضيف في الجملة التالية: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ فقد هيّأ عوامل بحيث انتهت الحرب من دون حاجة إلى إلتحام واسع بين الجيشين، ومن دون أن يتحمّل المؤمنون خسائر فادحة، لأنّ العواصف الهوجاء القارصة قد مزّقت أوضاع المشركين من جهة، ومن جهة أُخرى فإنّ الله تعالى قد ألقى الرعب والخوف في قلوبهم من جنود الله التي لا ترى، ومن جهة ثالثة فإنّ الضربة التي أنزلها علي بن أبي طالب عليه السلام بأعظم بطل من أبطالهم، وهو «عمرو بن عبد ودّ»، قد تسبّبت في تبدّد أحلامهم وآمالهم، ودفعتهم إلى أن يلملموا أمتعتهم ويتركوا محاصرة المدينة ويرجعوا إلى قبائلهم تقدمهم الخيبة والخسران.

وتقول الآية في آخر جملة: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ فمن الممكن أن يوجد أُناس أقوياء، لكنّهم ليسوا بأعزّاء لا يُقهرون، بل هناك من يقهرهم ومن هو أقوى منهم، إلاّ أنّ القوي العزيز الوحيد في العالم هو الله عزّ وجلّ الذي لا حدّ لقدرته وقوّته ولا انتهاء، فهو الذي أنزل على المؤمنين النصر في مثل هذا الموقف العسير والخطير جدّاً بحيث لم يحتاجوا حتى إلى النزال وتقديم التضحيات!

بحوث

١ - ملاحظات هامّة في معركة الأحزاب

أ - إنّ معركة **الأحزاب** - وكما هو معلوم من اسمها - كانت حرباً اتّحدت فيها كلّ القبائل والفئات المختلفة التي تعادي الإسلام، للقضاء على الإسلام اليافع.

لقد كانت «حرب الأحزاب» آخر سعي للكفر، وآخر سهم في كنانته، وآخر استعراض لقوى الشرك، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «برز الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه»[1] عندما تقابل أعظم أبطال العدوّ، وهو عمرو بن عبد ودّ، وبطل الإسلام الأوحد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، لأنّ انتصار أحدهما على الآخر كان يعني انتصار الكفر على الإيمان، أو الإيمان على الكفر، وبتعبير آخر: كان عملاً مصيرياً يحدّد

(١) بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٢١٥، ونقل هذا الحديث عن الكراجكي.

مستقبل الإسلام والشرك، ولذلك فإنّ المشركين لم تقم لهم قائمة بعد انهزامهم في هذه المواجهة العظيمة، وكانت المبادرة وزمامها بيد المسلمين بعدها دائماً.

لقد أفل نجم الأعداء، وانهدمت قواعد قوّتهم، ولذلك نقرأ في حديث أنّ النّبي ﷺ قال بعد نهاية غزوة الأحزاب: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا»(١).

ب - التفاوت في العدد والعدة

ذكر بعض المؤرّخين أنّ عدد أفراد جيوش الكفر كان أكثر من عشرة آلاف محارب، ويقول «المقريزي» في «الإمتاع»: إنّ قريشاً أتت لوحدها بأربعة آلاف رجل، وألف وثلاثمائة فرس، وألف وخمسمائة من الإبل، ونزلت عند حافّة الخندق، وجاءت قبيلة بني سليم بسبعمائة رجل والتقوا بهم في مرّ الظهران، وجاء «بنو فزارة» بألف، وكلّ من «بني أشجع» و«بني مرّة» بأربعمائة، والقبائل الأُخرى أرسلت عدداً من الرجال، فتجاوز مجموع كلّ من حضر عشرة آلاف رجل.

في حين أنّ عدد المسلمين لم يكن يتجاوز الثلاثة آلاف رجل، وكانوا قد جعلوا مخيّمهم الأصلي أسفل جبل سلع، وكانت نقطة مرتفعة جنب المدينة مشرفة على الخندق، وكانوا يستطيعون عن طريق رماتهم السيطرة على حركة المرور من الخندق.

على كلّ حال، فإنّ جيش الكفّار قد حاصر المسلمين من جميع الجهات، وطالت هذه المحاصرة عشرين يوماً، وقيل خمسة وعشرين يوماً، وعلى بعض الرّوايات شهراً(٢).

ومع أنّ العدوّ كان متفوقاً على المسلمين من جهات مختلفة، إلاّ أنّه خاب في النهاية كما قلنا، ورجع إلى دياره خالي الوفاض.

ج - كيفية حفر الخندق

إنّ مسألة حفر الخندق قد تمّت - كما نعلم - بمشورة «سلمان الفارسي»، وكانت هذه المسألة أُسلوباً دفاعياً معتاداً في بلاد فارس آنذاك، ولم يكن معروفاً في جزيرة العرب إلى ذلك اليوم، وكان يعتبر ظاهرة جديدة، وكانت لإقامته في أطراف المدينة أهميّة عظيمة، سواء من الناحية العسكرية، أم من جهة إضعاف معنويات العدوّ ورفع معنويات المسلمين.

---

(١) التاريخ الكامل لابن الأثير، ج ٢، ص ١٨٤.

(٢) بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٢٢٨.

ولا توجد لدينا معلومات دقيقة عن صفات الخندق ودقائقه، فقد ذكر المؤرّخون أنّه كان من العرض بحيث لا يستطيع فرسان العدوّ عبوره بالقفز، ومن المحتّم أنّ عمقه أيضاً كان بالقدر الذي إذا سقط فيه أحد لم يكن يستطيع أن يخرج من الطرف المقابل بسهولة.

إضافةً إلى أنّ سيطرة رماة المسلمين على منطقة الخندق كان يمكّنهم من جعل كلّ من يحاول العبور هدفاً وغرضاً لسهامهم في وسط الخندق وقبل عبوره.

وأمّا من ناحية الطول فإنّ البعض قد قدّره باثني عشر ألف ذراع (ستّة آلاف متر) استناداً إلى الرواية المعروفة التي تقول بأنّ النّبي ﷺ كان قد أمر أن يحفر كلّ عشرة رجال أربعين ذراعاً من الخندق، وبملاحظة أنّ عدد جنود المسلمين - طبقاً للمشهور - بلغ ثلاثة آلاف رجل.

ولابدّ من الاعتراف بأنّ حفر مثل هذا الخندق، وبالآلات البدائية المستعملة في ذلك اليوم كان أمراً مضنياً وجهداً، خاصّة وأنّ المسلمين كانوا في ضيق شديد وحاجة ملحّة من ناحية الزاد والوسائل الأُخرى.

ومن المسلّم أنّ حفر الخندق قد استغرق مدّة لا يستهان بها، وهذا يوحي بأنّ جيش المسلمين كان قد قدّر وخمّن وتوقّع التوقّعات اللازمة بدقّة كاملة قبل أن يهجم العدوّ بحيث أنّ حفر الخندق كان قد تمّ قبل ثلاثة أيّام من وصول جيش الكفّار.

د - ساحة امتحان عظيمة

إنّ غزوة «الأحزاب» كانت محكّاً وامتحاناً عجيباً لكلّ المسلمين، ولمن كانوا يدّعون الإسلام، وكذلك لأُولئك الذين كانوا يدّعون الحياد أحياناً، وكان لهم في الباطن ارتباط وتعامل مع أعداء الإسلام ويتعاونون معهم ضدّ دين الله.

لقد تبيّن بوضوح تامّ موقع الفئات الثلاث - المؤمنون الصادقون، وضعفاء الإيمان، والمنافقون - من خلال عملهم، واتّضحت تماماً القيم والمفاهيم الإسلامية، فقد عكست كلّ من الفئات الثلاث في أتون الحرب الملتهبة حسن إيمانها أو قبحه، وإخلاص نيّاتها أو عدمه.

لقد كانت العاصفة هوجاء شديدة لم تدع المجال لأيّ شخص أن يخفي ما في قلبه، وظهرت أُمور في أقلّ من شهر، وكان يحتاج كشفها إلى سنين ربّما تكون طويلة في الظروف الطبيعيّة.

وهنا مسألة تستحقّ الانتباه، وهي أنّ النّبي ﷺ أثبت عمليّاً إيمانه الكامل بما جاء به

من التعليمات الإلهيّة ووفاءه التامّ لها من خلال مقاومته وصلابته، ورباطة جأشه، وتوكّله على الله، وإعتماده على نفسه، وكذلك أثبت للناس أنّه يطبّق قبل الآخرين ما يأمرهم به من خلال مواساته للمسلمين ومساعدتهم في حفر الخندق، وتحمّله لمصاعب الحرب ومشاكلها.

هـ - نزال علي عليه السلام التاريخي لعمرو بن عبد ودّ

من المواقف الحسّاسة والتاريخية لهذه الحرب مبارزة علي عليه السلام لبطل معسكر العدوّ العظيم «عمرو بن عبد ودّ»، فقد جاء في التواريخ أنّ جيش الأحزاب كان قد دعا أشدّاء شجعان العرب للاشتراك والمساهمة في هذه الحرب، وكان الأشهر من بين هؤلاء خمسة: عمرو بن عبد ودّ، وعكرمة بن أبي جهل، وهبيرة، ونوفل، وضرار.

لقد استعدّ هؤلاء في أحد أيّام الحرب للمبارزة الفردية، ولبسوا عدّة الحرب، واستطاعوا اختراق الخندق والعبور بخيولهم إلى الجانب الآخر من خلال نقطة ضيّقة فيه، كانت بعيدة نسبياً عن مرمى الرماة المسلمين، وأن يقفوا أمام جيش المسلمين، وكان أشهرهم «عمرو بن عبد ودّ».

فتقدّم وقد ركبه الغرور والاعتداد بالنفس، وكانت له خبرة طويلة في الحرب، ورفع صوته طالباً من يبارزه.

لقد دوّى نداؤه (هل من مبارز) في ميدان الأحزاب، ولمّا لم يجرؤ أحد من المسلمين على قتاله اشتدّت جرأته وبدأ يسخر من معتقدات المسلمين، فقال: أين جنّتكم التي تزعمون أنّ من قتل منكم دخلها؟ هل فيكم من أرسله إلى الجنّة، أو يدفعني إلى النار؟

وهنا أنشد أبياته المعروفة:

ولقد بححت من النداء بجمعكم هل من مبارز
ووقفت إذ جبن المشجّع موقف البطل المناجز
إنّ السماحة والشجاعة في الفتى خير الغرائز

فأمر النّبي صلى الله عليه وآله وسلم عند ذاك أن يخرج إليه رجل ويبعد شرّه عن المسلمين، إلاّ أنّ أحداً لم يجب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلاّ علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّه عمرو» فقال علي عليه السلام: «وإن كان عمراً» فدعاه النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وعمّمه، وقلّده سيفه الخاصّ ذا الفقار، ثمّ دعا له فقال: «اللهمّ احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته».

فمشى علي عليه السلام إلى الحرب وهو يرتجز:

لا تعجلنّ فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز

ذو نيّة وبصيرة والصدق منجي كلّ فائز

إنّي لأرجو أن أُقيم عليك نائحة الجنائز

من ضربة نجلاء يبقى صوتها بعد الهزاهز

وهنا قال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم كلمته المعروفة: «برز الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه»(١).

فلمّا التقيا دعاه أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى الإسلام أوّلاً، فأبى، ثمّ دعاه إلى اعتزال الحرب، فرفض ذلك، واعتبره عاراً عليه، وفي الثالثة دعاه إلى أن ينزل عن ظهر جواده ويقاتله راجلاً، فغضب عمرو وقال: ما كنت أحسب أحداً من العرب يدعوني إلى مثل ذلك، فنزل من على ظهر فرسه وضرب علياً عليه السلام على رأسه، فتلقّاها علي عليه السلام بمهارة خاصّة بدرعه، إلاّ أنّ السيف قدّه وشجّ رأس علي عليه السلام.

هنا استعمل علي عليه السلام أسلوباً خاصّاً، فقال لعمرو: أنت بطل العرب، وأنا أُقاتلك، فعلام حضر من خلفك؟ فلمّا التفت عمرو، ضربه علي عليه السلام على ساقه بالسيف، فسقط عمرو إلى الأرض، فثارت غبرة ظنّ معها المنافقون أنّ علياً عليه السلام قد قتل بسيف عمرو، غير أنّهم لمّا سمعوا التكبير قد علا علموا بانتصار علي، ورأوا فجأةً علياً عليه السلام يرجع إلى معسكره رويداً رويداً والدم ينزف من رأسه، وعلى شفتيه ابتسامة النصر، وكانت جثّة عمرو قد سقطت في جانب من الميدان.

لقد أنزل مقتل بطل العرب المعروف ضربة قاصمة بجيش الأحزاب بدّدت آمالهم وحطّمت معنوياتهم، وهزمتهم نفسياً هزيمة منكرة، وخابت آمالهم في النصر والظفر، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حقّها: «لو وزن اليوم عملك بعمل جميع أُمّة محمّد لرجح عملك على عملهم، وذاك أنّه لم يبق بيت من المشركين إلاّ وقد دخله ذلّ بقتل عمرو، ولم يبق بيت من المسلمين، إلاّ وقد دخله عزّ بقتل عمرو»(٢).

وقد أورد العالم السنّي المعروف «الحاكم النيسابوري» هذا القول، لكن بتعبير آخر:

---

(١) بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٢٠٣، ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ٣٤٤ طبقاً لنقل إحقاق الحقّ، ج ٦، ص ٩.

(٢) بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٢١٦.

«لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن عبد ودّ يوم الخندق أفضل من أعمال أُمّتي إلى يوم القيامة»[١].

والغاية من هذا الكلام واضحة، لأنّ كلاً من الإسلام والقرآن كان على حافّة الهاوية ظاهراً، وكان يمرّ بأحرج لحظاته وأصعبها، ولذلك كانت التضحية في هذه الحرب أعظم التضحيات بعد تضحيات النّبي ﷺ، حيث حفظت الإسلام من السقوط ودرأت عنه الخطر، وضمنت بقاءه إلى يوم القيامة، وببركة تضحية الإمام عليه السلام تجذّر الإسلام وتأصّل وشملت غصونه وأوراقه العالمين، وبناءً على هذا فإنّ عبادة الجميع مرهونة بعمله.

وذكر البعض: أنّ المشركين أرسلوا رسولاً منهم ليشتري جثّة عمرو بعشرة آلاف درهم - وربّما كانوا يتصوّرون أنّ المسلمين سيفعلون بجثّة عمرو ما فعله قساة القلوب بجسد حمزة يوم أحد - فقال النّبي ﷺ: «هو لكم، لا نأكل ثمن الموتى»!

وهناك موقف يستحقّ الذكر والانتباه، وهو: أنّ أُخت عمرو لمّا وصلت إلى جسد أخيها، ورأت أنّ علياً عليه السلام لم يسلبه درعه الثمينة قالت: ما قتله إلاّ كفؤ كريم[٢].

و- إجراءات النّبي العسكرية والسياسية في هذه الحرب

كانت هناك مجموعة من العوامل المختلفة، والأساليب العسكرية والسياسية، وكذلك عامل العقيدة والإيمان، ساهمت في انتصار النّبي ﷺ والمسلمين في معركة الأحزاب، إضافةً إلى التأييد الإلهي عن طريق الرياح والعواصف الهوجاء التي مزّقت جيوش الأحزاب شرّ ممزّق، وكذلك جنود الله الغيبيين، ومن جملة هذه العوامل والإجراءات:

١ - أنّ النّبي ﷺ أدخل بقبوله اقتراح حفر الخندق أُسلوباً جديداً لم يكن موجوداً ومعروفاً بين العرب إلى ذلك اليوم، وكان عاملاً مهمّاً في رفع معنويات المسلمين وكسر شوكة الكفّار.

٢ - المواقف والحسابات الدقيقة للمسلمين، والأساليب والمناورات العسكرية كانت عاملاً مؤثّراً في عدم نفوذ العدوّ إلى داخل المدينة.

---

(١) مستدرك الحاكم، ج ٣، ص ٣٢.

(٢) اعتمدنا في هذا الجانب على كتب: إحقاق الحقّ، ج ٦، بحار الأنوار، ج ٢٠، تفسير الميزان، ج ١٦. وحبيب السير، ج١؛ وفروغ الأبدية، ج٢.

٣ - قتل عمرو بن عبد ودّ على يد بطل الإسلام العظيم علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام، وتبديد آمال الأحزاب بقتله يعدّ عاملاً مؤثّراً آخر.

٤ - الإيمان بالله، والتوكّل عليه، والذي غرسه النّبي ﷺ في قلوب المسلمين، وسقاه المسلمون على امتداد الحرب بتلاوة القرآن وكلمات النّبي ﷺ المؤثّرة.

٥ - أُسلوب النّبي ﷺ وروحه الكبيرة، واعتماده على نفسه الذي يمنح المسلمين قوّة واطمئناناً.

٦ - إضافةً إلى ذلك، فإنّ عمل «نعيم بن مسعود» كان أحد العوامل المهمّة في إيجاد الفرقة بين جيوش الأحزاب.

ز - نعيم بن مسعود وبثّ الفُرقة في جيش العدوّ!

جاء «نعيم» إلى النّبي ﷺ وكان قد أسلم لتوّه، ولم تعلم قبيلته (غطفان) بإسلامه، فقال: أسلمت ولم يعلم بي أحد من قومي فمرني بأمرك، فقال له النّبي ﷺ: «إنّما أنت فينا رجل واحد، فخذّل عنّا ما استطعت، فإنّما الحرب خدعة».

فانطلق نعيم بخطّة رائعة، وأتى يهود بني قريظة، وكانت له معهم صداقة في الجاهلية، فقال لهم: إنّي لكم صديق، وأنتم تعلمون ذلك، فقالوا: صدقت، ونحن لا نتّهمك أبداً، فقال: إنّ البلد بلدكم وبه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، وإنّما قريش وغطفان بلادهم غيرها، وإنّما جاؤوا حتى نزلوا معكم فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن رأوا غير ذلك رجعوا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل، ولا طاقة لكم به، فلا تقاتلوا حتى تأخذوا رهناً من أشرافهم تستوثقون به أن لا يبرحوا حتى يناجزوا محمّداً، فقالوا: قد أشرت برأي، فقبل بنو قريظة قوله.

ثمّ أتى أبا سفيان وأشراف قريش متخفّياً، فقال: يامعشر قريش، إنّكم قد عرفتم ودّي إيّاكم وفراقي محمّداً ودينه، وإنّي قد جئتكم بنصيحة فاكتموا عليّ، فقالوا: نفعل، قال: تعلمون أنّ بني قريظة قد ندموا على ما صنعوا بينهم وبين محمّد فبعثوا إليه: أنّه لا يرضيك عنّا إلاّ أن نأخذ من القوم رهناً من أشرافهم وندفعهم إليك فتضرب أعناقهم، ثمّ نكون معك عليهم حتى نخرجهم من بلادك، فقالوا: بلى، فإن بعثوا إليكم يسألونكم نفراً من رجالكم فلا تعطوهم رجلاً واحداً واحذروا.

ثمّ جاء إلى غطفان قبيلته، فقال: تعلمون حسبي ونسبي، وأنا أودّكم، ولا أظنّكم

تشكّون في صدقي، فقالوا: نعلم ذلك، فقال: لكم عندي خبر فاكتموه عليّ، فقالوا: نفعل، فقال لهم ما قال لقريش. وكان ذلك ليلة السبت من شوّال سنة خمس من الهجرة.

فأرسل أبو سفيان ورؤساء غطفان جماعة إلى بني قريظة فقالوا: إنّ الكراع والخفّ قد هلكا، وإنّا لسنا بدار مقام، فاخرجوا إلى محمّد حتى نناجزه.

فأجابهم اليهود: إنّ غداً السبت، وهو يوم لا نعمل فيه، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم نستوثق بهم لا تذهبوا وتدعونا حتى نناجز محمّداً.

فلمّا بلغ ذلك قريشاً وغطفان قالوا: والله لقد حذّرنا هذا نعيم، فبعث إليهم أبو سفيان: إنّا لا نعطيكم رجلاً واحداً فإن شئتم أن تخرجوا وتقاتلوا، وإن شئتم فاقعدوا.

ولمّا علمت اليهود بذلك قالوا: هذا والله الذي قال لنا نعيم، فإنّ في الأمر حيلة، وهؤلاء لا يريدون القتال، ويريدون أن يغيروا ويرجعوا إلى ديارهم ويذروكم ومحمّداً.

فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنّا والله لا نقاتل حتى تعطونا رهناً، فأصرّت قريش وغطفان على قولهما فوقع الاختلاف بينهم، وبعث الله سبحانه عليهم الريح في ليال شاتية قارصة البرد، قلعت خيامهم، وكفأت قدورهم.

لقد اتّحدت هذه العوامل، فحزم الجميع أمتعتهم ورجّحوا الفرار على القرار، ولم يبق منهم رجل في ساحة الحرب(١).

ح - قصّة حذيفة

جاء في كثير من التواريخ أنّ «حذيفة اليماني» قال: والله، لقد رأيتنا يوم الخندق وبنا من الجهد والجوع والخوف ما لا يعلمه إلاّ الله، وفي ليلة من الليالي - بعد أن وقع الاختلاف بين جيش الأحزاب - قال رسول الله ﷺ: «ألا رجل يأتينا بخبر القوم يجعله الله رفيقي في الجنّة».

قال حذيفة: فوالله ما قام منّا أحد ممّا بنا من الخوف والجوع، فلمّا رأى النّبي ﷺ ذلك دعاني، فقلت: لبّيك، قال: «اذهب فجيء بخبر القوم ولا تحدثنّ شيئاً حتى ترجع»، فأتيت القوم فإذا ريح الله وجنوده تفعل بهم ما تفعل، ما يستمسك لهم بناء، ولا تثبت لهم نار، ولا يطمئن لهم قدر، فإنّي لكذلك إذ خرج أبو سفيان من رحله، ثمّ قال:

(١) سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٢٤٠ باختصار.

يا معشر قريش، لينظر أحدكم من جليسه لئلاّ يكون هنا غريب، فبدأت بالذي عن يميني، فقلت: من أنت؟ قال: أنا فلان، فقلت: حسناً.

ثمّ عاد أبو سفيان براحلته، فقال: يا معشر قريش - والله - ما أنتم بدار مقام، هلك الخفّ والحافر، وأخلفتنا بنو قريظة، وهذه الريح لا يستمسك لنا معها شيء، ثمّ عجّل فركب راحلته وإنّها لمعقولة ما حلّ عقالها إلاّ بعد ما ركبها.

فقلت في نفسي: لو رميت عدوّ الله وقتلته كنت قد صنعت شيئاً، فوترت قوسي ثمّ وضعت السهم في كبد القوس، فلمّا أردت أن أطلقه ذكرت قول رسول الله ﷺ: «لا تحدثنّ شيئاً حتى ترجع» وإنّه طلب منّي أن آتيه بالخبر وحسب، حططت القوس ثمّ رجعت إلى رسول الله فأخبرته الخبر، فقال النّبي ﷺ: «اللهمّ أنت منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهمّ اهزمهم وزلزلهم»(١).

ط - نتائج حرب الأحزاب

لقد كانت حرب الأحزاب نقطة انعطاف في تاريخ الإسلام، قلبت كفّة التوازن العسكري والسياسي لصالح المسلمين إلى الأبد. ويمكن تلخيص النتائج المثمرة لهذه المعركة في عدّة نقاط:

أ - فشل مساعي العدوّ، وتحطّم قواه.

ب - كشف المنافقين، وفضح الأعداء الداخليين الخطرين.

ج - جبران الذكرى الأليمة لهزيمة أُحد.

د - قوّة المسلمين، وازدياد هيبتهم في قلوب الأعداء.

هـ - ارتفاع معنويات المسلمين نتيجة للمعجزات العظيمة التي رأوها في هذه المعركة.

و- تثبيت مركز النّبي ﷺ في داخل المدينة وخارجها.

ر - تهيؤ الأرضية لتصفية المدينة وإنقاذها من شرّ بني قريظة.

٢ - النّبي أُسوة وقدوة

نعلم أنّ اختيار رسول الله من بين البشر إنّما هو من أجل أن يكونوا قدوة عملية للأُمم، لأنّ أهمّ جانب من جوانب دعوة الأنبياء وأكثرها تأثيراً هي الدعوة العملية،

---

(١) بحار الأنوار، ج٢٠، ص٢٠٩.

ولذلك فإنّ علماء الإسلام اعتبروا العصمة شرطاً لمقام النبوّة، وإحدى أدلّتها وبراهينها هي أنّهم يجب أن يكونوا «قدوة» للناس، و«أُسوة» للبشر.

وممّا يسترعي الانتباه أنّ التأسّي بالنّبي ﷺ الوارد في هذه الآية قد جاء بصورة مطلقة، وهذا يشمل التأسّي في كافّة المجالات بالرغم من أنّ سبب نزول هذه الآيات هي معركة الأحزاب، ونعلم أنّ أسباب النّزول لا تحدّد مفاهيم الآيات بها مطلقاً، ولذلك نرى في الأحاديث الشريفة أنّ أهمّ المسائل وأبسطها قد طرحت في مسألة التأسّي.

ففي حديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «إنّ الصبر على ولاة الأمر مفروض لقول الله عزّ وجلّ لنبيّه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ وإيجابه مثل ذلك على أوليائه وأهل طاعته لقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[(١)].

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ رسول الله كان إذا صلّى العشاء الآخرة أمر بوضوئه وسواكه فوضع عند رأسه مخمراً» ثمّ يبيّن كيفية صلاة الليل التي كان يصلّيها النّبي ﷺ، ويقول في آخر الحديث: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[(٢)].

وإذا ما اتّخذنا النّبي ﷺ أسوة لنا في حياتنا حقّاً، في إيمانه وتوكّله، في إخلاصه وشجاعته، في تنظيم أمره ونظافته، وفي زهده وتقواه، فإن أُسلوب حياتنا سيختلف تماماً، وسيعمّ الضياء والسعادة كلّ زوايا حياتنا ونواحيها.

يجب اليوم على كلّ المسلمين، وخاصّة الشباب المؤمن، أن يقرؤوا سيرة نبيّنا الأكرم ﷺ بدقّة متناهية ويحفظوها، ويجعلوه قدوة وأُسوة لهم في كلّ شيء، فإنّ هذا التأسّي والاقتداء به سبيل السعادة، ومفتاح النصر والعزّة.

٣ - اذكروا الله كثيراً

لقد وردت الوصيّة بذكر الله - وخاصّة الذكر الكثير - مراراً في الآيات القرآنية، وقد أولته الروايات الإسلامية اهتماماً كبيراً أيضاً، حتى أنّنا نقرأ في حديث عن أبي ذرّ أنّه قال:

---

(١) احتجاج الطبرسي طبقاً لنقل نور الثقلين، ج٤، ص٢٥٥.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١، ص ٣٥٦.

دخلت المسجد فأتيت النّبي ﷺ . . . فقال لي: «عليك بتلاوة كتاب الله وذكر الله كثيراً فإنّه ذكر لك في السماء ونور لك في الأرض»[١].

وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا ذكر العبد ربّه في اليوم مائة مرّة كان ذلك كثيراً»[٢].

وفي حديث آخر عن النّبي الأكرم ﷺ أنّه قال لأصحابه: «ألا أُخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من الدينار والدرهم، وخير لكم من أن تلقوا عدوّكم فتقتلونهم ويقتلونكم؟ قالوا: بلى يارسول الله، قال: ذكر الله كثيراً»[٣].

لكن لا ينبغي أن يتصوّر أنّ المراد من ذكر الله بكلّ هذه الفضيلة هو الذكر اللساني فقط، بل قد صرّحت الروايات الإسلامية أنّ المراد منه إضافة لما مرّ هو الذكر القلبي والعملي، أي أنّ الإنسان يذكر الله عندما يواجه حراماً فيتركه.

إنّ الهدف أن يجعل الإنسان الله نصب عينيه دائماً، ويشعر بحضوره وشهادته الدائمة، وأن يغمر نور الله كلّ حياته، فيفكّر فيه ويذكره دائماً، ولا يغفل عن أوامره بل يطيعها.

إنّ مجالس الذكر ليست تلك المجالس التي يجتمع فيها جماعة من المغفّلين ويشرعون في الطعام والشراب، وتتخلّل مجالسهم تلك مجموعة من الأذكار المخترعة، والبدع التي يروجونها، فقد ورد في حديث أنّ النّبي ﷺ قال: «بادروا إلى رياض الجنّة، قالوا: وما رياض الجنّة؟ قال: حَلَق الذِّكر»[٤]، والمراد منها الحلقات التي تُحيا فيها العلوم الإسلامية، وتطرح البحوث التربوية التي تؤدّي إلى تهذيب الناس وتطهير المذنبين وتدفعهم إلى سبيل الله[٥].

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾

(١) الخصال، طبقاً لنقل نور الثقلين، ج ٤، ص٢٥٧.
(٢-٣) سفينة البحار، ج ١، ص ٤٨٤.
(٤) سفينة البحار، ج ١، ص٤٨٦.
(٥) كان لنا بحث آخر حول أهميّة ذكر الله ومفهومه ذيل الآية (١٢٠) من سورة الرعد.

التّفسير

غزوة بني قريظة انتصار عظيم آخر

كان في المدينة ثلاث طوائف معروفة من اليهود، وهم: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، وكانت هذه الطوائف قد عاهدت النّبي ﷺ على أن لا تعين عدوّاً له ولا يتجسّسوا لذلك العدوّ، وأن يعيشوا مع المسلمين بسلام، إلاّ أنّ «بني قينقاع» قد نقضوا عهدهم في السنة الثّانية للهجرة، و«بنو النضير» في السنة الرّابعة للهجرة بأعذار شتّى، وصمّموا على مواجهة النّبي ﷺ وانهارت مقاومتهم في النهاية، وطردوا إلى خارج المدينة، فذهب «بنو قينقاع» إلى أذرعات الشام، وذهب بعض «بني النضير» إلى خيبر، وبعضهم الآخر إلى الشام(١).

بناءً على هذا فإنّ «بني قريظة» كانوا آخر من بقي في المدينة إلى السنة الخامسة للهجرة حيث وقعت غزوة الأحزاب، وكما قلنا في تفسير الآيات السبع عشرة المتعلّقة بمعركة الأحزاب، فإنّهم نقضوا عهدهم في هذه المعركة، واتّصلوا بمشركي العرب، وشهروا السيوف بوجه المسلمين.

بعد انتهاء غزوة الأحزاب والتراجع المشين والمخزي لقريش وغطفان وسائر قبائل العرب عن المدينة، فإنّ النّبي ﷺ - طبقاً للرّوايات الإسلامية - عاد إلى منزله وخلع لامة الحرب وذهب يغتسل، فنزل عليه جبرئيل بأمر الله وقال: لماذا ألقيت سلاحك وهذه الملائكة قد استعدّت للحرب؟ عليك أن تسير الآن نحو بني قريظة وتنهي أمرهم.

لم تكن هناك فرصة لتصفية الحساب مع بني قريظة أفضل من هذه الفرصة، حيث كان المسلمون في حرارة الانتصار، وبنو قريظة يعيشون لوعة الهزيمة المرّة، وقد سيطر عليهم الرعب الشديد، وكان حلفاؤهم من قبائل العرب متعبين منهكي القوى خائري العزائم، وهم في طريقهم إلى ديارهم يجرّون أذيال الخيبة، ولم يكن هناك من يحميهم ويدافع عنهم.

هنا نادى منادٍ من قبل رسول الله ﷺ بأن توجّهوا إلى بني قريظة قبل أن تصلّوا العصر، فاستعدّ المسلمون بسرعة وتهيّؤوا للمسير إلى الحرب، وما كادت الشمس تغرب إلاّ وكانت حصون بني قريظة المحكمة محاصرة تماماً.

---

(١) الكامل لابن الأثير، ج ٢، ص ١٣٧ - ١٧٣.

لقد استمرت هذه المحاصرة خمسة وعشرين يوماً، وأخيراً سلّموا جميعاً - كما سيأتي في البحوث - فقُتل بعضهم، وأُضيف إلى سجل انتصارات المسلمين انتصار عظيم آخر، وتطهّرت أرض المدينة من دنس هؤلاء المنافقين والأعداء اللدودين إلى الأبد.

وقد أشارت الآيات - مورد البحث - إشارة مختصرة ودقيقة إلى هذه الحادثة، وكما قلنا فإنّ هذه الآيات نزلت بعد الانتصار، وأوضحت أنّ هذه الحادثة كانت نعمة وموهبة إلهيّة عظيمة، فتقول الآية أوّلاً: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ﴾.

«الصياصي» جمع (صيصية)، أي: القلعة المحكمة، ثمّ أُطلقت على كلّ وسيلة دفاعية، كقرون البقر، ومخالب الديك. ويتّضح هنا أنّ اليهود كانوا قد بنوا قلاعهم وحصونهم إلى جانب المدينة في نقطة مرتفعة، والتعبير بـ﴿وَأَنزَلَ﴾ يدلّ على هذا المعنى.

ثمّ تضيف الآية: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾ وأخيراً بلغ أمرهم أنّكم ﴿فَرِيقًا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ ﴿٢٧﴾﴾.

إنّ هذه الجمل تمثّل مختصراً وجانباً من نتائج غزوة بني قريظة، حيث قتل جمع من أُولئك الخائنين على يد المسلمين، وأُسر آخرون، وغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة من جملتها أراضيهم وديارهم وأموالهم.

والتعبير عن هذه الغنائم بـ«الإرث» لأنّ المسلمين لم يبذلوا كثير جهد للحصول عليها، وسقطت في أيديهم بسهولة كلّ تلك الغنائم التي كانت حصيلة سنين طويلة من ظلم وجور اليهود واستثماراتهم في المدينة.

وتقول الآية في النهاية: ﴿وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾.

هناك اختلاف بين المفسّرين في المقصود من ﴿وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ﴾ وأيّ أرض هي؟

فاعتبرها البعض إشارة إلى أرض خيبر التي فتحت على أيدي المسلمين فيما بعد.

واعتبرها آخرون إشارة إلى أرض مكّة.

وآخرون يعتقدون أنّها إشارة إلى أرض الروم وفارس.

ويرى البعض أنّها إشارة إلى جميع الأراضي والبلدان التي وقعت في يد المسلمين من ذلك اليوم وما بعده إلى يوم القيامة.

إلاّ أنّ أيّاً من هذه الاحتمالات لا يناسب ظاهر الآية، لأنّ الآية - بقرينة الفعل

الماضي الذي جاء فيها (أورثكم شاهدة على أنّ هذه الأرض قد أصبحت تحت تصرّف المسلمين في حادثة غزوة بني قريظة إضافةً إلى أنّ أرض مكّة وهي إحدى التفاسير السابقة لم تكن أرضاً لم يطأها المسلمون في حين أنّ القرآن الكريم يقول وأرضاً لم تطؤوها).

والظاهر أنّ هذه الجملة إشارة إلى البساتين والأراضي الخاصّة ببني قريظة، والتي لم يكن لأحد الحقّ في دخولها، لأنّ اليهود كانوا يبذلون قصارى جهودهم في سبيل الحفاظ على أموالهم وحصرها فيما بينهم.

ولو أغمضنا، فإنّها تتناسب كثيراً مع أرض «خيبر» التي أخذت من اليهود بعد مدّة ليست بالبعيدة، وأصبحت في حوزة المسلمين، حيث إنّ معركة «خيبر» وقعت في السنة السابعة للهجرة.

بحوث

١ - غزوة بني قريظة ودوافعها

إنّ القرآن الكريم يشهد بأنّ الدافع الأساس لهذه الحرب هو دعم يهود بني قريظة لمشركي العرب ومساندتهم في حرب الأحزاب، لأنّه يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾.

إضافةً إلى أنّ اليهود في المدينة كانوا يعتبرون الطابور الخامس لأعداء الإسلام، وكانوا مجدّين في الإعلام المضادّ للإسلام، ويغتنمون كلّ فرصة مناسبة للبطش بالمسلمين والفتك بهم.

وكما قلنا سابقاً، فإنّ هذه الطائفة هي الوحيدة من الطوائف الثلاث (بنو القينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة) التي بقيت في المدينة عند نشوب معركة الأحزاب، فقد طردت الطائفتان الأوّليان في السنة الثّانية والرّابعة للهجرة، وكان يجب أن تعاقب هذه الطائفة على أعمالها الخبيثة وجرائمها، لأنّها كانت أوقح من الجميع وأكثر علانية في نقضها لميثاقها واتّصالها بأعداء الإسلام.

٢ - أحداث غزوة بني قريظة

قلنا: إنّ النّبي ﷺ قد أمر بعد انتهاء معركة الأحزاب مباشرةً أن يحاسب بني قريظة على أعمالهم، ويقال: إنّ المسلمين قد تعجّلوا الوصول إلى حصون بني قريظة بحيث إنّ البعض قد غفل عن صلاة العصر فاضطّروا إلى قضائها فيما بعد، فقد أمر النّبي ﷺ أن

تحاصر حصونهم، ودام الحصار خمسة وعشرين يوماً، وقد ألقى الله عَزَّوَجَلَّ الرعب الشديد في قلوب اليهود، كما يتحدّث القرآن عن ذلك.

فقال «كعب بن أسد» - وكان من زعماء اليهود -: إنّي على يقين من أنّ محمّداً لن يتركنا حتى يقاتلنا، وأنا أقترح عليكم ثلاثة أُمور اختاروا أحدها:

إمّا أن نبايع هذا الرجل ونؤمن به ونتّبعه، فإنّه قد ثبت لكم أنّه نبي الله، وأنتم تجدون علاماته في كتبكم، وعند ذلك ستُصان أرواحكم وأموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، فقالوا: لا نرجع عن حكم التوراة أبداً، ولا نقبل بدلها شيئاً.

قال: فإذا رفضتم ذلك، فتعالوا نقتل نساءنا وأبناءنا بأيدينا حتى يطمئن بالنا من قبلهم، ثمّ نسلّ السيوف ونقاتل محمّداً وأصحابه ونرى ما يريده الله، فإن قُتلنا لم نقلق على أبنائنا ونسائنا، وإن انتصرنا فما أكثر النساء والأولاد. فقالوا: أنقتل هؤلاء المساكين بأيدينا؟! إذن لا خير في حياتنا بعدهم.

قال كعب بن أسد: فإن أبيتم هذا أيضاً فإنّ الليلة ليلة السبت، وإنّ محمّداً وأصحابه يظنون أنّنا لا نهجم عليهم الليلة، فهلمّوا نبيّتهم ونباغتهم ونحمل عليهم لعلّنا ننتصر عليهم. فقالوا: لا نفعل ذلك، لأنّا لا نهتك حرمة السبت أبداً.

فقال كعب: ليس فيكم رجل يعقل ليلة واحدة منذ ولدته أُمّه.

بعد هذه الحادثة طلبوا من النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يرسل إليهم «أبا لبابة» ليتشاوروا معه، فلمّا أتاهم ورأى أطفال اليهود يبكون أمامه رقّ قلبه، فقال الرجال: أترى لنا أن نخضع لحكم محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؟ فقال أبو لبابة: نعم، وأشار إلى نحره، أي إنّه سيقتلكم جميعاً!

يقول أبو لبابة: ما إن تركتهم حتى انتبهت لخيانتي، فلم آت النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مباشرةً، بل ذهبت إلى المسجد وأوثقت نفسي بعمود فيه وقلت: لن أبرح مكاني حتى يقبل الله توبتي، فقبل الله توبته لصدقه وغفر ذنبه وأنزل ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾(1).

وأخيراً اضطرّ بنو قريظة إلى أن يستسلموا بدون قيد أو شرط، فقال النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «ألا ترضون أن يحكم فيكم سعد بن معاذ»؟ قالوا: بلى، فقال سعد: قد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم.

ثمّ أخذ سعد الإقرار من اليهود مجدّداً بأنّهم يقبلون بما يحكم، وبعدها التفت إلى

(1) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.

حيث كان النّبي ﷺ واقفاً فقال: حكمي فيهم نافذ؟ قال: نعم، فقال: إنّني أحكم بقتل رجالهم المحاربين، وسبي نسائهم وذراريهم، وتقسيم أموالهم.

وقد أسلم جمع من هؤلاء فنجوا[1].

٣ - نتائج غزوة بني قريظة

إنّ الانتصار على أُولئك القوم الظالمين العنودين قد حمل معه نتائج مثمرة للمسلمين، ومن جملتها:

أ - تطهير الجبهة الداخلية للمدينة، واطمئنان المسلمين وتخلّصهم من جواسيس اليهود.

ب - سقوط آخر دعامة لمشركي العرب في المدينة، وقطع أملهم من إثارة القلاقل والفتن داخلياً.

ج - تقوية بنية المسلمين المالية بواسطة غنائم هذه الغزوة.

د - فتح آفاق جديدة للانتصارات المستقبلية، وخاصة فتح «خيبر».

هـ - تثبيت مكانة الحكومة الإسلامية وهيبتها في نظر العدوّ والصديق، في داخل المدينة وخارجها.

٤ - الآيات وتعبيراتها العميقة!

إنّ من جملة التعبيرات التي تلاحظ في الآيات أعلاه أنّها تقول في مورد قتلى هذه الحرب: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ أي أنّها قدّمت ﴿فَرِيقًا﴾ على ﴿تَقْتُلُونَ﴾ في حين أنّها أخّرت ﴿فَرِيقًا﴾ عن الفعل «تأسرون»!

وقال بعض المفسّرين في تفسير ذلك: إنّ سبب هذا التعبير هو التأكيد على الأشخاص في مسألة القتلى، لأنّ رؤساءهم كانوا في جملة القتلى، أمّا الأسرى فإنّهم لم يكونوا أُناساً معروفين ليأتي التأكيد عليهم، إضافةً إلى أنّ هذا التقديم والتأخير أدّى إلى أن يقترن «القتل والأسر» - وهما عاملا الانتصار على العدوّ - ويكون أحدهما إلى جنب الآخر، مراعاة للانسجام بين الأمرين أكثر.

وكذلك ورد إنزال اليهود من «صياصيهم» قبل جملة: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ في حين أنّ الترتيب الطبيعي على خلاف ذلك، أي أنّ الخطوة الأُولى هي إيجاد الرعب،

(١) سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٢٤٤ وما بعدها، والكامل لابن الأثير، ج٢، ص١٨٥ وما بعدها بتلخيص.

ثمّ إنزالهم من الحصون المنيعة، وسبب هذا التقديم والتأخير هو أنّ المهمّ بالنسبة للمسلمين، والمفرّح لهم، والذي كان يشكّل الهدف الأصلي هو تحطيم هذه القلاع المحصّنة جدّاً.

والتعبير بـ ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ﴾ يبيّن حقيقة أنّ الله سبحانه قد سلّطكم على أراضيهم وديارهم وأموالهم دون أن تبذلوا كثير جهد في هذه الغزوة.

وأخيراً فإنّ التأكيد على قدرة الله عزّوجلّ في آخر آية: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ إشارة إلى أنّه سبحانه قد هزم الأحزاب بالرياح والعواصف والجنود الغيبيين يوماً، وهزم ناصريهم - أي يهود بني قريظة - بجيش الرعب والخوف يوماً آخر.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

سبب النّزول

ذكر المفسّرون أسباب نزول عديدة للآيات أعلاه، وهي لا تختلف عن بعضها كثيراً من جهة النتيجة.

ويستفاد من أسباب النّزول هذه أنّ نساء النّبي قد طلبن منه طلبات مختلفة فيما يتعلّق بزيادة النفقة، أو لوازم الحياة المختلفة، بعد بعض الغزوات التي وفّرت للمسلمين غنائم كثيرة.

وطبقاً لنقل بعض التفاسير فإنّ «أُمّ سلمة» طلبت من النّبي صلى الله عليه وآله وسلم خادماً لها، وطلبت «ميمونة» حلّة، وأرادت «زينب بنت جحش» قماشاً يمنياً خاصّاً، و«حفصة» لباساً مصرياً، و«جويرية» لباساً خاصّاً، و«سودة» بساطاً خيبرياً! والنتيجة أنّ كلّاً منهنّ طلبت شيئاً، فامتنع النّبي صلى الله عليه وآله وسلم عن تلبية طلباتهنّ، وهو يعلم أنّ الاستسلام أمام هذه الطلبات

التي لا تنتهي سيحمل معه عواقب وخيمة، واعتزلهنّ شهراً، فنزلت الآيات أعلاه وخاطبتهنّ بنبرة التهديد والحزم الممتزج بالرأفة والرحمة، بأنكنّ إن كنتنّ تردن حياة مملوءة بزخارف الدنيا وزبارجها فبإمكانكن الانفصال عن النّبي ﷺ والذهاب إلى حيث تردن، وإن فضّلتنّ علاقتكنّ بالله ورسوله واليوم الآخر، واقتنعتنّ بحياة النّبي ﷺ البسيطة والباعثة على الفخر، فابقين معه، وتنعمنّ بمواهب الله العظيمة.

بهذا الجواب القاطع أجابت الآيات نساء النّبي اللائي كن يتوقعن رفاهية العيش، وخيّرتهنّ بين «البقاء» مع النّبي ﷺ و«مفارقته».

التّفسير

إمّا السعادة الخالدة أو زخارف الدنيا!

لم يعزب عن أذهانكم أنّ الآيات الأُولى من هذه السورة قد توّجت نساء النّبي بتاج الفخر حيث سمّتهنّ بـ (أُمّهات المؤمنين) ومن البديهي أنّ المناصب والمقامات الحسّاسة التي تبعث على الفخر تصاحبها مسؤوليات ثقيلة، فكيف يمكن أن تكون نساء النّبي أُمّهات المؤمنين وقلوبهنّ وأفكارهنّ مشغولة بحبّ الدنيا ومغرياتها؟

وهكذا ظَنَّ، فإنّ الغنائم إذا سقطت في أيدي المسلمين فلا شكّ أنّ نصيبهنّ سيكون أفخرها وأثمنها كبقيّة نساء الملوك والسلاطين، ويعطى لهنّ ما ناله المسلمون بتضحيات الفدائيين الثائرين ودماء الشهداء الطاهرة، في الوقت الذي يعيش هنا وهناك أُناس في غاية العسرة والشظف.

وبغضّ النظر عن ذلك، فإنّ النّبي ﷺ يجب أن لا يكون لوحده أُسوةً للناس بحكم الآيات السابقة، بل يجب أن تكون عائلته أُسوة لباقي العوائل أيضاً، ونساؤه قدوة للنساء المؤمنات حتى تقوم القيامة، فليس النّبي ﷺ ملكاً وإمبراطوراً ليكون له جناح خاصّ للنساء، ويُغرق نساءه بالحليّ والمجوهرات الثمينة النفيسة.

وربّما كان هناك جماعة من المسلمين المهاجرين الذين وردوا المدينة لا يزالون يقضون ليلهم على الصُّفّة (وهي مكان خاصّ كان إلى جنب مسجد النّبي) حتى الصباح، ولم يكن لهم في تلك المدينة أهل ولا دار، وفي مثل هذه الأحوال لا يمكن أن يسمح النّبي ﷺ لأزواجه أن يتوقّعن كلّ تلك الرفاهية والتوقّعات الأُخرى.

ويستفاد من بعض الرّوايات أنّ بعض أزواجه قد كلّمنه بكلام خشن جاف، حتى أنّهنّ قلن: لعلّك تظنّ إن طلّقتنا لا نجد زوجاً من قومنا غيرك(١)، هنا أُمر النّبي ﷺ أن يواجه هذه المسألة بحزم تامّ، ويوضّح لهنّ حاله الدائمي، فخاطبت الآية الأُولى من الآيات أعلاه النّبي ﷺ وقالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ من مادّة متع، وكما قلنا في الآية (٢٣٦) من سورة البقرة، فإنّها تعني الهدية التي تلائم أحوال المرأة، والمراد هنا المقدار المناسب الذي يُضاف على المهر، وإن لم يكن المهر معيّناً فإنّه يعطيها هدية لائقة بحالها بحيث ترضيها وتسرّها، ويتمّ طلاقها وفراقها في جوّ هادىء مفعم بالحبّ.

«السراح» في الأصل من مادّة (سرح) أي الشجرة التي لها ورق وثمر، و«سرّحت الإبل»، أي: أطلقتها لتأكل من الأعشاب وأوراق الشجر، ثمّ أطلقت بمعنى أوسع على كلّ نوع من السراح ولكلّ شيء وشخص، وتأتي أحياناً كناية عن الطلاق، ويطلق (تسريح الشعر) على تمشيط الشعر وترجيله، وفيه معنى الإطلاق أيضاً، وعلى كلّ حال فإنّ المراد من «السراح الجميل» في الآية طلاق النساء وفراقهنّ فراقاً مقترناً بالإحسان، وليس فيه جبر وقهر.

وللمفسّرين وفقهاء المسلمين هنا بحث مفصّل في أنّه هل المراد من هذا الكلام أنّ النّبي ﷺ قد خيّر نساءه بين البقاء والفراق، وإذا ما انتخبن الفراق فإنّه يعتبر طلاقاً بحدّ ذاته فلا يحتاج إلى إجراء صيغة الطلاق، أم أنّ المراد هو أنّهنّ يخترن أحد السبيلين، فإن أردن الفراق أجرى النّبي ﷺ صيغة الطلاق، وإلاّ يبقين على حالهنّ؟

ولا شكّ أنّ الآية لا تدلّ على أيّ من هذين الأمرين، وما تصوّره البعض من أنّ الآية شاهد على تخيير نساء النّبي، وعدّوا هذا الحكم من مختصّات النّبي ﷺ، لأنّه لا يجري في سائر الناس، لا يبدو صحيحاً، بل إنّ الجمع بين الآية أعلاه وآيات الطلاق يوجب أن يكون المراد الفراق عن طريق الطلاق.

وهذه المسألة مورد نقاش بين فقهاء الشيعة والسنّة، إلاّ أنّ القول الثّاني - أي الفراق عن طريق الطلاق - يبدو أقرب لظواهر الآيات، إضافةً إلى أنّ لتعبير ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾

---

(١) كنز العرفان، ج ٢، ص٢٣٨.

ظهوراً في أنّ النبي ﷺ كان يقدّم على تسريحهنّ، خاصّة وأنّ مادّة «التسريح» قد استعملت بمعنى الطلاق في موضع آخر من القرآن الكريم (سورة البقرة/ الآية ٢٢٩)[١].

وتضيف الآية التالية: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

لقد جمعت هذه الآية كلّ أُسس الإيمان وسلوكيات المؤمن، فمن جهة عنصر الإيمان والاعتقاد بالله والرّسول واليوم الآخر، ومن جهة أُخرى البرنامج العملي وكون الإنسان في صفّ المحسنين والمحسنات، وبناءً على هذا فإنّ إظهار عشق الله وحبّه، والتعلّق بالنّبي واليوم الآخر لا يكفي لوحده، بل يجب أن تنسجم البرامج العملية مع هذا الحبّ والعشق.

وبهذا فقد بيّن الله سبحانه تكليف نساء النّبي وواجبهنّ في أن يكنّ قدوة وأُسوة للمؤمنات على الدوام، فإن هنّ تحلين بالزهد وعدم الاهتمام بزخارف الدنيا وزينتها، واهتممن بالإيمان والعمل الصالح وتسامي الروح، فإنّهن يبقين أزواجاً للنّبي ويستحقّنّ هذا الفخر، وإلاّ فعليهنّ مفارقته والبون منه.

ومع أنّ المخاطب في هذه الآية هو نساء النّبي إلاّ أنّ محتوى الآيات ونتيجتها تشمل الجميع، وخاصّة من كان في مقام قيادة الناس وإمامتهم وأُسوة لهم، فإنّ هؤلاء على مفترق الطرق دائماً، فإمّا أن يستغلّوا المنصب الظاهري للوصول إلى الحياة المادية المرفّهة، أو البقاء على حرمانهم لنوال رضى الله سبحانه وهداية خلقه.

ثمّ تتناول الآية التالية بيان موقع نساء النّبي أمام الأعمال الصالحة والطالحة، وكذلك مقامهنّ الممتاز، ومسؤولياتهنّ الضخمة بعبارات واضحة، فتقول: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

فأنتنّ تعشن في بيت الوحي ومركز النبوّة، وعلمكنّ بالمسائل الإسلامية أكثر من عامّة الناس لارتباطكنّ المستمر بالنّبي ﷺ ولقائه، إضافةً إلى أنّ الآخرين ينظرون إليكنّ ويتّخذون أعمالكنّ نموذجاً وقدوة لهم، بناءً على هذا فإنّ ذنبكنّ أعظم عند الله، لأنّ الثواب والعقاب يقوم على أساس المعرفة، ومعيار العلم، وكذلك مدى تأثير ذلك العمل في البيئة، فإنّ لكُنَّ حظّاً أعظم من العلم، ولكُنّ موقع حسّاس له تأثيره في المجتمع.

---

(١) طالع التوضيح الأكثر في هذا الباب في الكتب الفقهية، وخاصة كتاب الجواهر، ج ٢٩، ص ١٢٢ وما بعدها.

ويضاف إلى ذلك أنّ مخالفتكنّ تؤذي النّبي ﷺ من جهة، ومن جهة أُخرى توجّه ضربة إلى كيانه ومركزه، ويعتبر هذا بحدّ ذاته ذنباً آخر، ويستوجب عذاباً آخر.

والمراد من «الفاحشة المبيّنة» الذنوب العلنية، ونعلم أنّ المفاسد التي تنجم عن الذنوب التي يقترفها أُناس مرموقون تكون أكثر حينما تكون علنية.

ولنا بحث في مورد «الضعف» و«المضاعف» سيأتي في البحوث.

أمّا قوله عزّوجلّ: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ فهو إشارة إلى أن لا تظنّن أنّ عذابكنّ وعقابكنّ عسير على الله تعالى، وأنّ علاقتكنّ بالنّبي ﷺ ستكون مانعة منه، كما هو المتعارف بين الناس حيث يغضّون النظر عن ذنوب الأصدقاء والأقرباء، أو يعيرونها أهميّة قليلة... كلاّ، فإنّ هذا الحكم سيجري في حقّكنّ بكلّ صرامة.

أمّا في الطرف المقابل، فتقول الآية: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾.

﴿يَقْنُتْ﴾ من القنوت، وهو يعني الطاعة المقرونة بالخضوع والأدب[1]، والقرآن يريد بهذا التعبير أن يأمرهنّ بأن يطعن الله ورسوله، ويراعين الأدب مع ذلك تماماً.

ونواجه هنا هذه المسألة مرّة أُخرى، وهي أنّ مجرّد ادّعاء الإيمان والطاعة لا يكفي لوحده، بل يجب أن تُلمس آثاره بمقتضى ﴿وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾.

«الرزق الكريم» له معنى واسع يتضمّن كلّ المواهب المادية والمعنوية، وتفسيره بالجنّة باعتبارها مجمعاً لكلّ هذه المواهب.

بحث

لماذا يضاعف ثواب وعقاب المرموقين؟

قلنا: إنّ هذه الآيات وإن كانت تتحدّث عن نساء النّبي بأنّهنّ إن أطعن الله فلهنّ أجر مضاعف، وإن ارتكبن ذنباً مبيّناً فلهنّ عذاب الضعف بما اكتسبن، إلاّ أنّ الملاك والمعيار الأصلي لما كان امتلاك المقام والمكانة المرموقة، والشخصية الاجتماعية البارزة، فإنّ هذا الحكم صادق في حقّ الأفراد الآخرين الذين لهم مكانة ومركز اجتماعي مهمّ.

(١) المفردات للراغب، مادّة قنت.

إنّ مثل هؤلاء الأفراد لا يرتبط سلوكهم وتصرفاتهم بهم خاصّة، بل إنّ لوجودهم بُعدين: بُعدٌ يتعلّق بهم، وبُعدٌ يرتبط بالمجتمع، ويمكن أن يكون نمط حياتهم سبباً لهداية جماعة من الناس، أو ضلال أُخرى.

بناءً على هذا فإنّ لأعمالهم أثرين: أحدهما فردي، والآخر اجتماعي، ولكلّ منهما ثواب وعقاب بهذا اللحاظ، ولذلك نقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد»[1]!

ومضافاً إلى ذلك، فإنّ العلاقة وثيقة بين مستوى العلمية ومقدار الثواب والعقاب، كما ورد ذلك في بعض الأحاديث الشريفة، حيث نقرأ: «إنّ الثواب على قدر العقل»[2].

وجاء في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام: «إنّما يداقّ الله العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا»[3].

بل ورد في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: إذا بلغت النفس هاهنا - وأشار بيده إلى حلقه - لم يكن للعالم توبة، ثمّ قرأ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾[4].

ومن هنا يتّضح أنّه ربّما كان معنى المضاعف والمرتين هنا هو الزيادة، فقد تكون ضعفين حيناً، وتكون أضعافاً مضاعفة حيناً آخر، تماماً كما في الأعداد التي لها صفة التكثير، خاصّة وأنّ الراغب يقول في مفرداته في معنى الضعف: ضاعفته: ضممت إليه مثله فصاعداً - تأمّلوا بدقّة -.

والرواية التي ذكرناها قبل قليل حول التفاوت بين ذنب العالم والجاهل إلى سبعين ضعفاً شاهد آخر على هذا الادّعاء.

إنّ تعدّد مراتب الأشخاص واختلاف تأثيرهم في المجتمع نتيجة اختلاف مكاناتهم الاجتماعية، وكونهم أُسوة يوجب أن يكون الثواب والعقاب الإلهي بتلك النسبة.

وننهي هذا البحث بحديث عن الإمام السجّاد عليّ بن الحسين عليه السلام، وذلك أنّ رجلاً قال له: إنّكم أهل بيت مغفور لكم، فغضب الإمام وقال: «نحن أحرى أن يجري

---

(١) أُصول الكافي، ج ١، ص ٣٧ باب لزوم الحجّة على العالم.

(٢-٣) أُصول الكافي، ج ١، ص ٩ كتاب العقل والجهل.

(٤) أُصول الكافي، ج ١، ص ٣٨ باب لزوم الحجّة على العالم، والآية (١٧) من سورة النساء.

فينا ما أجرى الله في أزواج النّبي ﷺ من أن نكون كما تقول، إنّا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر، ولمسيئنا ضعفين من العذاب، ثمّ قرأ الآيتين»(١).

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

التّفسير

هكذا يجب أن تكون نساء النّبي!

كان الكلام في الآيات السابقة عن موقع نساء النّبي ومسؤولياتهنّ الخطيرة، ويستمرّ هذا الحديث في هذه الآيات، وتأمر الآيات نساء النّبي ﷺ بسبعة أوامر مهمّة.

فيقول سبحانه في مقدّمة قصيرة: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾ فإنّ انتسابكنّ إلى النّبي من جانب، ووجودكنّ في منزل الوحي وسماع آيات القرآن وتعليمات الإسلام من جانب آخر، قد منحكنّ موقعاً خاصّاً بحيث تقدرن على أن تكنّ نموذجاً وقدوة لكلّ النساء، سواء كان ذلك في مسير التقوى أم مسير المعصية، وبناءً على هذا ينبغي أن تدركن موقعكنّ، ولا تنسين مسؤولياتكنّ الملقاة على عاتقكنّ، واعلمن أنّكنّ إن اتقيتنّ فلكنّ عند الله المقام المحمود.

وبعد هذه المقدّمة التي هيّأتهنّ لتقبّل المسؤوليات وتحمّلها، فإنّه تعالى أصدر أوّل أمر في مجال العفّة، ويؤكّد على مسألة دقيقة لتتّضح المسائل الأُخرى في هذا المجال تلقائياً، فيقول:

﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ بل تكلّمن عند تحدثكنّ بجدّ وبأُسلوب

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٥٤ ذيل الآية مورد البحث.

عاديّ، لا كالنساء المتميّعات اللائي يسعين من خلال حديثهنّ المليء بالعبارات المحرّكة للشهوة، والتي قد تقترن بترخيم الصوت وأداء بعض الحركات المهيّجة، أن يدفعن ذوي الشهوات إلى الفساد وارتكاب المعاصي.

إنّ التعبير بـ ﴿ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ تعبير بليغ جدّاً، ومؤدّ لحقيقة أنّ الغريزة الجنسية عندما تكون في حدود الاعتدال والمشروعية فهي عين السلامة، أمّا عندما تتعدّى هذا الحدّ فإنّها ستكون مرضاً قد يصل إلى حدّ الجنون، والذي يعبّرون عنه بالجنون الجنسي، وقد فصّل العلماء اليوم أنواعاً وأقساماً من هذا المرض النفسي الذي يتولّد من طغيان هذه الغريزة، والخضوع للمفاسد الجنسية والبيئات المنحطّة الملوّثة.

ويبيّن الأمر الثّاني في نهاية الآية فيقول عَزَّوَجَلَّ: يجب عليكنّ التحدّث مع الآخرين بشكل لائق ومرضي لله ورسوله، ومقترناً مع الحقّ والعدل: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

إنّ جملة ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ إشارة إلى طريقة التحدّث، وجملة: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ إشارة إلى محتوى الحديث.

«القول المعروف» له معنى واسع يتضمّن كلّ ما قيل، إضافةً إلى أنّه ينفي كلّ قول باطل لا فائدة فيه ولا هدف من ورائه، وكذلك ينفي المعصية وكلّ ما خالف الحقّ.

ثمّ إنّ الجملة الأخيرة قد تكون توضيحاً للجملة الأُولى لئلاّ يتصوّر أحد أنّ تعامل نساء النّبي مع الأجانب يجب أن يكون مؤذياً وبعيداً عن الأدب الإسلامي، بل يجب أن يتعاملن بأدب يليق بهنّ، وفي الوقت نفسه يكون خالياً من كلّ صفة مهيّجة.

ثمّ يصدر الأمر الثالث في باب رعاية العفّة، فيقول: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

«قرن» من مادّة الوقار، أي الثقل، وهو كناية عن التزام البيوت. واحتمل البعض أن تكون من مادّة (القرار)، وهي لا تختلف عن المعنى الأوّل كثيراً[1].

و«التبرّج» يعني الظهور أمام الناس، وهو مأخوذ من مادّة (برج)، حيث يبدو ويظهر لأنظار الجميع.

لكن ما هو المراد من «الجاهلية»؟

الظاهر أنّها الجاهلية التي كانت في زمان النّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ولم تكن النساء محجّبات

(١) طبعاً يكون فعل الأمر (أقررن) في صورة كونها من مادّة القرار، وحذفت الراء الأُولى للتخفيف، وانتقلت فتحة الراء إلى القاف، ومع وجودها لا نحتاج إلى الهمزة، وتصبح (قرن) (تأمّلوا جيّداً).

حينها كما ورد في التواريخ، وكنّ يلقين أطراف خمرهن على ظهورهنّ مع إظهار نحورهنّ وجزء من صدورهنّ وأقراطهنّ وقد منع القرآن الكريم أزواج النّبي من مثل هذه الأعمال.

ولا شكّ أنّ هذا الحكم عامّ، والتركيز على نساء النّبي من باب التأكيد الأشدّ، تماماً كما نقول لعالم: أنت عالم فلا تكذب، فلا يعني هذا أنّ الكذب مجاز ومباح للآخرين، بل المراد أنّ العالم ينبغي أن يتّقي هذا العمل بصورة آكد.

إنّ هذا التعبير يبيّن أنّ جاهلية أُخرى ستأتي كالجاهلية الأُولى التي ذكرها القرآن، ونحن نرى اليوم آثار هذا التنبّؤ القرآني في عالم التمدّن المادّي، إلاّ أنّ المفسّرين القدامى لم يتنبّؤوا ويعلموا بمثل هذا! الأمر، لذلك فقد جهدوا في تفسير هذه الكلمة، ولذلك اعتبر البعض منهم الجاهلية الأُولى هي الفاصلة بين «آدم» و«نوح»، أو الفاصلة بين عصر «داود» و«سليمان» حيث كانت النساء تخرج بثياب يتّضح منها البدن، وفسّروا الجاهلية العربية قبل الإسلام بالجاهلية الثّانية!

ولكن لا حاجة إلى هذه الكلمات كما قلنا، بل الظاهر أنّ الجاهلية الأُولى هي الجاهلية قبل الإسلام، والتي أُشير إليها في موضع آخر من القرآن الكريم - في الآية (١٤٣) من سورة آل عمران، والآية (٥٠) من سورة المائدة، والآية (٢٦) من سورة الفتح - والجاهلية الثّانية هي الجاهلية التي ستكون فيما بعد، كجاهلية عصرنا. وسنبسط الكلام حول هذا الموضوع في بحث الملاحظات.

وأخيراً يصدر الأمر الرابع والخامس والسادس، فيقول سبحانه: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

إذا كانت الآية قد أكّدت على الصلاة والزكاة من بين العبادات، فإنّما ذلك لكون الصلاة أهمّ وسائل الاتّصال والارتباط بالخالق عَزَّوَجَلَّ ، وتعتبر الزكاة علاقة متينة بخلق الله، وهي في الوقت نفسه عبادة عظيمة. وأمّا جملة: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فإنّه حكم كلّي يشمل كلّ البرامج الإلهية.

إنّ هذه الأوامر الثلاثة تشير إلى أنّ الأحكام المذكورة ليست مختصّة بنساء النّبي، بل هي للجميع، وإن أكّدت عليهنّ.

ويضيف الله سبحانه في نهاية الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

إنّ التعبير بـ ﴿إِنَّمَا﴾ والذي يدلّ على الحصر عادةً - دليل على أنّ هذه المنقبة خاصّة بأهل بيت النّبي ﷺ. وجملة ﴿يُرِيدُ﴾ إشارة إلى إرادة الله التكوينية، وإلاّ فإنّ الإرادة التشريعية - وبتعبير آخر لزوم تطهير أنفسهم - لا تنحصر بأهل بيت النّبي ﷺ، فإنّ كلّ الناس مكلّفون بأن يتطهّروا من كلّ ذنب ومعصية.

من الممكن أن يقال: إنّ الإرادة التكوينية توجب أن يكون ذلك جبراً، إلاّ أنّ جواب ذلك يتّضح من ملاحظة البحوث التي أوردناها في مسألة كون الأنبياء والأئمّة معصومين، ويمكن تلخيص ذلك هنا بأنّ للمعصومين أهلية اكتسابية عن طريق أعمالهم، ولهم لياقة ذاتية موهوبة لهم من قبل الله سبحانه، ليستطيعوا أن يكونوا أُسوة للناس.

وبتعبير آخر فإنّ المعصومين نتيجة للرعاية الإلهية وأعمالهم الطاهرة، لا يقدمون على المعصية مع امتلاكهم القدرة والاختيار في إتيانها، تماماً كما لا نرى عاقلاً يرفع جمرة من النار ويضعها في فمّه، مع أنّه غير مجبر ولا مكره على الامتناع عن هذا العمل، فهذه الحالة تنبعث من أعماق وجود الإنسان نتيجة المعلومات والاطلاع، والمبادىء الفطرية والطبيعية، من دون أن يكون في الأمر جبر وإكراه.

ولفظة «الرجس» تعني الشيء القذر، سواء كان نجساً وقذراً من ناحية طبع الإنسان، أو بحكم العقل أو الشرع، أو جميعها[1]، وما ورد في بعض الأحيان من تفسير «الرجس» بالذنب أو الشرك أو البخل والحسد، أو الاعتقاد بالباطل، وأمثال ذلك، فإنّه في الحقيقة بيان لمصاديقه، وإلاّ فإنّ مفهوم هذه الكلمة عامّ وشامل لكلّ أنواع الحماقات بحكم (الألف واللام) التي وردت هنا، والتي تسمّى بألف ولام الجنس.

و«التطهير» الذي يعني إزالة النجس، هو تأكيد على مسألة إذهاب الرجس ونفي السيّئات، ويعتبر ذكره هنا بصيغة المفعول المطلق تأكيداً آخر على هذا المعنى.

وأمّا تعبير ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ فإنّه إشارة إلى أهل بيت النّبي ﷺ باتّفاق علماء الإسلام والمفسّرين، وهو الشيء الذي يُفهم من ظاهر الآية، لأنّ البيت وإن ذكر هنا بصيغة مطلقة، إلاّ أنّ المراد منه بيت النّبي ﷺ بقرينة الآيات السابقة واللاحقة[2].

---

(١) ذكر الراغب في مفرداته، في مادّة (رجس) المعنى المذكور أعلاه، وأربعة أنواع كمصاديق له.

(٢) ما ذكره البعض من أنّ «البيت» هنا إشارة إلى بيت الله الحرام، وأهله هم «المتّقون» لا يتناسب مطلقاً مع سياق الآيات، لأنّ الكلام في هذه الآيات عن النّبي ﷺ وأزواجه، لا عن بيت الله الحرام، ولا يوجد أيّ دليل على قولهم.

إلاّ أنّ هناك اختلافاً في المقصود بأهل بيت النّبي هنا؟

اعتقد البعض أنّ هذا التعبير مختّص بنساء النّبي، لأنّ الآيات السابقة واللاحقة تتحدّث حول أزواج رسول الله ﷺ، فاعتبروا ذلك قرينة على مدّعاهم.

غير أنّ الانتباه إلى مسألة في الآية ينفي هذا الادّعاء، وهي: أنّ الضمائر التي وردت في الآيات السابقة واللاحقة، جاءت بصيغة ضمير النسوة، في حين أنّ ضمائر هذه القطعة من الآية قد وردت بصيغة جمع المذكر، وهذا يوحي بأنّ هناك معنى آخر هو المراد، ولذلك خطا جمع آخر من المفسّرين خطوة أوسع واعتبروا الآية شاملة لكلّ أفراد بيت النّبي ﷺ رجالاً ونساءً.

ومن جهة أُخرى فإنّ الرّوايات الكثيرة جدّاً الواردة في كتب الفريقين تنفي شمول الآية لكلّ أهل بيت النّبي ﷺ، وتقول: إنّ المخاطبين في الآية هم خمسة أفراد فقط، وهم: محمّد ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ومع وجود النصوص الكثيرة التي تعتبر قرينة على تفسير الآية، فإنّ التّفسير الذي يمكن قبوله هو التّفسير الثالث فقط، أي اختصاص الآية بالخمسة الطيّبة.

والسؤال الوحيد الذي يبقى هنا هو: كيف يمكن أن يطرح مطلب في طيّات البحث في واجبات نساء النّبي ولا يشملهنّ هذا المطلب؟

وقد أجاب المفسّر الكبير العلاّمة «الطبرسي» في مجمع البيان عن هذا السؤال فقال: ليست هذه المرّة الأُولى التي نرى فيها في آيات القرآن أن تتّصل مع بعضها وتتحدّث عن مواضيع مختلفة، فإنّ القرآن مليء بمثل هذه البحوث، وكذلك توجد شواهد كثيرة على هذا الموضوع في كلام فصحاء العرب وأشعارهم.

وأضاف المفسّر الكبير صاحب الميزان جواباً آخر ملخّصه: لا دليل لدينا على أنّ جملة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ...﴾ قد نزلت مع هذه الآيات، بل يستفاد جيّداً من الرّوايات أنّ هذه القطعة قد نزلت منفصلة، وقد وضعها الإمام مع هذه الآيات لدى جمعه آيات القرآن في عصر النّبي ﷺ أو بعده.

والجواب الثالث الذي يمكن أن يجاب به عن هذا السؤال هو: أنّ القرآن يريد أن يقول لزوجات النّبي: إنكنّ بين عائلة بعضها معصومون، والذي يعيش في ظلّ العصمة ومنزل المعصومين فإنّه ينبغي له أن يراقب نفسه أكثر من الآخرين، ولا تنسين أنّ انتسابكنّ إلى بيت فيه خمسة معصومين يلقي على عاتقكنّ مسؤوليات ثقيلة، وينتظر منه الله وعباده انتظارات كثيرة.

وسنبحث في الملاحظات القادمة - إن شاء الله تعالى - روايات السنّة والشيعة الواردة في تفسير هذه الآية.

وبيّنت الآية الأخيرة - من الآيات مورد البحث - سابع وظيفة وآخرها من وظائف نساء النّبي، ونبّهتهن على ضرورة استغلال أفضل الفرص التي تتاح لهنّ في سبيل الإحاطة بحقائق الإسلام والعلم بها وبأبعادها، فتقول: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾.

فإنكنّ في مهبط الوحي، وفي مركز نور القرآن، فحتّى إذا جلستن في البيوت فأنتنّ قادرات على أن تستفدن جيّداً من الآيات التي تدوّي في فضاء بيتكنّ، ومن تعليمات الإسلام وحديث النّبي ﷺ الذي كان يتحدّث به، فإنّ كل نَفَس من أنفاسه درس، وكلّ لفظ من كلامه برنامج حياة!

وفيما هو الفرق بين «آيات الله» و«الحكمة»؟ قال بعض المفسّرين: إنّ كليهما إشارة إلى القرآن، غاية ما في الأمر أنّ التعبير بـ(الآيات) يبيّن الجانب الإعجازي للقرآن، والتعبير بـ(الحكمة) يتحدّث عن المحتوى العميق والعلم المخفي فيه.

وقال البعض الآخر: إنّ «آيات الله» إشارة إلى آيات القرآن، و«الحكمة» إشارة إلى سنّة النّبي ﷺ مواعظه وإرشاداته الحكيمة.

ومع أنّ كلا التّفسيرين يناسب مقام وألفاظ الآية، إلاّ أنّ التّفسير الأوّل يبدو أقرب، لأنّ التعبير بالتلاوة يناسب آيات الله أكثر، إضافةً إلى أنّ تعبير النّزول قد ورد في آيات متعدّدة من القرآن في مورد الآيات والحكمة، كالآية (٢٣١) من سورة البقرة: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ ويشبهه ما جاء في الآية (١١٣) من سورة النساء.

وأخيراً تقول الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ وهي إشارة إلى أنّه سبحانه مطّلع على أدقّ الأعمال وأخفاها، ويعلم نيّاتكم تماماً، وهو خبير بأسراركم الدفينة في صدوركم.

هذا إذا فسّرنا «اللطيف» بالمطّلع على الدقائق والخفيات، وأمّا إذا فسّر بصاحب اللطف، فهو إشارة إلى أنّ الله سبحانه لطيف ورحيم بكنّ يا نساء النّبي، وهو خبير بأعمالكنّ أيضاً.

ويحتمل أيضاً أن يكون التأكيد على «اللطيف» من جانب إعجاز القرآن، وعلى «الخبير» باعتبار محتواه الحِكَمي. وفي الوقت نفسه لا منافاة بين هذه المعاني ويمكن جمعها.

بحوث

١ - آية التطهير برهان واضح على العصمة

اعتبر بعض المفسّرين «الرجس» في الآية المذكورة إشارة إلى الشرك أو الكبائر - كالزنى - فقط، في حين لا يوجد دليل على هذا التحديد، بل إنّ إطلاق الرجس - وخاصّة بملاحظة ألفه ولامه، وهي ألف لام الجنس - يشمل كلّ أنواع الذنوب والمعاصي، لأنّ كلّ المعاصي رجس، ولذلك فإنّ هذه الكلمة أُطلقت في القرآن على الشرك والخمور والقمار والنفاق واللحوم المحرّمة والنجسة وأمثال ذلك.

انظر الآيات: الحجّ - ٣٠، المائدة - ٩٠، التوبة - ١٢٥، الأنعام - ١٤٥.

وبملاحظة أنّ الإرادة الإلهيّة حتمية التنفيذ والوقوع، وأنّ جملة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ﴾ دليل على إرادته الحتمية، وخاصّة بوجود كلمة (إنّما) الدالّة على الحصر والتأكيد، سيتّضح أنّ إرادة الله سبحانه قد قطعت بأن يكون أهل البيت منزّهين عن كلّ رجس وخطأ، وهذا هو مقام العصمة.

وثمّة مسألة تستحقّ الانتباه، وهي أنّه ليس المراد من الإرادة الإلهيّة في هذه الآية الأوامر والأحكام الإلهيّة في مسائل الحلال والحرام، لأنّ هذه الأحكام تشمل الجميع، ولا تختصّ بأهل البيت، وبناءً على هذا فإنّها لا تتناسب مع مفهوم (إنّما).

إذن، فهذه الإرادة المستمرّة نوع من الإمداد الإلهي الذي يعيّن أهل البيت على العصمة والاستمرار فيها، وهي في الوقت نفسه لا تنافي حرية الإرادة والاختيار، كما فصّلنا ذلك سابقاً.

إنّ مفهوم هذه الآية في الحقيقة هو عين ما جاء في الزيارة الجامعة: «عصمكم الله من الزلل، وآمنكم من الفتن، وطهّركم من الدنس وأذهب عنكم الرجس وطهّركم تطهيراً».

وينبغي أن لا نشكّ بعد هذا الإيضاح في دلالة الآية المذكورة على عصمة أهل البيت عليهم السلام.

٢ - فيمن نزلت آية التطهير؟

قلنا: إنّ هذه الآية بالرغم من أنّها وردت ضمن الآيات المتعلّقة بنساء النبي، إلاّ أنّ تغيير سياقها - حيث تبدّل ضمير الجمع المؤنث إلى ضمير الجمع المذكّر - دليل على

أنّ لهذه الآية معنىً ومحتوىً مستقلاً عن تلك الآيات، ولهذا فحتّى أُولئك الذين لم يعتبروا الآية مختّصة بمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ، فإنّهم اعتقدوا أنّ لها معنىً واسعاً يشمل هؤلاء العظام ونساء النّبي صلى الله عليه وآله وسلم .

إلاّ أنّ الرّوايات الكثيرة التي بين أيدينا تبيّن أنّ هذه الآية خاصّة بهؤلاء الأجلاّء، ولا تدخل الزوجات ضمن الآية، بالرغم من أنهنّ يتمتّعن باحترام خاصّ، ونضع بين أيديكم بعضاً من هذه الروايات:

أ: الرّوايات التي رويت عن أزواج النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنفسهنّ، والتي حدّثن فيها: إنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم عندما كان يتحدّث عن هذه الآية الشريفة سألناه: أنحن من أصحاب هذه الآية؟ فكان يجيب: بأنكنّ إلى خير، ولكن لستنّ من أصحابها.

ومن جملتها الرواية التي رواها «الثعلبي» عن «أُمّ سلمة» في تفسيره، وذلك أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم كان في بيتها إذ أتته فاطمة عليها السلام بقطعة حرير، فقال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم : «ادعي لي زوجك وابنيك - الحسن والحسين -» فأتت بهم فطعموا، ثمّ ألقى عليهم النّبي صلى الله عليه وآله وسلم كساءً له خيبرياً وقال: «اللهمّ هؤلاء أهل بيتي وعترتي فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً» فنزلت آية التطهير، فقلت: يارسول الله وأنا معهم؟ قال: «إنّك إلى خير» ولكنّك لست منهم[1].

ويروي «الثعلبي» أيضاً عن «عائشة» أنّها عندما سُئلت عن حرب الجمل وتدخّلها في تلك الحرب المدمّرة الطاحنة، قالت بأسف: كان ذلك قضاء الله، وعندما سئلت عن علي عليه السلام قالت: تسأليني عن أحبّ الناس كان إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وزوج أحبّ الناس كان إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ لقد رأيت علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً عليهم السلام ، وجمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بثوب عليهم ثمّ قال: «اللهمّ هؤلاء أهل بيتي وحامتي فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً» قالت: فقلت: يارسول الله، أنا من أهلك! قال: «تنحّي فإنّك إلى خير»[2] - إلاّ أنّك لست جزءاً منهم -.

إنّ هذه الرّوايات تصرّح أنّ زوجات النّبي صلى الله عليه وآله وسلم لسن جزءاً من أهل البيت في هذه الآية.

(١-٢) روى الطبرسي في تفسير مجمع البيان، ج٨، ص٣٥٧، ذيل الآية مورد البحث، هذا الحديث بهذا المضمون بطرق متعدّدة عن أُمّ سلمة. راجع شواهد التنزيل، للحاكم الحسكاني، ج ٢، ص ٥٦ وما بعدها.

ب: لقد وردت روايات كثيرة جدّاً بصورة مجملة في شأن حديث الكساء، يستفاد منها جميعاً أنّ النّبي ﷺ دعا علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام - أو أنّهم أتوا إليه - فألقى عليهم عباءة وقال: «اللهمّ هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً»، فنزلت الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ...﴾.

وقد روى العالم المعروف «الحاكم الحسكاني النيسابوري» هذه الروايات في (شواهد التنزيل) بطرق مختلفة عن رواة مختلفين(١).

وهنا سؤال يلفت النظر، وهو: ماذا كان الهدف من جمعهم تحت الكساء؟

كأنّ النّبي ﷺ كان يريد أن يحدّد هؤلاء ويعرّفهم تماماً، ويقول: إنّ الآية أعلاه في حقّ هؤلاء خاصّة، لئلاّ يرى أحد أو يظنّ ظانّ أنّ المخاطب في هذه الآية كلّ من تربطه بالنّبي ﷺ قرابة، وكلّ من يعدّ جزءاً من أهله، حتى جاء في بعض الرّوايات أنّ النّبي ﷺ قد كرّر هذه الجملة ثلاث مرّات: «اللهمّ هؤلاء أهل بيتي وخاصّتي فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً»(٢).

ج: نقرأ في روايات عديدة أُخرى أنّ النّبي ﷺ بقي ستّة أشهر بعد نزول هذه الآية ينادي عند مروره من جنب بيت فاطمة سلام الله عليها وهو ذاهب إلى صلاة الصبح: «الصلاة يا أهل البيت! إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً». وقد روى الحاكم الحسكاني هذا الحديث عن أنس بن مالك(٣).

وروى ابن عبّاس أيضاً هذا الحديث عن النّبي ﷺ(٤).

وهنا مسألة تستحقّ الانتباه، وهي أنّ تكرار هذه الأمر ستّة أشهر أو ثمانية أو تسعة أشهر بصورة مستمرّة جنب بيت فاطمة إنّما هو لبيان هذه المسألة تماماً لئلاّ يبقى مجال للشكّ لدى أيّ شخص بأنّ هذه الآية قد نزلت في شأن هؤلاء النفر فقط، خاصّة وأنّ الدار الوحيدة التي بقي بابها مفتوحاً إلى داخل المسجد بعد أن أمر الله نبيّه بأن تغلق جميع أبواب بيوت الآخرين، هي دار فاطمة عليها السلام، ولا شكّ أنّ جماعة من الناس كانوا يسمعون ذلك القول من النّبي ﷺ حين الصلاة هناك - تأمّلوا ذلك -.

ومع ذلك، فإنّ ممّا يثير العجب أنّ بعض المفسّرين يصرّون على أنّ للآية معنىً عامّاً

---

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٣١ وما بعدها. (٢) تفسير الدرّ المنثور ذيل الآية مورد البحث.
(٣) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢٨ و ٢٩. (٤) الدرّ المنثور، ذيل الآية مورد البحث.

تدخل فيه أزواج النّبي، بالرغم من أنّ أكثر علماء الإسلام، السنّة منهم والشيعة، قد حدّدوها بهؤلاء الخمسة.

وممّا يستحقّ الالتفات أنّ عائشة - زوجة النّبي لم تكن تدّع شيئاً في ذكر فضائلها، ودقائق علاقتها بالنّبي ﷺ بشهادة الروايات الإسلامية، فإذا كانت هذه الآية تشملها فلابدّ أنّها كانت ستتحدّث بها في المناسبات المختلفة، في حين لم يرو شيء من ذلك عنها مطلقاً.

د: رويت روايات عديدة عن الصحابي المعروف «أبي سعيد الخدري» تشهد بصراحة بأنّ هذه الآية قد نزلت في شأن هؤلاء الخمسة الأطهار: «نزلت في خمسة: في رسول الله، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين»[١]. وهذه الرّوايات كثيرة بحيث عدّها بعض المحقّقين متواترة.

وممّا قلناه نستنتج أنّ المصادر ورواة الأحاديث التي تدلّ على اختصاص الآية بالخمسة المطهّرة وحصرها بهم كثيرة بحيث لا تدع لأحد المجال للشكّ في هذه الدلالة، حتى أنّه ذُكر في شرح (إحقاق الحقّ) أكثر من سبعين مصدراً من مصادر العامّة المعروفة، وأمّا مصادر الشيعة في هذا الباب فتربو على الألف[٢]. وقد روى صاحب كتاب (شواهد التنزيل) - وهو من علماء الإخوة السنّة المشهورين - أكثر من (١٣٠) حديثاً في هذا الموضوع[٣].

وبغضّ النظر عن كلّ ذلك، فإنّ بعض أزواج النّبي قد قمن بأعمال طوال حياتهنّ تخالف مقام العصمة، ولا تناسب كونهنّ معصومات، كحادثة «حرب الجمل» التي كانت ثورة وخروجاً على إمام الزمان، والتي تسبّبت في إراقة دماء كثيرة، فقد بلغ عدد القتلى في هذه الحرب - عند بعض المؤرخين - سبعة عشر ألف قتيل.

ولا شكّ أنّ هذه المعركة لا يمكن توجيهها، بل إنّنا نرى أنّ عائشة نفسها قد أظهرت الندم بعدها، وقد مرّ نموذج من هذا الندم في البحوث السابقة.

إنّ انتقاص عائشة من خديجة - والتي هي من أعظم نساء المسلمين، وأكثرهنّ تضحية وإيثاراً، وأجلّهنّ فضيلة وقدراً - مشهور في تاريخ الإسلام، وقد آلم هذا الكلام

---

(١) شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢٥.

(٢) يراجع الجزء الثّاني، من إحقاق الحقّ وهوامشه.

(٣) يراجع الجزء الثّاني، من شواهد التنزيل، ص ١٠ - ٩٢.

رسول الله ﷺ حتى ظهرت على وجهه الشريف آثار الغضب وقال: «لا والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدّقتني إذ كذّبني الناس، وواستني في مالها إذ حرمني الناس»(١).

٣ - هل أنّ الإرادة الإلهيّة هنا تكوينية أم تشريعية؟

مرّت الإشارة في طيّات تفسير هذه الآية إلى هذا الموضوع، وقلنا: إنّ الإرادة في جملة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ﴾ إرادة تكوينية لا تشريعية.

ولمزيد التوضيح ينبغي أن نذكّر بأنّ المراد من «الإرادة التشريعية» هي أوامر الله ونواهيه، فنعلم مثلاً أنّ الله سبحانه يريد منّا أداء الصلاة والصوم والحجّ والجهاد، وهذه إرادة تشريعية، ومن المعلوم أنّ الإرادة التشريعية تتعلّق بأفعالنا لا بأفعال الله عزّوجلّ. في حين أنّ الآية أعلاه تتعلّق بأفعال الله سبحانه، فهي تقول: إنّ الله أراد أن يذهب عنكم الرجس، وبناءً على هذا فإنّ مثل هذه الإرادة يجب أن تكون تكوينية، ومرتبطة بإرادة الله سبحانه في عالم التكوين.

إضافةً إلى ذلك، فإنّ مسألة الإرادة التشريعية فيما يتعلّق بالتقوى والعفّة لا تنحصر بأهل البيت عليهم السلام، لأنّ الله قد أمر الجميع بالتقوى والتطهّر من الذنوب، وبذلك لا تكون لهم مزيّة وخاصيّة، لأنّ كلّ المكلّفين مشمولون بهذا الأمر.

وعلى أيّة حال، فإنّ هذا الموضوع - أي الإرادة التشريعيّة - مضافاً إلى أنّه لا يناسب ظاهر الآية، فإنّه لا يتناسب مع الأحاديث السابقة بأيّ وجه من الوجوه، لأنّ كلّ تلك الأحاديث تتحدّث عن فضيلة سامية وهبة مهمّة خاصّة بأهل البيت عليهم السلام.

ومن المسلّم أيضاً أنّ «الرجس» هنا لا يعني الرجس الظاهري، بل هو إشارة إلى الأرجاس الباطنية، وإطلاق هذه الكلمة ينفي انحصارها وكونها محدودة بالشرك والكفر والأعمال المنافية للعفّة وأمثال ذلك، فإنّها تشمل كلّ الذنوب والمعاصي والمفاسد العقائدية والأخلاقية والعملية.

والمسألة الأُخرى التي ينبغي الالتفات إليها بدقّة هي أنّ الإرادة التكوينية التي تعني الخلقة والإيجاد، تعني هنا «المقتضي» لا العلّة التامّة لتكون موجبة للجبر وسلب الاختيار.

---

(١) الاستيعاب، وصحيح البخاري، وصحيح مسلم. طبقاً لنقل المراجعات، ص ٢٢٩ الرسالة ٧٢.

وتوضيح ذلك، إنّ مقام العصمة يعني حالة تقوى الله التي توجد عند الأنبياء والأئمّة بمعونة الله سبحانه، لكن وجود هذه الحالة لا يعني أنّهم غير قادرين على ارتكاب المعصية، بل إنّهم قادرون على إتيانها، غير أنّهم يعفّون أنفسهم ويجلّونها عن التلوّث بها باختيارهم، ويغضّون الطرف عنها طوعاً، تماماً كالطبيب الحاذق الذي لا يتناول مطلقاً مادّة سمّية جدّاً وهو يعلم بالأخطار التي تنجم عن تناولها، ومع أنّه قادر على تناولها، إلاّ أنّ علومه واطلاعه ومبادئه الفكرية والروحية تدفعه إلى الامتناع إرادياً واختياراً عن هذا العمل.

ويجب التذكير بهذه المسألة، وهي أنّ هذه التقوى موهبة خاصّة منحت للأنبياء لا للآخرين، لكن الله سبحانه قد منحهم إيّاها للمسؤوليات الثقيلة الخطيرة الملقاة على عاتقهم في قيادة الناس وإرشادهم، وبناءً على هذا فإنّه امتياز يعود نفعه على الجميع، وهذه عين العدالة، تماماً كالامتياز الخاصّ الذي منحه الله لطبقات العين وأغشيتها الرقيقة والحسّاسة جدّاً، والتي يستفيد منها جميع البدن.

إضافةً إلى أنّ الأنبياء تعظم مسؤولياتهم وواجباتهم بنفس المقدار الذي يتمتّعون بهذه المواهب الإلهيّة والامتيازات، فإنّ ترك الأُولى من قبلهم يعادل ذنباً كبيراً يصدر من الناس العاديين، وهذا معيار وتشخيص لخطّ العدالة.

والنتيجة أنّ هذه الإرادة إرادة تكوينية في حدود المقتضى - وليست علّة تامّة - وهي في الوقت نفسه لا توجب الجبر ولا تسلب الاختيار والإرادة الإنسانية.

٤ - جاهلية القرن العشرين!

مرّت الإشارة إلى أنّ جمعاً من المفسّرين تورّطوا في تفسير (الجاهلية الأُولى) وكأنّهم لم يقدروا أن يصدّقوا ظهور جاهلية أُخرى في العالم بعد ظهور الإسلام، وأنّ جاهلية العرب قبل الإسلام ضئيلة تجاه الجاهلية الجديدة، إلاّ أنّ هذا الأمر قد تجلّى للجميع اليوم، حيث نرى مظاهر جاهلية القرن العشرين المرعبة، ويجب أن تعدّ تلك إحدى تنبؤات القرآن الإعجازية.

إذا كان العرب في زمان الجاهلية يغيرون ويحاربون، وإذا كان سوق عكاظ - مثلاً - ساحة لسفك الدماء لأسباب تافهة عدّة مرّات، وقتل على أثرها أفراد معدودون، فقد وقعت في جاهلية عصرنا حروب ذهب ضحيّتها عشرون مليون إنسان، وجرح وتعوّق أكثر من هذا العدد!

وإذا كانت النساء «تتبرّج» في زمن الجاهلية ويلقين خمرهنّ عن رؤوسهن بحيث كان يظهر جزء من صدورهنّ ونحورهنّ وقلائدهنّ وأقراطهنّ، ففي عصرنا تشكّل نواد تسمّى بنوادي العراة - ونموذجها مشهور في بريطانيا - حيث يتعرّى أفرادها كما ولدتهم أمّهاتهم، وفضائح البلاجات على سواحل البحار والمسابح، بل وحتى في الأماكن العامّة وعلى قارعة الطريق يخجل القلم من ذكرها.

وإذا كانت في الجاهلية «زانيات من ذوات الأعلام»، حيث كنّ يرفعن أعلاماً فوق بيوتهنّ ليدعين الناس إلى أنفسهنّ، ففي جاهلية قرننا أُناس يطرحون أُموراً ومطالب في هذا المجال عبر صحف خاصّة، يندى لها الجبين، ولجاهلية العرب مئة مرتبة من الشرف على هذه الجاهلية.

والخلاصة: ماذا نقول عن وضع المفاسد التي توجد في عصرنا الحاضر... عصر التمدّن المادّي الآلي الخالي من الإيمان، فعدم الحديث عنها أولى، ولا ينبغي أن نلوّث هذا التّفسير بذكرها.

إنّ ما قلناه كان جانباً من العبء الملقى على عاتقنا لبيان حياة الذين يبتعدون عن الله تعالى، فإنّهم وإن امتلكوا آلاف الجامعات والمراكز العلمية والعلماء المعروفين، فهم غارقون في وحل الفساد ومستنقع الرذيلة، بل إنّهم قد يضعون هذه المراكز العلمية وعلماءها في خدمة هذه الفجائع والمفاسد أحياناً.

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾

سبب النّزول

أورد جمع من المفسّرين في سبب نزول هذه الآية انّه عندما رجعت «أسماء بنت عميس» زوجة «جعفر بن أبي طالب» من الحبشة مع زوجها، جاءت إلى زوجات النّبي، فسألتهن: هل نزل فينا شيء من القرآن؟ فقلن: لا، فأتت رسول الله ﷺ فقالت:

«يارسول الله إنّ النساء لفي خيبة وخسار. فقال: وممّ ذلك؟ قالت: لأنّهنّ لا يذكرن بخير كما يذكر الرجال. فأنزل الله تعالى هذه الآية (التي طمأنت النساء بأنّ لهنّ درجة عند الله مساوية للرجال وأكّدت على أنّ المعيار هو العقيدة والعمل والأخلاق الإسلامية).

التّفسير

شخصية المرأة ومكانتها في الإسلام

بعد البحوث التي ذُكرت في الآيات السابقة حول واجبات أزواج النّبي ﷺ، فقد ورد في هذه الآية كلام جامع عميق المحتوى في شأن كلّ النساء والرجال وصفاتهم، وبعد أن ذكرت عشر صفات من صفاتهم العقائدية والأخلاقية والعملية، بيّنت الثواب العظيم المعدّ لهم في نهايتها.

إنّ بعض هذه الصفات العشر تتحدّث عن مراحل الإيمان (الإقرار باللسان والتصديق بالقلب والجنان والعمل بالأركان).

والقسم الآخر يبحث في التحكّم باللسان والبطن والشهوة الجنسية، والتي تشكّل ثلاثة عوامل مصيرية في حياة البشر وأخلاقهم.

وتحدّثت في جانب آخر عن مسألة الدفاع عن المحرومين، والاستقامة أمام الحوادث الصعبة، أي الصبر الذي هو أساس الإيمان.

وأخيراً تتحدّث عن عامل استمرار هذه الصفات، أي «ذكر الله تعالى».

تقول الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾. أي المطيعين لأوامر الله والمطيعات.

وبالرغم من أنّ بعض المفسّرين قد اعتبر الإسلام والإيمان في الآية بمعنى واحد، إلاّ أنّ من الواضح أنّ هذا التكرار يوحي بأنّ المراد منهما شيئان مختلفان، وهو إشارة إلى المطلب الذي ورد في الآية (١٤) من سورة الحجرات: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾!

وهو إشارة إلى أنّ «الإسلام» هو الإقرار باللسان الذي يجعل الإنسان في صفّ المسلمين، ويصبح مشمولاً بأحكامهم، إلاّ أنّ «الإيمان» هو التصديق بالقلب والجنان.

وقد أشارت الرّوايات الإسلامية إلى هذا التفاوت في المعنى، ففي رواية أنّ أحد

أصحاب الإمام الصادق عليه السلام سأله عن الإسلام والإيمان، وهل أنّهما مختلفان؟ فقال الإمام عليه السلام: «إنّ الإيمان يشارك الإسلام، والإسلام لا يشارك الإيمان»، فاستوضح الرجل الإمام أكثر فقال عليه السلام: «الإسلام شهادة أن لا إله إلاّ الله والتصديق برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، به حقنت الدماء، وعليه جرت المناكح والمواريث، وعلى ظاهره جماعة الناس، والإيمان الهدى وما يثبت في القلوب، وما ظهر من العمل به»[1].

«قانت» من مادّة (القنوت)، وهي - كما قلنا سابقاً - الطاعة المقترنة بالخضوع، الطاعة التي تنبع من الإيمان والاعتقاد، وهذه إشارة إلى الجوانب العملية للإيمان وآثاره.

ثمّ تطرقت إلى أحد أهمّ صفات المؤمنين الحقيقيين، أي حفظ اللسان، فتقول: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾.

ويستفاد من الرّوايات أنّ استقامة إيمان الإنسان وصدقه باستقامة لسانه وصدقه: «لا يستقيم إيمان امرىء حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه»[2].

ولمّا كان الصبر والتحمّل والصلابة أمام المشاكل والعقبات هو أساس الإيمان، ودوره ومنزلته في معنويات الإنسان بمنزلة الرأس من الجسد، فقد وصفتهم الآية بصفتهم الخامسة، فقالت: ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾.

ونعلم أنّ أحد أسوأ الآفات الأخلاقية هو الكبر والغرور وحبّ الجاه، والنقطة التي تقع في مقابله هي «الخشوع»، لذلك كانت الصفة السادسة: ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾.

وإذا تجاوزنا حبّ الجاه، فإنّ حبّ المال أيضاً آفةٌ كبرى، وعبادته والتعلّق به ذلّة خطيرة مرّة، ويقابله الإنفاق ومساعدة المحتاجين، لذلك كانت صفتهم السابعة: ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾.

قلنا: إنّ ثلاثة أشياء إذا تخلّص الإنسان من شرّها، فإنّه سيبقى في مأمن من كثير من الآفات والشرور الأخلاقية، وهي: اللسان والبطن والشهوة الجنسية، وقد أُشير إلى الأوّل في الصفة الرّابعة، أمّا الشيء الثّاني والثالث فقد أشارت إليهما الآية في الصفتين الثامنة والتاسعة، فقالت: ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾.

---

(١) أُصول الكافي، ج ٢، ص ٢١ باب أنّ الإيمان يشرك الإسلام.

(٢) المحجّة البيضاء، ج ٥، ص١٩٣.

وأخيراً تطرّقت الآية إلى الصفة العاشرة التي يرتبط بها الاستمرار في كلّ الصفات السابقة والمحافظة عليها، فقالت: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾.

أجل... إنّ هؤلاء يجب أن يكونوا مع الله ويذكروه في كلّ حال، وفي كلّ الظروف، وأن يزيحوا عن قلوبهم حجب الغفلة والجهل، ويبعدوا عن أنفسهم همزات الشياطين ووساوسهم، وإذا ما بدرت منهم عثرة فإنّهم يهبون لجبرانها في الحال لئلاّ يحيدوا عن الصراط المستقيم.

وقد ذكرت تفاسير مختلفة لـ «الذكر الكثير» في الرّوايات وكلمات المفسّرين، وكلّها من قبيل ذكر المصداق ظاهراً، ويشملها جميعاً معنى الكلمة الواسع، ومن جملتها ما نقرؤه في حديث عن النّبي الأكرم ﷺ: «إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فتوضآ وصلّيا كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات»[١].

وفي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «من بات على تسبيح فاطمة عليها السلام كان من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات»[٢].

وقال بعض المفسّرين: إنّ «الذكر الكثير» هو الذكر حال القيام والقعود، وذكر الله عندما يأوي المرء إلى فراشه.

وعلى أي تقدير، فإنّ الذكر علامة الفكر، والفكر مقدّمة للعمل، فليس الهدف هو الذكر الخالي من الفكر والعمل مطلقاً.

ثمّ تبيّن الآية في النهاية الأجر الجزيل لهذه الفئة من الرجال والنساء الذين يتمتّعون بهذه الخصائص العشرة بأنّهم قد ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ فإنّه تعالى قد غسل ذنوبهم التي كانت سبباً في تلوّث أرواحهم، بماء المغفرة، ثمّ كتب لهم الثواب العظيم الذي لا يعرف مقداره إلاّ هو.

والواقع إنّ أحد هذين الأمرين يطرد كلّ المنغّصات، والآخر يجلب كلّ الخيرات.

إنّ التعبير بـ «أجراً» دليل بنفسه على عظمته، ووصفه بـ «العظيم» تأكيد على هذه العظمة، وكون هذه العظمة مطلقة دليل آخر على سعة أطرافها وتراميها، ومن البديهي، أنّ الشيء الذي يعده الله عظيماً يكون خارقاً في عظمته.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٨، ص٣٥٨، وتفسير القرطبي، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج٨، ص٣٥٨، ذيل الآية مورد البحث.

وثمّة مسألة تستحقّ الانتباه، وهي أنّ جملة ﴿أَعَدَّ﴾ قد وردت بصيغة الماضي، وهو بيان لحتمية هذا الأجر والجزاء وعدم إمكان خلفه وعدم الوفاء به، أو أنّه إشارة إلى أنّ الجنّة ونعمها معدّة منذ الآن للمؤمنين.

بحث

مساواة الرجل والمرأة عند الله

يتصوّر البعض أحياناً أنّ الإسلام قد رجّح كفّة شخصية الرجال، ولا مكانة مهمّة للنساء في برامج الإسلام، وربّما كان منشأ هذا الاشتباه هو بعض الاختلافات الحقوقية، والتي لكلّ منها فلسفة خاصّة.

ومع غضّ النظر عن مثل هذه الاختلافات التي لها علاقة بالمكانات والمراكز الاجتماعية وظروفها الطبيعية - فلا شكّ في عدم وجود أي فرق بين الرجل والمرأة في تعليمات الإسلام من الناحية الإنسانية والمقامات المعنوية، والآية المذكورة دليل واضح على هذه الحقيقة، لأنّها وضعت المرأة والرجل في مرتبة واحدة ككفّتي ميزان لدى تبيانها خصائص المؤمنين، وأهمّ المسائل العقائدية والأخلاقية والعملية، ووعدت الاثنين بمكافآت متكافئة وثواب متساوٍ بدون أي تفاوت واختلاف.

وبتعبير آخر: لا يمكن إنكار التفاوت الجسمي بين الرجل والمرأة، كما لا يمكن إنكار التفاوت النفسي بينهما أيضاً، ومن البديهي أنّ هذا التفاوت ضروري لإدامة نظام المجتمع الإنساني، كما أنّه يفرز آثاراً ونتائج في بعض القوانين الحقوقية للمرأة والرجل، إلاّ أنّ الإسلام لم يطرح شخصية المرأة الإنسانية للمناقشة - كما فعل ذلك بعض القساوسة المسيحيين في القرون الماضية - بأنّ المرأة هل هي إنسان في الواقع؟ وهل لها روح إنسانية أم لا؟!

ولم يكتف بذلك فحسب، بل أكّد على عدم الفرق بين الجنسين من ناحية الروح الإنسانية، ولذلك نقرأ في الآية (٩٧) من سورة النحل ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

لقد أقرّ الإسلام للمرأة نفس الاستقلال الاقتصادي الذي أقرّه للرجل، على عكس كثير من قوانين العالم السابقة، بل وحتى قوانين عالم اليوم التي لم تبح للمرأة الاستقلال الاقتصادي مطلقاً.

من هنا، فإنّنا نلاحظ في علم الرجال الإسلامي باباً خاصّاً يتعلّق بالنساء العالم
واتي كنّ في مصافّ الرواة والفقهاء، وقد ذُكرن كشخصيات مؤثّرة وفاعلة في التا
سلامي.

وإذا رجعنا إلى تاريخ العرب قبل الإسلام، وحقّقنا في وضع النساء في ذ
جتمع، ورأينا كيف أنهنّ كنّ محرومات من أبسط حقوق الإنسان، بل لم ي
شركون يعتقدون بأنّ لهنّ حقّ الحياة أحياناً، ولذلك كانوا يئدونهنّ وهنّ أحياء
دتهنّ!!

وكذلك إذا نظرنا إلى وضع المرأة في عالمنا المعاصر حيث أصبحت أُلعوبة لا اخ
ولا إرادة في أيدي مجموعة من المتلبّسين بلباس الإنسانية ويدعون التمدّن، فس
ك جيداً بأنّ الإسلام قد خدم المرأة أيّما خدمة، وله حقّ عظيم عليهنّ(١) ؟!

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾

سبب النزّول

نزلت هذه الآيات - على قول أغلب المفسّرين - في قضيّة زواج «زينب بنت جح
نت عمّة الرّسول الأكرم - بزيد بن حارثة مولى النّبي ﷺ المعتق، وكانت الق
يلي:

---

(١) كان لنا بحث آخر في هذا المجال في ذيل الآية (٢٢٨) من سورة البقرة، وكذلك ورد بحث آخر في الآية (٩٧) من سورة النحل.

كانت خديجة قد اشترت قبل البعثة وبعد زواجها بالنّبي ﷺ عبداً اسمه زيد، ثمّ وهبته للنّبي ﷺ فأعتقه رسول الله ﷺ، فلمّا طردته عشيرته وتبرّأت منه تبنّاه النّبي ﷺ.

وبعد ظهور الإسلام أصبح زيد مسلماً مخلصاً متفانياً، وأصبح له موقع ممتاز في الإسلام، وكما نعلم فإنّه أصبح في النهاية أحد قوّاد جيش الإسلام في معركة مؤتة واستشهد فيها.

وعندما صمّم النّبي ﷺ على أن ينتخب زوجة لزيد، خطب له «زينب بنت جحش» - والتي كانت بنت «أُميّة بنت عبدالمطلّب»، أي بنت عمّته - فكانت زينب تظنّ أنّ النّبي ﷺ يريد أن يخطبها لنفسه، فسرّت ورضيت، ولكنّها لمّا علمت فيما بعد أن خطبته كانت لزيد تأثّرت تأثّراً شديداً وامتنعت، وكذلك خالف أخوها عبد الله هذه الخطبة أشدّ مخالفة.

هنا نزلت الآية الأُولى من الآيات مورد البحث وحذّرت زينب وعبد الله وأمثالهما بأنّهم لا يقدرون على مخالفة أمر يراه الله ورسوله ضرورياً، فلمّا سمعا ذلك سلّما لأمر الله.

إنّ هذا الزواج لم يكن زواجاً بسيطاً - كما سنرى ذلك - بل كان مقدّمة لتحطيم سنّة جاهلية مغلوطة، حيث لم تكن أيّة امرأة لها مكانتها وشخصيتها في المجتمع مستعدّة للاقتران بعبد في زمن الجاهلية، حتى وإن كان متمتّعاً بقيم إنسانية عالية.

غير أنّ هذا الزواج لم يدم طويلاً، بل انتهى إلى الطلاق نتيجة عدم الانسجام واختلاف أخلاق الزوجين، بالرغم من أنّ النّبي الأكرم ﷺ كان مصرّاً على أن لا يتمّ هذا الطلاق.

بعد ذلك اتّخذ النّبي ﷺ بأمر الله «زينب» زوجةً له لتعوّض بذلك فشلها في زواجها، فانتهت المسألة هنا، إلاّ أنّ همهمات وأقاويل قد ظهرت بين الناس، وقد اقتلعها القرآن وعالجها في هذه الآيات التي نبحثها، وسيأتي تفصيل ذلك، إن شاء الله تعالى(١).

---

(١) اقتباس من تفسير مجمع البيان، والقرطبي، والميزان، والفخر الرازي، وفي ظلال القرآن، وتفاسير أُخرى في ذيل الآيات مورد البحث، وكذلك سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٦٤، والكامل لابن الأثير، ج ٢، ص ١٧٧.

التفسير

تمرّد عظيم على العرف

نعلم أنّ روح الإسلام التسليم، ويجب أن يكون تسليماً لأمر الله تعالى بدون قيد أو شرط، وقد ورد هذا المعنى في آيات مختلفة من القرآن الكريم، وبعبارات مختلفة، ومن جملتها الآية أعلاه، والتي تقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ بل يجب أن يجعلوا إرادتهم تبعاً لإرادة الله تعالى، كما أنّ كلّ وجودهم من الشعر حتى أخمص القدمين مرتبط به ومذعن له.

﴿قَضَى﴾ هنا تعني القضاء التشريعي، والقانون والأمر والحكم والقضاء، ومن البديهي أنّ الله تعالى غنيّ عن طاعة الناس وتسليمهم، ولم يكن النّبي ﷺ ينظر بعين الطمع لهذه الطاعة، بل هي في الحقيقة لمصلحتهم ومنفعتهم، فإنّهم قد يجهلونها لكون علمهم وآفاقهم محدودة، إلاّ أنّ الله تعالى يعلمها فيأمر نبيّه بإبلاغها.

إنّ هذه الحالة تشبه تماماً حالة الطبيب الماهر الذي يقول للمريض: إنّني أبدأ بعلاجك إذا أذعنت لأوامري تماماً، ولم تبد أي مخالفة تجاهها، وهذه الكلمات تبيّن غاية حرص الطبيب على علاج مريضه، والله تعالى أسمى وأرحم بعباده من مثل هذا الطبيب، ولذلك أشارت الآية إلى هذه المسألة في نهايتها، حيث تقول: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾.

فسوف يضلّ طريق السعادة، ويسلك طريق الضلال والضياع، لأنّه لم يعبأ بأمر ربّ الكون الرحيم، وبأمر رسوله، ذلك الأمر الضامن لخيره وسعادته، وأيّة ضلالة أوضح من هذه؟!

ثمّ تناولت الآية التالية قصّة «زيد» وزوجته «زينب» المعروفة، والتي هي إحدى المسائل الحسّاسة في حياة النّبي ﷺ، ولها ارتباط بمسألة أزواج النّبي ﷺ التي مرّت في الآيات السابقة، فتقول: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾.

والمراد من نعمة الله تعالى هي نعمة الهداية والإيمان التي منحها لزيد بن حارثة، ومن نعمة النّبي ﷺ أنّه كان قد أعتقه وكان يعامله كولده الحبيب العزيز.

ويستفاد من هذه الآية أنّ شجاراً قد وقع بين زيد وزينب، وقد استمرّ هذا الشجار

حتى بلغ أعتاب الطلاق، وبملاحظة جملة ﴿تَقُولُ﴾ حيث إنّ فعلها مضارع، يستفاد أنّ النّبي كان ينصحه دائماً ويمنعه من الطلاق.

هل أنّ هذا الشجار كان نتيجة عدم تكافؤ الحالة الاجتماعية بين زينب وزيد، حيث كانت من قبيلة معروفة، وكان هو عبداً معتق؟

أم كان ناتجاً عن بعض الخشونة في أخلاق زيد؟

أو لا هذا ولا ذاك، بل لعدم وجود انسجام روحي وأخلاقي بينهما، فإنّ من الممكن أن يكون شخصان جيدين، إلاّ أنّهما يختلفان من ناحية السلوك والفكر والطباع بحيث لا يستطيعان أن يستمرا في حياة مشتركة؟

ومهما يكن الأمر فإنّ المسألة إلى هنا ليست بذلك التعقيد.

ثمّ تضيف الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾.

لقد أسهب المفسّرون هنا في الكلام، وكان تسامح بعضهم في التعبيرات قد منح الأعداء حربة للطعن، في حين يفهم من القرائن الموجودة في نفس الآية، وسبب نزول الآيات، والتاريخ، أنّ معنى الآية ليس مطلباً ومبحثاً معقّداً، وذلك:

إنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم كان قد قرّر أن يتّخذ «زينب» زوجة له إذا ما فشل الصلح بين الزوجين ووصل أمرهم إلى الطلاق لجبران هذه النكسة الروحية التي نزلت بابنة عمّته زينب من جرّاء طلاقها من عبده المعتق، إلاّ أنّه كان قلقاً وخائفاً من أن يعيبه الناس ويثير مخالفوه ضجّة وضوضاء، من جهتين:

الأُولى: أنّ زيداً كان ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالتبنّي، وكان الابن المتبنّى - طبقاً لسنّة جاهلية - يتمتّع بكلّ أحكام الابن الحقيقي، ومن جملتها أنّهم كانوا يعتقدون حرمة الزواج من زوجة المتبنّى المطلّقة.

والأُخرى: هي كيف يمكن للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يتزوّج مطلّقة عبده المعتق وهو في تلك المنزلة الرفيعة والمكانة السامية؟

ويظهر من بعض الروايات أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قد صمّم على أن يقدم على هذا الأمر بأمر الله سبحانه رغم كلّ الملابسات والظروف، وفي الجزء التالي من الآية قرينة على هذا المعنى.

بناءً على هذا، فإنّ هذه المسألة كانت مسألة أخلاقية وإنسانية، وكذلك كانت وسيلة مؤثّرة لكسر سنّتين جاهليتين خاطئتين، وهما: الاقتران بمطلّقة الابن المتبنّى، والزواج من مطلّقة عبد معتق.

من المسلّم أنّ النّبي ﷺ لا ينبغي أن يخاف الناس في مثل هذه المسائل، ولا يدع للضعف والتزلزل والخشية من تأليب الأعداء وشائعاتهم إلى نفسه سبيلاً، إلاّ أنّ من الطبيعي أن يبتلى الإنسان بالخوف والتردّد في مثل هذه المواقف، خاصّة وأنّ أساس هذه المسائل كان اختيار الزوجة، وأنّه كان من الممكن أن تؤثّر هذه الأقاويل والضجيج على انتشار أهدافه المقدّسة وتوسّع الإسلام، وبالتالي ستؤثّر على ضعفاء الإيمان، وتغرس في قلوبهم الشكّ والتردّد.

لهذا تقول الآية في متابعة المسألة: إنّ زيداً لمّا أنهى حاجته منها وطلّقها زوجناها لـــك: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ وكان لابدّ أن يتمّ هذا الأمر ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

«الأدعياء» جمع «دعي»، أي الابن المتبنّى، و«الوطر» هو الحاجة المهمّة، واختيار هذا التعبير في مورد طلاق زينب للطف البيان، لئلاّ يصرّح بالطلاق الذي يعدّ عيباً للنساء، بل وحتى للرجال، فكأنّ كلّاً من هذين الشخصين كان محتاجاً للآخر ليحيا حياة مشتركة لمدّة معيّنة، وافتراقهما كان نتيجة لانتفاء هذه الحاجة ونهايتها.

والتعبير بـ ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ دليل على أنّ هذا الزواج كان زواجاً بأمر الله، ولذلك ورد في التواريخ أنّ زينب كانت تفتخر بهذا الأمر على سائر زوجات النّبي ﷺ، وكانت تقول: زوّجكنّ أهلوكنّ وزوّجني الله من السماء[1].

وممّا يستحقّ الانتباه أنّ القرآن الكريم يبيّن بمنتهى الصراحة الهدف الأصلي من هذا الزواج، وهو إلغاء سنّة جاهلية كانت تقضي بمنع الزواج من مطلّقات الأدعياء، وهذا بنفسه إشارة إلى مسألة كلّية، وهي أنّ تعدّد زواج النّبي ﷺ لم يكن أمراً عادياً بسيطاً، بل كان يرمي إلى أهداف كان لها أثرها في مصير دينه.

وجملة ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ إشارة إلى وجوب الحزم في مثل هذه المسائل، وكلّ عمل ينبغي فعله يجب أن ينجز ويتحقّق، حيث لا معنى للاستسلام أمام الضجيج والصخب في المسائل التي تتعلّق بالأهداف العامّة والأساسية.

ويتّضح من التّفسير الواضح الذي أوردناه في بحث الآية أعلاه أنّ الادّعاءات التي

---

(١) الكامل لابن الأثير، ج ٢، ص١٧٧. وممّا يستحقّ الالتفات أنّ زواج النّبي ﷺ من زينب قد تمّ في السنة الخامسة للهجرة. المصدر السابق.

أراد الأعداء أو الجهلاء إسنادها لهذه الآية لا أساس لها مطلقاً، وسنعطي في بحث الملاحظات توضيحاً أكثر في هذا الباب إن شاء الله تعالى.

وتقول الآية الأخيرة في تكميل المباحث السابقة: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ﴾ فحيث يأمره الله سبحانه لا تجوز المداهنة في مقابل أمره تعالى، ويجب تنفيذه بدون أيّ تردّد.

إنّ القادة الربانيين يجب أن لا يصغوا إلى كلام هذا وذاك لدى تنفيذ الأوامر الإلهيّة، أو يراعوا الأجواء السياسية والآداب والأعراف الخاطئة السائدة في المحيط، وربّما كان هذا الأمر قد صدر لتمزيق هذه الأعراف المغلوطة، ولتحطيم البدع القبيحة.

إنّ القادة الإلهيين يجب أن ينفّذوا أمر الله بدون خوف من الملامة والعتاب والضجّة والغوغاء، وأن يكونوا مصداق ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ﴾(١).

إنّنا إذا أردنا أن نجلس وننتظر رضا الجميع وسرورهم ثمّ ننفّذ أمر الله سبحانه، فلنعلم أنّ هذا الأمر لا يمكن تحقّقه، لأنّ بعض الفئات لا ترضى حتى نستسلم لما تريد ونتّبع دينها وفكرها، كما يقول القرآن الكريم ذلك: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ﴾(٢).

وكذلك كان الأمر في مورد الآية التي نبحثها، لأنّ زواج النّبي ﷺ من زينب كان يكتنفه في أفكار الناس العامّة إشكالان كما قلنا:

الأوّل: أنّ الزواج بمطلّقة المدّعى كان في نظر أُولئك كالزواج بزوجة الابن الحقيقي، وكانت هذه بدعة يجب أن تُلغى.

والآخر: أنّ زواج رجل مرموق له مكانته في المجتمع كالنّبي ﷺ من مطلّقة غلام محرّر كان يعدّ عيباً وعاراً، لأنّه يجعل النّبي والعبد في مرتبة واحدة، وهذه الثقافة الخاطئة كان يجب أن تقلع وتجتثّ من الجذور لتُزرع مكانها القيم الإنسانية، وكون الزوجين كفؤين لبعضهما إنّما يستقيم ويقاس على أساس الإسلام والإيمان والتقوى وحسب.

وأساساً فإنّ مخالفة السُّنن والأعراف، واقتلاع الآداب والعادات الخرافية وغير الإنسانية يقترن عادةً بالضجيج والغوغاء والصخب، وينبغي أن لا يهتمّ الأنبياء بهذا

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤. (٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.

الضجيج والصخب مطلقاً، ولذلك تعقب الجملة التالية فتقول: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ﴾.

فلست الوحيد المبتلى بهذه المشكلة، بل إنّ الأنبياء جميعاً كانوا يعانون هذه المصاعب عند مخالفتهم سنن مجتمعاتهم، وعند سعيهم لاجتثاث أُصول الأعراف الفاسدة منها.

ولم تكن المشكلة الكبرى منحصرة في محاربة هاتين السنّتين الجاهليتين، بل إنّ هذا الزواج لمّا كان مرتبطاً بالنّبي ﷺ فإنّه يمكن أن يعطي الأعداء حربة أُخرى ليعيبوا على النّبي ﷺ فعله، ويطعنوا في دينه، وسيأتي تفصيل ذلك.

ويقول الله سبحانه في نهاية الآية تثبيتاً لاتّباع الحزم في مثل هذه المسائل الأساسية: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾.

إنّ التعبير بـ ﴿قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾ قد يكون إشارة إلى كون الأمر الإلهي حتمياً، ويمكن أن يكون دالاً على رعاية الحكمة والمصلحة فيه، إلاّ أنّ الأنسب في مورد الآية أن يراد منه كلا المعنيين، أي إنّ أمر الله تعالى يصدر على أساس الحساب الدقيق والمصلحة، وكذلك لابدّ من تنفيذه بدون استفهام أو تلكّؤ.

والطريف أنّنا نقرأ في التواريخ أنّ النّبي ﷺ قد أولم للناس وليمة عامّة لم يكن لها نظير فيما سبق اقترانه بزوجاته[1]، فكأنّه أراد بهذا العمل أن يبيّن للناس أنّه غير قلق ولا خائف من السنن الخرافية التي كانت سائدة في تلك البيئة، بل إنّه يفتخر بتنفيذ هذا الأمر الإلهي، إضافةً إلى أنّه كان يطمح إلى أن يصل صوت إلغاء هذه السنّة الجاهلية إلى آذان جميع من في جزيرة العرب عن هذا الطريق.

بحثان

١ - أساطير كاذبة

مع أنّ القرآن الكريم كان غاية في الصراحة في قصّة زواج النّبي الأكرم ﷺ من زينب، وفي تبيان هذه المسألة، والهدف من هذا الزواج، وأعلن أنّ الهدف هو محاربة

(١) يروي المفسّر الكبير المرحوم الطبرسي في مجمع البيان: فتزوّجها رسول الله ﷺ ... وما أولم على امرأة من نسائه ما أولم عليها، ذبح شاة، وأطعم الناس الخبز واللحم حتى امتدّ النهار. تفسير مجمع البيان، ج٨، ص٣٦١.

سنّة جاهلية فيما يتعلّق بالزواج من مطلّقة الابن المدّعى، إلاّ أنّها ظلّت مورد استغلال جمع من أعداء الإسلام، فحاولوا اختلاق قصّة غرامية منها ليشوّهوا بها صورة النّبي المقدّسة، واتّخذوا من الأحاديث المشكوك فيها أو الموضوعة في هذا الباب آلة وحربة يلوّحون بها.

ومن جملة ذلك ما كتبوه من أنّ النّبي ﷺ جاء إلى دار زيد ليسأل عن حاله، فما إن فتح الباب حتى وقعت عينه على جمال زينب، فقال: «سبحان الله خالق النور! تبارك الله أحسن الخالقين» واتّخذوا هذه الجملة دليلاً على تعلّق النّبي ﷺ بزينب.

في حين أنّ هناك دلائل واضحة - بغضّ النظر عن مسألة العصمة والنبوّة - تكذّب هذه الأساطير:

الأولى: أنّ زينب كانت بنت عمّة النّبي ﷺ، وقد تربيّا وكبرا معاً في محيط عائلي تقريباً، والنّبي ﷺ هو الذي خطبها بنفسه لزيد، وإذا كان لزينب ذلك الجمال الخارق، وعلى فرض أنّه استرعى انتباهه، فلم يكن جمالها أمراً خافياً عليه، ولم يكن زواجه منها قبل هذه الحادثة أمراً عسيراً، بل إنّ زينب لم تبد أي رغبة في الاقتران بزيد، بل أعلنت مخالفتها صراحةً، وكانت ترجّح تماماً أن تكون زوجة للنّبي ﷺ، بحيث إنّها سرّت وفرحت عندما ذهب النّبي ﷺ لخطبتها ظنّاً منها بأنّ النّبي ﷺ يخطبها لنفسه، إلاّ أنّها رضخت لأمر الله ورسوله بعد نزول هذه الآية القرآنية وتزوّجت زيداً.

مع هذه المقدّمات هل يبقى مجال لهذا الوهم بأنّ النّبي ﷺ لم يكن عالماً بحال زينب وجمالها؟ وأيّ مجال لهذا الظنّ الخاطىء بأن يكون راغباً في الزواج منها ولا يستطيع الإقدام عليه؟

والثّانية: أنّ زيداً عندما كان يراجع النّبي ﷺ لطلاق زوجته زينب، كان النّبي ينصحه مراراً بصرف النظر عن هذا الأمر، وهذا بنفسه شاهد آخر على بطلان هذه الادّعاءات والأساطير.

ومن جهة أُخرى فإنّ القرآن الكريم قد أوضح الهدف من هذا الزواج بصراحة لئلاّ يبقى مجال لأقاويل أُخرى.

ومن جهة رابعة قرأنا في الآيات المذكورة أعلاه أنّ الله تعالى يقول: قد كان في حادثة زواج النّبي بمطلّقة زيد أمر كان النّبي يخشى الناس فيه، في حين أنّ خشيته من الله أحقّ من الخشية من الناس.

إنّ مسألة خشية الله سبحانه توحي بأنّ هذا الزواج قد تمّ كتنفيذ لواجب شرعي، يجب عنده طرح كلّ الاعتبارات الشخصية جانباً من أجل الله تعالى ليتحقّق هدف مقدّس من أهداف الرسالة، حتى وإن كان ثمن ذلك جراحات اللسان التي يلقيها جماعة المنافقين في اتّهاماتهم للنّبي، وكان هذا هو الثمن الباهظ الذي دفعه النّبي ﷺ - ولا زال يدفعه إلى الآن - في مقابل طاعة أمر الله سبحانه، وإلغاء عرف خاطىء وسنّة مبتدعة.

إلاّ أنّ هناك لحظات حرجة في حياة القادة المخلصين تحتّم عليهم أن يضحّوا ويعرّضوا أنفسهم فيها لاتّهام أمثال هؤلاء الأفراد ليتحقّق هدفهم!

أجل. . . لو كان النّبي ﷺ لم ير زينب من قبل مطلقاً، ولم يكن يعرفها، ولم يكن لدى زينب الرغبة في الاقتران به، ولم يكن زيد مستعدّاً لطلاقها - وبغضّ النظر عن مسألة النبوّة والعصمة - لكان هناك مجال لمثل هذه الأقاويل والتخرّصات، لكن بملاحظة انتفاء كلّ هذه الظروف يتّضح كون هذه الأكاذيب مختلقة.

إضافةً إلى أنّ تاريخ النّبي ﷺ لم يعكس أي دليل أو صورة تدلّ على وجود رغبة خاصّة لديه ﷺ في الزواج من زينب، بل هي كسائر الزوجات، بل ربّما كانت أقل من بعض الزوجات من بعض الجهات، وهذا شاهد تأريخي آخر على نفي هذه الأساطير.

ونرى في نهاية المطاف ضرورة الإشارة إلى احتمال أن يقول شخص: إنّ محاربة مثل هذه السنّة الخاطئة واجب، ولكن أيّة ضرورة تدعو إلى أن يقتحم النّبي ﷺ هذا الميدان بنفسه؟ فقد كان بإمكانه أن يطرح هذه المسألة ويبيّنها كقانون، ويرغب الآخرين في الزواج من مطلّقة المتبنّي.

غير أنّ مخالفة سنّة جاهلية خاطئة - خاصّة وأنّها تتعلّق بالزواج من أفراد هم دون شأن المقابل ظاهراً - قد تكون غير مقبولة بالكلام والتقنين أحياناً، إذ يقول الناس: إذا كان هذا الأمر حسناً فلماذا لم يفعله هو؟ لِمَ لم يتزوّج بمطلّقة عبده المعتق وابنه المتبنى؟

في مثل هذه الموارد ينهي الإقدام والإجراء العملي كلّ هذه الأسئلة والإشكالات، وعندها ستتكسّر وتتلاشى تلك السنّة الخاطئة، إضافةً إلى أنّ هذا العمل كان بنفسه تضحية وإيثاراً.

٢ - روح الإسلام التسليم أمام الله

لا شكّ أنّ استقلال الإنسان الفكري والروحي لا يسمح له أن يستسلم لأحد بدون قيد أو شرط، لأنّه إنسان مثله، ومن الممكن أن تكون له أخطاء واشتباهات في المسائل.

أمّا إذا انتهت المسألة إلى الله العالم والحكيم، والنّبي الذي يتحدّث عنه ويسير بأمره، فإنّ عدم التسليم المطلق دليل على الضلال والانحراف، حيث لا يوجد أدنى اشتباه في أوامره سبحانه. إضافةً إلى أنّ أمره حافظ لمنافع الإنسان نفسه، ولا يعود شيء على ذاته المقدّسة، فهل يوجد إنسان عاقل يسحق مصالحه برجله بعد تشخيص هذه الحقيقة؟

ومضافاً إلى ذلك فإنّنا منه تعالى، وكلّ ما لدينا منه، ولا يمكن أن يكون لنا أمر وقرار إلاّ التسليم لإرادته وأمره، ولذلك ترى بين دفّتي القرآن آيات كثيرة تشير إلى هذه المسألة:

فمرّة تقول آية: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(١).

وتقول أُخرى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾(٢).

ويقول القرآن في موضع آخر: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾(٣).

إنّ «الإسلام» أخذ من مادّة «التسليم»، وهو يشير إلى هذه الحقيقة، وبناءً على هذا فإنّ كلّ إنسان يتمتّع بروح الإسلام بمقدار تسليمه لله سبحانه.

ينقسم الناس عدّة أقسام من هذه الناحية: فقسم يسلّمون لأمر الله في الموارد التي تنفعهم فقط، وهؤلاء في الحقيقة مشركون انتحلوا اسم الإسلام، وعملهم تجزئة لأحكام الله تعالى، فهم مصداق ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ فإيمانهم في الحقيقة إيمان بمصالحهم لا بالله تعالى.

وآخرون جعلوا إرادتهم تبعاً لإرادة الله، وإذا تعارضت منافعهم الزائلة مع أمر الله سبحانه، فإنّهم يغضّون الطرف عنها ويسلّمون لأمر الله، وهؤلاء هم المؤمنون والمسلمون الحقيقيون.

والقسم الثالث أسمى من هؤلاء، فهم لا يريدون إلاّ ما أراد الله، وليس في قلوبهم إلاّ ما يشاؤه سبحانه، فقد بلغوا مرتبة من التسامي لا يحبّون معها إلاّ ما يحبّه الله، ولا يبغضون إلاّ ما أبغضه الله عزّوجلّ.

---

(١) سورة النور، الآية: ٥١.
(٢) سورة النساء، الآية: ٦٥.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٢٥.

هؤلاء هم الخاصّة والمخلصون والمقرّبون لديه، فقد صبغ التوحيد كلّ وجودهم، وغرقوا في حبّه، وفنوا في جماله[١].

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾

التّفسير

من هم المبلّغون الحقيقيون؟

تشير الآية مورد البحث، ومناسبة للبحث الذي مرّ حول الأنبياء السابقين في آخر آية من الآيات السابقة، إلى أحد أهم برامج الأنبياء العامّة، فتقول: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾.

وكذلك الحال بالنسبة إليك، فينبغي أن لا تخش أحداً في تبليغ رسالات الله، وعندما يأمرك الله سبحانه أن حطّم سنّة جاهلية خاطئة في مسألة زواج مطلّقة المتبنّي، وتزوّج بزينب مطلّقة زيد، فيجب أن لا تدع لأدنى قلق وخوف من قول هذا وذاك في تأدية هذا التكليف إلى نفسك سبيلاً، فإنّ هذه سنّة جميع الأنبياء عليهم السلام.

إنّ عمل الأنبياء عليهم السلام في كثير من المراحل هو كسر مثل هذه السنن والأعراف عادةً، ولو أنّهم سمحوا لأقلّ خوف وتردّد أن ينفذ إلى نفوسهم فسوف يفشلون في أداء رسالاتهم، فيجب على هذا أن يسيروا بحزم وثبات، ويستوعبوا كلمات المسيئين الجارحة غير المتزنة، ويستمرّوا في طريقهم دون أن يهتّموا باصطناع الأجواء ضدّهم، وضجيج العوام، وتآمر الفاسدين والمفسدين وتواطئهم، لأنّ كلّ الحسابات بيد الله سبحانه، ولذلك تقول الآية في النهاية: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾.

إنّه يحسب إيثار الأنبياء وتضحياتهم في هذا الطريق ويجزيهم عليها، كما يحفظ كلمات الأعداء البذيئة وثرثرتهم ليحاسبهم عليها ويجازيهم.

إنّ جملة: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ دليل في الحقيقة على أنّ القادة الإلهيين يجب أن لا

(١) لقد أوردنا بحثاً آخر في هذا الباب في ذيل الآية (٦٥) من سورة النساء.

يخشوا شيئاً أو أحداً في إبلاغ الرسالات، لأنّ الله سبحانه هو المحصي لجهودهم، وهو المثيب عليها.

ملاحظات

١ - المراد من «التبليغ» هنا هو الإبلاغ والإيصال، وعندما يرتبط الأمر بـ«رسالات الله» فإنّه يعني أن يعلّم الأنبياء الناس ما علّمهم الله عن طريق الوحي، وأن ينفذوه إلى القلوب عن طريق الاستدلال والإنذار والتبشير والموعظة والنصيحة.

٢ - «الخشية» تعني الخوف المقترن بالتعظيم والاحترام، ويختلف عن الخوف المجرّد من هذه الخاصيّة من هذه الجهة، وقد تستعمل أحياناً بمعنى مطلق الخوف.

وقد ورد في مؤلّفات المحقّق «الطوسي» كلام في الفرق بين هذين اللفظين، وهو في الحقيقة يشير إلى المعنى العرفاني لا اللغوي، فإنّه يقول: إنّ الخشية والخوف وإن كانا في اللغة بمعنى واحد - أو يقربان من معنى واحد - إلاّ أنّ بينهما فرقاً لدى أهل البصائر، وهو: إنّ «الخوف» يعني القلق والاضطراب الداخلي من العواقب التي ينتظرها الإنسان نتيجة ارتكابه المعاصي والذنوب، أو تقصيره في الطاعة، وهذه الحالة تحصل لأغلب الناس وإن اختلفت درجاتها، أمّا أعلى مراتبها فلا تحصل إلاّ لفئة قليلة منهم.

أمّا «الخشية» فهي الحالة التي تحصل للإنسان لدى إدراكه عظمة الله وهيبته، والخوف من بقائه مبعداً عن أنوار فيضه، وهذه الحالة لا تحصل إلاّ لأُولئك الذين وقفوا على عظمة ذاته المقدّسة وجلال كبريائه، وتذوّقوا طعم قربه، ولذلك عدّ القرآن هذه الحالة خاصّة بعباد الله العلماء فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾(١).

٣ - جواب عن سؤال؟

قد يقال: إنّ هذه الآية تتناقض مع ما مرّ في الآيات السابقة، فهي تقول هنا: إنّ أنبياء الله لا يخشون إلاّ الله، ولا يخشون أحداً غيره، إلاّ أنّه قد ورد في الآيات السابقة: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾(٢)؟

إلاّ أنّ الإجابة على هذا السؤال تتّضح بتأمّل النقطتين التاليتين:

الأُولى: أنّ النبي ﷺ إنّما كان خائفاً من عدم تحمّل عدد كبير من الناس لنقض هذه

---

(١) تفسير مجمع البحرين مادّة خشي. (٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٧.

السنّة، ومن عدم استيعابهم للمسألة، وبذلك ستتزعزع أُسس إيمانهم من هذه الجهة، ومثل هذه الخشية ترجع في الحقيقة إلى خشية الله سبحانه.

والأُخرى: أنّ الأنبياء لا يعيشون حالة الخوف والقلق من شخص ما في تبليغهم رسالات الله، أمّا في ما يتعلّق بأُمور الحياة الشخصية والخاصّة فلا مانع من أن يخافوا من أمر خطير كاتّهام وطعن الناس، أو أن يكونوا كموسى عليه السلام إذ خاف - حسب الطبيعة البشرية - عندما ألقى العصا وتحوّلت إلى ثعبان عظيم، فإنّ مثل هذا الخوف والاضطراب إذا لم يكن مفرطاً لا يعدّ عيباً ونقصاً، بل قد يواجه هذه المسألة أشجع الناس أحياناً، إنّما العيب والنقص هو الخوف من أداء التكليف الإلهي في الحياة الاجتماعية.

٤ - هل كان الأنبياء يستعملون التقيّة؟

استفاد جماعة من هذه الآية أنّ التقيّة حرام مطلقاً للأنبياء في تبليغ الرسالة، لأنّ القرآن يقول: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

غير أنّه يجب الانتباه إلى أنّ للتقيّة أنواعاً، ولم تنف الآية في مورد دعوة الأنبياء وإبلاغ الرسالة إلاّ نوعاً واحداً، وهو التقيّة خوفاً، في حين أنّ للتقيّة أنواعاً، منها التقيّة مداراةً وتورية.

والمراد من التقيّة المداراتية أن يكتم الإنسان عقيدته أحياناً لجلب محبّة الطرف المقابل ليقوى على استمالته للتعاون في الأهداف المشتركة.

والمراد من تقيّة «التورية» والإخفاء هو أنّه يجب أن تخفى المقدّمات والخطط للوصول إلى الهدف، فإنّها إن أُفشيت وانتشرت بين الناس وأصبحت علنية، واطلع العدوّ عليها فمن الممكن أن يقوم بإجهاضها.

إنّ حياة الأنبياء - وخاصّة نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله - مليئة بموارد التقيّة هذه، لأنّا نعلم أنّه صلى الله عليه وآله كان كثيراً ما يخفي أهدافه ومقاصده عندما كان يتوجّه إلى ميدان الحرب، وكان يرسم خططه الحربية بخفاء تامّ، وكان يستخدم أُسلوب الاستتار والتخفّي - والذي هو نوع من التقيّة - في جميع المراحل.

وكان يتّبع أحياناً أُسلوب «المراحل» - وهو نوع من التقيّة - لبيان حكم ما، فمثلاً نرى أنّ مسألة تحريم الربا أو شرب الخمر لم تبيّن في مرحلة واحدة، بل تمّت في مراحل متعدّدة بأمر الله سبحانه، أي إنّها تبدأ من المراحل الأبسط والأسهل حتى تنتهي بالحكم النهائي الأساسي.

وعلى أيّة حال، فإنّ للتقيّة معنىً واسعاً، وهو: (إخفاء الحقائق والواقع للحفاظ على الأهداف من التعرّض للخطر والانهيار) وهذا الشيء متعارف بين عقلاء العالم، والقادة الربّانيون يفعلون ذلك في بعض المراحل للوصول إلى أهدافهم المقدّسة، كما نقرأ ذلك في قصّة «إبراهيم» عليه السلام بطل التوحيد، حيث أخفى هدفه من البقاء في المدينة في اليوم الذي يخرج فيه عبدة الأصنام خارج المدينة لإجراء مراسم العيد ليستغلّ فرصة مناسبة فينهال على الأصنام ويحطّمها.

وكذلك أخفى «مؤمن آل فرعون» إيمانه ليستطيع أن يعين موسى عليه السلام في اللحظات الحسّاسة وينقذه من القتل، ولهذا السبب ذكر القرآن له تسعة مواقف وصفات عظيمة.

ومن هنا نعلم أنّ التقيّة خوف فقط غير جائزة على الأنبياء، لا الأنواع الأُخرى للتقيّة.

وبالرغم من أنّ الكلام في هذا الباب كثير، إلاّ أنّنا ننهي هذا البحث بحديث جامع غنيّ المحتوى عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه قال: «التقيّة ديني ودين آبائي، ولا دين لمن لا تقيّة له، والتقيّة ترس الله في الأرض، لأنّ مؤمن آل فرعون لو أظهر الإسلام لقتل»[1].

وكان لنا بحث مفصّل حول التقيّة في ذيل الآية (١٠٦) من سورة النحل.

٥ - شرط الانتصار في التبليغ

إنّ الآية المذكورة دليل واضح على أنّ الحزم والإخلاص وعدم الخوف من أي أحد إلاّ الله تعالى، شرط أساسي في التقدّم والرقي في مجال الإعلام والتبليغ.

الأشخاص الذين يراعون رغبات وميول هذا وذاك في مقابل أمر الله، ويوجّهون الحقّ والعدالة بما يناسب أهواءهم، سوف لا يحصلون على نتيجة مطلقاً، فلا نعمة أسمى من نعمة الهداية، ولا خدمة أنفع من إهداء هذه النعمة للبشرية، ولذلك كان جزاء وثواب هذا العمل أعظم من كلّ ثواب وعطاء، ومن هنا نقرأ في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله إلى اليمن وقال لي: ياعلي لا تقاتلن أحداً حتى تدعوه، وايم الله لئن يهدي الله على يديك رجلاً خير ممّا طلعت الشمس وغربت»[2].

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٨، ص ٥٢١ ذيل الآية (٢٨) من سورة المؤمن.
(٢) الكافي، طبقاً لنقل البحار، ج ٢١، ص ٣٦١.

ولهذا السبب أيضاً يجب أن يستغني المبلّغون الحقيقيون عن الناس، ولا يخافون أي مقام ومنصب، فإنّ تلك الحاجة والخوف سيتركان أثراً على أفكارهم وإرادتهم شاؤوا أم أبوا.

إنّ المبلّغ الإلهي يفكّر فقط - بمقتضى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ - بأنّ محصي الأعمال والمحاسب عليها هو الله تعالى، وبيده جزاؤه وثوابه، وهذا الوعي والعرفان هو الذي يمدّه ويعينه في هذا الطريق المليء بالعقبات.

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

التّفسير

مسألة الخاتمية

هذه الآية هي آخر ما بيّنه الله سبحانه فيما يتعلّق بمسألة زواج النّبي ﷺ بمطلّقة زيد لكسر عرف جاهلي خاطىء، وهي جواب مختصر كآخر جواب يقال هنا، وتبيّن في نهايتها حقيقة مهمّة أخرى - وهي مسألة الخاتمية - بمناسبة خاصّة.

تقول أوّلاً: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ لا زيد ولا غيره، وإذا ما أطلقوا عليه يوماً انّه «ابن محمّد» فإنّما هو مجرّد عادة وعرف ليس إلاّ، وما إن جاء الإسلام حتى اجتثّت جذوره، وليس هو رابطة طبيعيّة عائلية.

طبعاً كان للنّبي ﷺ أولاد حقيقيون، وأسماؤهم «القاسم» و«الطيّب» و«الطاهر» و«إبراهيم»[1]، إلاّ أنّهم - طبقاً لنقل المؤرّخين - جميعاً قد ودّعوا هذه الدنيا وارتحلوا عنها قبل البلوغ، ولذلك لم يطلق عليهم أنّهم «رجال»[2].

والإمامان الحسن والحسين عليهما السلام اللذان كان الناس يسمّونهم أولاد النّبي رغم أنّهما بلغا سنين متقدّمة في العمر، إلاّ أنّهما كانا لا يزالان صغيرين عند نزول هذه الآية، بناءً على هذا فإنّ جملة: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ والتي وردت بصيغة الماضي، كانت صادقة في حقّ الجميع قطعاً.

---

(١) يراجع أسد الغابة وسائر كتب التاريخي والرجالي.

(٢) تفسير القرطبي، وتفسير الميزان ذيل الآية مورد البحث.

وإذا ما رأينا في بعض تعبيرات النّبي ﷺ نفسه أنّه يقول: «أنا وعلي أبوا هذه الأُمّة» فمن المسلّم أنّ المراد لم يكن الأُبوّة النسبية، بل الأُبوّة الناشئة من التعليم والتربية والقيادة والإرشاد.

مع هذه الحال، فإنّ الزواج من مطلّقة زيد - والذي بيّن القرآن فلسفته بصراحة بأنّه إلغاء للسنن الخاطئة - لم يكن شيئاً يبعث على البحث والجدال بين هذا وذاك، أو أنّهم يريدون أن يتّخذوه وسيلة للوصول إلى نواياهم السيّئة.

ثمّ تضيف: بأنّ علاقة النّبي ﷺ معكم إنّما هي من جهة الرسالة والخاتمية فقط ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وبهذا قطع صدر الآية الارتباط والعلاقة النسبية بشكل تامّ وقطعي، وأثبت ذيلها العلاقة المعنوية الناشئة من الرسالة والخاتمية، ومن هنا يتّضح ترابط صدر الآية وذيلها.

هذا إضافةً إلى أنّ الآية تشير إلى حقيقة هي: أنّ علاقته معكم في الوقت نفسه أشدّ وأسمى من علاقة والد بولده، لأنّ علاقته علاقة الرّسول بالأُمّة، ويعلم أنّه سوف لا يأتي رسول بعده، فكان يجب عليه أن يبيّن لهذه الأُمّة ويطرح لها كلّ ما تحتاجه إلى يوم القيامة في منتهى الدقّة وغاية الحرص عليها.

ولا شكّ أنّ الله العليم الخبير قد وضع تحت تصرّفه كلّ ما كان لازماً في هذا الباب، من الأُصول والفروع، والكليّات والجزئيات في جميع المجالات، ولذلك يقول سبحانه في نهاية الآية: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

وينبغي الالتفات إلى أنّ كونه «خاتم الأنبياء» يعني أيضاً أنّه خاتم المرسلين، وما ألصقه بعض مبتدعي الأديان لخدش كون مسألة الخاتمية بهذا المعنى، من أنّ القرآن قد اعتبر النّبي ﷺ خاتم الأنبياء لا خاتم المرسلين، إنّما هو اشتباه كبير، لأنّ من كان خاتماً للأنبياء يكون خاتماً للرسل بطريق أولى، لأنّ مرحلة «الرسالة» أسمى من مرحلة «النبوّة» - تأمّلوا ذلك -.

إنّ هذا الكلام يشبه تماماً أن نقول: إنّ فلاناً ليس في بلاد الحجاز، فمن المسلّم أنّ هذا الشخص سوف لا يكون موجوداً في مكّة، أمّا إذا قلنا: إنّه ليس في مكّة، فمن الممكن أن يكون في مكان آخر من الحجاز.

بناءً على هذا، فإنّه تعالى لو كان قد سمّى النّبي خاتم المرسلين، فمن الممكن أن لا

يكون خاتم الأنبياء، أمّا وقد سمّاه «خاتم الأنبياء» فمن المسلّم أنّه سيكون خاتم الرسل أيضاً، وبتعبير المصطلحات فإنّ النسبة بين النّبي والرّسول نسبة العموم والخصوص المطلق.

بحوث

١ - ما هو الخاتم؟

«الخاتم» - على زنة حاتم - لدى أرباب اللغة: هو الشيء الذي تُنهى به الأُمور، وكذلك جاء بمعنى الشيء الذي تختم به الأوراق وما شابهها.

وكان هذا الأمر متداولاً فيما مضى - ولا يزال إلى اليوم - حينما يريدون إغلاق الرسالة أو غطاء الوعاء أو باب المنزل لئلاّ يفتحها أحد، فإنّهم كانوا يضعون مادّة لاصقة على الباب أو القفل ويختمون عليها، ويكون هذا الخاتم من الصلابة بحيث إنّه لابدّ من كسره إذا ما أُريد فتح الباب، وهذه المادّة التي توضع على مثل هذه الأشياء تسمّى «خاتماً».

ولمّا كانوا في السابق يستعملون لهذا الأمر الطين الصلب الذي يلصق، فإنّنا نقرأ في متون بعض كتب اللغة المعروفة أنّ معنى الخاتم هو «ما يوضع على الطينة»[1].

كلّ ذلك بسبب أنّ هذه الكلمة مأخوذة من مادّة «الختم» أي النهاية، ولمّا كان هذا العمل - أي الختم - يجري في الخاتمة والنهاية فقد أُطلق عليه اسم الخاتم لذلك.

وإذا ما رأينا أنّ أحد معاني الخاتم هو الخاتم الذي يوضع في اليد، فبسبب أنّهم كانوا يضعون إمضاءهم وتوقيعهم على خواتيمهم ويختمون الرسائل بها، ولذلك فإنّ من جملة الأُمور التي تذكر في أحوال النّبي ﷺ وأئمّة الهدى عليهم السلام والشخصيات الأُخرى هو نقش خاتمهم.

ويروي «الكليني» رحمه الله في الكافي حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ خاتم رسول الله كان من فضّة نقشه محمّد رسول الله»[2].

وجاء في بعض التواريخ أنّ إحدى حوادث السنة السادسة للهجرة أنّ النّبي ﷺ

---

(١) لسان العرب، وقاموس اللغة مادّة ختم: الخاتم ما يوضع على الطينة.

(٢) أورد هذا الخبر أيضاً البيهقي في سننه، ج١٠، ص١٢٨.

اختار لنفسه خاتماً نقش فيها، وذلك أنهم أخبروه أنّ الملوك لا يقرؤون الرسائل إذا لم تكن مختومة(١).

وجاء في كتاب «الطبقات»: أنّ النّبي ﷺ لمّا صمّم أن ينشر دعوته في الآفاق، ويكتب الرسائل إلى ملوك الأرض وسلاطينها أمر أن يصنعوا له خاتماً كتب عليه ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ وكان يختم به رسائله(٢).

بهذا البيان يتّضح جيداً أنّ الخاتم وإن أُطلق اليوم على خاتم الزينة أيضاً، إلاّ أنّ أصله مأخوذ من الختم، أي النهاية، وكان يطلق ذلك اليوم على الخواتيم التي كانوا يختمون بها الرسائل.

إضافةً إلى أنّ هذه المادّة قد استعملت في القرآن في موارد متعدّدة، وكلّها تعني الإنهاء أو الختم والغلق، مثل: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾(٣).
﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾(٤).

ومن هنا يعلم أنّ الذين شكّكوا في دلالة هذه الآية على كون نبيّ الإسلام ﷺ خاتم الأنبياء، وانتهاء سلسلة الأنبياء به، غير مطّلعين على معنى هذه الكلمة تماماً، أو أنّهم تظاهروا بعدم الإحاطة والاطلاع عليها، وإلاّ فإنّ من له أدنى إحاطة بآداب العرب يعلم أنّ كلمة «خاتم النّبيين» تدلّ على الخاتمية.

وإذا قيل - عند ذاك - في تفسير هذه الآية غير هذا التّفسير فإنّه تفسير متطفّل غير متّزن، كأن نقول: إنّ نبيّ الإسلام كان خاتم الأنبياء، أي أنّه زينة الأنبياء، لأنّ الخاتم آلة زينة للإنسان، ولا يمكن أن يوازي الإنسان في المرتبة مطلقاً، وإذا فسّرنا الآية بهذا التّفسير فسنكون قد حططنا من مقام النّبي ﷺ، وأنزلنا منزلته إلى أدنى المستويات، مع أنّه لا يناسب المعنى اللغوي، ولذلك فإنّ هذه الكلمة حيثما استعملت في القرآن الكريم - في ثمانية موارد - فإنّها أعطت معنى الإنهاء والإغلاق.

٢ - أدلّة كون نبيّ الإسلام خاتماً للأنبياء

بالرغم من أنّ الآية المذكورة كافية لوحدها في إثبات هذا المطلب، إلاّ أنّ الدليل على كون نبيّ الإسلام ﷺ خاتماً للأنبياء لا ينحصر بها، فإنّ آيات أُخرى في القرآن

---

(١) سفينة البحار، ج ١، ص ٣٨٦.
(٢) الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢٥٨.
(٣) سورة يس، الآية: ٦٥.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٧.

الكريم تشير إلى هذا المعنى، إضافةً إلى الروايات الكثيرة الواردة في هذا الباب:

فمن جملتها في الآية (١٩) من سورة الأنعام: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ فإنّ سعة مفهوم تعبير ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ توضّح رسالة القرآن ونبيّ الإسلام العالمية من جهة، ومسألة الخاتمية من جهة أُخرى.

وهناك آيات أُخرى تثبت عمومية دعوة نبيّ الإسلام لكلّ البشر، مثل: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾(١).

وكقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾(٢).

والآية: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾(٣).

إنّ ملاحظة سعة مفهوم «العالمين» و«الناس» و«الكافّة» تؤيّد هذا المعنى أيضاً. إضافةً إلى أنّ إجماع علماء الإسلام من جهة، وكون هذه المسألة ضرورية لدى المسلمين من جانب آخر، والروايات الكثيرة الواردة عن النّبي ﷺ وباقي أئمّة الهدى عليهم السلام من جانب ثالث توضّح هذا المطلب، ونكتفي هنا بذكر بعضها من باب الشاهد والمثال:

١ - ورد في الحديث المعروف عن النّبي ﷺ: «حلالي حلال إلى يوم القيامة، وحرامي حرام إلى يوم القيامة»(٤).

إنّ هذا التعبير مبيّن لاستمرار هذه الشريعة حتى نهاية العالم وفنائه.

وقد روي هذا الحديث بهذه الصيغة أحياناً: «حلال محمّد حلال أبداً إلى يوم القيامة، وحرامه حرام أبداً إلى يوم القيامة، لا يكون غيره، ولا يجيء غيره»(٥).

٢ - حديث المنزلة المعروف، والذي ورد في مختلف كتب الشيعة والسنّة، وهو في شأن علي عليه السلام وبقائه مكان النّبي في المدينة عندما توجّه ﷺ إلى غزوة تبوك، فإنّه يوضّح مسألة الخاتمية تماماً، لأنّا نقرأ في هذا الحديث أنّ النبي ﷺ قال لعلي عليه السلام: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبي بعدي»(٦).

(١) سورة الفرقان، الآية: ١. (٢) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

(٤) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٦٠ باب ٣١ حديث ١٧.

(٥) أُصول الكافي، ج ١، باب البدع والرأي والمقاييس حديث ١٩.

(٦) روى هذا الحديث محبّ الدين الطبري في ذخائر العقبى: ص٧٩ طبعة مكتبة القدس، وابن حجر في الصواعق المحرقة، ص١٧٧ طبعة مكتبة القاهرة، وفي تاريخ بغداد، ج ٧، ص٤٥٢ طبعة السعادة، =

٣ - وثمّة حديث مشهور أيضاً، وقد روي في كثير من مصادر العامّة، وذلك أنّ النّبي ﷺ قال: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله، فجعل الناس يطيفون به يقولون ما رأينا بنياناً أحسن من هذا إلاّ هذه اللبنة، فكنت أنا تلك اللبنة».

لقد ورد هذا الحديث في صحيح مسلم بعبارات مختلفة، وروي عن رواة عديدين، وقد وردت هذه الجملة «وأنا خاتم النّبيين» في ذيل الحديث الآنف الذكر في أحد الموارد.

ونرى في نهاية حديث آخر: «جئت فختمت الأنبياء»(١).

وقد ورد هذا الحديث أيضاً في صحيح البخاري - كتاب المناقب - ومسند أحمد بن حنبل، وسنن الترمذي والنسائي وكتب أُخرى، وهو من الأحاديث المعروفة والمشهورة جدّاً، وقد أورده مفسّرو الفريقين كالطبرسي في مجمع البيان، والقرطبي في تفسيره، في ذيل الآية مورد البحث.

٤ - لقد ورد كون نبيّ الإسلام ﷺ خاتماً للنبيين صريحاً في كثير من خطب نهج البلاغة، ومن جملة ذلك ما نراه في الخطبة ١٧٣ في وصف نبيّ الإسلام ﷺ، حيث يقول عليه السلام: «أمين وحيه، وخاتم رسله، وبشير رحمته، ونذير نقمته».

وجاء في الخطبة ١٣٣: «أرسله على حين فترة من الرسل، وتنازع من الألسن. فقفّى به الرسل، وختم به الوحي».

وقال عليه السلام في الخطبة الأُولى من نهج البلاغة، بعد أن عدّد تعليمات الأنبياء الماضين: «إلى أن بعث الله سبحانه محمّداً رسولاً لإنجاز عدته، وإتمام نبوّته».

٥ - وقد وردت مسألة الخاتمية في ختام خطبة الوداع، تلك الخطبة التي ألقاها نبيّ الإسلام ﷺ في آخر حجّة له، وفي آخر سنة من عمره المبارك، كوصيّة جامعة للناس، حيث قال: «ألا فليبلّغ شاهدكم غائبكم لا نبيّ بعدي، ولا أُمّة بعدكم» ثمّ رفع يديه إلى السماء حتى بان بياض إبطيه، فقال: «اللهمّ اشهد أنّي قد بلّغت»(٢).

= وكتب أُخرى ككنز العمّال، ومنتخب كنز العمال، وينابيع المودّة.
لمزيد الإيضاح حول حديث المنزلة راجع هذا التّفسير ذيل الآية (١٤٤) من سورة الأعراف.

(١) صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٧٩٠ - ١٧٩١ باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيّين من كتاب الفضائل.

(٢) بحار الأنوار، ج ٢١، ص٣٨١.

٦ - وجاء في حديث آخر ورد في «الكافي» عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ الله ختم بنبيّكم النبيّين فلا نبيّ بعده أبداً، وختم بكتابكم الكتب فلا كتاب بعده أبداً»(١).

إنّ الأحاديث الواردة في هذا الباب كثيرة جدّاً، بحيث جمع منها في كتاب (معالم النبوّة) ١٣٥ حديثاً من كتب علماء الإسلام عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وأئمّة الإسلام العظام(٢).

٣ - إجابة عن عدّة أسئلة

١ - كيف تتناسب الخاتمية مع سير الإنسان التكاملي؟

السؤال الأوّل الذي يُطرح في هذا البحث هو: هل يمكن أن يتوقّف المجتمع الإنساني؟ أترى يوجد لسير البشر التكاملي حدّ محدود؟ ألسنا نرى بأُمّ أعيننا أنّ بشر اليوم قد وصلوا في العلم والثقافة إلى مرحلة تفوق مستوى سابقيهم؟ فمع هذا الحال كيف يمكن أن يغلق سجلّ النبوّة مطلقاً، فيحرم الإنسان من قيادة أنبياء جُدد في سيره التكاملي؟

إنّ الإجابة عن هذا السؤال تتّضح بالالتفات إلى مسألة واحدة، وهي أنّ الإنسان يصل أحياناً إلى مرتبة من النضج الفكري والثقافي بحيث يكون قادراً على الاستمرار في طريقه بالاستعانة المستمرة بالأُصول والتعليمات التي تركها له النّبي الخاتم بصورة جامعة، دون أن يحتاج إلى شريعة جديدة.

وهذا الأمر يشبه تماماً أن يكون الإنسان محتاجاً لمعلّم جديد ومربّ آخر في كلّ مرحلة من مراحل الدراسة المختلفة، حتى يقضي المراحل المختلفة، أمّا إذا حصل على الدكتوراه، أو أصبح مجتهداً له رأيه في العلم أو العلوم المختلفة فإنّه لا يحتاج في دراسته إلى أُستاذ جديد، بل يباشر البحث والمطالعة والتحقيق استناداً إلى ما اكتسبه من الأساتذة السابقين، وخاصّة أُستاذه الأخير.

وبتعبير آخر، فإنّه يحلّ المشاكل والعقبات التي تعترضه بالاستعانة بتلك الأُصول الكليّة التي تعلّمها من أُستاذه الأخير، وبناءً على هذا فلا حاجة لأن يظهر دين جديد على مرّ الزمان (تأمّلوا ذلك).

وببيان آخر، فإنّ كلّ واحد من الأنبياء السابقين قد مهّد جانباً من مسير التكامل ليكون

---

(١) أُصول الكافي، ج ١، ح٣، (باب أن الأئمة بمن يشبهون ممن مضى و...).
(٢) معالم النبوّة. فصل نصوص كونه صلى الله عليه وآله وسلم خاتماً.

الإنسان قادراً على سلوك هذا الطريق الصعب نحو التكامل وينال الأهلية لاستقبال منهج كامل وجامع لهذا الطريق على يد آخر نبي أُرسل من قِبل الله تعالى.

من البديهي أنّه مع استلام الخريطة الكاملة والمخطّط الجامع سوف لا تكون هناك حاجة إلى مخطّط آخر، وهذا في الحقيقة هو التعبير الذي ورد في الرّوايات الدالة على كونه ﷺ خاتماً، والتي عدّت نبيّ الإسلام آخر لبنة، أو واضع آخر لبنة في قصر الرسالة البديع المحكم، وكلّ ذلك يؤكّد عدم الحاجة إلى دين جديد وشريعة مستحدثة.

أمّا فيما يتعلّق بمسألة القيادة والإمامة، والتي تعني الإشراف التامّ على تنفيذ هذه الأُصول، والأخذ بأيدي الناس في هذا الطريق، فهي مسألة أُخرى لا يمكن أن يستغني الإنسان عنها في أيّ حين، ولذلك فإنّ ختام سلسلة النبوّة لا يعني أبداً نهاية سلسلة الإمامة، لأنّ «تبيين» و«توضيح» هذه الأُصول و«تحقّقها في الخارج» لا يمكن أن يتمّ من دون الاستعانة بوجود قائد وإمام معصوم.

٢ - كيف تتلاءم القوانين الثابتة مع الحاجات المتغيّرة؟

بغضّ النظر عن مسألة السير التكاملي للبشر، فإنّ هناك سؤالاً آخر يطرح هنا، وهو: أنّنا نعلم أنّ مقتضيات الأزمنة والأمكنة ومتطلباتها متفاوتة، وبتعبير آخر فإنّ حاجات الإنسان في تغيّر مستمر، في حين أنّ للشريعة الخاتمة قوانين ثابتة، فهل تقوى هذه القوانين الثابتة على أن تؤمّن حاجات الإنسان المتغيّرة على مدى الزمان؟

ويمكن الإجابة على هذا السؤال جيداً بملاحظة المسألة التالية، وهي: أنّه لو كانت لكلّ قوانين الإسلام صفة الجزئية، وأنّها قد عيّنت لكلّ موضوع حكماً جزئياً معيناً لكان هناك مجال لهذا السؤال، أمّا إذا عرفنا بأنّ في تعليمات الإسلام سلسلة من الأُصول الكلية الواسعة جدّاً، والتي تقدر على أن تطابق الحاجات المتغيّرة وتؤمّنها، فلا يبقى مجال لهذا الإشكال.

إنّنا نرى استحداث سلسلة من الاتّفاقيات الجديدة والروابط الحقوقية بين البشر لم يكن لها وجود في عصر نزول القرآن بتاتاً، فمثلاً لم يكن في ذلك العصر شيء اسمه «الضمان» بفروعه المتعدّدة[1]، وكذلك أنواع الشركات التي ظهرت في عصرنا وزماننا

---

(١) طبعاً يوجد في الإسلام موضوعات تشبه الضمان في حدود خاصّة، كمسألة ضمان الجريرة، أو تعلّق ديّة الخطأ المحض بالعاقلة، إلاّ أنّ لها مجرّد شبه بالمسألة كما قلنا.

حسب الاحتياج اليومي، لكن يوجد لدينا في الإسلام أصل عامّ ورد في بداية سورة «المائدة» بعنوان «لزوم الوفاء بالعهد والعقد»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ وهو قادر على احتواء كلّ هذه الاتفاقيات.

وطبعاً هناك قيود وشروط بصورة عامّة وضعت لهذا الأصل العامّ في الإسلام، يجب أن تؤخذ بنظر الاعتبار أيضاً.

بناءً على هذا فالقانون الكلّي ثابت في هذا الباب بالرغم من أنّ مصاديقه متغيّرة، فلا مانع من أن يظهر مصداق جديد له في كلّ يوم.

ونضرب مثالاً آخراً، وهو: لدينا في الإسلام قانون مسلّم به، وهو قانون (لا ضرر) يمكن من خلاله تحديد أيّ حكم يكون منبعاً ومصدراً للضرر والخسارة في المجتمع، وعن هذا الطريق ترفع كثير من الاحتياجات، إضافةً إلى أنّ مسائل «لزوم حفظ المجتمع»، و«وجوب مقدّمة الواجب»، و«تقديم الأهمّ على المهمّ» يمكن أن تكون حلاً للمشاكل في كثير من الموارد.

وعلاوة على كلّ ذلك فإنّ الصلاحيات التي تمنح للحكومة الإسلامية عن طريق «ولاية الفقيه» تضع تحت تصرفها إمكانيات واسعة لحلّ المشاكل في إطار أُصول الإسلام العامّة.

إنّ بيان كلّ واحد من هذه الأُمور، مع الأخذ بنظر الاعتبار كون باب الاجتهاد - أي استنباط الأحكام الإلهيّة من المصادر الإسلامية - يحتاج إلى بحث واسع يبعدنا تناوله عن الموضوع ولكن مع ذلك فإنّ ما أوردناه هنا من باب الإشارة يمكن أن يكون جواباً للإشكال المذكور.

٣ - كيف يحرم البشر من فيض الارتباط بعالم الغيب؟

السؤال الآخر هو: إنّ نزول الوحي والاتّصال بعالم الغيب وما وراء الطبيعة يعتبر نافذة أمل لكلّ المؤمنين الحقيقيين، إضافةً إلى أنّه موهبة وفخر لعالم البشرية، ألا يعتبر قطع طريق الاتّصال هذا، وغلق نافذة الأمل هذه حرماناً عظيماً للبشر الذين يعيشون بعد وفاة خاتم الأنبياء؟

إنّ الإجابة على هذا السؤال تتّضح بملاحظة النقطتين أدناه، وهما:

الأُولى: إنّ الوحي والارتباط بعالم الغيب وسيلة لإدراك الحقائق ولمّا بُيّنت كلّ الاحتياجات والحقائق إلى يوم القيامة في الأُصول العامّة والتعليمات الجامعة التي وضعها خاتم النّبيين، لذلك فإنّ قطع طريق الاتّصال هذا لا يوجِد مشكلة.

الثّانية: إنّ ما يقطع إلى الأبد بعد ختم النبوّة هو الوحي لشريعة جديدة، أو لتكميل شريعة سابقة، لا كلّ أنواع الاتّصال بما وراء عالم الطبيعة، لأنّ للأئمّة ارتباطاً بعالم الغيب، وكذلك المؤمنون الحقيقيون الذين أزالوا الحجب عن قلوبهم ووصلوا إلى مقام المكاشفة والشهادة نتيجة تهذيبهم أنفسهم.

يقول الفيلسوف الشهير «صدر المتألّهين الشيرازي» في مفاتيح الغيب: «واعلم، أنّ الوحي إذا انقطع، وباب الرسالة إذا انسدّ استغنى الناس عن الرسل وإظهار الدعوة بعد تصحيح الحجّة وإكمال الدين، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[1] وأمّا باب الإلهام فلا ينسدّ، ومدد نور الهداية لا ينقطع لاحتياج الناس وهم يعيشون في هذه الوساوس إلى التنبيه والتذكير، والله تعالى غلق باب الوحي وفتح باب الإلهام رحمة منه على عباده»[2].

إنّ هذا الارتباط يتولّد عادةً من سموّ النفس وارتقاء الروح وتصفيتها وصفاء الباطن، ولا علاقة لها بمسألة النبوّة والرسالة، وبناءً على هذا فمتى ما تحقّقت مقدّماته وشروطه وجدت هذه الرابطة المعنوية، وبذلك فلم يكن أيّ بشر محروماً من هذا الفيض العظيم، ولن يكون - تأمّلوا ذلك -.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾

التّفسير

تحيّة الله والملائكة فرج للمؤمنين

لمّا كان الكلام في الآيات السابقة عن مسؤوليات نبيّ الإسلام ﷺ وواجباته الثقيلة الملقاة على عاتقه، فإنّ الآيات مورد البحث تبيّن جانباً من وظائف المؤمنين من أجل

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.
(٢) مفاتيح الغيب، ص٤١ - ٤٢. تفسير مفاتيح الغيب، ص١٣.

تهيئة الأرضية اللازمة لهذا التبليغ، وتوسعة أطرافه في جميع الأبعاد، فوجّهت الخطاب إليهم جميعاً وقالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ ونزّهوه صباحاً ومساءً ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

أجل... لمّا كانت عوامل الغفلة في الحياة المادية كثيرة جدّاً، وسهام وسوسة الشياطين ترمى من كلّ جانب صوب الإنسان، فلا طريق لمحاربتها إلاّ بذكر الله الكثير.

إنّ «الذكر الكثير» - بالمعنى الواقعي للكلمة - يعني التوجّه إلى الله سبحانه بكلّ الوجود، لا بلقلقة اللسان وحسب.

«الذكر الكثير» هو الذي يقذف النور في كلّ أعمال الإنسان، ويغمرها بالضياء، ولهذا فإنّ القرآن أمر كلّ المؤمنين في هذه الآية أن يذكروا الله على كلّ حال:

فاذكروه أثناء العبادة، فاحضروا قلوبكم وأخلصوا فيها.

واذكروه عند إقدامكم على المعصية وتجنّبوها وإذا ما بدرت منكم عثرة وهفوة فبادروا إلى التوبة، وارجعوا إلى طريق الحقّ.

واذكروه عند النِّعم واشكروه عليها.

واذكروه عند البلايا والمصائب واصبروا عليها وتحمّلوها.

والخلاصة: لا تنسوا ذكره في كلّ مشهد من مشاهد الحياة والابتعاد عن سخطه، والتقرّب لما يجلب رضاه.

ونطالع في حديث مروي في «سنن الترمذي» و«مسند أحمد» عن أبي سعيد الخدري عن النّبي الأكرم ﷺ: أنّه سئل: أي العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة؟ فقال: «الذاكرون الله كثيراً».

قال أبو سعيد: فقلت: يارسول الله، ومن الغازي في سبيل الله؟! قال: «لو ضرب بسيفه في الكفّار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دماً لكان الذاكرون أفضل درجة منه»(١)، وذلك لأنّ الجهاد المخلص لا يمكن أن يتمّ بدون ذكر الله الكثير.

ومن هنا يعلم أنّ للذكر الكثير معنىً واسعاً، وإذا ما فسّر في بعض الرّوايات بتسبيح فاطمة عليها السلام - وهو ٣٤ مرّة (الله أكبر) و٣٣ مرّة (الحمد لله) و٣٣ مرّة (سبحان الله) - وفي كلمات بعض المفسّرين بذكر الصفات العليا والأسماء الحسنى، وتنزيه الله سبحانه

(١) تفسير الدرّ المنثور، طبقاً لنقل الميزان، ج ١٦، ص ٣٥٣.

عمّا لا يليق به، فإنّ كلّ ذلك من باب ذكر المصداق الواضح، لا تحديد المعنى بخصوص هذه المصاديق.

وكما يظهر بوضوح من سياق الآيات، فإنّ المراد من «تسبيح الله» في كلّ غداة وعشي هو استمرار التسبيح، وذكر هذين الوقتين بالخصوص باعتبارهما بداية اليوم ونهايته، وما فسّرهما به البعض من أنّ المراد صلاتي الصبح والعصر، أو أمثال ذلك، فهو من قبيل ذكر المصداق أيضاً.

لهذا فإنّ ذكر الله الكثير، وتسبيحه بكرةً وأصيلاً لا يحصل إلاّ باستمرار التوجّه إلى الله، وتنزيهه عن كلّ عيب ونقص، وتقديسه المتّصل، فذكر الله غذاء لروح الإنسان كما أنّ الطعام والشراب غذاء للبدن.

وجاء في الآية (٢٨) من سورة الرعد ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ ونتيجة هذا الإطمئنان القلبي هو ما ورد في الآيات ٢٧ - ٣٠ من سورة الفجر، حيث تقول:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

والآية التالية بمثابة نتيجة وعلّة غائيّة للتسبيح في الواقع، فهي تقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي من ظلمات الشرك والكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم والتقوى ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ وبسبب هذه الرحمة كتب على نفسه هداية البشر وإرشادهم، وأمر ملائكته أن تعينهم في ذلك.

«يصلّي» من مادة (صلاة) وهي هنا تعني الرعاية والعناية الخاصّة، وهذه العناية بالنسبة لله تعني نزول الرحمة، وبالنسبة للملائكة تعني الاستغفار وطلب الرحمة، كما نقرأ ذلك في الآية (٧) من سورة غافر: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

وعلى أيّة حال، فإنّ هذه الآية تتضمّن بشارة عظيمة للمؤمنين الذاكرين الله على الدوام، فهي تقول بصراحة: إنّ هؤلاء ليسوا وحدهم في سيرهم إلى الله، بل إنّهم - بمقتضى ﴿يُصَلِّى﴾ وهو فعل مضارع يدلّ على الاستمرار - يسيرون في ظلّ رحمة الله وملائكته، وفي ظلّ هذه الرحمة تزاح حجب الظلمة، ويغمر قلوبهم وأرواحهم نور العلم والحكمة والإيمان والتقوى.

نعم... إنّ هذه الآية بشارة كبرى لكلّ سالكي طريق الحقّ بأنّ هناك جاذبية قوية من جانب المعشوق تجذب العاشق إليها لينتهي سعي هذا العاشق الصبّ إلى نتيجة ولا يذهب سدى!

إنّ هذه الآية ضمان لكلّ المجاهدين في سبيل الله أن لا ينالهم قَسَم الشيطان على إغواء بني آدم، لأنّهم في زمرة المخلِصين المخلَصين، وقد أظهر الشيطان عجزه عن إضلال هذه الزمرة منذ الوهلة الأولى فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾[1].

إنّ جملة ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ وبملاحظة أنّ ﴿وَكَانَ﴾ فعل ماض يدلّ على أنّ الله كان رحيماً بالمؤمنين رحمة خاصّة على الدوام، تأكيد مجدّد على ما جاء في بداية السورة.

أجل... هذه هي رحمة الله الخاصّة التي تخرج المؤمنين من ظلمات الأوهام والشهوات والوساوس الشيطانية، وتهديهم إلى نور اليقين والاطمئنان والسيطرة على النفس، ولولا رحمته سبحانه فإنّ هذا الطريق المليء بالمنعطفات والعراقيل لا يكون سالكاً.

وتجسّد الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث مقام المؤمنين وثوابهم بأروع تجسيد وأقصر عبارة، فتقول: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾.

«التحيّة» من مادّة «حياة»، وهي تعني الدعاء لسلامة وحياة أُخرى، ولمزيد التوضيح راجع التّفسير الأمثل ذيل الآية (٨٥) من سورة النساء.

هذا السلام يعني السلامة من العذاب، ومن كلّ أنواع الألم والعذاب والمشقّة، سلام ممتزج بالهدوء والاطمئنان.

ومع أنّ بعض المفسّرين يعتقد أنّ «تحيتهم» إشارة إلى سلام المؤمنين وتحية بعضهم بعضاً، إلاّ أنّ ملاحظة الآيات السابقة التي كان الكلام فيها عن الصلاة ورحمة الله والملائكة في هذه الدنيا، تُظهر أنّ هذه التحية أيضاً من الملائكة في الآخرة، كما نقرأ ذلك في الآيتين (٢٣) و (٢٤) من سورة الرعد: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴿٢٤﴾﴾.

ممّا قلناه اتّضح بصورة ضمنية أنّ المراد من جملة ﴿يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ هو يوم القيامة الذي سُمّي بيوم «لقاء الله»، وهذا التعبير يستعمل عادةً في القرآن بهذا المعنى.

---

(١) سورة ص، الآيتان: ٨٢ - ٨٣.

بعد هذه التحيّة، التي ترتبط ببداية الأمر، أشارت الآية إلى نهايته فقالت: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾.

إنّها جملة جمع فيها كلّ شيء على اختصارها، وأُخفيت فيها كلّ النِّعم والمواهب.

بحوث

١ - ذكر الله على كلّ حال

عندما يذكر اسم الله تعالى يتجلّى في قلب الإنسان عالم من العظمة والقدرة والعلم والحكمة، لأنّ له الأسماء الحسنى والصفات العليا، وربّ كلّ الكمالات، ومنزّه عن كلّ عيب ونقص.

إنّ التوجّه المستمر لمثل هذه الحقيقة التي لها تلك الصفات، يسوق روح الإنسان إلى الخيرات والأعمال الصالحة والطهارات، ويبعده عن السيّئات والقبائح، وبعبارة أُخرى فإنّ نور صفاته عزّوجلّ يتجلّى في روح الإنسان.

إنّ التوجّه إلى هكذا معبود عظيم يبعث على الإحساس الدائم بحضوره بين يديه تعالى، وهذا الإحساس يؤدّي إلى زيادة الفاصلة كثيراً بين الإنسان وبين الذنب والمعصية.

ذكر الله يعني تذكر مراقبته... ذكر حسابه وجزائه... ذكر محكمته العادلة... نعيمه وجحيمه... وهذا هو الذكر الذي يصفّي الروح، ويغمر القلب نوراً وحيوية.

لهذا ورد في الروايات الإسلامية أنّ لكلّ شيء حدّاً، إلاّ ذكر الله فإنّه لا حدّ له!

يقول الإمام الصادق عليه السلام في الرواية التي وردت في أُصول الكافي: «ما من شيء إلاّ وله حدّ ينتهي إليه، إلاّ الذكر فليس له حدّ ينتهي إليه».

ثمّ يضيف: «فرض الله عزّوجلّ الفرائض، فمن أدّاهنّ فهو حدّهنّ، وشهر رمضان فمن صامه فهو، والحجّ فمن حجّ حدّه، إلاّ الذكر، فإنّ الله عزّوجلّ لم يرض منه بالقليل، ولم يجعل له حدّاً ينتهي إليه، ثمّ تلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢)﴾[1].

ويقول الإمام الصادق عليه السلام في ذيل هذه الرواية: «وكان أبي كثير الذكر، لقد كنت

---

(١) أُصول الكافي، ج ٢، كتاب الدعاء. باب ذكر الله عزّوجلّ كثيراً.

أمشي معه وإنّه ليذكر الله، وآكل معه الطعام وإنّه ليذكر الله، ولقد كان يحدث القوم وما يشغله ذلك عن ذكر الله».

وأخيراً ينتهي هذا الحديث الغني المحتوى بهذه الجملة: «والبيت الذي يقرأ فيه القرآن، ويذكر الله عزّوجلّ فيه تكثر بركته، وتحضره الملائكة، وتهجره الشياطين، ويضيء لأهل السماء كما يضيء الكوكب الدرّي لأهل الأرض»(١).

إنّ هذا الموضوع من الأهميّة بمكان بحيث عُدّ «ذكر الله» في حديث يعدل خير الدنيا والآخرة، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «من أُعطي لساناً ذاكراً فقد أُعطي خير الدنيا والآخرة»(٢).

والروايات الواردة في أهميّة «ذكر الله» تبلغ من الكثرة حدّاً بحيث إنّا لو أردنا إيرادها جميعاً هنا لخرجنا عن وضع الكتاب وحدّه، ولذلك نختم هذا الحديث بحديث آخر قصير عميق المعنى عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «من أكثر ذكر الله عزّوجلّ أظلّه الله في جنّته»(٣).

ولمزيد الاطلاع في هذا المجال يُراجع المجلّد الثّاني من أُصول الكافي - الأبواب التي تتعلّق بذكر الله، وخاصّة الأبواب التي تقول: (إنّ الآفات والبلايا والمصائب لا تحيط بمن يذكرون الله).

وهناك مطلب ينبغي التأكيد عليه، وهو أنّ كلّ هذه البركات والخيرات لا ترتبط قطعاً بالذكر اللفظي وحركة اللسان الخالية من الفكر والعمل، بل الهدف هو الذكر الذي يكون مصدراً ومنبعاً للفكر... ذلك الفكر الذي يتجلّى نوره في أعمال الإنسان، كما صرّحت الروايات بهذا المعنى(٤).

٢ - توضيح حول «لقاء الله»

قلنا: إنّ هذا التعبير في القرآن المجيد يشير إلى القيامة عادةً، ولمّا كان اللقاء الحسّي لا يصدق في شأن الله، إذ ليس هو بجسم، وليس له العوارض الجسمية، ولذلك اضطر بعض المفسّرين إلى تقدير شيء هنا، فقالوا: إنّ المراد هو «لقاء ثواب الله»، أو «لقاء ملائكة الله».

(١-٢) أُصول الكافي، ج ٢، كتاب الدعاء. باب ذكر الله عزّوجلّ كثيراً.

(٣) المصدر السابق، ح٥.

(٤) خصال الصدوق، طبقاً لنقل تفسير الميزان، ج ١٦، ص ٣٥٣.

غير أنّ «اللقاء» يمكن أن يؤخذ هنا بمعنى اللقاء الحقيقي بعين القلب، حيث إنّ الحجب تُزال في القيامة وتتجلّى عظمة الله وآياته أكثر من أيّ وقت مضى، ويصل الإنسان إلى مقام المشاهدة الباطنية والرؤية القلبية، وينال كلّ شخص من هذه المشاهدة مرتبة تتناسب مع مقدار معرفته وعمله الصالح.

وللفخر الرازي في تفسيره هنا بيان جميل يمكن جمعه مع ما قلناه، فهو يقول: إنّ الإنسان يغفل في هذه الدنيا عن الله غالباً نتيجة لغرقه في الأُمور المادية، والسعي لتحصيل المعاش، إلاّ أنّه يتوجّه يوم القيامة بكلّ وجوده إلى ربّ العالمين، لأنّ كلّ هذه المشاغل الفكرية ستزول، وهذا هو معنى لقاء الله(١).

ثمّ إنّه اتّضح ممّا قلناه أنّ قول بعض المفسّرين بأنّ هذا التعبير إشارة إلى لحظة الموت واللقاء بملك الموت لا يناسب الآيات مورد البحث، ولا التعبيرات المشابهة الواردة في آيات القرآن الأُخرى، وخاصّة وأنّ ضمير المفعول الذي في جملة ﴿يَلْقَوْنَهُۥ﴾ جاء بصيغة المفرد، وهو إشارة إلى ذات الله المقدّسة في حين أنّ الملائكة التي تقبض الأرواح جمع، وجاءت كلمة «الملائكة» بصيغة الجمع في الآية السابقة أيضاً (إلاّ اللهمّ أن تقدّر كلمة ما).

٣ - أُجور المؤمنين معدّة منذ الآن!

إنّ جملة ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ توحي بأنّ الجنّة ونعمها قد خلقت، وهي بانتظار المؤمنين. ويمكن أن يتبادر هذا السؤال إلى الأذهان: إنّ التهيئة والإعداد يليقان بالشخص المحدود القدرة، حيث إنّه ربّما لا يستطيع في بعض الأحيان أن يهيىء وقت الحاجة ما يريد، إلاّ أنّ مثل هذه الحاجة إلى الاستعداد لا تصدق في شأن الله سبحانه، إذ إنّ قدرته لا تحدّ، وإذا أراد شيئاً في أيّة لحظة فإنّه يقول له: كن فيكون، فما هو المراد من التأكيد على التهيئة والإعداد في هذه الآية وسائر آيات القرآن الأُخرى؟!

وبملاحظة نقطة واحدة يحلّ هذا الإشكال، وهي أنّ تهيئة الشيء ليس نابعاً من كون القدرة محدودة دائماً، بل قد يكون أحياناً من أجل تهدئة الخاطر واطمئنان النفس أكثر، وقد يكون أحياناً من أجل زيادة الاحترام والإكرام، ولذلك فإنّنا إذا دعونا ضيفاً، وبدأنا بتهيئة وسائل استقباله وضيافته، فسنكون قد اهتممنا به واحترمناه أكثر، على عكس ما

---

(١) التّفسير الكبير للفخر الرازي، ج٢٥، ص٢١٥، ذيل الآية مورد البحث.

إذا قمنا بهذا الاستعداد لاستقباله يوم مجيئه، وفي ساعة وصوله، فإنّ هذا كاف لوحده في الدلالة على عدم اهتمامنا وقلّة احترامنا لهذا الضيف.

وفي الوقت نفسه، لا يمنع هذا الكلام من تعاظم الأجر والثواب وزيادته وفق العمل، وأنّ المؤمنين كلّما اجتهدوا أكثر في تهذيب أنفسهم وتطهيرها، فإنّ الأُجور الإلهيّة المعدّة لهم تتكامل أكثر وتعظّم، وتسير نحو الكمال بنفس النسبة التي يتكاملون فيها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٤٨﴾﴾

التّفسير

السّراج المنير!

الخطاب في هذه الآيات موجّه إلى النبي ﷺ، إلاّ أنّ نتيجته لكلّ المؤمنين، وبذلك فإنّها تكمل الآيات السابقة التي كانت تبحث في بعض وظائف المؤمنين وواجباتهم.

لقد جاءت في الآيتين الأوليين من هذه الآيات الأربع «خمس صفات» للنّبي ﷺ وجاء في الآيتين الأُخريين بيان خمسة واجبات يرتبط بعضها ببعض، وتكمّل إحداها الأُخرى.

تقول الآية أوّلاً: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ فهو من جانب شاهد على أعمال أُمّته، لأنّه يرى أعمالهم كما نقرأ ذلك في موضع آخر: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾(١). وهذا العلم يمكن تحقّقه عن طريق عرض أعمال الأُمّة على النّبي ﷺ والأئمّة عليهم السلام، وقد مرّ تفصيل ذلك في ذيل الآية المذكورة (١٠٥ من سورة التوبة).

وهو من جانب آخر شاهد على الأنبياء الماضين الذين كانوا شهوداً على أُممهم:

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[1].

ومن جهة ثالثة فإنّ وجودك بما لك من الصفات والأخلاق والبرامج والتعليمات البنّاءة، إضافةً إلى تاريخك المشرق وأعمالك المشرّفة، شاهد على أحقّية دينك، وشاهد على عظمة الله وقدرته.

ثمّ تطرّقت الآية إلى الصفتين الثّانية والثالثة فقالت: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ فهو مبشّر للمحسنين بثواب الله اللامتناهي... بالسلامة والسعادة الخالدة... بالظفر والتوفيق المليء بالفخر والاعتزاز... ونذير للكافرين والمنافقين من عذاب الله الأليم... من خسران كلّ رأسمال الوجود، ومن السقوط في شراك التعاسة في الدنيا والآخرة.

وكما قلنا سابقاً، فإنّ البشارة والإنذار يجب أن يقترنا في كلّ مكان، وأن يكون أحدهما معادل للآخر، لأنّ نصف وجود الإنسان عبارة عن حبّه لجلب المنفعة، ونصفه الآخر سعيه لدفع المضرّة عنه، فالبشارة تشكّل الدافع على القسم الأوّل، والإنذار على النصف الثاني، فالمناهج التي تعتمد على جانب واحد لم تدرك حقيقة الإنسان، ولم تدرك دوافعه وميوله[2].

وأشارت الآية التالية إلى الصفتين الرّابعة والخامسة، فقالت: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.

ملاحظات

وهنا ينبغي الانتباه إلى عدّة ملاحظات:

١ - لقد ذكر مقام «الشهادة»، وكون النّبي ﷺ شاهداً قبل جميع صفاته الأُخرى، وذلك لأنّ هذا المقام لا يحتاج إلى مقدّمة سوى وجود النّبي ورسالته، فعندما يتمّ نصبه في هذا المقام يكون شاهداً من جميع الجهات التي ذكرناها سابقاً، غير أنّ مقام «البشارة» و«الإنذار» أمر يتحقّق بعد ذلك.

٢ - إنّ الدعوة إلى الله سبحانه مرحلة تأتي بعد البشارة والإنذار، لأنّ البشارة والإنذار وسيلة لتهيئة الأفراد لقبول الحقّ، فعندما تتهيّأ هذه الأرضية عن طريق الترغيب

(١) سورة النساء، الآية: ٤١.
(٢) لقد أوردنا بحثاً مفصّلاً في هذا الباب تحت عنوان أصلان تربويان مهمّان، في ذيل الآية (١١٩) من سورة البقرة.

والترهيب، تبدأ مرحلة الدعوة إلى الله سبحانه، وستكون مؤثّرة في هذه الحالة فقط.

٣ - مع أنّ كلّ أعمال النّبي ﷺ بإذن الله وأمره، إلاّ أنّ الدعوة هي الوحيدة التي قيّدت بإذن الله هنا، وذلك لأنّ أشقّ أعمال الأنبياء وأهمّها هي الدعوة إلى الله سبحانه، حيث يجب عليهم أن يسوقوا الناس في طريق يخالف ميولهم وشهواتهم، فيجب أن تستبطن إذن الله وأمره ونصرته في هذه المرحلة ليتمّ تنفيذها، ومن هنا يتّضح أنّ النّبي ﷺ لا يملك شيئاً من عند نفسه، بل كلّ ما يقوله بإذن الله(١).

٤ - إنّ كون النّبي ﷺ ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ إشارة إلى المعجزات وأدلّة أحقّية دعوة الرّسول، وعلامة صدقها، فهو سراج منير شاهد بنفسه على نفسه، يزيح الظلمات ويلفت الأنظار ويجذب القلوب إليه، فكما أنّ بزوغ الشمس دليل على وجود الشمس، فكذلك وجوده ﷺ دليل على كونه حقّاً، ودليل على أحقّيته.

وممّا يستحقّ الانتباه أنّ لفظة «السراج» قد وردت في القرآن المجيد أربع مرّات، ثلاث منها في شأن الشمس، ومن جملتها ما ورد في الآية (١٦) من سورة نوح حيث تقول: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾.

«السراج» في الأصل يعني المصباح الذي يضاء سابقاً بواسطة الفتيلة والزيت، وبواسطة الطاقة الكهربائية وأمثالها في العصر الحاضر، فينبعث ضياؤه ونوره، إلاّ أنّه أُطلق - على قول الراغب في مفرداته - على كلّ مصدر للنور فيما بعد، وإطلاقه على الشمس من أجل أنّ نورها ينبع من داخلها، ولا تكتسب نورها من مصدر آخر كالقمر.

إنّ وجود النّبي ﷺ كالشمس المنيرة التي تزيح ظلمات الجهل والشرك والكفر عن سماء روح البشر، لكن كما لا ينتفع العمي بنور الشمس، وكما تخفي الخفافيش أنفسها عنه حيث لا طاقة لعيونها برؤية هذا النور، فإنّ عمي القلوب العنودين المتعصّبين لم يستفيدوا ولن يستفيدوا من هذا النور مطلقاً، وكان أبو جهل وأمثاله يضعون أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا صوت قرآنه ونغمته.

إنّ الظلام يبعث على الخوف والوحشة دائماً، والنور يبعث على الاطمئنان والراحة، فالسرّاق واللصوص يستغلّون ظلام الليل للسطو على الدور ونهب ما يقدرون عليه، والحيوانات المفترسة تخرج من مخابئها في ظلمة الليل غالباً.

---

(١) يحتمل أيضاً أنّ قيد (بإذنه) يعود إلى جميع الأوصاف السابقة، إلاّ أنّ ظاهر الآية هو أنّ الضمير يعود إلى مسألة الدعوة إلى الله.

الظلام يسبّب الفرقة، والنور يسبّب الاجتماع، ولذلك فإنّنا إذا أسرجنا سراجاً في ليلة مظلمة فستجتمع حوله أنواع الحشرات في فترة قصيرة.

إنّ النور والضياء أساس نمو الأشجار، ونضج الفواكه والأثمار، والخلاصة: كلّ نشاطات الحياة، وتشبيه وجود النّبي ﷺ بمصدر للنور يبعث على تداعي كلّ هذه المفاهيم في الذهن.

إنّ وجود النّبي ﷺ أساس الهدوء والاطمئنان، وفرار لصوص الدين والإيمان، وهرب الذئاب الضارية الظالمة لمجتمعاتها، يوجب هدوء الخاطر، ونمو روح الإيمان والأخلاق، والخلاصة: أساس الحياة والحركة، وتأريخ حياته شاهد حي على هذا الموضوع.

وفي الآيتين الأُخريين من الآيات مورد البحث بياناً لخمسة واجبات من واجبات النّبي الأكرم ﷺ المهمّة بعد بيان صفاته الخمس، فتقول أوّلاً: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ وهي إشارة إلى أنّ مسألة تبشير النّبي ﷺ لايحدّ بالثواب الإلهي بمقدار أعمال المؤمنين الصالحة، بل إنّ الله سبحانه يفيض عليهم من فضله بحيث تضطرب المعادلة بين العمل والجزاء تماماً كما تشهد بذلك الآيات القرآنية.

فتقول في موضع: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾(١).

وتقول في موضع آخر: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾(٢).

وقد تذهب أبعد من ذلك فتقول: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾(٣).

وبهذا فإنّ أبعاد الفضل الإلهي الكبير أوسع وأسمى ممّا يخطر في التصوّر والأوهام.

ثمّ تناولت الواجب الثّاني والثالث، فقالت: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾.

لا شكّ أنّ رسول الله ﷺ لم يطع الكافرين والمنافقين مطلقاً، إلاّ أنّ هذا الموضوع من الأهميّة بمكان، ولذلك أكّدت الآية على هذا الموضوع بالخصوص من باب التأكيد على النّبي ﷺ والتحذير والقدوة للآخرين، فهي تحذّرهم من الأخطار والعقبات المهمّة التي تعترض طريق القادة المخلصين، والتي تجرّهم إلى المساومة والتسليم أثناء

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.

(٣) سورة السجدة، الآية: ١٧.

المسيرة، وتتهيأ أرضية هذا التسليم عن طريق التهديد تارةً، وعن طريق منح الامتيازات تارةً أُخرى، حتى أنّ الإنسان قد يشتبه أحياناً فيظنّ أنّ الخضوع والامتثال لمثل هذه المساومة والاستسلام هو طريق الوصول إلى الهدف. في حين أنّ نتيجة هذا الاستسلام هي إجهاض كلّ الجهود والمساعي، وإحباط كلّ جهاد وكفاح.

إنّ تأريخ الإسلام يبيّن أنّ الكافرين والمنافقين سعوا مراراً إلى جرّ النّبي ﷺ إلى هذا الموضع، فاقترحوا مرّة أن لا يذكر الأصنام بسوء ولا ينتقدها وينتقصها، وقالوا مرّة أُخرى: ائذن لنا أن نعبد ربّك سنة، واعبد آلهتنا سنة، وكانوا يقولون أحياناً: أمهلنا سنة نقيم فيها على ديننا ثمّ نؤمن بك، واقترحوا عليه مرّة أن أبعد عنك فقراء المؤمنين ومساكينهم لنضمّ صوتنا - نحن الأثرياء ذوي المكانة - إليك، وكانوا يعلنون أحياناً استعدادهم لبذل الامتيازات المالية والمركز والمنصب الحسّاس، والنساء الجميلات وأمثال ذلك.

من المسلّم أنّ كلّ هذه كانت شراكاً خطيرة في طريق انتشار الإسلام السريع، واقتلاع جذور الكفر والنفاق، ولو كان النّبي ﷺ قد أظهر الليونة والميل إلى المساومة أمام واحد من هذه الإقتراحات فإنّ دعائم الثورة الإسلامية كانت ستنهار، ولم تكن الجهود لتصل إلى نتيجة مطلقاً.

ثمّ تقول في الأمرين الرابع والخامس: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

إنّ هذا الجزء من الآية يوحي بأنّهم قد وضعوا النّبي ﷺ تحت ضغط شديد لحمله على الاستسلام، واستخدموا ضدّه وضدّ أصحابه كلّ أنواع الأذى، سواء كان عن طريق جرح اللسان والكلام الفاحش والإهانة، أم عن طريق الأذى الجسمي، أو عن طريق الحصار الاقتصادي. وكان لهذا الأذى صورة وأُسلوباً في مكّة، وأُسلوباً آخر في المدينة، لأنّ «الأذى» جاء مطلقاً في الآية ويشمل كلّ أنواع الأذى.

ويرى «الراغب» في المفردات أنّ «الأذى» هو كلّ ضرر يصيب الكائن الحي، سواء في روحه، أو جسمه، أو يصيب من يرتبط به، سواء في الدنيا أو في الآخرة.

وقد استعملت هذه الكلمة في الآيات القرآنية في «الأذى اللساني» تارةً كالآية (٦١) من سورة التوبة، حيث تقول: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾.

واستعملت أيضاً بمعنى «الأذى البدني» في آيات أُخرى، كالآية (١٦) من سورة

النساء: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا﴾ أي يرتكبان الفاحشة، فأقيموا عليهما الحدّ الشرعي.

يقول التاريخ: إنّ النّبي ﷺ والمؤمنين الأوائل قد وقفوا كالجبل الأشمّ أمام أنواع الأذى، ولم يقبلوا عار الاستسلام والهزيمة قطّ، وأخيراً انتصروا في حركتهم.

وكان أساس هذه المقاومة ومعينها هو «التوكل على الله» والاعتماد على ذاته المقدّسة الله الذي تتيسّر كلّ الصعاب والمشاكل أمام إرادته... أجل يكفي الإنسان أن يكون معينه وناصره هذا الربّ الجليل.

وممّا قلناه اتّضح أنّ محتوى الآية المذكورة لم يكن نسخاً لحكم الجهاد - كما يظنّ ذلك بعض المفسّرين - بل الظاهر أنّ هذه الآيات قد نزلت بعد مدّة من نزول حكم الجهاد، وهي في مصافّ الحوادث المتعلّقة بسورة الأحزاب.

إنّ هذا حكم لكلّ العصور والقرون، بأن لا يصرف الأئمّة الإلهيون طاقاتهم الحيوية في الاهتمام بتحرّشات مخالفيهم، فإنّهم إن فعلوا ذلك وصرفوا قواهم وطاقاتهم في هذا المجال، يكون عدوّهم قد حقّق هدفه، لأنّه يريد أن يشغل فكر من يقابله، ويهدر طاقاته عن هذا الطريق... هنا يكون أمر ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ هو الحلّ الوحيد.

وهنا أمر يستحقّ الانتباه أيضاً، وهو: أنّ الأوامر الخمسة المذكورة، التي وردت في الآيتين الأخيرتين، يكمل بعضها بعضاً، ويرتبط بعضها ببعض، فإنّ تبشير المؤمنين لجذب القوى المؤمنة، وعدم الاستسلام للكفّار والمنافقين، وعدم الاهتمام بأذاهم، والتوكّل على الله تشكّل مجموعة مبادىء تؤدّي إلى الهدف، ودستور عمل جامع لكلّ سالكي طريق الحقّ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

التّفسير

جانب من أحكام الطلاق

إنّ آيات هذه السورة - الأحزاب - جاءت على شكل مجموعات مختلفة، والخطاب في بعضها موجّه إلى النّبي ﷺ، وفي بعضها الآخر إلى كلّ المؤمنين، ولذلك تقول أحياناً: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، وأحياناً أُخرى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ قد وردت فيها الأوامر

اللازمة يوازي بعضها بعضاً، وهذا يعني أنّ النّبي ﷺ كان مراداً بهذه التعليمات، كما أنّ عموم المؤمنين يرادون بها أيضاً.

والآية التي نبحثها من الآيات التي توجّه خطابها إلى كلّ المؤمنين، في حين أنّ الآيات السابقة خاطبت شخص النّبي ﷺ ظاهراً، ويتوجّه الخطاب إلى النّبي ﷺ في الآيات القادمة مرّة أُخرى، وبهذا فإنّ قسماً من هذه السورة يتّبع أُسلوب «اللفّ والنشر المرتّب».

تقول الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾.

لقد بيّن الله سبحانه هنا حكماً استثنائياً من حكم عدّة النساء المطلّقات، وهو أنّ الطلاق إن وقع قبل الدخول فلا تلزم العدّة، ومن هذا التعبير يفهم أنّ حكم العدّة كان قد بُيّن قبل هذه الآية.

إنّ التعبير بـ ﴿ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ لا يدلّ على أنّ الزواج من غير المسلمات ممنوع تماماً، بل من الممكن أن يكون إشارة إلى أولوية المؤمنات، وبناءً على هذا فإنّه لا ينافي الروايات ومشهور فتاوى الفقهاء بجواز الزواج المؤقّت من الكتابيات.

ثمّ إنّه يستفاد من تعبير ﴿لَكُمْ﴾ وكذلك جملة ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ أنّ انتظار عدّة المرأة يعتبر حقّاً للرجل، ويجب أن يكون هكذا، لأنّ من الممكن أن تكون المرأة حاملاً في الواقع، وتركها العدّة وزواجها برجل آخر يجعل حال الولد غير معلوم، ويؤدّي إلى ضياع حقّ الرجل إضافةً إلى أنّ انتظار العدّة يمنح الرجل والمرأة فرصة لتجديد النظر والرجوع إلى بعضهما، فقد يقع الطلاق نتيجة انفعالات شديدة، ومثل هذه الفرصة والتفكير حقّ للرجل والمرأة معاً.

وأمّا ما أورده البعض على هذا الحكم، بأنّ العدّة إن كانت حقّاً للرجل، فبإمكانه أن يسقط حقّه، فلا يصحّ، لأنّ في الفقه حقوقاً كثيرة لا يمكن إسقاطها، كالحقّ الذي لورثة الميّت في أمواله، أو الحقّ الذي للفقراء في الزكاة، إذ لا يقدر أي أحد على إسقاط هذا الحقّ الشرعي.

ثمّ تتطرّق الآية إلى حكم آخر من أحكام النساء اللاتي يطلقن قبل المباشرة الجنسية - والذي سبقت الإشارة إليه في سورة البقرة أيضاً - فتقول: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي أُعطوهنّ هدية مناسبة.

ولا شكّ أنّ تقديم هديّة مناسبة إلى المرأة يكون واجباً في حالة عدم تعيين المهر من

قبل، كما جاء في الآية (٢٣٦) من سورة البقرة ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ﴾.

بناءً على هذا، فإنّ الآية مورد البحث وإن كانت مطلقة، وتشمل الموارد التي عيّن فيها المهر، والتي لم يعيّن فيها، إلاّ أنّنا نحدّدها بالمورد الذي لم يعيّن فيه المهر بقرينة آية سورة البقرة، لأنّه في حالة تعيين المهر وعدم الدخول يجب دفع نصف المهر، كما جاء ذلك في الآية (٢٣٧) من سورة البقرة.

واحتمل بعض المفسّرين والفقهاء أنّ حكم تقديم هديّة مناسبة عام في الآية مورد البحث، ويشمل حتى الموارد التي عيّن فيها المهر، غاية ما هناك أنّ له صفة الاستحباب في هذه الموارد، وله صفة الوجوب في الموارد التي لم يعيّن فيها المهر. وتلاحظ في بعض الآيات والروايات إشارة إلى هذا المعنى أيضاً[(١)].

أمّا كم هو مقدار هذه الهدية؟ فقد بيّنه القرآن المجيد في سورة البقرة إجمالاً بقوله: ﴿مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[(٢)]. وكذلك قال في نفس تلك الآية: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾.

بناءً على هذا، فإن ذكرت في الروايات الإسلامية موارد من قبيل البيت والخادم واللباس وأمثال ذلك، فإنّها من قبيل المصاديق لهذا الكلّي وهي تتفاوت بحسب إمكانيات الزوج وشؤون المرأة.

وآخر حكم في الآية مورد البحث هو: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

«السراح الجميل» هو الطلاق المقترن بالمحبّة والاحترام، وترك كلّ خشونة وظلم وجور واحتقار، والخلاصة هو ما ورد في الآية (٢٩) من سورة البقرة: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ فإنّ الاستمرار في الحياة الزوجية يجب أن يكون قائماً على أساس المعايير الإنسانية، والطلاق كذلك، فلا يجوز للرجل - إذا صمّم على طلاق زوجته - هضم حقّ الزوجة ومهرها، وبذاءة الكلام والخشونة معها، فإنّ هذا السلوك غير إسلامي قطعاً، ولا يمتّ إلى الإسلام بصلة.

---

(١) كالآية (٢٤١) من سورة البقرة، ووردت روايات متعدّدة في هذا الباب ذكرت في وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٥٩ الباب ٥٠ من أبواب المهور من كتاب النكاح، ومن جملتها ما ورد عن علي عليه السلام «الكلّ مطلّقة متعة إلاّ المختلعة».

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٦.

واعتبر بعض المفسّرين «السراح الجميل» بمعنى إجراء الطلاق طبقاً للسنّة الإسلامية، وجاء هذا المعنى في الرّواية الواردة في تفسير علي بن إبراهيم وعيون الأخبار. إلاّ أنّ من المسلّم أنّ «السراح الجميل» لا يتحدّد بهذا المعنى، بالرغم من أنّه أحد مصاديقه.

واعتقد بعض آخر من المفسّرين أنّ السراح الجميل هنا يعني إذن الخروج من المنزل، لأنّ المرأة ليست مكلّفة هنا بالعدّة، وبناءً على هذا فيجب إطلاق سراحها لتذهب حيث شاءت.

إلاّ أنّ هذا المعنى يبدو بعيداً بملاحظة أنّ تعبير السراح الجميل، أو أمثاله في الآيات القرآنية الأُخرى قد ورد حتى في شأن النساء اللاتي يجب أن يعتددن.

وقد كان لنا بحث مفصّل حول المعنى الأصلي للسراح، وأصله اللغوي، ولماذا يستعمل في الإطلاقات المتعارفة بمعنى الطلاق والإطلاق في ذيل الآية (٢٨) من سورة الأحزاب هذه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾

التّفسير

يمكنك الزواج من هذه النّسوة

قلنا: إنّ بعض مقاطع هذه السورة تبحث واجبات النّبي ﷺ والمؤمنين على طريقة اللفّ والنشر المرتّب، ولذلك فبعد ذكر جانب من الأحكام المتعلّقة بطلاق النساء، وجّهت الخطاب هنا إلى النّبي ﷺ، وفصّلت الموارد السبعة التي يجوز للنّبي الزواج فيها من تلك النسوة:

١ - فقالت أوّلاً: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾. والمراد

من هؤلاء النساء - بقرينة الجمل التالية - النساء اللاتي لم يكنّ يرتبطن بالنّبي ﷺ برابطة قرابة وقد تزوّجنه، وربّما كانت مسألة دفع المهر لهذا السبب، لأنّ العرف المتّبع آنذاك هو أنّهم كانوا يدفعون المهر نقداً عند زواجهم من الأجنبيات، إضافةً إلى أفضلية التعجيل في هذا الدفع، وخاصّة إذا كانت الزوجة بحاجة إليه إلاّ أنّ هذا الأمر ليس من الواجبات على أي حال، إذ يمكن أن يبقى المهر ديناً في ذمّة الزوج إذا ما اتّفق الطرفان على ذلك.

٢ - ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾

﴿أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ من مادّة (الفيء)، وتقال للأموال التي يحصل عليها الإنسان بدون جهد ومشقّة، ولذلك يطلق (الفيء) على الغنائم الحربية، وكذلك الأنفال، وهي الثروات الطبيعية التي تعود إلى الحكومة الإسلامية ولا يملكها مالك بالخصوص.

يقول الراغب في مفرداته: الفيء بمعنى الرجوع إلى حالة محمودة، ومنه فاء الظلّ. (لحالة رجوع الظلّ) ثمّ قال: وقيل للغنيمة من دون مشقّة فيء. قال بعضهم: سمّي ذلك بالفيء تنبيهاً على أنّ أشرف أعراض الدنيا يجري مجرى ظلّ زائل.

صحيح أنّ الغنائم الحربية لا تنال في بعض الأحيان إلاّ بشقّ الأنفس وبذل الجهد المضني، إلاّ أنّ مشقّتها أقلّ من مشقّة تحصيل الأموال الأُخرى. وقد يطلق «الفيء» أحياناً على الأموال الطائلة التي يُحصل عليها من خلال هجوم واحد.

لكن مَن مِن نساء النّبي يصدق عليها هذا الحكم؟

قال بعض المفسّرين: إنّ إحدى نساء النّبي وهي «مارية القبطية» - كانت من الغنائم، وكانت زوجتان أُخريان - وهما «صفيّة» و«جويرية» - من الأنفال أعتقهما النّبي ﷺ ثمّ تزوّجهما، وكان هذا الفعل بنفسه جزءاً من خطّة الإسلام العامّة في تحرير العبيد التدريجي، وإرجاع الشخصية الإنسانية لهم.

٣ - ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ وبهذا فإنّ اللاّتي يحلّ للنّبي الزواج منهنّ من بين جميع الأقارب: بنات العمّ والعمّة، وبنات الخال والخالة، وبشرط أن يكنّ قد هاجرن مع النّبي ﷺ.

إنّ التحديد بهذه الفئات الأربع واضح، إلاّ أنّ شرط الهجرة من أجل أنّها كانت دليلاً على الإيمان في ذلك اليوم، وعدم الهجرة دليل على الكفر، أو لأنّ الهجرة تمنحهنّ

امتيازاً أكبر وفخراً أعظم، والهدف من الآية هو بيان النساء الفاضلات المؤهّلات لأن يصبحن زوجات للنبي ﷺ.

وهل لهذه الفئات الأربع التي ذكرت كحكم كلّي في الآية، مصداق خارجي من بين نساء النّبي أم لا؟ إنّ المورد الوحيد الذي يمكن ذكره كمصداق هو زواجه ﷺ بزينب بنت جحش، الذي مرّت قصّته المثيرة في طيّات هذه السورة، لأنّ زينب كانت بنت عمّة النّبي وكان «جحش» زوج عمّته(١).

٤ - ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ(من دون مهر) إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ أي أنّ هذا الحكم خاص للنّبي ﷺ ولا يشمل سائر المؤمنين ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ وبناءً على هذا فإذا كنّا قد حدّدنا بعض المسائل فيما يتعلّق بالزواج من هؤلاء النسوة، فقد كان ذلك استناداً إلى مصلحة حاكمة في حياتك وحياتهن، ولم يكن أيّ من هذه الأحكام والمقرّرات اعتباطياً وبدون حساب.

ثمّ تضيف الآية ﴿لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٌۗ﴾ وبالتالي ستكون قادراً على أداء المسؤوليات الملقاة على عاتقك في القيام بهذا الواجب ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾.

وفي مورد القسم الأخير - أي النساء اللاّتي لا مهر لهنّ - ينبغي الالتفات إلى النقاط أدناه:

١ - لا شكّ أنّ جواز اتّخاذ زوجة من دون مهر كان من مختّصات النّبي ﷺ والآية صريحة في هذه المسألة، ولذلك فهي من مسلّمات الفقه الإسلامي، وبناءً على هذا فلا يحقّ لأيّ امرىء أن يتزوّج امرأة بدون مهر، قلّ أم كثر، وحتى إذا لم يرد ذكر المهر أثناء إجراء صيغة العقد، ولم تكن هناك قرينة تعيّنه، فيجب أن يدفع مهر المثل، والمراد من مهر المثل: المهر الذي تجعله النساء اللاتي تشابهها في الأوصاف والخصوصيات لأنفسهنّ عادةً.

---

(١) ذكر بعض المفسّرين وجوهاً أوردها «الفاضل المقداد» في كنز العرفان، في أنّه لماذا ورد العمّ بصيغة المفرد والعمّات بصيغة الجمع، وكذلك الخال بصيغة المفرد والخالات بصيغة الجمع، إلاّ أنّ أفضلها هو أنّ العمّ والخال يستعملان كاسم للجنس في لغة العرب، وليس كذلك العمّات والخالات، وقد ذكر ابن العربي عرف أهل اللغة هذا (كنز العرفان، ج ٢، ص٢٤١).
وقد رجّح الآلوسي هذا الاحتمال في روح المعاني على كلّ الوجوه الأُخرى.

٢ - هناك بحث بين المفسّرين في أنّه هل لهذا الحكم الكلّي مصداق في مورد زوجات النّبي ﷺ أم لا؟

يعتقد البعض - كابن عبّاس وبعض آخر من المفسّرين - أنّ النّبي ﷺ لم يتزوّج بأيّة امرأة على هذه الحال، وبناءً على هذا فإنّ الحكم أعلاه كان إذناً عاماً للنّبي ﷺ إلاّ أنّه لم يطبّق عملياً مطلقاً.

في حين أنّ آخرين ذكروا أسماء ثلاث أو أربع نسوة من زوجات النّبي ﷺ اللاّتي تزوجهنّ بدون مهر، وهنّ: «ميمونة» بنت الحارث، و«زينب» بنت خزيمة، وكانتا من الأنصار، وامرأة من بني أسد، واسمها «أُمّ شريك» بنت جابر، و«خولة» بنت حكيم.

ومن جملة ما ورد في الروايات أنّ «خولة» عندما وهبت نفسها للنّبي ﷺ اعترضت عائشة، فقالت: ما بال النساء يبذلن أنفسهنّ بلا مهر؟! فنزلت الآية أعلاه، غير أنّ عائشة التفتت إلى النّبي ﷺ وقالت: أرى الله يسارع في هواك - وكان هذا نوع من التعريض بالنّبي ﷺ - فقال لها النّبي ﷺ: «وإنّك إن أطعت الله سارع في هواك»(١).

لا شكّ أنّ أمثال هؤلاء النسوة كنّ لا يطمعن إلاّ في الفخر المعنوي عن طريق الاقتران بالنّبي ﷺ، ولذلك كنّ على استعداد للزواج منه بدون أيّ مهر، إلاّ أنّ وجود مثل هذا المصداق للحكم أعلاه غير مسلّم من الناحية التأريخية كما قلنا، بل المسلّم أنّ الله سبحانه كان قد أذن لنبيّه بذلك للغاية التي سنشير إليها فيما بعد.

٣ - يستفاد من هذه الآية جيّداً أنّ إجراء صيغة عقد الزواج بلفظ «الهبة» كان مختصّاً بالنّبي ﷺ فقط، ولا يستطيع أيّ فرد آخر أن يجري عقد الزواج بهذا اللفظ، ويجوز إجراء العقد بلفظ الزواج أو النكاح، حتى وإن لم يجر للمهر ذكر فيه، حيث يجب دفع مهر المثل عند عدم ذكر المهر كما قلنا آنفاً، فكأنّه في الحقيقة قد صرّح بمهر المثل.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٨، ص٣٦٥، ذيل الآية مورد البحث، وفي تفسير القرطبي جملة: (والله ما أرى بك إلاّ يسارع في هواك). وأوردها الآلوسي في روح المعاني أيضاً في ذيل الآية مورد البحث، إنّ قبح هذا التعبير، والمعنى الذي أُخفي فيه لا يخفى على أحد، إلاّ أنّ النّبي ﷺ كان يمرّ عليه ويتجاوزه بشكل رائع.

بحث

جانب من حكمة تعدّد زوجات النّبي

إنّ الجملة الأخيرة في الآية أعلاه إشارة في الواقع إلى فلسفة هذه الأحكام الخاصّة بنبيّنا الأكرم، حيث تقول: إنّ للنّبي ﷺ ظروفاً لا يعيشها الآخرون، وهذا التفاوت في الظروف أصبح سبباً للتفاوت في الأحكام.

وبتعبير أوضح، إنّ الهدف من هذه الأحكام رفع بعض المشاكل والصعوبات عن كاهل النّبي ﷺ. وهذا تعبير لطيف يبيّن أنّ زواج النّبي ﷺ من عدّة نساء كان لحلّ سلسلة من المشاكل الاجتماعية والسياسية في حياته، لأنّا نعلم أنّ النّبي ﷺ كان وحيداً حينما صدع بنداء الإسلام ورفع شعاره، ولم يؤمن به بعد مدّة طويلة سوى عدّة معدودة، فإنّه ثار ضدّ كلّ معتقدات عصره وبيئته الخرافية، وأعلن الحرب ضدّ الجميع، فمن البديهي أن تتّحد كلّ الأقوام والقبائل ضدّه.

في هذا الوضع كان لابدّ من أن يستعين بكلّ الوسائل ويستغلّها لكسر اتّحاد الأعداء اللامشروع، وكانت إحدى هذه الوسائل هو الزواج من القبائل المختلفة لإيجاد علاقة قرابة ونسب، لأنّ رابطة القرابة كانت تعدّ أقوى الروابط بين عرب الجاهلية، وكانوا يعتبرون الصهر من نفس القبيلة، والدفاع عنه واجباً، وتركه وحيداً جريمة وذنباً.

إنّ لدينا قرائن كثيرة تبيّن أنّ زواج النّبي ﷺ المتعدّد كان له صبغة سياسيّة في كثير من الموارد على أقلّ تقدير، وأحدها - كزواجه بزينب - كان لكسر سنّة جاهلية، وقد بيّنا تفصيله في ذيل الآية (٣٧) من هذه السورة، وبعضه لتقليل العداوة، أو لجلب محبّة أشخاص أو أقوام متعصّبين عنودين.

من الواضح أنّ شخصاً يتزوّج وهو في سنّ الخامسة والعشرين، حيث كان في عنفوان شبابه، بامرأة أيّم لها أربعون سنة، ويكتفي بها حتى الثالثة والخمسين من عمره، وبهذا يكون قد قضى مرحلة الشباب وبلغ سنّ الكهولة، ثمّ يقدم على الزواج المتعدّد، لابدّ أن يكون له سبب وفلسفة، ولا يمكن أن يفسّر بأيّ وجه من الوجوه بأسباب العلاقة والرغبة الجنسية، لأنّه لم يكن هناك مانع اجتماعي، أو ظروف مالية صعبة، أو أدنى نقص يمنع النّبي ﷺ من الزواج المتعدّد في سنيّ شبابه، خاصّة وأنّ تعدّد الزوجات كان أمراً

طبيعياً بين العرب آنذاك، بل ربّما كانت الزوجة الأُولى تذهب لخطبة الزوجة الثّانية، ولم يكونوا يعترفون بأيّ حدّ في اتّخاذ الزوجات.

والطريف أنّه قد ورد في التواريخ أنّ النّبي لم يتزوّج إلاّ بكراً واحدة، وهي عائشة، وباقي نسائه كنّ أيامى جميعاً ومن الطبيعي أن لا يتمتعنّ بإثارة جنسية ملحوظة[١].

بل نقرأ في بعض التواريخ أنّ النّبي ﷺ تزوّج بعدّة زوجات، ولم يجر إلاّ مراسم العقد، ولم يباشرهنّ أبداً، بل إنّه اكتفى في بعض الموارد بخطبة بعض نساء القبائل فقط[٢].

وقد كان هؤلاء يفرحون ويسرّون ويفتخرون بأنّ امرأةً من قبيلتهم قد سمّيت بزوجة النّبي ﷺ فحصل لهم هذا الفخر، وبذلك فإنّ علاقتهم الاجتماعية بالنّبي كانت تشتدّ وتقوى، ويصبحون أكثر تصميماً على الدفاع عنه.

ومن جانب آخر، فمع أنّ النّبي ﷺ لم يكن رجلاً عقيماً، إلاّ أنّه لم يكن له من الأولاد إلاّ القليل، في حين أنّ هذا الزواج المتعدّد لو كان بسبب جاذبية هذه النسوة، وإثارتهنّ الجنسية، فينبغي أن يكون له من الأولاد الكثير.

وكذلك ينبغي الالتفات إلى أنّ بعض هذه النساء - كعائشة - كانت صغيرة جدّاً عندما أصبحت زوجة للنّبي ﷺ، وقد مرّت سنين حتى استطاعت أن تكون زوجة حقيقية له، وهذا يوحي بأنّ الاقتران بمثل هذه البنت الصغيرة كانت له أهداف أُخرى، وكان الهدف الأصلي هو ما أشرنا إليه قبل قليل.

وبالرغم من أنّ أعداء الإسلام أرادوا أن يتّخذوا من تعدّد زواج النّبي ﷺ حربة لأشدّ هجماتهم المغرضة، ويحوكون منها أساطير أوهى من خيط العنكبوت للطعن في نبيّ الإسلام ﷺ إلاّ أنّ سنّ النّبي المتقدّمة عند إقدامه على تكرار الزواج من جهة، والظروف الخاصّة المتعلّقة بالنساء من ناحية العمر والقبيلة من جانب آخر، والقرائن المختلفة التي أشرنا إلى قسم منها آنفاً من جهة ثالثة تجعل الحقيقة واضحة كالشمس، وتحبط مؤامرات المغرضين وتفضحها.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ١٩١ - ١٩٢.
(٢) المصدر السابق.

﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُئْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ۖ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾

سبب النّزول

قلنا في تفسير الآيتين ٢٨ و٢٩ من هذه السورة وبيان سبب النّزول: إنّ جمعاً من نساء النّبي - بناءً على ما نقله المفسّرون - قلن للنبيّ ﷺ: زد في نفقتنا وأُمور معاشنا - طمعاً في الغنائم الحربية، فكنّ يحسبن أنّ قسماً كبيراً منها من نصيبهنّ فنزلت الآيات المذكورة وخاطبتهنّ بصراحة بأنهنّ إن أردن الحياة الدنيا وزينتها فليفارقن النّبي إلى الأبد، وإن أردن الله ورسوله واليوم الآخر فليعشن معه حياة بسيطة.

إضافةً إلى أنّه كانت بينهنّ منافسة في كيفية تقسيم أوقات حياة النّبي ﷺ بينهنّ، وكنّ يحرجن النّبي ويضايقنه مع كلّ المشاكل والمشاغل التي كانت لديه، ومع أنّ النّبي ﷺ كان يراعي العدالة بينهنّ ويبذل الجهد اللازم لتحقيقها تماماً، فقد كان لغطهنّ وجدالهنّ مستمرّاً، فنزلت هذه الآية وجعلت النّبي ﷺ حرّاً في تقسيم أوقاته، ثمّ أعلنت الآية لهنّ أنّ هذا حكم إلهي لئلاّ يتولّد في أنفسهن أي قلق وسوء ظنّ[١].

التّفسير

حلّ مشكلة أُخرى في حياة النّبي ﷺ

إنّ قائداً ربّانياً عظيماً كالنّبي ﷺ خاصّة وأنّه ابتلي بسيل من الحوادث الصعبة المرّة، وكانوا يحوكون له الدسائس والمؤامرات داخلياً وخارجياً، لا يقدر أن يشغل فكره بحياته الخاصّة كثيراً، بل يجب أن يكون له هدوء نسبي في حياته الداخلية ليقوى على التفرّغ لحلّ سيل المشاكل التي أحاطت به من كلّ جانب.

إنّ اضطراب الحياة الشخصية، وكون قلبه وفكره مشغولين بوضعه العائلي في هذه اللحظات المضطربة الحسّاسة كان أمراً خطيراً للغاية.

(١) اقتباس من تفسير مجمع البيان، ج٨، ص٣٦٦، وتفاسير أُخرى.

ومع أنّ زواج النّبي ﷺ المتعدّد - وطبقاً للبحوث السابقة، والوثائق والمستندات التي أوردناها في تفسير الآية السابقة - كانت له أبعاد سياسية واجتماعية وعاطفية غالباً، وكان في الحقيقة جزءاً من تنفيذ وتطبيق رسالة الله سبحانه، إلاّ أنّ الاختلاف بين زوجات النّبي، والمنافسة النسوية المعروفة بينهنّ، قد أثار في الوقت نفسه عاصفة من الاضطراب داخل بيت النّبي ممّا شغل فكره وزاد في همّه.

هنا منح الله سبحانه نبيّه إحدى الخصائص الأُخرى، وأنهى هذه الحوادث والأخذ والعطاء في الجدل إلى الأبد، وأراح فكر النّبي ﷺ من هذه الجهة، وهدأ خاطره وروعه، فقال سبحانه في هذه الآية: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾.

﴿تُرْجِى﴾ من (الإرجاء)، أي: التأخير، و﴿وَتُـْٔوِىٓ﴾، من (الإيواء) ويعني استضافة شخص في بيتك.

ونعلم أنّ أحكام الإسلام في شأن الزوجات المتعدّدة تقضي بأن يقسّم الزوج أوقاته بينهنّ بصورة عادلة، فإن بات ليلة عند واحدة، فيجب أن يبيت الليلة الأُخرى عند غيرها، إذ لا فرق ولا اختلاف بين النساء من هذه الجهة، ويعبّرون عن هذا الموضوع في الكتب الفقهيّة الإسلامية بـ«حقّ القَسم».

فكانت إحدى مختصّات النّبي ﷺ هي سقوط رعاية حقّ القسم منه بحكم الآية أعلاه، وذلك نتيجة للظروف الخاصّة التي كان يعيشها، والأوضاع المضطربة التي كانت تحيط به من كلّ جانب، وخاصّة أنّ الحرب كانت تُفرض عليه كلّ شهر تقريباً، وكان له في نفس الوقت زوجات متعدّدة، وبسقوط هذا الواجب عنه فقد كان قادراً على أن يقسّم أوقاته كيف يشاء، غير أنّه ﷺ كان يراعي تحقيق العدالة ما أمكن رغم هذه الظروف، كما جاء ذلك في التواريخ الإسلامية صريحاً.

إلاّ أنّ وجود هذا الحكم الإلهي قد منح نساء النّبي الراحة والاطمئنان، وأضفى على حياته الداخلية الهدوء والسكينة.

ثمّ تضيف الآية: وعندما ترغب عن إحداهن وتعتزلها، ثمّ ترغب فيها فلا تثريب عليك: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾.

وبهذا فليس الخيار بيدك في البداية وحسب، بل إنّه بيدك حتى في الأثناء أيضاً، وهو في الاصطلاح «تخيير استمراري» لا ابتدائي، وبهذا الحكم الواسع ستقطع كلّ الحجج

من برنامج حياتك فيما يتعلّق بأزواجك، وتستطيع أن تسخّر فكرك لمسؤوليات الرسالة العظيمة الثقيلة.

ومن أجل أن تعلم نساء النبي بأنهنّ إن أذعنّ لأمر الله تعالى في مسألة تقسيم أوقات النّبي ﷺ فإنّه يعتبر وسام فخر لهنّ يضاف إلى الفخر بكونهنّ أزواج النبي ﷺ، إذ إنّ هذا التسليم نوع من التضحية والإيثار، وليس فيه أيّ عيب وانتقاص، ولذلك يضيف سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾.

وذلك أوّلاً: لأنّ هذا الحكم عامّ يشملهنّ جميعاً ولا يتفاوتن فيه، وثانياً: إنّ الحكم الذي يشرّع من جانب الله سبحانه إنّما يشرّع لمصلحة مهمّة، وبناءً على هذا فيجب الإذعان له برغبة ورضا، فينبغي مضافاً إلى عدم القلق والتأثّر أن يفرحن لذلك.

لكن النّبي ﷺ - وكما أشرنا إلى ذلك - كان يراعي تقسيم أوقاته بينهنّ بالعدالة قدر المستطاع، إلاّ في الظروف الخاصّة التي كانت توجب عدم التسوية وتحتّمه، وكان هذا بحدّ ذاته مطلباً آخر يبعث على ارتياحهنّ، لأنّهنّ كنّ يرين أنّ النبي ﷺ يسعى للتسوية بينهنّ مع كونه مخيّراً.

وأخيراً ينهي المطلب بهذه الجملة: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ لا يستعجل في إنزال العقاب بالمذنبين.

أجل... إنّ الله يعلم بأيّ حكم قد رضيتم، وله أذعنتم بقلوبكم، وعن أي حكم لم ترضوا.

وهو سبحانه يعلم أيّاً من أزواجكم تحبّون أكثر، ومن منهنّ تحظى باهتمام أقل، ويعلم كيف تراعون حكمه وتنفّذوه مع هذا الاختلاف في الميول والرغبات.

وكذلك يعلم سبحانه مَن هم الذين يجلسون جانباً، ويعترضون على أحكام الله في شأن النّبي ﷺ، ويعارضونها بقلوبهم، ويعلم مَن هو الذي يرضى عن هذه الأحكام ويتقبّلها بدون اعتراض.

بناءً على هذا فإنّ تعبير ﴿قُلُوبِكُمْ﴾ واسع يشمل النّبي ﷺ وأزواجه، ويشمل كلّ المؤمنين الذين يقبلون بهذه الأحكام، أو الذين يعترضون عليها وينكرونها وإن لم يبدوا هذا الاعتراض والإنكار.

ملاحظة:

هل كان هذا الحكم في حقّ كلّ نساء النّبي صلى الله عليه وآله وسلم؟

لقد كانت هذه المسألة موضع بحث في الفقه الإسلامي في باب خصائص النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنّ تقسيم الأوقات بين الزوجات المتعدّدة بالتساوي هل يجب على النّبي صلى الله عليه وآله وسلم كما يجب على عامّة المسلمين، أم أنّ النّبي كان له حكم التخيير الاستثنائي؟

المعروف والمشهور بين فقهائنا وعند جمع من فقهاء العامّة أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان مستثنى من هذا الحكم، ويعدّون الآية المذكورة أعلاه دليلاً على ذلك، فهي تقول: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ لأنّ جعل هذه الجملة بعد البحث حول كلّ نساء النّبي يوجب أن يعود ضمير (هنّ) عليهنّ جميعاً، وهذا مطلب مقبول من جانب الفقهاء وكثير من المفسّرين.

إلاّ أنّ البعض يرى أنّ الضمير أعلاه يتعلّق بالنساء اللاتي وهبن أنفسهنّ للنّبي بدون مهر[1]، في حين أنّه لم يثبت تاريخياً أنّ هذا الحكم قد تحقّق في الخارج، وأنّ له موضوعاً ومصداقاً أم لا، والبعض يرى أنّ النّبي لم يتزوّج على هذه الشاكلة إلاّ امرأة واحدة. وعلى كلّ حال، فإنّ أصل المسألة لم يثبت من الناحية التاريخية هذا أوّلاً.

ثانياً: إنّ هذا التّفسير خلاف الظاهر، ولا يتناسب مع سبب النّزول الذي ذكروه لهذه الآية، وبناءً على هذا فيجب قبول الحكم المذكور عاماً.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾

التّفسير

حكم مهمّ آخر فيما يتعلّق بأزواج النّبي صلى الله عليه وآله وسلم

لقد بيّن الله سبحانه في هذه الآية حكماً آخر من الأحكام المتعلّقة بزوجات النّبي، فقال عزّ وجلّ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ

(١) لمزيد من الإيضاح يراجع تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث وكنز العرفان، ج٢، ص٢٣٨، وما بعد.

إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ فالآية منعت الرّسول من الزواج الجديد إلاّ الإماء والجواري ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾.

للمفسّرين وفقهاء الإسلام بحوث كثيرة في هذه الآية، ووردت في المصادر الإسلامية روايات مختلفة في هذا الباب، ونحن نذكر أوّلاً ما يبدو من ظاهر الآية أنّه مرتبط بالآيات السابقة واللاحقة - بغضّ النظر عن أقوال المفسّرين - ثمّ نتناول المطالب الأُخرى.

الظاهر من تعبير ﴿مِنْ بَعْدُ﴾ أنّ الزواج محرّم عليك بعد هذا، وبناءً على هذا فإنّ (بعد) إمّا أن تعني (بعد) الزمانية، أي لا تتّخذ زوجة بعد هذا الزمان، أو أنّ المراد أنّك بعد أن خيّرت أزواجك بين البقاء معك والحياة حياة بسيطة في بيتك، وبين فراقهنّ، وقد رجّحن البقاء معك عن رغبة منهنّ، فلا ينبغي أن تتزوّج بعدهنّ بامرأة أُخرى.

وكذلك لا يمكنك أن تطلّق بعضهنّ وتختار مكانهنّ زوجات أُخر. وبتعبير آخر: لا تزد في عددهنّ، ولا تبدّل الموجود منهنّ.

مسائل مهمّة

١ - فلسفة هذا الحكم

إنّ هذا التحديد للنّبي ﷺ لا يعتبر نقصاً، بل هو حكم له فلسفة دقيقة جدّاً، فطبقاً للشواهد التي تستفاد من التاريخ، أنّ النّبي ﷺ كان تحت ضغط شديد من قبل مختلف الأفراد والقبائل بأن يتزوّج بنساء أُخر منهم، وكلّ واحدة من القبائل المسلمة كانت تفتخر على قبائل العرب بأنّ النّبي قد صاهرهم وحتى أنّ بعض النساء كنّ على استعداد أن يهبن أنفسهنّ للنّبي بدون مهر - كما مرّ ذلك - ويتزوّجنه بدون أيّ قيد أو شرط.

كانت هذه العلاقة الزوجية مع تلك القبائل والأقوام حلاً لمشاكل النّبي ﷺ ومحقّقة لأهدافه الاجتماعية والسياسية، غير أنّها إذا تجاوزت الحدّ، فمن الطبيعي أن تخلق له المشاكل بنفسها، وبما أنّ كلّ قبيلة كانت تأمل أن يتزوّج النّبي منها، فلو أراد النّبي ﷺ أن يحقّق آمال الجميع، ويختار منهم أزواجاً، حتى وإن كانت بمجرّد العقد ولا يدخل بها، فإنّ ذلك سيوجد له مصاعب جمة، ولذلك فإنّ الله الحكيم قد منع هذا الأمر ووقف دونه بإصدار قانون محكم، فنهاه عن الزواج الجديد، وعن تبديل أزواجه.

لقد كان هناك أفراد في هذا الوسط يتوسّلون للوصول إلى هدفهم بحجّة أنّ أغلب

أزواجك أيامى، ومن بينهنّ من لاحظ لها من الجمال، فاللائق بك أن تتزوّج بامرأة ذات جمال، ولذلك فإنّ القرآن أكّد على هذه المسألة بأنّه لا يحقّ لك أن تتزوّج النساء فيما بعد وإن أعجبك حسنهنّ وكنّ ذوات جمال.

إضافةً إلى أنّ أداء الجميل ورعايته كان يوجب أن يسنّ الله تعالى مثل هذا القانون، ويأمر به نبيّه لحفظ مقام أزواجه بعد أن أبدين وفاءهن، ورجّحن الحياة البسيطة المعنوية مع النّبي ﷺ على أي شيء آخر.

وأمّا فيما يتعلّق بالجواري والمملوكات باليمين حيث أُبيح الزواج منهنّ، فإنّما هو من أجل أنّ مشكلة النّبي كانت من ناحية الحرائر، ولذلك لم تكن هناك ضرورة تدعو إلى تحديد هذا الحكم في طرف الجواري، مع أنّ النّبي ﷺ لم يستفد من هذا الاستثناء طبق الشواهد التاريخية.

هذا هو الشيء الذي يبدو من ظاهر الآية.

٢ - الروايات المخالفة

اعتبرت جملة: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ في روايات عديدة - بعضها ضعيفة من ناحية السند، وبعضها يستحقّ الملاحظة - إشارةً إلى النساء اللواتي بُيّن تحريمهم في الآيتين (٢٣ و٢٤) من سورة النساء - وهنّ الأُمّ والبنت والأُخت والعمّة والخالة و. . ، وصرّح في ذيل بعض هذه الأخبار بأنّه: كيف يمكن أن تكون النساء حلالاً على الآخرين وحراماً على النّبي؟ فلم تكن أيّة امرأة محرّمة عليه سوى ما حرّم على الجميع[1].

طبعاً، يبدو بعيداً جدّاً أن تكون الآية تشير إلى الآيات الواردة في سورة النساء، إلاّ أنّ المشكلة هنا أنّ بعض الروايات قد صرّحت بأنّ المراد من ﴿مِنْ بَعْدُ﴾: بعد المحرّمات في آية سورة النساء.

بناءً على هذا، فإنّ الأفضل هو أن نغضّ النظر عن تفسير روايات الآحاد هذه، أو كما يقال: ندع علم ذلك إلى أهله، أي المعصومون عليهم السلام، لأنّها لا تنسجم مع ظاهر الآية، ونحن مكلّفون بظاهر الآية، والأخبار المذكورة أخبار ظنّية.

والمطلب الآخر هو أنّ جماعة كثيرة تعتقد بأنّ الآية مورد البحث قد حرّمت كلّ زواج جديد على النّبي ﷺ إلاّ أنّ هذا الحكم قد نُسخ فيما بعد، وأُذن له بالزواج،

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٢٩٤ - ٢٩٥.

وإن كان النّبي ﷺ لم يتزوّج بعد ذلك، حتى الآية: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ . . . ﴾ والتي نزلت قبل الآية مورد البحث، فإنّهم يعتبرونها ناسخة لهذه الآية. ويعتقدون بأنّ هذه الآية وإن كانت قد كتبت في القرآن بعد آية: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا . . . ﴾ إلاّ أنّ الأخيرة قد نزلت قبلها! بل وينقل «الفاضل المقداد» في كنز العرفان بأنّ هذه هي الفتوى المشهورة بين الأصحاب(١).

وهذا الرأي يتعارض مع الروايات أعلاه بوضوح، وكذلك لا ينسجم مع ظاهر الآيات أيضاً، لأنّ ظاهر الآيات يوحي بأنّ آية ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ قد نزلت قبل الآية مورد البحث، ومسألة النسخ تحتاج إلى دليل قطعي.

وعلى كلّ حال، فليس لدينا شيء أكثر اطمئناناً ووضوحاً من ظاهر الآية نفسها، وطبقاً لذلك فإنّ كلّ زواج جديد، أو تبديل زوجات قد حُرّم على النّبي ﷺ بعد نزول هذه الآية، وكان لهذا الحكم مصالح ومنافع هامّة أشرنا إليها فيما سبق.

٣ - هل يمكن النظر إلى زوجة المستقبل قبل الزواج؟

اعتبر جمع من المفسّرين جملة ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ دليلاً على حكم معروف أُشير إليه في الروايات الإسلامية أيضاً، وهو: أنّ من أراد من أن يتزوّج بامرأة يستطيع النظر إليها من قبل نظرة تبيّن له هيكلها وأوصافها.

وحكمة هذا الحكم أن يختار الإنسان زوجته عن بصيرة تامّة ولا يندم ويأسف في المستقبل وهو ما يهدّد العلاقة الزوجية والكيان العائلي بالخطر، كما ورد ذلك في حديث عن النّبي الأكرم ﷺ أنّه قال لأحد أصحابه حينما أراد أن يتزوّج: «انظر إليها، فإنّه أجدر أن يدوم بينكما»(٢).

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال في جواب هذا السؤال: هل يستطيع الرجل أن يدقّق النظر إلى المرأة إذا أراد الزواج منها وينظر إلى وجهها وخلفها: «نعم، لا بأس أن ينظر الرجل إلى المرأة إذا أراد أن يتزوّجها، ينظر إلى وجهها وخلفها»(٣).

---

(١) كنز العرفان، ج ٢، ص ٢٤٤. (٢) تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٥٣٠٣.
(٣) وسائل الشيعة، ج ١٤، الباب ٣٦ من أبواب مقدّمات النكاح الحديث ٣.

والأحاديث الواردة في هذا الباب كثيرة، وقد صرّح بعضها بأنّ هذه النظرة يجب أن لا تكون بدافع الشهوة وطلب اللذّة.

وواضح أيضاً أنّ هذا الحكم خاصّ بالموارد التي يريد فيها الإنسان أن يتحقّق فعلاً من المرأة التي يريد الزواج منها، بحيث لو كانت الشروط مجتمعة فيها لتزوّجها، أمّا الذي لم يصمّم على الزواج بعد، بل يحتمله، أو أنّه يريد مجرّد البحث، فلا يجوز له النظر إلى النساء.

واحتمل البعض في هذه الآية أنّها إشارة إلى النظر للنساء صدفة ولا إرادياً، وعلى هذا فإنّ الآية لا تدلّ في هذه الحالة على الحكم المذكور آنفاً، وستكون الروايات هي الدليل الوحيد عليه. إلاّ أنّ جملة: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ لا تنسجم مع نظرة الصدفة السريعة، وبناءً على هذا فإنّ دلالتها على الحكم المذكور تبدو بعيدة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾

سبب النزّول

ذكر المفسّرون في سبب نزول هذه الآية: أنّ النّبي ﷺ لـمّا تزوّج «زينب بنت جحش» أولم للناس وليمة فخمة تقريباً، وقلنا سابقاً: إنّ هذه الأحكام ربّما كانت من أجل تحطيم سنّة جاهلية في مجال تحريم مطلّقات الأدعياء بحزم تامّ، وليكون لهذا التحطيم شعاع أوسع، ولتمحى هذه السنّة الجاهلية التي كانت تعتبر الزواج بأيامى العبيد المحرّرين عيباً وعاراً.

يقول «أنس»، وكان خادماً خاصّاً للنّبي: أمرني النّبي أن أدعو أصحابه للغداء

فدعوتهم، فكانوا يأتون جماعة يأكلون ويخرجون، حتى قلت: يارسول الله، لم يبق أحد لم أدعه، فأمر برفع السماط، فرفعوا السماط وتفرّق القوم، إلاّ ثلاثة نفر بقوا في بيت النّبي وكانوا مشغولين بالحديث.

فلمّا رأى النّبي ﷺ حديثهم قد طال، نهض ونهضت معه لعلّ القوم يلتفتون ويذهبون إلى أعمالهم، فخرج النّبي حتى أتى حجرة عائشة، ثمّ رجع مرّة أُخرى وكنت معه، فرأيت القوم على جلستهم وحالهم، فنزلت الآية أعلاه وأفهمتهم كيفية التعامل مع هذه المسائل(١).

ويستفاد من بعض الرّوايات أيضاً أنّ الجيران وسائر الناس كانوا يأتون إلى بعض نساء النّبي ويستعيرون أشياء حسب المتعارف والمعتاد، وبالرغم من أنّهم لم يكونوا يرتكبون معصية وذنباً طبقاً لبساطة الحياة آنذاك، إلاّ أنّ الآية أعلاه نزلت لحفظ حيثيّة زوجات النّبي وأمرت المؤمنين أنّهم إن أرادوا أن يأخذوا من نساء النّبي شيئاً فليأخذوه من وراء حجاب.

وجاء في رواية أُخرى أنّ بعض مخالفي النّبي قالوا: كيف تزوّج النّبي بعض نسائنا، أما والله لئن مات لنتزوجنّ نساءه، فنزلت الآية أعلاه وحرّمت الزواج بنساء النّبي من بعده مطلقاً، وأنهت هذه المؤامرة(٢).

التّفسير

مرّة أُخرى يوجّه الخطاب إلى المؤمنين، لتبيّن الآية جانباً آخر من أحكام الإسلام ضمن جمل قصيرة بليغة وصريحة، وخاصّة ما كان مرتبطاً بآداب معاشرة النّبي ﷺ وبيت النبوّة، فتقول أوّلاً: لا ينبغي لكم دخول بيوت النّبي إلاّ إذا دُعيتم إلى طعام وأُذِن لكم بالدخول بشرط أن تدخلوا في الوقت المقرّر، لا أن تأتوا قبل ذلك بفترة وتجلسون في انتظار وقت الغداء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾(٣).

بهذا تبيّن الآية أحد آداب المعاشرة المهمّة، والتي كانت قلّما تراعى في تلك البيئة،

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٦٦ ذيل الآية مورد البحث.
(٢) المصدر السابق، ص٣٦٦ و٣٦٨.
(٣) «إناه» من مادة «أنى يأني» أي حلول وقت الشيء، وتعني هنا تهيئة الطعام للتناول.

ومع أنّ الكلام يدور حول بيت النّبي إلاّ أنّ من المسلّم أنّ هذا الحكم لا يختصّ به، إذ ينبغي أن لا تدخل دار أي إنسان بدون إذنه (كما جاء ذلك في الآية ٢٧ من سورة النور) بل نقرأ في أحوال النّبي ﷺ أنّه عندما كان يريد دخول بيت ابنته فاطمة (سلام الله عليها)، كان يقف خارجاً ويستأذن، وكان معه «جابر بن عبد الله» يوماً، فاستأذن له بعد أن استأذن لنفسه[1].

إضافةً إلى أنّهم إذا دُعوا إلى طعام فينبغي أن يكونوا عارفين بالوقت، لئلاّ يوقعوا صاحب البيت في جهد وإحراج في غير مكانه.

ثمّ تناولت الحكم الثّاني فقالت: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾.

وهذا الحكم مكمّل ومؤكّد للحكم السابق في الواقع، فلا تدخلوا البيت الذي دُعيتم إليه في غير زمان الدعوة، وفي وقت غير مناسب، ولا تهملوا إجابة الدعوة أو أن لا تعبؤوا بها، ولا تتأخّروا بعد تناول الطعام مدّة طويلة.

من البديهي أنّ مخالفة هذه الأُمور وعدم اتّباعها سيؤدّي إلى أذىً واشمئزاز المضيف، وهي لا تلائم الأُصول الأخلاقية.

وتقول في الحكم الثالث: ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ فلا تجلسوا حلقاً تتحدّثون بعد تناول الطعام، سواء كان ذلك في بيت النّبي، أم في بيت أي صاحب دعوة.

طبعاً، قد يرغب المضيفون في مثل هذه الحلقات والمجالس، فهذه الحالة مستثناة، إنّما الكلام في ما لو كانت الدعوة لتناول الطعام فقط، لا لتشكيل مجالس الأُنس، حيث تجب مغادرته بعد تناول الطعام، خاصّة إذا كان البيت كبيت رسول الله ﷺ، مقرّ أداء أكبر رسالات الله وأعظمها، فيجب أن لا يهدر وقته بأُمور جانبية تعوقه مدّة عن تأدية رسالته.

ثمّ تبيّن الآية علّة هذا الحكم فتقول: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾.

من المسلّم أنّ النّبي ﷺ لم يكن يتردّد لحظة، ولا يخشى شيئاً، أو يستحيي من شيء في بيان الحقّ في الموارد التي لم يكن لها بعد شخصي وخاصّ، إلاّ أنّ بيان الحقّ إذا كان يعود على القائل نفسه ليس بالأمر الجميل الحسن، أمّا تبيانه من قبل الآخرين

(١) أصول الكافي، ج ٥، ص٥٢٨.

فإنّه رائع ومستحسن، ومورد الآية من هذا القبيل أيضاً، فإنّ أُصول الأخلاق والأدب كانت توجب على النّبي ﷺ أن لا يدافع عن نفسه، بل يدافع الله سبحانه عنه.

ثمّ تبيّن الآية الحكم الرابع في باب الحجاب، فتقول: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾.

قلنا: إنّ هذا الأمر كان ولا يزال متعارفاً بين العرب وكثير من الناس أنّهم إذا احتاجوا شيئاً من لوازم الحياة ووسائلها فإنّهم يستعيرونها من جيرانهم مؤقتاً، ولم يكن بيت النّبي مستثنى من هذا القانون، بل كانوا يأتون إليه سواء كان الوقت مناسباً أم غير مناسب، ويستعيرون من نساء النّبي شيئاً، ومن الواضح أن جعل نساء النّبي عرضة لأنظار الناس - وإن كن يرتدين الحجاب الإسلامي - لم يكن بالأمر الحسن، ولذلك صدر الأمر إلى الناس أن يأخذوا الأشياء من خلف حجاب أو من خلف الباب.

والمسألة التي ينبغي الانتباه إليها هنا هي أنّه ليس المراد من الحجاب في هذه الآية لباس النساء، بل هو حكم يضاف إلى ما كان خاصّاً بنساء النّبي، وهو: أنّ الناس مكلّفون إذا أرادوا شيئاً من نساء النّبي أن يأخذوه من وراء حجاب لظروف نساء النّبي الخاصّة، ويجب عليهنّ أن لا يخرجن إلى الناس ويظهرن لهم في مثل هذه الموارد حتى وإن كن محجّبات، وهذا الحكم لم يرد طبعاً في شأن النساء الأُخريات، بل يكفيهنّ أن يراعين الحجاب الإسلامي.

والشاهد على ذلك أنّ كلمة «الحجاب»، وإن كانت تستعمل في المحادثات اليومية بمعنى حجاب المرأة، إلاّ أنّها ليس لها مثل هذا المعنى لا في كتب اللغة، ولا في تعبيرات فقهائنا.

«الحجاب» في اللغة هو الشيء الذي يحول بين شيئين(١)، ولذلك أُطلق على الغشاء الموجود بين الأمعاء والقلب والرئة اسم «الحجاب الحاجز».

وقد استعمل القرآن الكريم هذه الكلمة بمعنى الحائل أو الساتر في عدّة مواضع، كالآية (٤٥) من سورة الإسراء حيث تقول: ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾.

ونقرأ في الآية (٣٢) من سورة ص: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾.

---

(١) لسان العرب مادّة حجب.

وجاء في الآية (٥١) من سورة الشورى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾.

أمّا في كلمات الفقهاء فقد استعملت كلمة «الستر» فيما يتعلّق بلباس النساء منذ قديم الأيّام وإلى يومنا هذا، وورد أيضاً في الرّوايات الإسلامية هذا التعبير أو ما يشبهه، واستعمال كلمة «الحجاب» في شأن لباس المرأة اصطلاح ظهر في عصرنا على الأكثر، وإذا وجد في التواريخ والرّوايات فقليل جدّاً.

والشاهد الآخر هو ما نقرؤه في الحديث المروي عن «أنس بن مالك» خادم النّبي الخاص، حيث يقول: أنا أعلم الناس بهذه الآية - آية الحجاب - لمّا أُهديت زينب إلى رسول الله كانت معه في البيت - صنع طعاماً، ودعا القوم فقعدوا يتحدّثون، فجعل النّبي يخرج ثمّ يرجع وهم قعود يتحدّثون، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ﴾ - إلى قوله - ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ فضرب الحجاب وقام القوم(١).

وفي رواية أُخرى عن «أنس» أنّه قال: أرخى الستر بيني وبينه، فلمّا رأى القوم ذلك تفرّقوا(٢).

بناءً على هذا فإنّ الإسلام لم يأمر النساء المسلمات بأن يجلسن خلف الستور، ولا يبرحن دورهن، وليس لكلمة «المستورات» أو «المحجّبات» وأمثال ذلك من التعبيرات صفة إسلامية أو بعد إسلامي بالنسبة للنساء، بل إنّ ما يلزم المرأة المسلمة هو محافظتها على الحجاب الإسلامي، إلاّ أنّ نساء النّبي قد أُمرن بهذا الأمر الخاص بسبب وجود أعداء كثيرين، ومتتبعين للعيوب والمغرضين، وكان من الممكن أن يصبحن عرضة للتهم، وحربة تقع بيد الانتهازيين.

وبتعبير آخر: إنّ الناس قد أُمروا أن يسألوا نساء النّبي ما يبتغونه من وراء حجاب. خاصّة وأنّ التعبير بـ﴿وَرَآءِ﴾ يشهد لهذا المعنى.

ولذلك بيّن القرآن فلسفة هذا الحكم فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

وبالرغم من أنّ مثل هذا التعليل لا ينافي الحكم الاستحبابي، إلاّ أنّ ظهور الأمر في جملة ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ﴾ لا يتزلزل في دلالته على الوجوب، لأنّ مثل هذا التعليل قد ورد أحياناً في موارد أحكام واجبة أُخرى.

(١-٢) صحيح البخاري، ج٦، ص١٤٩.

ثمّ تبيّن الآية الحكم الخامس بأنّه ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ فبالرغم من أنّ هذا العمل قد ذكر في نفس الآية، وهو الذهاب إلى بيت النّبي ﷺ في وقت غير مناسب، والجلوس بعد تناول الطعام، فقد ورد في روايات سبب النّزول أنّ بعض المنافقين كانوا قد أقسموا على أن يتزوّجوا نساء النّبي من بعده، وقد آلم ذلك رسول الله ﷺ. ولكن معنى الآية عام على كلّ حال، فهو يشمل كلّ نوع من الأذى.

وأخيراً تبيّن الآية الحكم السادس والأخير في مجال حرمة الزواج بنساء النّبي من بعده، فقالت: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾.

وهنا يأتي سؤال، وهو: كيف حرّم الله نساء النّبي من اتّخاذ زوج لهنّ بعد وفاة النّبي ﷺ، وقد كان بعضهنّ شابات تقريباً؟

وجواب هذا السؤال يتّضح بملاحظة الغاية من هذا التحريم، وذلك لأنّه:

أوّلاً: كما علمنا من سبب النّزول، فإنّ البعض صمّم على هذا العمل كانتقام من النّبي ﷺ وإهانة لقدسيته، وكانوا يريدون أن ينزلوا ضربة بكيانه ﷺ عن هذا الطريق.

ثانياً: لو كانت هذه المسألة جائزة، فإنّ جماعة كانوا سيتّخذون زوجات النّبي ﷺ أزواجاً لهم من بعده، وكان من الممكن أن يستغلّوا هذا الزواج لتحقيق مآربهم والوصول إلى مكانة اجتماعية مرموقة، أو أنّهم يبدؤون بتحريف الإسلام على أساس أنّهم يمتلكون معلومات خاصّة صادرة من داخل بيت النّبي ﷺ، وأهل البيت أدرى بالذي فيه، أو أن يبثّ المنافقون بين الناس مطالب عن هذا الطريق تخالف مقام النبوّة - تأمّلوا ذلك -.

ونلمس ذلك بصورة أوضح عندما نعلم أنّ جماعة هيؤوا أنفسهم للقيام بهذا العمل، وصرّح بذلك بعضهم، وكتمه البعض الآخر في قلبه، وكان من جملة من ذكره بعض مفسّري العامّة هنا هو «طلحة»(١).

إنّ الله المطّلع على الأسرار الخفيّة والمعلنة، والخبير بها، قد أصدر حكماً قاطعاً لإحباط هذه الخطّة الخبيثة، وليمنع من وقوع هذه الأمور، ولتحكيم دعائم هذا الحكم فقد أطلق لقب (أُمّهات المؤمنين) على أزواج النّبي ليعلم أُولئك بأنّ الزواج منهنّ

---

(١) تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٥٣١٠.

كالزواج من أُمّهاتهم! وبملاحظة ما قيل يتّضح لماذا وجب على نساء النّبي أن يتقبّلن هذا الحرمان بكلّ رحابة صدر؟

قد تطرح أحياناً مسائل مهمّة على مدى حياة الإنسان، يجب أن يظهر تجاهها التضحية والإيثار، وأن يغضّ النظر عن بعض الحقوق التي ثبتت له، خاصّة وأنّ الافتخارات العظيمة تصاحبها مسؤوليات خطيرة، ولا شكّ أنّ أزواج النّبي قد اكتسبن فخراً لا يضاهى وعزّاً لا يسامى بزواجهنّ من النّبي ﷺ، واكتساب هذا الفخر يحتاج إلى مثل هذه التضحية.

لهذا السبب كانت نساء النّبي يعشن من بعده بكلّ احترام وتقدير بين الأُمّة الإسلامية، وكن راضيات جدّاً عن حالهنّ، ويعتبرن ذلك الحرمان مقابل هذه الافتخارات أمراً تافهاً.

وحذّرت الآية الثّانية الناس بشدّة، فقالت: ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ فلا تظنّوا أنّ الله سبحانه لا يعلم ما خططتم له في سبيل إيذاء النّبي ﷺ سواء ما ذكرتموه، أو الذي أضمرتموه، فإنّه تعالى يعلم كلّ ذلك جيداً، ويعامل كلّ إنسان بما يناسب عمله.

بحوث

مناسبة للبحث الذي ورد في الآيات المذكورة في شأن واجبات المسلمين عندما يدعون إلى ضيافة النّبي ﷺ، نورد جانباً من تعليمات الإسلام فيما يتعلّق بأصل مسألة «الضيافة»، وحقّ الضيف، وواجبات المضيف:

١ - الضيافة

لقد أولى الإسلام مسألة الضيافة أهميّة خاصّة، حتى أنّه ورد في حديث عن النّبي ﷺ: «الضيف دليل الجنّة»[1].

إنّ أهميّة الضيف ووجوب احترامه وتقديره، بلغ حدّاً اعتبر فيه هدية سماوية، فإنّ رسول الله ﷺ يقول: «إذا أراد الله بقوم خيراً أهدى إليهم هدية، قالوا: وما تلك الهدية؟ قال: الضيف ينزل برزقه، ويرتحل بذنوب أهل البيت»[2].

(١-٢) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٤٦٠ باب ٩٣ حديث ١٤.

والطريف أنّ رجلاً حضر عند النّبي ﷺ فقال: فداك أبي وأُمّي، إنّي أُسبغ الوضوء، وأُقيم الصلاة، وأؤتي الزكاة في حينها، وأُرحّب بالضيف وأقريه في الله، فقال ﷺ: «بخ بخ بخ! ما لجهنّم عليك سبيل! إنّ الله قد برأك من الشحّ إن كنت كذلك»[١].

الكلام في هذا الباب كثير، ونكتفي بهذا القدر رعاية للاختصار.

٢ - مراعاة البساطة في الضيافة

مع كلّ الأهمّية التي يتمتّع بها الضيف، فإنّ الضيافة إذا اتّسمت بالتكلّف فإنّها غير راجحة من وجهة نظر الإسلام، بل ونهى عنها، فإنّ الإسلام يوصي بأن تكون الضيافة بسيطة، وجعل معياراً عادلاً بين الضيف والمضيف، وهو: أن لا يبخل المضيف بما عنده ويحضره، وأن لا يتوقّع الضيف أكثر من ذلك!

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «المؤمن لا يحتشم من أخيه، وما أدري أيّهما أعجب؟! الذي يكلّف أخاه إذا دخل عليه أن يتكلّف له، أو المتكلّف لأخيه؟»[٢].

ويروي سلمان الفارسي عن النّبي الأكرم ﷺ أنّه قال: «أن لا نتكلّف للضيف ما ليس عندنا، وأن نقدّم إليه ما حضرنا»[٣].

٣ - حقّ الضيف

قلنا: إنّ الضيف كالهدية السماوية من وجهة نظر الإسلام، ويجب أن يرحّب به ويكرم غاية الإكرام، ويحترم أقصى ما يمكن، حتى أنّ أمير المؤمنين علياً عليه السلام يروي عن النّبي الأكرم ﷺ أنّه قال: «من حقّ الضيف أن تمشي معه فتخرجه من حريمك إلى البر»[٤].

ويجب تهيئة مستلزمات راحته إلى الحدّ الذي لا يبلغ التكلّف، حتى أنّه ورد في حديث أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ من حقّ الضيف أن يعد له الخلال»[٥].

وقد يكون الضيوف خجولين أحياناً، ولذلك فقد صدر أمر بعدم سؤالهم عمّا إذا كانوا قد تناولوا الطعام أم لا، بل يمدّ لهم السماط فإن شاؤوا أكلوا، كما يقول الإمام

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٤٦٠ باب ٩٣ حديث ١٤.
(٢) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٤٥٣.
(٣) المحجّة البيضاء، ج ٣، ص ٢٩ الباب الثالث.
(٤) المصدر السابق، ص ٤٥١.
(٥) المصدر السابق، ص ٤٥٥.

الصادق عليه السلام : «لا تقل لأخيك إذا دخل عليك أكلت اليوم شيئاً؟ ولكن قرّب إليه ما عندك، فإنّ الجواد كلّ الجواد من بذل ما عنده»(١).

ومن جملة واجبات المضيف أمام الله سبحانه أن لا يحقّر الطعام الذي أعدّه، لأنّ نعمة الله سبحانه عزيزة ومحترمة مهما كانت، إلاّ أنّ المتعارف بين المترفين وأهل التكلّف أنّهم مهما نوّعوا السماط وملؤوه بأنواع الأطعمة فإنّهم يقولون: هذا شيء بسيط لا يليق بمقامكم!

وفي المقابل يجب أن لا يحتقر الضيف ما قدّم إليه، ففي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «هلك امرؤ احتقر لأخيه ما يحضره، وهلك امرؤ احتقر من أخيه ما قدّم إليه»(٢).

إنّ الإسلام دقيق النظرة في إكرام الضيف، فهو يقول: استقبل الضيف وأعنه عندما يدخل إلى بيتك، أمّا إذا أراد الخروج فلا تعنه لئلاّ يتصوّر بأنّك راغب في خروجه(٣).

٤ - واجبات الضيف

إنّ المسؤوليات تكون متقابلة دائماً، فكما أنّ على المضيف واجبات تجاه الضيف، فكذلك توجد على الضيف واجبات ينبغي أن يراعيها.

فعلاوة على ما ذكر في الأحاديث السابقة، فإنّ على الضيف أن ينفّذ ما يطلبه منه صاحب البيت ويقترحه عليه في شأن منزله، فإذا طلب منه أن يجلس في مكان ما مثلاً فليفعل، فإنّ الإمام الصادق عليه السلام يقول: «إذا دخل أحدكم على أخيه في رحله فليقعد حيث يأمر صاحب الرحل، فإنّ صاحب الرحل أعرف بعورة بيته من الداخل عليه»(٤).

وملخّص الكلام أنّ مسألة الضيافة وآدابها قد خصّص لها بحث واسع في آداب المعاشرة الإسلامية، وليراجع لمزيد الإيضاح في هذا الباب «بحار الأنوار»، الأبواب ٨٨ - ٩٤ من أبواب العشرة، الجزء ١٧ و«المحجّة البيضاء»، الجزء ٣ الباب الرابع، فضيلة الضيافة.

إلاّ أنّ هذه السنّة الإنسانية القديمة قد تقلّصت وللأسف الشديد في عصرنا الحاضر

---

(١) المحجّة البيضاء، ج ٣، ص ٢٩ الباب الثالث.
(٢) المحجّة البيضاء، ج ٣، ص ٣٠.
(٣) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٤٥٥ حديث ٢٧.
(٤) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٤٥١.

عصر غلبة المادية وطغيانها في العالم، وهيمنتها عليه، بل إنّها قد اجتثّت تقريباً في بعض المجتمعات الغربية، وقد سمعنا أنّ بعض أُولئك عندما يأتون إلى البلاد الإسلامية ويرون انتشار مسألة الضيافة التي لا زالت قائمة في البيوتات الأصيلة، ومدى العواطف التي تكتنفها، فإنّهم يتعجّبون كيف يمكن أن يقدّم الناس أفضل الوسائل الموجودة في البيت، وأنفس الأطعمة وألذّها للضيوف الذين ربّما تربطهم بهم رابطة ضعيفة أحياناً، وربّما كانوا قد تعارفوا في سفرة قصيرة؟!

إلاّ أنّ ملاحظة الأحاديث الإسلامية - التي ورد قسم منها قبل قليل - تبيّن سبب هذه التضحية والإيثار، وتوضّح الحسابات المعنوية في هذا المجال... تلك الحسابات التي لا تعني شيئاً لدى عبّاد المادّة والغارقين في بحرها.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾

سبب النّزول

يروي بعض المفسّرين أنّ آباء نساء النّبي وأبناءهنّ وعوائلهنّ سألوا رسول الله ﷺ بعد نزول آية الحجاب - الآية السابقة -: يارسول الله، ونحن أيضاً نحدّثهنّ من وراء حجاب؟ فنزلت هذه الآية بأنّها لا تشملكم.

التّفسير

الموارد المستثناة من قانون الحجاب

لمّا كان الحكم الذي ورد في الآية السابقة حول حجاب نساء النّبي مطلقاً، ويمكن أن يوهم هذا الإطلاق بأنّ المحارم مكلّفون بتنفيذه أيضاً، وأن يحدّثوهنّ من وراء حجاب كالأجانب، فقد نزلت هذه الآية وفصلت حكم هذه المسألة.

تقول الآية: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّۗ﴾. وبتعبير آخر: فإنّ محارمهنّ الذين استثنوا

في الآية هم هؤلاء الستّة فقط، وإذا قيل: إنّ هناك أفراداً من المحارم أيضاً لم يجر لهم ذكر في الآية كالأعمام والأخوال، فيجاب على هذا السؤال بأنّه:

لمّا كان القرآن يراعي الفصاحة والبلاغة في أجلى صورها وأسماها، وأحد أُصول الفصاحة هو أن لا تكون في الكلام أيّة كلمة زائدة، فقد امتنع عن ذكر الأعمام والأخوال هنا، وذلك لأنّه حينما ذكر أولاد الأخ وأولاد الأُخت، فسوف يتّضح حكم الأعمام والأخوال من المحارم، لأنّ لهذه المحرمية جانبان، فكما أنّ ابن الأخ محرم بالنسبة إلى المرأة، فإنّها ستكون محرماً أيضاً بالنسبة إلى ابن أخيها - ونحن نعلم أنّ مثل هذه المرأة تعتبر «عمّة» - ولأنّ ابن الأُخت كما هو محرم عليها فإنّها ستكون محرماً بالنسبة إلى ابن الأُخت، ونعلم أنّ مثل هذه المرأة هي «الخالة».

وعندما تكون العمّة والخالة محرماً بالنسبة إلى ابن الأخ وابن الأُخت، فإنّ العمّ والخال سيكونان أيضاً محرماً بالنسبة إلى ابنة الأخ وابنة الأُخت، حيث لا فرق بين العمّ والعمّة، والخال والخالة، وهذه إحدى دقائق القرآن الكريم. (تدبّر ذلك).

وهنا يطرح سؤال آخر، وهو: إنّ أبا الزوج وابن الزوج بعض محارم المرأة، فلماذا لم يذكرا هنا؟ في حين أنّهما ذكرا من جملة المحارم في الآية (٣١) من سورة النور.

والإجابة عن هذا السؤال واضحة، لأنّ الكلام في هذه الآية منحصر في حكم نساء النّبي ﷺ، ونحن نعلم أنّ أبا النّبي ﷺ لم يكن موجوداً حال حياته، ولا أُمّه، ولم يكن له ابن[1]. «فتأمّل».

إنّ عدم ذكر الإخوة والأخوات من الرضاعة، وأمثالهم بسبب أنّ هؤلاء في حكم الأخ والأُخت وسائر المحارم، ولا يحتاجون إلى ذكر مستقل.

ويتغيّر أُسلوب الآية في نهايتها من الغائب إلى المخاطب، فتخاطب نساء النّبي وتقول: ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ فإنّ الحجاب والستر وأمثالهما وسائل للحفظ والإبعاد عن الذنب والمعصية ليس إلاّ، والدعامة الأساسية هي التقوى فحسب، ولولاها فسوف لا تنفع كلّ هذه الوسائل.

---

(١) ذكر المؤرّخون ثلاثة أولاد للنّبي ﷺ: القاسم وعبدالله (الملقّب بالطيّب والطاهر)، وكانا من خديجة، وقد ودّعا الحياة في طفولتهما، وإبراهيم الذي ولد في السنة الثامنة للهجرة، ولم يعش أكثر من ١٨ أو ١٦ شهراً ولم يكن أي منهم حيّاً عند نزول سورة الأحزاب، وإبراهيم ولد بعد ذلك ومات في طفولته. يراجع: أُسد الغابة، وسائر كتب التاريخ والرجال.

والجدير بالذكر أنّ ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ إشارة إلى النساء المسلمات، وذلك لأنّ من غير اللائق بالنساء المسلمات - وكما قلنا في تفسير سورة النور - أن يكنّ بدون حجاب أمام غير المسلمات، إذ إنّ من الممكن أن تصفهنّ غير المسلمات لأزواجهنّ(١).

وأمّا جملة: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ فلها معنى واسع - كما قلنا ذلك في تفسير سورة النور أيضاً - يشمل الجواري والغلمان، إلاّ أنّها تختصّ بالجواري طبقاً لبعض الرّوايات الإسلامية، وبناءً على هذا فإن ذكرهنّ بعد ذكر «النساء» قد يكون من جهة شمولها للجواري غير المسلمات عموماً. (دقّقوا ذلك).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾

التّفسير(٢)

الصلاة على النّبي والسلام عليه

بعد البحوث التي مرّت في الآيات السابقة حول وجوب حفظ حرمة النّبي ﷺ وعدم إيذائه، فإنّ هذه الآيات تتحدّث أوّلاً عن محبّة الله وملائكته للنّبي ﷺ وتعظيمهم له، وبعد ذلك تأمر المؤمنين بذلك، ثمّ تذكر العواقب المشؤومة الأليمة لأُولئك الذين يؤذون النّبي ﷺ ثمّ تبيّن أخيراً عظم ذنب الذين يؤذون المؤمنين باتّهامهم والافتراء عليهم.

تقول أوّلاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾.

إنّ مقام النّبي ﷺ ومنزلته من العظمة بمكان، بحيث إنّ خالق عالم الوجود، وكلّ الملائكة الموكّلين بتدبير أمر هذا العالم بأمر الله سبحانه يصلّون عليه، وإذا كان الأمر

(١) يراجع التّفسير الأمثل ذيل الآية (٣١) من سورة النور.
(٢) الطريف أنّ البدء بهذه الآيات صادف ليلة ميلاد النّبي ﷺ في شهر ربيع الأوّل سنة ألف وأربعمائة وأربع للهجرة.

كذلك فضمّوا أصواتكم إلى نداء عالم الوجود هذا، فـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾.

إنّه جوهرة نفيسة لعالم الخلقة، وقد جُعل بينكم بلطف الله، فلا تستصغروا قدره، ولا تنسوا مقامه ومنزلته عند الله وملائكة السماوات... إنّه إنسان ظهر من بينكم، لكنّه ليس إنساناً عادياً، بل هو إنسان يتلخّص عالم الوجود في وجوده.

وهنا أُمور يجب الالتفات إليها:

١ - (الصلاة) وجمعها «صلوات»، كلّما نسبت إلى الله سبحانه فإنّها تعني «إرسال الرحمة»، وكلّما نسبت إلى الملائكة فإنّها تعني «طلب الرحمة»(١).

٢ - إنّ التعبير بـ ﴿يُصَلُّونَ﴾ وهو فعل مضارع يدلّ على الاستمرار، يعني أنّ الله وملائكته يصلّون عليه دائماً وباستمرار صلاة دائمة خالدة.

٣ - اختلف المفسّرون في الفرق بين ﴿صَلُّواْ﴾ و ﴿وَسَلِّمُواْ﴾ والذي يبدو أنسب للأصل اللغوي للكلمتين، وأوفق لظاهر الآية القرآنية، هو: أن ﴿صَلُّواْ﴾ أمر بطلب الرحمة والصلاة على النّبي، أمّا ﴿وَسَلِّمُواْ﴾ فتعني التسليم لأوامر نبيّ الإسلام الأكرم ﷺ، كما ورد في الآية (٦٥) من سورة النساء: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾.

وكما نقرأ في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ أبا بصير سأله فقال: قد عرفت صلاتنا على النّبي، فكيف التسليم؟ قال: «هو التسليم له في الأُمور»(٢).

أو أن يكون بمعنى «السلام» على النّبي ﷺ بـ(السلام عليك يارسول الله) وما أشبه ذلك، والذي يعني طلب سلامة النّبي ﷺ من الله سبحانه.

يروي «أبو حمزة الثمالي» عن «كعب» - وهو أحد أصحاب النّبي ﷺ أنّه قال: لمّا نزلت هذه الآية قلنا: قد عرفنا السلام عليك، فكيف نصلّي عليك؟ فقال: «قولوا: اللهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد، كما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم إنّك حميد مجيد، وبارك على محمّد وآل محمّد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنّك حميد مجيد»(٣).

ومن هذا الحديث تتّضح كيفية الصلاة على النّبي ﷺ وكذلك يتّضح معنى «السلام».

---

(١) أورد الراغب هذا المعنى بعبارات أُخرى في المفردات.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج٨، ص٣٦٩ و ٣٧٠، ذيل الآية مورد البحث.

(٣) المصدر السابق. وروي الحديث الثّاني في كتب الفريقين بطرق متعدّدة، وبعبارات قريبة الألفاظ.

وبالرغم من أنّ هذين المعنيين للسلام يبدوان مختلفين تماماً، إلاّ أنّه يمكن عطفهما وإرجاعهما إلى نقطة واحدة إذا دقّقنا فيهما، وهي: التسليم القولي والفعلي للنّبي ﷺ، لأنّ من يسلّم عليه ويرجو من الله سلامته، يعشقه ويعرفه كنبيّ مفترض الطاعة.

٤ - ممّا يلفت النظر أنّه قد ورد صريحاً في كيفية الصلاة على النّبي وفي روايات لا تحصى من طرق العامّة وأهل البيت، أن يضاف (آل محمّد) عند الصلوات على محمّد ﷺ.

فقد روي في «الدرّ المنثور» عن صحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن مردويه ورواه آخرون عن كعب بن عجرة: أنّ رجلاً أتى إلى النّبي ﷺ فقال: أمّا السلام عليك فقد علمناه، فكيف الصلاة عليك؟ فقال النّبي ﷺ: «قل: اللهمّ صلّ على محمّد وعلى آل محمّد كما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم إنّك حميد مجيد. اللهمّ بارك على محمّد وعلى آل محمّد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنّك حميد مجيد».

وقد أورد صاحب تفسير الدرّ المنثور ثمانية عشر حديثاً آخر إضافةً إلى هذا الحديث، صرّحت جميعاً بوجوب ذكر «آل محمّد» عند الصلوات.

وقد رويت هذه الأحاديث عن كتب أهل السنّة المعروفة المشهورة عن جماعة من الصحابة منهم: ابن عبّاس، وطلحة، وأبو سعيد الخدري، وأبو هريرة، وأبو مسعود الأنصاري، وبريدة، وابن مسعود، وكعب بن عجرة، وأمير المؤمنين علي عليه السلام [(١)].

وقد رويت في صحيح البخاري (وهو أشهر مصادر الحديث عند أهل السنّة) روايات عديدة في هذا الباب يستطيع من يريد مزيد الإيضاح أن يرجع إليه[(٢)].

وكذلك وردت في صحيح مسلم روايتان في هذا الباب[(٣)].

والعجيب في هذا الكتاب أنّه بالرغم من ورود (آل محمّد) عدّة مرّات في هذين الحديثين، فإنّه اختار هذا العنوان لهذا الباب: (باب الصلاة على النّبي ﷺ) بدون ذكر «الآل»!!

---

(١) تفسير الدرّ المنثور، ج٦، ص٤٦٥، ذيل الآية مورد البحث، طبقاً لتفسير الميزان، ج١٦، ص ٣٤٤.

(٢) صحيح البخاري، ج ٦، ص ١٥١.

(٣) صحيح مسلم، ج ١، ص ٣٠٥ باب الصلاة على النّبي ﷺ.

وثمّة مسألة تستحقّ الانتباه وهي: أنّ في بعض روايات أهل السنّة، وفي كثير من روايات أهل البيت لم ترد حتى كلمة (على) لتفرّق بين محمّد وآل محمّد، بل كيفية الصلاة هي: اللهم صلّ على محمّد وآل محمّد.

وننهي هذا البحث بحديث آخر عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فإنّ «ابن حجر» يروي في الصواعق: أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا تصلّوا عليّ الصلاة البتراء، فقالوا: وما الصلاة البتراء؟ قال: تقولون: اللهمّ صلّ على محمّد وتمسكون، بل قولوا: اللهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد»[(١)].

وبسبب هذه الرّوايات فقد اعتبر جمع من كبار فقهاء العامّة إضافة (آل محمّد) إلى اسم «محمّد» في تشهّد الصلاة واجباً[(٢)].

٥ - هل أنّ الصلاة على النّبي صلى الله عليه وآله وسلم واجبة أم لا؟ وإذا كانت واجبة فأين تجب؟

يقول الفقهاء في الإجابة عن هذا السؤال: إنّ جميع فقهاء أهل البيت يعتبرونها واجبة في التشهّدين الأوّل والثّاني من الصلاة، ومستحبة في غيرهما.

وعلاوةً على الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام في هذا الباب، فإنّ الروايات الواردة في كتب أهل السنّة، والدالّة على الوجوب، ليست بالقليلة، ومن جملتها ما ورد عن عائشة أنّها قالت: سمعت رسول الله يقول: «لا تقبل صلاة إلاّ بطهور وبالصلاة عليّ»[(٣)].

ويعتبر «الشافعي» - وهو من فقهاء العامّة - الصلاة على النّبي صلى الله عليه وآله وسلم واجبة في التشهّد الثاني، و«أحمد» في إحدى الروايتين المرويتين عنه، وجمع آخر من الفقهاء، غير أنّ «أبا حنيفة» لا يعتبرها واجبة[(٤)].

والطريف أنّ «الشافعي» قد نظم فتواه هذه شعراً وذكرها بصراحة حيث يقول:

يا أهل بيت رسول الله حبّكم فرض من الله في القرآن أنزله

---

(١) الصواعق المحرقة، ص ١٤٤.

(٢) أورد العلاّمة الحلّي هذا القول في بحث التشهّد من التذكرة - إضافةً إلى كلّ علماء الشيعة - عن الإمام أحمد وبعض الشافعية.

(٣) بحار الأنوار، ج٨٢، ص٢٧٨، (باب التشهّد وأحكامه).

(٤) التذكرة للعلاّمة، ج١، ص١٢٦.

كفاكم من عظيم القدر أنكم من لم يصلّ عليكم لا صلاة له[1]

ثمّ تبيّن الآية التالية النقطة المقابلة للآية السابقة، فتقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

ماذا يراد من أذى الله سبحانه؟

قال البعض: إنّ المراد منه هو الكفر والإلحاد الذي يُغضِب الله عزّوجلّ، لأنّ «الأذى» لا يعني في شأن الله تعالى إلاّ إغضابه.

ويحتمل أيضاً أن يكون إيذاء النّبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين هو إيذاء الله تعالى، وذكر الله في الآية لأهمّية المطلب وتأكيده.

وأمّا إيذاء نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم فله معنى واسع، ويشمل كلّ عمل يؤذيه، سواء كان الكفر والإلحاد ومخالفة أوامر الله والافتراءات والتّهم، أم الأذى الذي يراه حين يدعوهم إلى بيته، كما مرّ في الآية (٥٣) من هذه السورة ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾.

أو الموضوع الذي ورد في الآية (٦١) من سورة التوبة عندما اتّهموا النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنّه «أذن» نتيجة إصغائه لكلام الناس ورعايته لأدب المحادثة ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ وأمثال ذلك.

بل ويستفاد من الرواية الواردة في ذيل الآية أنّ إيذاء أهل بيت النّبي وخاصّة علي وفاطمة عليهما السلام، يدخل ضمن الآية، وقد جاء في المجلّد الخامس من صحيح البخاري، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «فاطمة بضعة منّي فمن أغضبها أغضبني»[2].

وورد هذا الحديث في «صحيح مسلم» بهذه العبارة: «إنّ فاطمة بضعة منّي يؤذيني ما آذاها»[3].

وروي هذا المعنى في حقّ علي عليه السلام عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم[4].

وأمّا «اللعن» الوارد في الآية أعلاه، فإنّه بمعنى الطرد عن رحمة الله، وهو في مقابل الرحمة والصلوات التي وردت في الآية السابقة تماماً.

---

(١) ذكر العلاّمة الأميني في كتاب «الغدير» النفيس نسبة هذه الأشعار إلى الشافعي عن شرح المواهب للزرقاني، ج٧، ص٧، وجماعة آخرين.

(٢) صحيح البخاري، ج ٥، ص ٢٦.

(٣) صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٩٠٣ باب فضائل فاطمة.

(٤) تفسير مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث.

إنّ اللعن والطرد عن رحمة الله سبحانه. . . تلك الرحمة الواسعة التي لا تعرف الحدود، يعدّ أسوأ أنواع العذاب، خاصّةً إذا كان هذا الطرد في الدنيا والآخرة كما هو في الآية مورد البحث، ولعلّ ذكر مسألة اللعن قبل العذاب المهين لهذا السبب.

والتعبير بـ ﴿وَأَعَدَّ﴾ دليل على تأكيد هذا العذاب وشدّته.

وتتحدّث الآية الأخيرة عن إيذاء المؤمنين، وتهتمّ به جدّاً بعد إيذاء الله ورسوله ﷺ، فتقول: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ لأنّ للمؤمن علاقة بالله ورسوله عن طريق الإيمان، ولهذا جعل في مرتبة الله ورسوله هنا.

وتعبير ﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ إشارة إلى أنّ هؤلاء لم يرتكبوا ذنباً حتى يؤذوا، ومن هنا يتّضح أنّهم إن بدر منهم ذنب يستوجب الحدّ والقصاص فلا مانع من إجرائه وتنفيذه في حقّهم، وكذلك لا يشمل هذا الكلام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إنّ تقديم «البهتان» على «الإثم المبين» لأهميّته، لأنّ البهتان يعتبر من أكبر الذنوب، والجراحات التي تنجم عنه أشدّ ألماً من جراحات السنان، كما قال الشاعر العربي:

جراحات السنان لها التيام ولا يلتام ما جرح اللسان

وقد أولت الرّوايات الإسلامية هذه المسألة اهتماماً فائقاً، ففي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الله عزّ وجلّ يقول: «ليأذن بحرب منّي من آذى عبدي المؤمن»[(١)].

وقال بعض المفسّرين: يستفاد من أسلوب الآية أنّ جماعة في المدينة كانوا يطلقون الشائعات ويثيرون الشبهات حول المؤمنين، ويتّهمونهم بما ليس فيهم، وحتى نبيّ الله لم يكن بمنأى عن ألسن أُولئك المؤذين، وهذه الفئة ليست قليلة في المجتمعات الأُخرى، وخاصّة في مجتمعات اليوم، وليس لها عمل إلاّ التآمر ضدّ الصالحين والمحسنين، واختلاق الأكاذيب والتّهم.

لقد هاجم القرآن الكريم هؤلاء الأشخاص أشدّ هجوم، ووصفت أعمالهم بالبهتان والإثم المبين، والشاهد لهذا الكلام سيأتي في الآيات التالية.

وجاء في حديث آخر يرويه الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام عن جدّه رسول الله ﷺ: «من بهت مؤمناً أو مؤمنة، أو قال فيه ما ليس فيه أقامه الله تعالى يوم القيامة على تلّ من نار حتى يخرج ممّا قاله فيه»[(٢)].

---

(١) أصول الكافي، ج ٢، ص ٣٥.
(٢) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٩٤.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ
ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩) لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ
ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ
لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ
تَقْتِيلًا (٦١) سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ
تَبْدِيلًا (٦٢)﴾

سبب النّزول

جاء في تفسير «علي بن إبراهيم» في سبب نزول الآية الأُولى: فإنّه كان سبب نزولها أنّ النساء كن يخرجن إلى المسجد ويصلّين خلف رسول الله ﷺ وإذا كان بالليل خرجن إلى صلاة المغرب والعشاء الآخرة والغداة، يقعد الشبّان لهنّ في طريقهنّ فيؤذونهن ويتعرّضون لهنّ فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ - إلى قوله - ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

وجاء في نفس الكتاب في شأن نزول الآية الثانية، أنّها نزلت في قوم منافقين كانوا في المدينة يرجفون برسول الله ﷺ إذا خرج في بعض غزواته يقولون قتل وأسر فيغتمّ المسلمون لذلك ويشكون إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله في ذلك: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ - إلى قوله - ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2] فبذلك هدّدت مختلقي الشائعات بشدّة.

التّفسير

تحذير شديد للمؤذين ومختلقي الإشاعات!

بعد النهي عن إيذاء رسول الله ﷺ والمؤمنين الذي ورد في الآية السابقة، أكّدت الآية هنا على أحد موارد الأذى، ومن أجل الوقوف أمامه سلكت طريقين: فأمرت

(١) تفسير القمّي ج٢ ص١٩٦.
(٢) المصدر السابق طبقاً لنقل نور الثقلين، ج٤، ص٣٠٧.

المؤمنات أوّلاً أن لا يدعن في يد المفسدين والعابثين حجّة يتشبّثون بها في سبيل تحقيق أذاهم، ثمّ هاجمت المنافقين ومختلقي الإشاعات وهدّدتهم بتهديد قلّ نظيره في آيات القرآن.

فتقول الآية في الجزء الأوّل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾.

هناك رأيان لدى المفسّرين في المراد من «المعرفة» لا يتناقضان:

الأوّل: أنّه كان من المتعارف ذلك اليوم أن تخرج الجواري من المنازل مكشوفات الرأس والرقبة، ولمّا لم يكنّ مقبولات من الناحية الأخلاقية، فقد كان بعض الشباب المتهوّر يضايقوهنّ، فأمرت المسلمات الحرائر أن يلتزمن الحجاب التامّ ليتميّزن عن الجواري، وبالتالي لا يقدر أن يؤذيهنّ أُولئك الشباب.

ومن البديهي أنّ هذا الكلام لا يعني أنّه كان لأُولئك الطائشين حقّ أذى الجواري، بل المراد سلب الحجّة من الأفراد الفاسدين.

والآخر: أنّ الهدف هو أن لا تتساهل المسلمات في أمر الحجاب كبعض النساء المتحلّلات والمتبرجات المسلوبات الحياء رغم التظاهر بالحجاب، هذا التبرّج يغري السفلة والأراذل ويلفت انتباههم.

أمّا المراد من «الجلباب» فقد ذكر المفسّرون وأرباب اللغة عدّة معان له:

١ - أنّه «الملحفة»، وهي قماش أطول من الخمار يغطّي الرأس والرقبة والصدر.

٢ - أنّه المقنعة والخمار.

٣ - أنّه القميص الفضفاض الواسع(١).

ومع أنّ هذه المعاني تختلف عن بعضها، إلاّ أنّ العامل المشترك فيها أنّها تستر البدن.

وتجدر الإشارة إلى أنّ «الجلباب» يقرأ بكسر الجيم وفتحها.

إلاّ أنّ الأظهر أنّ المراد هو الحجاب الذي يكون أكبر من الخمار وأقصر من العباءة، كما ذكر ذلك صاحب لسان العرب.

والمراد من ﴿يُدْنِينَ﴾ أن يقربن الجلباب إلى أبدانهن ليكون أستر لهنّ، لا أن يدعنه

---

(١) لسان العرب، مجمع البحرين، مفردات الراغب القطر المحيط، وتاج العروس.

كيف ما كان بحيث يقع من هنا وهناك فينكشف البدن، وبتعبير أبسط أن يلاحظن ثيابهنّ ويحافظن على حجابهنّ.

أمّا ما استفاده البعض من أنّ الآية تدلّ على وجوب ستر الوجه أيضاً، فلا دليل عليه، والنادر من المفسّرين من اعتبر ستر الوجه داخلاً في الآية(١).

وعلى كلّ حال، فيستفاد من هذه الآية أنّ حكم الحجاب بالنسبة للحرائر كان قد نزل من قبل، إلاّ أنّ بعض النسوة كنّ يتساهلن في تطبيقه، فنزلت الآية المذكورة للتأكيد على الدقّة في التطبيق.

ولمّا كان نزول هذا الحكم قد أقلق بعض المؤمنات ممّا كان منهن قبل ذلك، فقد أضافت الآية في نهايتها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فكلّ ما بدر منكنّ إلى الآن كان نتيجة الجهل فإنّ الله سيغفره لكنّ، فتبن إلى الله وارجعن إليه، ونفذن واجب العفّة والحجاب جيداً.

بعد الأمر الذي صدر في الآية السابقة للمؤمنات، تناولت هذه الآية بُعداً آخر لهذه المسألة، أي أساليب الأراذل والأوباش في مجال الإيذاء، فقالت: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٢).

﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ﴾ من مادّة «إرجاف»، وهي إشاعة الأباطيل بقصد إيذاء الآخرين وإحزانهم، وأصل الإرجاف: الاضطراب والتزلزل، ولمّا كانت الإشاعات الباطلة تحدث اضطراباً عامّاً، فقد أُطلقت هذه الكلمة عليها.

و(نغرينّك) من مادّة «الإغراء»، ويعني الدعوة إلى تنفيذ عمل، أو تعلّم شيء، دعوة تقترن بالترغيب والتحريض.

ويستفاد من سياق الآية أنّ ثلاث فئات في المدينة كانت مشتغلة بأعمال التخريب والهدم، وكلّ منها كان يحقّق أهدافه بأُسلوب خاصّ، فظهر ذلك كتيار ومخطّط جماعي، ولم تكن له صبغة فردية:

---

(١) كان لنا بحث حول فلسفة الحجاب وأهميّته، وكذلك حول استثناء الوجه والكفّين في ذيل الآيتين ٣١ و٣٢ من سورة النور.

(٢) ﴿قَلِيلًا﴾ هنا مستثنى من محذوف، والتقدير: لا يجاورونك زماناً إلاّ زماناً قليلاً.

فالفئة الأُولى: هم «المنافقون» الذين كانوا يسعون لاقتلاع جذور الإسلام عبر مؤامرتهم ضدّه.

والثّانية: هم «الأراذل» الذين يعبّر عنهم القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ كما أنّ هذا التعبير قد ورد في الآية (٣٢) من سورة الأحزاب في شأن من يتّبع أهواءه وشهواته ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾.

والفئة الثالثة: هم الذين كانوا يبثّون الإشاعات في المدينة، وخاصّةً عندما كان النّبي ﷺ وجيش المسلمين يتّجهون إلى الغزوات، لإضعاف معنوياتهم، وكانوا ينشرون الأخبار الكاذبة عن هزيمة النّبي والمؤمنين، وهؤلاء هم «اليهود» برأي بعض المفسّرين.

وبهذا فإنّ القرآن الكريم هدّد هذه الفئات الثلاثة جميعاً.

ويحتمل في تفسير الآية أيضاً، أنّ كلّ أعمال التخريب للفئات الثلاث كانت من عمل المنافقين، وفصلها عن بعضها هو فصل الصفات لا الأشخاص.

ومهما كان، فإنّ القرآن يقول: إنّ هؤلاء إن استمروا في أعمالهم القبيحة المشينة فسنصدر أمراً بالهجوم العام عليهم، لنقتلع جذورهم من المدينة بحركة المؤمنين الشعبية، ولا يقدرون على البقاء في المدينة بعد ذلك.

وعندما يطردون من هذه المدينة، ويخرجون عن حماية الحكومة الإسلامية، فإنّهم سيكونون ﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾.

﴿ثُقِفُوٓا۟﴾ من مادّة «ثقف» و«ثقافة»، وهي: السيطرة على الشيء بدقّة ومهارة، ولهذا يقال للعلم وتحصيله والإحاطة به «ثقافة»، وهذا التعبير إشارة إلى أنّهم سوف لا يجدون مكاناً آمناً بعد هذا الهجوم، بل سيبحث عنهم المؤمنون بدقّة حتى يجدوهم ويرسلوهم إلى ديار الفناء.

وهناك احتمالان في المراد من الآية: فإمّا أنّه سيطاردون المنافقين ويتعقّبونهم خارج المدينة ويقتلونهم، أو أنّهم إذا بقوا في المدينة بعد حكم الإبعاد العام سيلاقون هذا المصير، ولا منافاة بينهما، إذ إنّ المعنى هو أنّ هؤلاء المنافقين والمخرّبين والمرجفين ومرضى القلوب سوف لا يكونون بمأمن من سطوة المسلمين الشجعان بعد أن هدرت دماؤهم، وسحبت الحماية عنهم، وصدر الحكم بإخراجهم من المدينة، سواء بقوا فيها أم خرجوا.

ثمّ تضيف الآية الأخيرة من هذه الآيات أنّ هذا الأمر ليس جديداً، بل ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ فكلّما زادت صلافة المفسدين وتجاوزت مؤامراتهم الحدود، يصدر الأمر بالهجوم عليهم.

ولمّا كان هذا الحكم سنّة إلهيّة، فإنّه سوف لا يتغيّر ولا يتبدّل أبداً، حيث إنّ سنّة الله ثابتة ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

إنّ هذا التعبير يجسّد كون هذا التهديد حقيقياً وجدياً، ليعلموا أنّ هذا المطلب والمصير حتمي، وله جذوره ونظائره في التاريخ، ولا سبيل إلى تغييره وتبديله، فإمّا أن ينتهوا عن أعمالهم المخزية، أو أن ينتظروا هذا المصير المؤلم.

تعليقات

١ - ابدأ بنفسك!

الأمر الذي ورد في الآيات مورد البحث حول وجوب رعاية الحجاب الإسلامي بدقّة، وأمر النّبي ﷺ أن يبلغ هذا الأمر، أوّل ما بدأ بنساء النّبي، ثمّ بناته، ثمّ المؤمنات، وهو إشارة إلى أنّك يجب أن تبدأ بنفسك وأهل بيتك في أيّ برنامج إصلاحي، وهذا خطّ لكلّ مصلحي البشر.

وبدأ بالزوجات عندما دار الأمر بين الزوجات والبنات، وذلك لأنّهنّ أقرب إلى الرجل، لأنّ البنات يتزوجنّ وينتقلن إلى بيوت الأزواج.

٢ - العلاج من طريقين

لمّا كانت المفاسد الاجتماعية لا تنبعث من علّة واحدة غالباً، فلذلك يجب أن تبدأ مكافحتها من جميع الجوانب، والطريف في الأمر أنّ الآيات المذكورة، ومن أجل الوقوف أمام مضايقات الطائشين قد أمرت المؤمنات أوّلاً أن لا يتركن ذريعة بيد الطائشين، ثمّ أوقفتهم عند حدّهم بتهديدهم أشدّ تهديد.

وهذا أيضاً برنامج دائمي للجميع، بأنّ الصديق لابدّ من إصلاحه، ويوقف العدوّ عند حدّه بالقوّة.

٣ - موقع المسلمين القوي

يستفاد جيّداً من تهديدات الآيات القويّة والشديدة أنّه بعد انتهاء حادثة «بني قريظة»، واجتثاث جذور هذه الفئة من الأعداء الداخليين الخطرين، فإنّ موقع المسلمين قد قوي

في المدينة تماماً، ولم تكن المخالفات تأتي إلاّ من جانب المنافقين المندسّين بين صفوف المسلمين، أو من جانب جماعة من الأوباش والمتهوّرين ومطلقي الإشاعات، فتعامل النّبي ﷺ معهم من موقع القوّة، وحذّرهم بشدّة بأنّهم إن لم يكفوا عن مؤامراتهم ونفثهم للسموم، فإنّه سيقوم بتصفية الحساب معهم بهجوم واحد ويقضي عليهم!

وقد أثّر هذا التعامل الحازم والدقيق أثره بوضوح تامّ.

٤ - اجتثاث جذور الفساد

هل أنّ ما ورد في الآيات أعلاه عن اقتلاع جذور المفاسد كمؤامرات المنافقين، وملاحقة أعراض المسلمين وأذاهم، وإطلاق الإشاعات يصلح علاجاً في سائر الأعصار والقرون، ولكلّ الحكومات الإسلامية؟

قليل من المفسّرين من بحث ذلك، إلاّ أنّه يبدو أنّ هذا الحكم كسائر الأحكام الإسلامية لا يختّص بزمان أو مكان أو أشخاص.

إذا كان نفث السموم والتآمر قد تجاوز الحدّ على أرض الواقع، وأصبح كتيار جارف يهدّد المجتمع الإسلامي بأخطار حقيقية، فما المانع من أن تنفّذ الحكومة الإسلامية أوامر الآيات أعلاه، والتي أُنزلت على النّبي ﷺ ومنحته هذه الصلاحية، وتعبىء الناس للقضاء على جذور الفساد؟

إلاّ أنّ ممّا لا شكّ فيه أنّ هذه الأعمال وأمثالها، خاصّة وأنّها مطروحة كسنّة لا تقبل التغيير، لا يسمح بها كتصرّف شخصي، وتمسّك برأي خاصّ، بل تجوز فقط بعد إذن ولي أمر المسلمين وحكّام الشرع بها.

٥ - سنن الله الثابتة

قرأنا في الآيات السابقة أنّ القرآن ذكر أنّ إحدى سنن الله التي لا تقبل التغيير هي اقتلاع جذور التآمر بهجوم عامّ، وقد كانت هذه السنّة جارية في الأُمم السابقة.

وقد ورد نظير هذا التعبير في مواضع أُخرى من القرآن، ومن جملتها ما ورد في الآية (٣٨) من سورة الأحزاب هذه، فبعد أن أجاز سبحانه مخالفة سنّة جاهلية خاطئة وإلغاءها في مسألة مطلقة الابن بالادّعاء، يقول: ليس للنبيّ أيّ ذنب إذا ما نفّذ أوامر الله مهما كانت.

ثمّ يضيف تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.

وفي الآية (٤٣) من سورة فاطر، وبعد أن هدّد الكافرين والمجرمين بالفناء والهلاك، يقول سبحانه: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

وفي الآية (٨٥) من سورة غافر، وبعد أن صرّح بأنّ إيمان الكفّار العنودين من الأقوام الماضين عند مشاهدتهم عذاب الاستئصال لم ينفعهم شيئاً، يضيف: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

وفي الآية (٢٣) من سورة الفتح، وبعد أن ذكر انتصار المؤمنين وهزيمة الكفّار في الحروب، وأن ليس لهم ولي ولا نصير، يضيف: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

وكذلك في الآية (٧٧) من سورة الإسراء عندما يبيّن مؤامرة إبعاد النّبي أو قتله، يضيف: ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

يستفاد من مجموع هذه الآيات جيّداً أنّ المراد من السنّة في مثل هذه الموارد: القوانين الإلهيّة الثابتة والأساسية، سواء التكوينية منها أم التشريعية، التي لا تتغيّر مطلقاً.

وبتعبير آخر: فإنّ لله سبحانه في عالم التكوين والتشريع قوانين وأُصولاً ثابتة، كالقوانين الأساسية والدساتير المسنونة بين شعوب العالم والتي لا تتبدّل، ولا تكون عرضةً للتغيير، وهذه القوانين الإلهية كانت حاكمة على الأقوام الماضين، وتحكمنا اليوم، وستكون حاكمة في المستقبل على الأجيال الآتية.

إنّ نصرة النّبي، وهزيمة الكفّار، ووجوب تنفيذ أوامر الله والعمل بموجبها، حتى وإن أدّت إلى إثارة سخط الناس وعدم رضاهم، وعدم جدوى التوبة حين نزول العذاب الإلهي، وأمثال ذلك هي جزء من هذه السنن الخالدة.

إنّ هذه التعبيرات تسلّي خواطر كلّ السائرين في طريق الحقّ، وتمنحهم الهدوء والطمأنينة من جهة، وتوضّح من جهة أُخرى وحدة دعوة الأنبياء وانسجامها، وتناسق القوانين الحاكمة على نظام الخلقة ونظام الحياة الإنسانية واتّحادها، وهي في الحقيقة فرع من فروع التوحيد.

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨)﴾

التّفسير

يسألون أيّان يوم القيامة؟!

كانت الآيات السابقة تتحدّث عن مؤامرات المنافقين والأشرار، وقد أُشير في هذه الآيات التي نبحثها إلى واحدة أُخرى من خططهم الهدّامة، وأعمالهم المخرّبة، حيث كانوا يطرحون أحياناً هذا السؤال: متى تقوم القيامة التي يخبر بها محمّد ويذكر لها كلّ هذه الصفات؟ وذلك إمّا استهزاءً، أو لزرع الشكّ فيها في قلوب البسطاء، فتقول الآية: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾.

ويحتمل أيضاً أن يكون بعض المؤمنين قد سأل النّبي ﷺ هذا السؤال بدافع من حبّ الاستطلاع، أو للحصول على معلومات أكثر حول هذا الموضوع.

غير أنّ ملاحظة الآيات التي تلي هذه الآية ترجّح التّفسير الأوّل، والشاهد الآخر لهذا الكلام ما ورد في الآيتين ١٧ - ١٨/ سورة الشورى في هذا الباب، حيث تقولان: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا (١٨)﴾.

ثمّ تقول الآية - مورد البحث - في مقام جوابهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ ولا يعلمها حتى المرسلون والملائكة المقرّبون.

ثمّ تضيف بعد ذلك: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾.

وبناءً على هذا يجب أن نكون مستعدّين دائماً لقيام القيامة، وهذه هي الحكمة من كونها خافية مجهولة لئلاّ يظنّ أحد أنّه في مأمن منها، ويتصوّر أنّ القيامة بعيدة فعلاً، ويعتبر نفسه في معزل عن عذاب الله وعقابه.

ثمّ تطرّقت الآية إلى تهديد الكافرين، وتناولت جانباً من عقابهم الأليم، فقالت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾.

الفرق بين «الولي» و«النصير» هنا هو: أنّ «الولي» من يتولّى القيام بكلّ الأعمال وتنفيذها، أمّا «النصير» فهو الذي يعين على الوصول إلى الهدف المطلوب، إلاّ أنّ هؤلاء الكافرين لا وليّ لهم في القيامة ولا نصير.

ثمّ بيّنت جزءاً آخر من عذابهم الأليم في القيامة فقالت: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ وهذا التقليب إمّا أن يكون في لون البشرة والوجه حيث تصبح حمراء أو سوداء أحياناً، أو من جهة تقلّبهم في النار ولهيبها حيث تكون وجوههم في مواجهة النار أحياناً، وأحياناً جوانب أُخرى (نعوذ بالله من ذلك).

هنا ستنطلق صرخات حسرتهم، و﴿يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ فإنّا لو كنّا أطعناهما لم يكن ينتظرنا مثل هذا المصير الأسود الأليم.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾[1].

(السادة) جمع «سيّد»، وهو المالك العظيم الذي يتولّى إدارة المدن المهمّة أو الدول، و«الكبراء» جمع «كبير» وهو الفرد الكبير سواء من ناحية السنّ، أو العلم، أو المركز الاجتماعي وأمثال ذلك. وبهذا فإنّ السادة إشارة إلى رؤساء البلاد العظام، والكبراء هم الذين يتولّون إدارة الأُمور تحت إشراف أُولئك السادة، ويعتبرون معاونين ومشاورين لهم، وكأنّهم يقولون: إنّنا قد جعلنا طاعة السادة محل طاعة الله، وطاعة الكبراء مكان طاعة الأنبياء، فابتلينا بأنواع الانحرافات والتعاسة والشقاء.

من البديهي أنّ معيار السيادة وكون الشخص كبيراً بين أُولئك الأقوام هو القوّة والسيطرة، والمال والثروة غير المشروعة، والمكر والخداع. وربّما كان اختيار هذين التعبيرين هنا من أجل أنّهم يحاولون توجيه عذرهم ويقولون: لقد كنّا تحت تأثير العظمة الظاهرية لأُولئك.

هنا تثور ثائرة هؤلاء الجهنميين الضالّين، ويطلبون من الله سبحانه أن يزيد في عذاب

---

(١) إنّ الألف في «الرسولا» و«السبيلا» هي ألف الإطلاق، ولتناسق آخر الآيات، وإلاّ فإنّ التنوين لا يجتمع مع الألف واللام مطلقاً.

مضلّيهم وعقابهم أشدّ عقاب فيقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ - عذاب لضلالهم وعذاب لإضلالهم -.

من المسلّم أنّ هؤلاء يستحقّون العذاب واللعن، واستحقاقهم للعذاب المضاعف واللعن الكبير بسبب سعيهم في سبيل إضلال الآخرين، ودفعهم إلى طريق الانحراف.

والطريف ما ورد في الآية ٣٨ من سورة الأعراف، من أنّ هؤلاء المتّبعين الضالّين عندما يطلبون عذاب الضعف لسادتهم وأئمّتهم، يقال: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾[(١)].

إنّ كون عذاب أئمّة الكفر والضلال مضاعفاً واضح، لكن لماذا يكون عذاب من اتّبعهم مضاعفاً؟

إنّ سبب ذلك هو أنّهم استحقّوا عذاباً لضلالتهم، والعذاب الآخر لمعونة الظالمين ومؤازرتهم، لأنّ الظالمين لا يقدرون على أن يستمرّوا في عمل ما لوحدهم مهما كانت لهم من قوّة، إلاّ أنّ أتباعهم هم الذين يؤجّجون نار حروبهم، ويسجرون أتون ظلمهم وكفرهم، وإن كان عذاب أئمّة الكفر - إذا ما قورن بعذاب المتّبعين - أشدّ وآلم بدون شكّ.

وقد كان لنا بحث مفصّل في هذا الباب في الآية (٣٠) من هذه السورة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾

التّفسير

بماذا رموا موسى عليه السلام واتّهموه؟

بعد البحوث التي مرّت في الآيات السابقة حول وجوب احترام مقام النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، وترك كلّ ما يؤذيه والابتعاد عنه، فقد وجّهت هذه الآيات الخطاب للمؤمنين، وقالت:

(١) ممّا يستحقّ الانتباه أنّه قد ورد «الضعفان» في الآيات مورد البحث، و«الضعف» في آية سورة الأعراف، إلاّ أنّه بالتدقيق في معنى الضعف يتّضح أنّ لكليهما معنىً واحداً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ .

إنّ اختيار موسى عليه السلام من جميع الأنبياء الذين طالما أُوذوا، بسبب أنّ المؤذين من بني إسرائيل قد آذوه أكثر من أي نبيّ آخر، إضافةً إلى أنّ بعض أنواع الأذى التي رآها كانت تشبه أذى المنافقين لنبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم .

وهناك بحث بين المفسّرين في المراد من إيذاء موسى عليه السلام هنا؟ ولماذا ذكره القرآن بشكل مبهم؟ وقد ذكروا احتمالات عديدة في تفسير الآية، ومن جملتها:

١ - إنّ موسى وهارون عليهما السلام قد ذهبا إلى جبل - طبق رواية - وودّع هارون الحياة، فأشاع المرجفون من بني إسرائيل أنّ موسى عليه السلام قد تسبّب في موته، فأبان الله سبحانه حقيقة الأمر، وأسقط ما في يد المرجفين.

٢ - كما أوردنا مفصّلاً في ذيل الآيات الأخيرة من سورة القصص، فإنّ قارون المحتال أراد أن يتملّص من قانون الزكاة، ولا يؤدّي حقوق الضعفاء والفقراء، فعمد إلى بغيّ واتّفق معها على أن تقوم بين الناس وتتّهم موسى عليه السلام بأنّه زنى بها، إلاّ أنّ هذه الخطّة قد فشلت بلطف الله سبحانه، بل وشهدت تلك المرأة بطهارة موسى عليه السلام وعفّته، وبما أراده منها قارون.

٣ - إنّ جماعة من الأعداء اتّهموا موسى عليه السلام بالسحر والجنون والافتراء على الله، ولكن الله تعالى برّأه منها بالمعجزات الباهرات.

٤ - إنّ جماعة من جهّال بني إسرائيل قد اتّهموه بأنّ فيه بعض العيوب الجسمية كالبرص وغيره، لأنّه كان إذا أراد أن يغتسل ويستحمّ لا يتعرّى أمام أحد مطلقاً، فأراد أن يغتسل يوماً بمنأى عن الناس، فوضع ثيابه على حجر هناك، فتدحرج الحجر بثيابه، فرأى بنو إسرائيل جسمه، فوجدوه مبرّأً من العيوب.

٥ - كان المعذرون من بني إسرائيل أحد عوامل إيذاء موسى عليه السلام ، فقد كانوا يطلبون تارةً أن يريهم الله عزّ وجلّ : «جهرةً»، وأُخرى يقولون: إنّ نوعاً واحداً من الطعام - وهو «المنّ والسلوى» - لا يناسبنا، وثالثة يقولون: إنّنا غير مستعدّين للدخول إلى بيت المقدس ومحاربة «العمالقة». اذهب أنت وربّك فقاتلا، وافتحاه لنا لندخله بعد ذلك!

إلاّ أنّ الأقرب لمعنى الآية، هو أنّها بصدد بيان حكم كلّي عام جامع، لأنّ بني إسرائيل قد آذوا موسى عليه السلام من جوانب متعدّدة. . . ذلك الأذى الذي لم يكن يختلف

عن أذى بعض أهل المدينة (لنبيّنا ﷺ) كإشاعة بعض الأكاذيب واتّهام زوج النّبي بتهم باطلة، وقد مرّ تفصيلها في تفسير سورة النور - ذيل الآيات ١١ - ٢٠ - والاعتراضات التي اعترضوا بها على النّبي ﷺ في زواجه بزينب، وأنواع الأذى والمضايقات التي كانوا يضايقونه بها في بيته، أو مناداته بأُسلوب خال من الأدب والأخلاق، وغير ذلك.

وأمّا الاتّهام بالسحر والجنون وأمثال ذلك، أو العيوب البدنية، فإنّها وإن اتُّهم موسى بها، إلاّ أنّها لا تتناسب مع ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالنسبة لنبيّنا ﷺ إذ لم يتّهم المؤمنون موسى عليه السلام ولا نبيّنا ﷺ بالسحر والجنون، وكذلك الاتّهام بالعيوب البدنية، فإنّه على فرض كونه قد حدث بالنسبة لموسى عليه السلام، وأنّ الله تعالى قد برّأه، فليس له مصداق أو حادثة تؤيّده في تاريخ نبيّنا ﷺ.

وعلى أيّة حال، فيمكن أن يستفاد من هذه الآية أنّ من كان عند الله وجيهاً وذا منزلة، فإنّ الله سبحانه يدافع عنه في مقابل من يؤذيه ويتّهمه بالأباطيل، فكن طاهراً وعفيفاً، واحفظ وجاهتك عند الله، فإنّه تعالى سيظهر عفّتك وطهارتك للناس، حتى وإن سعى الأشقياء والمسيئون إلى اتّهامك وتحطيم منزلتك وتشويه سمعتك بين الناس.

وقد قرأنا نظير هذا المعنى في قصّة «يوسف» الصدّيق الطاهر، وكيف برّأه الله سبحانه من تهمة امرأة عزيز مصر الكبيرة والخطيرة.

وكذلك في شأن «مريم» بنت عمران أُمّ عيسى عليه السلام، حيث شهد وليدها الرضيع بطهارتها وعفّتها، وقطع بذلك ألسن المتربّصين بها من بني إسرائيل، والذين كانوا يسعون لاتّهامها وتلويث سمعتها.

والجدير بالذكر أنّ هذا الخطاب لم يكن مختصّاً بالمؤمنين في زمان النّبي ﷺ، بل من الممكن أن تشمل الآية حتى أُولئك الذين سيولدون بعده ويقومون بعمل يؤذون روحه الطاهرة به، فيحتقرون دينه ويستصغرون شأنه، وينسون مواريثه، ولذلك جاء في بعض الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام: «ياأيّها الذين آمنوا لا تؤذوا رسول الله ﷺ في علي والأئمّة صلوات الله عليهم...»[1].

وآخر كلام في تفسير هذه الآية هو: أنّه بعد ملاحظة أحوال الأنبياء العظام الذين لم يكونوا بمأمن من جراحات ألسن الجاهلين والمنافقين، يجب أن لانتوقّع أن لا يبتلى

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص٣٠٨.

المؤمنون والطاهرون بمثل هؤلاء الأفراد، فإنّ الإمام الصادق عليه السلام يقول: «إنّ رضى الناس لا يملك وألسنتهم لا تضبط. . .» ثمّ يضيف الإمام في نهاية هذا الحديث: «ألم ينسبوا إلى موسى أنّه عنين وآذوه حتى برّأه الله ممّا قالوا، وكان عند الله وجيهاً»(١).

قولوا الحقّ لتصلح أعمالكم

بعد البحوث السابقة حول ناشري الإشاعات والذين يؤذون النّبي، تصدر الآية التالية أمراً هو في الحقيقة علاج لهذا المرض الاجتماعي الخطير، فتقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾.

«القول السديد» من مادّة (سد) أي المحكم المنيع الذي لا يعتريه الخلل، والموافق للحقّ والواقع، ويعني القول الذي يقف كالسدّ المنيع أمام أمواج الفساد والباطل. وإذا ما فسّره بعض المفسّرين بالصواب، والبعض الآخر بكونه خالصاً من الكذب واللغو وخالياً منه، أو تساوي الظاهر والباطن ووحدتهما، أو الصلاح والرشاد، وأمثال ذلك، فإنّها في الواقع تفاسير ترجع إلى المعنى الجامع أعلاه.

ثمّ تبيّن الآية التالية نتيجة القول السديد، فتقول: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

إنّ التقوى في الواقع هي دعامة إصلاح اللسان وأساسه، ومنبع قول الحقّ، والقول الحقّ أحد العوامل المؤثّرة في إصلاح الأعمال، وإصلاح الأعمال سبب مغفرة الذنوب، وذلك ل - ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾(٢).

يقول علماء الأخلاق: إنّ اللسان أكثر أعضاء البدن بركة، وأكثر الوسائل تأثيراً في الطاعة والهداية والصلاح، وهو في الوقت نفسه يعدّ أخطر أعضاء البدن وأكثرها معصية وذنباً، حتى أنّ ما يقرب من الثلاثين كبيرة تصدر من هذا العضو الصغير(٣).

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٣٠٩. (٢) سورة هود، الآية: ١١٤.

(٣) عدّ الغزالي في إحياء العلوم عشرين كبيرة أو معصية تصدر عن اللسان، وهي: ١ - الكذب ٢ - الغيبة ٣ - النميمة ٤ - النفاق في الكلام، أي كون الإنسان ذا لسانين ووجهين ٥ - المدح في غير موضعه ٦ - بذاءة الكلام ٧ - الغناء والأشعار غير المرضية ٨ - الإفراط في المزاح ٩ - السخرية والاستهزاء ١٠ - إفشاء أسرار الآخرين ١١ - الوعد الكاذب ١٢ - اللعن في غير موضعه ١٣ - التخاصم والنزاع ١٤ - الجدال والمراء ١٥ - البحث في أمور الباطل ١٦ - الثرثرة ١٧ - البحث في الأمور التي لا تعني الإنسان ١٨ - وصف مجالس الشراب والقمار والمعصية ١٩ - السؤال عن المسائل الخارجة عن =

وفي حديث عن النّبي الأكرم ﷺ: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه»(١).

ومن الرائع جدّاً ما ورد في حديث آخر عن الإمام السجّاد عليه السلام: «إنّ لسان ابن آدم يشرف كلّ يوم على جوارحه فيقول: كيف أصبحتم؟ فيقولون: بخير إن تركتنا. ويقولون: الله الله فينا، ويناشدونه ويقولون: إنّما نثاب بك ونعاقب بك»(٢).

هناك روايات كثيرة في هذا الباب تحكي جميعاً عن الأهميّة الفائقة للّسان ودوره في إصلاح الأخلاق وتهذيب النفوس الإنسانية، ولذلك نقرأ في حديث: «ما جلس رسول الله ﷺ على هذا المنبر قطّ إلاّ تلا هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾(٣).

ثمّ تضيف الآية في النهاية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ وأي فوز وظفر أسمى من أن تكون أعمال الإنسان صالحة، وذنوبه مغفورة، وهو عند الله من المبيضّة وجوههم الذين رضي الله عنهم؟!

﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ﴿٧٣﴾﴾

التّفسير

حمل الأمانة الإلهية أعظم افتخارات البشر

تكمل هاتان الآيتان - اللتان هما آخر آيات سورة الأحزاب - المسائل المهمّة التي

= إدراك الإنسان والبحث فيها ٢٠ - التصنّع والتكلّف في الكلام.
ونزيد عليها عشرة مواضيع مهمّة أُخرى، وهي: ١ - الاتّهام ٢ - شهادة الزور ٣ - إشاعة الفحشاء، ونشر الإشاعات التي لا أساس لها ٤ - مدح الإنسان نفسه ٥ - الإصرار في غير محلّه ٦ - الغلظة والخشونة في الكلام ٧ - الأذى باللسان ٨ - ذم من لا يستحقّ الذمّ ٩ - كفران النعمة باللسان ١٠ - الإعلام الباطل.

(١) بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٢٧٨. (٢) المصدر السابق، ص ٢٧٨.

(٣) الدرّ المنثور، طبقاً لنقل تفسير الميزان، ج ١٦، ص ٣٧٦.

وردت في هذه السورة في مجالات الإيمان، والعمل الصالح، والجهاد، والإيثار، والعفّة والأدب والأخلاق، وتبيّن كيف أنّ الإنسان يحتل موقعاً سامياً جدّاً بحيث يستطيع أن يكون حامل رسالة الله العظيمة، ولكن إذا ما جهل قيمته الحياتية والوجودية سيظلم نفسه غاية الظلم، وينحدر إلى أسفل سافلين!

تبيّن الآية أوّلاً أعظم امتيازات الإنسان وأهمّها في كلّ عالم الخلقة، فتقول: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾.

ممّا لا شكّ فيه أنّ إباءها تحمّل المسؤولية وامتناعها عن ذلك لم يكن استكباراً منها، كما كان ذلك من الشيطان، حيث تقول الآية (٢٤) من سورة البقرة: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾، بل إنّ إباءها كان مقترناً بالإشفاق، أي الخوف الممتزج بالتوجّه والخضوع.

إلاّ أنّ الإنسان، أعجوبة عالم الخلقة، قد تقدّم ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

لقد تحدّث كبار مفسّري الإسلام حول هذه الآية كثيراً، وسعوا كثيراً من أجل الوصول إلى حقيقة معنى «الأمانة»، وأبدوا وجهات نظر مختلفة، نختار أفضلها بتقصّي القرائن الموجودة في طيّات الآية.

ويجب التأكيد في هذه الآية العميقة المحتوى على خمسة موارد:

١ - ما هو المراد من الأمانة؟

٢ - ما معنى عرضها على السماوات والأرض والجبال؟

٣ - لماذا وكيف أبت هذه الموجودات حمل هذه الأمانة؟

٤ - كيف حمل الإنسان ثقل الأمانة هذا؟

٥ - لماذا وكيف كان ظلوماً جهولاً؟

لقد ذُكرت تفاسير مختلفة للأمانة ومن جملتها:

أنّ المراد من الأمانة: هي الولاية الإلهية، وكمال صفة العبودية، والذي يحصل عن طريق المعرفة والعمل الصالح.

أنّ المراد: صفة الاختيار والحرية والإرادة التي تميّز الإنسان عن سائر الموجودات.

أنّ المراد: العقل الذي هو ملاك التكليف، ومناط الثواب والعقاب.

أنّ المراد: أعضاء جسم الإنسان، فالعين أمانة الله، ويجب الحفاظ عليها وعدم استعمالها في طريق المعصية، والأُذن واليد والرجل واللسان كلّها أمانات يجب حفظها.

أنّ المراد: الأمانات التي يأخذها الناس بعضهم من بعض، والوفاء بالعهود.

أنّ المراد: معرفة الله سبحانه.

أنّ المراد: الواجبات والتكاليف الإلهيّة كالصلاة والصوم والحجّ.

لكن يتّضح من خلال أدنى دقّة أن هذه التفاسير لا تتناقض مع بعضها، بل يمكن إدغام بعضها في البعض الآخر، فبعضها أخذت جانباً من الموضوع، وبعضها الآخر كلّه.

ومن أجل الحصول على جواب جامع كاف، يجب أن نلقي نظرة على الإنسان لنرى أي شيء يمتلكه وتفتقده السماوات والأرضون والجبال؟

إنّ الإنسان موجود له استعدادات وقابليات يستطيع من خلال استغلالها أن يكون أتمّ مصداق لخليفة الله، ويستطيع أن يصل إلى قمّة العظمة والشرف باكتساب المعرفة وتهذيب النفس وتحصيل الكمالات، وأن يسمو حتى على الملائكة.

إنّ هذا الاستعداد المقترن بالحرية والإرادة والاختيار يعني أنّ الإنسان يطوي هذا الطريق بإرادته واختياره، ويبدأ فيه من الصفر ويسير إلى ما لا نهاية.

إنّ السماء والأرض والجبال تمتلك نوعاً من المعرفة الإلهيّة، وهي تذكر الله سبحانه وتسبّحه، وتخضع لعظمته وتخشع لها وتسجد، إلاّ أنّ كلّ ذلك ذاتي وتكويني وإجباري، ولذلك ليس فيه تكامل ورقي، والموجود الوحيد الذي لا ينتهي منحنى صعوده ونزوله، وهو قادر على ارتقاء قمّة التكامل بصورة لا تعرف الحدود، ويقوم بكلّ هذه الأعمال بإرادته واختياره، هو الإنسان، وهذه هي «الأمانة الإلهيّة» التي امتنعت من حملها كلّ الموجودات، وحملها الإنسان! ولذلك نرى الآية التالية قسّمت البشر إلى ثلاث فئات: «المؤمنين» و«الكفّار» و«المنافقين».

بناءً على هذا يجب القول في عبارة مختصرة أنّ الأمانة الإلهية هي قابلية التكامل غير المحدودة والممتزجة بالإرادة والاختيار، والوصول إلى مقام الإنسان الكامل، وعبودية الله الخاصّة وتقبّل ولاية الله.

لكن لماذا عُبّر عن هذا الأمر بالأمانة، مع أنّ كلّ وجودنا وكلّ ما لدينا أمانة الله؟

لقد عبّر بهذا التعبير لأهميّة امتياز البشر العظيم هذا، وإلاّ فإنّ بقية المواهب أمانات الله أيضاً، غير أنّ أهميّتها تقلّ أمام هذا الامتياز.

ويمكن أن نعبّر هنا عن هذه الأمانة بتعبير آخر ونقول: إنّها التعهّد والالتزام وقبول المسؤولية.

بناءً على هذا فإنّ أُولئك الذين فسّروا الأمانة بصفة الاختيار والحرية في الإرادة، قد أشاروا إلى جانب من هذه الأمانة العظمى، كما أنّ أُولئك الذين فسّروها بالعقل، أو أعضاء البدن، أو أمانات الناس لدى بعضهم البعض، أو الفرائض والواجبات، أو التكاليف بصورة عامّة، قد أشار كلّ منهم إلى غصن من أغصان هذه الشجرة العظيمة المثمرة، واقتطف منها ثمرة.

لكن ما هو المراد من عرض هذه الأمانة على السماوات والأرض؟

هل المراد: أنّ الله سبحانه قد منح هذه الموجودات شيئاً من العقل والشعور ثمّ عرض عليها حمل هذه الأمانة؟

أو أنّ المراد من العرض هو المقارنة؟ أي أنّها عندما قارنت حجم هذه الأمانة مع ما لديها من القابليات والاستعدادات أعلنت عدم لياقتها واستعدادها عن تحمّل هذه الأمانة العظيمة.

طبعاً، يبدو أنّ المعنى الثّاني هو الأنسب، وبهذا فإنّ السماوات والأرض والجبال قد صرخت جميعاً بأنّا لا طاقة لنا بحمل هذه الأمانة.

ومن هنا يتّضح جواب السؤال الثالث أيضاً، بأنّ هذه الموجودات لماذا وكيف رفضت وأبت حمل هذه الأمانة العظمى، وأظهرت إشفاقها من ذلك؟

ومن هنا تتّضح كيفية حمل الإنسان لهذه الأمانة الإلهيّة، لأنّ الإنسان كان قد خلق بشكل يستطيع معه تحمّل المسؤولية والقيام بها، وأن يتقبّل ولاية الله، ويسير في طريق العبودية والكمال ويتّجه نحو المعبود الدائم، وأن يطوي هذا الطريق بقدمه وإرادته، وبالاستعانة بربّه.

أمّا ما ورد في روايات عديدة وردت عن أهل البيت عليهم السلام من تفسير هذه الأمانة بقبول ولاية أمير المؤمنين علي عليه السلام وولده، فمن أجل أنّ ولاية الأنبياء والأئمّة نور ساطع من تلك الولاية الإلهيّة الكليّة، والوصول إلى مقام العبودية، وطي طريق التكامل لا يمكن أن يتمّ من دون قبول ولاية أولياء الله.

جاء في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنّه سئل عن تفسير آية عرض الأمانة، فقال: «الأمانة الولاية، من ادّعاها بغير حقّ كفر»(١).

---

(١) تفسير البرهان، ج ٣، ص ٣٤١ ذيل الآية مورد البحث.

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال عندما سئل عن تفسير هذه الآية: «الأمانة الولاية، والإنسان هو أبو الشرور المنافق»(١).

والمسألة الأُخرى التي يلزم ذكرها هنا، هي أنّنا قلنا في ذيل الآية (١٧٢) من سورة الأعراف فيما يتعلّق بعالم الذرّ بأن أخذ ميثاق الله على التوحيد كان عن طريق الفطرة، واستعداد وطبيعة الآدمي، وإنّ عالم الذرّ هو عالم الاستعداد والفطرة.

وفي مورد قبول الأمانة الإلهيّة يجب القول بأنّ هذا القبول لم يكن قبول اتّفاق وعقد، بل كان قبولاً تكوينياً حسب عالم الاستعداد.

السؤال الوحيد الذي يبقى هو مسألة كون الإنسان «ظلوماً جهولاً»، فهل أنّ وصف الإنسان بهاتين الصفتين - وظاهرهما ذمّه وتوبيخه - كان نتيجة قبوله لهذه الأمانة؟

من المسلّم أنّ النفي هو جواب هذا السؤال، لأنّ قبول هذه الأمانة أعظم فخر وميزة للإنسان، فكيف يمكن أن يُذمّ على قبوله مثل هذا المقام السامي؟

أم أنّ هذا الوصف بسبب نسيان غالب البشر وظلمهم أنفسهم، وعدم العلم بقدر الإنسان ومنزلته... وبسبب الفعل الذي بدأ منذ ابتداء نسل آدم من قِبل قابيل وأتباعه، ولا يزال إلى اليوم.

إنّ الإنسان الذي ينادى من العرش، وبني آدم الذين وُضع على رؤوسهم تاج ﴿كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ والبشر الذين هم وكلاء الله في الأرض بمقتضى قوله سبحانه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(٢) والإنسان الذي كان معلّماً للملائكة وسجدت له، كم يكون ظلوماً جهولاً لو ينسى كلّ هذه القيم السامية الرفيعة، ويجعل نفسه أسيرة هذه الدنيا، وتابعاً لهذا التراب، ويكون في مصاف الشياطين، فينحدر إلى أسفل سافلين؟!

أجل... إنّ قبول هذا الخطّ المنحرف - والذي كان ولا يزال له أتباع وسالكون كثيرون جدّاً - خير دليل على كون الإنسان ظلوماً جهولاً، ولذلك نرى أنّه حتى آدم نفسه، والذي كان رأس السلسلة ومتمتّعاً بالعصمة، يعترف بأنّه قد ظلم نفسه ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾(٣).

لقد كان «ترك الأولى» الذي صدر منه ناشئاً في الحقيقة عن نسيان جزء من عظمة هذه الأمانة الكبرى!

---

(١) تفسير البرهان، ج ٣، ص ٣٤١ ذيل الآية مورد البحث.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٠.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.

وعلى أي حال، فيجب الإعتراف بأنّ الإنسان الضعيف والصغير في الظاهر، هو أعجوبة علم الخلقة، حيث استطاع أن يتحمّل أعباء الأمانة التي عجزت السماوات والأرضون عن حملها إذا لم ينس مقامه ومنزلته(١).

وتبيّن الآية التالية علّة عرض هذه الأمانة على الإنسان، وبيان حقيقة أنّ أفراد البشر قد انقسموا بعد حمل هذه الأمانة إلى ثلاث فئات: المنافقين والمشركين والمؤمنين، فتقول: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

يوجد هناك احتمالان في معنى «اللام» في ﴿لِّيُعَذِّبَ﴾:

الأوّل: أنّها «لام الغاية» التي تذكر لبيان عاقبة الشيء ونهايته، وبناءً على هذا يكون معنى الآية: كانت عاقبة حمل هذه الأمانة أن سلك جماعة طريق النفاق، وجماعة سبيل الشرك، وهؤلاء سيبتلون بعذاب الله لخيانتهم أمانته، وجماعة هم أهل الإيمان الذين ستشملهم رحمته لأدائهم هذه الأمانة والقيام بواجباتهم.

والثاني: أنّها «لام العلّة»، فتكون هناك جملة مقدرة، وعلى هذا يكون تفسير الآية: كان الهدف من عرض الأمانة أن يوضع كلّ البشر في بوتقة الاختبار، ليُظهر كلّ إنسان باطنه فيرى من الثواب والعقاب ما يستحقّه.

وهنا أُمور ينبغي الالتفات إليها:

١ - إنّ سبب تقديم أهل النفاق على المشركين هو أنّ المنافق يتظاهر بأنّه أمين في حين أنّه خائن، إلاّ أنّ خيانة المشرك ظاهرة مكشوفة، ولذلك فإنّ المنافق يستحقّ حظّاً أكبر من العذاب.

٢ - يمكن أن يكون سبب تقديم هاتين الفئتين على المؤمنين هو أنّ الآية السابقة قد

---

(١) اتّضح ممّا قلناه في تفسير الآية أن لا حاجة مطلقاً إلى أن نقدر شيئاً في الآية، كما قال ذلك جمع من المفسّرين، ففسّروا الآية بأنّ المراد من عرض أمانة الله على السماء والأرض والجبال هو عرضها على أهلها، أي الملائكة! ولذلك قالوا بأنّ أُولئك الذين أبوا أن يحملوها قد أدّوها، وأُولئك الذين حملوها خانوها.

إنّ هذا التّفسير ليس مخالفاً لظاهر الآية من ناحية الاحتياج إلى التقدير وحسب، بل يمكن أن يناقش ويورد على اعتقاده بأنّ على الملائكة نوع تكليف، وأنّها حاملة لجزء من هذه الأمانة، وبغضّ النظر عن كلّ ذلك فإنّ تفسير أهل الجبال بالملائكة لا يخلو من غرابة، دقّقوا ذلك.

ختمت بـ ﴿ظَلُومًا جَهُولًا﴾ وهاتان الصفتان تناسبان المنافق والمشرك، فالمنافق ظالم، والمشرك جهول.

٣ - لقد وردت كلمة (الله) مرّة واحدة في شأن المنافقين والمشركين، ومرّة في شأن المؤمنين، وذلك لأنّ مصير الفئتين الأُوّليين واحد، وحساب المؤمنين يختلف عنهما.

٤ - يمكن أن يكون التعبير بالتوبة بدل الجزاء والثواب في شأن المؤمنين بسبب أنّ أكثر خوف المؤمنين من الذنوب والمعاصي التي تصدر عنهم أحياناً، ولذا فإنّ الآية تطمئنهم وتمنحهم السكينة بأنّ ذنوبهم ستغفر.

أو لأنّ توبة الله على عباده تعني رجوعه عليهم بالرحمة، ونعلم أنّ كلّ الهبات والعطايا والمكافآت قد أُخفيت في كلمة «الرحمة».

٥ - إنّ وصف الله بالغفور والرحيم ربّما كان في مقابل الظلوم والجهول، أو لمناسبته ذكر التوبة بالنسبة للمؤمنين والمؤمنات.

الآن وقد بلغنا نهاية سورة الأحزاب بفضل الله سبحانه، نرى لزاماً ذكر هذه المسألة، وهي: أنّ انسجام بداية هذه السورة مع نهايتها يستحقّ الدقّة والانتباه، لأنّ هذه السورة - سورة الأحزاب - قد بدأت بخطاب النّبي ﷺ وأمره بتقوى الله، ونهيه عن طاعة الكافرين والمنافقين، والتأكيد على كون الله عليماً حكيماً، وانتهت بذكر أعظم مسألة في حياة البشر، أي حمل أمانة الله. ثمّ بتقسيم البشر إلى ثلاث فئات: المنافقين، والكافرين، والمؤمنين، والتأكيد على كون الله غفوراً رحيماً.

وبين هذين البحثين طُرحت بحوث كثيرة حول هذه الفئات الثلاث، وأُسلوب تعاملهم مع هذه الأمانة الإلهية، وكلّ هذه البحوث يكمل بعضها بعضاً، ويوضّح بعضها بعضاً.

اللهمّ اجعلنا ممّن قبلوا أمانتك بإخلاص، وحملوها بعشق ولذّة، وقاموا بواجباتهم تجاهها.

اللهمّ اجعلنا من المؤمنين الذين وسعتهم رحمتك، لا من المنافقين والمشركين الذين استحقّوا العذاب لكونهم ظلومين جهولين.

اللهمّ انزل غضبك وسخطك على أحزاب الكفر التي اتّحدت مرّة أُخرى، واحتّلت مدينة الإسلام في عصرنا الحاضر، واهدم قصورهم على رؤوسهم، اللهمّ وهب لنا من الثبات والاستقامة ما نقف به كالجبل لندافع عن مدينة الإسلام ونحرسها في هذه اللحظات الحسّاسة.

سُورَة سَبَأ

مكيّة وعدد آياتـها أربع وخمسون

محتوى سورة سبأ

سمّيت السورة بهذا الاسم (سبأ) لذكرها قصّة قوم سبأ، وهي من السور المكيّة، التي تشتمل عادةً على بحوث المعارف الإسلامية وأُصول الاعتقادات، خصوصاً «المبدأ» و«المعاد» و«النبوّة». فأغلب بحوثها تحوم حول تلكم الموضوعات، لحاجة المسلمين لبلورة أُمور العقيدة في مكّة، وإعدادهم للانتقال إلى فروع الدين، وتشكيل الحكومة، وتطبيق كافّة البرامج الإسلامية.

وبشكل إجمالي يمكن القول بأنّ محتوى هذه السورة يندرج في خمسة مواضيع:

١ - «التوحيد»، وبعض الآثار الدالّة عليه في عالم الوجود، وبعض صفات الله المقدّسة كالوحدانية، والربوبية، والأُلوهية.

٢ - قضيّة المعاد التي نالت النصيب الأوفى من العرض في هذه السورة، باستعراضها ضمن بحوث منوّعة ومن زوايا مختلفة.

٣ - نبوّة الأنبياء السابقين وبالأخص رسول الإسلام الأكرم ﷺ والردّ على تخرّصات أعدائه حوله، وذكر جانب من معجزات من سبقه من الأنبياء.

٤ - التعرّض لذكر بعض النّعم الإلهية العظيمة، ومصير الشاكرين والجاحدين من خلال استعراض جانب من حياة النّبي سليمان عليه السلام وحياة قوم سبأ.

٥ - الدعوة إلى التفكّر والتأمّل والإيمان والعمل الصالح، وبيان تأثير هذه العوامل في سعادة وموفقية البشر.

وعلى كلّ حال، فإنّها تشكّل برنامجاً تربوياً شاملاً لتربية الباحثين عن الحقّ.

فضيلة هذه السورة

يلاحظ في الروايات تعبيرات ملفتة حول أهميّة هذه السورة وأهميّة قراءتها، من جملتها ما ورد في حديث عن الرّسول ﷺ أنّه قال: «من قرأ سورة سبأ لم يبق نبيّ ولا

رسول إلاّ كان له يوم القيامة رفيقاً ومصافحاً»[(١)].

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «من قرأ الحمدين جميعاً، سبأ وفاطر، في ليلة لم يزل ليلته في حفظ الله تعالى وكلاءته، فإن قرأهما في نهاره لم يصبه في نهاره مكروه، وأُعطي من خير الدنيا وخير الآخرة ما لم يخطر على قلبه ولم يبلغ مناه»[(٢)].

ونذكّر - كما في بداية كلّ سورة - بأنّ من الطبيعي أنّ هذا الثواب العظيم لا يكون نصيب من يكتفي من قراءته بلقلقة اللسان وحسب، بل يجب أن تكون القراءة مقدّمة للتفكير الذي يكون بدوره باعثاً على العمل الصالح.

فإنّ من يقرأ هذه السورة مثلاً، سيعلم بأنّ الدمار الذي حلّ بقوم سبأ وجعل من مصرعهم عبرة للعالمين، ومصيرهم مضرباً للأمثال، إنّما كان لكفرانهم النعم الإلهية الوافرة.

ومن يطّلع على ذلك فسيؤدّي شكر النعمة بطريقة عملية. والشاكر بنعمة الله سيكون في حفظه وأمانه تعالى.

وقد ذكرنا شرحاً أوفى حول هذا الموضوع في أوّل تفسيرنا لسورة النور.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾

التّفسير

هو المالك لكلّ شيء والعالم بكلّ شيء

خمس سور من القرآن الكريم افتتحت «بحمد الله»، وارتبط (الحمد) في ثلاث منها بخلق السماوات والأرض وهي (سبأ وفاطر والأنعام) بينما كان مقترناً في سورة الكهف بنزول القرآن على قلب الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وجاء في سورة الفاتحة تعبيراً جامعاً

(١-٢) تفسير مجمع البيان، ج٨، ص٣٧٥، بداية سورة سبأ، ج ٨، ص ٣٧٥.

شاملاً لكلّ هذه الاعتبارات ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. على كلّ حال، الحمد والشكر لله تعالى في مطلع سورة سبأ هو في قبال مالكيته وحاكميته تعالى في الدنيا والآخرة.

يقول تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

لذا فإنّ الحاكمية والمالكية في الدنيا والآخرة له سبحانه، وكلّ موهبة، وكلّ نعمة، ومنفعة وبركة، وكلّ خلقة سوية عجيبة مذهلة، تتعلّق به تعالى، ولذا فإنّ «الحمد» الذي حقيقته «الثناء على فعل اختياري حسن» كلّه يعود إليه تعالى، وإذا كانت بعض المخلوقات تستحقّ الحمد والثناء، فلأنّها شعاع من وجوده عَزَّوَجَلَّ ولأنّ أفعالها وصفاتها قبس من أفعاله وصفاته تعالى. وعليه فكلّ مدح وثناء يصدر من أحد على شيء في هذا العالم، فإنّ مرجعه في النهاية إلى الله سبحانه وتعالى.

ثمّ يضيف تعالى قائلاً: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

فقد اقتضت حكمته البالغة أن يُخضع الكون لهذا النظام العجيب، وأن يستقرّ - بعلمه وإحاطته - كلّ شيء في محلّه من الكون، فيجد كلّ مخلوق - كلّ ما يحتاج إليه - في متناوله.

وقد تحدّث المفسّرون كثيراً في هذه الآية عن المقصود من الحمد والشكر في الآخرة..

فذهب بعضهم: إنّ الآخرة وإن لم تكن دار تكليف، إلاّ أنّ عبّاد الرحمن الذين تسامت أرواحهم بعشق بارئهم هناك، يشكرونه ويحمدونه وينتشون بلذّة خاصّة من ذلك.

وقال آخرون: إنّ أهل الجنّة يحمدونه على فضله، وأهل النار يحمدونه على عدله.

وقيل: إنّ الإنسان - نتيجة وجود الحجب المختلفة على قلبه وعقله في الدنيا - لا يمكنه أن يحمد الله حمداً خالصاً، وعندما ترتفع هذه الحجب يوم القيامة تتّضح مالكيته تعالى وهيمنته على عالم الوجود للجميع مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾[(١)] وحينها تلهج الألسن بحمده والثناء عليه بكامل خلوص النيّة.

وكذلك فإنّ الإنسان قد يغفل في هذه الدنيا فيحمد بعض المخلوقات، متوهماً

(١) سورة الحجّ، الآية: ٥٦.

استقلالها، إلاّ أنّه في الآخرة، وحيث يتّضح ارتباط الكلّ به تعالى كارتباط أشعّة الشمس بقرصها، فإنّ الإنسان لن يؤدّي الحمد والثناء إلاّ لله سبحانه.

فضلاً عن كلّ هذا، فقد ورد مراراً في القرآن الكريم - أيضاً - أنّ أصحاب الجنّة يحمدون الله حين دخولهم جنّات الخلد: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾(١).

﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٢).

على كلّ حال فإنّ هذا الحمد والثناء لا ينطلق من ألسنة الناس والملائكة فقط، بل تُسمع همهمة الحمد والتسبيح من كلّ ذرّة في عالم الوجود بإدراك العقل، فليس من موجود إلاّ ويحمده ويسبّحه تعالى.

تنتقل الآية التي بعدها إلى التوسّع في إظهار جانب من علم الله اللامحدود، تناسباً مع وصف الآية السابقة له تعالى بالحكيم والخبير، فيقول سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾.

نعم، فقد أحاط علماً بكلّ حبّة مطر وقطرة ماء تنفذ وتلج في أعماق الأرض حتى إذا وصلت طبقة صلدة تجمّعت هناك وصارت ذخيرة للإنسان.

ويعلم بالبذور التي تنتقل على سطح الأرض بواسطة الريح أو الحشرات، لتنبت في مكان ما وتصبح شجرة باسقة أو عشباً طريّاً.

يعلم بجذور الأشجار عند توغلها في أعماق التربة بحثاً عن الماء والغذاء.

يعلم بالموجات الكهربائية والغازات المختلفة، بذرّات الهواء التي تنفذ في الأرض، يعلم بالكائنات الحيّة التي تشقّ طريقها فيها، ويعطيها الحياة.

وكذلك، يعلم بالكنوز والدفائن وأجساد الموتى من الإنسان وغيره... نعم إنّه مطّلع على كلّ هذا.

وكذلك فهو عارف وعالم بالنباتات التي تخرج من الأرض، والناس الذين يبعثون منها، بالعيون التي تفور بالماء منها، بالغازات التي تتصاعد منها، بالبراكين التي تلوّح بجحيمها، بالحشرات التي تتّخذ أوكاراً فيها، وتخرج منها.

والخلاصة، فهو عالم بكلّ الموجودات التي تلج الأرض وتخرج منها أعمّ ممّا نعلمه أو ما لا نعلمه.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٤.
(٢) سورة يونس، الآية: ١٠.

ثمّ يضيف قائلاً: ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ﴾.

فهو يعلم بحبّات المطر، وبأشعّة الشمس التي تنثر الحياة، بأمواج الوحي والشرائع السماوية العظيمة، وبالملائكة التي تهبط إلى الأرض لإبلاغ الرسالات أو أداء الأوامر الإلهيّة المختلفة، بالأشعة الكونية التي تدخل جوّ الأرض من الفضاء الخارجي، بالشهب والذرّات المضطربة في الفضاء والتي تهوي نحو الأرض، فهو تعالى محيط بهذا كلّه.

وكذلك فإنّه يعلم بأعمال العباد التي تعرج إلى السماء، والملائكة التي تقفل صاعدة إلى السماء بعد أداء تكاليفها، وبالشياطين الذين يرتقون إلى السماء لاستراق السمع، وبفروع الأشجار التي تتطلّع برؤوسها إلى السماء، وبالأبخرة التي تتصاعد من البحار إلى أعالي السماء لتتكاثف مكونةً سحباً، وبالآهات التي تنطلق من قلب المظلوم متصاعدة إلى السماء . . . نعم هو عالم بكلّ ذلك.

فهل هناك من مطّلع على كلّ ذلك غيره تعالى؟ وهل يمكن لعلوم جميع العلماء مجتمعة أن تحيط ولو بجزء من هذه المعلومات؟

وفي ختام الآية يضيف تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾.

لقد وصف الله تعالى نفسه بهاتين الصفتين إمّا لأجل أنّه من جملة الأُمور التي تعرج إلى السماء أعمال العباد وأرواحهم فيشملها برحمته. . .

أو لأنّ نزول البركات والعطايا السماوية تترشّح من رحمته، والأعمال الصالحة المتصاعدة من العباد مشمولة بغفرانه بمقتضى ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾(١).

أو لكون «الرحمة» تشمل من يشكر هذه النعم، و«الغفران» يشمل المقصّرين في ذلك.

والخلاصة: أنّ الآية أعلاه، لها معان واسعة من جميع الوجوه، ولا يجب حصر مؤدّاها في معنىً واحد.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ

(١) سورة فاطر، الآية: ١٠.

وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٣﴾ لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ﴿٥﴾ ﴾

التّفسير

أقسم بالله لتأتينكم القيامة

تتعرّض الآيات مورد البحث إلى موضع التوحيد وصفات الله في نفس الوقت الذي تهيىء أرضيّة لموضوع المعاد، لأنّ مشكلات (بحث المعاد) لا يمكن حلّها إلاّ عن طريق العلم اللامتناهي للباريّ عزّوجلّ، كما سنرى.

لذا فإنّ الآيات مورد البحث تبدأ أوّلاً بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾. فما هو إلاّ كذب وافتراء، بل إنّ القيامة لا تأتي أحداً من الناس.

ويريدون بذلك الفكاك والتحرّر من قيود هذه الاعتقادات؛ الحساب والكتاب والعدل والجزاء، ليرتكبوا ما يحلو لهم من الأعمال.

ولكنّ القرآن بناءً على وضوح أدلّة القيامة يخاطب الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بصورة حاسمة وفي معرض بيان النتيجة، فيقول: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾.

والتركيز على كلمة «ربّ» لأنّ القيامة في الأصل من شؤون الربوبية، فكيف يمكن أن يكون الله مالكاً ومربياً للبشر يقودهم في سيرهم التكاملي، ثمّ يتخلّى عنهم في منتصف الطريق لينتهي بالموت كلّ شيء، فتكون حياتهم بلا هدف وخلقهم هباءً وبلا معنى.

وقد ركّز القرآن في الآية السابعة من سورة التغابن أيضاً على هذا الوصف، فقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾.

وبما أنّ أحد إشكالات الكافرين بالمعاد، هو شكّهم - من جانب - في إمكانية جمع وإعادة بناء أعضاء الإنسان الميّت بعد تبعثرها وتفسّخها في التراب، وكذلك - من جانب آخر - في إمكانية وجود من يمكنه النظر في جميع أعمال العباد التي عملوها في السرّ والعلن والظاهر والباطن، لذا فإنّ الله تعالى يضيف في تتمّة الآية الكريمة ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ

إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾(١).

ولذا، فلا يغيب عن علمه تبعثر ذرّات جسم الإنسان في التراب، ولا اختلاطها بسائر الموجودات، ولا حتى حلولها في أبدان أُناس آخرين عن طريق الغذاء، ولا يشكّل مشكلة أمام إعادة بنائه من جديد. . . وأعمالهم في هذه الدنيا تبقى محفوظة أيضاً، وإن تغيّر شكلها، فهو سبحانه المحيط بها علماً.

وقد ورد نظير هذا التعبير في الآيتين الثالثة والرّابعة من سورة (ق) في قوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ٤﴾.

ولكن ما هو المقصود من «الكتاب المبين»؟

أغلب المفسّرين قالوا بأنّه «اللوح المحفوظ» ولكن السؤال هو: ما هو اللوح المحفوظ؟!

وكما ذكرنا سابقاً فإنّ أقرب تفسير (للّوح المحفوظ)، هو «لوح العلم الإلهي اللامتناهي» نعم في ذلك اللوح ضُبط وقُيّد كلّ شيء، بدون أن يجد التغيير والتبديل طريقه إليه.

وعالم الوجود المترامي الأطراف، هو الآخر انعكاس عن ذلك اللوح المحفوظ، بلحاظ أنّ كلّ ذرّات وجودنا وكلّ أقوالنا وأفعالنا تبقى محفوظة فيه، وإن كانت الظواهر تتغيّر، لكنّها لا تخرج عن حدّها أبداً.

ثمّ يوضّح تعالى الهدف من قيام القيامة في آيتين، أو بتعبير آخر إعطاء الدليل على لزوم مثل ذلك العالم بعد عالمنا الحالي لمنكري القيامة، فيقول تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾.

فإن لم يُجازِ المؤمنين بصالح عملهم ثواباً، أفلا يعني ذلك تعطيل أصل العدالة الذي هو أهم أصل من أُصول الخلقة؟ وهل يبقى معنى لعدالة الله بدون ذلك المفهوم؟! في الوقت الذي نرى أنّ أغلب هؤلاء الأفراد الصالحين، لا يتلقون جزاء أعمالهم الحسنة في هذه الدنيا أبداً، إذن لابدّ من عالم آخر لكي يتحقّق فيه هذا الأصل.

تقديم «المغفرة» على «الرزق الكريم» ربّما كان سببه: أنّ أشدّ ما يقلق المؤمنين هو

---

(١) «يعزب»: من مادة «عزوب» وتعني المتباعد في طلب الكلأ عن أهله، يُقال عَزَبَ يعزُبُ ويعزِب ثمّ أُطلق على كلّ غائب، يقال رجل عزبٌ، وامرأة عزبةٌ إذا غاب عنها زوجها.

الذنوب التي ارتكبوها، لذا فإنّ الآية تطمئنهم بعرض المغفرة عليهم أوّلاً، فضلاً عن أنّ من لم يغتسل بماء المغفرة الإلهيّة لن يكون أهلاً (للرزق الكريم) والمقام الكريم!

(الرزق الكريم) يشمل كلّ رزق ذي قيمة، ومفهوم ذلك واسع إلى درجة أنّه يشمل كلّ المواهب والعطايا الإلهية، ومنها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وبتعبير آخر فإنّ «الجنّة» بكلّ نعمها المعنوية والماديّة جمعت في هذه الكلمة، والبعض فسّر «الكريم» بأمرين: الجيد والخالي من المنغّصات، ولكن يبدو أنّ مفهوم الكلمة أوسع من ذلك بكثير(١).

ثمّ تضيف الآية الكريمة التالية، موضّحة نوعاً آخر من العدالة فيما يخصّ عقاب المذنبين والمجرمين، فيقول تعالى: إنّ الذين كذّبوا آياتنا وسعوا في إنكارها وإبطالها وتصوّروا أنّهم يستطيعون الخلاص من دائرة قدرتنا... ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

فهناك كان الحديث عن «الرزق الكريم» وهنا عن «الرجز الأليم».

«الرِّجْز»: في الأصل بمعنى الاضطراب وعدم القدرة على حفظ التوازن، ومنه قيل «رَجَزَ البعيرُ رجزاً» فهو أرجز، وناقةٌ «رجزاءُ» إذا تقارب خطوها واضطرب لضعف فيها، وأُجبرت على تقصير خطواتها لحفظ توازنها، ثمّ أُطلقت الكلمة على كلّ ذنب ورجس، كذلك فإنّ إطلاق كلمة «الرَّجَزْ» على المقاطع الشعرية الخاصّة بالنزال في الحرب، من باب قصر مقاطعها وتقاربها.

على كلّ حال فالمقصود من (الرجز) هنا، أسوأ أنواع العذاب - الذي يتأكّد بإرداف كلمة «الأليم» أيضاً وأنواع العقوبات البدنية والروحية الأليمة.

والتفت البعض إلى هذه النكتة، وهي أنّ القرآن الكريم حين ذكر نِعم أهل الجنّة لم يستعمل كلمة «من» ليدلّل على سعتها، بينما جاءت هذه الكلمة عند ذكر العذاب لتكون دليلاً على محدوديته النسبية، ولتتضح رحمته تبارك وتعالى.

﴿سَعَوْ﴾: من السعي، بمعنى كلّ جهد وجدٍّ في أمر، والمقصود منها هنا، الجدّ والجهد في تكذيب وإنكار آيات الحقّ وصدّ الناس عن طريق الله سبحانه وتعالى.

---

(١) تفسير روح المعاني، ذيل الآية مورد البحث.

معاجزين: من المعاجزة، بمعنى معجّزين، أي مثبّطين، وفي مثل هذه الموارد تطلق على من يفرّ من شخص آخر بحيث لا يمكّنه من التسلّط عليه، وبديهي أنّ هذا الوصف يستخدم للمجرمين لتوهمّهم الذي يظهرونه عملياً بهذا الاتّجاه، وعملهم يشبه إلى حدّ كبير من يتصوّر أنّه يستطيع القيام بأيّة جناية يشاء، ثمّ يستطيع الفرار من سلطة القدرة الإلهيّة!!.

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾

التّفسير

العلماء يرون دعوتك أنها حقّ

كان الحديث في الآيات السابقة عن عمي البصائر، المغفّلين الذين أنكروا المعاد مع كلّ تلك الدلائل القاطعة، وسعوا سعيهم لتكذيب الآيات الإلهيّة، وإضلال الآخرين.

وعلى هذا، فإنّ الآيات مورد البحث، تتحدّث عن العلماء والمفكّرين الذين صدّقوا بآيات الله وسعوا سعيهم لتشجيع الآخرين على التصديق بها، يقول تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

فسّر بعض المفسّرين عبارة ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، بتلك المجموعة من علماء أهل الكتاب الذين يتّخذون موقف الخضوع والإقرار للحقّ عند مشاهدة آثار حقّانية القرآن الكريم.

وليس هناك مانع من اعتبار علماء أهل الكتاب أحد مصاديق الآية، ولكن تحديدها بهم يفتقد إلى الدليل، بل مع الالتفات إلى الفعل المضارع ﴿وَيَرَى﴾ وسعة مفهوم ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ يتّضح شمول الآية لكلّ العلماء والمفكّرين في كلّ عصر وزمان ومكان.

وإذا فُسّرت بكونها إشارة إلى «أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام»، كما في تفسير علي بن إبراهيم، فإنّ ذلك توضيح وإشارة إلى أتمّ وأكمل مصاديق الآية.

نعم، فأي عالم موضوعي وغير متعصّب إذا تأمّل في ما ورد في هذا الكتاب السماوي، وتدبّر في معارفه العميقة، وأحكامه المتينة، ونصائحه الحكيمة، ومواعظه المؤثّرة في الوجدان، وإلى قصصه التاريخية المشعّة بالعِبرة، وبحوثه العلمية الإعجازية، فسيعلم بأنّها جميعاً دليل على حقّانية هذه الآيات.

واليوم، فإنّ هناك كتباً متنوّعة كتبها مفكّرون غربيون وشرقيون حول الإسلام والقرآن، تحوي اعترافات ظاهرة على عظمة الإسلام وصدق الآية مورد البحث.

التعبير بـ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ تعبير جامع ينطبق على جميع محتوى القرآن الكريم، حيث إنّ «الحقّ» هو تلك الواقعة العينية والوجود الخارجي، أي إنّ محتوى القرآن يتساوق وينسجم مع قوانين الخلق وحقائق الوجود وعالم الإنسانية.

ولكونه كذلك فهو يهدي إلى صراط الله، الله «العزيز» و«الحميد» أي إنّه تعالى الأهل لكلّ حمد وثناء وفي ذات الوقت فإنّ قدرته غاية القدرة والغلبة، وليس هو كأصحاب القدرة من البشر الذي يتعامل منطلقاً من كونه على عرش القدرة بالدكتاتورية والظلم والتجاوز والتلاعب.

وقد جاء نظير هذا التعبير في الآية الأُولى من سورة «إبراهيم» حيث قال جلّ من قائل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

وواضح أنّ من كان مقتدراً وأهلاً للحمد والثناء، ومن هو عالم ومطّلع، رحيم وعطوف، من المحتّم أن يكون طريقه أكثر الطرق اطمئناناً واستقامة، فمن يسلك طريقه إنّما يقترب من منبع القدرة وكلّ الأوصاف الحميدة.

ويعود تعالى إلى مسألة القيامة والبعث في الآية التي بعدها، ويكمل البحوث السابقة بطريقة أُخرى، فيقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

يبدو أنّ إصرار - هؤلاء الكفّار - على إنكار مسألة المعاد يعتمد على أمرين: -

الأوّل: توهّمهم أنّ المعاد الذي تحدّث عنه رسول الإسلام ﷺ وهو «المعاد

الجسماني»، أمر يسهل الإشكال عليه والطعن فيه، وأنّ بإمكانهم تنفير الناس منه فينكرونه بسهولة.

الثّاني: أنّ الاعتقاد بالمعاد، أو حتى القبول باحتماله - على كلّ حال - إنّما يفرض على الإنسان مسؤوليات وتعهّدات، ويضعه وجهاً لوجه أمام الحقّ، وهذا ما اعتبره رؤوس الكفر خطراً حقيقيّاً، لذا فقد أصرّوا على إلغاء فكرة المعاد والجزاء الأُخروي على الأعمال من أذهان الناس. فقالوا: أيمكن لهذه العظام المتفسّخة، وهذه الذرّات المبعثرة، التي تعصف بها الريح من كلّ جانب، أن تُجمع في يوم وتُلبس ثوب الحياة من جديد؟

واستخدامهم لكلمة ﴿رَجُلٍ﴾ بصيغة النكرة في تعبيرهم عن الرّسول ﷺ يقصد منه التحقير «وحاشاه».

ولكن فاتهم أنّنا في بدء الخليقة لم نكن إلاّ أجزاء مبعثرة، فكلّ قطرة ماء في أبداننا إنّما كانت قطرة في زاوية من بحر أو ينبوع ماء، وكلّ ذرّة من مواد أجسامنا، كانت في جانب من جوانب هذه الأرض المترامية، وسيجمعها الله تبارك وتعالى في النهاية أيضاً كما جمعها في البدء، وهو على كلّ شيء قدير.

والعجيب أنّهم اعتبروا ذلك دليلاً على كذب الرّسول ﷺ أو جنونه، وحاشاه ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾.

وإلاّ فكيف يمكن لرجل عاقل أو صادق أن يتفوّه بمثل هذا الحديث!!؟

ولكن القرآن يردّ عليهم بشكل حاسم قائلاً: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾.

فأي ضلال أوضح من أن يرى مُنكِرُ المعاد بأُمّ عينيه مثالاً لهذا المعاد في عالم الطبيعة في كلّ عام بإحياء الأرض الميتة بالزرع.

المعاد الذي لولا وجوده لما كان للحياة في هذا العالم أي معنى أو محتوى.

وأخيراً فإنكار المعاد مساوٍ لإنكار قدرة وعدل وحكمة الله جلّ وعلا.

ولكن لماذا يؤكّد تعالى أنّهم الآن في العذاب والضلال؟

ذلك لأنّ الإنسان يواجه في حياته مشاكل وأحداثاً لا يمكنه - بدون الإيمان بالآخرة - تحمّلها، والحقيقة أنّ الحياة لو حُدّت بهذه الأيّام القليلة من عمر الدنيا لكان تصوّر الموت بالنسبة لكلّ إنسان كابوساً مرعباً، لهذا السبب نرى أنّ منكري المعاد في قلق

دائم منغّص وعذاب أليم، بينما المؤمنين بالمعاد يعتبرون الموت قنطرة إلى عالم البقاء، ووسيلة لكسر القيود والتحرّر من سجن الدنيا.

نعم، فالإيمان بالمعاد يغمر قلب الإنسان بالطمأنينة، ويهوّن عليه المشكلات، ويجعله أكثر قدرة على الإيثار والفداء والتضحية.

أمّا الذين يرون المعاد - لجهلهم وكفرهم - دليلاً على الكذب أو الجنون، إنّما يأسرون أنفسهم في عذاب العمى، والضلال البعيد.

ومع أنّ بعض المفسّرين اعتبروا هذا العذاب إشارة إلى عذاب الآخرة، ولكنّ ظاهر الآية يدلّل على أنّهم أسرى هذا العذاب والضلال الآن وفي هذه الدنيا.

ثمّ ينتقل القرآن الكريم لتقديم دليل آخر عن المعاد، مقترن بتهديد الغافلين المعاندين فيقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

فإنّ هذه السماء العظيمة بكلّ عجائبها، بكواكبها الثابتة والسيّارة، وبالأنظمة التي تحكمها، وكذلك الأرض بكلّ مدهشاتها وأنواع موجوداتها الحيّة، وبركاتها ومواهبها، لأوضح دليل على قدرة الخلاّق العظيم.

فهل أنّ القدير على كلّ هذه الأُمور، عاجز عن إعادة الإنسان بعد الموت إلى الحياة؟

وهذا هو «برهان القدرة» الذي استدلّ به القرآن الكريم في آيات أُخرى في مواجهة منكري المعاد، ومن جملة هذه الآيات: الآية (٨٢) من سورة يس، والآية (٩٩) من سورة الإسراء والآيتان (٦ و٧) من سورة ق.

ونشير إلى أنّ هذه الجملة كانت مقدّمة لتهديد تلك الفئة المتعصّبة من ذوي القلوب السوداء، الذين يصّرون على عدم رؤية كلّ هذه الحقائق، لذا يضيف تعالى قائلاً: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ فنأمر الأرض فتنشقّ بزلزلة مهولة وتبتلعهم، أو نأمر السماء فترميهم بقطعات من الحجر وتدمّر بيوتهم وتهلكهم ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أجل، إنّ في هذا الأمر دلائل واضحة على قدرة الله تعالى على كلّ شيء، ولكن يختّص بإدراك ذلك كلّ إنسان يتدبّر في مصيره ويسعى في الإنابة إلى الله ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

لابدّ أن كلّ منّا سمع أو شاهد نماذج من الزلازل أو الخسف في الأرض، أو سقوط النيازك من السماء، أو بتساقط وتناثر صخور الجبال بسبب صاعقة أو انفجار بركان، وكلّ عاقل يدرك إمكانية حصول مثل هذه الأُمور في أيّة لحظة وفي أيّ مكان من العالم،

فإذا كانت الأرض هادئة تحت أقدامنا، والسماء آمنة فوق رؤوسنا، فلأنّها كذلك بقدرة أخرى وبأمر من آمر، فكيف نستطيع - ونحن المحكومون بقدرته في كلّ طرفة عين - إنكار قدرته على البعث بعد الموت، أو كيف نستطيع الفرار من سلطة حكومته!!.

هنا يجب الالتفات إلى جملة أُمور:

١ - يعبّر القرآن الكريم هنا عن السماء التي فوق رؤوسنا، والأرض التي تحت أقدامنا بـ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ و﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾. وهو المورد الوحيد الذي يلاحظ فيه مثل هذا التعبير. وهذا التعبير لعلّه إشارة إلى أنّ قدرة وعظمة الله أظهر في السماء وقت طلوع أو غروب الشمس وظهور القمر والنجوم فيها. ونعلم أنّ من يقف غالباً باتّجاه الأُفق تكون السماء بين يديه، والأرض التي تأتي بالدرجة الثّانية من الأهميّة أُطلق عليها ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

كذلك هي إشارة إلى هؤلاء المغرورين أنّهم إن لم يجيزوا لأنفسهم النظر إلى ما فوق رؤوسهم، فلا أقل من أن ينظروا إلى ما بين أيديهم في جوار الأُفق.

٢ - نعلم بأنّنا نعيش بين مصدرين عظيمين من مصادر الخطر على حياتنا:

أوّلهما: باطن الكرة الأرضية المشتعل الذي هو عبارة عن صخور مذابة ومشتعلة وفي حالة من الفوران، وفي الحقيقة فإنّ حياة جميع البشر فوق مجموعة من البراكن - بالقوّة - وبمجرّد صدور أمر إلهي صغير ينطلق أحد هذه البراكين ليهزّ منطقة عظيمة من الأرض وينثر عليها الأحجار الملتهبة والمواد المعدنية المذابة المشتعلة.

وثانيهما: مئات الآلاف من الأحجار الصغيرة والكبيرة السابحة في الفضاء الخارجي تنجذب نحو الأرض يومياً بفعل جاذبيتها، ولولا احتراقها نتيجة اصطدامها بالغلاف الغازي، لكنّا هدفاً «لمطر حجري» بشكل متواصل ليل نهار، وأحياناً تكون أحجامها وسرعتها وقوّتها إلى درجة أنّها تتخطّى ذلك المانع وتنطلق باتّجاه الأرض لتصطدم بها، وهذا واحد من الأخطار السماوية، وعليه فإذا كنّا نعيش وسط هذين المصدرين الرهيبين للخطر، بمنتهى الأمن والأمان بأمر الله، أفلا يكفي ذلك لأن نتوجّه إلى جلال قدرته العظيمة ونسجد تعظيماً وطاعة له!!.

٣ - من الجدير بالملاحظة أنّ الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث أشارت إلى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ ولكنّها حدّدت ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾. والإشارة تستبعد ذلك المتمرّس بالعصيان الذي خلع عن رقبته طوق العبودية لله سبحانه وتعالى، والغافلين الذين أداموا

السير في الطريق الخاطئة الملوّثة بالخطايا واستبعدوا عن أذهانهم - كلياً - التوبة والإنابة، فهولاء أيضاً لا يمكنهم الانتفاع من هذه الآية المشرقة، لأنّ وجود الشمس الساطعة لا يكفي وحده لتحصل الرؤية، بل يستلزم أيضاً العين المبصرة وارتفاع الحجاب بينهما.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾

التّفسير

المواهب الإلهية العظيمة لداود

بناء على ما مرّ ذكره في آخر المجموعة السابقة من الآيات وما قلناه حول «العبد المنيب» والثواب، ولعلمنا بأنّ هذا الوصف قد ذكر للنبيّ داود عليه السلام (في الآية ٢٤ من سورة ص) - كما سيرد شرحه بإذن الله - فالأفضل من أن نتعرّض لجانب من حياة هذا النبي عليه السلام كمثال للإنابة والتوبة وإكمال البحث السابق، وهي أيضاً تنبيه لكل من يغمط نعم الله ويتناساها، ويتخلّى عن عبوديته لله عند جلوسه على مسند القدرة والسلطة.

في الآية الأُولى يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾.

مفردة «فضل» ذات معنى وسيع، يشمل كلّ المواهب التي تفضّل الله بها على داود، وزادها التنكير سعة ودلّل على عظمة تلك المواهب.

فقد شُمل داود بالمواهب العظيمة سواء من الناحية المادية أو المعنوية، وقد تعرّض القرآن الكريم مراراً لذكرها.

ففي موضع يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

وفي موضع آخر يقول تعالى على لسان داود: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾[٢].

(١) سورة النمل، الآية: ١٥. (٢) سورة النمل، الآية: ١٦.

وسترد ضمن حديثنا حول آخر هذه الآيات، معجزات مختلفة تمثّل جزءاً من هذا الفضل العظيم، وكذلك الصوت الباهر، والقدرة العالية على القضاء العادل التي أُشير إليها في سورة (ص) تمثّل لوناً آخر من ذلك الفضل الإلهي، وأهمّ من ذلك كلّه النبوّة والرسالة التي شُرِّف بها داود عليه السلام.

وعلى كلّ حال، فبعد هذه الإشارة الإجمالية العامّة، تبدأ الآية بشرح وتوضيح جوانب من الفضائل المعنوية والمادية التي تمتّع بها داود، فيقول تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾.

كلمة ﴿أَوِّبِي﴾ في الأصل من «التأويب» بمعنى الترجيع وإعادة الصوت في الحلق، وهذا الأصل يستعمل أيضاً بمعنى «التوبة» لأنّ حقيقتها الرجوع إلى الله.

ومع أنّ كلّ ذرّات الوجود تذكر الله وتسبّح بحمده، سواء أسَبَّحَ داود عليه السلام معها أو لم يسبّح، ولكن الميزة التي خُصّ بها داود هي أنّه ما إن يرفع صوته ويبدأ التسبيح، إلاّ ويظهر ما كان خفيّاً وكامناً في الموجودات، وتتبدل الهمهمة الباطنية إلى نغمة علنية منسجمة، كما ورد في الروايات من تسبيح الحصاة في يد الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام عند ذكره لقصّة داود: «إنّه خرج يقرأ الزبور، وكان إذا قرأ الزبور لا يبقى جبل ولا حجر ولا طائر إلاّ أجابه»[1].

وبعد ذكر هذه الفضيلة المعنوية، تذكر الآية فضيلة مادية أُخرى فتقول: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾.

يمكن القول، بأنّ الله تعالى علّم داود - إعجازاً - ما استطاع بواسطته تليين الحديد حتى يمكنه من صنع أسلاك رقيقة وقوية لنسج الدروع منها، أو أنّه كان قبل داود يستفاد من صفائح الحديد لصناعة الدروع والإفادة منها في الحروب، ممّا كان يسبّب حرجاً وإزعاجاً للمحاربين نتيجة ثقل الحديد من جهة، وعدم قابلية تلك الدروع للانحناء أو الالتواء حين ارتدائها، ولم يكن أحدٌ قد استطاع حتى ذلك اليوم نسج الدروع من أسلاك الحديد الرفيعة المحكمة، ليكون لباساً يمكن ارتداؤه بسهولة والإفادة من قابليته على التلوّي والانحناء مع حركة البدن برقّة وانسياب[2].

(١) تفسير الميزان، ج١٦، ص٣٩٠.

(٢) انظر تفسير البرهان، ج٣، ص٣٤٣. وتفسير نور الثقلين، ج٤، ص٣١٥.

ولكن ظاهر الآية يدلّ على أنّ ليونة الحديد تمّت لداود بأمر إلهي، فما يمنع الذي أعطى لفرن النار خاصية إلانة الحديد، أن يعطي هذه الخاصية لداود بشكل آخر، وقد أشارت بعض الروايات أيضاً إلى هذا المعنى.

فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه قال: «إنّ الله أوحى إلى داود: نعم العبد أنت إلاّ أنّك تأكل من بيت المال، فبكى داود أربعين صباحاً، فألان الله له الحديد، وكان يعمل كلّ يوم درعاً فيبيعها بألف درهم فعمل ثلاثمائة وستّين درعاً فباعها بثلاثمائة وستّين ألفاً فاستغنى عن بيت المال»[1].

صحيح أنّ بيت المال يؤمّن مصارف الأشخاص الذين يقدّمون خدمة مجانية للأُمّة، ويتحمّلون الأعباء التي لايتحمّلها غيرهم، ولكن ما أروع أن يستطيع الإنسان تقديم هذه الخدمة، وتأمين معاشه - في حال الاستطاعة - من كدّ يمينه، وداود عليه السلام أراد أن يكون ذلك العبد الممتاز.

على كلّ حال، فإنّ داود وجّه هذه القدرة التي وهبها إيّاه الله في أفضل الطرق وهي صناعة وسائل الجهاد والدفاع ضدّ الأعداء، ولم يحاول الاستفادة منها في صناعة وسائل الحياة العادية، وعلاوة على الاستفادة من دخله منها في تصريف أُمور حياته المعاشية البسيطة، فقد هيّأ جزءاً منه للإنفاق على المحتاجين[2]. وفوق كلّ هذا، فقد كان عمله بحدّ ذاته معجزة ارتبطت به.

نقل بعض المفسّرين قال: «حُكي أنّ لقمان حضر داود عند أوّل درع عملها فجعل يتفكّر فيها ولا يدري ما يريد، ولم يسأله حتى فرغ منها ثمّ قام فلبسها وقال: نعم جُنة الحرب هذه، فقال لقمان: الصمت حكمة وقليل فاعله!»[3].

الآية التي بعدها تتعرّض لشرح صناعة داود للدروع والأمر الإلهي العميق المعنى بهذا الخصوص، يقول تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ﴾.

﴿سَٰبِغَٰتٖ﴾: جمع (سابغ) وهو الدرع التامّ الواسع، و«إسباغ النعمة» أيضاً بمعنى توسيعها.

«سرد»: في الأصل بمعنى حياكة ما يخشن ويغلظ كنسج الدرع وخرز الجلد،

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٨ ص٣٨١، ذيل الآية مورد البحث.
(٢) راجع تفسير أبي الفتوح الرازي، ج٩، ص١٩٢.
(٣) تفسير مجمع البيان، ج٨، ص٣٨٢، ذيل الآية مورد البحث.

واستعير لنظم الحديد، وجملة ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ معناها مراعاة المقاييس المتناسبة في حلقات الدرع وطريقة نسجها، وفي الواقع فإنّ الله تعالى قد أمر داود بأن يكون مثالاً يحتذى لكل الحرفيين والعمّال المؤمنين في العالم، بمراعاته للإتقان والدقّة في العمل من حيث الكمّ والكيف في المصنوعات، ليستطيع بالتالي مستهلكوها استعمالها براحة وبشكل جيّد، والإفادة من متانتها.

يقول تعالى لداود: أن اصنع الدروع واسعة ومريحة، حتى لا تكون سجناً للمقاتل وقت ارتدائها... لا تجعل حلقاتها صغيرة وضيّقة أكثر من اللازم فتفقد بذلك خاصيّة الانثناء والتطوّي، ولا كبيرة إلى درجة يمرّ منها حدّ السيف والخنجر والسنان، فكلّ شيء يجب أن يكون ضمن مقياس معيّن وتناسب محدّد.

الخلاصة: هي أنّ الله تعالى قد قيّض لداود «المادّة» بمقتضى ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾.

وكذلك علّمه بطريقة تحويلها وصناعتها، حتى يكون الناتج كاملاً باجتماع «المادّة» و«الصورة».

ثمّ تُختم الآية بخطاب لداود وأهل بيته ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ويلاحظ أنّ المخاطب كان في صدر الآية داود وحده، بينما تحوّل الخطاب في آخر الآية ليشمل داود وأهل بيته أو داود وقومه، ذلك لأنّ هذه الأُمور مقدّمة للعمل الصالح، فالهدف ليس صناعة الدروع وتحقيق الربح، بل إنّ ذلك كلّه وسيلة في المسير باتّجاه العمل الصالح، وليستفيد أيضاً داود وأهل بيته، وإحدى خصائص العمل الصالح هي مراعاة الدقّة الكافية في الصناعات من كلّ الجوانب وتقديم نتاج كامل ومفيد خال من أي عيب أو تقصير.

ومن المحتمل أيضاً أن يكون الخطاب لداود وكلّ من تحقّقت له الاستفادة من جهده ونسيجه، إشارة إلى أنّ هذه الوسيلة الدفاعية ينبغي أن تستخدم في طريق العمل الصالح، وليس في طريق المعاصي والجور والظلم.

﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا

قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾

التّفسير

هيبة سليمان وموته العبرة!!

بعد الحديث عن المواهب التي أغدق الله بها على داود عليه السلام تنتقل الآيات إلى الحديث عن ابنه سليمان عليه السلام، وفي حين أنّ الآيات السابقة أشارت إلى موهبتين تخصّان داود، فهذه الآيات تشير إلى ثلاث مواهب عظيمة خُصّ بها ابنه سليمان عليه السلام يقول تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ﴾(١).

الملفتُ هنا أنّ الله تبارك وتعالى حينما سخّر للأب جسماً خشناً وصلباً جدّاً وهو الحديد، نرى أنّه قد سخّر للابن موجوداً لطيفاً للغاية، ولكنّ العملين كانا نافعين وإعجازيين، جسم صلب يلين لداود، وأمواج الهواء اللطيفة تجعل محكمة وفعّالة لسليمان!!

ولطافة الريح لا تمنع من أدائه أعمال هامّة، فمن الرياح ما يحرّك السفن الكبيرة على ظهر المحيطات، ومنها ما يدير أحجار الطاحونات الهوائية الثقيلة، ومنها ما يرفع البالونات إلى عنان السماء ويحرّكها كالطائرات.

نعم، هذا الجسم اللطيف بهذه القدرة الإيجابية سُخّر لسليمان.

أمّا كيف تحمل الريح مقعد سليمان، (سواء أكانت كرسياً أم بساطاً)؟ فليس بواضح لنا، والقدر المتيقّن هو أن لا شيء يمثّل مشكلة أو عقبة أمام قدرة الله، لقد استطاع الإنسان بقدرته - الحقيرة أمام قدرة الله - أن يحرّك البالونات والطائرات التي تحمل مئات بل آلاف المسافرين والأحمال الأُخرى في عنان السماء، فهل أنّ تحريك بساط سليمان بواسطة الريح يشكّل أدنى مشكلة للباري جلّت قدرته!؟

---

(١) «لسليمان» جار ومجرور متعلّق بفعل مقدّر تقديره «سخّرنا» كما يفهم بقرينة الآيات السابقة، وقد صُرّح بذلك في الآية (٣٦) من سورة ص. التي قال فيها سبحانه وتعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾. وبعض المفسّرين يعتقد بأنّ (اللام) في (لسليمان) للتخصيص، إشارةً إلى أنّ المعجزة اختصّ بها سليمان ولم يشاركه فيها أحد من الأنبياء.

ما هي العوامل التي تحفظ سليمان ووسيلة نقله من السقوط أو من ضغط الهواء والمشكلات الأُخرى الناشئة من الحركة في السماء؟ هذه أيضاً من المسائل التي خفيت عنّا تفصيلاتها، ولكن ما نعلمه أنّ تأريخ الأنبياء حافل بخوارق العادة والتي - مع الأسف - امتزجت نتيجة جهود بعض الجهلة أو أعداء المعرفة بالخرافات حتى أضحت الصورة الحقيقية لهذه الأُمور مشوشة وقبيحة، ونحن نقتنع بهذا الخصوص بالمقدار الذي أشار إليه القرآن الكريم(١).

«غدو»: بمعنى وقت الصبح من النهار، يقابله «الرواح» بمعنى وقت الغروب من النهار، ويطلق على الحيوانات عند عودتها إلى مساكنها في آخر النهار للاستراحة، ويبدو من القرائن في الآية مورد البحث أنّ «الغدو» هنا بمعنى النصف الأوّل من النهار، و«الرواح» النصف الثّاني منه، لذا يحتمل في معنى الآية أنّ سليمان عليه السلام يقطع في وقت مقداره من الصبح إلى الظهر - بمركبه - ما يعادل المسافة التي يقطعها المسافرون في ذلك الزمان بشهر كامل، وكذا نصف النهار الثاني.

بعدئذ تنتقل الآية إلى الموهبة الثّانية التي خصّ الله بها سليمان عليه السلام فتقول الآية الكريمة: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾.

«أسلنا» من مادّة «سيلان» بمعنى الجريان، و«القطر» بمعنى النحاس، والمقصود أنّنا أذبنا له هذا الفلز وجعلناه كعين الماء، وذهب البعض إلى أنّ «القطر» يعني أنواع الفلزات أو «الرصاص»، وعلى هذا يكون قد أُلين الحديد للأب، وأُذيبت الفلزات بأجمعها للابن، ولكن المشهور هو المعنى الأوّل.

كيف يكون النحاس أو الفلزات الأُخرى كعين الماء بين يدي سليمان عليه السلام؟ هل أنّ الله علّم هذا النّبي كيفية إذابة هذه الفلزات بكميات كبيرة بطريقة الإعجاز؟ أو جعل عيناً من هذا الفلز المائع تحت تصرفه، تشبه عيون البراكين وقت فعاليتها، حيث تنحدر منها على أطراف الجبل بصورة إعجازية، أو بأي شكل آخر؟ ليس واضحاً لدينا وما نعلمه هو أنّ ذلك أيضاً كان من الألطاف الإلهية على هذا النّبي العظيم.

أخيراً تنتقل الآية إلى بيان الموهبة الإلهيّة الثالثة لسليمان عليه السلام وهي تسخير مجموعة كبيرة من الجنّ لخدمته فتقول الآية: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

---

(١) لقد بحثنا في هذا المورد، ذيل الآية ٨١ من سورة الأنبياء.

«الجنّ»: وكما هو معلوم من اسمه، ذلك المخلوق المستور عن الحسّ البشري، له عقل وقدرة ومكلّف بتكاليف إلهية - كما يستفاد من آيات القرآن -.

لقد صيغت حول «الجنّ» أساطير وحكايات وقصص خرافية كثيرة، لو حذفناها لكان أصل وجودهم والصفات الخاصّة بهم التي وردت في القرآن موضوعاً لا يخالف العلم والعقل مطلقاً، وسوف نتعرّض إن شاء الله لتفصيل هذا الموضوع أكثر عند تفسير سورة «الجنّ».

وعلى كلّ حال، يستفاد من تعبير الآية أعلاه، أنّ تسخير هذه القوّة العظيمة كان - أيضاً - بأمر الله، وأنّهم كانوا يتعرّضون للعقاب لدى تقصيرهم في أداء مهامهم.

قال بعض المفسّرين: إنّ المقصود من «عذاب السعير» هنا، عقوبة يوم القيامة، في حين أنّ ظاهر الآية يشير إلى أنّها عقوبة في الدنيا.

وكذلك يستفاد من الآيتين ٣٧ و٣٨ من سورة «ص» بأنّ الله قد سخّر لسليمان عليه السلام مجموعة من الشياطين لإنجاز أعمال عمرانية هامّة له، وأنّهم كانوا يكبّلون بالسلاسل بأمر من سليمان عند ظهور أي تخلّف منهم ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ (٣٧) وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ (٣٨)﴾.

والجدير بالملاحظة. هو أنّه لإدارة حكومة كبيرة، ودولة واسعة كدولة سليمان يلزم وجود عوامل عديدة، ولكن أهمّها ثلاثة عوامل ذكرتها الآية أعلاه وهي:

الأوّل: توفّر واسطة نقل سريعة مهيّأة على الدوام، لكي يستطيع رئيس الحكومة تفقّد جميع أطراف دولته بواسطتها.

الثاني: مواد أوّلية يستفاد منها لصناعة المعدّات اللازمة لحياة الناس والصناعات المختلفة.

الثالث: قوّة عاملة فعّالة، تستطيع الإفادة من تلك المواد بدرجة مناسبة، وتصنيعها بالكيفية اللازمة، وسدّ حاجة البلاد من هذه الجهة.

ونرى أنّ الله تعالى قد قيّض لسليمان هذه العناصر الثلاثة، وقد حقّق سليمان منها أحسن الفائدة في ترقية الناس وتعمير البلاد وتحقيق الأمن فيها.

وهذا الموضوع لا يختصّ فقط بعصر سليمان عليه السلام وحكومته، فالالتفات إليه ومراعاته من الضروريات اليوم وغداً، وفي كلّ مكان لأجل إدارة الدول بطريقة صحيحة.

الآية التالية، تشير إلى جانب من الأعمال الإنتاجية الهامّة، التي كان يقوم بها فريق الجنّ بأمر سليمان.

يقول تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾.

فكلّ ما أراده سليمان من معابد وتماثيل وأوانٍ كبيرة للغذاء والتي كانت كالأحواض الكبيرة، وقدور واسعة ثابتة، كانت تهيّأ له، فبعضها يرتبط بالمسائل المعنوية والعبادية، وبعضها الآخر يرتبط بالمسائل الجسمانية، وكانت متناسبة مع أعداد جيشه وعمّاله الهائلة.

«محاريب» جمع محراب، ويعني «مكان العبادة» أو «القصور والمباني الكبيرة» التي بنيت كمعابد. كذلك أُطلقت أيضاً على صدر المجلس، وعندما بُنيت المساجد سمّي صدر المسجد به، قيل: سمّي محراب المسجد بذلك لأنّه موضع محاربة الشيطان والهوى(١). وقيل: سمّي بذلك لأنّ الإنسان فيه يكون حريباً من أشغال الدنيا ومن توزّع الخواطر(٢).

على كلّ حال، فإنّ هؤلاء العمّال النشطين المهرة، قاموا ببناء المعابد الضخمة والجميلة في ظلّ حكومته الإلهيّة والعقائدية، حتى يستطيع الناس أداء وظائفهم العبادية بسهولة.

«تماثيل»: جمع تمثال، بمعنى الرسم والصورة والمجسمة، وقد وردت تفاسير عديدة حول ماهية هذه التماثيل ولأي الموجودات كانت؟ أو لماذا أمر سليمان بصنعها؟.

يمكن أن تكون صنعت لتزيين المباني، كما نلاحظ ذلك في المباني المهمّة القديمة في عصرنا الحالي، أو حتى في بعض المباني الجديدة.

أو لإضفاء الأُبّهة والهيبة على المباني التي بنيت، حيث إنّ رسم بعض أنواع الحيوانات كالأسد مثلاً يضفي نوعاً من الأُبّهة في أفكار غالبية الناس.

ثمّ، هل كان صنع تماثيل ذوات الأرواح مباحاً في شريعة سليمان عليه السلام مع كونه حراماً في الشريعة الإسلامية؟ أو أنّ التماثيل التي كانت تصنع لغير ذوات الروح من الموجودات كالأشجار والجبال والشمس والقمر والنجوم؟

أو أنّها كانت مجرّد نقوش ورسوم على الجدران - كما تلاحظ في الآثار القديمة - وهي غير محرّمة كما هو الحال في حرمة التماثيل المجسّمة.

(١-٢) مفردات الراغب، مادّة (حرب).

كلّ ذلك محتمل، لأنّ تحريم صناعة المجسّمات في الإسلام، كان بقصد مكافحة قضيّة عبادة الأوثان وإقتلاعها من الجذور، في حين أنّ ذلك لم يكن بتلك الدرجة من الضرورة في زمن سليمان، لذا لم تحرم في شريعته!

ولكنّنا نقرأ في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية أنّه قال: «والله ما هي تماثيل الرجال والنساء ولكنّها الشجر وشبهه»(١).

وبالاستناد إلى هذه الرّواية فإنّ صنع التماثيل من ذوات الروح في شريعة سليمان كان حراماً أيضاً.

«جفان» جمع «جفنة» بمعنى إناء الطعام.

«جوابي» جمع «جابية» بمعنى حوض الماء.

وهنا يستفاد أنّ المقصود من التعبير الوارد في الآية الكريمة، أنّ هؤلاء العمّال قد صنعوا لسليمان عليه السلام أوانٍ للطعام كبيرة جدّاً، بحيث إنّ كلاً منها كان كالحوض، لكي يستطيع عدد كبير من الأفراد الجلوس حوله وتناول الطعام منه، والاستفادة من الأواني الجماعية الكبيرة لتناول الطعام كانت موجودة إلى أزمنة ليست بالبعيدة، وفي الحقيقة فإنّ مائدتهم كانت تلك الأواني الكبيرة التي لا تشبه ما نستعمله هذه الأيّام من أوان صغيرة ومستقلّة.

«قدور»: جمع «قدر» على وزن «قشر». بنفس معناه الحالي، أي الإناء الذي يطبخ فيه الطعام.

«راسيات»: جمع «راسية» بمعنى ثابتة، والمقصود أنّ القدور كانت من العظمة بحيث لا يمكن تحريكها من مكانها.

وتعرج الآية في الختام وبعد ذكر هذه المواهب الإلهيّة، إلى آل داود فتخاطبهم: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

وبديهي أنّ (الشكر) الذي أشارت إليه الآية، لو كان مقصوداً به الشكر باللسان لما كانت هناك أدنى مشكلة ولما كان العاملون به قليلين، ولكن المقصود هو (الشكر العملي)، أي الاستفادة من تلك المواهب في طريق الأهداف التي خلقت لأجلها، والمسلّم به أنّ الذين يستفيدون من المواهب الإلهية في طريق الأهداف التي خلقت لأجلها هم الندرة النادرة.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١٢، ص٢١٩ - ٢٢٠، ب٩٤، ح١.

قال بعض العلماء: إنّ للشكر ثلاث مراحل: الشكر بالقلب، بتصوّر النعمة والرضى والسرور بها، والشكر باللسان، وبالحمد والثناء على المنعم، الشكر بسائر الأعضاء والجوارح، وذلك بتطبيق الأعمال مع متطلّبات تلك النعمة.

«شكور»: صيغة مبالغة. يعبّر بها عن كثرة الشكر ودوامه بالقلب واللسان والأعضاء والجوارح.

وهذه الصفة تطلق أحياناً على الله سبحانه وتعالى، كما ورد في الآية (١٧) من سورة التغابن: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾. والمقصود به أنّ الله سبحانه وتعالى، يشمل العباد المطيعين بعطاياه وألطافه، ويشكرهم، ويزيدهم من فضله أكثر ممّا يستحقّون.

كذلك يمكن أن يكون التعبير بـ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ إشارة إلى تعظيم مقام هذه المجموعة النموذجية، أو بمعنى حثّ المستمع ليكون من أفراد تلك الزمرة ويزيد جمع الشاكرين.

آخر آية من هذه الآيات، وهي آخر حديث عن النّبي سليمان عليه السلام، يخبرنا الله سبحانه وتعالى فيها بطريقة موت ذلك النّبي العجيبة والداعية للاعتبار، فيوضّح تلك الحقيقة الساطعة، وهي كيف أنّ نبيّاً بتلك العظمة وحاكماً بكلّ تلك القدرة والأُبّهة، لم يستطع حين أخذ الموت بتلابيبه من أن يستلقي على سرير مريح، وانتزعت روحه من بدنه بتلك السهولة والسرعة. يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾(١).

يستفاد من تعبير الآية ومن الروايات المتعدّدة الواردة في تفسيرها، أنّ سليمان كان واقفاً متّكئاً على عصاه حين فاجأه الموت واستلّ روحه من بدنه، وبقي جثمان سليمان مدّة على حالته، حتى أكلت الأُرضةُ - التي عبّر عنها القرآن بـ ﴿دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ - عصاه، فاختلّ توازنه وهوى على الأرض، وبذا عُلم بموته.

لذا تضيف الآية بعد ذلك ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾.

جملة «تبيّنت» من مادّة «بيّن» عادةً بمعنى (اتّضح) (وهو فعل لازم)، وأحياناً يأتي

---

(١) «منسأته»: من مادّة (نسأ) وهو التأخير في الوقت، والمنسأة: عصا يُنسأ بها الشيء، أي يؤخر. قال بعض المفسّرين: إنّ هذه اللفظة من كلمات أهل اليمن، وبما أنّ سليمان عليه السلام حكم تلك المنطقة فقد استخدمها القرآن حين حديثه عن ذلك النّبي. راجع مفردات الراغب وتفسير القرطبي وروح البيان.

أيضاً بمعنى «العلم والاطلاع» (فعل متعد)، وهنا يتناسب الحال مع المعنى الثاني، بمعنى أنّ الجنّ لم يعلموا بموت سليمان إلى ذلك الوقت، ثمّ علموا وفهموا أنّهم لو كانوا يعلمون الغيب لما بقوا حتى ذلك الحين في تعب وآلام الأعمال الشاقّة التي كلّفوا بها.

جمع من المفسّرين أخذ المعنى بالحالة الأُولى، وقال: إنّ مقصود الآية هو أنّه بعد أن هوى جثمان سليمان عليه السلام إلى الأرض اتّضحت حقيقة الجنّ للناس، وأنّهم لا يعلمون شيئاً من الغيب، وعبثاً كان اعتقاد البعض باطّلاع الجنّ على الغيب[1].

﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ هذا التعبير قد يكون إشارة إلى الأعمال الشاقّة التي كان سليمان عليه السلام يعهد بها إلى مجموعة من الجنّ كنوع من العقاب، وإلاّ فإنّ نبيّ الله لا يمكن أن يضع أحداً في العذاب عبثاً، وهو على ما يبدو عذاب مذلّ.

بحوث

١ - صور من حياة سليمان عليه السلام

على عكس «التوراة» الموجود اليوم والتي صوّرت «سليمان» أحد السلاطين الجبابرة وباني معابد الأوثان الضخمة ومستهتر النساء[2] - يعدّ القرآن الكريم «سليمان» من أنبياء الله العظام ونموذج للحكومة والقدرة المنقطعة النظير، وقد أعطى القرآن الكريم بعرضه البحوث المختلفة المتعلّقة بسليمان دروساً للبشر هي الأساس من ذكر قصّته.

قرأنا في هذه الآيات الكريمة، أنّ الله تعالى أعطى لهذا الرّسول العظيم مواهب عظيمة، فمن وسيلة النقل السريعة جدّاً والتي استطاع بواسطتها التنقّل في مملكته الواسعة في مدّة قصيرة، إلى المواد المعدنية المختلفة الكثيرة، إلى القوى العاملة الفعّالة الكافية لتصنيع تلك المعادن.

وقد قام سليمان عليه السلام بالاستفادة من المواهب المذكورة، ببناء المعابد الضخمة،

---

(١) في الحالة الأُولى يكون إعراب الآية كما يلي: «تبيّنت» فعل و«الجنّ» فاعل وجملة «أن لو كانوا...» في محلّ مفعول به، وفي الحالة الثّانية «تبيّنت» فعل و«أمر الجنّ» فاعل ثمّ حذف المضاف وأصبح «المضاف إليه» في محلّه، وأن لو كانوا... بيان وتوضيح للجملة.

(٢) التوراة، كتاب الملوك الأوّل، الفصلان ١١ و ١٢.

وترغيب الناس بالعبادة، وكذلك فقد نظّم برامج واسعة لاستضافة أفراد جيشه وعمّاله وسائر الناس في مملكته. ومن الأواني التي مرّ ذكرها يمكننا تخيّل أكثر من ذلك.

وفي قبال ذلك طالبه الله تعالى بأداء الشكر على هذه النعم، مع تأكيده سبحانه على أنّ أداء شكر النعم يتحقّق من فئة قليلة نادرة.

ثمّ اتّضح كيف أنّ رجلاً بكلّ هذه القدرة والعظمة كان أمام الموت ضعيفاً لا حول له ولا قوّة، بحيث فارق الدنيا فجأةً وفي لحظة واحدة، نعم... كيف أنّ الأجل لم يعطه حتى فرصة الجلوس أو الاستلقاء على سريره، ذلك حتى لا يتّوهم المغرورون العاصون حينما يبلغون مقاماً أو منصباً أن قد أصبحوا مقتدرين حقيقة، فإنّ المقتدر الحقيقي الذي كان الجنّ والإنس والشياطين خدماً بين يديه، والذي كان يجول في الأرض والسماء وقد بلغ قمّة الهيبة والحشمة... ثمّ في لحظة قصيرة فارق الدنيا.

واتّضح كذلك كيف أنّ عصاً تافهةً، أقامت جثمانه مدّة، وجعلت الجنّ يعملون بجد واجتهاد وهم يلحظون جثمانه الواقف أو الجالس، ثمّ كيف أسقطته الأرضة على الأرض، وكيف اضطربت بسقوطه الدولة بكلّ مسؤوليها، نعم، عصاً تافهة أقامت دولةً عظيمة، ثمّ حشرة صغيرة أوقفت تلك الدولة!!

الجميل هو ما ورد في الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام إذ قال: «أمر سليمان بن داود الجنّ فصنعوا له قبّة من قوارير فبينا هو متكىء على عصاه في القبّة ينظر إلى الجنّ كيف ينظرون إليه إذ حانت منه التفاتة فإذا رجل معه في القبّة قال له: من أنت؟ قال: أنا الذي لا أقبل الرشا ولا أهاب الملوك أنا ملك الموت، فقبضه وهو قائم متكىء على عصاه في القبّة والجنّ ينظرون إليه، قال: فمكثوا سنة يدأبون له حتى بعث الله عزّ وجلّ الأرضة فأكلت منسأته - وهي العصا - فلمّا خرّ تبيّنت الجنّ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين» الحديث[١].

ويجب أن نذكّر هنا أيضاً، بأنّ قصّة النبي سليمان عليه السلام ككثير من قصص الأنبياء، اختلطت مع الأسف بروايات كثيرة موضوعة وخرافات شوّهت صورة هذا النبي العظيم، وأكثر هذه الخرافات أخذت من التوراة الرائجة اليوم، ولو اقتنعنا بما ورد في القرآن الكريم حول هذا النّبي لما واجهتنا أيّة مشكلة.

(١) تفسير البرهان، ج٣، ص٣٤٥، علل الشرائع، طبقاً لنقل الميزان، ج١٦، ص٣٦٦.

٢ - لماذا خفي موت سليمان مدّة من الزمن؟

كم هي المدّة التي ظلّ فيها موت سليمان مخفياً عن حكومته، هل كانت سنة، أم شهراً، أم عدّة أيّام؟ اختلف المفسّرون حول هذا الموضوع.

هل أنّ الكتمان كان من قبل مقربيه الذين قصدوا من وراء ذلك تمشية أُمور الدولة، أم أنّهم هم الآخرون قد خفي عليهم ذلك؟

يبدو من المستبعد تماماً أن يخفى أمر وفاته عن حاشيته لمدّة طويلة، لا بل حتى لأكثر من يوم واحد، لأنّ من المسلّم أنّ هناك أفراداً كانوا مكلّفين بإيصال احتياجاته وغذائه إليه، وهؤلاء سيعلمون بموته حتماً، وعليه فلا يستبعد - كما قال بعض المفسّرين - أنّهم علموا بأمر موته، لكنّهم أخفوا ذلك الأمر لغايات معيّنة، لذا فقد ورد في بعض الروايات بأنّ «آصف بن برخيا» وزير سليمان الخاص، هو الذي كان يدير أُمور الدولة.

ألم تشكّل مسألة عدم تناول الطعام والماء لمدّة طويلة تساؤلاً لدى ناظريه؟

مع اليقين بأنّ كلّ أعمال سليمان عليه السلام كانت عجيبة، فيمكن اعتبار هذه المسألة من عجائبه أيضاً، وحتى أنّه ورد في بعض الروايات أنّه بعد مدّة من بقاء سليمان عليه السلام على حاله كثر الهمس بين البعض في وجوب عيادة سليمان، لأنّه على حاله منذ مدّة لم يتحرّك ولم يأكل ولم يشرب ولم ينم[1]، ولكن حينما تحطّمت العصا، وسقط الجثمان على الأرض تبدّدت كلّ هذه الأفكار والأوهام.

على كلّ حال، فإنّ تأخير إعلان موت سليمان عليه السلام كشف كثيراً من الأُمور:

١ - اتّضح للجميع أنّ الإنسان حتى إذا بلغ أوج القدرة والقوّة، فلا يزال هو الموجود الضعيف قبال الحوادث، كالقشّة في خضمّ الطوفان يتقاذفها في كلّ جانب.

يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه أفضل الصلاة والسلام) في إحدى خطبه: «فلو أنّ أحداً يجد إلى البقاء سلماً أو لدفع الموت سبيلاً لكان ذلك سليمان بن داود عليه السلام الذي سخّر له ملك الجنّ والإنس مع النبوّة وعظيم الزلفة»[2].

٢ - اتّضح للجميع أنّ الجنّ لا يعلمون الغيب، والمغفّلين من البشر الذين كانوا يعبدونهم كانوا على خطأ فادح.

---

(١) تفسير البرهان، ج٣، ص٣٤٥.
(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٢.

٣ - اتّضحت لجميع الناس أيضاً حقيقة إمكان أن يرتبط نظام دولة بموضوع صغير، بوجوده يمكن أن يقوم هذا النظام، وبإنهياره ينهار هذا النظام، ومن وراء ذلك تجلّت القدرة اللامتناهية للباري عزّ وجلّ .

٣ - سليمان في القرآن والتوراة الحالية

يصوّر القرآن سليمان بصورة نبيّ عظيم، ذي علم وافر، وتقوى عالية، لم يأسره المقام والمال أبداً، مع كلّ ما كان له من سلطة في حكومة عظيمة، وقال حينما أرسلت ملكة سبأ - لخداعه - هدايا نفيسة وثمينة ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾(١) لم يكن لهم من همّ سوى أداء الشكر لله على نعمه ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ. . .﴾(٢).

قائد لم يسمح بظلم نملة حينما قالت وهم في وادي النمل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾(٣).

كان «عابداً» إذا غفل عن ذكر ربّه أو شغل بالدنيا عاد منيباً وهو يقول: ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾(٤).

كان «حكيماً» لم يجانب المنطق في قول، حتى في حديثه مع الهدهد، لم يتخلّ عن الحقّ والعدالة.

كان «حاكماً» له من المعاونين من له من علم الكتاب ما استطاع به إحضار عرش بلقيس في أقلّ من طرفة عين.

وقد وصفه القرآن الكريم بـ«الأوّاب» و«نعم العبد».

شخص أعطاه الله «الحكم» و«العلم» وشمله بهدايته، ولم يشرك بالله طرفة عين أبداً.

لكنّنا نجد أنّ التوراة الحالية المحرّفة، قد لوّثت صفحة هذا النّبي العظيم بالشرك وغيره، فقد نسبت إليه أسوأ الأوصاف فيما يخصّ بناء المعابد الوثنية، والترويج لعبادة الأوثان، والولع المفرط بالنساء، وتعبيرات قبيحة جدّاً من أوصاف العشّاق المبتذلين، التي نخجل عن ذكرها.

ونكتفي بذكر بعض ما ورد في التوراة من الأساطير الأهون قبحاً، ففي الكتاب الأوّل للملوك من التوراة نقرأ ما يلي:

---

(١) سورة النمل، الآية: ٣٦.
(٢) سورة النمل، الآية: ١٩.
(٣) سورة النمل، الآية: ١٨.
(٤) سورة ص، الآية: ٣٢.

«وأولع سليمان بنساء غريبات كثيرات فضلاً عن ابنة فرعون، فتزوّج نساء موآبيات وعمّونيّات وأدوميات وصيدونيات وحثيات، وكلّهنّ من بنات الأُمم التي نهى الربّ بني إسرائيل عن الزواج منهنّ قائلاً لهم: «لا تتزوّجوا منهم ولا هم منكم لأنّهم يغوون قلوبكم وراء آلهتهم» ولكن سليمان التصق بهنّ لفرط محبّته لهنّ، فكانت له سبع مائة زوجة، وثلاثمائة محظية، فانحرفن بقلبه عن الربّ فاستطعن في زمن شيخوخته أن يغوين قلبه وراء آلهة أُخرى، فلم يكن قلبه مستقيماً مع الربّ إلهه كقلب داود أبيه، وما لبث أن عبد عشتاروت آلهة الصيدونيين وملكوم إله العمونيين البغيض، وارتكب الشرّ في عيني الربّ، ولم يتّبع سبيل الربّ بكمال كما فعل أبوه داود، وأقام على تلّ شرقي أورشليم مرتفعاً تكموش إله الموآبيين الفاسق، ولمولك إله بني عمون البغيض، وشيّد مرتفعات لجميع نسائه الغربيات، اللواتي رحن يوقدن البخور عليها، ويقربن المحرّقات لآلهتهنّ فغضب الربّ على سليمان لأنّ قلبه ضلّ عنه مع أنّه تجلّى له مرّتين ونهاه عن الغواية وراء آلهة أُخرى، فلم يطع وصيّته، لهذا قال الله لسليمان: لأنّك انحرفت عنّي ونكثت عهدي، ولم تطع فرائضي التي أوصيتك بها، فإنّي حتماً أُمزّق أوصال مملكتك وأُعطيها لأحد عبيدك، إلاّ أنّني لا أفعل ذلك في أيّامك، من أجل داود أبيك، بل من يد ابنك أُمزّقها، غير أنّي أُبقي له سبطاً واحداً يملك عليه إكراماً لداود عبدي...»(١).

ومن مجموع هذه القصّة الخرافية للتوراة يتّضح ما يلي:

١ - إنّ سليمان كان يحبّ كثيراً النساء الوثنيات، وتزوّج بكثير منهنّ على خلاف أوامر الله تعالى، وتدريجيّاً مال إلى دينهنّ، وبالرغم من كثرة نسائه (٧٠٠ زوجة و٣٠٠ محظية) فإنّ حبّه لهنّ أدّى إلى انحرافه عن طريق الحقّ (نعوذ بالله).

٢ - إنّ سليمان أمر بصراحة ببناء معابد للأوثان فوق الجبل المقابل لأورشليم المركز الديني المقدّس لبني إسرائيل، وأحد المعابد كان لصنم «كموش» الذي يعبده الموآبيون، والآخر لصنم «عشترون» الذي كان يعبده الصيداويون، وكلّ ذلك حدث في أيّام شيخوخته.

٣ - إنّ الله تعالى قرّر عقوبة سليمان بسبب انحرافه وذنوبه الكبيرة بأن يفقد مملكته، ولكن لا من يده، بل من يد ابنه «رحبعام» ويتركه إلى آخر عمره يلعب ويعبث كيفما شاء من أجل أبيه داود العبد المخلص، أي ذلك العبد الذي تقول التوراة عنه أنّه ارتكب قتل

(١) التوراة كتاب الملوك الأوّل - الفصل ١١ - ١٢ - زوجات سليمان.

النفس وزنا المحصنة والاستيلاء على زوجة قائد جيشه المتفاني!! فهل يمكن تصديق مثل هذه التّهم ضدّ رجل مقدّس مثل سليمان؟!

ولو فرضنا أنّ سليمان لم يكن نبيّاً - كما يصرّح القرآن بذلك - وقلنا بأنّه من ملوك بني إسرائيل، فمع ذلك لا يمكن تصديق مثل هذه التّهم في حقّه، لأنّه لو لم يكن نبيّاً فلا أقل من أنّ مرتبته كانت تالية لمرتبة النّبي، لأنّ له كتابين من كتب العهد القديم أحدها يدعى: «مواعظ سليمان» والآخر «أشعار سليمان».

وأساساً كيف يجيب اليهود والنصارى الذين يعتقدون بهذه التوراة الحالية على هذه الأسئلة والإشكالات؟ وكيف يتسنّى لهم قبول مثل هذه الفضائح؟!

٤ - وقليل من عبادي الشكور

قبل كلّ شيء يلزم البحث في الأصل اللغوي لكلمة «شُكر».

الراغب الأصفهاني يقول في مفرداته، الشكر: تصوّر النعمة، وإظهارها، قيل وهو مقلوب عن «الكشر» أي الكشف، ويضادّه الكفر، وهو نسيان النعمة وسترها، «ودابة شكور» مظهرة بسمنها إسداء صاحبها إليها. وقيل أصله عين شكرى، أي ممتلئة فالشكر على هذا هو الامتلاء من ذكر المنعم عليه.

والشكر ثلاثة أضرب: شكر القلب، وهو تصوّر النعمة، وشكر اللسان، وهو الثناء على المنعم، وشكر سائر الجوارح، وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقها.

التعبير القرآني في الآية ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ يشير إلى أنّ الشكر أكثر من مقولة، إنّه «عمل»، ويجب أن يظهر من بين أعمال الإنسان، وعليه فقد يكون القرآن الكريم قد عدّ الشاكرين الحقيقيين قلّة لهذا السبب، وفضلاً عمّا ورد في هذه الآيات فإنّ في الآية (٢٣) من سورة الملك، ذكر بعد تعداد بعض النعم الإلهيّة العظيمة، كخلق السمع والبصر والقلب، ذكر ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾، وكذا في الآية (٧٣) من سورة النمل ورد ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾. هذا من جانب.

ومن جانب آخر فمع الالتفات إلى أنّ الإنسان غارق من رأسه حتى أخمص قدميه بنعم الله التي لا تعدّ ولا تحصى، كما عبّر عن ذلك القرآن الكريم ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[1] يتّضح لماذا يمتنع الشكر كما ينبغي لله قبال جميع النعم التي أفاضها الباري جلّ وعلا؟

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

بتعبير آخر، وكما ورد على لسان بعض كبار المفسّرين، فإنّ «الشكر المطلق»، هو أن يكون الإنسان على ذكر دائم لله بلا أدنى نسيان، سائراً في طريقه تعالى بدون أيّة معصية، طائعاً لأوامره بلا أدنى لفّ أو دوران، ومسلّم بأنّ هذه الأوصاف لا تجتمع إلاّ في القلّة النادرة، ولا يصغي إلى قول من يقول: إنّه أمر بما لا يطاق، فإنّه ناشىء من قلّة التدبّر في هذه الحقائق والبعد من ساحة العبودية(١).

قد يقال: إنّ أداء حقّ الشكر لله سبحانه وتعالى قضيّة معقّدة بلحاظ أنّه في الوقت الذي يقف فيه الإنسان في مقام الشكر ويوفّق لذلك، بأن تتوفّر لديه أسباب أداء الشكر، فإنّ ذلك بحدّ ذاته نعمة جديدة تحتاج إلى شكر آخر، وبذا يستمرّ هذا الموضوع بشكل متتابع، وكلّما بذل الإنسان جهداً أكثر في طريق الشكر سيكون مشمولاً بنعمة متزايدة لا يمكنه معها أداء شكرها، لكن إذا انتبهنا أنّ أحد طرق أداء الشكر لله هو بإظهار العجز عن أدائه كما بيّن القرآن الكريم يتّضح حقيقة قلّة الشاكرين وملاحظة الأحاديث التالية تساعد في توضيح هذا المطلب.

فعن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: هل للشكر حدّ إذا فعله العبد كان شاكراً؟ قال: «نعم» قلت: ما هو؟ قال: يحمد الله على كلّ نعمة عليه في أهل ومال، وإن كان فيما أنعم عليه في ماله حقّ أدّاه»(٢).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «شكر النعمة اجتناب المحارم»(٣).

وعن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أيضاً قال: «فيما أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى عليه السلام: يا موسى أشكرني حقّ شكري، فقال: يا ربّ وكيف أشكرك حقّ شكرك وليس من شكر أشكرك به إلاّ وأنت أنعمت به عليّ؟ قال: يا موسى الآن شكرتني حين علمت أنّ ذلك منّي»(٤).

نلفت النظر كذلك إلى أنّ شكر الإنسان الذي يكون وسيلة للنعمة لشخص آخر، هو شعبة من شكر الله، وكما ورد عن علي بن الحسين السجّاد عليه السلام قوله: إنّ الله يحبّ كلّ قلب حزين ويحبّ كلّ عبد شكور، يقول الله تبارك وتعالى لعبد من عبيده يوم القيامة:

---

(١) تفسير الميزان، ج٤، ص٣٨.
(٢) الكافي، ج ٢، باب الشكر، ص ٩٥، ح ١٢ وح ١٠.
(٣) المصدر السابق، ص ٩٥، ح ١٢ وح ١٠.
(٤) المصدر السابق، ص ٩٤، ح ٢٧.

أشكرت فلاناً؟ فيقول: بل شكرتك ياربّ، فيقول: لم تشكرني إذ لم تشكره، ثمّ قال: أشكركم لله أشكركم للناس»[1].

وفيما يخصّ موضوع (حقيقة الشكر) وكيف يكون الشكر سبباً في زيادة النعمة، وكيف يكون الكفر سبباً في ذهابها وفنائها، هناك شرح مفصّل في تفسير الآية السابعة من سورة إبراهيم.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾

التّفسير

المدينة الراقية التي أضاعها الكفران

بعد أن تطرّقت الآيات السابقة إلى توضيح النعم الإلهيّة العظيمة التي أولاها الله داود وسليمان عليهما السلام، وأداء هذين النّبيين العظيمين وظيفتهما بالشكر، تنتقل الآيات أعلاه إلى الحديث عن قوم آخرين يمثّلون الموقف المقابل للموقف السابق، ويحتمل أن يكونوا قد عاصروا داود وسليمان أو عاشوا بعدهما بفترة قليلة... قوم شملهم الله بأنواع النعم، ولكنّهم سلكوا طريق الكفران، فسلبهم الله ذلك، ومزّقهم شرّ ممزّق، حتى أصبح ما حلّ بهم عبرةً للعالمين، أُولئك كانوا «قوم سبأ».

عرض القرآن المجيد تاريخ «قوم سبأ» من خلال خمس آيات، وأشار باختصار إلى بعض خصوصيات وجزئيات حياتهم.

يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾.

وكما سنرى فإنّ عظمة هذه الآية تنبع من أنّهم بالاستفادة من خصوصيات موقعهم وطريقة إحاطة الجبال بمنطقة سكناهم وبالذكاء العالي الذي وهبهم الله، استطاعوا حصر

(١) الكافي، ج٢، باب الشكر، ص ٩٩، ح ٣٠.

مياه السيول - التي لا تخلف وراءها إلاّ الدمار - خلف سدٍّ عظيم، وبذا عمّروا دولة رفيعة التمدّن، فكانت آية عظيمة أن يتحوّل سبب الخراب والدمار إلى عامل رئيسي من عوامل العمران والتمدّن!!

«سبأ» اسم من؟ وما هي؟ الموضوع مورد أخذ وردّ بين المؤرخين، ولكن المشهور هو أنّ «سبأ» اسم «أبي العرب» في اليمن، وطبقاً للرواية الواردة عن «فروة بن مسيك» أنّه قال: «سألت رسول الله عن «سبأ» أرجل هو أم امرأة؟ فقال: هو رجل من العرب ولد له عشرة، تيامن منهم ستّة وتشاءم منهم أربعة، فأمّا الذين تيامنوا فالأزد وكندة ومذحج والأشعرون وأنمار ومجد. فقال رجل من القوم: ما أنمار؟ قال: الذين منهم خثعم وبجيلة، وأمّا الذين تشاءموا فعاملة وجذام ولخم وغسان. فالمراد بسبأ هاهنا القبيلة الذين هم أولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان»[1].

وبعضهم ذهب إلى أنّ «سبأ» اسم لأرض اليمن أو لإحدى مناطقها. وظاهر الآيات القرآنية التي تحدّثت في قصّة سليمان عليه السلام و(الهدهد) أشارت إلى هذا المعنى أيضاً ففي الآية (٢٢) من سورة النمل، يقول تعالى على لسان الهدهد: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ يعني لقد جئتك من أرض سبأ بنبأ يقين.

في حال أنّ ظاهر الآية مورد البحث هو أنّ «سبأ» كانوا «قوماً» عاشوا في تلك المنطقة، بلحاظ أنّ ضمير «هم» في «مساكنهم» يعود عليهم.

ولا منافاة بين التّفسيرين لأنّ من الممكن أن يكون «سبأ» اسم شخص ابتداءً، ثمّ بعدئذ سمّي كلّ أولاده وقومه من بعده باسمه، ثمّ انتقل الاسم ليشمل مكان سكناهم.

تنتقل الآية بعد ذلك لتجلّي الموقف عن تلك الموهبة الإلهيّة التي وضعت بين يدي قوم سبأ. فيقول تعالى: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾.

ما حصل هو أنّ قوم سبأ استطاعوا - ببناء سدٍّ عظيم بين الجبال الرئيسية في منطقتهم - حصر مياه السيول المدمّرة أو الضائعة هدراً على الأقل، والإفادة منها... وبإحداث منافذ في ذلك السدّ سيطروا تماماً على ذلك الخزّان المائي الهائل، وبالتحكّم فيه تمكّنوا من زراعة مساحات شاسعة من الأرض.

الإشكال الذي أثاره (الفخر الرازي) هو: ما هي أهميّة وجود مزرعتين لكي يذكر

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٨، ص٣٨٥ - ٣٨٦.

ذلك في آية مستقلّة؟ ثمّ يقول في الجواب أنّ هاتين المزرعتين لم تكونا عاديتين، بل إنّهما عبارة عن سلسلة من الرياض المترابطة مع بعضها البعض والممتدة على جانبي نهر عظيم يتغذّى من ذلك السدّ العظيم، وكانت تلك الرياض مليئة بالبركات إلى درجة أنّه ورد في كتب التاريخ عنها، أن لو مرّ شخص يحمل على رأسه سلّة فارغة من تحت أشجار تلك المزارع في فصل نضوج الأثمار فإنّها تمتلىء بسرعة نتيجة ما يتساقط من تلك الأثمار الناضجة.

أليس من العجيب إذاً أن يتحوّل سبب الخراب والدمار إلى سبب رئيسي للعمران بذلك الشكل المدهش؟ ثمّ ألا يعدّ ذلك من عجائب آيات الله سبحانه وتعالى؟

وعلاوة على كلّ ذلك - وكما سترد الإشارة إليه في الآيات الآتية - فإنّ من آيات الله أيضاً ذلك الأمن والأمان غير العاديين اللذين شملا تلك الأرض.

ثمّ يضيف القرآن: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾(١) (٢).

هذه الجملة القصيرة تصوّر مجموعة النعم المادية والمعنوية بأجمل تعابير، فبلحاظ النعم المادية أرض طيّبة خالية من الأمراض المختلفة، من السراق والظلمة، من الآفات والبلايا، من الجفاف والقحط، من الخوف والوحشة، وقيل خالية حتى من الحشرات المؤذية.

هواء نقي، ونسيم يبعث على السرور، أرض معطاءة وأشجار وافرة الثمر.

وأمّا بلحاظ النعم المعنوية فمغفرة الله التي شملتهم، والتغاضي عن تقصيرهم، وصرف البلاء والعذاب عنهم وعن بلدتهم.

ولكن هؤلاء الجاحدين غير الشكورين، لم يقدّروا تلك النعمة حقّ قدرها، ولم يخرجوا من بوتقة الامتحان بسلام، وسلكوا طريق الإعراض والكفران، فقرّعهم الله أيّما تقريع!!

قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ استهانوا بنعمة الله، توهّموا بأنّ العمران والمدنية والأمن أشياء عادية، نسوا الله، وأسكرتهم النعمة، وتفاخر الأغنياء على الفقراء، وظنّوا أنّهم يزاحمونهم في أرزاقهم - كما سيرد في الآيات اللاحقة -.

---

(١) «بلدة»: خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هذه بلدة طيّبة وهذا ربّ غفور.

(٢) يمكن أن يكون هذا الخطاب الإلهي لهؤلاء القوم على أحد احتمالين، فإمّا أن يكون قد أبلغ ذلك بواسطة الأنبياء المبعوثين منهم، كما قال به بعض المفسّرين، أو أنّ هذه النعم كانت توصل إلى إدراكهم مثل هذا الخطاب.

وهنا مسّهم سوط الجزاء، يقول تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ فدمّر بيوتهم ومزارعهم وحوّلها إلى خرائب..

«العرم»: من «العرامة» وهي شراسة وصعوبة في الخلق تظهر بالفعل، ووصف «السيل» بالعرم إشارة إلى شدّته وقابليته على التدمير. وتعبير «سيل العرم» من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة.

وقيل: «العرم» الجرذان الصحراوية، وهي التي سبّبت انهيار السدّ بنفوذها فيه (قصّة نفوذ الجرذان الصحراوية في السدّ، مع كونها ممكنة - كما سيرد شرحه فيما بعد - لكن تعبير الآية ليس فيه أدنى تناسب مع هذا المعنى).

في «لسان العرب»، مادّة «عرم» وردت في معان مختلفة من جملتها «السيل الذي لا يطاق» ومنه قوله تعالى «الآية»، وقيل: إضافة إلى المسنّاة أو السدّ، وقيل: إلى الفأر[1].

ولكن أنسب التفاسير هو الأوّل، وهو الذي إعتمده - أيضاً - علي بن إبراهيم في تفسيره.

بعدئذ يصف القرآن الكريم عاقبة هذه الأرض كما يلي: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾.

﴿أُكُلٍ﴾: بمعنى الطعام.

﴿خَمْطٍ﴾: بمعنى النبات المرّ وهو «الأراك».

﴿وَأَثْلٍ﴾: شجر معروف.

وبذا يكون قد نبت محلّ تلك الأشجار الخضراء المثمرة، أشجار صحراوية غليظة ليست ذات قيمة، والتي قد يكون «السدر» أهمّها، وهذا أيضاً كان نادراً بينها. ولك - أيّها القارىء - أن تتخيّل أي بلاء حلّ بهؤلاء وبأرضهم؟!

ولعلّ ذكر هذه الأنواع الثلاثة من الأشجار التي بقيت في تلك الأرض المدمّرة إشارة إلى ثلاثة أُمور: أحدها قبيح المنظر، والثّاني لا نفع فيه، والثالث له منفعة قليلة جدّاً.

يقول تعالى في الآية التالية بصراحة وكتلخيص واستنتاج لهذه القصّة: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا﴾.

---

(١) لسان العرب مادّة «عرم» ج١٢، ص٣٩٦.

ويجب أن لا يتبادر إلى الذهن بأنّ هذا المصير يخصّ هؤلاء القوم، بل إنّ من المسلّم أنّه يعمّ كلّ من كانت لهم أعمال شبيهة بأعمال هؤلاء. وهكذا تضيف الآية ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾.

كان هذا مختصراً عن مصير «قوم سبأ» الذي سنفصّله أكثر في تفسير الآيات اللاحقة.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾

التّفسير

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾

تعود هذه الآيات إلى قصّة قوم سبأ مرّة أُخرى، وتعطي شرحاً وتفصيلاً أكثر حولهم وحول العقاب الذي حلّ بهم، ليكون درساً بليغاً وتربوياً لكلّ سامع.

يقول تعالى: لقد عمّرنا أرضهم إلى حدّ أنّ النعمة لم تغطّها وحدها، بل ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾. فقد جعلنا بينهم وبين الأرض المباركة مدائن وقرىً أُخرى متّصلة بفواصل قليلة إلى درجة أنّ القرية ترى من القرية الثّانية.

بعض المفسّرين قالوا في تفسير ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ بأنّها إشارة إلى القرى التي كانت تظهر للعيان من جادّة المسير بشكل واضح، ويستطيع المسافرون التوقّف فيها، أو أنّها القرى التي كانت على مرتفعات من الأرض فكانت واضحة للعابرين.

أمّا ما هي «الأرض المباركة»؟ فقد أجمع أغلب المفسّرين على أنّها «أرض الشام» (سوريا وفلسطين والأردن)، لأنّ هذا التعبير أُطلق على نفس هذه المنطقة في الآية الأُولى من سورة الإسراء، والآية (٨١) من سورة الأنبياء.

ولكن بعض المفسّرين احتمل أنّ المقصود منها هو «صنعاء» أو «مأرب» وكلتاهما كانتا في اليمن، ولا يستبعد هذا التّفسير، لأنّ المسافة بين (اليمن) الواقعة في أقصى جنوب الجزيرة العربية، و(الشام) الواقعة في أقصى شمالها، شاسعة ومليئة بالصحاري

اليابسة المقفرة ممّا يجعل تفسير الأرض المباركة هنا (بالشام) بعيداً جدّاً، ولم ينقل في التواريخ ما يشير إلى ذلك.

بعضهم احتمل أيضاً أن يكون المقصود (بالأرض المباركة). (مكّة) وهو بعيد أيضاً.

هذا من جهة العمران، ولكن العمران وحده لا يكفي، بل إنّ شرطه الأساسي هو «الأمان»، ولذلك تضيف الآية ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي جعلنا بينها فواصل معتدلة. ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾.

وبهذا فإنّ الفواصل والمسافات بين القرى كانت متناسقة محسوبة، وكذلك فإنّها طرق محفوظة من حملات الضواري أو السرّاق أو قطّاع الطرق، بحيث إنّ الناس كانوا يسافرون خلال هذه الطرق، بلا زاد أو دواب وبلا استفادة من الحراس المسلّحين، ولم يكونوا يخافون من حوادث الطريق أو قلّة الماء والزاد لديهم.

أمّا بأيّة وسيلة تمّ إبلاغ هذه الرسالة للناس ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا﴾ الآية، يرد أيضاً الاحتمالان بأن يكون ذلك بواسطة أحد الأنبياء عليهم السلام، أو أنّ ظاهر حال المنطقة كان يوصل هذا المعنى إلى وجدانهم.

تقديم «الليالي» على «الأيّام» قد يكون بلحاظ أنّ وجود الأمن في الليل من السرّاق أو الوحوش أهمّ منه في النهار الذي تسهل معه مهمّة الأمن.

ولكن هؤلاء جحدوا نعم الله العظيمة التي شملت كلّ مناحي حياتهم - كما هو الحال بالنسبة لغيرهم من الأقوام المتنعمة - ولبسهم الغرور، وأحاطت بهم الغفلة ونشوة النعيم وعدم لياقتهم له، فأسلكتهم طريق الكفران وعدم الشكر، وانحرفوا عن الصراط وتركوا أوامر الله خلف ظهورهم.

فمن جملة مطالبهم العجيبة من الله، ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾.

أي طلبوا أن يجعل الله المسافات بين قراهم طويلة، كي لا يستطيع الفقراء السفر جنباً إلى جنب مع الأغنياء، ومقصودهم هو أن تكون بين القرى - كما أسلفنا - فواصل صحراوية شاسعة، حتى لا يستطيع الفقراء ومتوسّطو الحال الإقدام على السفر بلا زاد أو ماء أو مركب، وبذا يكون السفر أحد مفاخر الأغنياء وعلامة على القدرة والثروة، ووجوب أن يظهر هذا الامتياز ويثبت لدى الجميع.

أو أنّهم ملّوا من الراحة والرفاه، كما ملّ بنو إسرائيل من ﴿ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ (الغذاء السماوي) وطلبوا من الله البصل والثوم والعدس.

بعضهم احتمل أيضاً أن يكون المقصود بعبارة: ﴿بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ أنّهم أصبحوا كسالى إلى درجة لم يكونوا معها حاضرين للسفر لغرض رعي الحيوانات أو التجارة أو الزراعة، ولذا طلبوا من الله أن يبقيهم في وطنهم دائماً ويباعد بين السفرة والأخرى. ولكن يبدو أنّ التّفسير الأوّل أفضل.

على كلّ حال فإنّهم بهذا العمل أوقعوا الظلم على أنفسهم ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾.

نعم، فإن كانوا يظنّون أنّهم إنّما يظلمون غيرهم فقد اشتبهوا، إذ إنّهم قد استلّوا خنجراً ومزّقوا به صدورهم، ودخّان النار التي أسعروها أعمى عيونهم.

ويا له من تعبير رائع، ذلك الذي أوضح به القرآن الكريم مصيرهم المؤلم، حيث يقول: إنّنا جازيناهم ودمّرنا بلادهم ومعيشتهم بحيث: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾.

نعم فلم يبق من تلك الحياة المرفّهة، والتمدّن العريض المشرق، إلاّ أخبار على الألسن، وذكريات في الخواطر، وكلمات على صفحات التاريخ ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

كيف دمّرنا أرضهم بحيث سلبت منهم معها قدرة البقاء فيها، وبذا أصبحوا مجبرين على أن يتفرّقوا كلّ مجموعة إلى جهة لإدامة حياتهم، ونُثروا كما تنثر أوراق الخريف التي عصفت بها الريح حتى أضحى تفرّقهم مثلاً يضرب فقيل: «تفرّقوا أيادي سبأ»(١).

وكما قال بعض المفسّرين، فقد ذهبت قبيلة (غسّان) إلى الشام، و(أسد) إلى عمان، و(خزاعة) إلى جهة تهامة، و(أنمار) إلى يثرب(٢).

وفي ختام الآية يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، لأنّ الصابرين والشاكرين وحدهم يستطيعون الاعتبار ممّا جرى، خصوصاً مع ملاحظة أنّ كلاً من ﴿صَبَّارٍ﴾ و﴿شَكُورٍ﴾ هي صيغة مبالغة، ذلك لكونهم بصبرهم واستقامتهم يتمكّنون من الإمساك بزمام مركب الهوى والهوس الجموح، ويقفون بوجه المعاصي، وبشكرهم لله تعالى في طريق طاعته فإنّهم مرتبطون به ويقظون، وعليه فإنّهم يأخذون العبرة بشكل جيّد، أمّا أولئك الذين ركبوا سفينة الهوى وتجاهلوا نعم الله عليهم فكيف يمكنهم أخذ العبرة ممّا جرى؟

---

(١) نقل هذا المثل على صورتين «تفرّقوا أيدي سبأ» و«أيادي سبأ»، ففي الشكل الأوّل إشارة إلى التمزّق البشري، والشكل الثّاني إشارة إلى تمزّق الأموال والنعم والإمكانات، لأنّ «أيادي» عادةً تستعمل بمعنى النعم.

(٢) تفسير القرطبي وتفسير أبي الفتوح الرازي، ذيل الآيات مورد البحث.

بحوث

١ - المصير المذهل لقوم سبأ!!

يستفاد ممّا ورد في القرآن الكريم والروايات، وكذلك كتب التاريخ، بأنّ «قوم سبأ» كانوا يقطنون جنوب الجزيرة، وكانت لهم حكومة راقية، وحضارة خلاّبة.

ورغم أنّ أرض (اليمن) كانت واسعة وصالحة للزراعة، إلاّ أنّه لم يتم استغلالها لعدم وجود نهر مهمّ في تلك المنطقة، كما أنّ مياه الأمطار - التي كانت تهطل بغزارة على قمم الجبال كانت تذهب هدراً في هضاب وصحاري تلك المنطقة، ولكن أهل تلك المنطقة الأذكياء فكّروا في كيفية الاستفادة من تلك المياه المهدورة، فبنوا لهذا الغرض عدداً من السدود في النقاط الحسّاسة كان أهمّها وأكثرها مخزوناً «سدّ مأرب».

«مأرب» بلدة صغيرة تقع عند انتهاء إحدى ممرّات السيول تلك، وكانت تمرّ سيول جبال «صراة» العظيمة من جنبها، وفي فم هذا المضيق وبين جبلي «بلق» بنوا سدّاً عظيماً قوياً، وأوجدوا فيه منافذ كثيرة للماء، وقد استطاع هذا السدّ خزن كميّات هائلة من الماء خلفه إلى درجة أنّهم استطاعوا - بالاستفادة من ذخيرته - إحداث جنّات جميلة جدّاً، وبساتين مملوءة بالبركة على طرفي النهر الوارد ابتداءً من مصبّ السدّ.

وكما ذكرنا سابقاً فإنّ القرى المأهولة في تلك الأرض كانت شبه متّصلة ببعضها، بحيث إنّ ظلال الأشجار كانت تتواصل مع بعضها البعض، وكانت الأشجار محمّلة بكميّات كبيرة من الثمار حتى أنّ من يمرّ تحتها بسلّته الخالية يخرج بعد مدّة قصيرة بسلّة ممتلئة تلقائياً، وفور النعمة - ممزوجاً بالأمان - هيّأ محيطاً مرفّهاً لحياة طاهرة، محيطاً نموذجياً لطاعة الله، والتكامل المعنوي، ولكنّهم لم يقدّروا النعمة حقّ قدرها، فنسوا الله، وجحدوا النعمة، وانشغلوا بالتفاخر والعناوين والمستوى الاجتماعي.

ورد في بعض كتب التاريخ بأنّ الجرذان الصحراوية، بعيداً عن مرأى هؤلاء المغرورين السكارى، كانت تتّخذ لها جحوراً في ذلك السدّ الترابي، وتنخره من الداخل، وفجأةً هطلت أمطار غزيرة وتجمّعت لتشكّل سيولاً عظيمة، تراكمت خلف ذلك السدّ الذي لم يعدّ حينها مؤهّلاً لتحمّل الضغط الشديد من تلك الكمّيات الهائلة، وما هي إلاّ لحظة حتى انهار هذا السدّ ليضع النهاية لتلك الحياة الزاهية، ودمّر القرى المعمورة، الجنان، المزارع، المحاصيل، قضى على الحيوانات، هدّم القصور

والبيوت الجميلة الجذّابة، وتحوّلت تلك الأرض الحيّة إلى صحراء جافّة لا ماء فيها ولا كلأ، ولم يبق من تلك الجنان والأشجار المثمرة إلاّ شجر (الأراك) المرّ، و(شجر المنّ) وقليل من (السدر)، وهاجرت الطيور المغردة ليحلّ محلّها البوم والغربان...[1].

نعم، حينما يريد الله سبحانه وتعالى إظهار قدرته، فإنّه يدمّر مدينة راقية بعدد من الفئران حتى يتّضح للعباد مدى ضعفهم ولا يغترّوا بقدرتهم مهما بلغت.

٢ - الإعجاز القرآني التاريخي

أورد القرآن الكريم قصّة «قوم سبأ» في الوقت الذي كان المؤرخّون لا يعلمون شيئاً عن وجود هؤلاء القوم، وعن مثل تلك المدنيّة، والملفت للنظر أنّ المؤرخّين قبل الاكتشافات الحديثة، لم يذكروا شيئاً حول سلسلة ملوك سبأ والمدنية العظيمة لهم، واعتقدوا فقط بأنّ (سبأ) هو شخص افتراضي، عُرف كأب مؤسّس لدولة «حمير»، في حين أنّ القرآن الكريم أفرد سورة كاملة باسم هؤلاء القوم وأشار إلى أحد مظاهر مدينتهم وهو بناؤهم (لسدّ مأرب) التأريخي.

ولكن بعد الكشوف عن الآثار التأريخية لهؤلاء القوم في اليمن، تغيّرت أفكار علماء التاريخ، والسبب في تأخّر الكشف عن الآثار التأريخية لهؤلاء القوم يعود إلى:

١ - صعوبة الطريق المؤدّية إلى مناطق التنقيب وشدّة حرارة الجوّ هناك.

٢ - تنفّر سكنة المنطقة حالياً من الأجانب، ممّا جعل الأوربيين غير المطّلعين وغير العارفين يطلقون صفة «التوحّش» على هذه الأحاسيس الصادرة من أهل المنطقة، حتى استطاع عدّة معدودة من علماء الآثار يدفعهم التعلّق الشديد بكشف الأسرار الأثرية النفوذ إلى قلب مدينة «مأرب» وما حولها. واكتشفوا مجموعة من الأحجار الحاوية للخطوط والنقوش الكثيرة، وبعد ذلك تعاقبت مجاميع المنقّبين في القرن التاسع عشر الميلادي ناقلين معهم في كلّ مرّة مجموعة من النقوش والخطوط والآثار، وبالاستفادة من تلك الآثار، التي ناهزت الألف أثر، اطّلع العلماء على جزئيات وخصوصيات حضارة هؤلاء القوم، وعلى تأريخ بناء «سدّ مأرب» وخصوصيات أُخرى، وثبت للغربيين بأنّ ما ذكره القرآن الكريم بهذا الخصوص لم يكن أُسطورة، بل واقع تاريخي

---

(١) اقتباس من تفسير مجمع البيان وقصص القرآن وتفاسير أُخرى.

لم يكونوا قد اطّلعوا عليه، وبعد ذلك استطاعوا رسم مخطّط كامل لذلك السدّ العظيم وتشخيص منافذ عبور المياه فيه، والجداول الخاصّة بالبساتين والمزارع يميناً وشمالاً وسائر خصوصيات المنطقة الأُخرى.

٣ - لفتات هامّة للعبرة في قصّة قصيرة

إنّ التعرّض لسرد قصّة قوم سبأ بعد قصّة سليمان عليه السلام له مفهوم خاصّ:

١ - إنّ داود وسليمان عليهما السلام كانا نبيّين عظيمين استطاعا تشكيل حكومة قويّة، وإيجاد حضارة مشرقة تلاشت بوفاتهم، وكذلك الحضارة الكبرى التي أقامها قوم سبأ تلاشت بانهيار سدّ مأرب!!

والجدير بالملاحظة أنّ الروايات تشير إلى أن عصا سليمان عليه السلام أكلتها حشرة «الأُرضة»، كما أنّ سدّ مأرب نخرته الجرذان الصحراوية، كي يعلم هذا الإنسان المغرور بأنّ النعم المادية مهما كانت عظيمة ومصدراً للخير، فإنّها أحياناً تتلاشى بواسطة حشرة أو حيوان ضعيف يقلب عاليها أسفلها، وبالنتيجة ينتبه المؤمنون والعارفون ولا يقعوا أسرى في شراك هذه النعم، ويفيق المغرورون من سُكر غفلتهم ولا يسلكوا طريق الظلم والعدوان.

٢ - نلاحظ هنا حضارتين عظيمتين، إحداهما رحمانية، والأُخرى شيطانية المصير، لكنّهما واجهتا الفناء ولم تخلدا.

٣ - وممّا يستحقّ الانتباه، هو أنّ المغرورين من قوم سبأ الذين لم يستطيعوا تحمّل وجود المستضعفين بينهم، وتمنّوا حاجزاً منيعاً بين الأقليّة الأشراف والأكثرية الفقراء يحول دون اختلاطهم، ودعوا الله أن يباعد بين قراهم حتى يشقّ السفر على الفقراء، وقد استجاب الله سبحانه وتعالى دعاءهم وفرّق جمعهم، ومزّقهم أيادي سبأ، حتى أنّهم لو أرادوا الالتقاء لتطلّب منهم ذلك أن يصرفوا عمراً كاملاً في السفر.

٤ - حينما يدقّق المتأمّل في وضع تلك الأرض قبل هجوم «سيل العرم» وبعده، لا يمكنه أن يصدّق بسهولة أنّ هذه الأرض بعد السيل هي تلك الأرض الخضراء المليئة بالأشجار المورقة المثمرة، وكيف أضحت الآن صحراء موحشة ليس فيها إلاّ بضعة أشجار مبعثرة من الشجر المرّ والأراك وقليل من شجر السدر تتراءى من بعيد كمسافرين أضاعوا طريقهم وتبعثروا هنا وهناك.

وهذا يجسّد بلسان الحال: أنّ «كيان الإنسان» كهذه الأرض، فإذا استطاع السيطرة

على قواه الخلاّقة واستخدمها بالشكل الصحيح، فإنّه ينبت بساتين مليئة بالطراوة من العلم والعمل والفضائل الأخلاقية، ولكن إذا كُسر سدّ التقوى، وانهالت الغرائز كالسيل المدمّر، وغطّت أرض حياة الإنسان، فلن يبقى غير الخراب، وأحياناً فإنّ أعمالاً ظاهرها أنّها بسيطة تبدأ بالتأثير تدريجياً على الأُسس، حتى ينهار كلّ شيء، لذا يجب الخوف والحذر حتى من هذه الأُمور الصغيرة التافهة ظاهراً.

٥ - آخر ما نروم الإشارة إليه، هو أنّ ذلك المصير العجيب يثبت مرّة أُخرى حقيقة أنّ (الموت) مخفي في جوهر حياة الإنسان، ونفس الشيء الذي يكون سبباً لحياة الإنسان وعمرانها يوماً، يكون عامل موته وهلاكه في يوم آخر.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾

التّفسير

لا أحد مجبر على اتّباع الشّيطان

هذه الآيات في الحقيقة تمثّل نوعاً من الاستنتاج العام من قصّة «قوم سبأ» التي مرّت في الآيات السابقة، ورأينا كيف أنّهم باستسلامهم لهوى النفس ووسوسة الشيطان، أصبحوا معرضاً لكلّ تلك الخيبة وسوء التوفيق.

يقول تعالى في الآية الأُولى من هذه الآيات: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

بتعبير آخر، فإنّ إبليس بعد امتناعه من السجود لآدم وطرده من محضر الكبرياء الإلهي، توقّع وقال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾[(١)] وإنّ هذا التوقّع قد صحّ بالنسبة لهؤلاء القوم. فمع أنّه (لعنه الله) قد قال حديثه هذا تخميناً وتوقّعاً، ولكن هذا التخمين أصبح واقعاً في النتيجة. واتّبعه ضعفاء الإيمان والإرادة وسقطوا في فخاخه زرافات ووحداناً، إلاّ مجموعة صغيرة من المؤمنين

---

(١) سورة ص، الآيتان: ٨٢ - ٨٣.

استطاعت تحطيم سلاسل الوساوس الشيطانية، وتفادت الوقوع في مصيدته، جاؤوا أحراراً وعاشوا أحراراً ورحلوا أحراراً، ومع أنّهم كانوا قلّة من حيث العدد، إلاّ أنّ كلّ واحد منهم كان يعدل دنيا بأسرها من حيث القيمة المعنوية «أُولئك هم الأقلّون عدداً والأكثرون عند الله قدراً»(١).

وتشير الآية التالية إلى مطلبين فيما يخصّ الوساوس الشيطانية، والأشخاص الذين يقعون تحت سلطته، والأشخاص الذين ليس له عليهم سلطان، فتقول الآية المباركة: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾.

إذن فنحن الذين نجيز له الدخول ونعطيه تأشيرة العبور من حدود دولة الفردية إلى داخل قلوبنا، وذلك هو عين ما ينقله القرآن عن لسان الشيطان نفسه ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾(٢)، ولكن من الواضح أنّه بعد إجابة دعوته من قبل عديمي الإيمان، وعبيد الهوى، لا يهدأ له بال، بل يسعى إلى إحكام سلطته على وجودهم.

لذا فإنّ الآية تؤكّد أنّ الهدف من إطلاق يد إبليس في وسوساته، إنّما هو لأجل معرفة المؤمنين من غيرهم ممّن هم في شكّ: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾(٣).

بديهي أنّ الله تعالى مطّلع تماماً على كلّ ما يقع في هذا العالم منذ الأزل حتى الأبد، وعليه فإنّ جملة ﴿لِنَعْلَمَ﴾ ليس مفهومها أنّ الله تعالى يقول: «بأنّنا لم نكن نعلم بالمؤمنين بالآخرة من الذين هم في شكّ منها، ويجب أن تكون هناك للشيطان وسوسة حتى نعلم ذلك» كلاّ، بل المقصود من هذه الجملة هو التحقّق العيني لعلم الله، لأنّ الله سبحانه وتعالى لا يعاقب أحداً بناءً على علمه بالبواطن، والأعمال المستقبلية لذلك الشخص، بل يجب توفّر ميدان للامتحان، ومن خلال وساوس الشياطين وهوى النفس يُظهر الإنسان ما بداخله - بكامل الإرادة والاختيار - إلى الواقع الفعلي، ويتحقّق علم الله

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٤٧.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

(٣) على هذا المعنى الذي ذكرناه في تفسير الآية، فإنّ الاستثناء هنا «استثناء متّصل» بقرينة ما ورد في الآية (٤٢) من سورة الحجر: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾، بلحاظ أنّ ظاهر هذه الآية أنّ للشيطان سلطة على الغاوين - طبعاً بعض المفسّرين احتملوا أن يكون «الاستثناء منقطعاً أيضاً».

سبحانه وتعالى عيناً، لأنّه لولا تحقّق الأعمال بالفعل لا يحصل الاستحقاق للثواب والعقاب.

وبتعبير آخر: فإنّ الثواب والعقاب لا يقع على حسن الباطن أو سوئه، فلابدّ لما هو موجود بالقوّة أن يتحقّق بالفعل.

ثمّ تختتم الآية بتنبيه للعباد ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾. حتى لا يتصوّر أتباع الشيطان بأنّ أعمالهم وأقوالهم تتلاشى في هذه الدنيا، أو أنّ الله ينسى، كلّاً، بل إنّ الله يحتفظ بكلّ ذلك إلى يوم الجزاء.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي
السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾
وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا
قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ
﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ
بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ
أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

التّفسير

نبئوني لماذا؟

قلنا في بداية السورة بأنّ هناك مجموعة من آياتها تتحدّث حول المبدأ والمعاد والاعتقادات الحقّة، ومن ربطها مع بعضها نحصل على حقائق جديدة.

في هذا المقطع من الآيات يجرّ القرآن المشركين في الواقع إلى المحاكمة، وبالضربات الماحقة للأسئلة المنطقية، يحشرهم في زاوية ضيّقة، ثمّ يبيّن تفسّخ منطقهم الواهي بخصوص شفاعة الأصنام.

في هذه المجموعة من الآيات، خوطب الرّسول الأكرم ﷺ خمس مرّات، وقيل

له: (قل) لهم... وفي كلّ مرّة تعرض الآيات مطلباً جديداً يتعلّق بمصير الأصنام وعبّادها، بشكل يُشعر معه بأن ليس هناك عقيدة أفرغ ولا أجوف من عبادة الأصنام، بل لا يمكن أساساً تسمية هذه العبادة (عقيدة) أو (مذهباً).

في الآية الأُولى يقول تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾(1) ولكن اعلموا أنّ هذه الأصنام أو الشركاء لا يستجيبون لدعائكم أبداً، ولا يحلّون لكم مشكلة، ثمّ تنتقل الآية إلى عرض الدليل على هذا القول، فيقول تعالى: لأنّهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾.

فلو كانوا يستطيعون شيئاً لكان لهم أحد هذه الأوصاف الثلاثة: إمّا مالكية مستقلّة لشيء في السماء أو الأرض، أو على الأقل مشاركة مع الله في أمر الخلق، أو معاونة الخالق في شيء من هذه الأُمور.

في حال أنّ الواضح هو أنّ «واجب الوجود» واحد لا غير، والباقون جميعهم «ممكن الوجود» مرتبطون به، ولو قطع الله تعالى نظر لطفه عنهم لحظة لأحلّهم دار البوار والعدم.

واللطيف هو قوله تعالى: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾، فموجودات لا تملك في هذه السماء اللامحدودة، وهذه الأرض المترامية الأطراف ما يعادل «مثقال ذرّة»، فأي مشكلة يمكنها حلّها لنفسها، ناهيك عن سواها!!

هنا يتبادر إلى الذهن فوراً السؤال التالي: إذا كان الأمر كذلك، فماذا تكون قضيّة شفاعة الشفعاء؟

وللإجابة على هذا التساؤل تقول الآية التي بعدها: لو كان هناك شفعاء لدى الله تعالى فإنّهم لا يشفعون إلاّ بإذنه وأمره ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾.

وعليه فإنّ العذر الذي يتعلّل به الوثنيون بقولهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾(2)، ينتهي بهذا الجواب، وهو أنّ الله سبحانه وتعالى، لم يجز شفاعتها أبداً.

أمّا جملة ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ فهي إشارة إلى الشافعين أو إلى المشفوع لهم، احتمل

---

(1) في الحقيقة إنّ في الجملة مستترين: الأوّل بعد «زعمتم» تقديره «أنّهم آلهة» والثّاني بعد «من دون الله» تقديره «لا يستجيبون دعاءكم» والجملة تكون هكذا «قل ادعوا الذين زعمتم أنّهم آلهة من دون الله لا يستجيبون لكم».

(2) سورة يونس، الآية: ١٨.

المفسّرون الاحتمالين، وإن كان يناسب ما ورد في الآية السابقة من الحديث حول الأصنام وأُولئك الذين توهّموا أنّها شفعاؤهم، أن تكون الإشارة إلى «الشافعين».

ثمّ هل أنّ المقصود من «الشفاعة» هنا شفاعة الدنيا، أم الآخرة؟ كلا الاحتمالين واردان، ولكن الجملة التي تلي ذلك تدلّل على أنّ المقصود هو شفاعة الآخرة.

لذا تقول العبارة بعدها بأنّه في ذلك اليوم تهيمن الوحشة والاضطراب على القلوب، ويستولي القلق على الشافعين والمشفوع لهم بانتظار أن يروا لمن يأمر الله بجواز الشفاعة؟ وعلى من ستجوز تلك الشفاعة؟ وتستمر حالة القلق والاضطراب، حتى حين... فيزول ذلك الفزع والاضطراب عن القلوب بصدور الأمر الإلهي. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾[1].

على كلّ حال فذلك يوم الفزع، وعيون الذين يطمعون بالشفاعة تعلّقت بالشفعاء، ملتمسة منهم الشفاعة بلسان الحال أو بالقول، ولكن الشفعاء أيضاً ينتظرون أمر الله، كيف؟ ولمن سيجيز الشفاعة؟ ويبقى ذلك الفزع وذلك الاضطراب عاماً، إلى أن يصدر عن الحكيم المتعالي أمره بخصوص المتأهّلين للشفاعة.

هنا وحينما يتواجه الفريقان ويتساءلان، (أو أنّ المذنبين يسألون الشافعين) قالوا: (ماذا قال ربّكم) فيجيبونهم: (قالوا: الحقّ)، وما الحقّ إلاّ جواز الشفاعة لمن لم يقطعوا ارتباطهم تماماً مع الله، لا للذين قطعوا كلّ حلقات الارتباط، وأضحوا غرباء عن ورسوله وأحبّائه.

وتضيف الآية في الختام ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ وهذه العبارة متمّمة لما قاله «الشفعاء»، حيث يقولون: لأنّ الله عليٌّ وكبير فأي أمر يصدره هو عين الحقّ، وكلّ حقّ ينطبق مع أوامره.

ما عرضناه هو أقرب تفسير يتساوق وينسجم مع تعابير الآية، وللمفسّرين بهذا الخصوص تفسيرات أُخرى، والعجيب أنّ بعضها لم يأخذ بنظر الاعتبار الترابط بين صدر الآية وذيلها وما قبلها وما بعدها.

في الآية التالية يلج القرآن الكريم طريقاً آخر لإبطال عقائد المشركين، ويجعل مسألة

---

(١) (فزع) من مادّة «فزع»، وفي وقت تعدّيها بحرف الجرّ (عن) تكون بمعنى إزالة الفزع والوحشة والاضطراب، كذلك لو وردت بصورة الثلاثي المجرّد وتعدّت بحرف الجرّ (عن) يكون لها نفس المعنى أيضاً.

«الرازقية» عنواناً بعد طرحه لمسألة «الخالقية» التي مرّت معنا في الآيات السابقة، وهذا الدليل - أيضاً - يطرحه القرآن بصيغة السؤال والجواب من أجل إيقاظ وجدان هؤلاء وإلفاتهم إلى اشتباههم من خلال تثوير الجواب في ذواتهم.

يقول تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

بديهي أن لا أحد منهم يستطيع القول بأنّ هذه الأصنام الحجرية والخشبية هي التي تنزل المطر من السماء، أو تنبت النباتات في الأرض، أو تسخّر المنابع الأرضية والسماوية لنا.

الجميل أنّه - بدون انتظار الجواب منهم - يردف تعالى قائلاً: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾.

قل الله الذي هو منبع كلّ هذه البركات، أي أنّ الأمر واضح إلى درجة لا يحتاج إلى جواب من طرف آخر، بل إنّ للسائل والمجيب رأياً واحداً، لأنّ المشركين يعتقدون بأنّ الله هو الخالق والرازق، والأصنام لها مقام الشفاعة فقط.

من الجدير بالملاحظة - أيضاً - أنّ الأرزاق التي تصل إلى الناس من السماء ليست محصورة بالغيث، بل إنّ النور والحرارة الصادرة عن الشمس، والهواء الموجود في جوّ الأرض، هي الأُخرى لا تقلّ أهميّة عن قطرات المطر.

كما أنّ بركات الأرض كذلك، ليست محصورة في النباتات، بل إنّ المنابع المائية تحت سطح الأرض، والمعادن المختلفة التي كانت معروفة في ذلك الوقت والتي عرفت بعد مرور الزمان تندرج تحت هذا العنوان أيضاً.

آخر الآية تشير إلى موضوع يمكنه أن يكون أساساً لدليل واقعي ومتوائم مع غاية الأدب والإنصاف، بطريقة تستنزل الطرف المقابل من مركب الغرور والعناد الذي يمتطيه، وتدفعه إلى التفكّر والتأمّل، يقول تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(١).

وهذا إشارة إلى: أنّ عقيدتنا وعقيدتكم متضادّتان، وعليه - بناءً على استحالة الجمع بين النقيضين - فلا يمكن أن تكون الدعوتان على حقّ، لذا فمن المحتّم أن يكون أحد الفريقين أهل هدى، والثّاني أسير الضلال.

---

(١) هذه الجملة تقديراً تعود إلى جملتين كما يلي «وانّا لعلى هدىً أو في ضلال مبين، وإنّكم لعلى هدىً أو في ضلال مبين» (تفسير مجمع البيان، ج٧، ص٣٨٨).

والآن عليكم أن تفكّروا في أيّ الفئتين على هدىً، وأيّهما على ضلال؟ . . . انظروا إلى علامات وخصائص كلّ منهما، ومدى تطابقها مع علامات الهدى والضلال.

وهذا أحد أفضل أساليب المناظرة والبحث، بأن يضع الطرف الآخر في حالة من التفكّر والتفاعل، وما يتوهّمه البعض أنّ ذلك نوع من التقيّة فهو منتهى الاشتباه.

الملفت للنظر هو ذكر «على» من «الهدى» و«في» مع «الضلال»، إشارة إلى أنّ المهتدين كأنّهم يركبون مركباً سريعاً، أو يستعلون مناراً عالياً ويتسلّطون على كلّ شيء، في حال كون الضالّين مغمورين في ظلمة جهلهم.

ومن الجدير بالملاحظة كذلك هو أنّه تعالى تحدّث عن «الهدى» أوّلاً ثمّ «الضلال»، وذلك أنّه قال: «إنّا» في بداية الجملة أوّلاً، ثمّ قال «إيّاكم»، لتكون تلميحاً إلى هدى الفريق الأوّل، وضلالة الفريق الثاني.

ورغم أنّ بعض المفسّرين ذهبوا إلى أنّ وصف «المبين» يرتبط فقط (بالضلال)، بلحاظ أنّ الضلال أنواع وضلال الشرك أوضحها، ولكن يحتمل أيضاً أن يكون هذا الوصف للهدى والضلال على حدّ سواء، لأنّ «الصفة» في مثل هذه الموارد لا تتكرّر لتكون أكثر بلاغة، وعليه فيكون (الهدى) مبنياً و(الضلال) مبنياً، كما ورد في كثير من آيات القرآن(١).

وتستمرّ الآية التي بعدها بالاستدلال بشكل آخر - ولكن بنفس النمط المنصف الذي يستنزل الخصم من مركب العناد والغرور. يقول تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

والعجيب هنا أنّ الرّسول ﷺ مأمور باستعمال تعبير «جرم» فيما يخصّه، وتعبير «أعمال» فيما يخصّ الطرف الآخر، وبذا تتّضح حقيقة أنّ كلّ شخص مسؤول أن يعطي تفسيراً لأعماله وأفعاله، لأنّ نتائج أعمال أي إنسان تعود عليه، حسنها وقبيحها، وفي الضمن إشارة لطيفة إلى أنّنا إنّما نصرّ على إرشادكم وهدايتكم، لا لأنّ ذنوبكم تقيّد في حسابنا، ولا لأنّ شركم يضرّ بنا، نحن نصرّ على ذلك بدافع الغيرة عليكم وطلباً للحقّ.

الآية التالية - في الحقيقة - توضيح لنتيجة الآيتين السابقتين، فبعد أن نبّه إلى أنّ أحد الفريقين على الحقّ والآخر على الباطل، وإلى أنّ كلاً منهما مسؤول عن أعماله، انتقل

(١) راجع السور التالية: النمل: ١، النور: ١٢، هود: ٦، القصص: ٢، النمل: ٧٩.

إلى توضيح كيفية التحقّق من وضع الجميع، والتفريق بين الحقّ والباطل ومجازاة كلّ فريق طبق مسؤوليته، فيقول تعالى: قل لهم بأنّ الله سوف يجمعنا في يوم البعث، ويحكم بيننا بالحقّ، ويفصل بعضنا عن بعض، حتى يعرف المهتدين من الضالّين، ويبلغ كلّ فريق بنتائج أعماله. ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾.

وإذا كنتم اليوم ترون أنّكم مخلوطون بعضكم البعض، وكلاً يدّعي بأنّه على الحقّ وبأنّه من أهل النجاة، فإنّ هذا الوضع لن يدوم إلى الأبد، ولابدّ أن يأتي يوم التفريق بين الصفوف، فربوبية الله اقتضت فصل «الطيب» من «الخبيث» و«الخالص» من «المشوب» و«الحقّ» عن «الباطل» في النهاية. ويستقرّ كلّ منهما في مكانه اللائق.

فكّروا الآن ماذا ستعملون في ذلك اليوم؟ وفي أي صفّ ستقفون؟ وهل أحضرتم إجابة لمساءلة الله في ذلك اليوم؟.

وفي آخر الآية يضيف ليؤكّد حتمية ذلك التفريق فيقول: ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾. هذان الاسمان - وهما من أسماء الله الحسنى - أحدهما يشير إلى قدرة الله تعالى على عملية فصل الصفوف، والآخر إلى علمه اللا متناهي. إذ إنّ عملية تفريق صفوف الحقّ عن الباطل لا يمكن تحقّقها بدون هاتين الصفتين. واستخدام كلمة «الربّ» في الآية أعلاه إشارةً إلى أنّ الله هو المالك والمربّي للجميع، وذلك ممّا يقتضي أن يكون برنامج مثل ذلك اليوم معدّاً، وفي الحقيقة هي إشارة لطيفة إلى إحدى دلائل «المعاد».

لفظة «فتح»، كما يشير الراغب في مفرداته «الفتح إزالة الإغلاق والإشكال، وذلك ضربان: **أحدهما**: يدرك بالبصر كفتح الباب ونحوه، وكفتح القفل، والغلق والمتاع. **والثّاني**: يدرك بالبصيرة كفتح الهمّ وهو إزالة الغمّ، وذلك ضروب: أحدها: في الأُمور الدنيوية كغمّ يُفرج وفقر يزال بإعطاء المال ونحوه، والثاني: فتح المستغلق من العلوم، . . . إلى أن يقول: و«فتح القضيّة فتاحاً» فصل الأمر فيها وأزال الإغلاق عنها». وعليه فإنّ استخدام هذه المفردة هنا لأنّ الحكم والقضاء يتمّ أيضاً هناك، فضلاً عن الفصل والتفريق بينهما الذي هو أحد معاني كلمة «فتح» - ومجازاة كلّ بما يستحق.

الجدير بالملاحظة، هو أنّ بعض الرّوايات أشارت إلى ذكر «يافتّاح» في الأدعية لحلّ بعض المعضلات، لأنّ هذا الاسم الإلهي العظيم وهو بصيغة المبالغة من الفتح - يدلّل على قدرة الله على حلّ أي مشاكل ورفع أي حسرة وغمّ، وتهيئة أسباب أي فتح ونصر، وفي الواقع فإنّه هو وحده (الفتّاح)، ومفتاح كلّ الأبواب المغلقة في يد قدرته تعالى.

في الآية الأخيرة من هذه الآيات والتي هي عبارة عن الأمر الخامس للرسول ﷺ يعود القرآن إلى الحديث مرّة أُخرى في مسألة التوحيد التي ابتدأ بها ليختمه بها، يقول تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾.

فما هي قيمة هؤلاء وقابلياتهم؟ فإن كان مقصودكم حفنة الحجر والخشب الجامدة الميتة، فإنّ ذلك لممّا يدعو إلى الخجل ويدلّل على سوء التوفيق أن تتوهّموا تشابه أحقر الموجودات - وهي الجمادات ممّا صنعت أيديكم - مع الله تعالى، وإن اعتقدتم بأنّها تمثّل الأرواح والملائكة فالمصيبة أعظم، لأنّ هؤلاء أيضاً مخلوقات له سبحانه وتعالى، ومنفذة لأوامره.

لذا فبعد هذه الجملة مباشرة، وبكلمة واحدة يشطب على هذه الأباطيل فيقول: (كلاّ) فهذه الأشياء لا تستحقّ أن تعبد أبداً وهذه الأوهام والتصورات ليس لها شيء من الواقعية، فإلى متى تسلكون هذه الطريقة الخاطئة.

وكلمة «كلاّ» مع صغرها استبطنت كلّ هذه المعاني.

ثمّ لأجل تأكيد وتثبيت هذا المعنى يقول مختتماً الحديث ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. فعزّته وقدرته الخارقة، تقتضي الدخول في حريم ربوبيته، وحكمته تقتضي توجيه هذه القدرة في محلّها.

نعم، فإنّ امتلاك هذه الصفات علامة كونه واجب الوجود، وواجب الوجود وجود لا نهاية له ولا حدّ، وغير قابل للتعدّد، ولا شريك له ولا شبيه، لأنّ أي تعدّد له يعني حدّه وإمكانيته، بينما «الوجود اللا متناهي» دائماً وأبداً واحد لا غير «تأمّل».

بحث

طريق تسخير القلوب

كثيراً ما يلاحظ أفراد فضلاء وعلى مستوى من العلم والمعرفة، لا يمكنهم النفوذ في أفكار الآخرين، لعدم اطّلاعهم على الفنون الخاصّة بالبحث والاستدلال، وعدم رعايتهم للجوانب النفسية، على عكس البعض الآخر الذين ليسوا على وفرة من العلم، إلاّ أنّهم موفّقون من ناحية جذب القلوب وتسخيرها والنفوذ في أفكار الآخرين.

والعلّة الأساسية لذلك هي أنّ طريقة البحث، وأُسلوب التعامل مع الطرف المقابل يجب أن تكون مقرونة بأُصول وقواعد تتّسق مع الخُلُق والروح، فلا تستثار الجوانب

السلبية في الطرف المقابل، كي لا يندفع إلى العناد والإصرار، إذ إنّ مراعاة الجانب النفسي ستؤدّي إلى إيقاظ وجدانه وإثارة روح البحث عن الحقيقة وإحيائها فيه.

والمهمّ هنا أن نعلم أنّ الإنسان ليس فكراً وعقلاً صرفاً كي يستسلم أمام قدرة الاستدلال، بل علاوةً على ذلك فإنّ مجموعة من العواطف والأحاسيس التي تشكّل جانباً مهمّاً من روحه مطوية في وجوده، والتي يجب إشباعها بشكل صحيح ومعقول.

والقرآن الكريم علّمنا كيفية مزج البحوث المنطقية بالأُصول الأخلاقية في المحاورة، حتى تنفذ في أرواح الآخرين.

شرط التأثير والنفوذ في روح الطرف المقابل هو إحساس الطرف المقابل بأنّ المتحدّث يتحلّى بالصفات التالية:

١ - مؤمن بما يقول، وما يقوله صادر من أعماقه.

٢ - هدفه من البحث طلب الحقّ، وليس التفوّق والتعالي.

٣ - لا يقصد تحقير الطرف المقابل، وإعلاء شأن نفسه.

٤ - ليس له مصلحة شخصية فيما يقول، بل إنّ ما يقوله نابع من الإخلاص.

٥ - يكنّ الاحترام للطرف المقابل، لذا فهو يستخدم الأدب والرقّة في تعبيراته.

٦ - لا يريد إثارة العناد لدى الطرف المقابل، ويكتفي من البحث في موضوع بالمقدار الكافي، دون الإصرار على إثبات أنّ الحقّ إلى جانبه. ليعرض حديثه.

٧ - منصف، لا يفرط بالإنصاف أبداً، حتى وإن لم يراع الطرف المقابل هذه الأُصول.

٨ - لا يقصد تحميل الآخرين أفكاره، بل يرغب في إيجاد الدافع لدى الآخرين حتى يوصلهم إلى الحقيقة بمنتهى الحرية.

الدقّة المتناهية في هذه الايات، وأُسلوب تعامل الرّسول ﷺ - بأمر الله - مع المخالفين، المقترن بكثير من اللفتات الجميلة، تعتبر دليلاً حيّاً على ما ذكرناه، فهو أحياناً يصل إلى حدّ لا يشير بدقّة إلى المهتدي أو المضلّ في أحد الفريقين، بل يقول: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ حتى يثير في الذهن التساؤل عن علامات الهدى أو الضلال في أي الفريقين.

أو يقول: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾.

طبعاً لا يمكن إنكار أنّ كلّ ذلك بالنسبة إلى الأشخاص المؤمّل اهتداؤهم، وإلاّ فإنّ

القرآن يتعامل مع الأعداء المعاندين والظلمة القساة الذين لا يؤمّل منهم القبول بذلك بطريقة أخرى(١)، أسلوب محاورات الرّسول ﷺ والأئمّة عليهم السلام مع مخالفيهم يمثّل نموذجاً حيّاً في هذا المجال، وكمثال على ذلك لاحظوا ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام بهذا الخصوص في كتب الحديث:

ففي أوائل كتاب توحيد المفضّل نقرأ «روى محمّد بن سنان قال: حدّثني المفضّل بن عمر قال: كنت ذات يوم بعد العصر جالساً في الروضة الشريفة بين القبر والمنبر، وأنا مفكّر فيما خصّ الله تعالى به سيّدنا محمّداً ﷺ، من الشرف والفضائل، وما منحه وأعطاه وشرّفه وحباه، ممّا لا يعرفه الجمهور من الأُمّة وما جهلوه من فضله وعظيم منزلته، وخطير مرتبته، فإنّي لكذلك إذ أقبل ابن أبي العوجاء، «رجل ملحد معروف». إلى أن يذكر أحاديث هذا الرجل التي سمعها المفضّل... إلى أن (قال المفضّل): فلم أملك نفسي غضباً وغيظاً وحنقاً، فقلت: يا عدوّ الله ألحدت في دين الله، وأنكرت الباري جلّ قدسه الذي خلقك في أحسن تقويم وصوّرك في أتمّ صورة، ونقلك في أحوالك حتى بلغ إلى حيث انتهيت، فلو تفكّرت في نفسك وصدقك ولطيف حسّك، لوجدت دلائل الربوبية وآثار الصنعة فيك قائمة، وشواهده جلّ وتقدّس في خلقك واضحة، وبراهينه لك لائحة، فقال: يا هذا إن كنت من أهل الكلام كلّمناك فإن ثبتت لك حجّة تبعناك، وإن لم تكن منهم فلا كلام لك، وإن كنت من أصحاب جعفر بن محمّد الصادق فما هكذا تخاطبنا، ولا بمثل دليلك تجادل فينا، ولقد سمع من كلامنا أكثر ممّا سمعت، فما أفحش في خطابنا، ولا تعدّى في جوابنا، وإنّه الحليم الرزين، العاقل الرصين، لا يعتريه خرق ولا طيش ولا نزق، يسمع كلامنا، ويصغي إلينا ويتعرّف حجّتنا، حتى إذا استفرغنا ما عندنا، وظننا أنّا قطعناه، دحض حجّتنا بكلام يسير، وخطاب قصير يلزمنا به الحجّة، ويقطع العذر، ولا نستطيع لجوابه ردّاً، فإن كنت من أصحابه فخاطبنا بمثل خطابه»(٢).

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

(١) بحثنا في هذا المجال ذيل الآية ٤٦، من سورة العنكبوت.

(٢) توحيد المفضّل - أوائل الكتاب.

التّفسير

الدّعوة العالمية

الآية الأُولى من هذه الآيات، تتحدّث في نبوّة الرّسول ﷺ، والآيات التي تليها تتحدّث حول الميعاد، ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ الآيات السابقة تحدّثت عن التوحيد، نصبح أمام مجموعة كاملة من بحوث العقائد، تتناسب مع كون السورة مكية.

أشارت الآيات ابتداءً إلى شمولية دعوة الرّسول ﷺ وعمومية نبوّته لجميع البشر فقالت: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿كَآفَّةً﴾ من مادّة «كفّ» وتعني الكفّ من يد الإنسان، وبما أنّ للإنسان يقبض على الأشياء بكفّه تارةً ويدفعها عنه بكفّه تارةً أُخرى، فلذا تستخدم هذه الكلمة للقبض أحياناً، وللمنع أُخرى.

وقد احتمل المفسّرون الاحتمالين هنا، الأوّل بمعنى «الجمع» وفي هذه الحالة يكون مفهوم الآية «إنّنا لم نرسلك إلاّ لجميع الناس». أي عالمية دعوة الرّسول ﷺ. ويقوّي هذا المعنى روايات عديدة وردت في تفسير الآية من طرق الفريقين.

وعليه فمحتوى الآية شبيه بالآية (١) سورة الفرقان ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾. وكذلك الآية (١٩) من سورة الأنعام ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾.

جاء في حديث عن ابن عبّاس ينقله المفسّرون بمناسبة هذه الآية، أنّ عمومية دعوة الرّسول ﷺ ذكرت كواحدة من مفاخره العظيمة.

فعنه ﷺ يقول: «أُعطيت خمساً ولا أقول فخراً، بعثت إلى الأحمر والأسود، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأُحلّ لي المغنم ولا يحلّ لأحد قبلي، ونصرت بالرعب فهو يسير أمامي مسيرة شهر، وأُعطيت الشفاعة فادّخرتها لأُمّتي يوم القيامة»(١).

وإن كان لم يرد في الحديث أعلاه تصريح بتفسير الآية، فثمّة أحاديث أُخرى بهذا الخصوص، إمّا أن تصرّح بأنّها في تفسير الآية، أو يرد فيها تعبير «للناس كافّة» الذي

---

(١) تفسير مجمع التبيان، ج ٨، ص٣٩١.

ورد في نفس الآية(١). وجميعها تدلّل على أنّ مقصود الآية أعلاه، هو عالمية دعوة الرّسول ﷺ.

وذُكر للآية تفسير آخر مأخوذ من المعنى الثّاني لكلمة «كفّ» وهو (المنع)، وطبقاً لهذا التّفسير تكون «كافّة» صفة للرسول ﷺ (٢) ويكون المقصود أنّ الله سبحانه وتعالى أرسل الرّسول ﷺ كمانع ورادع وكافّ للناس عن الكفر والمعصية والذنوب، ولكن يبدو أنّ التّفسير الأوّل أقرب.

على كلّ حال - كما أنّ لكلّ الناس غريزة جلب النفع ودفع الضرر - فقد كان للرسل أيضاً مقام «البشارة» و«الإنذار». لكي يوظّفوا هاتين الغريزتين ويحرّكوهما، ولكن أكثر المغفّلين الجهّال - بدون الالتفات إلى مصيرهم - ينهضون للوقوف في وجههم ويتنكّرون تلك المواهب الإلهيّة العظيمة.

وبناءً على ما أشارت إليه الآيات السابقة من أنّ الله سبحانه وتعالى يجمع الناس ويحكم بينهم تورد هذه الآية سؤال منكري المعاد كما يلي: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

لقد طرح هذا السؤال من قبل منكري المعاد على الرّسول الأكرم ﷺ أو الأنبياء الآخرين مراراً، حيناً لفهم وإدراك هذا المطلب، وأغلب الأحيان للاستهزاء والسخرية من قبيل: أين هذه القيامة التي تؤكّدون على ذكرها مراراً وتكراراً، لو كانت حقّاً فقولوا متى ستأتي؟ إشارة منهم إلى أنّ الإنسان الصادق في إخباره يجب أن يعلم بجميع جزئيات الموضوع الذي يُخبر عنه.

ولكن القرآن الكريم يمتنع دائماً عن الإجابة الصريحة على هذا السؤال وتعيين زمان وقوع البعث، ويؤكّد أنّ هذه الأُمور هي من علم الله الخاصّ به سبحانه وتعالى، وليس لأحد غيره الاطلاع عليها.

لذا فقد تكرّر في الآية التي بعدها، هذا المعنى بعبارة أُخرى، يقول تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾.

إنّ إخفاء تأريخ قيام الساعة - حتى على شخص الرّسول الأكرم ﷺ - كما أسلفنا

(١) انظر تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص٢٥٥ و٢٥٦.
(٢) أحياناً تلحق (التاء) اسم الفاعل لتكون صيغة مبالغة لا علامة للتأنيث كما في «رواية».

- لأنّ الله سبحانه وتعالى أراد لعباده نوعاً من حرية العمل مقترنة بحالة من التهيّؤ الدائم، لأنّه لو كان تاريخ قيام القيامة معلوماً فإنّ الجميع سيغطّون في الغفلة والغرور والجهل حينما يكون بعيداً عنهم، أمّا حين اقترابه منهم فستكون أعمالهم ذات جنبة اضطرارية، وفي كلتا الحالتين تتحجّم الأهداف التربوية للإنسان، لذا بقي تأريخ القيامة مكتوماً، كما هو الحال بالنسبة إلى «ليلة القدر» تلك الليلة التي هي خير من ألف شهر، أو تاريخ قيام المهدي عليه السلام، وعبّر عن ذلك المعنى بلطف ما ورد في الآية (١٥) من سورة طه ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾.

أمّا أُولئك الذين يتصوّرون أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم يجب أن يكون على علم بالتاريخ الدقيق ليوم القيامة لأنّه يخبر عنها، فإنّ ذلك غاية الاشتباه، ودليل على عدم معرفتهم بوظيفة النبوّة، فالنّبي مكلّف بالإبلاغ والبشارة والإنذار، أمّا مسألة القيامة فمرتبطة بالله سبحانه وتعالى، وهو وحده الذي يعلم تمام تفاصيلها، وما يراه الله لازماً لأغراض تربوية، أطلع عليه الرّسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم.

هنا يثار سؤال، وهو أنّ القرآن الكريم في مقام تهديد المخالفين يقول: ﴿لَا تَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ ولكن لماذا يقول أيضاً: ﴿وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾؟ فما هو تأثير ذلك في هدف القرآن.

للإجابة يجب الالتفات إلى نكتتين:

الأُولى: أن ذكر ذينك الاثنين معاً إشارة إلى قطعية ودقّة تأريخ أي أمر، تماماً كما تقول: «فلان قطعي الموعد، وليس لديه تقديم أو تأخير».

الثّانية: أنّ جمعاً من الكفّار المعاندين يلحّون على الأنبياء دائماً، بقولهم: لماذا لا تأتي القيامة؟ وبتعبير آخر، كانوا يستعجلون ذلك الأمر سواءً كان ذلك من قبيل الاستهزاء أو غير ذلك، والقرآن يقول لهم: «لا تستعجلوا فإنّ تاريخ ذلك اليوم هو عينه الذي قرّره الله سبحانه وتعالى».

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ

كُنتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

التّفسير

لمناسبة البحث الوارد في الآيات السابقة، حول مواقف المشركين إزاء مسألة المعاد، تعرّج هذه الآيات إلى تصوير بعض فصول المعاد المؤلمة لهؤلاء المشركين كي يقفوا على خاتمة أعمالهم.

أوّلاً: يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾. أي ولا بالكتب السماوية السابقة.

كلمة ﴿لَن﴾ للنفي الأبدي، وعليه فهم يريدون القول لرسول الله ﷺ: إنّك حتى لو بقيت تدعونا للإيمان إلى الأبد فلن نؤمن لك، وهذا دليل على عنادهم، بحيث إنّهم صمّموا على موقفهم إلى الأبد، في حين أنّ من يطلب الحقّ ويسعى له، إذا لم يقتنع بدليل ما لا يمكنه أن ينكر جميع الأدلّة الممكن ظهورها مستقبلاً قبل أن يسمعها، فيقول: إنّي أردّ جميع الأدلّة الأُخرى أيضاً.

أمّا من المقصود بـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؟ فقد أشار جمع من المفسّرين إلى أنّهم «المشركون»، وبعضهم أشار إلى أنّهم «اليهود وأهل الكتاب»، ولكن القرائن الواردة في الآيات اللاحقة، والتي تتحدّث عن الشرك، تُدلّل على أنّ المقصود هم المشركون.

والمقصود من «الذي بين يديه» هو تلك الكتب السماوية التي نزلت قبل القرآن على أنبياء سابقين، وقد ورد هذا التعبير في كثير من آيات القرآن مشيراً إلى هذا المعنى - خصوصاً بعد ذكر القرآن - وما احتمله البعض من أنّ المقصود منه هو «المعاد» أو «محتوى القرآن» فيبدو بعيداً جدّاً.

على كلّ حال فإنّ إنكار الإيمان بكتب الأنبياء السابقين، يحتمل أن يكون المقصود به، نفي نبوّة الرّسول ﷺ من خلال نفي الكتب السماوية الأُخرى، باعتبار أنّ القرآن أكّد على موضوع وورود دلائل على نبوّة الرّسول ﷺ في التوراة والإنجيل، ولهذا يقولون: نحن لا نؤمن لا بهذا الكتاب ولا بالكتب التي سبقته.

ثمّ تنتقل إلى الحديث حول وضع هؤلاء في القيامة من خلال مخاطبة الرّسول ﷺ فيقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾[1].

ومرّة أُخرى يُستفاد من الآية أعلاه أنّ من أهمّ مصاديق «الظلم» هو «الشرك والكفر».

التعبير بـ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ إشارة إلى أنّهم حاضرون بين يدي مالكهم وربّهم، وما أكثر وأشدّ خجلا من أن يكون الإنسان حاضراً بين يدي من كفر به، في حين أنّ كلّ وجوده غارق بنعمه.

في حين أنّ «المستضعفين» الذين اتّبعوا بجهلهم «المستكبرين» وهم الذين سلكوا طريق الغرور والتسلّط على الآخرين ورسموا لهم منهجهم الشيطاني، هناك: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾.

إنّهم يريدون بذلك إلقاء مسؤولية ذنوبهم على عاتق هؤلاء «المستكبرين»، مع أنّهم لم يكونوا حاضرين للتعامل معهم بمثل هذه القاطعية في دار الدنيا، لأنّ الضعف والخور والذلّة كانت حاكمة على وجودهم، وقد فقدوا حريتهم، أمّا هناك وبعد أن تبعثرت تلك المفاهيم الطبقية التي كانت سائدة في دار الدنيا، وانكشفت نتائج أعمال الجميع، فهم يقفون وجهاً لوجه مقابل هؤلاء ويتحدّثون بصراحة ويتلاومون معهم.

لكن «المستكبرين» لا يبقون على صمتهم بل ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾. كلاّ، فلسنا بمسؤولين، فمع امتلاككم حرية الإرادة، استسلمتم لأحاديثنا الباطلة، وكفرتم وألحدتم متناسين أحاديث الأنبياء المنطقية، ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾.

صحيح أنّ المستكبرين ارتكبوا ذنباً كبيراً بوسوستهم، ولكن حديثهم الذي تذكره الآية الكريمة له حقيقة أيضاً، حيث إنّ المتملّقين لم يكن عليهم أن يصمّوا أسماعهم وأبصارهم ويلهثوا وراءهم، وإنّما عليهم أيضاً مسؤولية ذنوبهم.

ولكن المستضعفين لا يقتنعون بهذا الجواب، ويعاودون القول مرّة أُخرى لإثبات جرم المستكبرين: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾.

---

(١) ﴿يَرْجِعُ﴾: تأتي كفعل لازم وكفعل متعدّي، وقد وردت هنا بالحالة الثّانية لتعطي معنى العودة، ومجيئها بعد ﴿بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ معناه في النتيجة بمعنى «مفاعلة».

نعم، فأنتم الذين لم تكفوا عن بثّ السموم، ولم تفرطوا بأي فرصة من الليل أو النهار من أجل تحقيق أهدافكم المشؤومة، فصحيح أنّنا كنّا أحراراً في القبول بذلك، وبذا نكون مقصّرين وجناة، ولكن باعتباركم عامل الفساد فأنتم مسؤولون ومجرمون، بل إنّكم واضعو حجر الأساس لذلك، خاصّة وأنّكم كنتم تتحدّثون معنا دائماً من موقع القدرة والسلطة، (التعبير بـ ﴿تَأْمُرُونَنَآ﴾ شاهد على هذا المعنى).

بديهي أنّ المستكبرين لا يملكون جواباً لهذا القول، ولا يمكنهم إنكار جرمهم الكبير ذاك، لذا فإنّ الفريقين يندمون على ما قدّمت أيديهم، المستكبرون على إضلالهم للآخرين، والمستضعفون على إيمانهم وقبولهم بتلك الأباطيل المشؤومة، ولكن لكي لا يفتضحوا أكثر فإنّهم يكتمون الندم حينما يواجهون العذاب الإلهي... ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

فمع أنّ الكتمان لا ينفع في «يوم البروز» هناك، ومع عدم إمكانية إخفاء شيء، إلاّ أنّهم - جرياً على ما تعوّدوه في الدنيا من قبل - يتوهّمون أنّ في استطاعتهم كتمان حالتهم، فيلجأون إلى ذلك.

نعم، فهم في الدنيا حينما يلتفتون إلى اشتباههم ويندمون لم يكونوا يمتلكون الشجاعة لإظهار ندمهم الذي هو أوّل طريق التوبة وإعادة النظر، وتلك هي الخصلة الأخلاقية الخاصّة بهم والتي يمارسونها في الآخرة أيضاً، ولكن ما الفائدة؟

بعض المفسّرين احتملوا أن يكون ذلك الكتمان للندامة بسبب الرهبة الشديدة من مشاهدة العذاب الإلهي، وانحباس أنفاسهم في صدورهم وانعقاد ألسنتهم نتيجة الأغلال التي غُلّت بها رقابهم والسلاسل التي لفّتهم، مع أنّهم يطلقون صرخاتهم في مواقف أُخرى من القيامة ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾[(١)].

وقال آخرون: إن ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ بمعنى «أظهروا» بناءً على أنّ هذه اللفظة تستعمل لمعنيين متضادّين في اللغة العربية، ولكن من ملاحظة الموارد التي استعملت فيها هذه اللفظة في القرآن وغير القرآن، يبدو هذا المعنى مستبعداً، بلحاظ أنّ «سرّ» عادة تستخدم للإشارة إلى ما يقابل «العلن». وقد ضعّف الراغب هذا المعنى أيضاً مع أنّ بعض علماء اللغة أشار إلى كلا المعنيين[(٢)].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٤.

(٢) انظر لسان العرب ذيل مادّة (سرّ)، ج ٤، ص ٣٥٧، فهناك بحث مفصّل بهذا الخصوص مع اختلافات أهل اللغة والأدب.

وعلى كلّ حال، فإنّ هؤلاء قد وجدوا نتائج أعمالهم ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

نعم، فأعمال وجنايات الكفّار والمجرمين هي التي أضحت قيوداً وسلاسل تلفّ أعناقهم وأيديهم وأرجلهم، لقد كانوا في هذه الدنيا أسارى هوى النفس والطمع والظلم والرغبة في المقام، وفي يوم القيامة حيث تتجسّد الأعمال، يظهر ذلك الأسر بشكل آخر... إذن، فالآية تشير أيضاً إلى قضيّة تجسّم الأعمال التي أشرنا إليها مراراً، لأنّها تقول: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وأي تعبير أكثر وضوحاً وحيوية من ذلك التعبير عن تجسّم الأعمال.

التعبير بـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يشير إلى أنّ فريقي الغاوين والمغويين المستضعفين وكلّ الكفّار يلقون ذلك المصير، وعادةً فإنّ ذكر ذلك الوصف هو إشارة إلى أنّ علّة عقابهم إنّما هي «كفرهم».

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨)﴾

التّفسير

الأموال والأولاد ليست دليلاً على القرب من الله

بعد أن كان الحديث في الآيات السابقة في الغاوين من المستكبرين، فإنّ جانباً آخر من هذا المبحث تعكسه الآيات أعلاه بطريقة أُخرى، وتقدّم المواساة أيضاً للرسول ﷺ ضمن إشارتها بأن لا تعجب إذا خالفك المخالفون، فإنّ المستكبرين المرفّهين طبعوا على مخالفة أنبياء الحقّ، فتقول الآية المباركة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾.

«نذير» من «الإنذار» وهو الإخبار الذي فيه تخويف، وإشارة إلى أنبياء الله الذين ينذرون الناس من عذاب الله في قبال الانحرافات والظلامات والذنوب والفساد.

«مترفوها» جمع «مترف» من مادّة «ترف» بمعنى «التوسّع في النعمة» و(المترف) الذي قد أبطرته النعمة وسعة العيش. وأترفته النعمة أي أطغته[1].

نعم، فإنّ هذه الفئة المترفة الغافلة الطاغية كانت الصف المتقدّم من مخالفي الأنبياء عادةً، لأنّهم يرون أنّ تعليمات الأنبياء تتضارب مع أمانيهم وأهوائهم من جهة، ولأنّ الأنبياء يدافعون عن حقوق المحرومين التي اغتصبها هؤلاء المترفين ونالوا هذا النعيم، من جهة ثانية، ولأنّهم دائماً يستخدمون عامل التسلّط لحماية مصالحهم وأموالهم من جهة ثالثة، والأنبياء يقفون قبالهم في كلّ هذه الحالات، لذا فإنّهم يهبّون فوراً لمخالفة الأنبياء.

العجيب أنّهم لا يشيرون إلى حكم أو فقرة خاصّة ليخالفوها، بل إنّهم فوراً ومرّة واحدة يقولون (نحن كافرون بكلّ ما بعثتم به) ولن نخطوا معكم خطوة واحدة، وهذا بعينه أوضح دليل على عنادهم وتعصّبهم إزاء الحقّ.

وقد كشف القرآن في آيات مختلفة عن مسألة مهمّة، وهو أنّ المحرومين هم أوّل من يلبّي دعوة الأنبياء، والمتنعّمين المغرورين أيضاً هم أوّل مجموعة ترفع لواء المخالفة.

ورغم أنّ منكري دعوة الأنبياء لا ينحصرون في هذه المجموعة فقط، ولكنّهم غالباً عامل الفساد الأوّل والدعاة إلى الشرك والخرافات، ويسعون دوماً إلى إكراه الآخرين لسلوك طريقهم. ورد هذا المعنى أيضاً في الآيات ٢٣ - الزخرف، و١١٦ - هود، و٣٣ - المؤمنون.

هذه المجموعة لم تقف فقط في وجه الأنبياء فحسب، بل قبال أيّة خطوة إصلاحية من قبل أي عالم أو مصلح أو مفكّر مجاهد، فقد كانوا السبّاقين للمخالفة، ولا يتورّعون في ارتكاب أيّة جريمة وتآمر ضدّ هؤلاء المصلحين.

تشير الآية التالية إلى المنطق الأجوف الذي يتمسّك به هؤلاء لإثبات أفضليتهم ولاستغفال العوام فتقول: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾.

إنّ الله يحبّنا، فقد أعطانا المال الوفير، والقوّة البشرية، وذلك دليل على لطفه بحقّنا

---

(١) لسان العرب، ج ٩، ص١٧.

وإشارة إلى مقامنا وموقعنا عنده، ولذلك لن نعاقب أبداً ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ! فلو كنّا مطرودين من رحمته فلِمَ سخّر لنا كلّ هذه النعم؟ الخلاصة، إنّ وفرة النعيم في دنيانا دليل واضح على كونه كذلك آخرتنا!!

بعض المفسّرين احتملوا أن يكون قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ دليلاً على إنكارهم الكلّي للقيامة والعذاب، ولكن الآيات اللاحقة تدلّل على عدم قصد هذا المعنى، بل المراد هو (القرب من الله بسبب الثروة التي يملكونها).

الآية التي بعدها تردّ بأرقى أُسلوب على هذا المنطق الأجوف الخدّاع وتنسفه من الأساس، وبطريق مخاطبة الرّسول ﷺ تقول الآية الكريمة: قل لهم: إنّ ربّي يرزق من يشاء ويقدر لمن يشاء، وذلك أيضاً طبق مصالح مرتبطة بامتحان الخلق وبنظام حياة الإنسان، وليس له أي ربط بقدر ومقام الإنسان عند الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾.

وعليه فلا يجب اعتبار سعة الرزق دليلاً على السعادة، وقلّته على الشقاء، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. طبعاً أكثر الجهّال المغفّلين هم كذلك، وإلاّ فإنّ هذا الأمر واضح للعارف.

ثمّ تتابع الآيات هذا المعنى بصراحة أكثر. تقول: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾(١) لقد عمّ هذا الاشتباه الخطير بعضاً من البسطاء، وتصوّروا بأنّهم ما داموا محرومين في الدنيا فهم مغضوب عليهم ومطرودون من رحمة الله، وهؤلاء المرفّهون هم المحبوبون المقبولون لديه.

ما أكثر المحرومين الذين امتحنوا بالحرمان، فنالوا أرقى الدرجات والمراتب الروحية.

وما أكثر المرفّهين الذين أصبحت أموالهم وثرواتهم وبالاً عليهم ومقدّمة لعقابهم.

أليس قد ذكرت الآية (١٥) من سورة التغابن بصراحة ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

ولكن ليس معنى هذا هو حثّ الإنسان على ترك السعي والدأب اللازم لإقامة الأود،

---

(١) «زلفى» و«زلفة» بمعنى المنزلة والحظوة (مفردات الراغب)، ولهذا السبب عبّر عن (منازل الليل) بـ(زلف الليل) - والتعبير بـ«التي» لأجل أنّه في كثير من الموارد يعود الضمير المفرد المؤنث إلى جمع التكسير، وعليه فلا حاجة إلى التقدير هنا.

بل المقصود هو التأكيد على أنّ امتلاك الإمكانات الاقتصادية والقوّة البشرية الواسعة لا يمثّل أبداً أيّة قيمة معنوية للإنسان عند الله.

ثمّ تتناول الآية موضوع المعيار الأصلي لتقييم الناس، وما يسبّب قربهم منه (على شكل استثناء منفصل) فتقول: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾(١).

وعليه فجميع المعايير تعود أصلاً إلى هذين الأمرين «الإيمان» و«العمل الصالح».

ويستوعب هذا المعيار جميع الأفراد وفي أي زمان أو مكان، ومن أي طبقة أو مجموعة كان. واختلاف مراتب البشر أمام الله إنّما هو بتفاوت درجات إيمانهم ومراتب عملهم الصالح، ولا شيء سوى ذلك، حتى طلب العلم أو الانتساب إلى أفراد عظماء، بل حتى للأنبياء، إذا لم يكن مقترناً بهذين الأمرين فإنّه وحده لا يضيف إلى قيمة الإنسان شيئاً.

هنا يشطب القرآن وبصراحة قلّ نظيرها على كلّ الظنون المنحرفة والخرافات بخصوص عوامل القرب من الله، وما يرفع من قيمة الإنسان، ويخلص إلى أنّ المعيار الأصيل هو في شيئين فقط، يستطيع كلّ الناس تحصيلها، وأنّ الإمكانات والمحروميات المادية لا أثر لها في ذلك.

أجل، فإنّ الأموال والأولاد أيضاً إذا وُجّهت بهذا المسير، صُبغت بتلك الصبغة الإلهيّة وتقبّلت لون الإيمان والعمل الصالح، وأصبحت سبباً في القرب من الله، أمّا الأموال والأولاد التي تبعد الإنسان عن الله، وتكون له صنماً يُعبد من دون الله وسبباً للفساد والإفساد، فهي جواذب جهنّم، وكما قال القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾(٢).

كلمة «ضعف» ليست بمعنى «مضاعفة الشيء مرتين» فقط، بل بمعنى «أضعاف مضاعفة لأكثر من مرتين»، وقد وردت في هذه الآية بهذا المعنى، لأنّنا نعلم أنّ أي عمل حسن يُحسب عند الله بعشرة أمثاله على الأقل ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾(٣). وأحياناً أكثر من ذلك بكثير.

---

(١) التعبير بـ«جزاء الضعف» من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة.
(٢) سورة التغابن، الآية: ١٤. (٣) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

«غرفات» جمع «غرفة» بمعنى الحجرات العلوية من البناء، والتي غالباً ما تكون إضاءتها أكثر وهواؤها أفضل، وبعيدة عن الآفات، لذا عبّر القرآن عن أفضل منازل الجنّة (بالغرف)، وهذه اللفظة من مادّة «غرف»، على زنة (بحر) بمعنى رفع الشيء وتناوله.

التعبير بـ ﴿ءَامِنُونَ﴾ فيما يخصّ أهل الجنّة، تعبير جامع يعكس حالة الطمأنينة الروحية والجسدية لهم من كافّة النواحي، فلا خوف من هجوم عدوّ، أو مرض، أو آفة أو ألم، ولا خوف حتى من الخوف!، وليس أغلى من هذه النعمة بأن يكون الإنسان آمناً من كلّ جانب، فلا بلاء أشدّ من الإحساس بعدم الأمن في مختلف جوانب الحياة.

الآية التالية تصف الفريق المقابل لهؤلاء، فتقول: أمّا هؤلاء الذين يسعون ويجتهدون لتسفيه آياتنا، لا يؤمنون ولا يتركون غيرهم يسيرون في طريق الإيمان، ويتوهّمون أنّهم يستطيعون الفرار من يد قدرتنا، هؤلاء يحضرون في عذاب أليم يوم القيامة ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

هؤلاء هم الذين اعتمدوا على أموالهم وأولادهم وكثرة عددهم لتكذيب الأنبياء، وعملوا على إغواء عباد الله، حتى بلغ غرورهم درجة أن توهّموا أنّهم يفلتون من قبضة العذاب الإلهي، ولكن هيهات فإنّ مصيرهم في قلب جهنّم.

وبما أنّ جملة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ ليس فيها ما يدلّل على الزمان الآتي - فقد تكون إشارة إلى كون هؤلاء مأسورين بالعذاب حتى في الوقت الحاضر، وأي عذاب أشدّ من هذا السجن الذي صنعوه لأنفسهم من أموالهم وأولادهم.

كذلك يحتمل أن يكون التعبير للتدليل على أنّ وعد الله مسلّم به إلى درجة يمكن القول بأنّهم حالياً فيه، كما هو الحال بالنسبة إلى قوله: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ﴾.

﴿مُعَـٰجِزِينَ﴾: كما ذهب بعض أرباب اللغة إلى أنّ معناه أنّ هؤلاء تصوّروا أنّهم يستطيعون الفرار من دائرة قدرة الله تعالى وجزائه وعقابه، إلاّ أنّ هذا التوهّم باطل وسراب خادع(١).

(١) الحقيقة أن تعبير ﴿مُعَـٰجِزِينَ﴾ الذي أوردنا تفسيره من مفردات الراغب، شبيه بتعبير ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ٩]، لأنّ باب مفاعلة يمكن أن يأتي على هذه الصورة.

بحث

معايير التقييم

من القضايا المهمّة في حياة الأفراد والمجتمعات هي قضيّة «معايير التقييم» و«نظام القيم» الذي يتحكّم بثقافة ذلك المجتمع، لأنّ كلّ الحركات الصادرة عن الأفراد والجماعات في حياتهم إنّما تنبع من هذا النظام وتهدف إلى خلق تلك القيم.

واشتباه قوم من الأقوام وأُمّة من الأُمم في هذه القضيّة والتعامل بقيم خيالية لا أساس لها قد يؤدّي إلى طبع تأريخهم بطابع الغرور، وإدراك القيم الواقعية والمعايير الحقيقية يشكّل أساساً متيناً لبناء سعادتهم.

عبيد الدنيا المغرورون يتصوّرون بأنّ القيم تنحصر فقط في المال والقدرة المادية والتعداد البشري، وحتى القيمة أمام الله ينظرون إليها من داخل هذا الإطار، كما لاحظنا نموذجاً من ذلك في الآيات السابقة، وهناك نماذج كثيرة من هذا القبيل تلاحظ في القرآن الكريم، منها:

١ - فرعون، الطاغية المتجبّر، الذي كان يقول لمن حوله بأنّه لا يصدّق أنّ موسى عليه السلام رسول من الله، فإن كان حقّاً ما يقول فلِمَ لم يعطه الله سواراً من الذهب ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾(١).

وحتى أنّه يرى عدمها دليل على المهانة والدونية، فيقول: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾(٢).

٢ - مشركو عصر الرسالة المحمّدية، تعجّبوا من نزول القرآن على رجل فقير كرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(٣).

٣ - بنو إسرائيل اعترضوا على نبي زمانهم «أشموئيل» في قضيّة انتخاب «طالوت» كقائد للجيش وقالوا: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾(٤).

٤ - مشركو زمان نوح عليه السلام الأثرياء اعترضوا عليه بأن اتّبعه أراذلهم، وهم الفقراء في نظرهم ﴿۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾(٥).

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٥٣.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٥٢.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٣١.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٤٧.
(٥) سورة الشعراء، الآية: ١١١.

٥ - أثرياء مكّة أوردوا نفس هذا الاعتراض على الرّسول الأكرم ﷺ بقولهم: لقد أحاط بك الحفاة، ونحن نشمئزّ حتى من رائحتهم، فلا نتّبعك إلاّ بابتعادهم عنك. وقد حقّرهم القرآن الكريم في سورة الكهف بشدّة، وهدّدهم، وأمر الرّسول الأكرم ﷺ بأن يكون مع الذين عشقوا الله، ويدعونه صباحاً ومساءً وإن كانوا فقراء ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾(١).

لهذه الأسباب، كان أوّل عمل إصلاحي يقوم به الأنبياء هو تحطيم أُطر التقييم الكاذبة تلك، واستبدالها بالقيم الإلهيّة الأصيلة والقيام بـ«ثورة ثقافية» أبدلوا أساس الشخصية ومحورها من الأموال والأولاد والثروة والجاه والشهرة القبلية والعائلة إلى التقوى والإيمان والعمل الصالح.

وقد مرّ نموذج لذلك في الآيات السابقة، فبعد شجب الأموال والأولاد كوسيلة للتقرّب إلى الله تعالى، والآية ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ أعطت بعدها مباشرة القيم الأصيلة كبديل بالقول: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

والآية الشريفة ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ والتي أضحت شعاراً إسلامياً بعد استبعاد القيم المرتبطة بالقبيلة والعشيرة، تشير إلى هذه الثورة الفكرية والاعتبارية، فاستناداً إلى هذه الآية (الحجرات - ١٣) فليس هناك شيء غير التقوى، والإيمان المقترن بالشعور بالمسؤولية، وصلاح العمل، ليس سوى ذلك معياراً لتقييم شخصية الإنسان وقربه من الله تعالى. وكلّ من كان له نصيب أكبر من ذلك كان إلى الله أقرب وعنده أكرم.

والملفت للنظر أنّ محيط الجزيرة العربية كان قبل نزول التعاليم الإسلامية القرآنية السامية - بتأثير هيمنة القيم الظالمة - خاضعاً لأصحاب الأموال والكذبة من أمثال أبي سفيان وأبي جهل وأبي لهب، ولكن بعد ثورة القيم ظهر من نفس ذلك المحيط أمثال أبي ذرّ وعمّار والمقداد (رضوان الله عليهم).

الجميل أنّ القرآن المجيد في سورة «الزخرف» وبعد ذكر الآيات التي أوردناها آنفاً يقول: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾(٢).

هذا كلّه لكي لا تحلّ القيم المزيّفة محلّ القيم الإنسانية الواقعية.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٨.
(٢) سورة الزخرف، الآيات: ٣٣ - ٣٥.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ النَّارِ الَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

التّفسير

نفور المعبودين من عابديهم

تعود هذه الآيات لتؤكّد مرّة أُخرى خطأ الذين يتوهمون بأنّ أموالهم وأولادهم سبب لقربهم من الله فتقول: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾.

ثمّ تضيف الآية: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ﴾.

فمع أنّ محتوى هذه الآية يؤكّد ما عرضته الآيات السابقة إلاّ أنّ هناك ما هو جديد من جهتين:

الأُولى: أنّ الآية السابقة التي عرضت نفس المفهوم، كانت تتحدّث عن أموال وأولاد الكفّار، بينما الآية محلّ البحث باحتوائها على كلمة «عباد» تشير إلى المؤمنين، والمعنى أنّه حتى فيما يخصّ المؤمنين فإنّه قد يتّسع الرزق - لأنّه الأصلح بالنسبة للمؤمن - وقد يضيق - لأنّ المصلحة تقتضي ذلك - على كلّ حال، فإنّ سعة وضيق الرزق لا يمكن أن يشكّل دليلاً على أي شيء.

الثّانية: الآية السابقة أشارت إلى سعة الرزق وضيقه بالنسبة إلى مجموعتين مختلفتين، في حين أنّ هذه الآية تشير إلى حالتين مختلفتين بالنسبة لشخص واحد، حيناً يتّسع رزقه وحيناً يضيق.

إضافةً إلى أنّ ما جاء في بداية هذه الآية هو في الحقيقة مقدّمة لما جاء في آخرها، وهو الترغيب في الإنفاق في سبيل الله.

جملة ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ تعبير جميل يشير إلى أنّ ما ينفق في سبيل الله إنّما هو في

الحقيقة تجارة وافرة الربح، لأنّ الله سبحانه وتعالى تعهّد بأن يخلفه، ونعلم أنّه في الوقت الذي يتعهّد فيه الكريم بأداء العوض فإنّه لا يراعي المقدار الذي يريد تعويضه، بل إنّه يعوّض بأضعاف مضاعفة، بل بمئات الأضعاف.

طبعاً فإنّ هذا الوعد الإلهي لا ينحصر بالآخرة، فإنّ ذلك مسلّم به، ولكن في الدنيا أيضاً فإنّه يخلف ما أنفق بمختلف البركات.

جملة ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ ذات معنى واسع، ويمكن الإفادة منها من وجوه مختلفة.

هو خير من يعطي رزقاً، لأنّه يعلم ماذا يعطي وإلى أي حدّ، بحيث لا يكون ما يعطيه عاملاً للفساد والغرور، لأنّه عالم بكلّ شيء.

هو يعطي أي شيء يريد أن يعطيه لأنّه قادر على كلّ شيء.

ولا يريد جزاءً على ما يعطيه لأنّه غني بذاته. ويعطي ابتداءً، لأنّه حكيم وعالم بكلّ شيء. بل الحقيقة أنّه ليس من رزّاق غيره، لأنّ أي معطٍ إنّما يعطي ممّا رزقه الله، وبذا فهو ليس سوى «واسطة انتقال» لا رزّاقاً.

وكذلك فهو تعالى يعطي النعم الباقية قبال المال الفاني، والكثير مقابل القليل.

ولأنّ فريقاً من الأثرياء الظالمين الطغاة كانوا في صفّ المشركين، وادّعوا بأنّهم يعبدون الملائكة وأنّهم شفعاؤهم يوم القيامة، فقد ردّ القرآن على هذا الادّعاء الباطل فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾.

بديهي أنّ هذا السؤال ليس من باب الاستفهام عن الجواب، لأنّ الله تعالى عالم بكلّ شيء، ولكن الهدف هو أن تظهر الحقائق من إجابة الملائكة، لكي يخسأ هؤلاء الضالّون ويخيب ظنّهم، ويعلموا بأنّ الملائكة متنفّرين من أعمالهم، فيصيبهم اليأس إلى الأبد.

ذكر (الملائكة) من بين المعبودات التي كان المشركون يعبدونها، إمّا لأنّ الملائكة أشرف المخلوقات التي عبدها الضالّون، والتي لم يحصلوا على شفاعتها يوم القيامة، فماذا يستطيعون الحصول عليه من حفنة من الحجر أو الأخشاب أو الجنّ أو الشياطين!؟

أو أنّه من قبيل أنّ عبدة الأوثان كانوا يعتقدون بأنّ الأحجار والأخشاب هي مظهر ونموذج لموجودات علوية (كالملائكة وأرواح الأنبياء)، ولذا عبدوها، فكما ورد في تاريخ الوثنية عند العرب «إنّ سبب حدوث عبادة الأصنام في العرب، هو أنّ «عمرو بن

لحي» مرّ بقوم بالشام فرآهم يعبدون الأصنام فسألهم فقالوا له: هذه أرباب نتّخذها على شكل الهياكل العلوية فنستنصر بها ونستسقي. فتبعهم وأتى بصنم معه إلى الحجاز وسوّل للعرب فعبدوه واستمرّت عبادة الأصنام فيهم إلى أن جاء الإسلام»(١) (٢).

والآن لننظر ماذا تقول الملائكة للإجابة على سؤال الباري عزّ وجلّ؟ لقد اختارت الملائكة في الحقيقة أكثر الأجوبة شمولية وأعظمها أدباً ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾.

أمّا ما هو المقصود من الجواب الذي أجابت به الملائكة؟ فللمفسّرين أقوال، ويبدو أنّ أقربها هو القول بأنّ المقصود (بالجنّ) هو (الشيطان) وسائر الموجودات الخبيثة التي شجّعت عبدة الأوثان على ذلك العمل، وزينته في أنظارهم، وعليه فإنّ المراد من عبادة الجنّ هي تلك الطاعة والانقياد لأوامرها والرضى بأضاليلها.

فالملائكة إذاً يقولون ضمن إعلان تنفّرهم وعدم رضاهم على هذه الأعمال: إنّ العامل الأساسي لهذا الفساد هم الشياطين، وإن كان الظاهر أنّهم يعبدوننا، فالمهمّ هو الكشف عن الوجه الحقيقي لهذا العمل أمام الملأ.

وقد ورد نظير هذا المعنى في سورة يونس - الآية (٢٨) حيث يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾. أي إنّكم في الحقيقة لم تعبدونا نحن، بل تعبدون أهواءكم وأوهامكم وخيالاتكم، ناهيك عن أنّ هذه العبادة لم تكن بأمرنا ورضانا، وعبادة هذا شكلها ليست بعبادة أصلاً.

وبهذه الطريقة يتبدّل أمل المشركين في ذلك اليوم إلى يأس كامل، وتتجلّى لهم بذلك حقيقة أنّ معبوديهم لن يحلّوا من مشاكلهم عقدة صغيرة واحدة، بل على العكس فهم منهم متنفّرون مستاؤون.

لذا - وكاستخلاص للنتيجة - تقول الآية الكريمة التي بعدها: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾. وبناءً على ذلك فلا الملائكة - الذين هم ظاهراً معبودون - يستطيعون الشفاعة لهم، ولا هم يستطيعون مساعدة بعضهم البعض.

---

(١) تفسير روح المعاني، ج ٢٢، ص١٤٠ - كذلك ورد هذا المعنى بتفاوت يسير في سيرة ابن هشام، ج ١، ص٧٩ - وهناك نقرأ أنّه جلب معه الصنم «هبل».

(٢) عمرو بن لُحي: أحد الشخصيات المعروفة في مكّة قبل الإسلام.

﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

ليست هذه هي المرّة الأُولى التي يعبّر فيها القرآن عن المشركين بـ «الظلم» بل ورد ذلك في الكثير من آيات القرآن.

التعبير عن «الكفر» بـ «الظلم». أو عن «الكافرين والمشركين» بـ «الظالمين». ذلك لأنّهم قبل كلّ شيء ظلموا أنفسهم بخلعهم تاج العبودية لله عن رؤوسهم، ولفّوا طوق الذلّة للأوثان على رقابهم. ودمّروا شخصيتهم ومصيرهم.

وفي الحقيقة فإنّهم سيعاقبون يوم القيامة على شركهم وعلى إنكارهم للمعاد، وجملة ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ تشتمل على المعنيين.

بحوث

١ - الإنفاق سبب النماء لا النقصان

التعبير الوارد في الآية السابقة يحتوي على معان جمّة:

أوّلاً: فمن جهة أنّ كلمة «شيء» بمعناها الواسع تشمل كلّ أنواع الإنفاق، المادّي والمعنوي القليل والكثير، لأيّ من المحتاجين كان الإنفاق، صغيراً أو كبيراً، المهمّ أن يعطي الإنسان شيئاً ممّا يملك في سبيل الله بأي كيفية كان وبأي كميّة كانت.

ثانياً: لقد أخرجت الآية (الإنفاق) بمفهومه من «الفناء»، ولوّنته بلون «البقاء» لأنّ الله ضَمِنَ إخلاف ما يُنفق في سبيله بمواهبه المادية والمعنوية، بمرّات مضاعفة، مئات الآلاف، أقلّها عشرة أضعاف، وبذا فإنّ المنفق - وبهذه الروحية وهذا الاعتقاد - سيلج ميدان الإنفاق بيد وقلب أكثر انفتاحاً، ولن يخطر على باله إحساس بالقلّة، ولن يفكّر بالفقر، بل إنّه سيشكر الله على حسن توفيقه له على هذه التجارة الوفيرة الربح.

وقد عبّر القرآن في الآيتين (١٠) و(١١) من سورة الصفّ عن هذا المعنى فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾.

ونقرأ في الحديث عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم:

ينادي مناد كلّ ليلة: لدوا للموت.

وينادي مناد: ابنوا للخراب.

وينادي مناد: اللهمّ هب للمنفق خلفاً.

وينادي مناد: اللّهمّ هب للممسك تلفاً.

وينادي مناد: ليت الناس لم يخلقوا.

وينادي مناد: ليتهم إذ خلقوا فكّروا فيما له خلقوا!!»(١).

والمقصود من هؤلاء المنادين هم الملائكة الذين يدبّرون أُمور هذا العالم بأمر الله.

وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «من أيقن بالخلف سخت نفسه بالنفقة»(٢).

وقد نقل نفس المعنى عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام.

والجدير بالتذكير هو أنّ الإنفاق يجب أن يكون من المال الحلال والكسب المشروع، وإلاّ فلا قبول لغيره عند الله ولا بركة فيه.

لذا فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام حينما سأله أحدهم قال: قلت: آيتان في كتاب الله عزّ وجلّ أطلبهما فلا أجدهما.

قال عليه السلام: «وما هما؟».

قلت: قول الله عزّ وجلّ: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، فندعوه ولا نرى إجابة.

قال عليه السلام: أفترى الله عزّ وجلّ أخلف وعده؟».

قلت: لا.

قال: فممّ ذلك؟

قلت: لا أدري.

قال عليه السلام: «لكنّي أخبرك، من أطاع الله عزّ وجلّ فيما أمره من دعائه من جهة الدعاء أجابه».

قلت: وما جهة الدعاء.

قال: «تبدأ فتحمد الله وتذكر نعمه عندك ثمّ تشكره ثمّ تصلّي على النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثمّ تذكر ذنوبك فتقرّ بها، ثمّ تستعيذ منها فهذا جهة الدعاء».

ثمّ قال عليه السلام: «وما الآية الأُخرى؟».

قلت: قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ وإنّي أنفق ولا أرى خلفاً؟

---

(١) تفسير مجمع البيان: ذيل الآيات مورد البحث.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص٣٤٠، ح٧٧.

قال: «أفترى الله عزّوجلّ أخلف وعده؟

قلت: لا.

قال: «فممّ ذلك؟».

قلت: لا أدري؟

قال: لو أنّ أحدكم اكتسب المال من حلّه وأنفقه في حلّه لم ينفق درهماً إلاّ أخلف عليه»(١).

٢ - أمّنوا على أموالكم بتأمين إلهي!!

لأحد المفسّرين تحليل جميل بهذا الخصوص، يقول: «ثمّ إنّ من العجب أنّ التاجر إذا علم أنّ مالاً من أمواله في معرض الهلاك يبيعه نسيئة وإن كان من الفقراء، ويقول بأنّ ذلك أولى من الإمهال إلى أن يهلك المال، فإن لم يبع حتى يهلك ينسب إلى الخطأ، ثمّ إن حصل به كفيل مليء ولا يبيع ينسب إلى قلّة العقل، فإن حصل به رهن وكتب به وثيقة ولا يبيعه ينسب إلى الجنون، ثمّ إنّ كلّ أحد يفعل هذا ولا يعلم أنّ ذلك قريب من الجنون، فإنّ أموالنا كلّها في معرض الزوال المحقّق، والإنفاق على الأهل والولد إقراض، وقد حصل الضامن المليء وهو الله العلي وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ ثمّ رهن عند كلّ واحد إمّا أرضاً أو بستاناً أو طاحونة، أو حمّاماً أو منفعة، فإنّ الإنسان لابدّ أن يكون له صفة أو جهة يحصل له منها مال، وكلّ ذلك ملك الله، وهو في يد الإنسان بحكم العارية، فكأنّه مرهون بما تكفّل الله من رزقه ليحصل له الوثوق التامّ، ومع هذا لا ينفق ويترك ماله ليتلف لا مأجوراً ولا مشكوراً»(٢).

٣ - سعة مفهوم الإنفاق

لأجل فهم الحدّ لمفهوم الإنفاق في الإسلام، نطالع الحديث التالي عن الرّسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم إذ يقول: «كلّ معروف صدقة، وما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة، وما وقى به الرجل عرضه فهو صدقة، وما أنفق الرجل من نفقة فعلى الله خلفها، إلاّ ما كان من نفقة في بنيان أو معصية»(٣).

---

(١) تفسير البرهان، ج ٣، ص٣٥٣.

(٢) تفسير الفخر الرازي، ج ٢٥، ص٢٦٣ (ذيل الآيات مورد البحث).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (القرطبي)، ج ١٤، ص٣٠٧. تفسير القرطبي، ج٦، ٥٣٨٩، ذيل الآية مورد البحث.

يبدو أنّ استثناء البنيان من قانون الإخلاف، لأنّ عين البناء باقية، أو لأنّه يكثر توجّه الناس إليه.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾

التّفسير

بأيّ منطق ينكرون آيات الله؟

تعود هذه الآيات لتكمل البحث الذي تناولته الآيات السابقة حول المشركين الكفّار وأقوالهم يوم القيامة، فتتحدّث حول وضع هؤلاء في الدنيا ومواقفهم عند سماعهم القرآن حتى يتّضح أنّ مصيرهم الأُخروي المشؤوم إنّما هو نتاج تلك المواقف الخاطئة التي اتّخذوها إزاء آيات الله في الدنيا.

تقول الآية الكريمة الأُولى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾.

فهذا أوّل ردّ فعل لهم إزاء «الآيات البيّنات» وهو السعي إلى تحريك حسّ العصبية في هؤلاء القوم المتعصّبين.

خاصّة مع ملاحظة استخدامهم تعبير ﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾ بدل «آباؤنا»، يفهم منه أنّهم يريدون القول لقومهم بأنّ تراث الأجداد في خطر، وأنّ عليكم النهوض والتصدّي لهذا الرجل عن العبث بذلك الميراث.

ثمّ تعبير ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾ إنّما يقصد به تحقير النّبي ﷺ من جهتين الأُولى كلمة «هذا».

والثّانية «رجل» بهيئة النكرة، مع العلم بأنّهم يعرفون النّبي ﷺ جيّداً، ويعلمون بأنّ له ماضياً مشرقاً.

من الجدير بالملاحظة أيضاً أنّ القرآن وصف «الآيات» بـ«البيّنات»، أي أنّها تحمل دلائل حقّانيتها معها، وما هو قابل للمعاينة لا يحتاج إلى توضيح أو بيان.

ثمّ توضّح الآية مقولتهم الثّانية التي قصدوا بها إبطال دعوة النّبي ﷺ فتقول: ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ﴾.

«إفك» كما ذكرنا سابقاً بمعنى كلّ مصروف عن وجهه الذي يحقّ أن يكون عليه، ومنه قيل للرياح العادلة عن المهابّ «مؤتفكة»، وأي صرف عن الحقّ في الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصدق في المقال إلى الكذب، ومن الجميل في الفعل إلى القبيح. ولكن كما قال البعض، فإنّ «الإفك» يطلق على الأكاذيب الكبيرة.

وكان يكفي استخدامهم لكلمة «الإفك» في اتّهام الرّسول ﷺ بالكذب، لكنّهم أرادوا تأكيد ذلك المعنى باستخدامهم لكلمة «مفترى»، دون أن يكون لهم أدنى دليل على ذلك الادّعاء.

وأخيراً، كان الاتّهام الثالث الذي ألصقوه بالرّسول ﷺ هو (السحر) كما نرى ذلك في آخر هذه الآية ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾.

العجيب أنّ هؤلاء الضالّين يطلقون هذه التّهم الثلاث المذكورة بأصرح التأكيدات، ففي موضع يقولون إنّه سحر، وفي آخر يقولون: إنّه مجرّد كذب، ثمّ يقولون في موضع ثالث؛ إنّه يريد أن يصدّكم عن مآثر أجدادكم!

طبعاً هذه الصفات الذميمة الثلاث ليست متضادّة فيما بينها - مع أنّ هؤلاء لا يأنفون من الكلام المتضادّ - وعلى هذا فلا داعي - كما يقول المفسّرون - لاعتبار أنّ كلّ واحدة من هذه الصفات تنسب إلى مجموعة مستقلّة من الكفّار.

كذلك فمن الجدير بالملاحظة أنّ القرآن الكريم استخدم في المرتين الأُولى والثّانية جملة «قالوا»، ثمّ استخدم في المرّة الثالثة جملة «قال الذين كفروا»، إشارة إلى أنّ كلّ التعاسة التي أصابتهم إنّما منشأها الكفر وإنكار الحقّ ومعاداة الحقيقة، وإلاّ فكيف يمكن لأحد أن يتّهم رجلاً تظهر دلائل حقّانيته من حديثه وعمله وماضيه بهذه التّهم المتلاحقة وبلا أدنى دليل.

فكأنّهم يواصلون بهذه التّهم الثلاث برنامجاً مدروساً لمواجهة النّبي ﷺ فقد لاحظوا من جانب أنّ الدين جديد وله جاذبية، ومن جانب آخر، فقد أخافت إنذارات الرّسول ﷺ بالعذاب الإلهي في الدنيا والآخرة فئة من المجتمع شاؤوا أم أبوا، ومن

جانب ثالث فإنّ معجزات الرّسول ﷺ تركت أثرها الإيجابي في نفوس عامّة المجتمع، شاؤوا أم أبوا كذلك.

لذا فإنّهم - لأجل إبطال مفعول هذه الأُمور الثلاثة - فكّروا بالدعوة إلى حفظ تراث السلف في قبال الدين الجديد، في حين أنّ السلف كان مصداقاً لما ذكره القرآن الكريم ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ البقرة - ١٧٠. فلا جرم أن يتخلّى الناس عن مثل تلك الهياكل الخرافية التي كانت إرث هؤلاء الجهلة والحمقى.

وأمّا في قبال إنذارات الرّسول ﷺ بالعذاب الإلهي، فقد طرحوا قضيّة الاتّهام بالكذب لكي يريحوا العامّة.

وفي قبال المعجزات، طرحوا تهمة (السحر)، ظنّاً منهم أنّ المعجزات لن تترك أثراً في نفوس الناس بسبب هذا التوجيه.

ولكن تاريخ الإسلام شاهد على أنّ أيّاً من هذه المخطّطات الشيطانية لم تكن ذات أثر، وكانت النتيجة أن دخل الناس في هذا الدين العظيم فوجاً بعد فوج.

في الآية التي بعدها، يشطب القرآن الكريم على جميع تلك الادّعاءات الواهية، مع أنّها واضحة البطلان، فيقول: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾.

وهي إشارة إلى أنّ هذه الادّعاءات يمكنها أن تكون مقبولة فيما لو جاءهم رسول من قبل بكتاب سماوي يخالف مضمونه الدعوة الجديدة، فلا بأس أن ينبروا لتكذيبها، وينادوا بتراث الأجداد تارةً، وبتكذيب الدعوة الجديدة تارةً أُخرى، أو اتّهام من جاء بها بالسحر، أمّا من لا يعتمد إلاّ على فكره الشخصي - بدون أي وحي من السماء - وبدون أن يكون له نصيب من علم، فلا يحقّ له الحكم لمجرّد تلفيقه الخرافات والأوهام.

ويستفاد من هذه الآية أيضاً أنّ الإنسان لا يمكنه أن يطوي طريق الحياة بعقله فقط، بل لابدّ أن يستمدّ المعونة من وحي السماء ويتقدّم إلى الأمام بالاستعانة بالشرائع، وإلاّ فهي الظلمات والخوف من التيه.

الآية الأخيرة من هذه الآيات، تهدّد تلك المجموعة المتمردّة بكلمات بليغة مؤثّرة فتقول: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ في حين أنّ هؤلاء لم يبلغوا في القوّة والقدرة عشر ما كان لأُولئك الأقوام ﴿وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

فمدنهم المدمّرة بضربات العقوبة الإلهية الساحقة ليست ببعيدة عنكم... فهي في

الشام القريب منكم، فليكونوا لكم مرآةً للعبرة، واستمعوا إلى النصائح التي يقولها الدمار، وقارنوا مصيركم بمصيرهم، فلا السنّة الإلهيّة قابلة للتغيير ولا أنتم أقوى منهم!.

«معشار»: بمعنى واحد إلى عشرة، البعض اعتبرها «عُشر العُشر» أيّ واحد إلى مائة، ولكن أكثر كتب اللغة والتفاسير ذكرت المعنى الأوّل، وإن كان مثل تلك الأعداد لا يقصد بها التعداد، وتستخدم للتقليل في مقابل سبعة وسبعين وألف وأمثالها التي تستخدم للتكثير، وبذا يكون المعنى المقصود من الآية، إنّنا دمّرنا عصاة أقوياء لا يمتلك هؤلاء إلاّ جزءاً صغيراً من قدرتهم.

وقد ورد نظير هذا المعنى في آيات كثيرة من آيات القرآن الكريم، من جملتها ما ورد في الآية (٦) من سورة الأنعام ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾. وكذا ورد نظير هذا المعنى في الآيات ٢١ - المؤمن، ٩ - الروم.

لفظة «نكير» من مادّة «نكر» والإنكار ضدّ العرفان، والمقصود أنّ إنكار الله هو تلك المجازاة والعذاب الصادر عنه تعالى[1].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾

التّفسير

الثّورة الفكرية أساس لأيّ ثورة أصيلة

في هذا المقطع من الآيات والآيات التالية، والتي تشكّل أواخر سورة سبأ المباركة،

(١) بعض المفسّرين احتملوا تفسيراً آخر لهذه الآية، وهو أنّ المقصود من ﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ وهو عشر الآيات التي أنزلناها على مشركي قريش لإتمام الحجّة عليهم، لم ننزّله على الأقوام السابقين، فإذا كان العذاب الذي عذّبناهم به بتلك الشدّة، فما بالك بمصير مشركي قريش الذين نالهم عشرة أضعاف الآيات لإتمام الحجّة! ولكن يبدو أنّ التّفسير الأوّل أنسب (وبناءً على التّفسير الأوّل فإنّه من أربعة ضمائر موجودة في الآية، يعود الضميران الأوّل والثّاني على كفّار قريش، والضمير الثالث والرابع على الكفّار السالفين، أمّا بناءً على التّفسير الثّاني فإنّ الضمير الأوّل يعود على كفّار قريش، والثّاني على الكفّار السالفين، والثالث على كفّار قريش والرابع على الكفّار السابقين - تأمّل).

يُؤمر الرّسول الأكرم ﷺ مرّة أُخرى بدعوة هؤلاء بالأدلّة المختلفة ليؤمنوا بالحقّ، ويرجعوا عن ضلالهم، وكما مرّ في البحوث السابقة فقد خوطب الرّسول ﷺ خمس مرّات بأن قيل له (قل...).

ففي الآية الأُولى إشارة إلى اللبنة الأساسية في كلّ التحوّلات والتبدّلات الاجتماعية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية والثقافية، فتقول وبجمل قصيرة وعميقة المعنى ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

كلمات وتعبيرات هذه الآية يشير كلّ منها إلى موضوع هامّ، نجملها في عشر نقاط كما يلي:

١ - جملة ﴿أَعِظُكُم﴾ توضّح في الحقيقة واقع أنّ الرّسول ﷺ يريد القول بأنّي ألحظ فيما أقول لكم خيركم وصلاحكم دون أيّ شيء آخر.

٢ - التعبير بـ «واحدة» مع إرتباطه بالتأكيد بواسطة «إنّما» إشارة معبّرة إلى أنّ أصل جميع الإصلاحات الفردية والجماعية، إنّما هي بإعمال الفكر، فما دام تفكير الأُمّة في سبات فستكون هدفاً لسرّاق ولصوص الدين والإيمان والحرية والاستقلال، ولكن حينما تصحو الأفكار فإنّها تقطع الطريق أمام هؤلاء.

٣ - التعبير بـ «قيام» ليس معناه مجرّد الوقوف على القدمين، بل معناه الاستعداد لإنجاز العمل، بلحاظ أنّ الإنسان بوقوفه على قدميه إنّما يكون مستعدّاً لإتمام البرامج الحياتية المختلفة، وعليه فإنّ التفكّر يحتاج إلى استعداد قبلي، لكي يوجد السبب والمحرّك في الإنسان الذي يدفعه بالإرادة والتصميم إلى التفكّر.

٤ - تعبير يوضّح أنّ القيام والاستعداد يجب أن يكون باعثه إلهياً، والتفكّر الذي يكون صادراً عن هذا الدافع له قيمة عالية، فالإخلاص في العمل عادةً - وحتى في التفكّر - هو الأساس للنجاة والسعادة والبركة.

والملفت للنظر هو اعتبار الإيمان بالله هنا أمراً مسلّماً، وعليه فالتفكّر المطلوب إنّما هو في مسائل أُخرى، وتلك إشارة إلى أنّ التوحيد إنّما هو أمر فطري واضح يدرك حتى بدون تفكّر.

٥ - التعبير بـ ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ إشارة إلى أنّ التفكّر يجب أن يكون بعيداً عن الغوغائية والفوضى، بأن يقوم الناس آحاداً أو على الأكثر مثنى ويتفكّرون، لأنّ التفكّر وسط

الضوضاء والغوغائية لا يمكنه أن يكون عميقاً، خصوصاً وأنّ عوامل الذاتية والتعصّب في طريق الدفاع عن الاعتقادات الشخصية ستكون أشدّ فعلاً في التجمّعات الأكبر.

بعض المفسّرين احتمل أن يكون هذان التعبيران إشارة إلى الإفادة من المشورة بالخلط بين الأفكار الفردية والجماعية، فالإنسان يجب أن يتفكّر منفرداً وكذلك يستفيد من أفكار الآخرين، لأنّ الاستبداد بالرأي والفكر سبب للعجب، والتشاور والتعاون لأجل حلّ المشكلات العلمية - والذي لا يؤدّي إلى الغوغاء - سيعطي حتماً - أثراً أفضل، ويمكن أن يكون تقديم «مثنى» على «فرادى» في الآية لهذا السبب.

٦ - الملفت للنظر أنّ القرآن الكريم يقول هنا «تتفكّروا» دون أن يذكر بماذا؟ فحذف المتعلّق دليل على العموم، أي في كلّ شيء، في الحياة المعنوية والمادية، في الأُمور الكبيرة والصغيرة، وبكلمة: في كلّ أمر يجب التفكّر أوّلاً، وأهمّ من ذلك كلّه هو التفكّر للعثور على الإجابة للأسئلة الأربعة التالية: من أين جئت؟ لأي شيء أتيت؟ إلى أين أذهب؟ وأين أنا الآن؟

ولكن بعض المفسّرين ذهبوا إلى أنّ ﴿تَتَفَكَّرُواْ﴾ تتعلّق بالجملة التي تليها وهي ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ بمعنى أنّكم لو تفكّرتم قليلاً لوجدتم أنّ الرّسول ﷺ منزّه عن اتّهامكم الواهي له بالجنون، والظاهر أنّ المعنى الأوّل أوضح.

ومن البديهي أنّ من الأُمور التي يجب التفكّر بها هي مسألة النبوّة والصفات العالية التي كان يتمتّع بها شخص النّبي ﷺ دون أن تكون منحصرة بذلك.

٧ - تعبير «صاحبكم» إشارة إلى الرّسول الأكرم ﷺ وأنّه ليس نكرة بالنسبة لكم، فقد كان بينكم لسنوات طويلة، لقد عرفتموه بالأمانة والصدق والاستقامة، ولم تجدوا حتى الآن نقطة ضعف واحدة في مسيرة حياته، لذا فعليكم بالإنصاف قليلاً، فالتّهم التي تلصقونها به لا أساس لها جميعاً.

٨ - «جنّة» بمعنى «جنون» وفي الأصل من مادّة «جن» بمعنى ستر الشيء عن الحاسّة، ومن كون أنّ (المجنون) سُتر عقله، فقد أُطلق عليه هذا التعبير، والجدير بالملاحظة هنا هو أنّ العبارة تريد الكشف عن هذه الحقيقة، وهي أنّ من يدعو إلى التفكّر والانتباه كيف يكون هو مجنوناً، والحال أنّ مناداته بالتفكّر إنّما هي دليل على تمام عقله ودرايته.

٩ - جملة ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم﴾ تلخّص رسالة الرّسول الأكرم ﷺ في مسألة

«الإنذار» أي: التحذير من المسؤولية، ومن المحكمة الإلهية، والعقاب الإلهي، صحيح أنّ للرسول ﷺ رسالة في «التبشير» أو «البشارة» ولكن الذي يدفع الإنسان أكثر إلى التحرّك هو «الإنذار»، لذا فقد ذُكرت مسألة «الإنذار» في آيات أُخرى من القرآن الكريم على أنّها وظيفة الرّسول الأكرم الأساسية، كما في الآية (٩) من سورة الأحقاف ﴿وَمَآ أَنَاْ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، كما ورد كذلك شبيه هذا المعنى في الآية ٦٥ من سورة (ص) وآيات أُخرى.

١٠ - التعبير بـ ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ إشارة إلى أنّ القيامة قريبة إلى درجة وكأنّها أمام العين، والحقّ أنّها كذلك بالنسبة إلى عمر الدنيا، كذلك فقد ورد في الروايات الإسلامية نظير هذا المعنى كما في الأثر عن الرّسول الأكرم ﷺ قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وضمّ ﷺ الوسطى والسبّابة[1].

بحثان

١ - استقلال آيات القرآن الكريم وتفسيرها المنحرف

لقد اتّضح لدينا من خلال تفسير الآية الأخيرة بأنّ الأصنام والأوثان وما يعبد من دون الله تعالى ليس لها آذان صاغية لما يُطلب منها، وإن كان لها فهي غير قادرة على حلّ مشكلة ما، وليس لها في هذا العالم أيّ ملك ولو بقدر رأس الإبرة ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ﴾[2] وعلى هذا الأساس اتّخذ الوهّابيون هذه الآية ذريعة لهم للادّعاء بأنّ كلّ شيء ما خلا الله جلّ وعلا - وإن كان نبيّاً - لا يسمع دعاءً، وإن سمع فلا يجيب! كما رفضوا أي نوع من التوسّل بأرواح الأنبياء والأئمّة والأولياء، واعتبروا ذلك مخالفاً للتوحيد محتجّين بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾[3].

ولو أمعنا النظر في الآيات السابقة واللاحقة لهذه الآية للاحظنا أنّ المقصود من قوله: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ هي الأصنام لا غير، وذلك يصدق على مجموعة الأحجار والأخشاب وغيرها والتي كانت في نظر مشركي الجاهلية بأنّها ذات قدرة إزاء قدرة الخالق الكريم جلّ وعلا، كما أنّ الأنبياء والأولياء وحتى الشهداء في سبيل الله أحياء

(١) تفسير روح المعاني، ج٢٢، ص١٤٣، ذيل الآية مورد البحث.
(٢) سورة فاطر، الآية: ١٤. (٣) سورة الأعراف، الآية: ١٩٧.

في البرزخ، وحياة البرزخ - كما هو معلوم - مجرّدة من الحجب المادية ومتعلّقات الدنيا ممّا يجعلها أوسع منها، يضاف إلى ذلك فإنّ التوسّل بالأرواح الطاهرة للأنبياء والأئمّة عليهم السلام لا يعني إقرارنا لهم بالاستقلالية إزاء الخالق الكريم، بل إنّنا إنّما نطلب العون والمدد من مقامهم وجاههم في حضرة الباريء العزيز، وهذا هو عين التوحيد (تأمّلوا جيداً).

وقد صرّح القرآن الكريم بأنّ الشفيع إنّما يشفع بإذن الله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾(١) فمن يستطيع إنكار مثل هذه الآيات الصريحة غير الجهلة المغرورين الذين هتفوا بمثل هذه الادّعاءات لزرع الفرقة بين المسلمين؟!

وفي كثير من الحالات نقرأ في سيرة الصحابة أنّهم حينما تحيق بهم المشكلات يأتون إلى قبر الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم ويتوسّلون إليه، ويطلبون العون من الله عزّوجلّ بشفاعة روحه الطاهرة.

مثالنا على ذلك ما ذكره «البيهقي» من محدّثي العامّة، قال: في زمن الخليفة الثّاني مرّ في الناس قحط وجدب، ممّا حدا ببلال وعدد من الصحابة إلى الذهاب لقبر رسول الله وقالوا عنده: «يارسول الله، استق لأُمّتك... فإنّهم قد هلكوا»(٢).

كما نقل «الآلوسي» في (روح المعاني) الكثير من الأحاديث في هذا الصدد، وبعد المناقشة لهذه الأحاديث يخرج بالقول: إنّني لا أرى مانعاً من التضرّع لله جلّ وعلا بمقام الرّسول الأكرم في حياته أو بعد مماته... ثمّ إنّ الآخرين الذين يمتلكون مقاماً وقرباً من الخالق الكريم يجوز التوسّل بالله سبحانه بواسطتهم(٣).

ولمزيد من الاطلاع راجع تفسيرنا هذا، ذيل الآية ٣٥ من سورة المائدة.

٢ - جانب من الروايات الإسلامية في التفكّر والتأمّل

اهتّمت الرواية الإسلامية - وعلى خطى القرآن الكريم - بمسألة التفكّر إلى حدّ أن جعلتها في المقام الأوّل من الأهميّة، ويلاحظ المطالع للروايات تعبيرات جميلة ومعبّرة أوردنا نماذج منها هنا:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٢) من كتاب (التوصّل إلى حقيقة التوسّل).

(٣) تفسير روح المعاني، ذيل الآية مورد البحث.

ألف - التفكّر أعظم عبادة: نقرأ عن الإمام الرضا عليه السلام: «ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم إنّما العبادة التفكّر في أمر الله عزّ وجلّ»(١).

ونقرأ في رواية أُخرى: «كان أكثر عبادة أبي ذر التفكّر»(٢).

ب - ساعة تفكّر أفضل من ليلة من العبادة: عن الحسن الصيقل قال: سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام: عمّا يروي الناس أنّ تفكّر ساعة خير من قيام ليلة، قلت: كيف يتفكّر؟ قال: «يمرّ بالخربة أو بالدار فيقول: أين ساكنوك وأين بانوك، ما لك لا تتكلّمين؟»(٣).

ج - التفكّر مصدر العمل: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ التفكّر يدعو إلى البرّ والعمل به»(٤).

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠)﴾

التّفسير

﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾

قلنا إنّ الله تعالى أمر رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم في هذه السلسلة من الآيات الكريمة خمس مرّات بأن يخاطب هؤلاء الضالّين ويقطع عليهم طريق الاعتذار من كلّ جانب.

فالآية السابقة كانت دعوة للتفكّر ونفي أي حالة من عدم التوازن الروحي عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي مطلع هذه الآيات، يتحدّث القرآن في عدم مطالبة الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم بأي أجر مقابل تبليغ الرسالة، تقول الآية الأولى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾.

---

(١) أُصول الكافي، ج ٢، كتاب الكفر والإيمان - باب التفكّر - ص ٤٥ حديث ٤.

(٢) سفينة البحار، ج ٢، ص ٣٨٣، (مادة فكر).

(٣) المصدر السابق، ص٣٨٢.

(٤) المصدر السابق.

وذلك إشارة إلى أنّ العاقل حينما يتصرّف أي تصرّف يجب أن يكون لتصرفه باعث، فحينما يثبت لكم بأنّ لديّ عقل كامل، وترون بأن ليس لي هدف ماديّ، فيجب أن تعلموا بأنّ هناك دافعاً ومحرّكاً إلهياً ومعنوياً هو الذي دفعني إلى ذلك التصرّف أو العمل.

بتعبير آخر: أنا دعوتكم للتفكّر، والآن تأمّلوا، واسألوا وجدانكم، أي سبب يدعوني لأن أنذركم من العذاب الإلهي الشديد؟، وأي ربح سوف أجنيه من هذا العمل؟، وأي فائدة ماديّة لي فيه؟ إضافةً إلى ذلك فإن كانت حجّتكم في هذا الإعراض ومخالفة الحقّ، هو أنّكم ستدفعون لي أجراً عليه، فسيضيع جزافاً، لأنّي أساساً لم أُطالبكم بأي أجر أو جزاء.

كذلك فقد ورد هذا المعنى بصراحة أيضاً في الآية (٤٦) من سورة القلم ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾.

أمّا ما هو تفسير جملة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾؟ فهناك تفسيران:

الأوّل: أنّ الجملة كناية عن عدم المطالبة بأي أجر كما لو قلت «كلّ ما أردته منك فهو لك» كناية عن أنّك لا تريد شيئاً مطلقاً. والدليل على ذلك هو الجملة التالية والتي تقول: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾.

الثاني: أنّكم إن لاحظتم أنّي في بعض ما أخبرتكم به عن الله سبحانه وتعالى، قلت لكم: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾(١)، فهذا أيضاً يعود نفعه إليكم، لأنّ مودّة ذي القربى ترتبط بمفهوم (الإمامة والولاية) واستمرار خطّ النبوّة، الذي هو ضروري لإدامة هدايتكم.

الدليل على هذا القول هو ما ورد في أسباب النّزول الذي نقله بعضهم هنا، ففي تفسير روح البيان، ورد أنّه عند نزول الآية: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمشركي مكّة: «لا تؤذوا ذوي قرباي» وهم قبلوا بهذا الطلب، ولكن عندما نال الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من أصنامهم، قالوا: إنّ محمّداً لم ينصفنا، فهو من جانب يدعونا لعدم التعرّض لذوي قرباه بالأذى، ولكنّه من جانب آخر يمسّ أربابنا بالأذى، وهنا نزلت الآية موضوع بحثنا ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾. فما أردته

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

منكم بهذا الخصوص هو بنفعكم، سواء آذيتموهم أو لم تؤذوهم[١].

ثمّ تختم الآية بالقول: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. فإن كنت أُريد أجري من الله وحده فلأنّه وحده عالم بكلّ أعمالي ومطّلع على نواياي، علاوةً على أنه هو سبحانه وتعالى شاهد صدقي وحقّانية دعوتي، لأنّه هو سبحانه سخّر لي كلّ هذه المعجزات والآيات البيّنات، والحقّ أنّه سبحانه وتعالى نعم الشاهد، فهو الذي قد أحاط بكلّ شيء علماً وهو أفضل من يستطيع الأداء، ولا يصدر عنه إلاّ الحقّ وهو خير الشاهدين، وهو الله سبحانه وتعالى.

بالالتفات إلى ما قيل حول حقّانية دعوة الرّسول الأكرم ﷺ، تضيف الآية التي بعدها قائلة أنّ القرآن واقع غير قابل للإنكار لأنّه ملقى من الله سبحانه وتعالى على قلب الرّسول ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

كلمة ﴿يَقْذِفُ﴾ من مادّة (قذف) وهو الرمي البعيد، وثمّة تفسيرات متعدّدة لهذه الآية، يمكن جمعها مع بعضها البعض.

أوّلاً: المقصود بـ ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ هو الكتب السماوية والوحي الإلهي على قلوب الأنبياء والمرسلين، ولأنّه سبحانه وتعالى هو علاّم الغيوب، فهو يعلم بالقلوب المهيّأة، فينتخبها ويقذف الوحي فيها حتى ينفذ إلى أعماقها.

وعلى ذلك فالمعنى شبيه بما ورد في الحديث المعروف «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء»[٢].

والتعبير بـ ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ يؤيّد هذا المعنى.

الآخر: إنّ المقصود من «قذف الحقّ على الباطل وزهوق الباطل»، يعني أنّ للحقّ قوّة تجعله قادراً على تجاوز أي عائق في طريقه، وليس لأحد طاقة على الوقوف بوجهه، وبهذا تكون الآية تهديداً للمخالفين لكي لا يقفوا بوجه القرآن، وأن يعلموا أنّ حقّانية القرآن ستسحقهم.

وبذا تكون الآية تعبيراً مشابهاً لما ورد في الآية (١٨) من سورة الأنبياء ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾.

ويحتمل أن يكون المقصود بتعبير «القذف» هنا هو نفوذ حقّانية القرآن إلى نقاط العالم

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٧، ص٣٠٨.   (٢) مصباح الشريعة، ص١٦.

القريبة والبعيدة، وهي إشارة إلى أنّ هذا الوحي السماوي سيضيء جميع العالم بنوره في نهاية الأمر.

بعدئذ ولزيادة التأكيد يضيف سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾[١]، وعليه فلن يكون للباطل أي دور مقابل الحقّ، لا خطّة أُولى جديدة، ولا خطّة معادة، إذ إنّ خطط الباطل نقش على الماء، ولهذا السبب فلم يتمكّن الباطل من طمس نور الحقّ ومحو أثره من القلوب.

مع أنّ بعض المفسّرين أرادوا حصر مصاديق «الحقّ» و«الباطل» في هذه الآية في حدود معيّنة، لكن الواضح أنّ مفهوم الاثنين واسع وشامل جدّاً، القرآن، الوحي الإلهي، تعليمات الإسلام، جميعها مصاديق لمفهوم «الحقّ». والشرك والكفر، والضلال، والظلم والذنوب، ووساوس الشيطان، والبدع الطاغوتية كلّها تندرج تحت معنى «الباطل»، وفي الحقيقة فإنّ هذه الآية شبيهة بالآية (٨١) من سورة الإسراء، ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

وقد ورد أنّ ابن مسعود قال: دخل رسول الله ﷺ مكّة وحول البيت ثلاثمائة وستّون صنماً فجعل يطعنها بعود في يديه ويقول: «جاء الحقّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً - جاء الحقّ وما يبدىء الباطل وما يعيد»[٢].

سؤال

يثار هنا سؤال وهو أنّ الآية أعلاه تقول: إنّه بظهور الحقّ، يمحق الباطل، ويفقد كلّ خلاّقيته، والحال أنّنا نرى أنّ الباطل له جولات وصيت إلى الآن، ويسيطر على مناطق كثيرة؟

وللإجابة على هذا السؤال، يجب الالتفات إلى ما يلي:

أوّلاً: إنّه بظهور الحقّ وإشراقه، فإنّ الباطل - والذي هو الشرك والنفاق والكفر وكلّ ما ينبع عنها - يفقد بريقه، وإذا استمرّ وجوده فبالقوّة والظلم والضغط، وإلاّ فإنّ النقاب قد أُزيل عن وجهه، وظهرت صورته القبيحة لمن يطلب الحقّ، وهذا هو المقصود من مجيء الحقّ ومحو الباطل.

---

(١) ﴿يُبْدِئُ﴾ من مادّة «بدأ» بمعنى الإيجاد الابتدائي، و(يعيد): من مادّة (عود) بمعنى التكرار، الباطل: فاعل، والمفعول محذوف، والتقدير «ما يبدىء الباطل شيئاً وما يعيد شيئاً».

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٩٧.

ثانياً: لأجل تحقّق حكومة الحقّ وزوال حكومة الباطل في العالم، فإضافة إلى الإمكانيات التي يضعها الله في خدمة عباده، هناك شرائط أُخرى مرتبطة بالعباد أنفسهم، والتي أهمّها «القيام بترتيب المقدّمات للاستفادة من تلك الإمكانات الإلهيّة»، وبتعبير آخر، فإنّ انتصار الحقّ على الباطل ليس فقط في المناحي العقائدية والمنطقية وفي الأهداف، بل في المناحي الإجرائية على أساسين، «فاعلية الفاعل» و«قابلية القابل» وإذا لم يصل الحقّ إلى النصر على الباطل في المرحلة العملية نتيجة عدم تحقّق (القابلية) فليس ذلك دليلاً على عدم انتصاره.

ولنضرب لذلك مثلاً قرآنياً، فالآية الكريمة تقول: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ﴾[1]، ولكن المعلوم لدينا بأنّ استجابة الدعاء ليست بدون قيد أو شرط، فإن تحقّقت شرائط الدعاء فهو مستجاب قطعاً، وفي غير هذه الحالة ينبغي عدم انتظار الاستجابة، (شرح هذا المعنى جاء في تفسير الآية ١٨٦ - من سورة البقرة).

وذلك بالضبط كما لو أنّنا أتينا بطبيب حاذق لمريض ممدّد على فراشه، وعندها نقول له: زادت فرصة النجاة لك، وفي أي وقت أحضرنا له دواء نذكره بأنّنا قد حللنا له مشكلاً آخر، في حين أنّ كلّ هذه الأُمور هي من مقتضيات الشفاء وليست (علّة عامّة)، فيجب أن يكون الدواء مؤثّراً في المريض، وأن تُراعى توصيات الطبيب، كما أنّه يجب أن لا ننسى الحمية وأثرها، لكي يتحقّق الشفاء العيني والواقعي (تأمّل).

ثمّ يضيف تعالى: لأجل إيضاح أنّ ما يقوله ﷺ هو من الله، وأنّ كلّ هداية منه، وأن ليس هناك أدنى خطأ أو نقص في الوحي الإلهي، ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾[2].

أي إنّني لو اتّكلت على نفسي فسوف أضلّ، لأنّ الاهتداء إلى طريق الحقّ من بين أكداس الباطل ليس ممكناً بغير إمداد الله، ونور الهداية الذي ليس فيه ضلال وتيه هو نور الوحي الإلهي.

---

(١) سورة المؤمن، الآية: ٦٠.

(٢) فيما يخصّ السؤال: لماذا أورد في الجملة الأُولى ﴿عَلَىٰ نَفْسِى﴾ وفي الجملة الثّانية ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ قال بعض المفسّرين: كلّ واحدة من هاتين الجملتين تحتوي على محذوف مقدّر، والتقدير كاملاً «إن ضللت فإنّما أضلّ نفسي وإن اهتديت فإنّما أهتدي لنفسي بما يوحي إليّ ربّي» (تأمّل!!) - تفسير روح المعاني - تفسير الآية مورد بحثنا.

صحيح أنّ العقل هو مصباح مضيء، غير أنّ الإنسان ليس معصوماً، وشعاع هذا المصباح لا يمكنه كشف جميع حجب الظلام، إذاً تعالوا وتعلّقوا بنور الوحي الإلهي هذا حتى تخرجوا من الظلمات، وتضعوا أقدامكم على أرض النور.

وفي ختام الآية يضيف تعالى: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.

فلعلّكم تعتقدون أنّه تعالى لا يسمع ما نقول وما تقولون، أو أنّه يسمع ذلك ولكنّه بعيد، كلاّ، فهو (سميع) و(قريب)، فلا تعزب عنه ذرّة ممّا نقول أو ندعو.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾

التّفسير

ليس للكافرين مفرّ

الآيات الأخيرة من سورة سبأ تعود إلى الحديث في المشركين المعاندين الذين مرّ الحديث فيهم في الآيات السابقة عن طريق مخاطبة الرّسول الأكرم ﷺ فتصوّر حال تلك المجموعة عند وقوعها في قبضة العذاب الإلهي، كيف تفكّر في الإيمان، حين لا يكون لإيمانهم أدنى فائدة.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾(١).

ثمّة آراء بين المفسّرين في: متى يكون ذلك الصراخ والفزع والاضطراب؟ فبعضهم يرى أنّه عذاب الدنيا أو عذاب الموت، وبعضهم يرى أنّه يخصّ عقاب يوم القيامة، غير أنّ آخر هذه الآية، يشير إلى أنّ هذه الآيات جميعها تتحدّث عن الدنيا وعذاب الاستئصال، أو لحظة تسليم الروح، إذ يقول تعالى في الآية الأخيرة من هذا المقطع ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ وهذا التعبير لا ينسجم مع يوم

---

(١) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ جملة شرطية وجزائه محذوف، وتقديرها «لرأيت أمراً عظيماً» أو «لعجبت من أحوالهم».

القيامة، لأنّ الجميع يجمعون في ذلك اليوم للحساب، كما تشير إلى ذلك الآية (١٠٢) من سورة هود ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾.

وفي الآيتين ٤٩ - ٥٠ من سورة الواقعة أيضاً نقرأ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾.

وعليه فإنّ المقصود من جملة ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ هو أنّ هؤلاء الأفراد الكافرين والظالمين، ليس فقط لا يمكنهم الفرار من يد القدرة الإلهيّة فحسب، بل إنّ الله سبحانه وتعالى يأخذهم بالعذاب من مكان قريب منهم جدّاً.

ألم يدفن الفراعنة في أمواج النيل الذي كان المصدر الأساس لفخرهم، ألم تنخسف الأرض بقارون وكنوزه، و«قوم سبأ» الذين مرّت بنا قصّتهم في هذه السورة ألم يحيق بهم الهلاك من أقرب الأمكنة لهم، وهو ذلك السدّ العظيم الذي كان سبب عمران بلادهم وسبب حياتهم وحركتهم؟ لذا فإنّ الله يأخذ بالعذاب من أقرب الأماكن حتى يُعلم مدى قدرته وسطوته.

فأكثر السلاطين الظلمة قتلوا على أيدي أقرب أفراد حواشيهم، وأغلب المتسلّطين الجبابرة تلقّوا الضربة الأخيرة من داخل قصورهم.

ولو لاحظنا ما ورد في الكثير من الروايات من طرق السنّة والشيعة، لرأينا أنّ لهذه الآية مصداقاً في أحاديث «السفياني» (مجموعة على خطّ أبي سفيان وعصارة عصر الجاهلية يخرجون على أتباع الحقّ في عصر ظهور المهدي عليه السلام). حيث إنّ السفياني وجيشه تخسف بهم الصحراء وسط الطريق إلى مكّة، وذلك في الحقيقة واحد من مصاديق الآية ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾. حيث إنّهم وقعوا في العذاب الإلهي من أقرب النقاط لهم، وهي الأرض التي تحت أقدامهم. وقد وردت أحاديث كثيرة بهذا المضمون عن ابن عبّاس وابن مسعود وأبي هريرة وحذيفة وأُمّ سلمة وعائشة، كما يلاحظ في كتب السنّة، وكلّهم ينقلون عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم [1].

وقد أوردت تلك الأحاديث في تفسير هذه الآية في الكثير من كتب التّفسير الشيعية من أمثال تفسير القمّي، ومجمع البيان، ونور الثقلين، والصافي، والكثير من كتب التّفسير السنّية كتفسير روح المعاني، وروح البيان، والقرطبي.

---

(١) تفسير الميزان، ج ١٦، ص ٤١٩.

كذلك فإنّ العلاّمة المجلسي - أعلى الله مقامه - أورد العديد من الروايات عن الإمام الباقر عليه السلام بهذا الخصوص، والتي تشير إلى كونها أحد مصاديق هذه الآيات، باعتبار أنّ الخسف الذي يحلّ بالسفياني وجيشه هو مصداق للأخذ من مكان قريب[١].

وكما أشرنا مراراً فإنّ الرّوايات التي يوردها المفسّرون للتدليل على معنى الآية، إنّما هي المصاديق الأوضح، وليس معناها تحديد معنى الآية في ذلك.

الآية التي بعدها، تعرض وضع هؤلاء بعد أن أخذهم العذاب الإلهي تقول الآية الكريمة: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾[٢] ولكن ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾.

نعم فبحلول الموت وعذاب الاستئصال أُغلقت أبواب العودة كليّاً، وحيل كالسدّ المحكم بين الإنسان وبين أن يكفّر عن ذنوبه، لذا فإنّ إظهار الإيمان في ذلك الحين، كأنّه كائن من مكان بعيد، وهو إيمان اضطراري بسبب الخوف الشديد من العذاب الذي يعاين هناك، مثل ذلك الإيمان أصلاً لا قيمة له، لذا فإنّ الآية (٢٨) من سورة الأنعام تعبّر عنهم قائلة: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

«التناوش» من مادّة «نوش» - على زنة خوف - بمعنى التناول، وبعضهم اعتبروا أنّها بمعنى «التناول بسهولة» أي كيف يتناولون الإيمان من مكان بعيد ولم يكونوا يتناولونه من قريب؟

كيف يستطيعون الآن وبعد أن انتهى كلّ شيء، أن ينبروا لجبران خطاياهم ويؤمنوا، في حين أنّهم قبل هذا كفروا مع أنّهم كانوا يتمتّعون بالاختيار والإرادة، ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾.

ولم يكتفوا بالكفر فقط، بل إنّهم ألصقوا بالرّسول صلى الله عليه وآله وسلم وبتعاليمه مختلف أنواع التّهم، وحكموا أحكاماً خاطئة فيما يخصّ (عالم الغيب - والقيامة - والنبوّة): ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾.

«القذف» - كما قلنا - الرمي من بعيد، و«الغيب» هو عالم ما وراء الحسّ، والجملة

---

(١) بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ١٨٥ فيما بعد.

(٢) الضمير في كلمة «به» يعود على «الحقّ» على اعتبار أنّه أقرب مرجع له، ونعلم بأنّ الحقّ في الآيات السابقة يشير إلى «القرآن ومحتواه والمبدأ والمعاد ورسول الإسلام».

كناية لطيفة عمّن يطلق أحكامه على عالم ما وراء الطبيعة بلا سابق علم أو معرفة، كمن يرمي شيئاً من نقطة بعيدة، فقلّما يصيب الهدف، فظنونهم وأمانيهم وأحكامهم لا تصيب أهدافها أيضاً، فقد عدّوا الرّسول ﷺ (ساحراً) حيناً، وحيناً (مجنوناً) وآخر (كذّاباً)، وحيناً اعتبروا القرآن «نتاجاً فكرياً بشرياً»، ومرّة أنكروا الجنّة والنار والقيامة بشكل كلّي، كلّ هذه أنواع «للرجم بالغيب» أو «اصطياد الطيور في ظلام الليل» أو بعبارة أُخرى «القذف من مكان بعيد».

ثمّ يضيف تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ ففي لحظة مؤلمة، فصل بينهم وبين كلّ ثرواتهم وأموالهم، وقصورهم ومقاماتهم، وأمانيهم، فكيف سيكون حالهم؟ هؤلاء الذين كانوا يعشقون الدرهم والدينار، والذين كانت قلوبهم لا تطاوعهم في التخلّي عن أبسط الإمكانات المادية... كيف سيكون حالهم في تلك اللحظة التي يجب عليهم فيها أن يودّعوا كلّ ذلك وداعاً أخيراً، ثمّ يغمضون عيونهم ويسيرون باتّجاه مستقبل مظلم موحش.

جملة ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾، فُسّرت بتفسيرين:

الأوّل: هو ما عرضناه سابقاً.

الثاني: أنّه حيل بينهم وبين رغبتهم في الإيمان وجبران ما فاتهم... غير أنّ التّفسير الأوّل ينسجم أكثر مع جملة ﴿مَا يَشْتَهُونَ﴾.

فضلاً عن أنّ جملة ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قد تعرّضت إلى قضيّة عدم تمكّنهم من الإيمان عند الموت وعذاب الاستئصال كما ذكرنا، فلا يبدو أنّ هناك داعياً للتكرار.

من الجدير بالذكر أيضاً أنّ كثيراً من مفسّري هذه الآية اعتبروا هذه الآيات ممّا يخصّ الحديث في عقوبات الآخرة وندامة المسيئين في المحشر، ولكن الآية الأخيرة وبالأخصّ جملة ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ لا تنسجم مع هذا المعنى، بل إنّ المقصود هو لحظة الموت ومشاهدة عذاب الفناء.

وما أجمل ما يقول أمير المؤمنين علي (عليه أفضل الصلاة والسلام) حينما يصوغ بكلماته النورانية وصفاً للحظات فراق الروح لعالم الدنيا، ومفارقة نعمها:

«اجتمعت عليهم سكرة الموت، وحسرة الفوت، ففترت لها أطرافهم وتغيّرت لها ألوانهم!

ثمّ زاد الموت فيهم ولوجاً، فحيل بين أحدهم وبين منطقه، وإنّه لبين أهله، ينظر ببصره ويسمع بأُذنه. . .

يفكّر فيم أفنى عمره؟ وفيم أذهب دهره؟ ويتذكّر أموالاً جمعها، أغمض في مطالبها، وأخذها من مصرحاتها ومشبهاتها! . . .

فهو يعضّ يده ندامة على ما أصحر له عند الموت من أمره، ويزهد فيما كان يرغب فيه أيّام عمره، ويتمنّى أنّ الذي كان يغبطه بها ويحسده عليها قد حازها دونه»![1].

اللهمّ اجعلنا من الذين ينتبهون قبل فوات الفرص، ويجبرون ما فاتهم.

شِباك الدنيا ومغرياتها مشرعة لنا، والعدوّ شديد المراس، ولولا لطفك، فإنّ أعمالنا تافهة حقيرة. .

اللهمّ! اجعلنا من الذين يشكرون النعم حين حلولها، وأعذنا من الغفلة والغرور، واجعلنا من الذين لا يجزعون حين المصائب والشدائد. . .

. . . إنّك عليٌّ سميع.

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٠٩.

فهرس الجزء التاسع عشر

سورة العنكبوت

محتوى سورة العنكبوت! ٥
فضيلة هذه السورة! ٦
الامتحان الإلهي سنة خالدة ٨
بحث: الامتحانات في وجوه مختلفة ٩
لا مهرب من سلطان الله ١١
أفضل الوصايا بالنسبة للوالدين ١٤
بحث: الإحسان إلى الوالدين ١٦
شركاء في الانتصار أمّا في الشدّة فلا! ١٧
١ - السنن الحسنة والسنن السيئة ٢١
٢ - جواب على سؤال ٢١
إشارة لقصتي نوح وإبراهيم ٢٣
الآيسون من رحمة الله ٢٨
أسلوب المستكبرين في جوابهم لإبراهيم ٣٢
١ - أكبر الفخر! ٣٧
٢ - مواهب إبراهيم العظيمة ٣٨
المنحرفون جنسياً ٣٩
بلاء الانحراف الجنسي ٤١
وهذه هي عاقبة المنحرفين ٤٢
تنوع العذاب للظالمين ٤٧
دعامة واهية كبيت العنكبوت ٥٢
إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ٥٦
«أحاديث» ينبغي الإلتفاتُ إليها ٥٨
بحث: تأثير الصلاة في تربية الفرد والمجتمع ٦٠

اتّبعوا أحسن الأساليب في البحث والجدال ٦٤
بحوث: ١ - الرّسول ﷺ ... **الأمي** ٧٠
٢ - طريق النفوذ في الآخرين ٧٢
٣ - الكافرون والظالمون ٧٤
أليس القرآن كافياً في إعجازه؟! ٧٥
١ - دلائل إعجاز القرآن ٨١
٢ - التشبث بالحيل لإنكار المعجزات ٨١
٣ - المعجزات الاقتراحيّة ٨١
لابد من الهجرة ٨٢
الإقرار بالتوحيد في الباطن والشرك في الظاهر ٨٧
الشدائد وإشراق القطرة ٩٢
بحثان: ١ - الجهاد والإخلاص ٩٦
٢ - الناس ثلاثة أصناف ٩٨

سورة الروم

محتوى سورة الروم ٩٩
فضيلة سورة الروم ١٠٠
تنبؤ عجيب! ١٠١
بحوث: ١ - إعجاز القرآن من جهة «علم الغيب» ١٠٥
٢ - السطحيون «أصحاب الظاهر» ١٠٦
٣ - المطابقة التاريخية ١٠٧
عاقبة المسيئين ١٠٨
مصير المجرمين ومآلهم يوم القيامة! ١١٢
لم كان أحد أسماء القيامة «الساعة»؟! ١١٤
التسبيح والحمد في جميع الأحوال لله! ١١٥
آيات الله في الآفاق وفي الأنفس ١١٩
آياتُ عظمته - مرة أخرى ١٢٥
بحوث: ١ - دورة دروس كاملة لمعرفة الله ١٢٨

٢ - من هم المستلهمون من هذه الآيات؟ ١٢٩
٣ - عجائب عالم النوم ١٣٠
٤ - علاقة الحب بين الزوجين ١٣١
المالكية لله وحده ١٣٢
بحثان: ١ - التوحيد باعث داخلي قوي ١٤١
٢ - فطرة التوحيد في الأحاديث الإسلامية ١٤٦
أساس الفساد ومصدره أعمال الناس أنفسهم ١٥٨
بحوث: ١ - العلاقة بين الذنب والفساد ١٦٢
٢ - فلسفة السير في الأرض ١٦٣
٣ - الدين القيم ١٦٤
٤ - لا عودة في يوم القيامة! ١٦٥
انظر إلى آثار رحمة الله ١٦٦
الموتى والصم لا يسمعون كلامك ١٧٢
يوم لا ينفع الإعتذار ١٧٧
الأوّل: كيف يقسم المجرمون مثل هذا القسم الكاذب؟ ١٧٨

سورة لقمان

محتوى السورة ١٨٤
فضل سورة لقمان ١٨٥
من هم المحسنون؟ ١٨٦
الغناء أحد مكائد الشياطين الكبيرة ١٨٨
بحوث: ١ - تحريم الغناء ١٩٢
٢ - ما هو الغناء؟ ١٩٤
٣ - فلسفة تحريم الغناء ١٩٦
أولاً: الترغيب والدعوة إلى فساد الأخلاق ١٩٦
ثانياً: الغفلة عن ذكر الله ١٩٦
ثالثاً: الإضرار بالأعصاب ١٩٧
رابعاً: الغناء أحد وسائل الاستعمار ١٩٨

هذا خلق الله ١٩٨
احترام الوالدين ٢٠١
فما هي الحكمة؟ ٢٠٢
بحثان: ١ - من هو لقمان؟ ٢٠٧
٢ - صور من حكمة لقمان ٢٠٨
اثبت كالجبل، وعامل الناس بالحسنى! ٢١١
١ - آداب المشي ٢١٤
٢ - آداب الحديث ٢١٥
٣ - آداب العشرة ٢١٦
عشر صفات لله سبحانه ٢٢٢
في دوّامة البلاء! ٢٢٩
سعة علم الله ٢٣٢
بحوث: ١ - أنواع الغرور والخدع! ٢٣٥
٢ - خداع الدنيا ٢٣٦
٣ - هذه العلوم الخمسة مختصة بالله ٢٣٧

سورة السجدة

أسماء هذه السورة/ فضل تلاوة سورة السجدة ٢٣٩
محتوى سورة السجدة ٢٤٠
عظمة القرآن، والمبدأ والمعاد ٢٤١
بحث: إساءة الاستفادة من آية: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ ٢٤٧
مراحل خلق الإنسان العجيبة! ٢٥١
بحث: كيفية خلق آدم من التراب ٢٥٥
الندم وطلب الرجوع ٢٥٧
١ - استقلال الروح وأصالتها ٢٦١
٢ - ملك الموت ٢٦٢
جوائز عظيمة لم يطّلع عليها أحد! ٢٦٣
بحث: أصحاب الليل! ٢٦٩

عقوبات تربوية ٢٧١
شرطا الإمامة: الصبر والإيمان ٢٧٣
صمود واستقامة القادة الإلهيين ٢٧٧
يوم انتصارنا ٢٧٩

فهرس الجزء العشرون

سورة الأحزاب

سبب التسمية وفضلها/ محتوى سورة الأحزاب ٢٨٣
اتّبع الوحي الإلهي فقط ٢٨٥
ادعاءات جوفاء ٢٨٧
ميثاق الله الغليظ ٢٩٩
الامتحان الإلهي العظيم في مواجهة الأحزاب ٣٠٢
المنافقون في عرصة الأحزاب ٣٠٦
فئة المعوقين ٣١١
دور المؤمنين المخلصين في معركة الأحزاب ٣١٥
بحوث: ١ - ملاحظات هامة في معركة الأحزاب ٣٢٠
٢ - النبي أسوة وقدوة ٣٢٨
غزوة بني قريظة انتصار عظيم آخر ٣٣١
بحوث: ١ - غزوة بني قريظة ودوافعها ٣٣٣
٢ - أحداث غزوة بني قريظة ٣٣٣
٣ - نتائج غزوة بني قريظة ٣٣٥
٤ - الآيات وتعبيراتها العميقة! ٣٣٥
إما السعادة الخالدة أو زخارف الدنيا! ٣٣٧
بحث: لماذا يضاعف ثواب وعقاب المرموقين؟ ٣٤٠
هكذا يجب أن تكون نساء النبي! ٣٤٢
لكن ما هو المراد من «الجاهلية»؟ ٣٤٣

بحوث: ١ - آية التطهير برهان واضح على العصمة ٣٤٨
٢ - فيمن نزلت آية التطهير؟ ٣٤٨
٣ - هل أن الإرادة الإلهيّة هنا تكوينية أم تشريعية؟ ٣٥٢
٤ - جاهلية القرن العشرين! ٣٥٣
شخصية المرأة ومكانتها في الإسلام ٣٥٥
بحث: مساواة الرجل والمرأة عند الله ٣٥٨
تمرد عظيم على العرف ٣٦١
بحثان: ١ - أساطير كاذبة ٣٦٥
٢ - روح الإسلام التسليم أمام الله ٣٦٧
من هم المبلغون الحقيقيون؟ ٣٦٩
٣ - جواب عن سؤال؟ ٣٧٠
٤ - هل كان الأنبياء يستعملون التقية؟ ٣٧١
٥ - شرط الانتصار في التبليغ ٣٧٢
مسألة الخاتمية ٣٧٣
بحوث: ١ - ما هو الخاتم؟ ٣٧٥
٢ - أدلة كون نبيّ الإسلام خاتماً للأنبياء ٣٧٦
٣ - إجابة عن عدة أسئلة ٣٧٩
تحية الله والملائكة فرج للمؤمنين ٣٨٢
بحوث: ١ - ذكر الله على كل حال ٣٨٦
٢ - توضيح حول «لقاء الله» ٣٨٧
٣ - أجور المؤمنين معدّة منذ الآن! ٣٨٨
السراج المنير! ٣٨٩
جانب من أحكام الطلاق ٣٩٤
يمكنك الزواج من هذه النّسوة ٣٩٧
٢ - ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ ٣٩٨
بحث: جانب من حكمة تعدّد زوجات النبي ٤٠١
حل مشكلة أخرى في حياة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ٤٠٣

هل كان هذا الحكم في حق كلّ نساء النّبي ﷺ؟ ٤٠٦
حكم مهم آخر فيما يتعلّق بأزواج النّبي ﷺ ٤٠٦
١ - فلسفة هذا الحكم ٤٠٧
٢ - الروايات المخالفة ٤٠٨
٣ - هل يمكن النظر إلى زوجة المستقبل قبل الزواج؟ ٤٠٩
بحوث: ١ - الضيافة ٤١٦
٢ - مراعاة البساطة في الضيافة ٤١٧
٣ - حق الضيف ٤١٧
٤ - واجبات الضيف ٤١٨
الموارد المستثناة من قانون الحجاب ٤١٩
الصلاة على النّبي والسلام عليه ٤٢١
تحذير شديد للمؤذين ومختلقي الإشاعات! ٤٢٧
١ - ابدأ بنفسك! ٤٣١
٢ - العلاج من طريقين ٤٣١
٣ - موقع المسلمين القوي ٤٣١
٤ - اجتثاث جذور الفساد ٤٣٢
٥ - سنن الله الثابتة ٤٣٢
يسألون أيّان يوم القيامة؟! ٤٣٤
بماذا رموا موسى عليه السلام واتّهموه؟ ٤٣٦
قولوا الحقّ لتصلح أعمالكم ٤٣٩
حمل الأمانة الإلهية أعظم افتخارات البشر ٤٤٠

سورة سبأ

محتوى سورة سبأ ٤٤٧
فضيلة هذه السورة ٤٤٧
هو المالك لكل شيء والعالم بكل شيء ٤٤٨
أقسم بالله لتأتينكم القيامة ٤٥٢
العلماء يرون دعوتك أنّها حق ٤٥٥